

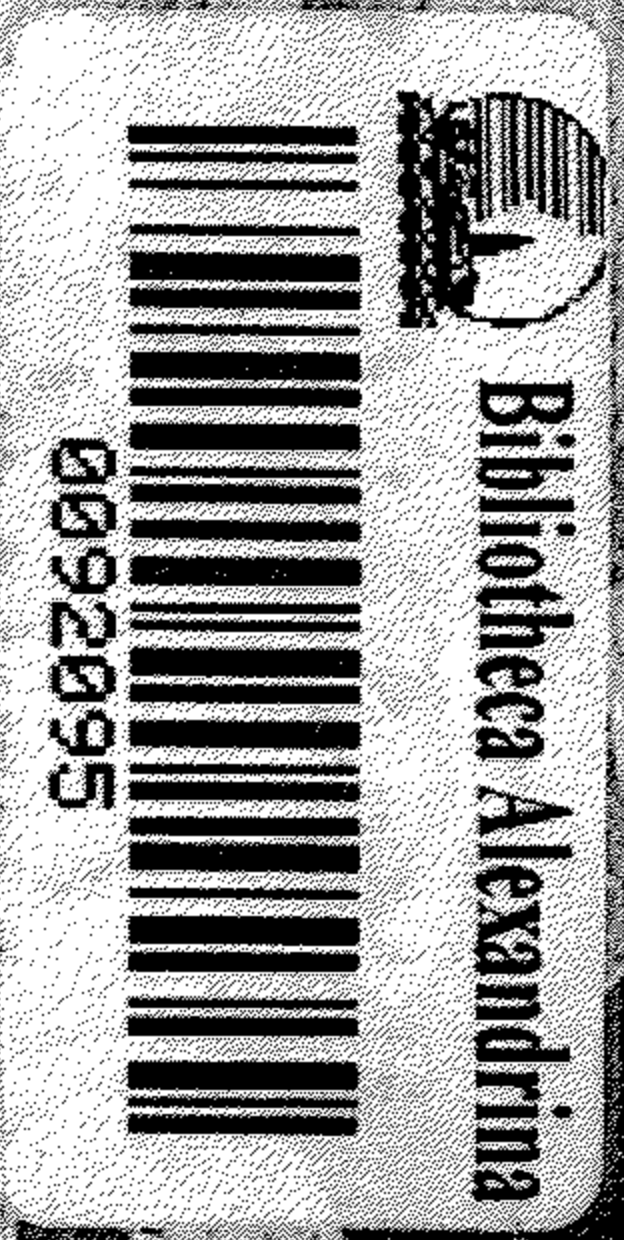
الكتاب
الكتاب

الْحُمْرُ وَالْبَيْضُ وَالسَّوَدُ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ألف: جساري ب. ناش
ترجمة: مصطفى أبو الخير عبد الرزاق



الخمر والبيض والسود
تاريخ الصراع العنصري في أمريكا

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمسحى المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

الْحُمْرُ وَالْبَيْضُ وَالسُّودُ

تاريخ الصراع العنصري في أمريكا

تأليف

جاري ب. تاش

ترجمة

مصطفى أبو الخير عبدالرازق



المؤسسة المصرية للطباعة والكتاب

١٩٩٥

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

RED, WHITE, AND BLACK

The Peoples of Early America

by

Gary B. Nash

الفهرس

الموضوع	الصفحة
شكر وتقدير	٧
تمهيد	٩
مقدمة	١٣
الفصل الأول	
ما قبل كولومبس	١٩
الفصل الثاني	
الأوربيون يصلون الى الأمريكتين	٤١
الفصل الثالث	
التقاء الحضارات عند خليج تشيزابيك	٦١
الفصل الرابع	
الحضارات تلتقى فى الشمال الشرقى	٨٥
الفصل الخامس	
نماذج التفاعل الهندى الأوربى	١٠٧
الفصل السادس	
الحضارات الساحلية : المقاومة والتكيف	١٤١
الفصل السابع	
أوروبا وإفريقية والعالم الجديد	١٨١
الفصل الثامن	
رد الفعل الإفريقى تجاه الرق	٢٠٧

الموضوع	الصفحة
الفصل التاسع	
تحول الحضارة الأوربية	٢٤٣
الفصل العاشر	
حروب تكوين الامبراطورية والاستراتيجيات الهندية للبقاء	٢٧٣
الفصل الحادى عشر	
امتزاج الشعوب	٢١٧
الفصل الثانى عشر	
الحرر والبيض والسود عشية الثورة	٢٤٣

شكر وتقدير

بدأت صفحات هذا الكتاب تتضح صورتها في ذهني ، منذ ثلاث سنوات ، عندما شرعت أنا وألكسندر ساكستون Alexander Saxton ، وستيفان ثيرنستروم Stephan Thernstrom في إعادة التخطيط للمقرر التمهيدي للتاريخ الأمريكي ، في جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجيليس Los Angeles . وكان جهدنا متجها الى جعل التاريخ الأمريكي أكثر فهما وقبولا لدى الطلبة الدارسين على اختلافهم عرقيا ، واجتماعيا ، وفكريا بدراساتهم لعملية التغير التي مر بها شعب له خلفيات حضارية شديدة التباين ، تفاعلت تفاعلا مشتركا خلال أربعة قرون من الزمان . وبالرغم من أني لم أتبين خطورة هذه الفكرة ، في أول الأمر ، الا أني اكتشفت أنها تتطلب مني قراءة واسعة في مجالات لم يتوقف ذهني عندها كثيرا أثناء الخمس عشرة سنة التي قضيتها في دراسة وتدريس تاريخ المستعمرات الأمريكية أنثروبولوجيا - أي من حيث دراسة أصل الجنس البشري وسلالاته ، وتطوره ، وعاداته ، ومعتقداته ، وتاريخ الأجناس البشرية ، والتاريخ الأفريقي ، وتاريخ أمريكا اللاتينية ، فقد كنا نعبر عن فكرنا بطريقة ملتوية ، ولقد حاولنا في هذا الكتاب ، أن ننتقي جيدا ما نقرؤه ونفكر فيه ونكتبه بطريقة تعكس نزعاتنا الثقافية . ولم يكن الأمر يحتاج الى أكثر من تغيير « زاوية الرؤية » لنوضح أن التاريخ الأمريكي القديم « يمكن » أن يصبح هو التاريخ القديم لسكان أمريكا اذا ما وسعت كثيرا نطاق قراءاتي وتفكيري حول هذا الموضوع .

وخلال هذه الخطوات من التفكير ، وفي مراحل تأليف هذا الكتاب ، تلقيت الكثير من المعلومات ، والمساعدة ، والتصحيح ، والتشجيع ، والمساندة على مختلف الدرجات من السادة : فيليب بوردين Borden ، وروبرت جريفتث Griffith ، وفرانسيس جيننجز Jennings ،

■ **Terrence O. Ranger** وجورج فيليبس ، وتيرينس ورينجسر
ونيل سالزبرى **Neal Salisbury** ، ومارجريت ستروبل
Margaret Strobel ، فضلا عن عدد لا يحصى من الطلبة والخريجين
فى جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجيليس ، الذين ساعدوني
ببصيرتهم النافذة ، واهتمامهم البالغ لمواصلة هذا العمل .

جارى ب . ناش

تمهيد

من الواضح تفرد هذه الدراسة وتميزها منذ البداية . وعلى خلاف الطريقة التقليدية في دراسة التاريخ الأمريكي القديم ، لم يبدأ جاري ناش Gary B. Nash بالوثيقة الانجليزية الأولى على بلايموث روك Plymouth Rock ، ورونوك آيلاند Roanoke Island ، ولا برحلة كريستوفر كولومبس ، بل بدأ بنحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، عندما انتشر الأمريكيون الأوائل على أرض القارة . وفي الوقت الذي نجح فيه الأوروبيون في شق طريقهم الى « العالم الجديد » القديم ، كانت توجد حضارات وطنية مختلفة ، منذ عدة آلاف من السنين . ولما كان ناش يعارض دراسة التاريخ على أساس عرقى ، فسواء لذلك يدرس محاولة اضافة الطابع الأوربي على العالم الجديد باعتبارها احدى الفترات الحرجة في نشأة وتطور مجتمع المستعمرات . فتاريخ الشعب الأمريكي ليس قصة المستوطنين الأوروبيين في الأساس ، بل هو التفاعل المعقد بين ثلاث مجموعات حضارية كبرى هي : حضارة البيض والحر والسود : هي « قصة أقلية من الانجليز تفاعلت مع أغلبية من قبائل الايروكوا Iroquois ، والدلاوير Delawares ، والناراجانسيت Narragansetts ، والبيكوت Pequots ، والماهيكان Mohicans والكتاوبا Catawbass ، والتوسكارورا Tuscaroras ، والكريك Creeks ، والشيروكي Cherokees ، والشوكتاو Choctaws ، والايو Ibos ، والماننجو Mandingos ، والفولا Fulas واليوروبا Yorubas ، والأشانتى Ashantis ، والألمان ، والفرنسيين ، والأسبان ، والسويديين ، والاييرلنديين من أصل اسكتلندي » . ويرجع ظهور الأوروبيين كمجموعة سائدة ومسيطرة الى مهارتهم التنظيمية ، وبراعتهم الحربية ، ومعرفتهم بفنون الخداع والنفاق وأساليب القمع .

عندما اختارت يد الله ، في الثلاثينات من القرن السابع عشر ، من بين الشعب الانجليزى ، جماعة من الرجال ، ووجهتها الى أرض كتعان الجديدة ، هذه ، أصدر القس البيوريتانى المتزمت ، بيتر بولكللى Peter Bulkeley ، بيانه التاريخى الذى يقول : « نحن شعب

نيو انجلاند ، فى هذه المدينة القائمة على هذا المرتفع ، على مرأى من سكان الأرض جميعا ، لتنظر الينا عيون العالم ، لأننا نلرنا أنفسنا أن نكون شعبا على عهد وميثاق مع الله » . وعلى غرار كثير من المؤرخين المحدثين يرفض ناش الفكرة العامة القائلة بأن البيوريتان كانوا أفرادا يثرون الكآبة والضجر ، ويفتقدون روح الدعاية والمرح ، ويكتبون الشبهوه الجنسية ، وذلك ما شجع هنرى ل . مينكين Henry L. Mencken على تعريف البيوريتانية المتزمتة بأنها « الخوف المستمر المزعج من احتمال وجود شخص ما ، فى مكان ما ، سعيدا » . ولكنه لم يستثن البيوريتان من تأييد الدكتاتورية ، والتعصب ، والعنف (وليس من الضرورى أن نأخذ برأى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى بأن البيوريتان ، والتقاليد المتحدرة عبر الأجيال السابقة هى عوامل ساعدت على اغتيال الرئيس جون كيندى) (*) . ولا ريب أن نيوانجلاند ، كما أثبت ناش لم تعد ذلك المجتمع المتجانس الذى تخيله بعض مؤسسيه ، تحولت الى منطقة صرفت فيها روح التجارة والمضاربة والعمل انتباه الأجيال الجديدة عن الطريق القويم للخلاص . وعلى كل ، فبدلا من أن يقصر ناش نفسه على دراسة المناورات السياسية الداخلية ، ومحاولات التظاهر بالتقى والورع انصرف الى دراسة تفاعل البيوريتان مع القبائل الهندية المتعددة ، التى وجدوا أنفسهم بينها أول الأمر . فالهندي الأحمر يمثل للبيوريتان تحديا حقيقيا ، ليس فقط لأنه مالك الأرض التى يتوقون اليها ، بل أيضا لأنه يظهر وكأنه « الصورة العكسية للانسان المتحضر » ، والتى تفتقر الى معظم القيم التى يقدرها البيوريتان من حيث اللطف ، والتقوى المسيحية ، والعزيمة ، والعمل الأخلاقى ، . وبالنسبة للهندي ، من جهة أخرى ، يرى ناش أن المستوطنين الأوائل قد أعطوا للهندي نموذجا لمثالب الرجل الأبيض من صور الخداع ، والنكت بالمهد ، والعجرفة ، والوحشية . فيقول ناش : « كنا نرى أن الحكمة تقتضى أن نشن الحرب بلا هوادة ازاء تهديد الهنود الأحمر ، بدلا من معاقبة اخواننا الانجليز الذين بدعوا بالعنف » . هذا الاحساس العميق برسالة التبشير التى عمت البيوريتان ، وكذلك الاحساس بالحاجة الى حماية أمنهم الداخلى من « شياطين العالم المجهول » هو الذى جعل الكويكرز Quakers (**) ، والهرطقة ، والعرافين ، وكذلك الهنود الأحمر ضحايا لهم ، مع اختلاف فى درجة الضراوة والوحشية .

(*) كان جون كيندى أول رئيس كاثوليكي للولايات المتحدة التى يغلب عليها الطابع البروتستنتى .

(**) الكويكرز : جماعات دينية يسمى اعضاؤها بالعصائيين أو المهترين ، وتقسم اجتماعاتهم عادة بفترات من الصمت الطويل - (المترجم) .

إن القصة المأساوية للبيوريتان ، وعلاقتهم بالهنود الحمر ، بالرغم من أنها لاتزيد عن جزء صغير من دراسة جاري ناش للاحتكاك الأوروبي بالهنود الحمر ، تصور المنظور الواسع لدراسته لتاريخ أخفاد الأجيال السابقة (مثل البيوريتان) . ولقد أولت الدراسات العنصرية القليلة للمؤرخين الأمريكيين السابقين اهتماما كبيرا بالصراعات العرقية والحضارية بين الهنود الحمر والأوروبيين البيض والزنج السود وهي صراعات نابعة من نظرة الرجل الانجليزى الى الهنود الأحمر فى بادى الأمر ، والصور المتناقضة التى نجمت عن علاقتهم ببعض ، والتوقعات الأولى للمستوطنين الأوروبيين والهنود الحمر ، وكذلك شهوة الرجل الأبيض النهم الى اقتناء المزيد من الأرض والثروة ، وكان الصراع يتسم بالغضب والوحشية ، حتى أمكن تبرير إبادة الهنود بأنها انقراض لشعب همجى ، حقير ، لا حضارة له . ولقد أوضح ناش أن العلاقة بين الأوروبي والهندي كانت تختلف من منطقة لأخرى . وبالرغم من تعرض حضارة القبائل الهندية الساحلية أخيرا الى الانهيار والخراب ، يبرهن ناش كيف أن المقاومة المستمرة لهذه القبائل أعطت لحضارات القبائل الداخلية الوقت الكافى « لتتكيف مع الوجود الأوروبي ، وتبتكر استراتيجياتها للبقاء مع تحرك حدود الزاحفين الى الغرب قريبا منهم » . كما أوضح ناش نقطة أخرى بصورة جلية ، وهى أن كثيرا من سكان المستعمرات الأوائل ، قد تصوروا مجتمعا فاضلا يقوم على مفاهيم « التبادل التجارى ، والتعلق بالقيم الروحية ، والمعيشة فى جماعة ذات مصلحة مشتركة ، فى وطن واحد ، وفى ظل قوانين واحدة » . ولكن ، مع مرور الوقت ، ومع النمو المطرد للسكان البيض « أصبح السكان الوحيدون فى أمريكا الشمالية الذين تمسكوا بهذه القيم ، ونظموا مجتمعهم على أساسها مجتمعات هامشية » .

وإذا كان الهنود الأحمر قد أثار بين البيض ردود فعل عنيفة بسبب وجوده واختلافه الحضارى معهم ، أثار الزنوج أيضا كراهية فطرية شديدة بين أناس اعتبروا اللون الأسود تجسيدا حيا للشر والقبح ، ومرادفا للوثنية ، والهمجية ، والبهيمية . وفى دراسة لأصول التمييز العنصرى والرق ، قام ناش بفحص واستعراض الحضارة الوافدة . وقد ساعدت نتائج خبرة العمال الزنوج ومعاناتهم لقرون عديدة فى أمريكا الشمالية على تأييد وتقوية الانطباعات الأولى لدى الزنوج ، وخلقت ما عبر عنه ناش بصدق ، بأنه أحد التناقضات الظاهرية الكبرى فى التاريخ الأمريكى ، « حيث أدخل نظام الرق الذى ظل مجهولا لمدة قرون فى أمريكا وهى الأرض التى توصف بأنها رائدة الحرية ، ومانحة الفرص الشخصية » . وفى تساؤل له مع نفسه عن سبب ذلك ، يدرس ناش

أيضا الأمريكيين-الزنجى باعتبارهم « مشاركين نشطين فى عملية الحضارة » . ويصف مدى استجابتهم لعملية الرق . وفى تصديره للعلاقة بين الزنجى ومستعبدتهم بأنها « تصادم أو تفاعل بين حضارتين » يرى ناش أن « التحول الحضارى الطارىء على ثقافة العبيد لا يتضمن فقط التكيف مع ضريبة الارتباط اليومى بالأرض حتى الموت فى المزارع ، بل يشمل أيضا تعلم استراتيجيات البقاء ، والمقاومة ، والتمرد والعصيان » .

وبهذا الكتاب ، يركز ناش انتباهنا على هؤلاء « الصامتين تاريخيا » ، ولا يقصد بذلك العبيد ، والهنود الحمر فقط ، بل أيضا ، البيض المأجورين والبيض الذين حملوا على الهجرة اضطرابا ، وأولئك الذين وفدوا الى أمريكا تحطيمهم الآمال العريضة ، ولكنهم ظلوا فى أدنى طبقة فى مجتمع سكان المستعمرات البيض . ومهما كانت أسطورة النجاح الأمريكى ، والفرص الواسعة بلا حدود ، اكتشف ناش الوجه الآخر للقصة . وإذا كانت الديمقراطية السياسية قد انتشرت فى مجتمع المستعمرات الأمريكية ، فإن الديمقراطية الاقتصادية كانت تنحسر ، وتتضاءل . ويقول ناش ان « المجتمع المفتوح أو الحر وتوافر فرص كافية فى القرن الثامن عشر للمقاومات التجارية والقللة النسبية للقيود ، التى فرضتها الحكومة عوامل ، أدت بشكل متناقض ظاهر الى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وإلى تركيز القوة الاقتصادية فى أيدي طبقة عليا ضئيلة من المجتمع ، فتحول المجتمع الى شيء شبيه بالمجتمعات الأوروبية التى سبق أن هربوا منها » . وعلى طريقة علماء الدراسات الإحصائية للسكان (الديموغرافيين) المحدثين ، أثبت ناش أن النمو المطرد للسكان ، والتقدم الاقتصادى نشأ عنه تفتيت مستمر للثروة ، وتعدد فى الطبقات الاجتماعية ، وتزايد ملحوظ فى انعدام الملكية . ولئن ظل المجتمع الأمريكى يمثل فى فجر الثورة أرض الفرص الوفيرة أمام معظم الناس ، فإن ناش يذكرنا بأن نحو ربع السكان كانوا مستعبدين ، أو طردوا من أراضيهم ، وأن « الرعب بالنجاح فى مجتمع المستعمرات الأمريكية كان قائما أساسيا على استغلال العامل الزنجى ، وأرض الهندي ، بصورة لا يمكن نسيانها » .

ان هذا الكتاب الذى يتوقع القارئ منه معالجة تقليدية لموضوعات تقليدية ، انما يوحى بمنظور ومنهج مختلفين تماما . والقول بأن هذه رؤية « غير مألوفة » للتاريخ الأمريكى المبكر ، انما يؤكد أن تناول المؤرخين لهذا التاريخ كان يتسم بالسذاجة ، وضيق الأفق .

ليون اف . ليتواك

(الناشر)

مقدمة

« ان اللبنة انجليزى » ، هذا ما قاله القس الانجليزى الورد جون آيلمر J. Aylmer ، وهو يحض رجال أبرشيته فى سنة ١٥٥٨ على التمسك بالتقوى وحب الوطن ! . ومنذ ذلك الحين ، ترددت هذه الفكرة ، وان لم تذكر أبدا بهذا النص بصورة مباشرة فى كتب التاريخ لدينا . وان غالبيتنا ، وكذلك أطفال المدارس ، وطلاب الكليات ، والمواطنين الذين نفترض أنهم على دراية وعلم ، كل هؤلاء تربوا على ما حسبناه أعظم قصة للنجاح فى التاريخ البشرى - القصة البطولية عن كيف حاولت مجموعة شجاعة ، فخورة من المتحدثين بالانجليزية أن تقلب قوانين التاريخ ، باثبات ما يمكن أن تفعله النفس البشرية المتحررة من قيود التقاليد ، والخرافات والسلطة الجائرة ، فى ذلك الركن المكتشف حديثا من الكرة الأرضية . يبدأ تاريخ المستعمرات الأمريكية عند غالبية الأمريكيين بالسير والتر رالى ، وجون سميث ، ويستمر متصلا من جون وينشروب ، ووليام برادفورد حتى جوناثان ادواردز ، وبنيامين فرانكلين ، وينتهى عشية الثورة بعدد ضخم من المستوطنين الفاتحين الذين استعملوا لغرس أنفسهم فى هذه الأرض ، ومواجهة استبداد وطنهم الأم المتزايد .

ولكن فى الستينات هاجم المؤرخون المتحررون البيض ، والمواطنون الأمريكيون الذين تضرب جذورهم فى أفريقية وآسيا والمكسيك ، أو فى الحضارات الوطنية من أمريكا الشمالية ، هاجموا هذه النظرة العرقية لأحداث التاريخ . كما أن إيمان المستعمرين الأوائل والمستكشفين بأهمية أوربا المفرطة جعلهم يغضبون من أهمية قارة فى اتساع أمريكا الشمالية ، كذلك وجد المؤرخون الأمريكيون صعوبة فى اعتبار هذه الفترة من تاريخنا الخاص قصة للتفاعل بين أقلية من الانجليز مع أكثرية من الايروكوا ، والديلاوير ، والبيسكوت ، والماهيكان ، والكتاوبا ، والتومسكارورا ، والكريك ، والشيروكى ، والشوكتاو ، والايبو ، والماندى ، والفولا ، واليوروبا ، والأشانتى ، والألمان ، والفرنسيين ، والأسبان ، والسويديين ، والأيرلنديين من أصل اسكتلندى ، فاكثفوا بإشارات عابرة فقط الى بعض العناصر الحضارية التى كانت موجودة فوق القارة .

وحديثا ، حاول رجال التاريخ الأمريكيون ، الذين تعلم معظمهم في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أن يصححوا التاريخ المتحيز للبيض وبطولتهم في الكتب المقررة بالمدراس الثانوية ، إلا أن جهودهم لم تثمر سوى زيادة بسيطة في عدد العظماء من الأبطال الوطنيين بعد أن أضافت اليهم بعض المواطنين من غير البيض . وهكذا تعدلت النظرة الأساسية الى كريسبس أتوكس Crispus Attucks ابن بوسطن ، ذلك الصياد نصف الهندي ونصف الزنجي ، الذي كان أول من سقط في مذبحه بوسطن ، وكذلك الجنرال « الى باركر Eli Parker » ، ذلك الهندي الذي ساعد الشمال في كسب الحرب الأهلية ، ثم خدم أخيرا صديقه أوليسس جرانث Ulysses Grant عندما أصبح الأخير رئيسا للجمهورية ، وكذلك سيزار شافيه Caesar Chavez زعيم عمال المزارع بالولايات المتحدة ، الذي أحرز مكاسب عظيمة لعمال شيكاغو الزراعيين .

ولكن هذا الضرب من إعادة النظر في تاريخنا لن يؤتى بنتائج كبيرة ، وإن أسهم في زيادة الأساطير القديمة عن أبطال التاريخ . ولكن ، هل نعتبر ذلك « تاريخا جديدا » كاملا إذا اقتصر الأمر على تغيير النظرة الأحادية اللون للشخصيات الى النظرة المتعددة الألوان ، مع بقاء الخط التاريخي دون تغيير ؟ أى استمرار تقييم أحداث الماضي من منظور المجتمع الأبيض باعتبار أن الهنود والزنوج في فترة المستعمرات شعوب خاملة ، يتقرر مصيرها بأكملها على يد المستوطنين البيض ؟!

وفقدان الذاكرة التاريخي هذا الذي لطخ ماضينا كثيرا ، يكون علاجه بالنظر الى التاريخ الأمريكي ، باعتباره تفاعلا بين كثير من الشعوب ذات الخلفية الحضارية العريضة ، والجذور الاجتماعية الضاربة في التاريخ : ويعنى ذلك بالنسبة « لفترة المستعمرات » ألا نفهم فقط كيف « اكتشف » الانجليز وغيرهم من الأوروبيين أمريكا الشمالية ، وكيف شرعوا في غرس حضارتهم هناك ، بل نفهم أيضا كيف شاركت المجتمعات التي كانت في أمريكا الشمالية وأفريقية منذ آلاف السنين ، في هذه العملية بشكل جوهري ونشط ، إذ لم يكن الزنوج مجرد عبيد ، ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض . وعلينا أن نصدر حكمتنا على الشعوب الصامتة ، التي أسدل عليها ستار النسيان مع أنها أثرت بقوة في مسيرة تقدمنا التاريخي كأمة .

لم يكن الهنود ولا الزنوج مجرد شعب « بدائي » يمكن أن نطحنهم تحت رحي « التفوق » الحضاري الأوروبي . فقباائل البيكوت ، والناراجانسيت في جنوب نيوانجلند مثلا ، لم يتأثروا بحضارة البيوريتان فقط ، بل استجابوا أيضا ، بطرق مختلفة لمجيء الأوروبيين . والمهم أن

نفهم رؤية كل منهما للآخر ، فكلتا النظرتين أدت الى قرارات وردود أفعال معينة في ضوء اهتمام كل منهما بمصالحه الخاصة . وقد عبر بنيامين فرانكلين عن ذلك ، منذ أكثر من مائتي سنة بقوله : « نحن نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم وأساليبهم في الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التي نعتقد أنها بلغت حد الكمال ، من حيث اللطف والكرامه ، وهم يعتقدون نفس الشيء بالنسبة لما لديهم » (١) .

لقد تعودنا أن ندرس ، بنفس الدرجة ، كيف ابتكر الأوروبيون وسائل مختلفة للتغلب على هؤلاء الناس الذين اجتاحتهم أرضهم . ولكن هذه الشعوب المحلية ، في نفس الوقت ، رسمت لنفسها استراتيجيات للتكيف مع الوجود الأوروبي ، ولوضع هذا الوجود في خدمة احتياجاتهم الشخصية . لقد امتزج الأوروبيون بمختلف جذورهم الاجتماعية والسياسية بالهنود ذوي التقاليد القبلية المختلفة ، في عملية تفاعل سياسي ، واقتصادي ، وثقافي ، لأكثر من مائتي سنة ، في الطرف الشمالي الشرقي من القارة ، وإذا بسطنا نظرنا الى الهنود على أنهم كانوا مجرد ضحايا للعدوان الأوروبي ، فاننا نغفل كيف أن القبائل العديدة ، الذين كانوا يتطورون ذاتيا من عدة قرون ، قبل أن تلمس أقدام الأوروبيين أرض القارة ، قد استجابوا بصورة بناء وقوية للوافدين عبر المحيط ، وبذلك ، كان لهم أثرهم في تشكيل مسيرة الاستيطان الأوروبي .

يتخذ هذا الكتاب مدخلا حضاريا لتاريخنا المبكر ، وأقصد بذلك ، أننا سننظر الى « أمريكا الشمالية » كمكان تجمع فيه عدد من الحضارات المتباينة في فترة مهمة من التاريخ - من حوالي ١٥٥٠ م الى ١٧٥٠ م - وبتعميم كبير ، يمكننا تحديد هذه المجموعات الحضارية بأنها : الهنود ، والزنوج ، والأوروبيون . وبتعبير آخر ، ان هذا الكتاب ، ليس عن تاريخ المستعمرات الأمريكية ، بل هو عن تاريخ « شعوب » أمريكا الشمالية خلال القرنين اللذين سبقا الثورة الأمريكية .

تختلف كل من هذه المجموعات الثلاث عن بعضها البعض اختلافا هائلا . فاختلاف الايروكوا في خصائصهم الحضارية عن قبائل الناتشيز Natchez كاختلاف الانجليزى عن المصرى ، ويختلف الهاوسا Hausas عن اليوروبا كاختلاف البيكوت عن الكريك . وقد تحارب الفرنسيون والأسبان والانجليز من أجل النفوذ والقوة في القرن السابع عشر ، تماما كما فعل الهورون Hurons ، والايروكوا ، والكريك ومهمتنا أن نكشف عما حدث ، عندما احتكت شعوب مختلفة الأشكال من قارات مختلفة في مرحلة معينة من التاريخ . انها عملية « تقسم » و « تغيير » ثقافى واجتماعى ، سنهتم بها بشكل أساسى : كيف

تأثرت ، وكيف تغيرت مصائرهما بتجربة احتكاكها بالحضارات الأخرى
فيما يسميه الأنثروبولوجيون « الثقافة » (أو « التبادل الثقافي »)^(*) ،
ويسميه رجال التاريخ « التغير الاجتماعي » ، ومع كلتا التسميتين ، علينا
أن نذكر أننا ندرس عملية التفاعل الديناميكي ، التي شملت تاريخ
الأمريكيين ، والأوروبيين ، والزنج في أمريكا الشمالية في القرنين
السابع عشر والثامن عشر .

ويحسن أن نذكر ، أيضا ، أننا حين نتكلم عن « مجموعات ثقافية »
أو « مجتمعات » إنما نتكلم بأسلوب تجريدي . « فالمجتمع » هو مجموعة
من الناس منظمة فيما بينها لتحقيق حاجاتها الأساسية ، خاصة حاجتها
إلى البقاء في المقام الأول . أما « الثقافة » فهي تعبير أوسع ، يضع كل
الخصائص النوعية للمجتمع من وسائل تقنية لتوفير ضروريات الحياة
ورفاهيتها ، وأشكال الملابس والمأكل ، والتنظيمات الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية ، وأنواع الوقاية ، والمسكن ، والدين ، واللغة ،
والفن ، والقيم ، وطرق تربية الأطفال . . . وهلم جرا ، نتيجة اتصالهم
الفعل ببعضهم البعض . وبتبسيط أكثر ، تعني « الثقافة » (أو « الحضارة »)
طريقة الحياة ، والاطار الذي تفهم فيه أية مجموعة من الناس - المجتمع -
العالم من حولها ، وتتصرف في دائرته . ولكن كلمتي « ثقافة » و« مجتمع »
تتضمنان كذلك قواعد وأشكال السلوك والصفات الشخصية للأفراد عندما
نشير إلى « السمات الحضارية » (الثقافية) ، أو « السلوك الجماعي » .
وفي توظيفنا لهذه المصطلحات مخاطرة بأن نفقد الرؤية الصحيحة للأفراد
الذين لا يتشابه الواحد منهم مع الآخر في تكوين هذه الثقافة .

ولأننا أمريكيون ، ننتمي إلى وطن واحد ، وتكلم لغة واحدة ،
ويظننا قانون واحد ، ونمارس أنظمة اقتصادية وسياسية واحدة ،
مما كون « الثقافة » الأمريكية ، ولا يعني ذلك أننا على قدم المساواة
فيما بيننا ، والا لما كانت التوترات العنصرية أو الصراعات السياسية .
ويقال نفس الشيء عن الألمان والكوريين والنيجيريين ، فضلا عن أن بعض
الأمريكيين قد يشتركون في الخصائص مع أفراد نيجيريين أو كوريين
أكثر من اشتراكهم مع بعض أقرانهم الأمريكيين . ورغم ذلك ، فإن
الأمريكيين ينظمون حياتهم ، ويتصرفون عامة بشكل مختلف عن بقية
الشعوب الأخرى في العالم . وهذا يقدم لنا - على الأقل - مع وعينا
بمشكلات المسئل الحضارية أو الثقافية للتاريخ ، وسيلة لفهم تفاعل هذه
المجموعة الضخمة من الناس ذوي الخلفيات الحياتية الشديدة الاختلاف

(*) الثقافة : تعديلات تطرا على ثقافة بدائية نتيجة احتكاكها بمجتمع أكثر تقدما . .
هذا وسنراعى استعمال هذا اللفظ دائما - (المترجم) .

والذين وجدوا أنفسهم يتعايشون معا فى جزء من « العالم الجديد »
لقرون عديدة مضت .

ومن الضرورى أن نراعى أيضا ، ونحن نتكلم دائما عن المجموعات
العنصرية والتفاعل العنصرى أن هذه الاصطلاحات لاتدل على مجموعات
من البشر مختلفين وراثيا ، ذلك أنه طوال نصف قرن صب علماء
الأنثروبولوجيا اهتمامهم وجهدهم فى محاولات تصنيف شعوب العالم
ابتداء من أقزام جزيرة بورنيو Borneo الى الآلوت Aleuts
فى ألاسكا طبقا للفروق الوراثة ، فقاوسوا الأنف وحجم الجمجمة ،
ولاحظوا شعر الجسم ، ووصفوا الشفاه ، وصنفوا الشعر ولون العين ،
فى محاولة لتحديد علمى لمختلف الخصائص الجنسية للانسان ،
ثم اثبات أن هذه الخصائص تتفق مع درجة الاختلاف فى « التقدم
الحضارى » . ولذلك لاندهش أن تؤدى هذه الجهود المكثفة لعلماء
الأنثروبولوجيا البيض الغربيين الى القول بإمكانية البرهنة « علميا »
على سيادة وتفوق الشعوب القوقازية فى العالم .

واليوم ، قضت علوم الوراثة على محاولة الخمسين عاما هذه ،
وأصبحنا الآن أقل اقتناعا بأن الفروق الوراثة المميزة تفصل بين
« المجموعات الجنسية » كما صنفها الأنثروبولوجيون من قبل .
وباستعادتنا للأحداث الماضية ، والتأمل فيها ، يظهر لنا بجلاء أن مجموعات
مختلفة من الأوروبيين فى العالم الجديد شكلت قواعد وقوانين مختلفة من
العلاقات العرقية العنصرية على أساس حاجاتهم الشخصية ، واتجاهاتهم
فيما يتعلق بتصنيف الناس والتمييز بينهم .

وهكذا ، نجد أساسا ضعيفا للتمييز بين المجموعات الحضارية على
المستوى البيولوجى أو العضوى . فنحن لا نبحث فى جماعات مختلفة
وراثيا ، بل نبحث فى سكان من البشر من مختلف أنحاء العالم ذوى
اختلافات ثقافية . وفوق ذلك كله ، نفحص بعناية الطريقة التى تعاملت
بها هذه الشعوب كل منها مع الآخر ، وكيف تطورت على مدى عدة
قرون ، بصورة تشكل مجرى التاريخ الأمريكى للأجيال القادمة .

المراجع

« Remarks Concerning the Savages of North Franklin, » ed. Albert H.
Smyth (New York : The Macmillan Co., 1907), 10 : 97 .

الفصل الأول

ما قبل كولومبس

لا يبدأ تاريخ الشعب الأمريكي بعام ١٤٩٢ م . كما تذكر أغلب كتب التاريخ ، بل يبدأ بأكثر من ٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، حيث كان أول اكتشاف لما عرف فيما بعد بأمريكا . وهكذا ، يمكننا أن نبدأ ببعض الأسئلة البسيطة التالية : من هم السكان الأوائل « للعالم الجديد » ؟ ومن أين أتوا ؟ وكيف كانت أشكالهم ؟

تكاد تأتينا كل الاجابات عن هذه الأسئلة عن طريق علماء الآثار الذين نقبوا عن مواقع الحياة الأولى في أمريكا الشمالية ، بكشفهم عن أدوات الحضارة القديمة من أوعية ، وآلات ، وحلى ، وغير ذلك ، ثم جمعوا أجزاء الهياكل العظمية « للأمريكيين الأوائل » ، وباستخدام الكربون ١٤ لتحديد العمر أرخوا لوصول الانسان الى أمريكا بحوالى ٣٠٠٠٠ سنة ق.م ، مع بعض محاولات للرجوع بهذا التاريخ خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة أخرى .

ويتفق علماء الأنثروبولوجيا ، عامة ، على أن سكان القارة الأوائل قد جاءوا رجالا ونساء من القبائل الرعوية في سيبيريا الآسيوية القاحلة عبر مضيق بيرنج Bering البرى ، الذى يربطها باللاسكا ، بحثا عن مصادر أوفر للغذاء . وبعد حوالى سنة ١٠٠٠٠ قبل الميلاد ، اختفى هذا المعبر تحت الماء مع بدء ذوبان الثلجات الهائلة المتكونة من العصر الجليدي ، مما رفع مستوى الماء فى منطقة مضيق بيرنج لأكثر من مائتى أو ثلاثمائة قدم ، واستمر اندفاع هؤلاء الآسيويين من تندرا سيبيريا الوعرة ، القاحلة فى جماعات عبر هذا الطريق الحر ، المؤقت ، الى العالم الجديد .

وقد أظهرت البقايا العظمية لهياكل هذه الشعوب الرحل ، العديد من الخصائص غير الآسيوية ، لعلها كانت تمثل خليطا من سكان آسيا ، وأفريقية ، وأوروبا ، الذين اختلطوا مع بعضهم البعض لعدة آلاف من السنين . ومهما كان هذا التخليط الوراثى ، يظل الأمريكيون الأوائل آسيويين فى أصلهم الجغرافى .

انتشار الحضارات :

فى وقت ما ، بدأ هؤلاء المهاجرون رحلة طويلة ، صعبة فى اتجاه الجنوب ثم الشرق ، وراء الكلاً والصيد . وعلينا أن نتذكر أن سكان أوروبا فى ذلك الحين ، كانوا يعيشون على الجمع والالتقاط ، والصيد . ولعل أجيالا عديدة مرت قبل أن يصلوا الى المحيط الهادى جهة الشمال الغربى ، وآلاف من السنين قبل أن تصل الهجرة الكبرى فى النهاية الى أقصى طرف أمريكا الجنوبية والساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . ويجب أن ننتبه انى أننا حين نتكلم عن حركات الهجرة لشعوب أمريكا ، انما نعنى أولا الهجرة ناحية الجنوب والشرق ، والمسافة عظيمة ، بطبيعة الحال ، تبلغ ١٥٠٠ ميل من الوطن الآسيوى الى تييرا ديلفويجو Tierra del Fuego عند أقصى الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ، و ٦٠٠٠ ميل من سيبيريا الى الحافة الشرقية لأمريكا الشمالية .

وطوال القرون التى استغرقتها هذه الهجرات الطويلة ، اتسع انتشار الأمريكين الأوائل فى مساحة واسعة جدا من اليابسة . وانقسموا الى جماعات ، مما نعتبره بداية ظهور حضارات مختلفة فى القارة تعد بالآلاف . هذه الفروق الحضارية عبر آلاف السنين ، ازدادت وضوحا وفقا لاختلاف البيئات الطبيعية . وقد اعتاد الأوروبيون أن يجمعوا ، بروح من التعصب وعدم التمييز ، « تشكيلة » كبيرة من الحضارات الوطنية تحت مسمى واحد هو « حضارة الهنود » ، لكن الواقع أن عددا من أساليب المعيشة ، لا يمكن حصره ، قد ظهر منذ وجد الأوروبيون طريقهم الى « العالم الجديد » القديم جدا . والمثال على ذلك أن الأوروبيين لو كانوا استطاعوا الوصول الى القرى الممتدة من ساحل الأطلنطى الى ساحل المحيط الهادى ، ومن ألاسكا الى خليج المكسيك سنة ١٤٩٢ ، لوجدوا « الهنود » يعيشون فى منازل مستطيلة مبنية من ألواح الخشب السميكة فى قبيلة الكواكيوتل Kwakiutle على الساحل الشمالى الغربى ، وفى منازل مستطيلة ذات جمالون فى بلاد الشوكتاو فى أقصى الجنوب ، وفى منازل بدائية قبابية الشكل من القش لدى الويشيتا Wichita ، وفى أكواخ قريبة من الأرض عند الباونى Pawnee فى منطقة البرارى ، وفى مساكن منتظمة مستطيلة ذات سطح أسطوانى فى قرى الألجونكى Algonquian فى الغابات الشمالية الشرقية . وابتكرت الجماعات المنعزلة أساليب فنية متنوعة تماما بتنوع مواد البناء والظروف الجوية فى مناطقها ، لتوفر لنفسها الوقاية الضرورية . وبتنفس التنوع ، تميزت حلهم ، وملابسهم ، وطعامهم من حرفة الجمع والالتقاط .

ويتضح هذا التنوع والاختلاف بجلء ، فى لغاتهم أيضا • فيقسم العلماء اللغات الهندية عند مجئ الأوروبيين واتصالهم بحضارات أمريكا الشمالية الى اثنى عشر أصلا لغويا ، تختلف عن بعضها كاختلاف اللغات السامية عن اللغات الهندو - أوروبية • وتنقسم كل مجموعة أساسية منها الى عدد كبير من اللغات واللهجات المنفصلة ، تختلف فيما بينها اختلاف اللغة الانجليزية عن اللغة الروسية • أى أن الأمريكين كانوا يتكلمون حوالى ألف لغة تختلف عن بعضها اختلافا لم نر له مثيلا فى أى جزء آخر من العالم •

وتفسير هذا التنوع المدهش فى حضارة الهنود ، يلزم أن نفهم ظروف البيئة وطرق تكيفهم معها للبقاء • فقد اشتغلوا ، فيما قبل التاريخ ، بحرفتى الجمع والالتقاط ، والصيد ، وظلوا تحت رحمة بيئتهم باستمرار ، رغم محاولتهم السيطرة عليها • ومثال ذلك ، أنه عندما حدثت التغيرات الجيولوجية الكبرى فى أمريكا الشمالية حوالى ٨٠٠٠ ق م تحولت مساحات شاسعة تمتد من ولاية يوتا Utah حتى مرتفعات أمريكا الوسطى من مراعى خضراء الى صحراء جرداء لم تستطع الحيوانات الكبيرة والنباتات التى تحتاج الى مياه وفيرة أن تبقى فيها • وكان على الهنود ، اما أن يرحلوا وراء مصادر أخرى للغذاء ، أو يشكلوا حضارتهم وفق الظروف الجديدة ، ولم تستطع البقاء الا الحيوانات الصغيرة الحجم ، والنباتات التى تكيفت مع الظروف الصحراوية • ولعاه أثناء هذه العملية ، وما صاحبها من تغيرات مناخية ، رحلت بعض المجتمعات ، وانقرض بعضها الآخر ، وتكيف البعض منها مع الظروف الجديدة •

الثورة الزراعية :

بدأ الإنسان خطواته الأولى للسيطرة على البيئة حين تعلم كيف يتحكم فى الحياة النباتية عن طريق الزراعة ، التى بدأت تحرر الكائنات الحية من الخضوع المطلق للطبيعة ، ولكى يتعلم كيف يبذر ، ويستنبت ، ويجمع المحصول ، كان لابد أن يقوم ببعض المهام ، وبذلك اكتسب سيطرة جزئية على البيئة ، وبهذا حدثت تغيرات حضارية هائلة •

من الصعب تحديد تاريخ بدء الزراعة تحديدا دقيقا فى العالم الجديد ، وربما كان هذا فيما بين ٨٠٠٠ ق م الى ٥٠٠٠ ق م ، وكانت الزراعة فى ذلك الحين قائمة فى أوروبا وآسيا وأفريقية • وسواء ظهرت الزراعة مبكرة فى هذا الجزء من العالم أو ذاك ، فان الحقيقة الأهم هى أن « الثورة الزراعية » بدأت مستقلة فى أنحاء متعددة من العالم ، متباعدة جدا بعضها عن البعض الآخر •

وعندما حل انتاج الغذاء محل الجمع والالتقاط ، حدثت تغيرات هائلة في حياة المجتمعات لأسباب كثيرة منها : أولا ، أن استئناس النبات تطلب بقاء الانسان بجوار زراعته ، على عكس ما تعود الرعاية الرحل وأشباههم ، ثانيا ، أنه سمح بزيادة كبيرة في السكان ، نظرا لزيادة الانتاج الغذائي ووفرته عند أية زيادة بسيطة في مساحة الأرض المزروعة ولو بنسبة ١٪ ، ثالثا ، قللت عملية الزراعة الوقت والجهد في الحصول على الغذاء ، فخلقت بذلك ظروفا مضمونة للنمو الاجتماعي ، والسياسي ، والديني ، والفني ، وابتكار الأساليب الفنية للأداء ، وأخيرا ، حدث تقسيم للعمل بين الجنسين في كثير من المناطق ، فارتبط الرجل بصيد الحيوان ، بينما ارتبطت المرأة بالزراعة .

وهكذا ، أعادت الثورة الزراعية تشكيل الحضارات الوطنية ، حيث صاحب نمو السكان ، وبدء الاستقرار في القرى تعقيدات اجتماعية وسياسية متزايدة ، وبدأت القبيلة في بعض المناطق تتطور الى كيانات اجتماعية أكبر ، يتولى السلطة فيها أفراد أو جماعات معينة في نظام هرمي ، تنظم الانتاج وتحكم فيه ، وفي توزيع فائض الغذاء ، وازداد التخصص في العمل والواجبات ، وأصبحت التركيبة الاجتماعية أكثر تعقيدا . كما أصبح رجال الدين في معظمها هم الرمز المسيطر كما هو الحال في أنحاء العالم الأخرى التي حدثت بها الثورة الزراعية ، فهو ينظم العامة من أتباعه ويوجههم للعمل ، ويحظى منهم بالاحترام والتبجيل ، نظير تعهده بحماية المجتمع من القوى المعادية .

وعندما وصل الأوروبيون الى « العالم الجديد » ، كان لدى الأهالي الأمريكيين صور مختلفة من هذه الثورة الزراعية ، مما ميز حضاراتهم بما فيها من اختلافات لافتة للنظر . وهذا ما ستوضحه لنا اللوحة التي سنلقينا على كثير من هذه المجتمعات التي احتك بها الأوروبيون الأوائل في بداية القرن السادس عشر . فنجد أن حضارة الهوبي Hopi ، والشونبي Zuni في منطقة جنوب غرب أمريكا الشمالية كانت مرتبطة بالزراعة وحياة الاستقرار في القرى قبل وصول الأسبان اليهم بثلاثة آلاف سنة . وفيما بين سنتي ٧٠٠ م - ٩٠٠ م ، بدأت هذه القبائل تتخلى عن نظام السكن في الكهوف الصخرية ، وتبنى حجرات مستطيلة منتظمة في شكل أبنية سكنية . وفي حوالى سنة ١٢٠٠ م ، ظهرت في حضارة « البويبلو » (*) Pueblo ، كما سماها الأسبان

(*) بويبلو : كلمة اسبانية ، تعنى الشعب أو العامة ، أو قرية الهندي الاحمر ، أو الهندي الاحمر من سكان أريزونا ونيومكسيكو - (المترجم) .



- | | | | |
|----------------|-----------------|-----------------|----------------|
| ١ - الماهيكان | ٥ - الأييري | ٩ - الكريك | ١٣ - الهوسن |
| ٢ - الأيروكوا | ٦ - التوسكارورا | ١٠ - الشوكتال | ١٤ - الألوونكي |
| ٣ - الديلاوير | ٧ - الكاتاوبا | ١١ - التشيكاساو | |
| ٤ - السسكيهانا | ٨ - الشيروكي | ١٢ - الشاوني | |

تقابل الهنود الحمر شرق أمريكا الشمالية في بداية الاتصال الأوربي .

قرى ذات صفوف من المباني الكبيرة يحتوى كل منها على عدد من الغرف .
وقد بنيت هذه القرى فى مواقع دفاعية ، تحميها الصخور من فوقها ،
على واجهة صخرية منحدره ، أو على قمم مسطحة ، أو على هضبات
مستوية السطح ، منحدره الجوانب ، وكلها مواقع تحمى الهوبى والثونى
من الأباش Apaches أعدائهم الشماليين . وأكبر هذه القرى عند
بويبلو بونيتا ، وتضم حوالى ثمانمائة غرفة يمكن أن يسكنها ألف شخص .
ولم نر نموذجا أكبر من هذه الغرف السكنية تم بناؤه فى القارة لعدة
مئات من السنين بعد ذلك حتى القرن التاسع عشر فى نيويورك سیتی .

ومع وصول الأسبان ، كانت قبائل الهوبى والثونى تشق الترع
وتقيم السدود ، وتسوى المنحدرات على شكل مدرجات توفيراً لمياه الري
لتلك المنطقة التى ظلت قروناً ، أرضاً قاحلة ، أو تعيش على هامش الزراعة .
وفى الوقت ذاته ، زاد إتقان صناعة الخزف ، وحل القطن محل ألياف
اليكة Yucca (نبات أسبانى من الفصيلة الزنبقية) كمادة أساسية
فى صناعة الملابس ، وازدادت صناعة السلال فناً وجمالاً . . بهذا الحل
الفنى لمشكلة الري ، وبممارسة الزراعة ، والمعيشة فى القرية ، لم يكن
مجتمع البويبلو عند بدء وصول الأسبان يختلف جوهرياً عن المجتمعات
الريفية فى معظم أجزاء العالم الأوروبى والآسيوى .

الآزتيك : The Aztecs

فى أقصى الجنوب ، حيث ركز الأسبان جهودهم الاستعمارية الأولى ،
نشأت حضارة مزدهرة تخالف حضارتهم تماماً . تلك هى امبراطورية
الآزتيك الأسطورية فى وادى المكسيك ، حيث أدت الظروف المناسبة فى
هذه المنطقة الى حدوث التسورة الزراعية فى أقصى مراحل تقدمها فى
القارة ، مما زاد من سرعة التغير الحضارى . لقد زادت كثافة السكان
فى مجتمع ما قبل الأزتيك حوالى سنة ٩٠٠ ق م ، وزادت قدرتهم على
الزراعة ، وتعقد تركيبهم الاجتماعى . وبدأ التوتر يزداد بين بعض المراكز
ذات السلطة القوية هناك والمنطقة الداخلية ، أى بين المدن والريف .
وأصبحت هذه المجتمعات المدنية مركزاً للتطور الفنى ، والقوة السياسية
المهيمنة ، والتجارة . وفى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ، بينما
كانت أوروبا مشغولة فى حروب طويلة حققت بها الطبقة الأرستقراطية
امتيازاتها التى استمدتها من عرق الفلاحين ، وعلى بعد آلاف الأميال ناحية
الغرب ، ظهر الأزتيك الذين تمكنوا خلال سلسلة من الحروب من فرض
سيطرتهم على عدد من السكان قد يبلغ أربعة أو خمسة ملايين ، أى مجموع
سكان فرنسا وإنجلترا فى ذلك الحين . وكان من خصائص القرن السابق
لمجيء الأسبان ، التضحية بالدم ، ومواكب الأبهة والعظمة ، والتمسك

بالشسكليات والتقاليد ، والتباهى بالانفاق خاصة على موائد الطعام والملبس . كما ترجمت قوة الآزتيك الى مشروعات معمارية ضخمة كبناء المعابد والتماثيل ، والساحات العامة ، والاشغال الفنية الرفيعة من السيراميك والمعدن والحجر .

وجاء الأسبان ، وهم يتوقعون ألا يجدوا سوى شعب « بدائي » ، فظن كثير من جنودهم أنهم فى حلم عندما وصلوا الى تينوشنتلان Tenochtitlan عاصمة امبراطورية الآزتك ، ودليل ذلك ما كتبه برنار دياز دل كاستيو Bernal Diaz del Castillo ، أحد جنود كورتيز Cortez ، حيث ذكر : « قال بعض الجنود الذين كانوا معنا ، والذين سبق لهم أن ذهبوا الى مناطق أخرى كثيرة مثل القسطنطينية ، وجابوا إيطاليا ، وروما انهم لم يسبق لهم أن رأوا مثل هذه الأسواق الواسعة ، وهذه الكثرة من الناس ، بهذا النظام والترتيب » (١) . وكان الجند الاسبان يفغرون أفواههم دهشة أمام روائع الهندسة والفن والنحت والتصميم المعمارى المذهل . ويحق لهم ذلك ، لأن سكان تينوشنتلان وعددهم ستون ألفا ، عشية الفتح الأسبانى ، قد حققوا مستوى رفيعا فى الصناعة واقتصادا زراعيا متكاملا بما فيه من نظم متعددة للرى ، وتسوية المنحدرات الجبلية على شكل مصاطب ، وبناء الجزر الصناعية فى البحيرات ، كل ذلك جعل الأوروبيين ينبهرون بما شاهدوه فى أراضيهم .

حضارات هندية قديمة أخرى :

ظهرت حضارات أمريكية وطنية أخرى ، قوية ، تختلف تماما عن حضارات الثونى ، والهوبى ، والآزتيك ، على امتداد عدة آلاف من الأميال شمال شرق امبراطورية الآزتيك ، وكانت تنتمى الى ثلاث مجموعات لغوية رئيسية ، وهى قبائل الألجونكى ، والايروكوا ، والسيوى Siouan ، وامتدت من وسط أمريكا الشمالية الى السهل الساحلى للأطلنطى ، وذلك منذ ١٠ر٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وكانوا يجمعون بين حرفة الزراعة ، والجمع والالتقاط ، وصيد البر والبحر . ثم بنوا بالتدريج قرى صغيرة شبه ثابتة ، وأنشأوا شبكة واسعة من التجارة فيما بينهم عندما بدءوا يتأثرون بالثورة الزراعية كغيرهم من القبائل . وعلى العكس من الآزتيك الذين أخذوا بالسلطة الهرمية لرجال الدين ، الذين عاشوا على خدمة المزارعين لهم ، نجد سكان منطقة الغابات هذه ، يعيشون فى قرى تقوم على المساواة فى حياة بسيطة للغاية .

بناء الاستحكامات :

من أكثر هذه المجتمعات اثارة للاعجاب ، أولئك الذين عرفوا باسم
بناء الاستحكامات في وادي نهر أوهايو ، الذين شيّدوا أعمالاً هندسية
عملقة يشبه بعضها أحياناً شكل الإنسان أو الطير أو الأفعى الملتوية .
ولما عبر سكان مرتفعات الأباش لأول مرة ، بعد أكثر من قرن ونصف
من وجودهم على أرض القارة ، ذهلوا بشدة من هذه الانشاءات الضخمة
التي ارتفع بعضها الى أكثر من سبعين قدماً . فلم يصمدقوا أن هذه
الانشاءات قد بناها الأهالي الوطنيون الذين كانوا يحسبونهم من البدائيين .
ولذلك نسجوا الأساطير التي تقول بأن أقواماً كانوا يعيشون على الجرد
الغارقة الآن في المحيط الأطلسي ، وأن سلالات من المصريين والفينيقيين
طافت بهذه المنطقة النائية ، وبنوا هذه الآثار المثيرة للدهشة والاعجاب ثم
اختفوا ، والآن ، يقول علماء الآثار والأنثروبولوجيون انهم أسلاف قبائل
الكريك والشوكتاو ، والناشيز الذين تطورت حضارتهم في بطة عبر
قرون طويلة ، وازدادت تعقدها بصورة واضحة منذ مجيء المسيحية . وقد
كشفت الحفائر في جنوب أوهايو - فقط - عن عشرة آلاف ربوة صغيرة
استخدمت للدفن ، كما تحددت بدقة ألف حظيرة مسورة بحوائط من
الطين ، تضم احداها حصناً ضخماً يبلغ محيطه نحو ثلاثة أميال ونصف
الميل ، ويعرف علماء الآثار أن بناء الاستحكامات ، قد ساهموا في شبكة
واسعة للتجارة غطت النصف الشرقي من القارة ، واستدلوا على ذلك
بما عثر عليه في المقابر من مواد مختلفة يمكن ارجاعها الى أجزاء أخرى من
القارة ، مثل الشفرات الكبيرة الموضوعة مع الموتى ، وكانت تصنع من
الظران أو الزجاج البركاني الذي يوجد في التكوينات الصخرية في
يلوستون ناشيونال بارك ، ومثل الصديريات المزينة بنقوش بارزة ،
والحلي والأسلحة المصنوعة من النحاس الخام الموجودة في منطقة البحيرات
العظمى ، ومثل أدوات الزينة المشتقة من رقائق الميكا من جنوب جبال
الأبلش ، والحلي المصنوعة من أسنان سمك القرش والتمساح الأمريكي
أو من الصدف من خليج المكسيك .

حضارة المسيسيبي :

أخذت حضارة بناء الاستحكامات في الأقول حوالي سنة ٥٠٠ م .
أما نتيجة هجمات القبائل الأخرى عليهم ، أو لقسوة التغيرات المناخية التي
قضت على الزراعة تدريجياً ، بينما كانت حضارة أخرى تزدهر ، في
الغرب ، ومركزها شمال سانت لويس الحالية ، وتنتشر لتشمل معظم
خط سقوط الأمطار لنهر المسيسيبي ابتداءً من ويسكونسن Wisconsin
حتى لويزيانا ، ومن أوكلاهوما حتى تنسي Tennessee ، وتضم

آلاف القرى • وفي حوائى ٧٠٠ م ، بدأت حضارة الميسيسبى هذه ، كما يسميها الأثريون ، تؤثر في حياة معظم قبائل منطقة الغابات الشرقية ، ومثلما فعل بناء الاستحكامات في منطقة أوهايو ، ربما تأثرت هذه القبائل بحضارة أمريكا الوسطى عن طريق التجارة والحروب ، فشيّدوا أعمالاً هندسية ضخمة كان بعضها أماكن للدفن والاحتفالات الجنائزية ، وكان أكبرها على شكل ٤ مدرجات بارتفاع مائة قدم ، وله قاعدة مستطيلة تغطى نحو ٦٠٠٠٠ م^٢ ، أى أكثر من قاعدة الهرم الأكبر فى مصر • وكان بناؤها فيما بين ٩٠٠ - ١١٠٠ م وكانت هذه المتاريس الضخمة تواجه المدينة الهندية المسورة بسياج من الأوتاد الخشبية القوية ، والمبنية على جرف شاهق شديد الانحدار ، وتضم أكثر من مائة ربوة صناعية ، تدل على أماكن للدفن • وقد انتشرت فيها القرى الواسعة التى أسماها علماء الآثار حديثاً (المدن الكبرى الأولى فى أمريكا) وكان عدد سكان الواحدة منها نحو ٣٠٠٠٠ شخص حسب التقديرات الحالية •

وكشف مركز كاهوكيا Cahokia لحضارة الميسيسبى عن أوان خزفية ، ومشغولات دقيقة من الصخر ، ورقائق من النحاس والميكا ، بارزة أو محفورة بدقة ، وبعض الأغذية الجنائزية المكونة من ١٢٠٠٠ جرزة من الصدف ، مما يدل على أن كاهوكيا كان مركزاً حضرياً بمعنى الكلمة ، بما يضم من تجمعات سكنية ، وأسواق ، وصناع مهرة للآلات والملابس المصنوعة من جلد الحيوان ، والقدر ، وأشغال المجوهرات ، والنسيج ، وصناعة الملح •

كانت حضارة بناء الاستحكامات وحضارة الميسيسبى ، فى عنقوانها قبل وصول الأوروبيين الى شاطئ الأطلنطى بعدة قرون ، ثم اضمحلت لأسباب غير واضحة حتى الآن ، إلا أن آثارها انتقلت شرقاً ، وغربت من حضارة منطقة الغابات • وبالرغم من أن القبائل الواسعة الانتشار ، والتى كانت بطونا صغيرة لقبائل أكبر ، تمتد من نوفاسكوشيا (بأقصى الشمال) حتى فلوريدا (بأقصى الجنوب) لم تضارع أبداً المجتمعات الأولى فى وسط القارة فى التصميم المعمارى ، وأعمال الحفر ، وفنونها التعبيرية ، إلا أنها كانت أبعد ما تكون عن الصورة البدائية التى رسمها الأوروبيون لسكان هذه الغابات • ونظراً لتأثرهم بحضارة الهوبويل Hopewellian ، والميسيسبى حوالى سنة ٩٠٠ م • أضافوا قليلاً من الزراعة الى مهاراتهم التى اكتسبوها باستغلالهم لأنواع النباتات الطبيعية المختلفة ، المنتشرة فى الغذاء ، الدواء ، والصباغة ، ومكسبات الطعم والرائحة ، والتدخين • وقد استغلوا وسط هذا الخليط من النظم الاقتصادية ، جميع المصادر الطبيعية حولهم - من أرض مكشوفة ، وغابات ، وأنهار ، وكذا ساحل الأطلنطى •

كانت شعوب الغابات الشرقية ، هذه ، التي بدأ الصيادون الأوروبيون يصيرون في أراضيها ، ويجفون سمك القد Cod على سواحلهم ، في أواخر القرن الخامس عشر ، يعيشون في قرى خاصة بهم ، بعد تأثرهم بالعمادات الزراعية في مجتمعات وادي أوهايو ، والميسيسيبي . وحين خصصوا حقولا لزراعة الحبوب بالقرب من أماكن صيد السمك ، وتعلموا تسميد النباتات في بداية نموها برءوس السمك ، زادت حياة الاستقرار لديهم . وتجمعت مساكنهم المكونة من أكواخ بيضوية الشكل أو مستديرة ، ومصنوعة من خشب البتولا وشجر الدردار ، والتي اقتبسها الأوروبيون من الهنود الحمر في السنين المبكرة ، في قرى لها سياج من أسياخ خشبية متينة مستدقة الأطراف . كما يسر لهم البرك (*) وسيلة سهلة للاتصال والتجارة في منطقة مترامية الأطراف . وقد أبان علماء الآثار مدى التطور بين مجتمعات منطقة الغابات الشرقية في باكورة الاتصال الأوروبي ، بما كانت تضمه مدينة للهورون في منطقة البحيرات العظمى من أكثر من مائة مبنى ضخمة كان يسكنه ما بين أربعة أو ستة آلاف فرد . هذه المستعمرات كانت أكبر حجما من قرية أوروبية متوسطة الحجم في القرن السادس عشر ، وأكبر من بعض مدن المستعمرات الأمريكية بعد قرن ونصف من الاستعمار الأوروبي .

واجه الأوروبيون عددا لا يحصى من القبائل الوطنية المتفرعة من قبائل الغابات الشرقية على امتداد ساحل الأطلنطي ، من خليج سانت لورانس حتى فلوريدا ، وكل منها تحتفظ بعناصر حضارية خاصة بها ، وإن اشتركت في سمات كثيرة ، مثل طرق الزراعة وصناعة الفخار ، والتنظيم الاجتماعي ، وصنع الأدوات والآلات . وأهم من ذلك كله ، براعتهم في السيطرة على الحياة النباتية والحيوانية في بيئتهم المحلية ، بطريقة أبقت على حياتهم ، وضمنت لهم الاستقرار والبقاء ، وقد كانت هناك ، في أقصى المناطق الشمالية قبائل الأبناكى Abnakis ، والبينوبسكوت Penobscots ، والباساماكودي Passamaquoddys ، وغيرهم ممن كانوا يعيشون على خيرات البحر ، ويدعمون وجبتهم الغذائية بسكر القيقب (**) ، وقليل من المواد الغذائية الأخرى . وفي أقصى الجنوب ، فيما يسمى اليوم بنيو إنجلاند ، كان هنالك الماساشوستس Massachusetts ، والوامبانوج Wampanoags ، والبيكوت ، والنارانجانست ، والنيانتيك Niantics ، والماهيكان ، وغيرهم ،

(*) البرك : مركب ذو ثلاثة صوار ، مصنوع من خشب البتولا ، يسهل على الرجل حمله بمفرده ، والانتقال به من نهر الى آخر - (المترجم) .
 (**) القيقب : شجر بالمناطق المدارية الحارة في الهند - (المترجم) .

وجميعهم قبائل صغيرة ، لكل منها أرضها التي تناسب معيشتهم ، ولا يتصلون ببعضهم الا للتجارة من حين لآخر . واثى الجنوب منهم ، فى منطقة وسط الأطلنطى اليوم كان اللينى Lenni ، والليناب Lenaps ، والسسكيهانوك Susquehannocks ، والنانتيكوك Nanticokes ، والبامانكى ، والشاونى Shawnees ، والتوسكارورا ، والكتاوبا ، وغيرهم ، وقد عاشوا جميعا على حرفة الزراعة مع جمع المحار ، وصيد الحيوان ، وجمع النباتات البرية فى حياة شبه مستقرة فى قرى .

وقد اكتشفت أماكن أخرى لعدد من الحضارات الغنية المتطورة ، التى ارتبطت ببعضها بنوع من التحالف الحر ، فى واحدة من أكثر المناطق ازدهاما على ساحل الأطلنطى جهة الجنوب الشرقى . ويمكننا تتبع أسلاف هذه الشعوب التى تنتمى الى مجموعات لغوية كثيرة الى ٨٠٠٠ عام على الأقل . فتوجد فى الجنوب الشرقى بعض المصنوعات الفخارية أكثر تطورا من نظيراتها فى النصف الشرقى من القارة ، قد بدأت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م ، وقد تأثرت هذه الحضارات ببعضها ، كما نراه فى طرق بناء المقابر المحفورة فى الصخور لدى قبائل الهوبويل . وقبل أن يتجول « دى سوتو » فى المنطقة ببضع مئات من السنين ، فى الأربعينات من القرن السادس عشر ، وجدت ساحات جنازية فخمة ، أنشئت فى منطقة شاسعة ، أصبحت الآن أحد المعالم البارزة لهذه الحضارة . وباحتكاكهم بحضارة المسيسيبي طورت قبائل المنطقة الجنوبية الشرقية صناعة السيراميك ، والسلال ، وتجارتهم الخارجية مع جيرانهم الأبعدين ، كما اتصلوا فى بعض الأحيان بالناشيز ذوى التنظيمات الاجتماعية والسياسية التى أخذت بمبدأ إخضاع الفرد ، وحقوقه بالكامل للسلطة الدينية . ويضم هؤلاء قبائل الكريك ، والياماسى الأقوياء فى منطقتى جورجيا وألاباما حتى مرتفعات الأباش فى فلوريدا ، وعلى طول خليج المكسيك الى الشوكتاو ، والتشيكاساو Chickasaws ، والناشيز فى وادى المسيسيبي الأدنى ، وحتى الشيروكى فى جنوب الأبلاش ، بالإضافة الى عشرات القبائل الصغيرة المتناثرة على امتداد ساحل الجنوب الشرقى .

هذا ، ويصعب الحصول على أرقام يعول عليها فى معرفة العدد الإجمالى لكل هذه الشعوب المتباينة ، التى كانت موجودة فى بداية الاتصال الأوروبى . وقد ناقش علماء الأنثروبولوجيا لعشرات السنين ، مستويات السكان فيما « قبل الفتح » ، وبحثوا عن الوسائل التى تمكنهم بالتقديرات الموثوق بها . وقد قدرتها الأبحاث الأخيرة تقديرا مرتفعا بنسبة كبيرة . ويعتقد كثير من العلماء الآن أن عدد سكان الأمريكتين وأمريكا الوسطى قد

بلغ المائة مليون نسمة • ولا شك أن النصف الشرقي من أمريكا الشمالية لم يكن بهذه الكثافة السكانية كما كانت أمريكا الوسطى والجنوبية ، وأنه طبقا لأكثر التقديرات تسامحا لم يزد عدد سكان أمريكا الشمالية كلها عن ١٠ ملايين نسمة ، ربما كان ٥٠٠.٠٠٠ نسمة منهم يحتلون منطقة امتداد الساحل خلال القرن الأول من المجيء الأوروبي • ونؤكد أنه حتى لو نزلنا بتقديرات أحدث علماء الدراسات السكانية وعلماء الأنثروبولوجيا إلى النصف لبقيت لدينا الحقيقة المذهلة التي تقول بأن الأوروبيين لم يعمروا المحيط الأطلنطي ، ليحتلوا أرضا جرداء مقفرة ، بل غزوا أرضا كان سكانها في الكثير من أجزائها في كثافة أوروبا نفسها •

الايروكوا :

من بين حضارات منطقة الغابات الشرقية ، سنركز باختصار على شعب الايروكوا ، لتأخذ انطبعا حيا من نظام الحياة والمجتمع في واحدة ، على الأقل ، من حضارات الهنود الحمر • لم تكن الايروكوا واحدة من أكثر القبائل الشمالية الشرقية كثافة سكانية فقط ، بل وأكثرها قوة أيضا • تمتد أراضيهم من جبال أديرونلاك Adirondack حتى البحيرات العظمى ، ومن شمال نيويورك حتى بنسلفانيا • وتسكنها خمس قبائل هي : الموهوك (« شعب الصوان ») ، والأونيدا Oneidas (« شعب الحجر ») ، والأونونداجا Onondagas (« شعب الجبل ») ، والكيوجا Cayugas (« شعب المرسى ») ، والسينيكا Senecas (« شعب التل العظيم ») ، وتكون كلها ما يسميه الأوروبيون « عصابة الايروكوا » أو « الجانونسيوني Ganonsyoni » التي تعني بلغة الايروكوا « الأسرة الهندية الممتدة بالطول » • وكان هذا الاتحاد الايروكوي امتدادا شاسعا لمجموعة قرابة واحدة ميزت النموذج الأسرى في الغابات الشمالية الشرقية • وربما ضمت « الجانونسيوني » ١٠.٠٠٠ نسمة في بداية القرن السابع عشر •

لقد افتنن علماء التاريخ بأصل نشأة عصابة الايروكوا ، لأكثر من قرن من الزمان ، وحاول بعضهم اثبات أن الايروكوا كانوا ضعافا ، غير منظمين عند بدء الاستيطان الانجليزي والفرنسي في العقد الأول من القرن السابع عشر ، واستنتجوا أن هذه العصابة أو الرابطة ، كان ظهورها رد فعل لمجيء الأوروبيين • إلا أن الدراسات الحديثة ، والتي تلقى قبولا واسعا تميل إلى الأخذ بأن العصابة تكونت في أواخر القرن الخامس عشر نتيجة محاولات الايروكوا مواجهة المشكلة التي أزعجتهم لعدة أجيال خلال « اتحادهم العرقي المهلهل » ، ألا وهي مشكلة العداوات الثائرة ، والعنف المستمر على نطاق محدود مع جيرانهم من قبائل الإليجونكي • فقد أدت

زيادة السكان في الشمال الشرقي ، التوسع في نظام الزراعة الواسعة الى زيادة الحاجة الى الصيد أثناء تلك الفترة ، مما زاد من التقاء القبائل واحتكاكها ببعضها ، فكانت قرى الايروكوا مسيجة بالأوتاد الخشبية القوية المدببة في القرن الخامس عشر ، علامة على كثرة منازعاتهم ، وكان الرجال في القرى مشغولين بالحروب والقتال بصفة مستمرة . ولما أبحر جاك كارتيه Cartier نحو نهر سنت لورانس سنة ١٥٣٤ ، سمع من قبائل الألبونكي أن أعداءهم الايروكوا قد أزيحوا من منطقة اللورانس منذ عدة أجيال .

وتروي إحدى الأساطير ، أن الايروكوا قد توحدوا على يد هياواتا Hiawatha وهو ساشم (*) من قبيلة الموهوك ، فقد سنة ١٤٥٠ تقريبا ، عددا كبيرا من أقاربه ، فخرج هائما على وجهه في القفار ، ومن المحتمل أنه رأى ، وهو يهنئ ، مخلوقا غير طبيعي يدعى « ديكاناويدا » Dekanawidah ، الذي ظهر أمامه ، وعينه نائبا عنه . وقد كتب أنتوني والاس أن « ديكاناويدا أصدر قرارا بتجديد حياة مجتمع الايروكوا » ، وحمل هياواتا هذا القرار معه من قرية الى قرية ، وجند معه حوارين له ، اعتبروه قائدا ملهما (٢) . واتخذت تخیلاته ورؤاه تدريجيا شكل خطة لتكوين اتحاد جديد ، قوى لقرى الايروكوا ذات التحالف الضعيف آنذاك . وكان مفتاح هذه الخطة هو تحريم القتل ، فاذا قتل لواحد منهم عزيز من أفراد أسرته ، أقيمت له طقوس العزاء والمواساة لتخفيف حدة الحزن ، وهو ما لم يكن ينفع فيه ، سابقا ، سوى الأخذ بالثأر . ويتكون مجلس من ٤٩ زعيما تفوضهم القبائل الخمس للاجتماع في أونونداجا ، واتخاذ القرارات الواجبة التنفيذ . وهكذا أنشأوا التنظيم السياسي الذي يحفظ السلام بين جميع قبائل الايروكوا ، ويشد اليهم القبائل المحيطة بهم ليدخلوا في حلفهم تدريجيا .

تقبلت القبائل بالتدريج ، ما بشر به هياواتا من تصورات ديكاناويدا وتخیلاته ، ولذا تحول اتحادهم العرقي المهلهل الى اتحاد سياسي أكثر تماسكا ، ذلك أن تحريم الثأر فيما بينهم أعطى القرى الفرصة للنمو ، والتمتع بالاستقرار ، وزيادة عدد السكان ، وتطوير أساليبها السياسية في حل مشكلاتها الداخلية ، وكذلك لتكوين جبهة موحدة قوية في مفاوضاتهم مع الجيران من الألبونكي للسماح لهم باستخدام أراضي الصيد الواقعة الى الشمال ، أو السماح للقبائل التابعة لها بالإقامة في أرضهم . ونرى أن الايروكوا كانوا معظوظين بأن حدث ذلك كله خلال القرن السابق

(*) الساشم : تعنى الزعيم الهندي الاحمر. - (المترجم)

للمجىء الأوروبيين ، حيث سهل عليهم إقامة سياسية منسقة فى تعاملهم مع هؤلاء الوافدين . وقد تشابهت « حركة احياء » الايروكوا هذه ، فى كثير من جوانبها ، مع تلك الحركات التى ظهرت فى بعض أجزاء أخرى من العالم ، فى أوقات متباعدة كثيرة . فظهور شخص فى صورة المخلص المنتظر ، الذى يفجر موجة أخلاقية جديدة ، وينظم طريقا جديدا للحياة ، وبالتالي يجدد حياة المجتمع فى أوقات الشدة ، كان لابد وأن يجد صدها القوى لدى الأوروبيين بما عندهم من أساطيرهم المسيحية . والواقع ، أن رسالة ديكاناويدا كانت تعكس الاحساس بالتضامن والارتباط الجماعى المشترك الذى كان سمة مميزة للبيوريتانية فى نيوانجلند لعدة قرون تالية ، حيث يقول : « اننا نشد بعضنا بعضا فى دائرة متينة جدا ، لا يمكن لشجرة اذا وقعت عليها أن تكسرها أو تهزها ، لذلك سيبقى شعبنا وأحفادنا فى هذه الدائرة فى أمان ، وسعادة ، وسلام » (٣) .

اذن ، كان هدف عصبة الايروكوا ، فى أبسط صوره ، قبل وصول الأوربي هو « تقوية القرى ، وربطها ببعضها ، وتحصينهم ضد الهجوم من الخارج ، أو تجزئتهم من الداخل » . ثم قدم فلاسفتهم فيما بعد ، هدفا أسمى ، وجد له نظير فى وعى البيوريتانى أخلاقيا برسائلته التبشيرية . ويقولون فى تفسير ذلك : : « ان القصد من هداية جميع البشر أن يكون السلام والسعادة من نصيب شعوب الأرض جميعا » . ولكى يأتلف الناس جميعا فى تحالف انسانى ، يزعمون قول ديكاناويدا : « ان الجنود البيضاء لشجرة السلام العظيمة ، ستظل تنمو ، وتدفع العقل السليم الى الاستقامة والسلام ، وتنتقل الى أراضى الشعوب الوطنية المتناثرة فى أعماق الغابة » (٤) .

واذا كان الأوروبيون قد شاركوا فى بعض مظاهر حضارة الايروكوا ، الا أن بعض المظاهر الأخرى كانت مختلفة لدرجة أقنعت المستعمرين بأن مجتمعهم ليس على غرار مجتمع الشعوب الوطنية الا فى القليل . ومثال ذلك ، أن العمل فى قرى الايروكوا يتم بصورة جماعية ، لكن الأفراد لا يملكون الأرض ، فهى مشاع بينهم ، ويمكن للأسرة الواحدة أن تفلح رقعتها من الأرض ، وهى تترك أنها لا تملكها ملكية خاصة . وكذلك الصيد ، عمل جماعى ، ورغم تفاوت الصيادين فى قدراتهم على مطاردة الحيوان فإن الحصيلة المتجمعة لابد أن تعود على القرية وتوزع بين الجميع ، كما أن المبنى السكنى المستطيل تسكنه عدة أسر ، ولكنه ملكية مشاع ، اذ أن مفهوم الملكية الخاصة عند الايروكوا بمعنى ملكية كل فرد لأرضه ومسكنه ، ترتبط فى التصميم بتنظيمهم ، ألا وهو المبدأ التعاونى

أو الجماعى • وقد كتب عن ذلك أحد الجزويت (*) الفرنسيين سنة ١٦٥٧ يقول : « لا حاجة بهم الى انشاء تكايا أو ملاجئ للعجزة والمحتاجين ، نظرا لعدم وجود مرضى أو معوزين يعيشون على الاعانات ، كما لا يوجد بينهم أغنياء • فالشفقة بينهم والانسانية ، والتعاطف ، والمجاملة تمنعهم من أن يكونوا أحرارا فيما يملكون ، فالملكية مشتركة بينهم • ويجب على القرية ألا تبني وعندها حبة قمح وفيهم فرد جائع » • وفى نفس الوقت ، كتب باعطاء الناس بدلا من الأخذ منهم بعكس الحال عند المسيحيين » (٥) •

وينتظمون فى سكنهم فى القرية على أساس مجموعات القرابة الموسعة • وعلى العكس من الأوروبيين ، ترتبط أسرة الايروكوا فى نسبها بالأم ، وتتحدد العضوية فيها بالخط النسوى ، ولذلك تتكون الأسرة النموذجية لديهم من الأم الكبيرة ، وبناتها ، ومعهن أزواجهن وأبنائهن ، ومن أحفادها وحفيداتها غير المتزوجين • ويظل الابن والحفيد فى مجموعة قرابة الأم حتى يتزوج فيصبح عضوا فى أسرة زوجته • ويقتصر حق الطلاق على الأم ، فاذا رغبته فما عليها الا أن تضع المتعلقات الشخصية لزوجها خارج الباب الرئيسى للبيت • وتبعاً لذلك ، نجد المجموعات العديدة من ذوى الخثولة – المرتبطة بالدم من جهة الأم – تكون « الأواتشيرا » Ohwachira أى العشيرة ، وتتجمع العشائر فى مجموعات ، وقد تتكون القرية الواحدة من اثنتى عشرة عشيرة أو أكثر • وتتحدد القرى أو العشائر لتكون الشعب (أو « دولة القرابة » كما كانت تسمى) عند السينيكا أو الموهوك (٦) •

لم يقتصر التنظيم الاجتماعى للايروكوا على نسب الأم فقط ، بل كان للنساء سهم فى السياسة ، حيث كان النفوذ السياسى يستمد من « العشائر » التى ترأسها السيدات العجائز ، وهن اللاتى يقمن بتعيين الرجال المنحويين عن العشائر فى القرى ومجالس القبائل ، وكذلك التسعة والأربعين ساشيم أو رئيسا ، الذين يجتمعون دوريا فى أونونداجا كمجلس حاكم للشعوب أو القبائل الخمس المتحالفة • وكان هؤلاء الرؤساء المدنيون « الروتيانير » rotiyanehr فى العادة من الشيوخ أو أكبر الرجال سنا الذين حازوا شهرة فى الحرب ، ولكنهم « تركوا الحرب الآن الى الحماسة فى المجلس » (٧) • ولم يقتصر نفوذ المرأة السياسى على مجرد تعيين أعضاء مجالس الحكم المختلفة ، ففي الاجتماع الأخير لأفراد العشائر فى مدينة نيوانجلند ، حضرت النسوة العجائز بالكامل ، على شكل مؤتمر حزبى

(*) الجزويت : جماعة دينية للرجال ، أسسها القديس اغناطيوس ليولا عام ١٥٢٤ م
(المترجم) •

خلف دائرة الرجال الخطباء ، ليضغظن عليهم ويوجهنهم ، فيبدو الأمر للغريب عنهم وكأنَّ الرجال هم الذين يحكمون ، لأنهم يلقون الخطب ، ويتخذون القرارات رسميا ، الا أن النساء تشاطرنهم هذه السلطة والنفوذ . وإذا انحرف رجال القرية أو مجلس القبيلة بعيدا عن ارادة النساء اللائى قمن بتعيينهم ، يتم اقصاؤهم أو « تنزع عن رؤوسهم قرون الماشية » ، وطالما رضيت هذه العجائز عنهم فانهم يظلون فى مراكزهم آمنين .

وللنساء أيضا ، دورهن فى اقتصاد القبيلة ، اذ تقع مسئولية الصيد فى البر والبحر على الرجال ، ويقع واجب الزراعة الأساسى على النساء . وبتحملهن عبء العناية بالمحاصيل ، يصبح لهن نفس الأهمية فى الحفاظ على المجتمع وبقائه . فضلا عن أن الرجال يتركون للنساء مسئولية ادارة الحياة اليومية فى مجتمع القرية عند خروجهم للصيد ، واضطرارهم فى كثير من الأوقات الى الابتعاد عن القرية لمسافات طويلة ، وأسابيع عديدة . ولهن دور مهم فى شئون الحرب ، اذ يقمن بصناعة النعال من الجلد الناعم للمحاربين ، ويقدمن لهم الطعام ، فاذا امتنعن عن ذلك فمعناه عدم موافقتهن على القيام بالغزوة . وهكذا تتوزع السلطة بين الجنسين ، وتختفى تماما فكرة الأوروبى عن سيادة الرجل وخضوع المرأة فى كل شىء .

ولكى نفهم طبيعة التفاعل بين الايروكوا والأوروبى ، علينا أن نبحث فى نشأة « شخصية » الأيروكوى ، ونموذج سلوكه الفردى . ونحن نعلم أن علماء النفس يرون أن معظم خصائص الشخصية لدينا ، وطريقتنا فى الاستجابة للأشخاص والأحداث المحيطة بنا ترتبط بجذور قوية بتربيتنا فى الصغر . فوسائل المجتمع فى تربية الطفل ، اذن ، مهمة فى فهم سلوك الجماعة . والايروكوا وشعوب الغابات - وهم ليسوا أقل من الأوروبيين - قد ربوا أطفالهم على الأساليب التى تنقل اليهم المعرفة والمهارات اللازمة لبقاء مجتمعهم . كما نقلوا اليهم ميراثهم الحضارى والتاريخى لكى تنطبق فيهم شخصية الجماعة ، والإحساس القوي بالولاء لها ، والمسئولية تجاهها . وهكذا يعلمونهم كيفية الصيد ، وصنع الآلات ، وزراعة المحاصيل ، وكيفية تحديد أنواع النباتات والحيوانات ، تماما كما كان الانجليز يعلمون أطفالهم مبادئ الحياة اليومية . وقد حرص كل من المجتمع الانجليزى والايروكوى على ملء أطفاله بالإحساس بتراثهم ، وغرس ولائهم للجماعة من خلال الشعائر والطقوس .

ولكن تختلف أوجه تربية الطفل بين الأوروبى والايروكوى فى موقفه تجاه السلطة . فالفرد المثالى فى مجتمع الايروكوا هو الفرد الاستقلالى ، المخلص لجماعته ، ولكنه حر ، ومتحفظ ، ومنعزل أكثر منه خاضعا ومطيعا . وقد لاحظ أحد الكويكرز فى بداية القرن التاسع عشر أن « الحرية بأجل

معانيها هي الرغبة المتحكممة فيهم ، • وكان لهذه الملاحظة صدى لتقديرات الجزويت (اليسوعيين) منذ قرنين من الزمان (٨) • وينتظر من أولادهم أن يكونوا صيادين مهرة ، غير أنانيين ، مخلصين للعشيرة ، ويفقدون احترامهم إذا اتكلوا على غيرهم ، أو خضعوا لهم ، أو إذا أفرطوا في الخوف من السلطة • ويتدربون في باكورة حياتهم ، على حد قول والاس « على أن يفكروا لأنفسهم ، ويعملوا للآخرين » (٩) • ويجري اعدادهم لدخول مجتمع البالغين على أساس المساواة ، وتوزيع السلطة بالتساوى بين الرجال والنساء أو بين الكبار والشباب • يخالفون بذلك المجتمع الأوروبي حيث كانت السلطة فيه هرمية • ونظراً لأن الواحد منهم لا يكافأ بحيازته لقطعة أرض ، أو باعطائه أدوات يمتلكها ، لذا فقدت ملكية الأرض أهميتها في المنافسة ، وأصبح الفرد يستمد احترامه وهيبته باعتباره صيادا ماهرا ، أو محارباً قويا ، كما أن السعى وراء مصلحته على حساب زميله في العشيرة لا يورثه الا الازدراء • ونعلم أنه في المجتمع الأوروبي ، حيث يتوق الفرد إلى الملكية المادية ، ولو مما في يد الغير ، وحيث يفرق البناء الاجتماعي ، بدقة وبصورة معقدة ، بين الغنى والفقر ، والتقى والشرير ، والمتعلم والامى ، والرجل والمرأة ، ومن له حق الانتخاب ، ومن يحرم منه ، يعطى هذا المجتمع الأوروبي اهتماما بالغاً في قواعد التربية الأساسية للطفل للحفاظ على احترام السلطة بالقدر المناسب وطاعة الحكومة ، والمحافظة على التسلسل الطبقي •

وكانت أساليب تربية الطفل عند الايروكوا تتسم بدرجة كبيرة من حرية الاختيار • ولا يعتقد الوالدان في العقوبة البدنية القاسية ، بل يشجعان صغيرهما على تقليد سلوك الكبار ، ويتسامحان معه اذا حاول التجربة فأخطأ • فالأم تتعهد طفلها بالرعاية والحماية ، ولكنها في ذات الوقت تقسو عليه بحمام من الماء البارد • ولا يبدأ فطامه في العادة قبل سن الثالثة أو الرابعة • وبدلاً من زجره ليتحكم في نفسه عند قضاء الحاجة ، يسمحان له بتحقيق ذلك الضبط تدريجياً وبشكل طبيعي • ذلك كله كان يناقض بشدة أساليب الأوروبي في تربية الطفل ، التي تؤكد على أهمية تعويده على الطاعة المبكرة ، ويعزز ذلك بفطامه وعمره سنتان تقريباً ، وتدريبه من الصغر على ضبط النفس عند قضاء الحاجة ، وبتطبيق العقاب البدني دائماً ، وتجريم الفضول الجنسي المبكر لديه ، والتأكيد على الطاعة واحترام السلطة • ويمكننا النظر إلى الآباء الايروكويين على أنهم لم يفهموا نصيحة جون روبنسون ، راعي الكنيسة ، وهو يعظ حشداً من المصلين حيث يقول : « ولدى جميع الأطفال ، بالتأكيد ••• تصلب ، وعناد نابعان من الاعتزاز الطبيعي بالنفس ، والأساس الأول للتربية هو كسر هذا تصلب والعناد ، حتى يسهل اخضاعهم وتشكيلهم في المستقبل ، وغرس

الفضائل الأخرى في حينها . . . ويجب ألا يعرف الأبناء ، ان أمكن إخفاء ذلك عنهم ، أن لهم رغباتهم الخاصة بهم ، بل لابد أن تتطابق رغباتهم مع رغبات آبائهم ، (١٠) .

ويختلف أعضاء المجتمع البالغون في تعاملهم مع السلطة ، اذ تخلو حضارة الايروكوا ، مثلها مثل معظم الحضارات الهندية في أمريكا الشمالية من نظم المجتمع الأوروبي المستخدمة في توجيه حياة الأفراد وضبطها ، فلا يمكن أن تجد قوانين وأوامر ، ولا عمدا ولا شرطة ، ولا قضاة ومحلفين ، أو محاكم وسجوناً في الغابات الشمالية الشرقية قبل المجيء الأوروبي ، ومع ذلك كانت قواعد السلوك المقبول مرعية بكل صرامة . وبالرغم من اعتزاز الايروكوا بشخصيته الاستقلالية ، يحتفظ بأدراكه لمعنى الخطأ والصواب ، وبعيدا عن أدوات السلطة الرسمية المألوفة ، يقيمون السلوك على أساس ما تشربوه من وعي تام بالتقاليد ، والارتباط بالجماعة عن طريق أداء الطقوس الجماعية . هذا الشعور بالواجب ، الذي يدعمه الخوف من القيل والقال ، ومن الاعتقاد الراسخ في قدرة القوى الشريرة على معاقبة المخطيء ، هو الذي يكبح الغرائز الضارة بالمجتمع عند الايروكوا . أما المجتمع الأوروبي فيواجه السلوك الاجرامى أو اللا أخلاقى بإجراءات البحث والتحري ، والقبض على الفاعل ، وإقامة الدعوى وإصدار الحكم ، والسجن ، مع ما تتضمنه مختلف الخطوات من سلطة لعدد من الأفراد ، والأجهزة القانونية . لكن المجتمع الايروكوى له نظام أقل تعقيدا من الشخص المنحرف ، فمن يسرق طعام غيره ، أو يجبن في الحرب يوبخه أهله ، وتنبذه عشيرته حتى يكفر عن سيئته ، ويثبت لهم بما فيه الكفاية أنه قد تطهر من ذنبه .

لم يتوقع الأوروبيون الوافدون الى أمريكا الشمالية أن يجدوا غير شعب « بدائي » ، ورغم ذلك بهرهم ذلك الجانب من التقاليد الدينية عند الايروكوا التي تحث الفرد على النظر الى الأخلاق كمفتاح لحل مشكلاته ، والانهماك في علاج نفسى جماعى ، يجد فيه المساعدة من رفاق القبيلة . فقبل ظهور نظرية فرويد للتحليل النفسى بأكثر من قرن كان الايروكوا ، وغيرهم من هنود الشمال يعرفون كثيرا من أسس علم النفس الحديث . فعرفوا الشعور واللاشعور في الذاكرة ، وأن رغبات اللاشعور غالبا ما تعبر الأحلام عنها بالرموز ، وأنه اذا لم يتم حلها أو إشباعها يمكن أن تسبب مرضا نفسيا أو جسديا نفسيا (سيكوسوماتى Psychosomatic) . كما عرفوا أن الكوابيس والأحلام المزعجة يمكن الشفاء منها اذا حكاهما الفرد لجماعة تحاول مساعدته على تفسيرها والشفاء من مشكلته المترسبة في اللاشعور .

وقد وصف الأب راجينو Ragueneau ، وهو قسيس متشكك من
الجزويت ، نظرية الأحلام هذه كما شاهدها في قرى الهورون سنة ١٦٤٩ ،
فقال ان الهنود الحمر يعتقدون أنه :

بالإضافة الى الرغبات التي نعتبرها - بصفة عامة - حرة أو
على الأقل اختيارية فينا . . توجد رغبات نفسية أخرى فطرية
مكبوتة ، تأتي - على حد قولهم - من أعماق النفس دون أية
خبرة ، بل تنتقل بوسائل خفية من النفس الى أشياء معينة
ما نسميه بلغة الفلسفة « الرغبات الفطرية » (الخلقية)
Desideria innata تميزا لها عن « الرغبات الظاهرية »
Desideria Elicita ، وتكشف عنها نفوسنا بلغة الأحلام ،
واذا تحققت تم اشباعها ، وعلى العكس من ذلك ، اذا لم
يتيسر لها ما ترغبه تنذر بالغضب ، ولا تحرم الجسم الراحة
والسعادة فقط ، بل غالبا ما تثور عليه مسببة مختلف الأمراض
وربما الموت أيضا . . . ونتيجة لهذه الأفكار الخاطئة يحرص
معظم أفراد الهورون على الاهتمام بأحلامهم ، فيحاولون توفير
ما صورته لهم أثناء نومهم . فاذا رأوا ، مثلا ، الرمح في الحلم
حاولوا الحصول عليه ، واذا رأوا أنهم يقيمون وليمة ، أولموا
بعد الاستيقاظ اذا توفر معهم المال اللازم ، وهكذا . . .
ويسمون ذلك « أوندينونك Ondinonk » ، أى رغبة نفسية
خفية تظهر في الحلم (١١) .

ان من الخطأ أن تصور حضارة الايروكوا في صورة رومانسية ،
أو نحكم عليها بأنها أرقى من حضارة الغزاة الأوروبيين . والا ، فاننا
بذلك نستعمل نفس تصنيف « الأسمى » و « الأدنى » الذي اعتاد الأوروبي
أن يبرر به العنف الذي أطلق له العنان عند وصوله الى العالم الجديد ،
ونسى أن تصنيف الحضارات يكاد يعتمد كلية على ماهية المعايير المستخدمة
فيه . وبدلا من التصنيف على أساس التمييز العنصرى ، يجب أن نفهم
أن مجتمع الايروكوا مثله مثل المجتمع الانجليزى أو الفرنسى ، كان تنظيما
اجتماعيا كاملا خاضعا للتغيير - التغيير الذى يروونه مساعدا لتحقيق
ما يروونه مهما . وكانت حضارة الايروكوا قديمة جدا كحضارة الانجليزى
أو الفرنسى ، وخضعت لتحولات كبيرة قبل مجئ الأوروبي . وباحتكاكهم
الديناميكى مع بيئتهم ، ومع الشعوب المجاورة أصبحت قراهم الصغيرة
أكثر ازدهارا ، وأكثر استقرارا ، وازدادت مهارتهم فى الزراعة ، وفى
تطور الفنون واتقانها ، وأصبحوا من أقوى المجتمعات الوطنية المحاربة ،
والمتحدة سياسيا فى منطقة الغابات الشمالية الشرقية ، حتى انهم بعد

تكوين عصابة الايروكوا التي كان من أهدافها منع الحروب الداخلية بين القبائل ، يبدو أن عدة حروب قد نشبت بين شعوبها الخمسة وشعب الألبونكي الموجود بينهم ، وكان كثير من هذه الصراعات تحقيقا لمظاهر العظمة ، وكان بعضها اختبارا لتحالف القبائل الخمس القائم حديثا ضد القبائل الأقل شأنا ، والتي يمكن ضمها تحت لواء الايروكوا . ومنها كانت الأسباب ، فان الايروكوا عشية مجيء الأوروبيين كانوا مهاجرين من جيرانهم ، وأحيانا مكروهين لمهارتهم وقسوتهم في الحرب ، وهم يعتقدون في تفوق حضارتهم كاعتقاد الأوروبيين الوافدين في حضارتهم أيضا .

لم يكن الايروكوا ، بالطبع ، هم القبائل الهندية الوحيدة التي واجهها الأوروبيون في أوائل القرن السابع عشر ، فعلى طول ساحل الأطلنطي ، من خليج سنت لورنس الى فلوريدا ، قابل الانجليز ، والأسبان ، والهولنديون ، والفرنسيون عددا كبيرا من القبائل ، تختلف عن بعضها كثيرا في عدد سكانها ، وقوتها ، وكثيرا ما حدثت تفاعلات ثقافية فيما بينها حتى في أقل المناطق كثافة في السكان . وفي مناطق عديدة ، ونتيجة الصراع الداخلي بين القبائل ، نشأت وحدات أو اتحادات سياسية ، كان على الأوروبيين أن يحسبوا لها حسابها . ومن الواضح أنه حتى الأعداد القليلة من الهنود كان من الممكن أن يمثلوا مشكلة كبيرة لهؤلاء الذين قصدوا احتلال أراضيهم .

المراجع

1. Bernal Diaz .del Castillo, « The Discovery and Conquest of Mexico, 1517 — 1521 » (New York : Farrar, Straus and Cudahy, 1956), pp. 218-19.
2. Anthony F.C. Wallace, « The Dekanawidah Myth Analyzed as the Record of a Revitalization Movement », *Ethnohistory*, 5 (1958) : 126.
3. Anthony F. C. Wallace, « The Death and Rebirth of the Seneca » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1970), p. 42.
4. Ibid., p. 42.
5. Reuben Gold Thwaites, ed., « The Jesuit Relations and Allied Documents ; Travels and Explorations of the Jesuit Missionaries in New France, 1610-1791 » (Cleveland : Burrows Brothers, 1899), 43 : 271 ; Johannes Megapolensis, Jr. « A Short Account of the Mohawk Indians », (1644), in J. Franklin Jameson, « Narratives of New Netherland, 1609-1664 » (New York : Charles Scribner's Sons, 1909), p. 179.
6. William N. Fenton, The Iroquois in History, in « North American Indians in Historical Perspective », eds. Eleanor Burke Leacock and Nancy Oestreich Lurie (New York : Random House, Inc., 1971), p. 139.
7. Ibid., p. 138.
8. Quoted in Wallace, « Death and Rebirth of the Seneca, p. 38 ».
9. Ibid., p. 34.
10. Quoted in John Demos, « A little Commonwealth : Family Life in Plymouth Colony » (New York : Oxford Univ. Press, Inc., 1970), pp. 134-35.
11. Quoted in Anthony F. C. Wallace, « Dreams and the wishes of the Soul : A Type of Psychoanalytic Theory among the Seventeenth-Century Iroquois, » *American Anthropologist*, 60 (1958) : 236.

الفصل الثانى

الأوروبيون يصلون الى الأمريكيتين

سادت فى التاريخ الانسانى ، فيما بين القرنين الخامس عشر ، والعشرين محاولة صبغ العالم بالصبغة الأوروبية . أو بمعنى أدق ، التوسع العسكرى لشعوب أوروبا وحضارتها فى القارات الأخرى . ولم تتوقف هذه العملية ، الا فى النصف الأخير من هذا القرن ، حيث ناضلت الحضارات القديمة لاستعادة استقلالها عن طريق حروب التحرير الوطنى والثقافى . ويرى المؤرخون الغربيون أن هذا الانتشار العالمى كان معادلا بالضبط لانتشار « المدنية » ، أى نقل الحضارة الأوروبية الراقية ، فى زعمهم ، الى مناطق العالم التى كانوا يسمونها « بدائية » . وهكذا ، نظرا لابتلاع حضارات شتى على يد الأوروبيين المستعمرين ، ازدادت قوة الانطباع العام بأن « التقدم » بهذا الشكل من انتشار المدنية الأوروبية الخادعة ، وبلا حدود ، قد تحقق فعلا .

ومع ذلك ، اذا استعدنا الأحداث الماضية ، وتأملناها نجد أن التفوق الحضارى الأوروبى فى ذلك الوقت الذى انكشف (وليس اكتشف) فيه نصف الكرة الغربى أمامهم ، هو مسألة بعيدة عن الوضوح . فقد أحاط الشك - حقيقة - بهذه الفكرة الغامضة عن « تفوق » و « تدنى » الحضارات ، وحن الوقت للاقلاع عن هذه المفاهيم فى دراساتنا للتاريخ . والحقيقة الأهم ، هى أنه كانت هناك « عوالم جديدة » وضعت فى خدمة المستعمر الأوروبى وقذفت بأوروبا بعيدا عن فترة الركود والرجعية التى طالت زمنا . ذلك أنه قبل تحول المحيط الأطلنطى الى كيان مائى معروف بأكثر من قرن من الزمان ، كانت أوروبا تعاني من نقص سكانها ، نتيجة الأوبئة ، والحروب الطويلة ، والركود الاقتصادى الذى يتضح من قلة الانتاج ، وانحسار التجارة ، كما كانت تعاني من جمود الحضارة المسيحية بصفة عامة ، فى فترة اتسمت بغياب التقدم فى العلوم الطبيعية واطمحلال الجامعات ، وانهيار الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت الحضارة الاسلامية هى أكبر قوة فعالة ونشطة فى أوروبا فى القرنين الرابع عشر

والخامس عشر • تلك الحضارة التي انتشرت في أفريقية بسرعة ، وأخذت تتقدم شيئاً فشيئاً إلى أوروبا من جهة الشرق • وتميزت أوروبا الغربية قبل « عصر الكشوف » بالنظرة التشاؤمية (*) ، والكلبية (**) ، واليأس ، فكان العصر عصراً سوداويًا كثيباً • فضلاً عن أن الموازد الطبيعية في أفريقيا وآسيا والأمريكتين – من ذهب ، وفضة ، وأرض ، وسكان – أدت إلى انتعاش تجاري خلال أربعة قرون من التوسع والتطور الأوروبي • فعندما حاول كولومبس البحث عن طريق مائي إلى أقدم أجزاء العالم القديم ، أخطأ طريقه فوصل إلى العالم الجديد ، حسب التصور الأوروبي فقط • إلا أن هذا الخطأ الذي جاء وليد الصدفة ألهم خيال الأوروبيين (ولعل ذلك كان أهم ميزة فيهم) وأحيا روح المغامرة والتوسع فيما وراء البحار لأكثر من أربعمئة سنة •

التوسع الأسباني في العالم الجديد :

ظن كولومبس أنه وصل إلى الهند ، عندما سار لأول مرة على جزيرة اسبانيولا Hispaniola سنة ١٤٩٢ • وكان هذا هو هدفه بالضبط ، أن يجد طريقاً مائياً بالكامل إلى الشرق ، ليتمكن التجار الأوروبيون الذين يقاوضون على البهارات التي لا غنى عنها لإعطاء الطعام الأوروبي مذاقاً طيباً ، من تفادي دفع المكوس لحكومات الشرق الأوسط ، الذين كانوا يكسبون أولاً بأول من وراء أية مغامرة تجارية على الطرق البرية • ومن المألوف أن نركز على الأهمية البحرية والجغرافية لرحلات كولومبس ، ولكن الحقيقة أن انحرافه عن الطريق البحري السليم كان سيكتب عنه فشل باهظ الثمن ، إذا ظهر أنه لم يعثر على الطريق البحري المزعوم إلى الهند ، ولم يكتشف الذهب في جزيرة اسبانيولا سنة ١٤٩٣ ، فبدون الذهب ، وغيره من المعادن النفيسة ، تصبح هذه الأرض المكتشفة حديثاً مجرد عقبة على الطريق البحري إلى الشرق •

ولكن بالرغم من اكتشافه صدفة ، كان كولومبس لا يزال نموذجاً أصلياً للتوسع الأوروبي ، وتفكيره نموذجاً كاملاً للعصور الوسطى ، وكان أيضاً طموحاً ومغامراً ، مستعداً لترجمة أية فكرة ، مهما كانت مثيرة للسخرية ، ويترجمها إلى عمل حقيقي • وكان متهوراً إلى الدرجة التي جعلته يحافظ على هدفه عندما كان جنوده البحارة مستعدين للتمرد عليه

(*) التشاؤمية : الاعتقاد بأن كفة الشر والشقاء هي الأرجح في هذا العالم ، عن كفة الخير والسعادة •

(**) الكلبي : المتشائم ، الساخر ، الذي يؤمن بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الشخصية الذاتية وحدها •

ليأسهم من مجرد رؤية اليابسة مرة ثانية . وباستفادته من التقدم الكبير في التكنولوجيا البحرية ، والكشوف البرتغالية في القرن السابق ، اكتشف كولومبس ، مثله في ذلك مثل الفايكنج Vikings قبله بخمسمائة سنة ، أن المحيط الغربي من أوروبا لم يكن بلا حدود ، وكانت لديه العجرفة الأوروبية التي أثبتت قيمتها في عملية الاستعمار في القرون التي تلت ، وبالتالي أثبتت أهميتها في تدمير الحياة الانسانية .

وباكتشاف الذهب ، بدأت حركة اندفاع تجار الجملة من شباب أقل الطبقات نبلا في أسبانيا بالمغامرة بعبور الأطلنطي . وكانوا في الخمسينات من القرن السادس عشر قد اكتشفوا ، وفتحوا باسم الملكة ، وأدعوا حق ملكيتهم في برزخ بنما ، والمكسيك ، ومعظم أمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، والسهول الجنوبية القصوى - وكذلك المراكز الجنوبية المهمة في أمريكا الشمالية ، امتدادا من كاليفورنيا على ساحل المحيط الهادى الى فلوريدا على ساحل الأطلنطي . وثبتوا سلطة الأسبان ، والكنيسة الكاثوليكية بقيادة شخصيات عسكرية مثل كورتيز ، وبثاردو Pizarro ، وكورونادو Coronado على مساحة تربو على مساحة وطنهم الأم ، ويزيد عدد سكانها أضعافا مضاعفة . وبنهاية القرن السادس عشر تم فتح المراكز الرئيسية للسكان الوطنيين ، وأخذت نحو ستين سفينة تمخر عباب الأطلنطي سنويا بين أشبيلية والمستعمرات الأسبانية ، تنقل آلافا من العبيد المستوردين من أفريقيا ، وكميات مذهلة من الفضة المستخرجة من مناطق أسبانيا الجديدة .

قلّت السيادة الاستعمارية لأسبانيا على أمريكا طوال القرن الأول من التوسع الأوروبى فيما بين تسعينات القرن الخامس عشر الى تسعينات القرن السادس عشر . ولم ينافسها في ذلك سوى البرتغال ، التي اتجهت جهودها أساسا الى استعمار جزر الأزور بالأطلنطي والواقعة على بعد ٨٠٠ ميل من ساحل البرتغال . وأنشأت مراكز تجارية على السواحل الشرقية والغربية لأفريقية . وحتى الخمسينات من القرن ١٦ لم تدع البرتغال لها حقا في البرازيل ، التي أصبحت مركز نشاطها في العالم الجديد . وبنهاية القرن ، احتاج انتاج السكر الى جهد الخمسة والعشرين ألف مستعمر برتغالى ، وربما الى عدد مساو لذلك من العبيد الزنوج في البرازيل .

دخول الانجليز سباق المستعمرات :

في الوقت الذى أدركت فيه انجلترا ، ما يشر به العالم الجديد من خيرات ، كانت القوات فى شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) قد ترسخت أقدامهما بقوة هناك . أما انجلترا فكانت أكثر الدول الأوروبية

التي تواجه الأطلنطي تخلفا في كشف الأمريكتين واستعمارهما • رحلات جون كابوت John Cabot وصحة اسمه ، جوهان كابوتي Johann Caboti المولود في جنسوا - هي التي أعطت انجلترا الحق في أن يكون لها مكان في سباق العالم الجديد • ولم يعقب هذه الرحلات التي قام بها كابوت قى التسعينات من القرن السادس عشر أية رحلات أخرى مشابهة ، وحتى تلك الرحلات الشهيرة لجون هوكنز J. Hawkins في الستينات من القرن السادس عشر يجب تجاهلها لعدم أهميتها في التوسع الأوروبي في أمريكا ، لأن هوكنز كان ، في الأساس ، مشغولا بقرصنته من الدرجة الأولى بغاراته على التجارة الأسبانية في البحر الكاريبي بمساندة من التجار الانجليز المعادين للكاثوليكية ، والذين يأملون في اغراء حكومتهم بتقديم الرعاية والعون المالي في محاولاتهم المنعزلة ، غير المنظمة للقضاء على الاحتكار الأسباني والبرتغالي للعالم الجديد •

لا يرجع دخول الانجليز في سباق الاستعمار ، الى الرغبة فقط في المشاركة في استغلال العالم الجديد ، بل الى المساهمة أيضا في الحرب العقائدية التي شبت في أوروبا خلال النصف الأخير من القرن السادس عشر حيث أنهكت جميع القوى الأوروبية الغربية المطلة على الأطلنطي باستثناء الدول الاسكندنافية في الصراع بين أولئك الذين آمنوا بالكاثوليكية والذين التزموا بالبروتستانتية • هذا النزاع القومي ، الأيديولوجي ، يجب النظر اليه كاستمرار للموضوعات والاهتمامات التي برزت في حركة الاصلاح البروتستانتية وحركة الاصلاح المضادة لها • ومن المهم أن ندرك ، أن الاهتمام باستعمار العالم الجديد جاء « في فترة من التاريخ الغربي تتميز بالعنف غير العادي ، والاستقطاب العقائدي » (١) •

ومن السهل على باحثي القرن العشرين أن يفهموا فكرة المنافسة الوطنية أكثر من فهمهم للصراع الأيديولوجي • فالمستعمرات في الأجزاء المكتشفة حديثا من الكرة الأرضية تمثل مصادر قوة اضافية للوطن الأم ، بما تملكه به من أسواق ومواد خام جديدة ، فاذا كانت تشمل الذهب والفضة ، أضافت الى رصيده معيارا من معايير قوة الأمم في ذلك الحين • لذلك كانت انجلترا في نهاية القرن السادس عشر شغوفة باقامة موطئ قدم لها على ساحل أمريكا الشمالية ، لأن أسبانيا والبرتغال قد سيطرتا بالفعل على أجزاء من البحر الكاريبي في قارة أمريكا الجنوبية ، وادعت (انجلترا) كذلك حقها في الأجزاء الجنوبية من مساحة القارة الواسعة • فاذا لم تسارع انجلترا بالتحرك ، فسيقت الأوان • وكانت أسبانيا للسبب نفسه تصر على مقاومة أية غارات انجليزية على ما كانت تعتبره في دائرة نفوذها الأسباني • لذلك ، حينما بدأ الانجليز أولى خطواتهم

في اقامة امبراطورية لهم ، خططت اسبانيا لشن هجمات بحرية على المستعمرات التي قد يؤسسها الانجليز على الساحل الاطلنطي لأمريكا الشمالية . كما أن أول خريطة معروفة لتلك المستعمرة الانجليزية الصغيرة جدا التي أقيمت في جيمس تاون بفرجينيا ، والتي رسمها ملاح أيرلندي كاثوليكي من طاقم السفينة الانجليزية التي نقلت المستعمرين الى خليج تشيزايبك Chesapeake ، هذه الخريطة تم تهريبها الى اسبانيا ، التي اعتبرتها وثيقة ممتازة ، وأمدتها بالمعلومات الضرورية لشن هجوم مباغت على أول موطن قدم للانجليز على ساحل أمريكا الشمالية .

الأهداف الدينية للاستعمار :

ترتبط الأهداف الدينية للاستعمار ارتباطا وثيقا بتلك المفاهيم الوطنية المتعلقة بامتلاكات ما وراء البحار . اذ نظر الكاثوليك والبروتستانت الى احتلال العالم الجديد على أنه حملات دينية صليبية . وكانت اسبانيا منهمكة منذ قرون في صراع ضد مسلمى الأندلس . وحدث أن وصل كولومبس الى العالم الجديد في نفس السنة التي تم فيها طرد العرب من اسبانيا . اذن ، لم يكن فتح العالم الجديد مطلبا وطنيا فقط ، بل ومطلبا دينيا أيضا لقارة مليئة بالشعوب « الوثنية » التي تنتظر تحويلها الى المسيحية .

وأدى انقسام المسيحية الى كاثوليكية وبروتستانتية ، الى تعقيد الحركة الدينية ، فبالرغم من أن نظرة الأوروبي الى الوثنية واحدة ، الا أن القضية التي ثارت هي : الى أي المذهبين سيتحول هؤلاء (الوثنيون) ؟ وذلك لأن المسيحيين انقسموا بشدة على أساس أنهم يستطيعون القتال في حروب دينية لعدة قرون مع ما يسببونه من تدمير شامل باسم الله ، لكن الأمر يثير حيرة أولئك الذين نشأوا في مجتمع غير ديني . الا أن حدة هذا النزاع والتنافس داخل أوروبا المسيحية يمكن فهمه اذا تذكرنا أن الدين بالنسبة لرجال هذا العصر ونسائه – وكما كان منذ قرون سابقة – هو العقيدة الأساسية المنظمة لحياتهم . ولما كانت سيطرة الانسان على بيئته محدودة جدا ، لارتباط ذلك بمدى معرفته العلمية والتكنولوجية ، لذا ازداد ميله الى أن يعزو ما لا يستطيع فهمه أو السيطرة عليه الى قوى طبيعية خارقة قد اضطر الى عبادتها ، وجعلها محور حياته .

ولأن الايمان لم يكن هو المبرر الوحيد للتحكم في الحياة ، وجد أصحاب العقائد المختلفة أنفسهم ملتزمين عاطفيا بالدفاع عن مذاهبهم ، ومهاجمة المخالفين لهم في الرأي .

هذان « المذهبان » - البروتستانتية والكاثوليكية - يمكن فهمهما اذن بشكل أفضل بوصفهما قواعد للحياة ، ووسائل للفهم بعيدا عن القوى والأحداث التي تحيط بالانسان ويتعذر السيطرة عليها ، ووسيلة لاعطاء نظام ومعنى لعالم الفرد ومكانته فيه . وبهذا المعنى لم تختلف هذه الأيديولوجيات كثيرا عن « مذاهب » اليوم - شيعية واشتراكية وديمقراطية ، فهذه أيضا نماذج فكر واعتقاد ، وأساليب لتنظيم حياة المجتمع ، وتوجيه مجرى طاقاته وقيمه ، كما أنها تعطي معنى لكل ما نفعله ، وتمدنا بالاحساس بهويتنا . ويعتقد أغلب الناس اليوم في أحد هذه المذاهب بحماس لا يقل عن اعتقاد أسلافهم في البروتستانتية أو الكاثوليكية أو الاسلام . ونرى أن حروبنا ، نحن اليوم ، والتي تتم في وحشية بالغة ، وقسوة تقنية باسم النظم الايديولوجية ، تفسر لنا لماذا كان المسيحيون والمسلمون أو الكاثوليك والبروتستانت يجاريون بقوة لا تليق لحماية عقيدتهم أو نشرها (*) في أوائل العصر الحديث .

وخلال فترة طويلة من القرن السادس عشر ، تأرجحت انجلترا بين المذهبين الدينيين ، حيث عاشت أولا تحت الحكم البروتستانتي للملك هنري الثامن وابنه المعتل صحيا ادوارد السادس ، ثم تحت الحكم الكاثوليكي لابنته ماري تيودور ، التي تزوجت فيليب الثاني ملك اسبانيا ، الذي كان يمثل الدعامة الرئيسية للكاثوليكية في أوروبا . ثم عادت انجلترا الى البروتستانتية مرة ثانية ، بعد وفاة ماري تيودور ، وتولى اليزابيث ، الابنة الثانية لهنري ، مقاليد الحكم عام ١٥٥٨ . فقد استحسنّت البروتستانتية كوالدها ، كتعبير أساسي عن الاستقلال الوطني . وقصّدت في المقام الأول ، الى خلق ظروف للازدهار والرخاء القومي . وبالرغم من أنها حققت بعض النجاح الاقتصادي ، إلا أن المسألة الدينية ظلت تهددها دائما اذ اعتبرها فيليب الثاني ، زوج أختها الأسباني ، من المنشقين البروتستانت ، وتآمر عليها باستمرار .

الآرمادا الأسبانية (**):

في سنة ١٥٨٧ ، بدأ النزاع الغاضب المكبوت بين اسبانيا الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية يتحول الى صراع علني ، وأخذت انجلترا تقوي نفسها لمواجهة الهجوم البحري المنتظر من الأسطول الأسباني ، الذي كان

(*) لم ينتشر الاسلام بالسيف مطلقا ، كما يزعم المفوضون من الاوربيين دائما - (المترجم)

(**) الـ armada : الأسطول باللغة الأسبانية ، والانجليزية - وتطلق بوجه خاص على الأسطول الأسباني سنة ١٥٨٨ ، الذي دمرت معظمه العواصف والأسطول الانجليزي .

يعتبر حينذاك أقوى أسطول بحرى فى العالم . وتعريف المعركة التى تلت ذلك بالآرمادا الأسبانية . وفى ربيع ١٥٨٨ ، أبحر الأسطول الأسباني الى انجلترا ووصل الى هدفه فى أواخر يولية ، حيث نشبت المعركة فى البحر مدة أسبوعين ، ولدهشة أوروبا انتصر الانجليز بمساعدة الهولنديين ، ولم يترتب على هزيمة أسبانيا تفوق بحرى للانجليز ، أو امتلاك أية أرض فيما وراء البحار اعترافا بانتصارها ، كما لم تفر الهزيمة بريطانيا بالدخول فى السباق الاستعماري فيما وراء البحار ، الا أنها منعت ، بحق ، أى انتصار جدي للكاثوليكية فى أوروبا ، وأنهت أحلام الأسبان بالسيطرة على أوروبا مؤقتا . وقد وضعت الآرمادا الحروب الدينية فى مأزق مؤقت ، وأوضحت لجيل كامل - حتى سنة ١٦١٨ حين ألقت حرب الثلاثين سنة بأوروبا ، ثانية ، فى صراع ديني علني - أن التوحيد الديني يجب ألا يفرض بالقوة . وأصبحت انجلترا حرة فى ممارسة هويتها متحررة من تسلط القوى الأوروبية الأخرى ، وطنيا وعقائديا .

بداية الاستعمار الإنجليزي :

مع خلو الطريق أمام التوسع فيما وراء البحار ، بدأت « حمى الاتجاه نحو الغرب » تعم انجلترا بنهاية القرن السادس عشر . فجرت محاولة بسيطة فاشلة لتأسيس مستوطنة صغيرة على جزيرة رونوك على ساحل كارولينا الشمالية فى الثمانينات من القرن السادس عشر . وبعد معركة الآرمادا ، أدركت الطبقة العليا ، والتجار الانجليز مدى الأرباح المغرية الموجودة فى العالم الجديد . وفى أمريكا الشمالية مصدر غنى للمواد الخام . تماما كما وجد الأسبان والبرتغاليون فى مستعمراتهم بأمريكا الجنوبية ، وينتظر الذهب والفضة القلوب (الجريئة) لاستغلالهما . ويتطلب الأمر بالضرورة العثور على الطريق الشمالى الغربى البديل الى المشرق ، عبر تلك القارة التى كانوا يعتبرونها ذات ممرات ضيقة .

وظهر رجل وابن أخيه ، يعرف كل منهما باسم ريتشارد هاكلويت Hakluyt ، وأخذنا يبسطان وجهة نظرهما لمواطنيهم فى الريف ، اذ كرسا نفسيهما فى الربع الأخير من القرن السادس عشر لشرح مزايا سكنى المناطق البعيدة المنعزلة على الجانب الآخر من الأطلنطى ، فبدأ ينشران فى كتيب وراء كتيب حججهما المؤيدة لعملية الاستعمار . فالمجد والشهرة والمغامرة تنتظر كل فرد . . . فطبقة النبلاء يعدها الاستعمار بامبراطورية فى العالم الجديد تكون مصدرا لامتلاك ضياع واقطاعيات جديدة ، وللتجار أسواق جديدة ومساحات واسعة مملوءة بالمنتجات الغربية التى يمكن تسويقها فى وطنهم . ورجال الدين تنتظرهم قسارة مليئة « بالوثنيين »

المحتاجين لهدايتهم الى مجده المسيح العظيم . وللعمامة مجال يغرى بالمغامرة ، وفرص اقتصادية بلا حدود . ولعامل اليومية الفقير أمل ينتظره لبده حياة جديدة فى قارة لا حدود لأرضها والفرص فيها عظيمة . فنجد فى أحد كتيبات هاكلويت ، « مقال فى المشروع الغربى » ، دعوة لزراع سلاله انجليزية عبر الأطلنطى ، كما ساهم شريكسبير بنصيب فى إثارة الشعور الوطنى بكتابة مسرحيته « العاصفة » يتحدث فيها عن أولئك الذين عبروا المحيط ليملأوا عظمة بلادهم بعيدا .

بدأت مساهمة الانجليز فى عصر الكشف والاستعمار بجيل من الملاحين المهرة ، والمغامرين ، ورجال ذوى شهامة مثل والتر رالى *walter Raleigh* ، وفرانسيس دريك *Francis Drake* ، وهنرى جيلبرت *Humphrey Gilbert* ، وريتشارد جرانفيل *Richard Granville* ، وبرعوس أموال قليلة ، وبمساندة بسيطة جدا من التاج ، قاموا بمحاولات كثيرة انتهت معظمها بالفشل ، ورغم أننا نفرد لهذه المحاولات الجريئة مواضع كثيرة فى كتب التاريخ ، لأنها كانت المحاولات الأولى من نوعها ، الا أن انجلترا لم تصبح قوة استعمارية ذات شأن فى العالم الجديد الا عندما بذلت الحكومة - كما حدث فى اسبانيا والبرتغال - مساندتها الفعالة للمشاريع الاستعمارية ، ولم تزد أهميتها الا عندما بدأ مجتمع التجار والطبقة الوسطى الحديثة يستثمرون رعوس أموالهم فى تجارب استعمارية وراء البحار . وهكذا لم تبلغ جميع الجهود الأولى شيئا ، أو بلغت القليل ، مثل رحلات هوكنز فى الستينات من القرن السادس عشر الى « ماين » الأسبانية ، ورحلات الرونوك بين عامى ١٥٨٥ ، ١٥٨٨ ، والتى انتهت بالفشل ، ومستوطنة ساجادا هوك *Sagadahoc* على ساحل « ماين » سنة ١٦٠٧ التى تدم سوى سنة واحدة . كذلك مستوطنة جيمس تاون فى فرجينيا سنة ١٦٠٧ التى تطورت ببطء وصعوبة مدة جيل قبل أن تؤمن موقعها كقاعدة ارتكاز حقيقية .

افتقد الانجليز فى كل هذه المحاولات العائرة ، عناصر النجاح التى ميزت جهود الأسبان والبرتغاليين . فلم يلقوا من حكومتهم سوى مساندة ضئيلة فى شكل اعانات مالية أو سفن أو حماية بحرية ، وكذلك الحد الأدنى من تأييد الكنيسة ، مقارنة بالاسهام الواسع من الكنيسة الكاثوليكية فى المستعمرات البرتغالية والأسبانية ، كما لم يلقوا ، فى الواقع ، مساعدة من الجيش أو من الرجال ذوى الخبرة العسكرية أمثال أولئك الذين فتحوا المكسيك من الأسبان فى القرن السادس عشر . ولكنهم وجدوا مساندة بسيطة من مواطنيهم المستثمرين ، وهم جمهور عريض من الطبقة المتوسطة والراقية الذين يرغبون فى المخاطرة بنقودهم فى تجارب

استعمارية • وهكذا ، فطالما بقى الاستعمار الانجليزى فى أيدي مجموعة من النبلاء المغامرين أو الأبناء الذين حرموا من الميراث (*) أو رجال الحاشية المقربين من الملك ، فلا يمكن إذن أن نتوقع منهم شيئاً ذا بال ، إذ أن المسألة لم تكن مجرد تجهيز بعض السفن القليلة ، وحشد بعض مئات من المقامرين أو الأشخاص اليائسين ليتغلبوا على العقبات التى تلازم عملية الاستعمار فيما وراء البحار • فالوصول الى العالم الجديد فى سفن صغيرة من الخشب ، وانزال عدة مئات من الرجال ومعهم امدادات تكفيهم عدة شهور ، شئ ، وتشكيل هؤلاء الناس فى تنظيم اجتماعى ، اقتصادى ، ليستطيعوا البقاء فى بيئة جديدة مثيرة للخوف ، ولم تستغل مواردها البفينة فى باطنها بنجاح كبير ، شئ آخر تماماً •

ولما لم يكن مستطاعاً جر الحكومة ، والكنيسة ، والعسكريين الى مشروعات استعمارية ، إذن ، كان الأمر يحتاج الى أموال وتأيد الطبقة المتوسطة الناشئة من المجتمع الانجليزى ، تلك الطبقة التى لم تكن لها أهمية تذكر فى بداية عصر مارى تيودور Tudor ، ثم تقدمت بسرعة بالتحرك فى النصف الثانى من القرن السادس عشر • ولعل حركة الاستعمار لم تكن لتنجح على يد طبقة النبلاء الانجليز ، ما لم تدعمها هذه الشريحة العريضة من المجتمع الانجليزى • ولم تحجب بذلك الطبقة الوسطى فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، فقد اجتذبت الأرباح السريعة المستثمرين الى زراعة قصب السكر فى جزر الهند الغربية ، التى رأوا فيها ربها مضموناً عن المغامرة بالمشروعات الاستثمارية الأخرى فى أمريكا الشمالية مثل زراعة المحاصيل وقطع الأخشاب وصيد السمك •

ولقد واجه الانجليز ادعاءات الدول الأوروبية الأخرى المنافسة فى حقها فى ملكية تلك الأرض الجديدة ، كما أن هذه الدول حاولت أن تدعم ادعاءاتها بالاحتلال الفعلى للأرض فى كثير من الحالات ، فكان لدى أسبانيا نحو ٩٠.٠٠٠ مستوطن جديد فى ممتلكاتها الخارجية • وبالرغم من أن أغلبهم كان فى بيرو والمكسيك حيث أقيمت مراكز استيطان كبيرة فى بوتوسى Potosi ، ومكسيكو سيتي ، وقرطاجنة Cartagena ، وأقاموا أيضاً مراكز على الحدود فى جنوب غرب أمريكا الشمالية وعلى ساحل الأطلسنطى من فلوريدا حتى خليج تشيزابيك • وامتدت ادعاءات الأسبان بحقوقهم الى أقصى الشمال حتى شبه جزيرة نيوفوندلاند • وعندما كان الانجليز يقتربون من شاطئ أمريكا الشمالية كانوا يدركون تماماً مدى التهديد الأسباني • ولا أدل على ذلك من أنهم بعد اقامتهم لمستوطناتهم الأولى،

(*) كانت قاعدة التوريث فى بريطانيا تمنح الميراث للابن الأكبر وتحرم منه باقى

الاخوة •

بنوا قلاعهم فى مواجهة البحر لصده هجمات الأسبان بدلا من الداخل حيث يقبع الخطر الهندى . ولم يكن لديهم شك فى أنهم يمارسون عمليات اعتداء تشبه القرصنة على المستعمرات الأسبانية القائمة .

كذلك كانوا على علم باحتلال الفرنسيين للقارة ، فمنذ سنة ١٥٢٤ حين اكتشف جيوفانى دا فيرتسانو Giovanni da Verrazzano الطرف الشرقى لأمريكا الشمالية باسم ملك فرنسا ، تصور الفرنسيون أنهم اكتشفوا الطريق الشمالى الغربى للصين ومدن الذهب ، ولقد حاولوا فيما بعد زرع مستعمرات لهم فى فلوريدا والبرازيل ولكن الأسبان والبرتغاليين ازالوها من الخريطة ، فأقنع الفرنسيون أنفسهم بتنمية الأراضى الشاسعة المتجمدة فى كندا واستغل تجارهم سواحل نيوفونلاند ونوفاسكوشيا منذ أوائل القرن ١٦ ، وتطورت تجارة الفراء مع هنود المنطقة ، والتى بدأت نحو سنة ١٥٣٥ . وأقنعت هذه الجهود الفرنسية بإمكانية استغلال منطقة نهر سانت لورنس والاستفادة منه ، رغم قسوة المناخ وعدم ملائمته للمعيشة والسكن اذ أن نهري سانت لورنس ، وهلسن Hudson R. هما مصدرا المياه الوحيدان بالأجزاء الداخلية من القارة . وقد كان الفرنسيون سنة ١٦٠٣ أذكياء باختيارهم إقامة أولى مستوطناتهم بالقرب من مصب نهر سانت لورنس ، وبذلك بدعوا بحثهم عن شكل آخر من ذهب العالم الجديد ، ألا وهو جلود الحيوانات ذات الفراء .

لذلك ، كان على الانجليز أن يلتفتوا الى الجزء الأوسط من ساحل الأطلسنطى لإقامة مرتكز صغير لهم فى القارة . وكان الأهالى الأصليون ، سكان هذه الأرض هم الذين استحقوا انتباه الانجليز أكثر من أى سكان آخرين . . فماذا كان يعرف رجال أمثال جليبرت ، ورالى عن سكان القارة عند مجيئهم الى الساحل الوعر لأمريكا الشمالية فى العقد الثامن من القرن السادس عشر ؟ وكيف سيستقبلهم هؤلاء الناس الذين أسماهم كولومبس خطأ بالهنود عندما ظن أنه وصل الى الصين وكيف سيملكون أو يستفيدون من الأرض التى يشغلونها ؟ وكيف تأثرت آراؤهم عن طبيعة الشعوب الهندية بذلك المطلب الشائك ، الخاص بالسيادة على الأرض ؟

تصور الانجليز لأهالى أمريكا الشمالية الوطنيين :

يمكننا الاطمئنان الى أن الانجليز ، كانوا يدركون بالخبرة تلك المفاهيم التى ملأت أذهان أولئك المستكشفين الذين حاولوا اختراق المجهول . ومن الواضح أيضا أنهم كونوا فكرة جيلة عن شعب العالم الجديد من الهنود منذ تقرير كولومبس عن العالم الجديد الذى طبع فى عدد من العواصم الأوروبية سنتى ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، وهذا الكم الهائل من

التقارير ، والقصص ، والروايات الدعائية التي تداولها البحارة ، والتجار ، والجغرافيون ، ورجال الكنيسة الذين شاركوا أو شجعوا الرحلات الأولى للكشف ، والتجارة ، والاستيطان ، وأصبح ذلك كله هو الأساس لفهم العالم الجديد لدى أى مغامر يحاول شق طريقه الى الطرف الشرقى من اليابس ، غرب المحيط الأطلنطى .

ومن هذا الكم الضخم من الكتابات المتداولة ، استمده المستعمرون الأوائل صورة جزئية لأهالى أمريكا الشمالية الأصليين . فمن ناحية ، كان لديهم مبرر للاعتقاد بأن الهنود أناس وديعون ، وأنهم سيستقبلون أولئك الذين لم يأتوا ليضروهم ، وإنما للمعيشة بينهم والتجارة معهم . فقد كتب كولومبس عن « التفاهم العظيم معنا » الذى لقيه فى سان سلفادور سنة ١٤٩٢ ، ووصف الهنود من الأراواك Arawak بأنهم « شعب ودود ، لا يشتهون ما فى يد الغير » ، و « كانوا مسرورين جدا ، وأصبحوا أصدقاء لنا ، تماما ، الأمر الذى أثار دهشتنا » . و « قد أحضر الهنود إلينا الببغاوات ، والخيوط القطنية فى حفات راقصة ، وكذلك الحراب وأشياء أخرى كثيرة مما استبدلناه منهم بأشياء أخرى مثل حبات الخرز الزجاجية الصغيرة » (٢) وفى سنة ١٥٢٤ ، نجد فيراتسانو ، أول أوروبى يسبح الى الحافة الشرقية للمقارة ، يكتب بتفاؤل مماثل ، من خليج نيويورك ، فيقول :

« بعد مائة فرسخ ، وجدنا مكانا مناسباً جداً بين تلين صغيرين بارزين ، بينهما نهر واسع جداً ، عميق عند مخرجه ، ويصب فى البحر . . . صعدنا بقاربنا فى هذا النهر الى أرض وجدناها مزدحمة بالسكان الذين لا يختلفون كثيراً عن غيرهم ، حيث يلبسون ريش الطيور المختلف الألوان ، وقد جاءوا نحونا فى مروح ، يطلقون صيحات عالية تعبر عن الدهشة ، ويلوننا على أكثر الأماكن امنا للرسو بالقرب » (٣) .

ومنذ ذلك الحين ، أخذت الروايات عن الأهالى الوطنيين فى العالم الجديد تتضمن كثيراً من صور الحماسة التى تصفهم ، وتصف مدى تلهفهم على استقبال المستكشفين ، والمستوطنين الأوربيين ، هذا الجانب الإيجابى من صورة الهنود ، لا يعكس فقط الاستقبال الودى الذى يبذلونه أن الأوربيين قد لاقوه فى نيوزوندلاند ، وأجزاء من فلوريدا ، وكل مكان آخر فى البحر الكاريبى وأمريكا الجنوبية ، بل يمثل أيضاً ، جزءاً من تصورهم للعالم الجديد على أنه إحدى جنات عدن فى الأرض ، حيث يمكن للأوربيين الذين مزقتهم الحروب ، وأفقرتهم أن يجدوا فيها الحياة

وسط سخاء الطبيعة الذى مكن الأهالى الأصليين من أن يعيشوا بها قرونا عديدة فى راحة ملموسة . وإن اعتقاد كولومبس ، عندما وصل الى نهر أورينوكو Orinoko سنة ١٤٩٨ أنه كشف جيحون - أحد الأنهار الواردة فى الكتاب المقدس التى تنبع من جنة عدن ، لدليل على نوع العقلية الأوروبية آنذاك .

والسبب الآخر لاعطاء هذه الصورة المتفائلة أن الانجليز كانوا يأملون ، كغيرهم من المستعمرين الأوروبيين فى أن تصبح التجارة مع هذه الشعوب مصدرا كبيرا للربح على الجانب الآخر للأطلنطى ، وأنهم سيحتاجون الى مساعدة هذه الشعوب لهم . ولم تهدف الرحلات الانجليزية الأولى ، أساسا ، الى اقامة مستعمرات على نطاق واسع أو الى الانتاج الزراعى ، بل كان أساس التقدم عبر البحار هو الرغبة فى التجارة مع الهنود ، والبحث عن الذهب والفضة ، وكشف الطريق الشمالى الغربى . ولم يكن الأهالى يقدمون سوقا جديدة لتجارة الصوف الانجليزى فقط ، بل كان المتوقع أن تتدفق جميع السلع من العالم الجديد الى انجلترا . لقد كانت الأرض هى الهدف الأساسى لدى الأسبان والبرتغاليين ، ولم يكن الهدف العسكرى لفتح هذه الأراضى ذا أهمية فى ذهن الانجليز فى المراحل الأولى من النشاط الاستعمارى . بل كان الهدف الأهم هو اقامة مراكز تجارية حصينة على رؤوس الأنهار حيث يمكن للأهالى المجئ للتجارة معها . وهكذا كان الانجليز فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر متأثرين بإسهامهم المبكر فى تجارة الحرير مع الشرق حيث ربحوا من هذه التجارة ، مدة نصف قرن ، دون غزو لأراضى الشعوب الأخرى أو طردهم منها ، بل بالمقايضة معهم دون تهديد لمليكتهم لأراضهم أو محاولة اخضاعهم . لذلك كان هناك باعث خاص للنظر الى الهنود باعتباره أكثر من مجرد « همجى » ، فالهندي الصديق هو فقط ، الذى يمكن أن تتاجر معه ، ومادامت التجارة هى أساس التقدم عبر البحار ، فلا غرابة إذن أن يروى البحار ضرورة أن يكون الهندي كريما ومتفتحا ، يمكن اقناعه ، وكسبه لصالح التجارة .

رغم ذلك ، كانت هناك صورة مناقضة لذلك عن الهندي الأحمر ، مستقرة فى أذهان الانجليز الوافدين ، هذه الصورة السلبية التى تمثله همجيا ، معاديا ، أقرب الى الحيوان فى مظهره وسلوكه ، وكانت هذه الصورة مستمدة من روايات المغامرين الأسبان والفرنسيين ، كما أن سيباستيان كابوت - Sebastian Cabot كان قد عرض فى انجلترا ثلاثة من الاسكيمو ، أسره فى رحلته الى منطقة القطب الشمالى سنة ١٥٠٢ ، ووصف أحد المعاصرين الأهالى الوطنيين بأنهم أكلة لحوم البشر ، ويندافيون

« يتكلمون لغة لا يمكن لأحد أن يفهمها ، ويشسبهون الوحوش في تصرفهم » (٤) . وامتلات الكتب في النصف الثاني من القرن السادس عشر تصف الوطنيين بعبارات غير مشجعة لا تبعث على التفاؤل فوصفت الهنود بأنهم مخادعون ، أجلاف ، متوحشون وأنصاف آدميين ، تشمئز النفس منهم ، وأنهم من أكل لحوم البشر كما ذكر كتاب منشور سنة ١٥٧٨ حيث يقول : « لا يجدون أى لحم أو سمك فاسد (كرية الرائحة جدا) الا آكلوه على حالته دون أى نوع من الطهى » . وتصفهم روايات أخرى بأنهم بهيميون ، ينغمسون في ملذاتهم الجنسية ، وتحركهم العواطف ، عامة ، أكثر مما يحركهم العقل .

وبصرف النظر عن قصص الرحلات والمغامرة هذه ، كان لدى الانجليز سبب آخر ليتصوروا أن هؤلاء السكان لن يتاجروا معهم بأسلوب ودى . فقد كانوا يقرؤون منذ سنوات عن التجربة الأسبانية مع الشعوب الهندية في المكسيك وبيرو - وهى صورة لم تكن جميلة - ومن أبرز هذه القصص قصة الراهب اللومينكانى ، بارثولومى دى لاس كاساس Bartholomé de Las Casas المسماة « رواية موجزة عن إبادة الهنود » ، والتي ترجمت الى الانجليزية ، ونشرت سنة ١٥٨٢ بعنوان « المستعمرة الأسبانية أو عرض تاريخى مختصر لتصرفات ومغامرات الأسبان فى جبال الأنديز » . وقد استشار الانجليز بوصف لاس كاساس للأعمال الوحشية الأسبانية وعمليات الإبادة الجماعية التى أكلت أسوأ ما يعتقده الانجليز البروتستانت فى الأسبان الكاثوليك الذين كانوا على وشك الدخول معهم فى حرب ، وقد وردت فى الكتاب القصة التالية :

« بدأ الأسبان يتعملون القتل ، ويرتكبون أعمالا وحشية غريبة . فدخلوا المدن والقرى والتجوع ، بأحسنهم وسهامهم ورماحهم ، لا يبقون على نسوة مع أطفالهن ، أو نسوة حوامل ، الا وييقرون بطونهن ويقطعنهن اربا ، كما لو كانوا يذبحون خرافا فى حظائرهم . ويتراهنون على تفريغ كرش هذا الرجل أو ذاك ، أو اخراج احشائه بطعنة واحدة من سيفه أو قطع رأسه بضربة سيف ، ويزهقون أرواح الاطفال الرضع بكعوب احدىيتهم بعد ان ينتزعوهم من فوق اثداء امهاتهم ، ثم يستحقون رؤوسهم بلقها على الصخور ، ويلقون بعضهم الى النهر وسط ضحكاتهم واستهزائهم ، قائلين لمن يتخبط منهم فى المياه قبل ان يدركه الفرق : انقل نفسك يا اكبر جيفة ، او يربطون الطفل مع امه ويسلدون اليهما طعنة سيف واحدة ، وينصبون المشانق بارتفاعات مختلفة بحيث لا تكاد تسمح

لأقدام الملقيين عليها أن تلمس الأرض ، وتكفى كل منها ثلاثة عشر فردا ، وذلك (العدد) تقريبا الى مخلصنا المسيح وحوارييه الاثنى عشر (حسب قولهم المعتاد) ، ثم يضرمون النار تحتهم لتحرقهم جميعا » (٦) .

كانت هذه الروايات كافية لتغذية أعداء الأسبان بمبررات للتحامل عليهم ، وشغف رجال أمثال هاكلويت وابن أخيه بالاقتباس منها حيث وصفا المستعمرين الأسبان بأنهم « الذئاب ، زبانية جهنم » .

ولكن هذه الروايات كانت قنبيء أيضا عن استحالة تجنب هذا النوع من المنايخ عندما يقابل الأوروبيون شعبا « بدائيا » . وقد ردت جمهرة من الكتاب الأسبان على لاس كاساس ، في محاولة لتبرير السلوك الأسباني ، باصرارهم على أن الهنود هم الذين دفعوهم الى اراقة السماء بطبيعتهم الوحشية التي لا تتغير ، بحيث لم تكن هناك طريقة أخرى للتعامل معهم . ومهما كانت فائدة هذه القصص عن وحشية الأسبان للمؤلفين البروتستانت ، كان لابد للانجليز المبشرين الى العالم الجديد أن يتساءلوا في حيرة هل تنتظرهم مثل هذه الأمور ؟ ولم يشك أكثرهم في أنهم يملكون التفوق الفني كالأسبان ، وأنهم اذا ما أرادوا ، يمكنهم تدمير البلد الذي يخلونه ، فضلا عن التجربة الانجليزية مع الأيرلنديين الذين اكتسب في بلادهم ضباط أمثال جلبرت ، ورالى خبرة في اخضاع « الأجناس الأدنى » منذ عشرات السنين . وتوحى هذه التجربة بأن الانجليز كانوا قادرين تماما على تنفيذ أية أعمال وحشية قام بها الأسبان . ومهما بدت المقايضة مع الهنود سهلة وممكنة ، في بعض الكتابات الانجليزية ، الا أن صورة الهنود المعادي الذي يترقب المغامرين المسيحيين لم يسهل محوها أبدا من ذهن الانجليز ، فهم يعرفون جيدا ، سواء من التجربة الأسبانية والبرتغالية في العالم الجديد ، أو من غزوهم لايرلندة وهولندة في أواخر القرن السادس عشر أن من المعتاد ألا يقابل الأهالي الوطنيون بمودة أولئك القادمين للسيطرة عليهم . وأن تصور الهندي حيوانا متوحشا هو وسيلة للتنبؤ بما سيحدث والاستعداد له ، وتبرير ما سيتم من تصرف ، حتى قبل أن يتسبب فيه أحد .

والعامل الثالث ، الذي غذى الصورة السلبية عن الهنود ، يتصل مباشرة بملكية الأهالي للأرض التي يتشوق الأوروبيون الى امتلاكها ، وذلك لأن سكنى الهنود للأرض تسبب لهم مشكلات قانونية ، وأخلاقية ، وعملية . ففي أوائل الثمانينات من القرن السادس عشر - اعترف جورج بيكهام Peckham بأن بعض الانجليز شكك في حقهم في الاستيلاء على أراضي الغير ، وأثار الفكرة مرة ثانية سنة ١٦٠٩ روبرت جراي الذي تساءل

بأسلوب بلاغى : « بأى حق أو مبرر ندخل أرض هؤلاء البدائيين ، وننتزع حقهم الموروث ، ونزرع أنفسنا فى أماكنهم دون أن يسيئوا إلينا أو يستفزوننا لذلك ؟ » (٧) سؤال وجيه ، لأن الانجليز ، كغيرهم من الأوروبيين ، قد نظموا مجتمعهم على مفهوم الملكية الخاصة للأرض ، واعتبروا ذلك من مميزات تفوقهم الحضارى ، ولم يتعاملوا عن حقيقة دخولهم أرض شعب آخر يمكنه بملكيتة السابقة أن يدعى بحقه وحده فى ملكية القارة بأكملها .

وكان يمكن حل هذه المشكلة بصورة ما ، بمحاولة الاقتناع بأن الانجليز لا يريدون الاستيلاء على أراضى الهنود ، بل يقصدون فقط أن يشاركوهم فى ذلك الاقليم الذى يبدو شاسعا للغاية ، وأنهم سينقلون الى الهنود ، فى المقابل ، مميزات أغنى حضارة ، ومدنية متفوقة جدا ، والأهم من ذلك كله مزايا الدين المسيحى ، وهذا ما استعمله المجلس الحاكم فى فرجينيا سنة ١٦١٠ عندما أعلن فى انجلترا أن المستوطنين « عن طريق التجارة والمقايضة يشترون منهم (أى الهنود) نعيم الأرض ، ويسعونهم نعيم الجنة » (٨) . لذلك رفضت قبائل تشيزابيك أن تبادل أرضها مقابل هذا النعيم ، لأن مظهر المهاجرين الأشعث الأغبر لم يطمئنهم الى وعودهم .

وكانت الطريقة العجيبة الثانية للرد على مناقشة حق الانجليز فى الاستيلاء على الأرض هى انكار الطبيعة البشرية للهنود . لذلك قال روبرت جراى بأن الطبيعة غير البشرية للهنود قد حرمتهم من الحق الشرعى فى امتلاك الأرض ، وكتب كذلك : « ان الله قد أعطى الأرض لأبناء البشر ، الا أن الجزء الأكبر منها امتلكه ، اغتصبا وبطريق غير شرعى همج متوحشون ، ومخلوقات غير عاقلة ، أو أجلاف حمقى بطبيعتهم ، وهم أسوأ من أشد الحيوانات ضراوة ووحشية . وذلك لجهلهم الالحادى ، وتجديفهم على الله كذبا ، » (٩) .

لقد هددت هذه السلسلة من التبريرات الهنود . فبينما قال بعض المستوطنين بأن « كل قدم من الأرض ، سنستولى عليه أو نستفيد به ، سنساوم عليه ثم نشتره منهم » . ورغم ذلك وجد غيرهم أن من الأسهل والأربح أن يسعى أن الهنود قد حرموا أنفسهم من حقهم الشرعى فى ملكية الأرض (١٠) ، لأنهم من الملحدین البرابرة ، وبهذا المعنى ، ازدادت الفائدة من وراء تعميق الصور السلبية للشعوب الوطنية ، فكلما أظلمت الصورة ازداد تعريف سكان البلاد الأصليين بصفات لا انسانية ، وازداد ادعاء الأوروبي بحقه فى ملكية الأرض فى العالم الجديد . ان تعريف الهنود بأنه « همجى » أو « جلف أحمق » أو « حية رقطاء » ، لا يعطى الأوروبيين الحق الشرعى فى طرد الهنود من أراضيهم ، ولكن يعطيهم حقا أدبيا فى

ذلك اذا تحققت لهم القوة المادية ، وهو ما لم يختلف فيه الانجليزى كثيرا
عن الاسبانى والبرتغالى ، أو الهولندى أو الفرنسى .

لقد صدر كتيب فى انجلترا ، حين كانت الحملة الاستعمارية
الانجليزية الأولى تعد للابحار والرسو على جزيرة رونوك ، بعيدا عن ساحل
كارولينا الشمالية ، يصور لنا كيف كانت كل من الصور الايجابية
والسلبية عن الهنود تؤثر فى العقلية الانجليزية ، وقد أصدر هذا الكتيب
أو هذه النشرة ، سير جورج بيكهام ، الذى رافق همفري جلبرت فى رحلة
كشفية لنيوفوندلاند سنة ١٥٨٣ ، وطبع فى لندن بعنوان « تقرير واقعى
عن الاكتشافات الأخيرة ٠٠٠٠ فى نيوفوندلاند » . كان وصف بيكهام تعبيرا
واضحا عن صورة الاستعمار الانجليزى التى يتقنع بها ، فتحت عبارات
المؤلف التى تعرب عن مشاعر الود والارتياح وتشرح المصالح المتبادلة التى
يمكن تحقيقها من اتصال الحضارة الانجليزية بالحضارة الهندية صور
مظلمة ، وتوقعات لأحداث عنيفة . وبدأ الكتاب بدفاع محكم عن حقوق
الدول البحرية فى « التجارة والمقايسة والنقل » مع الشعوب « البدائية » ،
وأكّد للانجليز على أن مثل هذه المشروعات التجارية لابد أن تكون « مربحة
للتجار المغامرين » على الخصوص ، ومفيدة للشعوب البدائية ، وأنها مسألة
يمكن تحقيقها دون صعوبات أو خطر كبير . واعترف بأن بعض الأهالى
« سيخافون بطبيعتهم » ، ويقلقون من « شكل السفن الانجليزية الغريب ،
بما فيها من أشرعة ، ومدافع ، ودروع وأسلحة » ، ولكن من الممكن أن
نكسبهم بشئ من « الكياسة واللطف » مع توافر كمية من « السلع
اللطيفة ، والأشياء النافذة ، مثل النظارات ، والأجراس ، والعقود ،
والأساور والسلاسل ، والأطواق ، والزجاج الشفاف ، والكهرمان الأسود
أو الأصفر المائل للحمرة ، والمرايا ، والأواني الزجاجية » ، و « ونستميل
طبيعتهم البربرية ، ليصبحوا مجتمعا ودودا ومتعاوننا » (١١) .

ثم ينتقل بيكهام الى بيان ما يعتبره أكثر الأحداث احتمالا للوقوع
فيقول :

الا أنه ، بعد استعمال هذه الأساليب الطيبة والعادلة ،
اذ لم يرض الأهالى البدائيون بها ، وشرع البعض منهم فى
صد المسيحيين بعنف عن مواسمهم ، وأراضهم الآمنة ، أو
قاوموهم بعد ذلك ليمنعوهم من التمتع بحقوقهم التى خاطروا
بأنفسهم للوصول اليها بصعوبة ، وبصورة شرعية ، اذن ،
ففى مثل هذه الحالة ، لا اعتبره خروجاً على مبدأ المساواة ان
يدافع المسيحيون عن أنفسهم ، وأن ينتقموا بعنف ، ويمارسوا
كل ما هو ضرورى لتحقيق سلامتهم . فكل القوانين تسمح فى
مثل هذه الحن ، بمقاومة العنف بالعنف (١٢) .

وأخذ بيكهام يذكر مواطنيه بمسئوليتهم عن توظيف كل الوسائل
الضرورية لتحويل الهنود الحمر من « الضلال الى الحق » ، ومن الظلام الى
النور ، ومن مهاوى الهلاك الى طريق الحياة ، ومن خرافات الوثنية الى
المسيحية الصادقة ، ومن الشيطان الى يسوع المسيح ، ومن العذاب الى
النعيم .

هكذا تصارعت صورتان متعارضتان عن الهنود للسيطرة على العقليّة
الانجليزية ، حين بدأت المحاولات الأولى لاستعمار العالم الجديد . فنجد
الانجليز ، ينزعون أحيانا الى تصوير المواطن الهندي متخلفا ، ولكنه متفتح
يمكن إقامة علاقات ودية مثمرة معه . ولعل الصورة السلبية المليئة بمظاهر
العنف ، واراقة الدماء هي التي انعكست بشكل أقوى في أذهان الذين
أبحروا تجاه أرض مسكونة فعلا بأناس ذوي حضارة مغايرة .

الصدام الانجليزى - الهندى الأول :

ان تجربة جزيرة رونوك لا أهمية لها فى مجمل تاريخ الاستعمار
الأوروبى للعالم الجديد . اذ أن حفتى الرجال الذين رسوا هناك ، لم يفعلوا
أكثر من مجرد الصراع للبقاء أحياء لمدة ثلاث سنوات ، وعندما تعطل وصول
سفينة التموين السنوى سنة ١٥٨٨ بسبب اقتراب الآرمادا الأسباني من
ساحل الانجليز ، هلكوا اما جوعا أو لهجوم الهنود عليهم . ولكن قصتهم
لها أهميتها فهذا هو أول صدام معروف بين الهنود الحمر والبروتستانت
الانجليز ، فبالنسبة للهنود ، ساعدتهم ما حدث على تثبيت انطباعاتهم عن
ماهية هؤلاء الانجليز ، أما الروايات الثلاث التى نشرها فى لندن عن حملة
رونوك الأشخاص الذين رجعوا الى انجلترا بعد السنة الأولى ، فقد ساعدت
على ملء أذهان كل الانجليز الآخرين الذين أتوا الى أمريكا فى بداية القرن
السابع عشر بأفكار عن نوعية الناس الذين يحتمل أن يقابلوهم .

وتتفق كل الروايات ، رغم اختلافها فى التفاصيل ، على أن الهنود
على ساحل كارولينا كانوا متفتحين ، ومستعدين لتفهم مقترحات الانجليز
وعروضهم . فقد كتب آرثر بارلو Arthur Barlow ، أحد أعضاء الحملة
الأولى يقول : « اننا استمتعنا بكل الحب والعطف ، والسخاء والكرم حسبما
تقضى به عاداتهم . لقد وجدنا الناس مهذبين للغاية ، ومحبين ، ومخلصين ،
تخلو نفوسهم من المكر والخداع والخيانة » ، كما لاحظ بارلو أن الهنود
قد أسفوا لارتباب الانجليز فى صدق وكرم ضيافتهم (١٣) .

ونظرا لمجىء الانجليز بأعداد قليلة فمن المحتمل أن الهنود لم يتوجسوا
منهم خطرا كبيرا . ويبدو أن الفضول وحس الاستطلاع كان قويا لدى
الطرفين . وبقدر استطاعتنا ، نقرر من الأدلة المتبقية ، أنه لم يحدث أى

نزاع بينهما ، الى أن اكتشف الانجليز ضياع كأس فضية ، فقاموا بشن حملة تأديبية على قرية هندية قريبة منهم . ولما أنكر الهنود أخذ الكأس ، أحرقوا القرية عن بكرة أبيها ، وأتلفوا لهم مخزون الحبوب ، بقصد استعراض القوة أمامهم . وتدهورت العلاقات بعد ذلك بينهم . ولما كان الانجليز يتركون ظروفهم السيئة من الناحية العددية ، ووضعهم المخوف بالمخاطر ، لقيامه على غير أساس شرعي ، بالغوا في استعراض قوتهم ليقنعوا الهنود باستحالة التعرض لهم بالضرر أو الإيذاء ، واعترف أحد أعضاء الحملة بقوله : « في نهاية السنة ، أظهر بعض زملائنا قسوة وضراوة يذبح بعض الأفراد في بعض المدن » (١٤) . ولذا رأت القبائل الساحلية أن الانجليز غير جديرين بالثقة ، وأنهم يلجأون الى السلاح سريعا ، ولا يمكن التنبؤ بأفعالهم . وقد علق على ذلك قائلا : « اننا لم نفقد فقط في هذه المستعمرة الضائعة مجموعة الرجال فحسب ، بل فقدنا أيضا حلم الرجل الانجليزى والهندي بالعيش جنبا الى جنب في حرية وسلام ، وهو ما لم نستطع استعادته أبدا بالمغامرات التي تلت ذلك » (١٥) .

وبالرغم مما لاقوه من عقبات أبدى الأعضاء الأساسيون في مستعمرة رونوك الذين عادوا الى انجلترا ، تقديرا كبيرا للحضارة الهندية ، فقد كتب توماس هاريوت Thomas Hariot « بالرغم من أنه لم يكن لديهم مثل ما لدينا من آلات وحرف وعلوم وفنون ، الا أنهم أظهروا عقلية ممتازة فيما صنعوه في هذه المجالات » (١٦) . كما أن عشرات الرسوم التخطيطية ولوحات الألوان المائية للرسام جون هوايت الذي رافق الحملة ، تبين الهنود وهم في مظاهر مختلفة من العمل واللعب ، وتكشف لوحاته عن تقدير صادق لقدرة الهنود على التحكم في بيئتهم من خلال أساليبهم في الصيد ، والزراعة ، وحياتهم العائلية والجماعية ، وغير ذلك من مظاهر حضارتهم .

لم يقم الانجليز ، بعد تجربة رونوك ، بأية مغامرة استعمارية جديدة لمدة ٢٠ سنة ، إلا أن بعض القباطنة الانجليز الممثلين للتجار الذين اشتغلوا بتجارة الأنديز الغربية حضروا لفترات قصيرة الى ساحل أمريكا الشمالية في محاولة للمقايضة مع الهنود ، وأفادت تقاريرهم بأن علاقاتهم كانت ودية بصفة عامة . ثم توقفت المحاولات الاستعمارية الانجليزية بعد ذلك حتى وفاة الملكة اليزابث سنة ١٦٠٣ التي شهد حكمها كثيرا من الدعاية لاستعمار أمريكا والحصول على تأييد التاج وأموال التجارة الوطنية ، وكانت أمريكا الشمالية حتى ذلك الوقت حكرا على الأسبان والفرنسيين .

المراجع

1. John Shy, « The American Military Experience : History and Learning », « The Journal of Inter-disciplinary », 1 (1970-71) : 211 W
2. Quoted in Wilcomb E. Washburn, ed., « The Indian and the White Man » (Garden City, N. Y. : Doubleday & Co., Inc., 1964), p. 4.
3. Lawrence C. Wroth, « The Voyages of Giovanni da Verrazzano, 1524-1528 » (New Haven : Yale University Press, 1970), p. 137.
4. Richard Hakluyt, « Divers Voyages touching the discoverie of America, and the Ilands adjacent unto the Same » (1582), Hakluyt Society Publications, 1st Ser., 7 (London : The Hakluyt Society, 1850) : 23.
5. Vilhjalmur Stefansson, ed., « The Three Voyages of Martin Fro-bisher » (London : The Argonaut Press, 1938), 2 5 23.
6. Quoted in William S. Maltby, « The Black Legend in England : The Development of Anti-Spanish Sentiment, 1558-1660 » (Durham, N.C. : Duke University Press, 1971), p. 16.
7. « A Good Speed to Virginia (1609)2 », quoted in Wesley Frank Craven, « Indian Policy in Early Virginia », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 1 (1944) : 65.
8. « A True Declaration of the Estate of the Colonie in Virginia ... (1610), in Tracts and Other Papers, Relating Principally to the Origin, Settlement, and Progress of the Colonies in North America ..., » Peter Force, comp. (Washington D.C., 1884), 3 : No. 1, p. 6.
9. « A Good Speed to Virginia (1609), quoted in Gary B. Nash, « The Image of the Indian in the Southern Colonial Mind », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 29 (1972) : 210.

10. William Strachey, « The Historie of Travel into Virginia Britania » (1612), eds. Louis B Wright and Virginia Freund, Hakluyt Society Publications, 2nd Ser., 103 (London : The Hakluyt Society, 1953) : 26.
11. David Beers Quinn, ed., « The Voyages and Colonizing Enterprises of Sir Humphrey Gilbert », Hakluyt Society Publications, 2nd Ser., 84 (London : The Hakluyt Society, 1940) : 450-52.
12. Ibid., 453.
13. David Beers Quinn, ed., « The Roanoke Voyages, 1584-1590, » Hakluyt Society Publications, 104 (London : Hakluyt Society, 1955) : 108.
14. Ibid., 381-82.
15. Edmund S. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox », Journal of American History, 59 (1972-43) : 16.
16. Quinn, ed., « Roanoke Voyages », 104 : 371.

الفصل الثالث

التقاء الحضارات عند خليج تشيزاييك

تأسست أول مستوطنة انجليزية دائمة في العالم الجديد ، في جيمستاون بفرجينيا سنة ١٦٠٧ ، ولم تكن مستعمرة بالمعنى المضبوط ، أو على الأقل ، لم تكن وحدة سياسية تحكمها الدولة الأم . بل كانت ، على الأصح ، مشروعاً تجارياً تملكه شركة فرجينيا بلندن ، المكونة من حاملي الأسهم ، وهيئة المديرين المسئولة مباشرة أمام الملك جيمس الأول . والهدف الأول من تأسيسها ، العودة بالربح على حاملي أسهمها - من التجار والشخصيات السياسية في البلاط الملكي ، وغيرهم من المستثمرين . بأمل تحقيق نفس النجاح الملحوظ الذي حققه الأسبان والبرتغاليون في المكسيك وبيرو والبرازيل .

وبدأ صك الامتياز الملكي ، بتوجيه للشركة بأن تعنى بنقل الدين المسيحي الى هؤلاء الذين « لازالوا يعيشون في ظلام الجهل المخزي بحقيقة الرب وعبادته » . ولا شك ، أن هذه الإشارة الى تحويل هنود منطقة تشيزاييك الى المسيحية قد أثارت اهتمام الانجليز كثيراً في منطقة كان التنافس فيها مع الأسبان ، من أجل السيطرة على شعوب الأرض التي لا عقيدة لها ، يناظر الصراع من أجل شعوب « العالم الثالث » على يد الدول الشيوعية والرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية . الا أن الأهم من ذلك عند من اكتتبوا في أسهم شركة فرجينيا هو استلامهم العائد من استثمارهم . وكما كتب بعد ذلك ، الكابتن جون سميث ، الذي أصبح شخصية رئيسية في الدراما المكشوفة في فرجينيا : « انا لنعجب فعلاً كيف أمكن لرجال عقلاء كهؤلاء أن يعذبوا أنفسهم ويعذبونا بمثل هذه السخافات والمستحيالات الغريبة : أي جعل الدين صبغة لهم ، بينما لم يكن كل همهم سوى الربح العاجل . . . وأنا لست من الغباء حتى أعتقد أن هناك أي دافع آخر غير الثروة والغنى سيقوم مصلحة عامة في فرجينيا في يوم ما » (١) .

كيف تثرى شركة فرجينيا مساهميها ؟ لم يكن أي شخص متأكداً من ذلك تماماً ، ولكن كان يفترض أن المكاسب في العالم الجديد يمكن أن

تأتى بأشكال متنوعة ، منها : اكتشاف الذهب وغيره من المعادن ، والتجارة مع الهنود ، وإنتاج القار والقطران والبوتاس وغيرها من منتجات الغابة ، التى يحتاجها رجال البحرية الانجليز ، وكذلك تنمية صناعة صيد السمك • والافضل من كل ذلك ، باكتشاف الطريق المتوهم الى الصين عبر قارة أمريكا • ولقد تحققت بعض هذه الأهداف فى مشروعات تجارية انجليزية برأسمال مشترك على يد شركة موسكو Moscovy Co. فى روسيا ، وشركة ليفانتين Levantine Co. فى الشرق الأوسط ، وشركة الهند الشرقية الشرقية East India Co. فى الشرق الأقصى ، فلماذا لا تطبق فى أمريكا الشمالية ؟

كانت المشكلة الرئيسية فى أى وقت يتم فيه الحصول على رأسمال هى تجنيد العاملين الذين سيذهبون الى المستعمرة كموظفين لشركة فرجينيا ، ويقيمون شكل الادارة والسلطة التى تفتح قنوات جهودهم نحو أهدافهم المرغوبة ، وقد كانت كلتا المشكلتين شائعة فى السنوات الأولى •

وكانت الثمرة النهائية لسنة من التخطيط فى لندن ، هى ذلك الأسطول الصغير جدا الذى أبحر الى فرجينيا فى ديسمبر ١٦٠٦ مكونا من ٣ سفن تحمل حوالى ١٢٠ استعماريا يباشرون عملهم تحت امرة الكابتن كريستوفر نيوبورت Christopher Newport ، وبعد توقفه فى جزر الهند الغربية للتزود بالماء والتموين ، نزل الرجال بمؤنهم عند خليج تشيزايبك • وبعد أيام قليلة ، اختفت السفن فى الافق تاركة وراءها هذه العصابة الصغيرة من الرجال ، وحيدة على أرض مجهولة •

سوء الحظ المبكر :

ان ما حدث فى تسعة الأشهر التى تلت ، قبل أن يعود الكابتن نيوبورت بامدادات من المؤن والخيرة ومستوطنين اضافيين ، لدليل كاف عن العجز البشرى وسوء الحظ • فقد جرت محاولات لاستكشاف المنطقة وبناء حصن بداخله ملاجئ ، وزراعة والمحاصيل ، وصيد قليل من السمك • ولكن يبدو أن المستعمرين قضوا وقتا طويلا منقسمين الى جماعات تدبر كل منها المكائد ضد الأخرى • وسرعان ما تضاعفت المؤن وأصبح الرجال على وشك الهلاك جوعا ، وهاجر بعضهم الى القوة الهندية حيث الطعام الوفير ، وعانت المستوطنة من مرض الدوسنتاريا • وتم طرد أحد أعضاء مجلس الادارة المقيمين ، على يد زملائه الساخطين ، وحكم على آخر بالاعدام بتهمة التجسس للأسبان - حيث كان الظن أنهم يدبرون لازالة المستعمرة ، ولم ينفذ الثالث من الشنق الا عودة سفن التموين من إنجلترا • ولما عاد نيوبورت فى يناير ١٦٠٨ لم يكن باقيا على قيد الحياة سوى ٣٨ مستوطنا ،

وبعد ثلاثة أيام دمرت النيران معظم المباني البسيطة في جيمستاون ، ومعظم الإمدادات المفرغة من السفن .

أرسلت شركة فرجينيا في لندن سفنا بالمستوطنين الجدد والمؤن ، وذلك مرتين سنة ١٦٠٨ ، ومرة سنة ١٦٠٩ ، لكن المحنة استمرت وكتب أحد الفرجينيين في القرن الثامن عشر ينعى عليهم كسلهم ويأسى لمعاكسة وضاعت ثمار جهود الرجال « (٢) . ورغم إرسال أكثر من ٩٠٠ مستوطن الى فرجينيا في السنوات الثلاث الأولى ، لم يتبق منهم بحلول شتاء ١٦١٠/١٦٠٩ سوى ٦٠ مستوطنا لجأ بعضهم الى أكل الجيف ، كما كتب أحد الفرجينيين في القرن الثامن عشر ينبغي عليهم كسلهم ويأسى لمعاكسة الظروف لهم حتى هلك الكثيرون قبل أن يتمكنوا من جمع والتقاط طعامهم (٣) . وفي لندن ، وبينما كان مديرو شركة فرجينيا يروجون الشعارات ، مثل « حظ سعيد لفرجينيا » ، « قيمة فرجينيا بمواردها الطبيعية » ، تناقل الشارع اشاعات بأن المستعمرة فشلت فشلا ذريعا ، وأن المستثمرين أخذوا يحصون خسائرهم في هذه الشركة المنحوسة ، ويتساءل الناس عما حدث لحظة اقامة الوجود الانجليزي في أمريكا الشمالية .

ومن عيوب تخطيط منظمي الاستعمار الانجليزي ، أنهم أساءوا تقدير حقيقة وطبيعة ساحل أمريكا الشمالية ، اذ كان معظم المستثمرين والمساهمين يأملون في تطبيق التجربة الأسبانية في بيرو والمكسيك . اذ كانوا يحلمون بالثراء من استخراج المعادن النفيسة من الأرض ، ويأملون في تشغيل القوة العاملة الوطنية ، أو على الأقل أن يثروا من التجارة مع الهنود ، الا أن فرجينيا شيء والمكسيك وبيرو كانتا شيئا آخر ، فلم تحتو أرضها على ذهب أو فضة ، وبالتالي كانت كل عمليات الحفر المسعور في الشهور الأولى ، وكل حمولات السفن من الرمل المختلط بذرات الميكا التي ظنها المستعمرون ذهباً استنزافاً للجهد ، وسراب أحلام . وكتب جون سميث « هازئا من أحلام الثراء الذهبية التي جعلت المستوطنين يعملون كالرقيق : فلا حديث ولا أمل ولا عمل ، ولكن استخراج الذهب ، واغسل الذهب ، ونق الذهب ، واحمل الذهب [لتحميله] على السفينة التي تتمايل بالرمال المموهة بالميك » (٤) .

وضاعف من خيبة الأمل ، عدم قدرتهم على الاستفادة من خدمات وجهود هنود المنطقة ، فقد افترض معظم الانجليز الذين جاءوا الى فرجينيا في المرحلة الأولى من الاستعمار أنهم يستطيعون استغلالهم بمجهود بسيط ، وأن يبنوا على ظهورهم مجتمعا زاهرا . فقد هزم كورتيز امبراطورية الآزتيك القوية ببضع مئات من الرجال ، ثم حول جهود آلاف الهنود

لتحقيق مصالح الأسبان ، وكذلك فعل بيزارو فى بىرو ، فلم لا يكون الامر كذلك فى فرجينيا ؟

لكن الانجليز وجدوا فى منطقة تشيزابيك أن الاهالى الوطنيين ليسوا بكثافة تسمح باستعبادهم بسهولة . وقد كتب سميث فيما بعد أن الأسبان كانوا محظوظين تماما فى استعمار هذه الأجزاء التى بها أعداد وفيرة من الناس (٥) . فضلا عن أن الأسبان مارسوا « السلب والنهب » للمناطق المستكشفة لأنهم أحضروا معهم قوة حربية قادرة على قهر مجتمع الوطنيين . أما الانجليز ، فقد أقاموا فى فرجينيا حيث لا توجه امبراطورية هندية غنية ليهزموها ، ولا يسهل اذابة ٣٠.٠٠٠ هندى فى منطقة تشيزابيك فى قوة عاملة تحت امرة الأوروبيين لأنهم لم يحضروا معهم جيشا من الفاتحين ولا من الواعظين ليحولوا الهنود الى الديانة الأوروبية . ونظرا لعجزهم عن استغلال السكان الوطنيين أو الاستفادة منهم ، وجد مستوطنو فرجينيا جنة العالم الجديد أبعد ما تكون عن فكرة المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) .

ويرجع العيب الثالث فى خطة الاستيطان الانجليزى الى تركيبة المستوطنين الأصليين الأوائل فى جيمستاون ، الذين كان من بينهم عدد من المغامرين الأغنياء غير المؤهلين للقيام بالعمل الشاق ، الخشن فى بناء المستعمرة ، وأثبتوا أنهم عالة فقط على الموارد الضئيلة بالمستوطنة . وبنفس الدرجة ، لم يوجد سوى قليل من العمال والفلاحين القادرين على قطع الأشجار وبناء المنازل وزراعة الأرض . وكانت شكوى جون سميث أنه كان يكفيهم عدد قليل من السادة الأثرياء الباحثين عن المغامرة ، أما « أن يكون هناك الكثير الذين ينتظرون ، ويلعبون أكثر مما يعملون ، أو الكثير من الرؤساء والموظفين أكثر من العمال المجدين » ، فهذا مخفف « لأن الجندى العادى فى فرجينيا الذى يمكنه استعمال الفأس والجاروف هو أفضل من خمسة فرسان » (٦) . ولم يكن المولدون لحياة العمل بأفضل كثيرا من غيرهم ، ويقول رئيس الشركة متفمرا : « انهم طاقم لعين ، لم تلفظ الجحيم مثله من قبل » . وردد رأيه هذا ، وزينه واحد من مؤرخى فرجينيا الأوائل الذى وصف المستعمرين الأصليين بأنهم « رجال شديديو التأنق ، غنيدون ، قد شحنتهم أصدقائهم بعيدا هربا من مصير أسوأ ، ينتظروهم فى الوطن ، وسادة فقراء ، وتجار مفلسون ، وفجار مستهترون ، وغيرهم ممن كانوا خليقين بافساد الولاية الأمريكية أو بهدمها ، أكثر من بنائها أو صيانتها » (٧) . هذا الاختيار السيئ للمستعمرين ، لم يخلق مشكلات فى القوى العاملة فقط ، بل أدى أيضا الى توتر اجتماعى مطرد . ولئن اعتبر وجود ذوى المركز الاجتماعى العالى فى انجلترا ضرورة لاستقرار وقوة المجتمع ، لكنه بات فى مستوطنة على قارة واسعة غير معروفة

مصدرا للسخط والاستياء ، لأن هؤلاء النبلاء ترفعوا عن العمل فاستخف بهم من هم دونهم ، لأنهم رأوا فيهم قوة عاطلة غير جديرة بالاحترام .

وتمثل حالة الكابتن جون سميث أفضل مثال للتوتر الاجتماعي ، الذي نشأ عن مجيء الانجليز الى بيثة جديدة غرب الاطلنطي . فهو لم يدع دما أرسقراطيا ، بل كان ابن فلاح أجير بسيط ، وأدرك منذ الصغر أن حياة الفلاح الفقير لا تحفظ له شيئا فانطلق يحاول في مجالات أخرى أكثر اثارة . وقبل أن يبلغ منتصف العشرين من عمره شق طريق الكفاح عبر أوروبا ، وعاد جنديا محترفا ، يبيع خدماته في الحروب المحلية في ترانسلفانيا ، وضد تركيا في السهول الغربية للمجر ، وتم أسره واسترقاقه في استانبول لعدة سنوات ، ثم هرب الى روسيا ، ثم رجع الى انجلترا عن طريق شمال أفريقية . وبفضل خبرته الحربية ، ومهارته كرسام للخرائط ، وبفضل أصدقائه في لندن المهتمين بشركة فرجينيا التي أنشئت لأغراض الدفاع والمراقبة سنة ١٦٠٦ ، تم تجنيده عضوا في أول بعثة لجيمس تاون ، وكانت خبرته توحى بأنه سيكون الرجل المناسب ، وقت الشدة .

لقد تشاجر سميث خلال الرحلة في المحيط مع بعض القادة ممن تجرى الدماء الأرسقراطية في عروقهم ، وعندما قضت الأوامر السرية عند الوصول الى تشيزايبك ، تبين أنه قد عين عضوا في المجلس الحاكم بفرجينيا ، مما أثار المزيد من الاستياء ، ولم يتردد في الاعلان عن ازدراءه لمن يعتقدون أن أصولهم الاجتماعية تعفيهم من العمل اليدوي . وقد ثبت فعلا أنه واحد من أولئك المستعمرين الأوائل الذين كانت لديهم الشجاعة والمقدرة على كشف ورسم المنطقة المحيطة بجيمستاون ، واقامة اتصالات مع الهنود ، والتفاوض معهم ، وتنظيم القوى البشرية الضئيلة بالمستعمرة على أسس معقولة ومناسبة . وقد رأى المترفون من المستوطنين وأعضاء مجلس الإدارة في جهوده محاولة محسوبة ليسيطر على المستعمرة ويخضعهم بمرور الأيام . ورغم ما بذل من محاولات لإبعاده ، إلا أنه بحلول سبتمبر ١٦٠٨ تغلب على معظم خصومه ، وصار بعد عام واحد رئيسا للمجلس الحاكم .

التبغ وإعادة التنظيم :

بعد ثلاث سنوات من الفوضى السياسية والاجتماعية والفشل تقريبا في ايجاد طرق لاستغلال منطقة تشيزايبك لصالح حلمي أسهم شركة فرجينيا ، أدرك مديروها بلندن أنها ليست بحاجة الى جنود ينشدون الشراء ، بل الى مزارعين عاديين يمكنهم استخراج الغذاء الضروري من

الأرض ، ابقاء على حياة المستعمرة ، والبدء في زراعة محصول ثابت .
وأعيد تنظيم الشركة سنة ١٦٠٩ ، وأغرى عدد كبير من المستوطنين بالذهاب
الى فرجينيا على وعد بامتلاك أرض مجانا بعد انتهاء سنوات من العمل
لحساب الشركة .

وبهذا النظام الجديد من التعبئة اجتذب ١٢٠٠ مهاجر جديد الى
فرجينيا فيما بين سنتي ١٦١٠ ، ١٦١١ ، ورغم ذلك ، عجزت الشركة عن
زراعة محاصيل ثابتة أو ايجاد وسيلة ، تعود بالفائدة على مستثمريها .
فتعثرت المستعمرة وعجزت عن تحقيق الاكتفاء الذاتي ، وانخفض السكان
الى ٣٥٠ مستوطنا سنة ١٦١٦ نتيجة الوفاة والهجرة الى انجلترا . وهنا
زادت الشركة اغراءاتها ، وقدمت ١٠٠ فدان تقريبا دفعة واحدة لاي فرد
في انجلترا يسافر الى المستعمرة ، وبدلا من أن يتعهد الفرد على نفسه
بالعمل لفترة محددة قبل أن يتحول الى مالك منفرد للأرض ، أعلنت
الشركة أن بوسع كل فرد أن يصبح مالكا مستقلا للأرض بمجرد وصوله
الى تشيزابيك ، بهدف اجتذاب أبناء الطبقات الدنيا الى الهجرة .

بهذا البرنامج الجديد ، تخلت الشركة نهائيا عن أملها في تكوين
ثروة لمساهميها عن طريق تشغيل القوى العاملة سواء الوطنية منها أو
الانجليزية . وتصرفت من تلك اللحظة كهيئة لتنمية وبيع الاراضي بهدف
تشجيع أكبر عدد ممكن من الانجليز للمجيء الى فرجينيا سعيا وراء ثرواتهم
بشكل مستقل . فاذا أثبتت المستعمرة نفعها ، عاجلا أو آجلا ، يمكن أن
تباع مواردها من الأرض الواسعة بثمن مربح . كما قدمت تنازلات أخرى
اذ صدر الامر للحاكم المقيم بالسماح بانتخاب جمعية نيابية يمكنها المشاركة
في ادارة المستعمرة وبذلك يرتبط المستعمرون بالأرض عاطفيا ، وأرسلت
الشركة في نفس العام حمولة مركب من النساء غير المتزوجات للحفاظ
على الجانب الاخلاقي وزيادة السكان القليلين .

واستجابة لهذه الامتيازات ، وصل أكثر من ٤٥٠٠ مستعمر فيما بين
سنتي ١٦١٩ ، ١٦٢٤ للعمل كموظفين في شركة فرجينيا أو بصفتهم
الشخصية وأصبحوا تحت التصرف الكامل للمجلس المقيم والمجلس الحاكم
في لندن . وقد تعلمت الشركة خلال مرات فشلها أنه لا يحقق أمل
المستعمرة في البقاء والنمو سوى الوعد بالملكية العاجلة للأرض ، والسماح
بدرجة معينة من الحكم المحلي . ولم تبدأ المستعمرة بالباحثين عن الحرية
السياسية أو الدينية ، بل بالمستثمرين المنهومين الى المكاسب ، ومتصيدي
الثراء من المغامرين ، ومن العامة وسكان الأزقة وسجون انجلترا ، ولكنهم
بعد عقدين من السنين ، تخلوا عن خططهم الأصلية بعد أن عدلوا توقعاتهم
طبقا لواقع العالم الجديد .

لم تكن إعادة تنظيم الشركة والاغراءات الجديدة فقط هي التي انتشلت المستعمرة من هوة الفوضى الاجتماعية ، وعدم ربحيتها في السنوات الأولى ، بل كان أيضا اكتشاف أن التبغ - أو كما يسمونه « حشيشة المرح » ينمو جيدا بشكل استثنائي في تربة منطقة تشيزابيك . هذا التبغ الذي صار أحد المواد المخدرة المنتشرة الاستعمال في القرن السابع عشر جلب لأول مرة من فلوريدا الى البرتغال في ستينات القرن السادس عشر ، الا أن حمولة المركب التي جمعها فرانسيس دريك من الهند الغربية سنة ١٥٨٦ ثم انتشرت بعد ذلك ، على يد رالي وسط الطبقة العليا وسرعان ما تحول عن أغراضه العلاجية الى ادمان اجتماعي ، اذ اكتسح انجلترا جنون التدخين بحلول القرن السابع عشر ، وأطلق الشباب الانجليزى تسميات مميزة تعبيرا عن شدة اعجابهم القريب من التقديس للتدخين مثل : « الحلقة أو الطوق » (*) و « النفخة » و « البلعة » ، و « الحبسة » ، وكلها قد أصبحت جزءا من العادة الاجتماعية الجديدة . ولم تفلح المعارضة الشديدة من الملك جيمس فى كبح شعبية تدخين التبغ . ونشر جيمس مع اغفال اسمه كتاب « نفخة مضادة للتبغ » وصف فيه التدخين بأنه عادة غير مفهومة ، مؤذية للعين ، كريهة للأنف ، ضارة بالدماغ ، خطيرة على الرئتين، وتكاد تشبه بدخانها الأسود النتن دخان جهنم وهو خارج من الفم ، لكن الكتاب لم يأت بفائدة ، لأن المجتمع الانجليزى كان قد استورد الكثير والكثير من أوراق التبغ من العالم الجديد . وكانت جزر الهند الغربية فى بادئ الأمر تملأ بالجزء الأكبر من المحصول ، ولو أن تجارب استزراع التبغ للأغراض الطبية أثبتت نجاحا غير عادى ، وزادت صادرات أوراقه من ٢٣٠٠ رطل انجليزى (**) سنة ١٦١٦ الى ٢٠٠٠ رطل سنة ١٦٢٤ ، ثم ارتفع فجأة الى ٣٠٠٠ رطل سنة ١٦٣٨ . وهكذا أصبح التبغ بالنسبة لمنطقة تشيزابيك كالسكر بالنسبة لجزر الهند الغربية ، والفضة لبيرو والمكسيك .

الخدم ذوو عقود الاستخدام ذات الأجل :

بزيادة الطلب على التبغ بحث المزارعون الانجليز فى تشيزابيك عن مصدر للعمالة رخيص . وكان المستوطنون بالمستعمرات الأسبانية والبرتغالية قد استطاعوا أن يمجوا السكان الوطنيين فى نظام للعمل الاجبارى يكاد يشبه العبودية والرق ، ولكن الانجليز اكتشفوا أنهم

(*) لعلمهم استمدوا اللفظ من حلقات الدخان المتصاعدة من السجارة أو من طوق النجاة فى السفينة - (المترجم) .

(**) الرطل الانجليزى - (الباوند) حوالى ٤٥٢ جراما .

تنقصهم القوة فى السنوات الأولى حتى يستعبدوا القبائل المحلية ، لذلك رجع الى انجلترا زراع التبغ للبحث عن العمالة بين أشد قطاعات السكان فقرا ، وأغروا الشبان على بيع خدمتهم لمدة من أربع الى سبع سنوات ، نظير عبورهم الأطلنطى والحصول على فرصة بعد قضاء (مدتهم) ليصبحوا ملاكا للأرض ، وأصحاب مزارع للتبغ مستقلين فى العالم الجديد . هؤلاء الرجال يسمون بالخدم بأجل ، لأنهم يقدمون أنفسهم لخدمة السيد لفترة معينة بعقد رسمى ، ولا يختلفون فى ذلك عن المستخدمين الأوائل لدى شركة فرجينيا الا فى تعاقدهم مع أفراد . وصار الواحد منهم قادرا على العناية بحوالى ألف أو ألفى شجرة تبغ وهى كمية يمكن أن تدر عائدا من مائة الى مائة وخمسين جنيها فى السنة ، وهو مبلغ لم يتوافر فى انجلترا الا للقليل من العمال .

بعد أن أثبت التبغ نجاحه فى فرجينيا ، طالب عدد قليل جدا بتوفير هؤلاء الخدم بأجل ، ليزيدوا من مساحة زراعته . وبعد شحنهم كانوا يباعون على ظهر السفينة بالمزاد العلنى ، فكلما زاد الخدم لدى المالك زاد دخله من التبغ وبالتالى توسع فى شراء الخدم والأرض ، كما صور ذلك أحد المؤرخين بقوله : « لقد اختلفت فرجينيا عن تلك المدن الأمريكية التى ازدهرت فيما بعد فى عدم اعتمادها على اكتساب قطع الأرض المناسبة بل على الحصول على الرجال . فالأرض القابلة لزراعة التبغ كانت فى كل مكان ، وبوفرة جعلت الناس لا يقلقون فى بادئ الأمر على تدبير الحصول عليها ، وكانت وسيلتهم الى ذلك وضع اليد عليها وبيعها بعد ذلك مع رفع سعرها بالمزاد العلنى الى أربعة أو خمسة أو ستة أمثال الثمن الأساسى » (٨) .

كانت حياة هؤلاء « الخدم المنعاقدين » بأجل حياة قاسية ، اذ كانوا ملكية شخصية لعدد قليل من أصحاب المزارع الطامحين ، القساة ، الذين ملكوا النفوذ السياسى والاجتماعى الى جانب الثروة فى المستعمرة ، وسيطروا على الحكومة المحلية دون أى قيود على تصرفاتهم ، وتجلى ذلك فى حادثة ريتشارد بارنيس Richard Barnes سنة ١٦٢٤ ، وكان مهاجرا عاديا انتقد النظام الذى تتحكم فيه القلة تحت تأثير الخمر وأفلت لسانه بكلمات « نابية ومهينة » فى إحدى الحانات ، وصدر الحكم عليه ، لهذا السبب ، بتجريدته من سلاحه ، وكسر ذراعيه ، وثقب لسانه بمخراز ، وبأن يمر أمام ٤٠ جنديا من المشاة ليضربه كل منهم بكعب بندقيته القديمة ويركله ثم يلقى به خارج الحصن ، وينفى من جيمس سيتى ومن الجزيرة ، بحيث لا يكون كفؤا للتمتع بالحرية [بعدئذ] (٩) .

لم يكن بارنيس من الخدم المتعاقدين بأجل ، بل كان شخصا حرا متمتعا بالحقوق الكاملة للمواطن ، لأن حياة الخادم المتعاقد الذي يتحدى ارادة المجموعة المهيمنة من مزارعى التبغ ، تكون أشد تعرضا للمخاطر حيث لم يكن يختلف الاسترقاق فى فرجينيا عن النظام القديم للملكية الرقيق الا من حيث الدرجة فقط . فنظرا لعدم التقيد بالمحاكم التى تحمى حقوق الخدم فى الوطن الأم من السادة الجائرين ، عاملهم الملاك على أنهم جزء من ممتلكاتهم المنقولة . حتى ان تاجرا انجليزيا رفض أن يأخذ شحنة مركب من خدم العقود الى فرجينيا ، وبرر ذلك بأن « الخدم يباعون فى الذهاب والجيئة كالخيول » . وقد كتب ادموند مورجان Edmund Morgan عما حدث فى فرجينيا « وقت ازدهارها » أن الشركات التجارية الخاصة تتصرف من آن لآخر دون رقيب أو حسيب ، وتسرف فى جشعها حتى بات البشر يعاملون وكأنهم منقولات ، (١٠) .

العلاقات الانجليزية - الهندية :

بينما كان المستثمرون ، ومؤسسو الشركات فى فرجينيا يخططون خطتهم تبعا لواقع البيئة المحيطة بتشيزابيك ، لم يكن المستوطنون يطورون وسائل استغلال الأرض والعمال والمهاجرين فقط ، بل كانوا يصطدمون بأهالى المنطقة ويدخلون معهم فى مناقشات . وسواء أكان ذلك يحدث أم لا فان تنمية ثروات أية منطقة لا تتم بدون مجابهة صريحة ومباشرة لسكان الأرض الأصليين . فمنذ أن لمست بعثة جيمس تاون الأولى الأرض ، والانجليز فى اتصال واحتكاك مباشر مع الهنود الحمر ، وكان الاستيطان الدائم يتطلب حصول المستوطنين البيض على الأرض التى يملكها الهنود . وكانت هذه الحقيقة وحدها هى البداية لسلسلة الأحداث التى أثرت على العلاقات الاجتماعية بين البيض والحمر .

لا يمكن أن نعرف بالضبط ، ما كان يتوقعه الانجليز من الهنود وهم يقتربون من خليج تشيزابيك فى ربيع ١٦٠٧ م . ، ولا أن نتأكد مما اذا كان تدمير الهنود لحملة أسبانية فى نفس المنطقة قبل جيل مضى كان تعبيرا عن عداء تجاه كل الأوروبيين . ولكننا نرجح أن كلا الجانبين لم يكن متفائلا بقاء الآخر فمستعمرة رونوك كانت قد تحولت الى كومة من العظام على يد الهنود منذ جيل سابق ، أما تجربة الهنود مع الأوروبيين على فترات متفرقة ، فقد جعلتهم يرونهم أناسا متشربين للروح العسكرية ، ومحبين للنظام . ولا بد أن تشاؤم الانجليز قد تعاظمت حدته عندما هوجمت حملة جيمستاون بالقرب من كيب هنرى ، وهى أبعد نقطة داخل البحر فى منطقة تشيزابيك ، وكانت أول ما وقعت عليه العين من اليابس . ومن هذا المنطلق ، تقدم الانجليز بمنتهى الحذر وهم يتوقعون العنف والغدر

من الهنود حتى وهم يتقربون منهم بطرق في ظاهرها الود . وهكذا ، عندما قاد كابتن نيوبورت ، أول رحلة استكشافية في اتجاه نهر جيمس الذى سمي بهذا الاسم عقب تأسيس مستوطنة صغيرة جدا في جيمستاون ، تحير لما لاقاه من ود الهنود الذين كان يحسبهم قوما غدارين بطبيعتهم ، ولكنه ألفى فيهم كرما بالغا (١١) .

ويروى أحد أعضاء البعثة أن الهنود دعوا الانجليز الى الطعام وشرب النبيذ ، وبينوا أنهم « على خصام » مع القبائل الأخرى بما فيها قبيلة تشيزابيك ، التى هاجمت الانجليز فى كيب هنرى ، ولذلك فهم راغبون فى التحالف مع الانجليز ضد أعدائهم .

تشير الدراسة الأنثروبولوجية ، الى أن هنود المنطقة كانوا يصفون موقفهم بلسقة بالغة عندما قالوا انهم « على خصام » مع القبائل الأخرى . فقد كان يعيش فى منطقة تشيزابيك نحو خمسين قبيلة صغيرة ، وقبل وصول الانجليز كان بوهاتان Powhatan الرئيس الأعلى لعشرات منها ، يشدد قبضته ، على القبائل الأقل شأنًا بالمنطقة ، بينما يمنع خطر قبائل بيدمونت Piedmont الداخلية . ولعله رأى أن تحالفه مع الانجليز يبسط سيطرته على منطقته الساحلية ، بينما يقضى بذلك تلقائيا على نفوذ أعدائه فى الغرب . وفى نفس الوقت ، كانت له تجربة غير سيارة مع الأوروبيين ، قبل ثلاث سنوات عندما وصلت سفينة انجليزية عابرة ، وأكرم ضيافة طاقمها ، ورغم ذلك قتلوا أحد الزعماء بالمنطقة وخطفوا العديد من الهنود ، تلك التجربة جعلت بوهاتان يحاذر كثيرا من هؤلاء الوافدين .

وسرعان ما فهم جون سميث وآخرون غيره التوتر الداخلى بين القبائل ، وكذلك الاختلافات اللغوية بين الهنود . ولكنهم لم يستطيعوا اقناع أنفسهم ، فيما يبدو بأن بعض زعماء القبائل يمكنهم أن يجلدوا فى مجيئهم قوة تنفعهم . فلم يسعهم الا أن يروا فى الهنود جميعا تهديدا لهم . وهكذا ، لم يروا فى الهنود سواء المعادين منهم أو المحبين سوى اختلاف فى السلوك الظاهرى فقط ، أما فى داخلهم فهم « همج » تماما ، وغدارون ، يتحينون الفرصة فقط لطرد الانجليز الى البحر الذى طلعوا عليهم منه .

وتكشف تشوش العقل والمزاج الانجليزى مرة بعد مرة أثناء الشهور الأولى من الاحتكاك . ففى خريف سنة ١٦٠٧ تناقصت الامدادات الغذائية بشكل خطير ، وتفشى المرض بين مستوطنى جيمستاون فأقعدهم ذلك عن العمل ، وأنقذ بوهاتان المستعمرة بتزويدها بالطعام الكافى حتى وصلت سفينة النجدة . الا أن الكثيرين رأوا فى ذلك مثالا للعداء المقنع من بوهاتان ، ومحاولة منه لخدمة مصالحه بالتحالف مع الانجليز ، ويؤكد

ذلك ما كتبه جون سميث (١٢) ، الذى كان ذا خبرة حربية واسعة مع الشعوب « البرابرة » فى كل أجزاء العالم ، لذلك لم يكن راغبا فى أن يصدق أن الهنود بمساعدتهم للمستعمرة كانوا يهتمون ببقاء الانجليز على قيد الحياة . وعزا قائد آخر فى المستعمرة السلوك الكريم للهنود الى تدخل رب الرجل الأبيض ، حيث كتب أنه « لولا أن الله سره أن يوقع الرعب فى قلوب (الهمج) لهلكنا جميعا على يد أولئك الوثنيين القساة ونحن فى موقف الضعيف » (١٣) .

وقع سميث أسيرا ، فى ديسمبر ١٦٠٧ ، أثناء إحدى غاراته فى بلاد بوهاتان ، وسبق الى ويرووكوموكو Werowocomoco . ويبدو أن بوهاتان أراد استغلال الفرصة لترك لدى الانجليز انطبعا بقوته ، ورتب لذلك اجراء صوريا لمحاكمته واعدامه . وفى اللحظة الحاسمة ، وبينما يستعد القائمون على التنفيذ بتسديد ضربتهم ، ألقت بوكاهونتاس Pokahontas وهى الابنة الأثيرة لدى بوهاتان ، بنفسها على سميث لتنفذه ، وأصبحت بوكاهونتاس على مدى اثنتى عشرة سنة زائرة مستديمة لجيمستاون ، ورسول والدها بعد أن اكتسبت ثقة سميث الذى أدرك أن عملية الانقاذ كانت وسيلة يظهر بها بوهاتان قوته ورغبته فى التحالف مع الوافدين الجدد ، ربما بدافع تقريره لقوتهم ، أو لعلها العناية الالهية التى دفعته لذلك ، ولكن العداء المتأصل فى ذاكرة الانجليز دفعهم الى اساءة الظن به .

أصبحت بوكاهونتاس ، فى أعقاب الحادثة ، سفيرة لبوهاتان الى مستعمرة جيمستاون وأتقنت الانجليزية ، ونقلت الى بوهاتان أخبار الانقسامات الداخلية بين الانجليز . وفى أواخر سنة ١٦٠٨ ، وبوصول المزيد من المستعمرين الى جيمستاون ، تبنى سميث ، بوصفه الرئيس الجديد للمجلس ، موقفا عدوانيا بحرق الزوارق الطويلة الخفيفة للهنود ، وحلولهم ، وقراهم لكى يحرموهم من الطعام ، ويخضعوا بوهاتان والرؤساء الأقل منه . ولما رأى سميث أن فرجينيا لن تستطيع مواصلة التزود بالمؤن بشكل فعال من انجلترا كل بضعة أشهر ، وأن المستعمرين لن يتمكنوا من الحفاظ على حياتهم فى بيئتهم الجديدة ، لذلك سعى الى المتاجرة مع بوهاتان بالقوة . الأمر الذى أثار الزعيم الهندى الذى صمم فى نهاية سنة ١٦٠٨ على ترك الانجليز يهلكون جوعا ، فرفض التجارة معهم ، وسحب أيضا بعثة بوكاهونتاس التى صدر حكم باعدامها . وفى مواجهة بين الزعيمين فى يناير ١٦٠٩ قال بوهاتان بنغمة ساخرة : « أيها الكابتن سميث ، لقد شك البعض فى أنك ستأتينى هنا ، وذلك لا يجعلنى أنوى انقاذك كما كنت [أحب] ، لأن الكثيرين أخبرونى بأن حضورك ليس للتجارة ، وانما لغزو شعبى ، وامتلاك بلدى » (١٤) .

كان رد سميث كقائد لمستعمرة يهجرها البعض الى الهنود ، ويهلك البعض الآخر فيها من الجوع ، أن يغير على قرى الهنود للحصول على المؤن . ورد بوهاتان على ذلك بمهاجمة الانجليز أينما وجدهم ، حتى ان وصول الامدادات الجديدة والمئات العديدة من المستعمرين الجدد في يولية وأغسطس لم تغنهم شيئا لسرعة نفاد المؤن ، وأثبت الرجال أنهم يستهلكون أكثر مما ينتجون . ولما رحلت سفن الانقاذ في أكتوبر ١٦٠٩ وجون سميث على ظهر احداها ، عانت فرجينيا من اليأس سنة بأكملها . فقد نشط شبح الموت في ظل بوهاتان الذي لم يتوقف عن مهاجمة سكان المستعمرات كلما أمكنه ذلك .

وقد كتب خليفة سميث جورج بيرسي أنهم بعد أن أكلوا الخيول ، وأهلكت الدوسنتاريا كثيرا من الفرجينيين فانقلبوا الى أكل بعض الحيوانات الضارة مثل الكلاب والقطط وفئران المنازل ، وجرذان الحقول ، وبعد نفادها لجأوا الى « أشياء لا يمكن تصديقها ، كنش القبور واخراج ما بها من جثث لأكلها ، وكان البعض يلحق ما يتساقط من دماء من أجساد زملائهم المنهارين من الضعف ، بل كان يبعث على الأسى البالغ أن قتل أحد المستعمرين زوجته وشق رحمها وانتزع منه الطفل وألقاه في اليم ، ثم قطع الأم اربا ، وملحها للأكل ولم يكتشف أحد الامر ، الا بعد أن أكل جزءا منها » (١٥) .

نجحت سياسة انسحاب بوهاتان من التجارة مع المعتدين على التمسك بحقوقه . وفي ربيع ١٦١٠ كتب سفير أسبانيا لدى بريطانيا ، ألونسو دي بيلاسكو Alonso de Velasco تقريراً دقيقاً يقول فيه ان « الهنود جعلوا الانجليز محصورين في المكان الحصين الذي اختاروه هناك بعد أن قتلوا الجزء الأكبر منهم ، وتركوا الباقين بدون مؤن مطلقا ، مما يجعل الهرب مستحيلا . وأشار بيلاسكو على حكومته بأن من الممكن ازالة فرجينيا من الخريطة بسهولة » بارسال قليل من السفن للقضاء على ما قد يكون متبقيا هناك » (١٦) . ولكنه لم يكن يعلم أن سفينتي نجدة قد وصلت في مايو ١٦١٠ الى جيمستاون ، الا أنهما وجدهتا الموقف كئيبا جدا حتى ان سير توماس جيتس Thoma Gates بعد أن وصل ليتولى حكم المستعمرة ، قرر ارسال الستين مستوطنا الباقين على قيد الحياة ، الى انجلترا ، وصرح بأن الانجليز لا يستطيعون سكنى تشيزابيك بصفة دائمة . فأمر جيتس ، في ٧ يولية ١٦١٠ ، بتجريد المستوطنة البائسة المهجورة مما بها من ممتلكات ضئيلة وأن تشحن الحفنة الباقية على قيد الحياة ليجروا في نهر جيمس الى المحيط المكشوف . وقد رفعت السفن مراسيها للاقلاع ليلا ، بعد وصولها الى رأس تشيزابيك واعتزمت بدء رحلة العودة في المحيط في اليوم التالي .

وفى اليوم التالى ، لاحت على مرمى البصر ، ثلاث سفن ، كانت تحمل ١٥٠ عضوا جديدا أرسلتهم شركة فرجينيا مع حاكم جديد ، هو سير توماس وست ، لورد دى لاوور . لقد ولدت جيمستاون من جديد فى لحظة انقراضها .

نشط مستعمرو جيمستاون ، الذين انبعثت فيهم الحياة ، فى بسط سياستهم الحربية نحو الهنود ، وذلك بعد أن تجدد تسليحهم وتمويلهم بالأغذية . وكان الوضع الجديد ازاء حلف بوهاتان واضحا بأوامر صدرت سنة ١٦٠٩ لتحكم المستعمرة ، وكانت شركة فرجينيا قد أصدرت قبل ذلك بثلاث سنوات أمرا بأن « من الواجب عليك ، فى كل طرقتك التى تسلكها أن تحرص بشدة على علم اغضاب الأهالى الذين يتصرفون بطبيعتهم ، اذا استطعت أن تتفادى ذلك » (١٧) . أما الآن فقد صدرت الأوامر الى الحاكم لينتهى من احتلال المنطقة ما بين نهري جيمس ، ويورك ليخضع كل القبائل له بدلا من بوهاتان ، وليأخذ الحبوب والفراء ومواد الصباغة من كل قبيلة ، ويضم الأهالى كلما أمكن فى قوى عاملة زراعية ، مثلما فعل الأسبان فى مستعمراتهم . ولما زادت قوة المستوطنة الانجليزية ، تابع خلفاء سميث سياسة الارهاب والغزو العسكرى . وأخذ بوهاتان فيما بين سنتى ١٦١٠ ، ١٦١٢ يهاجم المستعمرين ، أينما سنحت له الفرصة ، وصعد الانجليز هجماتهم التى قضت على الجزء الأكبر من ثلاث قبائل صغيرة ، ودمرت قرىتين هندية . ويبدو أن أغلب كميات الحبوب التى أبقت على حياة المستعمرة فى هذه السنين قد انتزعت بالقوة من قرى بوهاتان .

فى سنة ١٦١٣ ، خطف الانجليز بوكاهونتاس فى خطة مسبقة لاستعادة أسراهم وكمية الأسلحة التى حصل الهنود عليها على مر السنين ، ولاجبارهم على سداد « كمية ضخمة من الحبوب » حسبما حددها مختطف بوكاهونتاس ، الكابتن صمويل أرجال Samuel Argall . (١٨) ولما كان بوهاتان يدرك أن ابنته لن تضار بشئ ، قدم تنازلات محدودة ، ولكنه رفض أن يفى بكل شروط الفدية . وفى السنة التالية ، عندما أعلن الرجل الأرملة ، جون رولف J. Rolfe ، الذى اكتسب خبرة فى زراعة التبغ منذ سنة ١٦١٠ ، عزمه على الزواج من بوكاهونتاس وأغرى بوهاتان ، على مفض ، بالمزايا السياسية من وراء السماح بأول زواج انجليزى / هندى فى تاريخ فرجينيا المبكر ، وأصبحت بوكاهونتاس أداة لهدنة غير مستقرة بين مجتمعين ، وقد توفيت بعد ذلك بسبع سنوات فى ١٦١٧ ، وتجددت الأعمال العدائية بعد خمس سنوات من وفاتها عندما توافد المئات من المهاجرين الى أمريكا .

التبادل الثقافي (الحضارى) :

بالرغم من سوء الفهم ، والشك ، والعنف من كلا الجانبين ، عاش الانجليز والبرهاتان على اتصال وثيق خلال العقد الأول من الاستيطان الانجليزى ، وحدث تبادل حضارى على نطاق واسع . وبالرغم من أنه كان أمرا عاديا فى أذهان العامة منذ لحظة التقاء الأوروبيين بالأمريكيين الوطنيين ، أن الأوروبيين « متقدمون » والهنود « بدائيون » ، رغم ذلك ، كانت الاختلافات التقنية بين الحضارتين متعادلة أو يرجع بعضها البعض بالمتشابهات بين هذين المجتمعين الزراعيين ، كما نبهتنا اليه الأنثروبولوجية نانسى لورى Nancy Lurie (١٩) . فقد كانت المزايا التقنية الرئيسية للانجليز هى قدرتهم على نقل كميات كبيرة من المياه فى السفن الخشبية ، وتفوقهم فى استخدام الحديد فى تشكيل الأدوات والأسلحة . إلا أن الهنود قد جسدوا مفردات عصر الحديد بسرعة وأدخلوها فى حضارتهم كغلايات الشاي ، والشصوص ، والفخاخ ، والأبر ، والسكاكين ، والبنادق . وفى المقابل ، ألفوا الانجليز بكيفية استعمال الشباك والسياج لصيد السمك الوفير والصدف فى مياه تشيزابيك ، كما قدموا للأوروبيين سلسلة كبيرة من المنتجات الزراعية لم تكن معروفة فى أوروبا قبل الوصول الى العالم الجديد . وهكذا ، تعلم الانجليز فى فرجينيا من أهالى المنطقة كيف يزرعون التبغ ، والحبوب ، والبقول ، والقرع واليقطين (*) ، والأرز الجاف ، وغيره ، كما كان تعريف الانجليز بسلسلة كبيرة من الأعشاب الطبية ، والأصباغ ، وبعض الأدوات المهمة مثل المركب الطويلة الضيقة جزءا من عملية التبادل الحضارى .

تواصل هذا التفاعل باطراد ، حتى أثناء العهد وأعمال العنف المتقطعة فى السنوات التالية . ومما سهل ذلك ، معيشة بعض الهنود وسط الانجليز كعمال يومية ، بينما هرب عدد من المستوطنين الى القرى الهندية ، مفضلين ذلك على تحمل صرامة الحياة وسط الحكام الانجليز المستبدين ، وزراع التبغ الظالمين . وخلق هذا النوع من التبادل معرفة وفهما للحضارة الأخرى . ولذا ، عندما اتبع الانجليز سياسة الارهاب والتهديد فى السنوات السابقة ، لم يكن يخفى عليهم مرونة الحضارة الهندية وقوتها ، فقد اندهش سميث نفسه من قوة قبائل تشيزابيك وذكايا وموهبتها فى صيد البر والبحر ، وأعجب بموسيقاهم ووسائل تسليةهم . ولاحظ أنهم يقيمون حكما متمدنا ، ويتقيدون بتقاليدهم الدينية ، وأن كثيرا من عاداتهم ومؤسستهم الاجتماعية لم تكن تختلف

(*) اليقطين نوع من القرع - (المترجم) .

عن مثيلاتها الأوروبية . حيث قرر سميث أنه « بالرغم من أن سكان البلاد برابرة الا أن لديهم حكومة من بينهم ، لحكامها القيادة الحكيمة ، ولشعبها الخضوع اللازم والطاعة الواجبة ، ويتفوقون على أماكن كثيرة تعتبر متمدنة جدا » . ويصور ذلك ، نزوع العقل الانجليزي الى تقبل الصور المتناقضة للهنود همجية كانت أو مدنية على السواء . وكتب انجليز آخرون ، مثل القس الانجليكاني ، الكسندر ويتيكر Alexander Whitaker الذي كان يبشر وسط الهنود بأننا افترضنا خطأ بأن الهنود هم مجرد شعب همجي ، « لأنهم كانوا ذوي أجسام قوية ورشيقة جدا ، فهم جيل ذكي جدا ، سريعو الفهم ، سريعو التصرف ، رقيقون في تعاملهم ، مبدعون في خيالهم ، مجسدون في عملهم » (٢٠) لذلك ، عندما كيف كل من الطرفين نفسه لوجود الطرف الآخر استغرق في اقتباس ثقافة الآخر ، في عملية جرت بين شعبين تفصلهما فجوة حضارية ليست من الاتساع بحيث تسوغ للأوروبيين أن يصفوا احدهما بأنها « همجية » والآخر « متمدنة » .

تجدد العداوة والتعدى :

خضعت العلاقات بين الشعبين لتغير جوهري ، بعد الزيادة السكانية التي صاحبت النمو السريع في انتاج التبغ . فبينما درت زراعته على فرجينيا محصولا تقديا ذا امكانات عظيمة ، خلقت طلبا هائلا على الأرض ، وبينما اندفع الرجال مرارا الى أعالي الأنهار التي تتدفق نحو خليج تشيزابيك في كفاح للحصول على مزارع التبغ ، أدرك هنود المنطقة أن الأمر ينذر بالخطر . فقد مات بوهاتان سنة ١٦١٨ مباشرة بعد أن بدأت زراعة التبغ تنتشر بسرعة ، وأخذ ابن عمه أوبيشانكاناو Opechancanough يراقب التوسع الانجليزي في قلق ، مدة أربع سنين . ثم بدأ سنة ١٦٦٢ ، ينسق هجوما موحدا على كل المستوطنات الانجليزية . وكان قتل احدي الشخصيات الهندية المحترمة في اتحاد بوهاتان هو السبب الذي أشعل مذبحة المستوطنين في فرجينيا سنة ١٦٢٢ ، الا أن الأساس الجوهري لهذا الجو الملتهب قلده نشأ نتيجة توسع الرجل الأبيض ، والضغط على أراضي الصيد الهندية لمدة ست سنوات .

وبالرغم من عدم تحقيق الهدف من هذه الحملات بانهاء الوجود الانجليزي في المنطقة ، الا أن هجوم سنة ١٦٢٢ قد محا ثلث السكان البيض ، وكان من بين الضحايا ، جون رولف ابن أخت أوبيشانكاناو ، وكانت تلك الحادثة ، بالنسبة لشركة فرجينيا في لندن ، هي القشة التي قصمت ظهر البعير . اذ أعلنت افلاسها بعد ذلك بقليل ، وتركت المستعمرة

لحكومة التاج . وكانت أهم النتائج ، أن أولئك الذين نجوا من الهجوم قد تركوا ليواصلوا مع الهنود سياسة لا ترحم ، وحتى بالرغم من تصريح كثير من قادة المستعمرة لبعض الرجال في إنجلترا بأن السبب الحقيقي للهجوم الهندي هو « تعاملنا معهم بالخدر والخيانة » كان الاتفاق العام أن يكون المستعمرون ابتلاء من ذلك الحين أحرارا في اقتناص كل هندي أينما يثرون عليه . ولم يعد الأمر يحتاج للاعتراف بالالتزام « بتمدين » الوطنيين وتنصيرهم . ويمكننا أن نتناول الآن « المشكلة الهندية » دون حرج على فهمنا ، حيث باح أحد قادة المستعمرة بعد الهجوم بقوله :

**ان أيدينا التي كانت مقيدة قبل ذلك بقواعد اللطف والمعاملة
العادلة قد أطلقت الآن حريتها ، بسبب عنف الخونة الهمج
..... اننا لم نحصل على غير أراضيهم الجذباء بينما كسبوا
هم من ورائنا صفقات قيمة ، ويمكننا الآن ، بما لنا من
حقوق يخولها لنا قانون الحرب وشرائع الأمم أن نغزو بلادهم ،
وندمرهم ، فهم الذين سعوا الى تدميرنا ، وستصبح أراضيهم
التي نحررها في أية قرية من قرأهم ملكا لنا منذ الآن (٢١) .**

هكذا تعمل المهاجرون الجدد بتلك المبررات المفضوحة لتدمير القرى الهندية ، والاستيلاء على أجرد الأراضي بدلا من شرائها . ويقرر جون سميت في إنجلترا ، بعد سنتين من الهجوم ، أن البعض كانوا يؤمنون بأن الهجوم « سيكون في صالح المزارع ، لأن لدينا الآن سببا مشروعاً لتدميرهم بكل ما يمكننا من وسائل » . وبرر كاتب آخر الإبادة الجماعية للهنود بأن الهنود أنفسهم قد قدموا الى الانجليز الحافز على إبادتهم . وأخذ يعدد ، في تلنذ ، الوسائل التي يمكن أن يباد بها « الهمج » فيقول : « يمكن تحقيق النصر بعدة طرق هي : القوة ، والمباغتة ، والتجويع ، وحرق حبوبهم ، وتخریب وحرق بيوتهم ، وقواربهم وزوارقهم المستطيلة ، وإضعاف قدرتهم على صيد السمك ، والإغارة عليهم أثناء الصيد الذي يوفر لهم مئونة الشتاء ، كذلك اقتفاء أثرهم ومطاردتهم بخيولنا وكلاب المطاردة وكلاب الحراسة لتمزيقهم » (٢٢) .

ما أن انطلقاً الظمأ الى الانتقام ، حتى انحصر النقاش في التساؤل حول ما اذا كانت إبادة الهنود ستكون في صالح المستعمرة أم لا ؟ وقدم أحد أصحاب المزارع البارزين « أسباب عدم الموافقة نهائيا على إبادة الهمج البدائيين لأن هذا الشعب ، من الممكن اذا أحسن إخضاعه أن يثرى فرجينيا كلها بالعمالة . الا أن كلا من الإخضاع والاحتواء يتطلب مزيدا من الوقت والعناء أكثر مما كان الفرجينيون مستعدين له . وكان أبسط منهج يتسق مع تعليمات لندن « باقتلاع [الهنود] حتى لا يكونوا شعبا أبدا » هو

اتباع سياسة حرق الأرض واثلافها عند الاضطراب لتركها ، وتدمير القرى والمحاصيل كل صيف بواسطة الحملات العسكرية (٢٣) . وفى سنة ١٦٢٩ فشلت مفاوضات لعقد معاهدة سلام ، حيث قرر المجلس أن « العداء المستمر » يخدم المستعمرة بشكل أفضل . وتلك سياسة ضمنية مؤكدة ، على أساس الاعتقاد بأن التبادل الحضارى بين الشعبين أمر غير مرغوب فيه .

كان من آثار كارثة الهجوم الهندى سنة ١٦٢٢ انتشار صورة سلبية تماما للهندي ، فى عقلية الفرجينى . وقد سبق أن استعملت فى وصف الوطنيين كلمات مثل « غادر بطبعه » ، و « ماكر » ، و « همجى » ، و « قصير النظر » ، ولكن حضارتهم ظلت محل احترام شديد فى نظر الانجليز . أما بعد سنة ١٦٢٢ فكان من النادر أن ينظر الى حضارة الهنود بعين الاعتبار ، كما زحفت كثير من الكلمات البذيئة على وصف الانجليز للهندي ، وأسقطت عليه صفات سلبية وهدامة . وبينما وصف جون سميث وآخرون الهنود ، فى السنوات العشر الأولى بأنهم « مهرة » ، مبدعون ، و « مجنون » ، و « سريعو الفهم » ، أكد أحد كتاب تاريخ المذبحة ، عقب الحادث مباشرة أن هنود تشيزابيك كسالى بطبعهم ، وقتلة ، وسوداويون – ينزعون الى الحزن والكآبة – أقذار فى الجسم والملبس ، أحوالهم سيئة ، كذابون ، ضعاف الذاكرة ، عديمو الاخلاص والوفاء ، وأكثر الناس كذبا فى العالم ، لا ينظرون أبدا الى الأخطار المتوقعة ، ولا تشعلى قدرتهم قدرة أطفال فى السادسة أو السابعة ، وأقل ذكاء ومهارة من غيرهم » (٢٤) . ولا يعكس هذا الكم من المفردات اللغوية السيئة ، فقط ، مدى غيظ المستعمرة ، التى هلك أغلبها ، بل يعكس أيضا الحاجة الداخلية الدفينة الى تبرير السياسة الاستعمارية للأجيال القادمة ، وبعدها يسهل جدا تبرير القضاء على الهنود ، اذ ينظرون اليهم على أنهم همج بلا حضارة ، وغير قابلين للتنظيم من جديد بدلا من القول بأنهم شعب معاد ، هيأته حضارته بصورة ممتازة لأن يحيا ويبقى فى منطقة تشيزابيك رغم اختلافها فى بعض الوجوه عن الحضارة الانجليزية .

استمرار العداوة :

بلغ عدد سكان فرجينيا ، فى العشرين سنة التى تلت الهجوم الهندى سنة ١٦٢٢ ، نحو ٦٠٠٠ مستوطن . وحتى سنة ١٦٤٥ ، شجنت المستعمرة ملايين الأبطال من التبغ الى انجلترا سنويا . وبالرغم من تعيين حكومة الملك للحاكم بالاشتراك مع مجلس معين ومجلس برلمانى منتخب من الانجليز ، الا أن السلطة الحقيقية فى المستعمرة ظلت فى

المستوى المحلي ، حيث كان مزارعو التبغ يتصرفون بشكل مستقل ، غير عابئين كثيرا بالسلطة المركزية . فقد اشتكى البعض مثل جون هارفى ، الحاكم المعين سنة ١٦٢٦ من أن هؤلاء المزارعين « يفضلون كثيرا تحقيق أهدافهم الخاصة بدلا من تحقيق الصالح العام » (٢٥) . لكن ، لم يكن يسهه سوى القليل ليقوى روح المجتمع أو يكبح شهوات أصحاب مزارع التبغ النهمين ، المتيقظين للربح . فعندما حاول رسم سياسة هندية معتدلة فى العشرينات من القرن السابع عشر ، وعرض على سبيل المثال ، أن يكون السلام الدائم بالتفاوض مع الهنود ، وترك قبائل تشيزابيك بدون ازعاج فى الاراضى التى يشغلونها ، رفض المزارعون التعاون معه ، اذ لم يكن لديهم أى اتجاه أو ميل للسماح للحاكم بالتدخل فى توسيعهم لمزارعهم الشاسعة ، أو الاستمرار فى سياستهم العدوانية نحو الهنود . وحينما حاول هارفى فرض ارادته مرة ثانية سنة ١٦٣٥ تأمرت عليه عصبية من زعماء فرجينيا ، واستعملوا العنف معه ، وطردوه من المستعمرة ، بينما أرسلوا عرائض الى الوطن الأم يشكون فيها من تعسفه ، واستبداده ، وسياسته غير المعقولة .

رجال كهؤلاء ، طامحون ، مشاكسون ، صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، لا يردعهم وازع دينى أو انسانى تجاه الهنود ، ولا تقيدهم حكومة ، وكان على قبائل تشيزابيك مواجهتهم ، وأيضا مواجهة التغير السريع فى النقص الخطير لأعدادهم نتيجة المرض والحرب أثناء الربع الأول من القرن الذى جاء فيه الانجليز ، فى مقابل الزيادة السريعة فى أعداد الانجليز بعد سنة ١٦٢٤ . وقد كانت هذه العوامل خارج سيطرة قبائل تشيزابيك . ورغم أنهم لم يستبشروا بمستقبل طيب ، استمر الوطنيون يتبعون أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، اذ أن سنوات الصراع والاحتكاك مع الحضارة الأوروبية لم تقنعهم كثيرا بضرورة تغيير نظامهم الاجتماعى والسياسى ، أو قيمهم ومعتقداتهم الى النمط الانجليزى . ولم يدخل حضارتهم الا الابتكارات التكنولوجية وبعض المصنوعات ، أما المظاهر الأخرى للحضارة الأوروبية فكان نصيبها المقاومة والرفض .

وكانت الانتفاضة الهندية ، سنة ١٦٤٤ ، وبالرغم من قلة عددهم عما كان عليه سنة ١٦٢٢ ، فقد هجمت القبائل تحت قيادة المعمر أوبيشانكاناو وهو محمول على محفة . وأنزل الانجليز بهم خسائر فادحة وكان المحاربون من الشبان الذين لم يعرفوا ما حدث فى الحرب السابقة الا من الروايات والوصف الشفهى ، وقد عزموا على المخاطرة بهجوم شامل (٢٦) ، وهم يدركون مدى الانتقام الذى سينزل بهم اذا ما انهزموا ، مما يدل على « مقاومة الهنود العنيفة لايادتهم حضارينا » (٢٦) . ولقد

خسرت قبائل بوهاتان مرة ثانية ، فى حرب سنة ١٦٤٤ ، لأن المساعدة التى توقعوها من سكان ميريلاند البيض ، الذين كانوا على علاقة سيئة دائما مع فرجينيا ، لم تتحقق ، ولكن بسالة الهنود فى القتال جعلت أهالى فرجينيا يستبعدون محاولة اخضاعهم بالقوة والقهر ، ولتفادى أخطار حروب قادمة ، استعاد رجال المستعمرة سياسة العشرينات من القرن السابع عشر ، ووقعوا معاهدة رسمية سنة ١٦٤٦ مع من بقوا أحياء من اتحاد بوهاتان ، رسمت خطا فاصلا بين أراضى الحمر وأراضى البيض ، وكان معنى هذا استبعاد ذويان أى من الشعبين فى الآخر ، كما ضمن هذا التقسيم لأهالى البلاد ملجأ يقيهم جشع البيض ونهمهم الى الأرض والعدوان . وفى مقابل ذلك ، تعهدت قبائل بوهاتان بمساعدة البيض عسكريا فى حالة تعرضهم لهجوم قبلى خارج منطقة تشيزابيك ، وألزمتهم المعاهدة بدفع جزية سنوية لمستعمرة فرجينيا من فراء السمور الغالى الثمن .

اضمحلال القوة الهندية :

عندما أجرى تعداد سكاني ، فى فرجينيا عام ١٦٦٩ ، لم يكن بالمستعمرة سوى ١١ قبيلة من ٢٨ قبيلة وصفها جون سميث عام ١٦٠٨ ، ونحو ٢٠٠٠ هندي من ٣٠٠٠ كانوا موجودين عند مجيء الانجليز . مما يدل على أن الغلبة كانت للانجليز فى هذا التصادم الحضارى ، حيث أقبل الكثيرون على الهجرة الى المستعمرة فى الوقت الذى تناقص فيه الهنود ، الذين افتقروا أيضا الى التسليح القوي الفعال . (ولو أن ذلك غير مؤكد ، طالما أن القوس والسهم كان لهما نفس فعالية وتأثير البندقية للمشاة فى حرب الغابات) . وعجزهم عن توحيد أنفسهم ضد الشعوب الأوروبية الوافدة عليهم . لقد فاقوا الانجليز عددا خلال العقدين الأولين من الاستيطان ، ولا بد أنهم توقعوا مزيدا من المساعدة من الفئات الداخلية القوية ، التى شددت قبضتها على مستعمرة فرجينيا عدة سنوات . ولكن فى أوقات الازمات العسكرية ، كان المستعمرون أقدر على التوحد ، فى أية لحظة عن قبائل منطقة تشيزابيك .

والعامل الآخر الذى لعب دورا مهما فى التدهور التدريجى فى قوة الهنود ، هو عدم توظيف قبائل تشيزابيك مهنيا داخل النظام الاقتصادى والاجتماعى الانجليزى . ونفهم ذلك جيدا بمقارنة النظام الاستعمارى الانجليزى ، بالمستعمرات الأسبانية ، التى استغللت أعدادا كثيفة من السكان الوطنيين فى الزراعة ومناجم الفضة . ونجح الأسبان فى إقامة مراكز سكانية فى المكسيك وبيرو ، جعلوا منها بؤرا لجهودهم الاستعمارية .

ولما كان الهنود يمدون شركات التعدين والانتاج الاستعماري بالجزء الأساسي من الأيدي العاملة في العقود الأولى ، أصبح من الضروري ، وليس من المرغوب فيه فقط ، استيعابهم في الثقافة الأوروبية ، هذا فضلا عن أن الكنيسة الأسبانية كان لها اهتمامها الراسخ بالهنود ، فأرسلت مئات من المبشرين إلى المستعمرات بهدف واضح ، وعاجل هو هداية أكبر عدد ممكن إلى الدين الجديد من أجل مزيد من المجد للكنيسة . والسبب الثالث ، هو أن الزيادة الفاتحة للمهاجرين الأسبان من الرجال ، استدعت مجيء النسوة الهنديات للخدمة في البيوت ، كما اتخذت منهن البيض الخليلات والزوجات وإن كن أدنى منزلة من الأسبانيات ، فتحقق بذلك قدر من الامتزاج بين التسعين ، وكان الأسبان آنذاك قد هيمنوا على السكان المحليين ، باستخدام العنف والقسوة في بادئ الأمر ، فلم يعودوا ينظرون إلى الهنود كمصدر تهديد لهم ، بل نظروا إليهم كسكان يمكن أن يسدوا الاحتياجات الاقتصادية والدينية والبيولوجية للوافدين الأوروبيين . لجذب الوطنيين إلى الحضارة الأسبانية والاختلاط بهم ، وحمايتهم . وبالرغم من الانتشار المفجع للأمراض التي جلبها الأوروبيون معهم مما أدى إلى نقص السكان الهنود بأكثر من ٧٥٪ في القرن الأول من الاتصال ، لكن ذلك لم يؤثر على مسيرة الامتزاج الحضاري والتبادل الثقافي .

ولكن الأمر اختلف في فرجينيا . فلم يحضر الانجليز قوة عسكرية تضاهي فاتحي بيرو والمكسيك من الأسبان ليخضعوا بها قبائل تشيزابيك المتناثرة وليسوقوهم إلى العمل الزراعي ، وأرسلت الكنيسة الانجليكانية إلى المستعمرة ، مجرد حفنة من القساوسة ، قاموا بجهود رمزية في الحملة التبشيرية ، وكان نفوذهم على المستوطنين المحليين محدودا للغاية ، كما لم تكن هناك حاجة مستمرة إلى النساء الهنديات الأمر الذي كان من الممكن أن يساعد على الامتزاج الحضاري ، حيث أصلح وفود المهاجرين من أوروبا الخلل في التفاوت بين أعداد الذكور والإناث . وكان من المعتاد منذ منتصف القرن السابع عشر أن تهاجر العائلات بأكملها ، وهو ما لم يتحقق للأسبان . ولم يكن الامتزاج وتخالط الأجناس معروفا في فرجينيا ، تقريبا . أما حالات الاتصال القليلة التي حدثت فعلا بين الرجل الأبيض والمرأة الهندية فقد اقتصرته على مناطق الحدود ، حيث تزوج التجار والصيادون ، من السيدات الوطنيات بين حين وآخر .

وكانت الطريقة الوحيدة التي أشبع بها الهنود احتياجات المستعمر الأبيض هي تجارة القراء ، حيث أفادوه في الصيد ونصب الفخاخ . إلا أن تجارة القراء لم تكن ذات أهمية تذكر في المستوطنات الفرجينية الأولى ، وبحلول العشريينات من القرن السابع عشر هيمن التبغ على اقتصاد

فرجينيا • وقد أثبتت كارثة الهجوم سنة ١٦٢٢ أن ما كان يريد المستعمر أساسا ، من الهندي هو أرضه وهي خالية منه • وظهر مع جيل الاستيطان الأول أن أيا من الطرفين الأوروبي والهندي لم يكن يملك القدرة العسكرية لاختضاع الآخر والسيطرة عليه ، وهذا الاختضاع لم يكن لازما للانجليز ، وكان مفهوما أن الهنود ليسوا من الكثرة بحيث يساهمون في تحقيق أهداف الاستعمار الانجليزي ، كما كان ينظر اليهم على أنهم مجرد عائق • وبهذا الشكل ، أصبحت قبائل تشيوايوك هدفا ليس لسياسات الاستيعاب ، بل لخطط التمييز العنصري التي تنادي بالفصل أو الإبادة • وفي سياسة مغايرة تقريبا للسياسة الأسبانية الهندية عمل الانجليز في الحضارة الى أدنى حد • وكانت تلك الحطة قائمة فيما يشبه السياسة الأسبانية القابلة للاستغلال في المستعمرات الانجليزية والأسبانية ، والاختلافات في درجة الكثافة السكانية الهندية ، وفي التركيبة السكانية للمجتمعات المستعمرة (بكسر الميم) والمستعمرة (بفتح الميم) ، وفي الخلفية الاجتماعية للمستعمرين ، فضلا عن الفروق في السمات الوطنية والمواقف ازاء الأهالي الأصليين ، أو في السياسة القومية ، وكل ذلك كان مسئولا عن مواصلة الاحتواء والامتصاص في أمريكا الأسبانية ، ومواصلة الفصل العنصري في فرجينيا •

المراجع

1. Edward Arber and A.G. Bradley, eds., « Travels and Works of Captain John Smith (Edinburgh : J. Grant, 1910), 2 : 928.
2. John Rolfe, « A Relation of the State of Virginia (1616) », quoted in Perry Miller, « Religion and Society in the Early Literature : The Religious Impulse in the Founding of Virginia », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 6 (1949) : 29.
3. William Stith, « The History of the First Discovery and Settlement of Virginia » (New York : Joseph Sabin, 1865), p. 98.
4. Arber and Bradley, eds., « Works of Smith », 1 : 104.
5. Quoted in Sigmund Diamond, « From Organization to Society Virginia in the Seventeenth Century », American Journal of Sociology, 63 (1958) : 460.
6. Ibid., 461.
7. George Sandys of John Ferrar, 1623, in Susan M. Kingsbury, ed., « The Records of the Virginia Company of London » (Washington, D.C. : Government Printing Office, 1906-35), 4 : 23 ; William Stith, « History of Virginia », p. 103.
8. Edmund S. Morgan, « The First American Boom : Virginia 1618 to 1630 », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 28 (1971) : 183.
9. Ibid., 193.
10. Ibid., 198.
11. Philip L. Barbour, ed., « The Jamestown Voyages Under the First Charter, 1606-1609 » Hakluyt Society Publications, 2nd Ser., 136 (London : The Hakluyt Society, 1969, 103-4).
12. Arber and Bradley, eds., « Works of Smith », 1 : 8-9.
13. Barbour, ed., « Jamestown Voyages », 136 : 144-45.
14. Quoted in Philip L. Barbour, « Pocahontas and Her World » (Boston : Houghton Mifflin Company, 1970), p. 46.

15. Quoted in *Ibid.*, pp. 64-65.
16. Quoted in Grace Steele Woodward, « Pocahontas » (Norman, Okla. : University of Oklahoma Press, 1969), p. 120.
17. E.G.R. Taylor, ed., « The Original Writings of Correspondance of the Two Richard Hakluyts » Hakluyt Society « Publications », 2nd Ser., 77 (London, 1935) : 494.
18. Quoted in Woodward, « Pocahontas », p. 156.
19. Nancy Lurie « Indian Cultural Adjustment to European Civilization », in « Seventeenth-Century America : Essays in Colonial History », ed. James M. Smith (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), pp. 38-45.
20. Arber and Bradtey, eds., « Works of Smith », 1 : 43-84 ; whitaker, « Good News from Virginia, (1613) », quoted in Roy H. Pearce, « The Savages of America : A Study of the Indian and the Idea of Civilization » (Baltimore : The Johns Hopkins University Press, 1953), p. 13.
21. Edward Waterhouse, « A Declaration of the State of the Colony and Affaires in Virginia ... » (1662), in Kingsburg, ed., « Records of Virginia Company », 3 : 556-57.
22. « Travels and Works of Smith », 2 : 578-79 ; Waterhouse, « State of the Colony », in Kingsbury, ed., « Records of Virginia Company », 3 : 557.
23. John Martin, « The Manner Howe to Bringe the Indians into Subjection », in Kingsbury, ed., « Ricords of Virginia Company », 3 : 705-7.
24. Waterhouse, « State of the Colony », in Kingsbury, ed., « Records of Virginia Company », 3 : 562-63.
25. Quoted in Bernard Bailyn, « Politics and Social Structure in Virginia », in Smith, ed., « Seventeenth-Century America », p. 97.
26. « Indian Cultural Adjustment », in Smith, ed., « Seventeenth-Century America », pp. 51-52.

الفصل الرابع

الحضارات تلتقى فى الشمال الشرقى

بينما كان هنود اتحاد بوهاتان يخططون لهجومهم على مستوطنات البيض فى تشيزابيك سنة ١٦٢٢ ، كان الانجليز ومنهم البيورتان يرتبون « غزوا » للأراضى الهندية الواقعة على بعد خمسمائة ميل شمالا . ورغم أن البيورتان كانوا من الجماعات الدينية المتشددة التى تذرت حياتها لمصارعة الشيطان ، لكن أسلوبهم فى التعامل مع الهنود لم يختلف كثيرا عن المستوطنين الآخرين .

البيوريتانية (المنهب التطهرى) :

كانت البيوريتانية ، حركة اصلاح دينى . فمئذ تحولت انجلترا فى عهد هنرى الثامن الى البروتستانتية ، أرهقت البلاد بالتوتر بين الكاثوليك والبروتستانت . وعندما اعتلت اليزابث العرش عام ١٥٥٨ ، حاولت اجراء تسوية دينية لهذا النزاع . وكان الانجليز من غير الكاثوليك يرون أن كنيسة انجلترا ، التى ازدهرت تحت حكم الملكة اليزابث ، نقطة التقاء وسط بين كنيسة منحرفة ، وأخرى طاهرة . هذا فى أحسن الأحوال ، أما على أسوأ الأحوال ، فلا يرونها تزيد كثيرا على كنيسة روما ذات الطقوس والأردية الكهنوتية ، والبيروقراطية المقبضة . وقد رغب الانجليز فى مزيد من الطهارة والتمسك بأهداب الفضيلة فى الكنيسة ، فأسموا أنفسهم بالبيوريتان أى المتطهرين .

كانت البيوريتانية أيضا ، استجابة سياسية واجتماعية للتغيرات طويلة المدى التى حدثت فى المجتمع الانجليزى ، اذ أن الرجال والنساء ، كانوا يعيشون فى فترة ، يخلى فيها المجتمع الاقطاعى التقليدى مكانه لنظام اجتماعى عصرى جديد شهد انقلابا فى تقاليد الكنيسة ، ونموا فى المدن ، وتنظيما فى المجتمع ، وزيادة فى التجارة ، وظهورا للمجتمع الرأسمالى الذى يتمتع فيه الأفراد باستقلالهم الشخصى . وكان أكبر مظاهر هذا التجمع طرد الفلاحين من الأرض (لتحويلها الى مراعى لتربية الأغنام حتى يستغل صوفها فى الصناعة) مما أدى الى زيادة أعداد المتشردين وارتفاع معدل الجرائم

فى المدن المزدحمة خاصة لندن ، التى زاد سكانها من ٧٥٠٠٠ نسمة سنة ١٥٥٠ الى ٢٠٠٠٠٠ نسمة سنة ١٦٠٠ .

ومن هذه التغيرات التى عمت المجتمع الانجليزى ما تعلق بالقيم والسلوك الفردى . لقد كانت روح المجتمع مشبعة بنظام راسخ من السلطة الهرمية - فى الكنيسة ، والحكومة ، والهيئات الاقتصادية ، والأسرة - ولكن فى فترة التحول أخذ الأفراد يتصرفون بحرية بعيدا عن سلطان الجماعة ، فتقوضت تدريجيا السلطة الدينية التى كانت تملئ معتقداتها على الأفراد ، والسلطة السياسية التى سيطرت بصرامة على السلوك المدنى ، وحددت الحقوق السياسية ، وكذلك تقوضت نقابات الصناع والتجار التى كانت تنظم الأسعار والأجور وشروط العمل . وهكذا بدأ « المحتجون » أو « البروتستانت » يتحدثون كنيسة روما ، وبدأ الماؤولون يتحدثون حق نقابات أصحاب الأعمال فى تنظيم العمل ، كما تحدثت المؤسسات التجارية الاحتكارية التى استبعدت غير المنتمين اليها من الاستفادة بالأراضى ذات النشاط الاقتصادى ، وبدأ مديرو المؤسسات الزراعية فى شراء مزارع صغيرة بما عليها من مبان مع دمجها فى وحدات زراعية أكبر وطرده مستأجريها والعمال الزراعيين بها .

وأزعجت هذه التغيرات الاجتماعية البيوريتان اذ رأوا الأفراد ينفلتون من قيود العادات والقوانين . ولم يكن هناك بأس من ذلك فى الأمور الدينية اذا كان الهدف وضع الأفراد فى علاقة مباشرة مع الله ، بازاحة الوسطاء التقليديين ، خاصة الكنيسة الكاثوليكية . الا أن منهج الفردانية هذا كان مزعجا فى المجالات الأخرى ، اذ يترك الناس لأهوائهم مما يؤدى الى الفوضى السياسية والاجتماعية ، الأمر الذى يهدد بانهيار القيم الاجتماعية واحترام السلطة والأخلاق وسط النظام الاجتماعى والاقتصادى الجديد . أو كما لخصه ناقد اجتماعى بقوله ان المرء يرى فى كل مكان « رجالا كسالى ، لا ضابط لهم » .

ان هذه النزعة المغالية فى الفردية التى هى من صميم معتقداتنا وسلوكنا العبرى ، كانت للمفكرين ، والنقاد الاجتماعيين ، والزعماء الدينيين ، فى أواخر القرن السادس عشر قرينة الفوضى المزعجة ، حيث حددت مفهوم الجماعة المترابطة فى إطار التزامات ومسئوليات معينة . وفى المفهوم القديم للمجتمع أن كل فرد قد اكتسب حقوقه لا بصنفته شخصا بذاته ، بل بوصفه عضوا مشاركا فى جماعة مترابطة فى المجتمع . فكانت الحقوق ممتوجة على أساس هذه المنظمات والمجموعات المشتركة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية . أما الفرد ذاته فكانت النظرة

اليه على أنه عنصر ضئيل وضعيف لا أهمية له . ولكن الفرد أصبح الآن ،
فى علم الأخلاق الجديد هو وحدة التفكير ، دون الجماعة . وقد ترجم
ذلك لدى البيوريتان الى رؤية مفزعة معادية ومضادة للجماعة .

وقد اتجهت البيوريتانية ، بوصفها حركة اجتماعية وسياسية الى
الانكباب على هذه المشكلة ، مشكلة الفرد ازاء المجموع فسعت لمواجهة
مسيرة الفوضى والاضطراب والشر و « عدم الانضباط » التى رأتها تنتشر
بسرعة فى المجتمع الانجليزى . فكانوا يأملون ، عن طريق نظام جديد ،
فى خلق نظام اجتماعى متجدد يستعيدون به التوازن المفقود لمجتمعهم ،
وذلك بأن يؤكدوا على أهمية العمل ، والكدح والاجتهاد فى أية حرفة
كانت - كوسيلة أساسية للتقرب الى الله . ولا يشترط أن يشغل الفرد
مهنة راقية أو حرفة معينة ، وانما عليه فقط أن يكسب فى أى موقع يجد
المرء نفسه فيه ، سواء أكان محاميا أو حدادا أو مجرد عامل بسيط .
فكل « مهنة » تتساوى فى نظر الله ، ولا بد أن تؤدى المواظبة عليها والاجتهاد
أو المجاهدة فيها بالفرد الى سمو روحه . وليس المهم هو المكانة الاجتماعية
والنراء فالمعيار الأساسى هو تكريس الشخص لعمله ، وقد كتب فى ذلك
أحد زعماء البيوريتان قائلا : « اذا كنت رجلا تعيش بلا مهنة توجهها
للمصالح العام ، فأنت اذن بهيمة نجسة . حتى وان كان ايرادك السنوى
ألفى جنيه تصرفها ، ان الله أرسلك الى هذا العالم بصفته دارا للإصلاح ،
وليس مسرحا للعب الأطفال » (١) .

ثانيا ، اجتهد البيوريتان فى تنظيم أنفسهم فى تجمعات دينية يعمل
الرجال والنساء فيها سويا ، وينظمون أنفسهم ، ويعملون للخلاص
المشترك . فيجب أن تهتم الجماعة بتعزيز الفضيلة ، فلا يعمل كل عضو
لبلوغه أو بلوغها فقط ، بل يعنى النظر فى سلوك الآخرين لكشف أى
علامة تدل على العصيان . وثالثا ، تبنى البيوريتان فكرة أنهم اذا كانوا
سيتمتعون الى اصلاح مجتمعهم ككل ، لا مجرد اصلاح أنفسهم فحسب ،
فعليهم أن يتكفلوا بمسئولية الاشراف - أخلاقيا - على كل المحيطين بهم .
ففى عالم يعمه التشوش والفوضى ، ليس من واجب « المختارين » من الله
أن ينقذوا أنفسهم فقط ، بل أن يتكفلوا أيضا بأعياء الحكومة المدنية
لكى يصلحوا المجتمع بصفة عامة . وأما من لا يجدون فى قلوبهم صلق
البيوريتان فلا بد من اجبارهم على الطاعة كرها والتحكم فيهم ، والاشراف
عليهم ، ولذلك يجب أن يتعاهد الجميع على خدمة الرب . وبهذا المفهوم أصبح
القصد من البيوريتانية أن تكون أداة لتنفيذ آراء واتجاهات سياسية رسمت
للاستيلاء على الحكومة المدنية لتحقيق هداية المجتمع كله ، فتحكم الأرض
كلها حركة فكرية قائمة على قاعدة جماهيرية عريضة ، وهى صياغة متطرفة
لفكرة الحق الالهى فى الحكم .

ان قصة ظهور حركة البيوريتانية أثناء حكم اليزابث ، وما تلاه من اضطهاد للبيوريتان على يد خليفتها جيمس الأول ، مشروحة في كتب تاريخية أخرى . ولكن يكفيننا هنا أن نعرف أن البيوريتان بالرغم من نجاحهم الأول فقد تعرضوا لمضايقات متزايدة تحت حكم الملك جيمس الأول واقتنع الكثيرون في عشرينات القرن السابع عشر بأنه اذا كان لابد من انجاز مهمة اصلاح المجتمع الانجليزى ، فان الحملة العنيفة لرسم حياة جديدة يجب أن تنفذ أولا فى جزء آخر من العالم بعيدا عن انجلترا . كما أن الفرص الاقتصادية المغرية التى ظهرت فى وقت شعر فيه الكثير منهم بآثار الكساد والبطالة فى انجلترا ، كان لها جانب مهم فى قرارهم . لكن التزامهم المثالى وضع حدا فاصلا بينهم وبين مستعمري فرجينيا ، فهم بشر التهبث مشاعرهم رجالا ونساء بفكرة اقامة المدينة الفاضلة المسيحية لاصلاح المجتمع القائم على مفهوم الجماعة ، وعقيدتهم التى ترى أن الكد والاجتهاد ، والاقتصاد فى الانفاق ، والانضباط الذاتى ، كلها جوانب لا غنى عنها فى عبادة الله . وعلى العكس ، كانت روح الطائفية واضحة فى فرجينيا التى كانت تفتقر فى مجتمعها الى روح المثالية والتى كانت مشبعة بالطموحات الاقتصادية ، لا الأفكار المثالية .

كان البيوريتان ، على أية حال ، أول من وصل من الأوروبيين الى شواطئ ما عرف فيما بعد بنيو انجلند ، والتى كانت الوطن الأم لعدد من المتكلمين لغة قبائل الألبونكى المستقرين بصورة متفرقة ، متناثرة ، وكان صيادو السمك من مختلف الجنسيات الأوروبية يستغلون شواطئ نيوفوندلاند ، ويجفون ما يصطادونه من الأسماك عند كيب كود Cape Cod ، وساحل ماين منذ أواخر القرن السادس عشر . وقد زارت المئات من سفن الصيد ساحل نيوانجلند ، واتصلت بهنود المنطقة قبل سنة ١٦٠٧ عند أول محاولة انجليزية لاستعمار المنطقة ، حيث بنيت مستعمرة فى تلك السنة ولكنها لم تعيش طويلا ، لأن العدد القليل من المستوطنين الذين رسوا على ساحل ماين عانوا نقص الطعام ، والحرائق والرياح غير المواتية وكلها عوامل ساعدت على تقويض المستعمرة ، ولم تجر محاولة أخرى للاستعمار حتى سنة ١٦٢٠ ، حين جاء بضع مئات من المهاجرين الانجليز الذين سبق أن هربوا الى هولنده ، ووطنوا أنفسهم حينذاك للعيش فى العالم الجديد . ثم ترسخت ببطء فى العشرينات من القرن السادس عشر مستوطنات لتجارة الفراء وتجفيف السمك على طول الشاطئ . ولكن لا يمكن مقارنة واحدة منها بالهجرة البيوريتانية الكبيرة التى بدأت سنة ١٦٣٠ على متن احدى عشرة سفينة . ونحو سبعمئة مسافر (ثم تزايدت أعدادهم حتى وصلوا الى ١٢ ألف نسمة فى نيو انجلند سنة ١٦٤٠ .

البحث عن المدينة الفاضلة (اليتوبيا) :

شرع البيوريتان تحت قيادة أحد أعضاء الطبقة العليا الانجليزية ، جون ويتروب فى مهمة بناء « المدينة على التل » كما سموا تجربتهم فى بناء المدينة الفاضلة . وكان أملهم أن يؤسسوا جماعات من المسيحيين الأتباع ، الذين عاهدوا الله بأن يعملوا على تحقيق غايته وقصده ، وهم مدركون أنه سيحرسهم بدوره . وكان لابد من كبح جماح النزوات والنزعات الفردية . وفى سبيل ذلك ، أقر البيوريتان استخدام ما يجب أن نسميه بالوسائل الاستبدادية لفرض الاستقامة الخلقية على أفراد المجتمع ، ورأوا أن يكون الحكم حقا مقصورا على أولئك الذين شملهم الله برحمته وعفوه ، وفقا لما يقرره أعضاء الكنيسة ، ورأوا ضرورة التفتيش عن الأتباع مدنيا ودينيا وأخذهم بالشدة ، وكذلك دمج كل أوجه الحياة فى مطلب المدينة الفاضلة : من حيث النشاط الاقتصادى والسياسى والفكرى والدينى . بمعنى أن البيوريتان كانوا يحاولون دمج كل عناصر حضارتهم فى مطلب واحد ، فى وقت كان يتميز المجتمع الأوروبى المعاصر باختلافات عظيمة وبالنزعة الفردية . وقد وافق المشاركون فى التجربة ، على الأقل فى بدايتها ، على التنازل عن بعض حرياتهم لكى ينجزوا أهدافا أعظم . وكان التجانس ، وليس الاختلاف بين الأعضاء هو المسعى المشترك والاهتمام الأساسى لحماية حقوق الطائفة أكثر من حقوق أشخاص أعضائها ، ومعنى ذلك أن يكون المجتمع متراضيا ، فى الأصل ، استبداديا فى الأداء والعمل . فكان ما صاغه البيوريتان فى انجلترا من أفكار للتمرد والعصيان قد استخدمت الآن للتحكم والتسلط .

واتسمت الشهور الأولى فى فرجينيا بالصعوبة . فقد هلك أكثر من مائتين من السبعمئة مهاجر الأوائل ، وعاد الى انجلترا مائة آخرون فى الربيع التالى وكان شتاء نيوانجلند بقسوته قد أصابهم بالاكئاب . الا أن البيوريتان استمروا فى المجيء ، وبدأت القرى « تحتشد » على طول شواطئ خليج « باك باى » Back Bay عند بوسطن ، وعلى امتداد الأنهار التى فيه ، جنوب كونيتكت Connecticut الآن ، وشمالا بامتداد ساحل ماساشوستس ، وزرعت المحاصيل وبدأ صيد السمك ، وحققت ماساشوستس بسرعة انطلاقها الاقتصادى الذى افتقرت اليه فرجينيا بشدة فى السنوات الأولى . ولا شك أن هذا النجاح لا يمكن تفسيره بالعمل الأخلاقى النضالى والنظام الذى ساهم فيه معظم المستوطنين فقط ، بل أيضا بنوعية القيادة التى مارسها رجال أمثال ويتروب وجون كوتون J. Cotton ، وجون اليوت J. Eliot ، وتوماس شبرد Thomas Shepard ذوى الخبرة فى الحكم المحلى والقانون والقدرة على اسداء النصيح . وكان نموذج القائد ، أول الأمر ، فى فرجينيا هو الجندى الساعى وراء

الشهرة والحظ ، أو المغامر الجلف الذي كانت كل مؤهلاته تقريبا هي
الوضوح والكلمة . أما ماسناشوستس فقد تزعمها في السنوات الأولى
كهنة مثقفون جامعيون ، وأعضاء متمرسون من أبناء الطبقة الانجليزية
الديتيا ، ورجال متشددون في تصميم على تحقيق ما اعتبروه وحيا من الله
في نيوانجلند .

الشقاق المبكر :

عانت ماسناشوستس ، رغم ذلك ، من النزاع والشقاق طوال عقودها
الأولى ، سواء فيما بين جماعاتها المختلفة أو في احتكاكها مع أهالي المنطقة ،
حتى انه أثناء الرحلة عبر الأطلنطي ، بدأ البعض يلمحون بأن الشمس لن
تشرق على تجربة البيوريتان أبدا . وقد اضطر وينتروب في منتصف
الرحلة الى أن يذكر بعض الأعضاء الأقل اذعانا بأن الخضوع للسلطة
جزء أساسي وضروري في هذه المغامرة الجديدة . فقد أطلت النزعات
الحزبية والفردية برأسها آنذاك ، ذلك أنه ما أن وجد الناس أنفسهم على
أرض قارة لا حدود لها ، لم يكن من السهل اسكات غريزة التملك لديهم
أو الإبقاء عليهم ملتزمين بمواثيقهم . فبدأ المتضجرون ينتقلون بعيدا عن
مركز السلطة ، ومن بقى منهم قريبا منها حاولوا إثارة الرأي العام لتحقيق
نظام سياسي أكثر راحة ولا مركزية ، ويعطي للمدن الحق في إدارة
شئونها بنفسها . وقد تساءل وينتروب ، بعد سنتين فقط عما اذا كان
البيوريتان قد « خرجوا من فخ ليقعوا في حفرة » . وظل يجاهد ثلاث
عشرة سنة أخرى ، لاقتناع من حوله بقوله : « اذا ظللتم تناضلون من أجل
حرياتكم الطبيعية الضائعة ، وتفعلون ما ترونه صالحا ، فلن تتحملوا أدنى
قدر من السلطة ، بل ستتدمرون وتعارضون ، وتكافحون للتخلص من
هذا النير » (٢) .

تجمعت المشاكل على وينتروب . ففي سنة ١٦٣٣ ، وصل روجر
وليامز الى نيوانجلند ، وأصبح المرشدون الدينيون المعينون .
يواجهون رجلا مثاليا حالمًا ، ومشاكسا ، عرف الاستقامة الدينية بعبارات
تختلف عن تعريفهم لها ، وليس لديه أي ميل الى تغيير آرائه ليلتقي معهم
في آرائهم الدينية ، بل ألح في القول بأن البيوريتان غير ظاهري الدليل
في الواقع ، لأنهم لم يعلنوا صراحة انفصالهم عن كنيسة انجلترا ، وحاول
اثبات أن تفسيرهم للانجيل خاطيء . ولعله قد خيب الآمال وهو يتهم
ساكني المستعمرات بأنهم متطفلون على التراب الهندي ، يحرمون الوطنيين
من حقوقهم بطريق غير شرعي . وقد قاوم وليامز حتى سنة ١٦٣٥ كل
من جاهدوا ليشنوه عن آرائه ، وتحدى كل الحكام المدنيين أن يعاقبوه

على تعاليمه أو يحاولوا ذلك • واقتناعاً منهم بأنه سيشتق المستعمرة الى جماعات دينية متناحرة ، ويدمر كل استقرار وتماسك وسلطة ، ويتسبب في تفسخ المستعمرة بمذهبه في الكمال (*) ، لذلك نفاه قضاه ماساشوسيتس من المستعمرة ، وحاولوا ابعاده الى انجلترا ، ولكنه اُفلت منهم ، وشق طريقه بصعوبة نحو الجنوب ، حيث بدأ في اقامة مستوطنة صغيرة لمريديه ، فكانت نواة لمستعمرة رود آيلاند •

وفي نفس اللحظة التي نفى فيها وليامز الى جنته النائية ، واجه المسئولون واعظة أخرى ، غير تقليدية ، تسمى آن هتشينسون Anne Hutchinson وكانت في الأصل قابلة (مولدة) وقد تحولت بفضل ذكائها ، وتأثيرها الساحر على الجماهير ، الى مستشارة روحية لهم في الشهور التي أعقبت وصولها في بداية سنة ١٦٣٤ • ولكنها في السنتين التاليتين ، تعدت دورها كمستشارة ، وجمعت حولها الكثيرين في دروس دينية ، ثم أخذت تحلل عظات الأحد القديمة ، وانتقدت التفسير اللاهوتي لجون ولسن ، قسيس بوسطن البروتستنتي • وبعد قليل أصبحت محوراً لحركة سميت بمذهب « التناقضية » Antinomianism ، الذي يعتبر تفسيراً مخالفاً لمبدأ البيوريتان ، يؤكد على الجوانب الباطنية الخفية في نعم الله ، والاتصال بالله عن طريق التأمل فيها ، وعبث تطبيق قواعد ونظم محددة على أسلوب تفاهم الفرد مع ربه • وبحلول سنة ١٦٣٦ ، كانت بوسطن منقسمة الى معسكرين ، ولم تجتذب آن هتشينسون الى دائرتها فقط ، أولئك المؤمنين بأحاديثها ، ومعالجاتها لموضوع اللاهوت ، بل اجتذبت أيضاً معظم الساخطين في المجتمع ، من التجار الغاضبين من الحكومة وسيطرتها على الأشعار ، والشباب الكارهين لسلطة شيوخ الكنيسة والحكومة ، والحرفيين الرافضين للسيطرة على الأجور ، وذلك منعا للتضخم المالي الذي بدأ يزحف اليهم •

ونظراً لتصميم الحكام على التخلص من هذا التهديد الثاني لوحدة الرأي ، ألقوا تهماً لأن هتشينسون سنة ١٩٣٦ ، وبعد محاكمة صورية ، تقررت نتيجتها مقدماً ، صدر الحكم بطردها من المستعمرة بتهمة التبشير باثنين وثمانين رأياً لاهوتياً خاطئاً • ويعبر الحكم الذي قرأ أمامها في نهاية المحاكمة عن خوف أهالي بوسطن ، وكذلك عزم القضاة على اخماد أي انقسام في المجتمع ، حيث قال القاضي : « لميا كنت ، أيتها الأنسة هتشينسون ، قد ارتكبت اثماً بالغاً ... وضايقت الكنيسة وأزعجتها

(جاء) الكمالية أو مذهب الكمال ، يعتبر الارتفاع بالخلق الى مرتبة الكمال هو اشقى الغايات الاخلاقية • أو هو المذهب الذي يقول بإمكان التصرد من الاثم في هذه الحياة الدنيا - (المترجم) •

بأخطائك ، وأغريت كثيرا من النفوس التافهة ، ونظرا لأنك كذبت ...
لذلك ، فاني باسم سيدنا يسوع المسيح ... أطردك ... واسلمك الى
الشيطان ... وأعتبرك وثنية ، من الآن فصاعدا ، وأمرك باسم يسوع
المسيح وباسم هذه الكنيسة ، بصفتك منبوذة أن تنسحب بعيدا عن رعاية
الكنيسة ، (٣) . فقامت أن مع عدد من أتباعها باقتفاء طريق روجر وليامز
الى رود أيلاند . وهكذا برهن زعماء المستعمرة ، القائمون على حراسة
حلم المدينة المسيحية الفاضلة ، على مدى استعدادهم للمحافظة الدائمة على
تجانسهم .

لكن نيوانجلند لم تستطع في الواقع أن تبقى متجانسة ، بصرف
النظر عن عدد المنشقين المطرودين من بينهم ، ولا هي استطاعت كبح
غريزة التملك التي آكلت مفهوم الجماعة ، وغدت المستوطنين الميالين الى
الفردانية بما فيهم القادة ، فقد كان من المحتم أن يثمر العمل ثمارا مادية ،
وان كان الباعث اليه أخلاقيا . ومع النجاح الدنيوي أظهر الناس مزيدا
من الطموح - وعلى وجه الدقة - كشفوا عما كان المبشرون البيوريتان
يخشون أن يخرب النظام المتسق ، المستقر الذي كانوا يحاولون بناءه .
وقد عملت الزيادة السكانية ، والتوسع الجغرافي ، والاتصالات التجارية
مع العالم الخارجى ضد فكرة المجتمع المشترك ، المطلق ، القاصر على
أعضائه المفرطين في التدين . وبالرغم من تأكيدات الهداة المرشدين بأن
« رعاية الجمهور ومراقبته يجب أن تفوق كل الاعتبارات الشخصية » ،
أثبتت ماساشوسيتس ، حتى في بداية نشأتها صعوبة ، أو استحالة التغلب
على نهم الانجليز الى تملك الأرض في العالم الجديد ، أو الحد من شهواتهم
ودوافعهم الفردانية ، ذلك لأن قوى الطرد المركزي بعيدا عن الفكر الدينى
للجماعة ، في هذه البيئة ، كانت تفوق قوى الجذب المركزي نحوه .

البيوريتان والهنود :

ان افتراض المثالية في المجتمع البيوريتاني ، وسعيه لاصلاح العالم
قد يجعلنا نعتقد بأن الصراع الذي غير العلاقات الأنجلو - هندية في
تشيزابيك لم يكن له موضع في نيوانجلند ، ولكن لم يكن هذا هو الحال .

فالقبايل المتكلمة بالألجونكية في منطقة نيوانجلند لم تزدد أبدا عن
خمسة وعشرين ألفا ، يقيم أغلبهم في قرى صغيرة على امتداد الساحل
ووديان الأنهار ، الا أن الساحل الشمالى الشرقى ، كما هو الحال في
منطقة تشيزابيك كان مشغولا عند وصول الأوروبيين بسكانه القليلين
المتناثرين . وفي الوقت الذى تم فيه تسكين أول المستوطنين الدائمين في
العشرينات من القرن السابع عشر كانت قبائل الأبيناكى Abenakis ،

والماساشوسستس ، والناراجانست ، والوامبسانوج ، وعم أكبر قبائل المنطقة ، على اتصال فعلي بالأوروبيين منذ عدة أجيال ، ومنهم صيادو السمك الذين كانوا يجففون محصولهم وارتبطوا بمقايضات تجارية بسيطة ، كما أن محاولات الاستيطان الفرنسية والانجليزية ، قصيرة الأمد في العقد الأول من القرن السابع عشر ، قد أملت الهنود بمزيد من المعلومات عن السلوك الأوروبي . فعندما نزل إلى البر ، جورج بوفام G. Popham ، قائد المستعمرة الانجليزية على ساحل ماين سنة ١٦٠٧ أدهشه أن يجد الهنود أشخاصا ودودين بصفة عامة ، رغم حذرهم أيضا منذ أن جاءت البعثة الاستشكافية منذ سنتين ، واختلطت العديد منهم وعادت بهم إلى إنجلترا . ولكن العلاقات لم يشبها أي عنف ، إلى أن هاجم الانجليز الهنود لأسباب مجهولة ، وأفرطوا في معاملتهم السيئة ، (٤) ، ووقعت حوادث خطف أخرى سنة ١٦٠٨ ، وسنة ١٦١٤ عندما أسر أربعة وعشرون هنديا ، وبيعوا في سوق النخاسة في مالقة Malaga (على ساحل جنوب أسبانيا) مما زاد - بكل تأكيد - من عدم ثقة السكان في الرجل الأبيض ، ولو أنها لم تكن كافية لتقليل اهتمامهم بالبضائع الانجليزية . ولذلك ، عندما زار جون سميث ساحل نيوانجلند في مغامرة تجارية في السنة التالية اكتشف لهفة الأهالي إلى مقايضة أسماكهم وفرائهم .

بعد ذلك بسنتين فقط ، نزل بعض الصيادين الانجليز بالمنطقة ، وتركوا وراءهم أشد الأسلحة الأوروبية فتكا - وهو فيروس وبائي ، ما لبث أن انتشر بسرعة الضوء فأهلك آلاف الهنود في فترة وجيزة . وبعدها بخمس سنين ، كتب أحد الانجليز بعد أن تجول في المنطقة : « ان العظام والهيكل العظمي التي تفرش الأرض جعلتني أتصور أنني أجول في موقع معركة حربية » (٥) .

ولعل نصف السكان الوطنيين في منطقة نيوانجلند قد هلكوا بفعل هذا المرض . وهذا مثال صارخ على الدور الذي لعبته الميكروبات التي جلبها الأوروبيون معهم إلى العالم الجديد ، في القضاء على الجزء الأكبر من الحضارات الوطنية . ولقد شكلت هذه الأمراض البكتريولوجية المعدية - كالجذري ، والدفتريا ، والحمى القرمزية ، والحمى الصفراء ، وغيرها - كوارث سكانية في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . إلا أن السكان المصابين اكتسبوا المناعة ضدها بالتدريج . أما الهنود فلم تكن لديهم هذه المناعة عندما وصل الأوروبيون حاملو هذه الميكروبات ، مما جعل تأثيرها سريعا ومميتا ، وأبيدت قبائل بكاملها ، في أحوال كثيرة ، خلال سنوات قليلة ، تاركة وراءها مناطق شاسعة خالية من السكان . وكانت الكثافة السكانية بين الهنود عاملا على سرعة انتشار المرض : ففي

المكسنيك ، وغيرها من أجزاء الامبراطورية الأسبانية ذات الكثافة السكانية ، بلغت خسائر الهنود درجة أخطر وأقسى منها في سواحل أمريكا الشمالية القليلة السكان . ولكن في مناطق محلية ممتازة ، مثل نيوانجلند ، كانت للحرب البكتريولوجية الفعالة ، غير المنظمة ، نتائجها المهمة .

فحينما وصل المهاجرون الأوائل سنة ١٦٢٠ ، وجدوا منطقة الساحل الشمالي الشرقي شبيهة خالية ، وكان من حظهم أن قابلوا سكوانتو Squanto ، أحد هنود الوامبانوج ، الذي كان قد اختطفه قبطان سفينة انجليزية سنة ١٦١٤ وباعه في أسبانيا ، ولكنه شق طريقه ، بشكل ما ، إلى انجلترا حيث رافق قبطانا انجليزيا إلى ساحل نيوانجلند عدة مرات . وفي ثاني هذه الرحلات البحرية ، وجد سكوانتو أن معظم أفراد قبيلته قد قتلهم الطاعون ، ولكنه بقي في منطقة كيب كود حتى نزل المهاجرون الأوائل إلى الساحل ، وحصلوا عن طريق صداقتهم له على مساعدات مهمة في السنوات الأولى من مجيئهم .

لقد كتب ويليام برادفورد William Bradford ، قائد مستعمرة المهاجرين الأوائل بعد عشر سنوات من الاستيطان الأول أن الانجليز جاءوا وهم يتوقعون « الخطر المستمر من ناحية الأهالي الهمج ، المتوحشين ، البرابرة ، الخونة » ، تلك الخصائص التي جعلت أمعاء الرجال تضطرب وزلزلت الضعفاء منهم (٦) ، ولكن هذا الوصف كان أجدر بالانجليز منه بالهنود ، فرغم أن السكان المحليون كانوا لا يثقون بالمهاجرين الجدد ، إلا أن حادثة عنف واحدة ، لم تقع في بلايموث ، حتى بعد أن اكتشف الوافدون مخازن الحبوب الخاصة بالأهالي ، تحت الأرض ، وسرقوا ما أمكنهم ثقله منها للاستعمال في فصل الشتاء . وحتى هذه اللحظة ، اختار الهنود أن يحذوا من اتصالهم بالمستوطنين ، بالرغم من أن الموت قد أنقص سكان المستعمرة بلايموث إلى نحو خمسين فردا بحلول ربيع ١٦٢١ .

ولعل حاجة الوامبانوج إلى حليف عسكري يساعدهم في نضالهم ضد جيرانهم الناراجانسيت ، تفسر لنا تحملهم معاملة الانجليز السيئة ، بل وتوقيعهم لمعاهدة سنة ١٦٢١ التي وضعت أسس التجارة والمعاونة المتبادلة مع الانجليز .

لم تستمر هبة الصداقة والتفاهم سوى عام واحد . ففي سنة ١٦٢٢ ، أدى وصول نحو ستين وافدا من غير المهاجرين إلى المستعمرة إلى احتكاك خطير ، حيث أقام هؤلاء المستعمرون الجدد أنفسهم في ويساجوسيت Wessagusset ، على مقربة من مستعمرة المهاجرين ، وسرقوا حبوب جيرانهم الماساشوستس ، وخططوا للهجوم عليهم أكثر من

مسرة • وتحت ستار كذبة بأن الهنود يتآمرون ضد كلتا المجموعتين من البيض ، قام ستانديش الذى كان يضم الحقد ، للهنود بهجوم عدوانى على أصدقائه الودودين ، وقتل منهم ثمانية ، وعلق رأس الساشم (الزعيم الهندى) ويتوواميت Wituwamet على قمة قلعة بلايموث ، كرمز على قوة الرجل الأبيض • ولما سمع بهذا جون روبنسون I. Robinson ، وهو قسيس المهاجرين السابق فى هولندا ، كتب ، منزعجا ، الى الحاكم برادفورد يسأله لماذا انغمس الانجليز فى عنف لا ضرورة له : ماذا يحدث للرجال « المتحضرين » فى تلك البرية ؟ هل سيبدعون فى التصرف مثل « الهمج » ، ناسين أنه من المفروض أن يمثلوا الزهد والتقوى ؟ وأشار الى مايلز ستانديش ، القائد العسكرى لبلايموث ، بأنه الوحيد الذى يرضى غروره بقتل الهنود (٧) • وقد أصبح المستعمرون الانجليز ، يسمون منذ ذلك الحين ، « ووتوكوينانج wotouquenange » التى تعنى بلغتهم « السفاحين أو قاطعى الرقاب » (٨) •

وعندما بدأت هجرة البيوريتان سنة ١٦٣٠ ، كان للهنود على ساحل نيوانجلند أكثر من جيل له تجاربه مع الحضارة الانجليزية ، ولكن العداوات بين القبائل جعلت من المستوطنين حلفاء نافرين بالضرورة ، كما كان الهنود مهتمين بالحصول على بضائعهم ومصنوعاتهم أما البيوريتان فكانوا ملتزمين علانية بالتآلف بين مختلف الأجناس ، ولكنهم يستعدون لما هو أسوأ • فنجد مثلا ، « شركة خليج ماساشوستس » تتكلم عن تعهداتها بتحويل الهنود الى المسيحية فتعلن : « ان الهدف الأساسى لهذه المستعمرة الجديدة هو كسب أهالى البلاد وحنهم على معرفة واطاعة الاله الحق ، الوحيد ، مخلص البشر ، والى الدين المسيحى » (٩) • ولكن تعليمات الشركة الى جون وينتروب ، كشفت بدقة عما كان متوقعا • فبموجب هذه الأوامر ، كان على جميع الرجال التدريب على استعمال الأسلحة النارية كما حظرت على الهنود دخول المدن البيوريتانية ، وكلفت عقوبة من يبيع أسلحة نارية الى الهنود أو يعلمهم استعمالها الترحيل بالقوة الى انجلترا • بينما تصدر الأوامر بضرورة معاملة الهنود بالعدل كانت الشركة تظهر الروح العسكرية التى كان على المستوطنين اظهارها فور نزولهم ، واستقرارهم • كما لم يبدأ أى نشاط تبشيري مدة ثلاث عشرة سنة •

ولم يفضب الهنود البيوريتان ، فى السنوات الأولى من الاستيطان ، اذ قدم زعمائهم عروضاً للصدقة ، حيث زودت قبائل الماساشوستس الشرقية المستعمرين بالحبوب فى أول شتاء قاس ، وبدأت التجارة بسلع ثانوية • وقد حكى أحد قادة البيوريتان فى دهشة أنه خلال الشتاء الأول

حينما « لم يكن لدى البيوريتان الا القليل من المساكن التي تؤويهم وتحميهم ، لم يتعرض الأطفال ولا الزوجات لأذى ضرر ، بالرغم من مجيء الهنود اليهم ، في تلك الأوقات وكانوا آنذاك ، يفوقون الانجليز ، بكثير ، قوة وعددا ، (١٠) » .

لم يدم هذا التعايش سوى سنين قليلة ، فقد انتشر وباء الجدري بين قبائل ماساشوسيتس الشرقية سنتي ١٦٣٣ ، ١٦٤٣ ، فقتل عدة آلاف في أقصى الشمال عند ماين الى أقصى الجنوب عند وادي كونيكتيكت ، واعتبر المستعمرون ذلك برهانا على تدخل الرب لمصلحة البيوريتان في الوقت الذي بدأ فيه الاحتكاك حول حقوق ملكية الأرض بسبب نزعات المستوطنين التوسعية . وتبين سجلات مدينة تشارلستون ، مثلا ، أنه « لولا هذه الضربة الرهيبة التي أنزلها الله بالأهالي لم تكن لنحصل على الأرض أو نشترها الا بثمان أكبر بكثير مما دفعناه » (١١) . وكانت الحاجة الى الأرض في فرجينيا هي الحافز الى التمدد في هذا الجور . ونظرا لسرعة النمو السكاني في مستعمرات بيوريتان نيوانجلند ، زاد تحفز الأوروبيين لاعتبار الهنود مجرد أشياء يجب ازاحتها بدلا من النظر اليهم على أنهم بشر يجب استيعابهم في حضارة الرجل الأبيض .

اكتساب الأرض :

كانت نظريات البيوريتان التي وضعوها لتبرير الاستيلاء على الأرض، وراء هذا التصنيف الذي يساعد على العنف أكثر مما يساعد على الاستيعاب أو المعاشة السلمية . فقد ادعى البيوريتان ، كثيرهم من الأوروبيين ، ملكية الأرض التي يغزونها بحق الاكتشاف ، ويستمدون هذه النظرية من الادعاء القديم بأن المسيحيين مخولون في كل مكان بطرد غير المسيحيين من أرضهم . وتدعمهم نظرية أوروبية أخرى قانونية تقول بأن الأرض غير المشغولة ، أو « المسكونة » تؤول بالمصادرة الى أولئك الذين يعمرونها . وكتب جون وينتروب ، قبل أن تطأ قدمه العالم الجديد ما يلي :

« أما عن الأهالي الوطنيين في نيوانجلند ، فانهم لم يسيجوا اية قطعة أرض ، ولم تكن لهم اقامة ثابتة او ماشية اليقة يصلحون بها الأرض ، ولذلك ليس لهم سوى الحق في العيش في هذه البلاد ، واذا كنا سنترك لهم ما يكفي لاستعمالهم ، فيجب ان نأخذ الباقي قانونا ، وهناك ما يزيد عن الكفاية لنا ولهم » (٢١) .

وهكذا ، لا يحتاج امتلاك الأرض في نيوانجلند ، في نظر البيوريتان لأكثر من التأكيد على أن اختلاف أسلوب الهنود في العيش مبرر كاف

لمصادرة كل الأراضى التى « طافوا » بها ولم « يستقروا » فيها . فكانت الأرض حسب التعريف الأوروبى منزلا فارغا *vaccum domicilium* غير مسكون .

احتل البيوريتان الأرض بجرأة ووقاحة ، وهم مدركون ألا حاجة بهم الى موافقة الهنود أثناء التفاوض أو الشراء ، مما يعطى فكرة عن مركز القوة الذى شغلوه وسط القبائل المحلية التى أتلغها المرض . وقد أعلنت آراء قانونية تبرر هذا الاستيلاء المبكر على الأرض ، ولكن هذا التبرير لم يكن ليثمر كثيرا عندما تكون القبائل الساحلية فى وضع يسمح لها بمقاومة هذه السياسة الاحتمالية . وقد أعلنت حجج وبراهين مماثلة فى فرجينيا عن حقوق الغزاة فى أرض الأهالى ، لكن حجم المستوطنين هناك لم يكن فى وضع يسمح لهم بمعاداة قبائل تشيزابيك بالاستيلاء على الأرض خلال العقود الأولى .

تشكلت سياسة الأرض ، أساسا ، وفقا لتوفر القوة أو غيابها . وظهرت واضحة سنة ١٦٣٣ ، عندما أعلن الانجليز فى نيو انجلند عن شراء بقعة من الأرض من زعيم هندى محلى . ولم يكن ذلك توثيقا لحقوق الهنود أو مطالبهم ، بل كان ردا على الادعاءات الهولندية فى منطقة نيو انجلند . فمنذ سنة ١٦٢٤ ، سيطر الهولنديون تحت رعاية شركة الهند الغربية الهولندية ، على منطقة وسط الأطلنطى ، وركزوا جهودهم فى نيواامستردام (أصبحت مدينة نيويورك فيما بعد) وفورت أورانج (ألبانى فيما بعد) ، وامتدت اتصالاتهم التجارية مع الهنود شمالا الى أعالي نهر هدسن ، وجنوبا حتى خليج ديلاوير . الا أن ادعاءاتهم الاقليمية وصلت الى أبعد من ذلك – الى كل الطريق الى نيوانجلند – بالرغم من أنه لم تكن لديهم الطاقة البشرية أو السبل لمحاولة استيطان المنطقة . لكن الهولنديين ، اشتروا سنة ١٦٣٣ بقعة من الأرض من الهنود البيكوت الذين يسيطرون على وادى نهر كونيكتيكت . ولما كان الانجليز مضطرين الى الاعتراف بالسندات الشرعية للملكية الأرض التى فى أيدي الأوروبيين ، « المتمدنين » غير « الهمج » باتت الوسيلة الوحيدة لمقاومة الشراء الهولندى هى الشراء بالمثل ، وهذا ما فعله تجار بلايموث بالضبط بشرائهم نفس قطع الأرض التى اشتراها الهولنديون من قبل ، ولكن من القبيلة التى طردها البيكوت من أرضها . وقد كتب فرانسيس جيننجز Francis Jennings أنه بالرغم من أنهم كانوا يدافعون بقوة عن حقوق الاستيلاء على الأرض بالفتح ، يعلن الآن رجال بلايموث صراحة أن عملاءهم الهنود لم يفقدوا حقوقهم الشرعية بهزيمتهم أمام البيكوت ، وأن صكوك الملكية للبلايموثيين سلبت شرعية الصكوك الهولندية (١٣) .

وهذا الشراء للأرض من الهنود يبرهن على أن توفر أو غياب القوة

المعارضة كان هو العامل الحاكم فى سياسة الأرض . ففى سنتى ١٦٣٣ . ١٦٣٤ تحمس روجر وليامز لاثبات أن الامتياز الملكى الممنوح لشركة خليج ماساشوستس لا ينقل اليها الملكية القانونية لأرض نيوانجلند ، التى لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق شرائها من مالكيها الأصليين ، كما أقر الهولنديون بذلك ، ولكن حكومة ماساشوستس أسرعت بالغاء وظيفة وليامز المتير للقلقل والفتن ، وطرد من المستعمرة فورا . وقدم له زعيم الناراجانسيت أرضا فى رود آيلاند ، وهكذا وجد «وسط الهمج المتوحشين» مكانا يمكن أن يعبد فيه أنصاره الرب فى سلام حسبما ترضيه ضمائرهم . وكان ردو وينتروب على حجج وليامز أنه « اذا لم يكن لنا حق فى هذه الأرض ، فلله الحق ، مع ذلك . واذا كان يسره أن يعطيها لنا ويأخذها من أناس اغتصبوها مدة طويلة ، وأساءوا معاملته خلقه فمن ذا الذى سيتحكم فيه أو فى مشيئته ؟ » (١٤) وبهذا الادعاء بأن الله يوجه سياسة البيوريتان كلها، أشهر وينتروب سيف اتهامه لكل من يعارضه بأنه يعارض مشيئة الله وليس سياسة البيوريتان وحدها .

تقدمت ببطء ، عملية شراء الأرض الهندية باستمرار الاستيطان ، الا أن هذا الشراء كان يتم غالبا ودائما للحصول على استيطان مناسب فى المواضع التى كان يشتهى ملكية أرضها كل من المستوطنين الانجليز والهولنديين أو الجماعات الانجليزية المتنافسة . وفى مثل هذه الحالات ، كان نقل صك ملكية الأرض موضوع النزاع من بائع هندي هو أفضل وسيلة لاقتناع المحكمة بادعاء صحة الملكية ، وحتى فى تلك الدعاوى التى كانت المنافسة فيها حتمية بين الأوروبيين أنفسهم فى شراء الأرض الهندية ، كان البيع ينتهى من خلال مجموعة من الخدع المخطط لها بتخفيض الثمن للمستوطن الأبيض ، ومنها أن يطلقوا الماشية الى الحقول الهندية المتعهددة بالزراعة ، ويتركوها بها فترة من الوقت كوسيلة فعالة لاقتناع الهندي بأن أرضه تفقد قيمتها ، كما كان يستخدم الكحول دائما لضعاف براعة الهندي فى التفاوض ، أو يشترون الأرض بأبخس ثمن من زعيم هندي يدعى كذبا ملكيتها ، ثم يقيمون الدعوى على أى زعيم ينازعهم عليها . وبذلك نادرا ما كان يكسب المدعى الهندي قضية خاصة أمام محكمة انجليزية يكون المحامون فيها والقضاة والمحلفون جميعهم من البيض . ولعل أشد هذه الوسائل فعالية هى تغريم الهندي عن أى اعتداء أو اهانة بسيطة للقانون الانجليزى - كالتنزه يوم الأحد (بوصفه يوم راحة وعبادة) ، أو دخول مدينة دخولا غير قانونى - ثم « ينقذونه » من الدين الذى سيعجز عن سداده باعفائه من الغرامة نظير شريحة من أرضه . ولم تكن هذه الوسائل والترتيبات تستعمل مع القبائل الهندية القوية ، الموحدة ، بل كانت فعاليتها واضحة وسط القبائل المبعثرة والصغيرة جدا ، والمقسمة فى جنوب نيوانجلند .

مفهوم التبشير عند البيوريتان :

فى نيوانجلند ، كان لابد من اجتماع العوامل التى تكاثفت فى فرجينيا لاجداث الاحتكاك بين المجتمعين - وهى اشتهاء الانجليز للأرض ، والنظرة المنتقصة من قدر الحضارة الوطنية ، والتوتر فيما بين القبائل الهندية . وقد زاد فى فرجينيا ، بشكل أعم ، عامل آخر لم يتوفر فى تشيزابيك ، وهو مفهوم التبشير عند البيوريتان . فبالنسبة لهؤلاء الرجال ذوى الهدف الأخلاقى النبيل ، الذين يعيشون يوميا فى قلق من أن يفشلوا فيما رأوه الفرصة الأخيرة لانقاذ البروتستانتية الغربية المنحرفة ، وقف الهندى الأحمر ، باختلافه عنهم ، بصفته تحديا مباشرا لتلك « المهمة فى البرية القفر » . اذ كانت مهمة البيوريتان التبشيرية هى تذليل البيئة الجديدة المحيطة بهم وتمدينها ، واقامة ولاية دينية « تضىء كالمنارة » و « تتألف كنار على علم » وراء انجلترا المتدهورة . ولكن كيف يمكن أن يسود الترتيب والنظام فى البيئة الجديدة ما لم يروض سكانها و « يتحضروا » ؟ لقد وصف وليام برادفورد ، حاكم بلايموث بصورة معبرة ، الأرض التى دخل إليها بأنها « قفار موحشة ، كثيبة ، مليئة بالحيوانات المتوحشة ، والأشخاص الهمج » (١٥) . وتجب السيطرة على كل من الأرض ، والحيوان ، والبشر . فلا أقل من السماح باستمرار القوضى ، ومن ثم تفرض ارادة الرب النظام المسيحى . فقد ظل الهندى ، كما شرح روى ه . بيرس Roy H. Pearce ، هو المنبه الحى الى ما لا يصح أن يكون عليه الانجليز ، لأنه الصورة المضادة للانسان المتحضر ، يفتقر الى أشد ما يقدره البيوريتان من اللطف والورع المسيحى ، والعزم ، والعمل الأخلاقى ، فاذا لم يتمكن البيوريتان من جعل هؤلاء الناس جزءا من النظام البيوريتانى ، اذن يثبتون بذلك عجزهم عن السيطرة على هذا الركن من الأرض الذى ساقهم الله اليه ، ولا بد أن يكون العقاب الالهى هو الرد على هذا الفشل . وهكذا سيطر البيوريتان على أنفسهم - سيطرة داخلية - عن طريق التحكم فى العالم الخارجى بما به من غابات وحقول وهنود (١٦) .

وكلما زادت الشكوك حول نجاح هذه التجربة المثالية ، الخيالية ، تلك الشكوك التى ضخمتها الصراع الداخلى ، زادت الحاجة الداخلية لكبح عدم الثقة فى الذات من خلال أعمال القمع وبسط السيطرة . وهكذا ، أصبح الهنود فى نيوانجلند عقبة بمعنيين : أنهم يمثلون فى فرجينيا ، وأى مكان آخر عائقا ماديا طالما هم يملكون الأرض ولا يمكن اخضاعهم لخدمة الأهداف الانجليزية ، ويمثلون أيضا عائقا نفسيا طالما يظلون « همجا » يهددون الهوية الفردية للبيوريتانى ، والنجاح الجماعى لحركتهم .

ولكى يقضى المرء على « الهمجية » لا يتطلب الأمر ، بالضرورة ، الا أن يقضى على « الهمج » أنفسهم . ومن كتاباتهم ، نرى أن البيوريتان يؤثرون هداية « الوثني » الى المسيحية . الا أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بمضى وقت طويل وجهد عظيم . وقد أرسل الأسبان والبرتغاليون مئات من المبشرين برفقة الفاتحين والمستوطنين ، أما البيوريتان فقد جاعوا مع قساوستهم فقط ، وعمل هؤلاء بما فيه الكفاية وأكثر لصيانة التقوى وأصول الأخلاق داخل المجتمع الأبيض ، لذلك لم تكن لهداية الأهالي أبدا ، درجة الأفضلية في نيوانجلند .

فبالإضافة الى هداية « همج » نيوانجلند ، حاول البيوريتان إخضاعهم للحكومة المدنية ، أى جعلهم مسئولين تماما أمام القوانين المحلية التى حكمت سلوك البيض فى ماساشوسستس . وعلى قدر ما كان الهنود راغبين لإخضاع أنفسهم لدستور السلوك الجديد لدى البيض ، بعيدا عن الخوف عادة ، استطاع البيوريتان أن ينتشروا ، ويكونوا هم العنصر الغالب ، وعينهم على كل الهنود داخل مناطق استيطان البيض ، يوقفونهم أمام القضاء عند أية اساءة للقانون الأبيض ، وهكذا نجد كثيرا من القبائل الصغيرة فى ماساشوسستس الشرقية التى تعرضت لكارثة اضعافها بالأمراض الأوروبية أو ظلت تعيش فى خوف من جيرانها الأقوياء المعادين لها ، فعلت كل ما كان لازما لارضاء الوافدين الجدد . الا أنه لم يمكن تجنب مسألة السيطرة فقد أصبحت مسألة عسكرية لا مفر منها عندما واجه البيوريتان قبيلة كانت من القوة بحيث قاومت فقدتها لهويتها الحضارية واستقلالها السياسى .

تلك هى قبيلة البيكوت - قبيلة قوية مناضلة ، هاجرت الى جنوب نيوانجلند فى القرن السابق لمجئ الانجليز ، وفى الثلاثينات من القرن السابع عشر أخضعوا القبائل الأصغر منهم فى المنطقة ، واعتبروا الناراجانسيت هم الند ، المنافس ، الوحيد لهم فى جنوب نيوانجلند ، واجتهد البيكوت لإقناع جيرانهم هؤلاء بأن بقاء كل من القبيلتين لن يتم بالتوحد ضد الانجليز ، ولكنهم لم يجدوا لديهم أذنا صاغية . اذ أن الناراجانسيت ، باتباعهم لنصيحة روجر وليامز ، وافقوا على التحالف مع الماساشوسستس ، تاركين البيكوت يقفون وحدهم فعلا ، فى اصرارهم على مقاومة الانجليز .

تفجرت الأعمال العدائية بين البيكوت والانجليز بمقتل قبطانين لسفينة للبيض وطاقمها السبعة فى أرض البيكوت لاختطافهم - حسب قول البيكوت - لاثنتين من المحاربين الهنود . وكان أحد الربانين ، وهو جون ستون ، مكروها من الانجليز بشدة لمحاولته قتل أمير بلايموث

الحاكم ، ثم اختفى بعد ذلك من ماساشوستس بسبب خطايا أخرى ارتكبها ، وبعد ذلك بسنتين ، عثر على القائد جون أولدهام J. Oldham مقتولا في قاربه الصغيرة المستخدمة لتأمين الاتصال بين السفينة والشاطئ . واستغللا لهذين الحادثين كمبرر لتأديب البيكوت العصاة ، سارت قوة مشتركة من كونيكتيكت وماساشوستس الى موطن البيكوت وطالبت بتسليم القتلة ، الذين تبين أنهم ليسوا من البيكوت ، بالاضافة الى « ألف قامة » (*) من عقود الصدف ، تعويضا عن الضرر ، . وبعض أطفال من البيكوت كرهائن . وقد أدرك البيكوت ، بحق ، أن القضية أبعد من مجرد قتل الانجليزيين ، فأهم ما فى الموضوع هو هل سيرضخون لحكم البيوريتان أم لا ، وهل سيسمحون بالاغارات على منطقة وادى نهر كونيكتيكت التى يمتلكونها ؟ ولذلك اختاروا المقاومة .

وجد الانجليز وحلفاؤهم الناراجانسيت أن البيكوت كانوا أكثر من ند فى حرب المقاومة هذه ، الى أن استطاعوا محاصرة حصنهم الرئيسى على نهر مايستيك Mystic River فى كونيكتيكت فى مايو سنة ١٦٣٧ عندما هاجموه فى الفجر وتسللوا اليه ، وأشعلوا النيران فى أكواخ ووغام (مفردتها وغم) Wigwams البيكوت البيضوية أو المستديرة الشكل قبل دق طبول الانسحاب السريع . وخلال المعركة داخل الحصن ، أصيب نحو أربعين من الناراجانسيت بجروح على يد الانجليز الذين صعب عليهم التمييز بين الحلفاء والأعداء من الهنود الحمر . وفى أثناء الانسحاب من الحصن المحترق ، تجمع الانجليز ثانية ، وانتظروا الهاربين الناجين من الجحيم ، ليطلع النهار على قبيلة البيكوت ، وقد قتل جزء كبير منها ، أكثرهم بالنار والآخرون برصاص البنادق ، كما طورد من كانوا خارج الحصن أثناء الغارة ، فقتلوا الرجال ، واستحيوا النساء والأطفال ، واتخذوهم عبيدا ، أو باعوهم للقبائل الأخرى ، أو شحنوهم مكبلين فى السفن الى جزر الهند الغربية . وكتب أحد مؤرخى نيوانجلند القدامى - وليام هابارد William Hubbard - أنه تم وضع عشرات من الأسرى البيكوت على ظهر سفينة الكابتن جون جالوب J. Gallup التى أثبتت أنها أسرع وسيلة لتغذية الأسماك بهم ، (١٧) . كما كتب أحد قادة الميليشيا أنه عند حصن مايستيك « سخر الرب ٠٠٠ [من] أعدائه وأعداء شعبه ، بأن جعلهم فرنا ملتهبا ٠٠٠ [و] ملأ المكان بجثث الموتى » . لكن وليام برادفورد كتب أنك « كنت تخاف من منظرهم وأنت تراهم يقلون فى النار وأنهار الدم تطفئهم ، ويفزعك شم النتن والرائحة الكريهة من جراء ذلك ، ولكنه بدا لهم أن النصر يستحق قربانا طيبا ، وقدموا

(*) القامة : مقياس لعمق المياه ، يساوى ٦ أقدام - (المترجم) .

الشكر لله الذى وقف معهم بصورة رائعة ، فأوقع أعداءهم فى قبضتهم ، ومنحهم نصرا سريعا على كل عدو متطرس ، حقير ، (١٨) . وبعد جيلين ، كرر كوتون ماثر Cotton Mather ، وهو أحد أعمدة الكهنوت البيوريتان قوله : « فيما لا يزيد عن الساعة بقليل ، أصبح خمسمائة أو ستمائة من هؤلاء الهمج مطرودين من عالم كان ينوء بعبئهم » (١٩) .

كانت هذه الوحشية التى أظهرها البيوريتان « المتحضرون » فى حصن مايستيك صدمة للناراجانسييت « الهمج » الذين حاربوا فى صفهم . فطبقا لرواية ضابط انجليزى أنهم جاءوا بعد النصر « مبتهجين لانتصاراتنا ، معجبين جدا بأسلوبنا فى القتال ، ولكنهم كانوا يصيحون بأنه نصر تافه ، لأنه كان قاسيا ، وتسبب فى قتل كثير جدا من الرجال . ذلك تعليق لاذع فى محله على أساليب الحرب المختلفة فى كلا المجتمعين » (٢٠) .

دلت إبادة البيكوت على سطوة البيوريتان السياسية والحربية ، كما كانت رد فعل للقلق والتهديدات التى انتشرت فى كل مكان بالمستعمرة . هذه المخاوف ، لم ترتبط بتهديد البيكوت فقط ، بل بالنزاعات داخل مجتمع البيوريتان أيضا . ولا ننسى أن الحرب قد جاءت عقب ثلاث سنوات من الخلاف الداخلى المكثف ، الذى تركز حول تحديات روجر وليامز وأن هتشينسون لسلطة الحكام والقضاة . ولم تشمل هذه التحديات بدورها مسائل اللاهوت فقط ، بل والقيود الاقتصادية أيضا ، وتوزيع النفوذ السياسى ، والتنافس على ادعاء ملكية الأرض بين المستوطنين الانجليز فى ماساشوسيتس وكونيكتيكت ورود أيلاند . ولما رأى قادة البيوريتان مستعمراتهم وقد أحرق بها الشجار والخلافات تحدثوا بصورة مروعة عن غضب الرب وهو يرى شعبه المختار يهدم « المدينة » فوق « التل » . وبهذا المعنى ، يمكن فهم تصميم البيوريتان على إبادة البيكوت ، والعنف الفظيع الذى ظهر فى حصن مايستيك على أنه عدم ثقة فى الذات ، ومعصية لا يمكن للبيوريتان التكفير عنها الا بإبادة عدد كبير من « أدوات الشيطان » ، وهكذا قسموا موتى البيكوت كفارة للرب عن عيوبهم .

أدى هذا النصر على البيكوت ، الى سيطرة الانجليز بشكل حاسم على كل هنود نيوانجلند الجنوبية الشرقية ، فيما عدا الناراجانسييت ، وأزاح العائق الوحيد المتبقى أمام انتشارهم فى وادى نهر كونيكتيكت ، وظلت العلاقات مضطربة مع الناراجانسييت حتى كانت سنة ١٦٤٣ ، حينما باع زعيمهم ميانتونومو Miantonomo قطعة كبيرة من أرض جيدة على خليج ناراجانسييت الى ذلك الماكر ، الخارج عن العقيدة ، صمويل جورتون Samuel Gorton الذى كرهه للغاية كل بيوريتانيي نيو انجلند لانتقاده

الصريح لسياسة ماساشوسيتس ، فشجع الانجليز قتله بيد أعدائه من الموهيجان ، عملاء حكومة كونيكتيكت .

هذه المنازعات المتقطعة وأمثالها ، جعلت قبائل نيوانجلند الجنوبية بعد أن تقلص عددها الى حوالى النصف بعد جيل من الاحتكاك بالمستعمرين الانجليز ، جعلها تكيف نفسها ما أمكنها مع واقع قوة البيوريتان . وقد ساعدت تجارة الفراء المهمة على ابقاء المجتمعين على صلة بينهما ، ووفرت وسائل ادخال ودمج السلع الانجليزية المصنوعة من الحديد فى الحضارة المادية الهندية ، وازدهرت التجارة فى الثلاثينات وأوائل الأربعينات من القرن السابع عشر ، ولكن نقصت الامدادات من فراء السمور أو القندس من الغابات الشرقية بدرجة خطيرة فى منتصف القرن ، واتجه الهنود للتجارة بما أمكنهم الحصول عليه من جلد الحيوان غير المدبوغ مع الهولنديين ، الذين كانوا يرغبون - على عكس البيوريتان فى مقايضة الفراء بالأسلحة النارية ، الا أنه من هذه الاتصالات التجارية ، اختارت أغلب القبائل التى نجت من وصول الانجليز ، أن تحافظ على طريقتها الوطنية فى الحياة . ولم نجد سوى عدد قليل من الجماعات الضئيلة ، الضعيفة جدا تتبع حفنة المبشرين الذين استحثوهم للعمل فى نهاية الأمر سنة ١٦٤٣ بسبب الانتقادات الانجليزية التى هاجمت بحق اهمال الهداية الى الدين الجديد بشكل متعمد ، لأكثر من عشر سنوات . وبعد جهد استمر عشر سنوات ، تم توطين أقل من ألف هندي من المنطقة فى أربع قرى « للهنود المبتهلين » أو (« الهنود المصلين ») ، كما أعلن أقل من مائة منهم تحولهم الى المسيحية على منهج البيوريتان . وحتى هؤلاء ، حدثت ردة بين الكثير منهم فى السبعينات من القرن السابع عشر ، عندما نشبت الحرب فى ماساشوسيتس ، ففى فرجينيا ، مثلا ، دمج الأهالى فى حضارتهم بعض عناصر الزى التى حصلوا عليها من التجارة الأوروبية ، ولكنهم ، حتى بعد هزائهم الحربية الكبرى ، فضلوا بشكل عارم أن يقاوموا التثاقف الحضارى غير المتكافئ اذا كان القصد منه قبول الديانة الانجليزية ، وأشكال الحكم وأنماط الحياة ، ونماذج النظام الاقتصادى والاجتماعى الانجليزى .

لم ينفع الهنود البيوريتان وغير البيوريتان الذين هاجروا الى نيوانجلند فى أعداد متزايدة بعد منتصف القرن . فكما هو الحال فى فرجينيا نجد ان التوازن المتقارب بين الذكور والاناث الانجليز قد قلل الحاجة الى اتخاذ زوجات هنديات ، ولم تهتم الكنيسة بالهنود الا قليلا ، حيث لا تتوافر فيهم المؤهلات التى فرضها البيوريتان على أفرادهم لعضوية

الكنيسة ، الا نادرا . ولقد ذوت أهمية التجارة الهندية الى أدنى حد ،
فى اقتصاد المستوطنين عندما أصبح صيد السمك ، وقطع الأشجار ،
ونشر الخشب ، وبناء السفن ، والزراعة هى دعائم الاقتصاد الأساسية .
هذا النقص فى دور الحضارة الأوروبية ، مع الميل الخاص لليبيريتان الى
اعتبار الهنود همجا يميلون للتشبث بالمبادئ والمعتقدات البالية ، مما جعل
عملية التبادل والاحتواء الحضارى مستحيلة تقريبا .

المراجع

1. Quoted in Perry Miller and Thomas H. Johnson, « The Puritans » (New York : American Book Company, 1938), pp. 325-26.
2. Quoted in Richard S. Dunn, « Puritans and Yankees : The Winthrop Dynasty of New England, 1630-1616 » (Princeton : Princeton University Press, 1962), p. 24.
3. Quoted in Emery Battis, « Saints and Secretaries : Anne Hutchinson and the Antinomian Controversy in the Massachusetts Bay Colony » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1962), p. 246.
4. Quoted in Alden T. Vaughan, « New England Frontier : Puritans and Indians, 1620-1675 » (Boston : Little, Brown and Company, 1895), p. 14.
5. Thomas Morton, « New English Canaan, » in « Tracts and Other Papers Relating Principally to the Origin, Settlement and Progress of the Colonies in North America, » Peter Force, comp. (Washington, D.C., 1836), 2, No. 5 : 19.
6. William Bradford, « Of Plymouth Plantation, 1620-1647, ed. » Samuel Eliot Morison (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1966), p. 26.
7. Ibid., p. 375.
8. Thomas Morton, « New England Canaan, » p. 76, quoted in Neal H. Salisbury, « Conquest of the « Savage » : Puritans, Puritan Missionaries, and Indians, 1620-1680 ». (Ph.D. diss., University of California, Los Angeles, 1972), p. 86.
9. Nathaniel B. Shurtleff, « Records of the Governor and company of the Massachusetts Bay in New England, 5 vols », (Boston . W. White, 1853-54), I : 17.
10. Edward Johnson « Wonder-Working Providence », quoted in Salisbury, « Conquest of the «Savage » », pp. 63-64.
11. Quoted in Vaughan, « New England Frontier », p. 104.

12. « **Generall Considerations for the Plantation in New England ...** » (1629), in **Winthrop Papers**, 5 vols., ed. Allyn B. Forbes (Boston : Massachusetts Historical Society, 1929-47), 2 : 118.
13. « **Virgin Land and Savage People** », **American Quarterly**, 23 (1971) : 351.
14. Quoted in *ibid.*, 534 n.
15. Bradford, « **Plymouth Plantation** », p. 62.
16. Roy H. Pearce, « **The Savages of America : A Study of the Indian and the Idea of Civilization** » (Baltimore : The Johns Hopkins Press, 1953), pp. 3-24.
17. William Hubbard, « **A Narrative of the Troubles with the Indians in New England** » (1677), quoted in Carolyn T. Forman, « **Indians Abroad 1493-1938** » (Norman University of Oklahoma Press, (1943), p. 29.
18. John Mason, « **A Brief History of the Pequot War,** » **Massachusetts Historical Society Collections**, 2d Ser., 8 (Boston : 1826) : 140-41. Bradford « **Plymouth Plantation** », p. 296.
19. Cotton Mather, « **Magnolia Christi Americana ; or, The Ecclesiastic History of New-England** » (New York : Russell & Russell, 1967), 2 : 558.
20. John Underhill, « **News from America** », quoted in Salisbury, « **Conquest of the « Savage** », p. 81.

الفصل الخامس

نماذج التفاعل الهندي / الأوروبي

لما كان تاريخ المستعمرات الأمريكية الأولى ، قد كتب بوصفه في المقام الأول ، سجلا للانجليز في أمريكا الشمالية ، فمن السهل اذن أن نلاحظ أن الطرف الشرقي للقارة كان في القرن السابع عشر ، في الأعم الأغلب ، مسرحا للتنافس المر فيما بين الأوروبيين . فقد كان الانجليز يحرضون ، بصفة دورية ضد الهولنديين والسويديين والفرنسيين والأسبان ، كما لم يتوقف الصراع هناك ، لأن الانجليز أنفسهم قد اشتبكوا في سلسلة من الخلافات والعصيان المسلح الذي أضر بعملية الاستعمار في الثلثين الأولين من القرن السابع عشر ، وأدى الى صراع مسلح على امتداد الساحل شمالا وجنوبا في الربع الأخير من القرن . وفي كثير من المراحل كانت الجماعات الوطنية قادرة على الاستفادة من هذا التوتر القائم بين الأوروبيين ، وكذلك بين الانجليز أنفسهم في محاولاتهم لصياغة استراتيجيات للتكيف والبقاء . ولكنهم تعرضوا أيضا للغزو من مجموعة متنوعة من الأوروبيين الذين ازداد عددهم باطراد . ورغم اختلافهم اللغوي والثقافي وتنافسهم على البقاء ، كانوا قادرين على دفن خلافاتهم حين يشعرون بخطر المقاومة الهندية يلوح في الأفق . وبمنظرة مقارنة الى العلاقات الانجليزية/الهندية ، والهولندية/الهندية ، والفرنسية/الهندية نستطيع أن نتعرف الكثير عن المواجهة بين مختلف الحضارات في العالم الجديد .

الهولنديون الأقوياء :

بالنسبة لكل من الانجليز والهنود ، الذين سكنوا منطقة وسط الأطلنطي ، تلك البقعة التي كان فيها واديا نهري ديلاوير وهدسون بمثابة بؤر مهمة للانتقال الى الداخل ، كان الهولنديون هم الذين طرحوا أكبر قضية منذ عشرينات القرن السابع عشر حتى سبعيناته بتحقيق استقلالهم عن الأسبان ، سادتهم في الاستعمار سنة ١٦٠٩ فقط ، ولكنهم أصبحوا منذ ذلك الحين المتعهدين الأساسيين لنقل التجارة البحرية في أوروبا الغربية ، وبدعوا يتطفلون على التجارة الأسبانية والبرتغالية الى

العالم الجديد عن طريق المتاجرة غير المشروعة مع المستوطنين الذين أسعدهم أن ينتهكوا السياسة التجارية لبلادهم وراء سعر أفضل مع الهولنديين في تجارة الملابس والعبيد . حينئذ ، دخل الهولنديون خلال جيل من الانجازات المثيرة ، المذهلة في مقدمة سباق الثروة في العالم الجديد . ففي سنة ١٦٢١ ، انطلقت شركة الهند الغربية الهولندية بتمويل مؤثر ، ومساندة كاملة من الحكومة وكان هدفها التجارة والفتح - لتسيطر على تجارة العالم الجديد مع أوروبا وأفريقية بأقصى ما تستطيع ، ولتأسيس المستعمرات حينما لاحت لها الفرصة . وجاعها النجاح في الحال ، تقريبا ، ونتج عنه أن اكتسبت خلال بضع عشرات من السنين قوة مذهلة بدرجة لا يمكن القول معها بأن أضخم الشركات الأمريكية في منتصف القرن العشرين ربما لم تسطع ممارسة النفوذ الذي حققته شركة الهند الغربية الهولندية في الربع الثاني من القرن السابع عشر . وفي سنة ١٦٢٨ اعترض أسطولها الأسطول الأسباني الصغير وأسره أثناء عودته من البحر الكاريبي بعد نوبة الحراسة السنوية ، وقد اغتترف في هذا العمل البطولي حوالي ١٥ مليون جيلدر (*) لدفع ٥٠٪ من أرباح أسهم الشركة مع تجنب جزء كبير ، يفى بتمويل حملة عسكرية ضد المستوطنات البرتغالية في شمال شرق البرازيل ، وسيطر الهولنديون في النصف الثاني من القرن على حركة السفن التجارية الى العالم الجديد بدرجة أضعفت التجارة الأسبانية والبرتغالية ، الى حد بعيد .

بدأ الهولنديون ، في نفس الوقت ، غزواتهم ضد منافسيهم في تجارة الرقيق الأفريقي ، وبنوا قواعد لهم على الساحل الأفريقي منذ سنة ١٦١١ ، ولكنهم بدءوا الانقضاء بعد ذلك في العشرينات والثلاثينات من القرن السابع عشر على القلاع والمحطات التجارية البرتغالية . وبحلول سنة ١٦٣٧ ، حينما استولوا على قلعة المينا Elmina Castle على ساحل الذهب (الأفريقي) ، المركز البرتغالي لنشاط تجارة الرقيق ، كانوا قد أزاحوا البرتغاليين تقريبا من مجال النخاسة في الأطلنطي . وكانت القواعد البحرية على الساحل الأفريقي مرتبطة تماما بنظيراتها في البحر الكاريبي التي تم الاستيلاء عليها من الأسبان ، في كوراكاو Curacao ، وسابا Saba ، وسان مارتن St. Martin ، وسان ايوستاتيوس St. Eustatius ، وصاحب ذلك ، الهجمات على البرازيل البرتغالية ، ابتداء من سنة ١٦٢٤ ثم هدأت سنة ١٦٣٠ ، عندما سحق الهولنديون البرتغاليين ، وسيطروا على مزارع القصب الغنية على الساحل الشمالي الشرقي ، والتي تمثل للمطبخ الأوروبي أهم مصدر للسكر ، وامتدت أذرع

(*) الجيلدر هو وحدة النقد الهولندي - (المترجم) .

أخرى للامبراطورية التجارية الهولندية لتصل الى جزر الهند الشرقية ،
والهند ، وسيلان ، وفورموزا .

نشط الهولنديون الأقوياء ، أيضا ، على أرض قارة أمريكا الشمالية
فاستهلوا بتجارة الفراء مع الهنود سنة ١٦٠٩ في أول رحلة لهنرى
هدسون ، الذى أبحر بوصفه موظفا لدى شركة الهند الشرقية الهولندية .
وبعد خمس سنوات ، أقاموا محطة تجارية صغيرة على نهر هدسون قرب
ألبانى ، وبعد فترة وجيزة من الترخيص لشركة الهند الغربية سنة ١٦٢١ ،
أقيمت مستوطنة دائمة محل مدينة نيويورك حاليا ، وأصبحت بتسميتها
نيوأمستردام ، مركزا للاستعمار الهولندى فى أمريكا الشمالية على مدى
النصف الثانى للقرن السابع عشر . وقد فاق الفراء السكر ، والذهب
كمصدر للربح لمستعمرة نيو نيزرلاند ، تلك المستوطنة الصغيرة ، التى
أصبحت منذ سنة ١٦٢٨ ترسل ٨٠٠٠ قطعة فراء تقريبا الى الوطن الأم
سنويا . وتشعب الهولنديون من هذا المركز فى وادى نهر هرسون بأعداد
قليلة طوال الأربعين سنة التالية . فخططوا لاقامة مستوطنات ناحية
الشمال فى وادى نهر كونيكتيكت ، وإلى الجنوب فى وادى نهر ديلوير ،
وعبر نهر هدسون فيما أصبحت الآن نيوجرسي ، وإلى الشرق عند لونج
أيلاند ، ولم تكن أعدادهم كبيرة مما مكن الأعداد الكبيرة من الانجليز من
قهرهم فى الوقت المناسب ، الا أن قوتهم البحرية ، لم تكن ليستهان بها ،
الأمر الذى اكتشفه الفرجينيون سنة ١٦٦٧ ، عندما أسر القراصنة
الهولنديون عشرين سفينة تبغ فى نهر جيمس ، وكذلك عندما نجحوا
فى هذه المحاولة مرة ثانية سنة ١٦٧٣ ، وهكذا ، نجد أنه بينما لم ينجحوا
فى توطين أكثر من ١٠٠٠ شخص فى مستعمراتهم فى وسط الأطلنطى ،
استطاعوا أن يمارسوا نفوذهم وسطوتهم القوية على المصالح التجارية
لانجلترا . وعندما حان الوقت ، وأصبح الانجليز أكثرية فى
السكان ، ووقعت ثلاث حروب بينهم وبين الهولنديين ، فى أوروبا ما بين
سنتى ١٦٥٠ ، ١٦٧٥ أصبحت مستعمرة نيو نيزرلاند هدفا للهجوم
الانجليزى ، حيث استولوا عليها سنة ١٦٦٤ ، ثم استعادها الهولنديون
سنة ١٦٧٣ لفترة قصيرة ، استردها الانجليز بعدها . وبذلك انتهت
القوة السياسية الهولندية فى أمريكا الشمالية .

الفرنسيون :

شابه الفرنسيون الهولنديين قوة ، فى العالم الجديد ، قبل قوة
الانجليز . واقتصر نشاطهم فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع
عشر ، مثل الهولنديين ، على الاغارة على المصالح التجارية البحرية لأسبانيا

والبرتغال ، والمتاجرة السرية مع المستوطنين الأيبيريين في منطقة الكاريبي وأمريكا الجنوبية ، وزرع مستوطنات صغيرة جدا للصيد البحري ، والتجارة على أرض قارة أمريكا الشمالية . وقد بدأ الفرنسيون مبكرين في الثلاثينات من القرن السادس عشر ، عندما قام جاك كارتيه Jacques Cartier بعدة رحلات كشفية الى نيو فوندلاند وخليج سانت لورانس . وقد جعلت اكتشافاته مجرى نهر لورنس معروفا للأوروبيين ، بالرغم من أنه لم يكن واضحا لهم حينذاك أنه أحد المدخلين المائين الى قلب القارة . وتلت ذلك بعض المحاولات الفاشلة في اقامة محطات صغيرة في الأربعينات من القرن السادس عشر ، ولكن الفرنسيين ، عاجلا ما اكتشفوا أن الثروة الحقيقية في المناطق الشمالية ، لا تكمن في الذهب أو الماس ، وإنما في صيد السمك ، وفي تجارة الفراء بوجه خاص . وبنهاية القرن السادس عشر ، جاءت نحو خمسمائة سفينة صيد أوروبية سنويا ، الى المياه الكندية ، وكانت السيادة بينهم للسفن الفرنسية . وعندما قضى البرتغاليون والأسبان ، على التوالي ، سنة ١٥٦٠ ، ١٥٦٥ على المستوطنات الفرنسية الصغيرة عند مدخل ريو دي جانيرو ، وعلى الساحل الجنوبي لأمريكا الشمالية ، قرر الفرنسيون أن يتركزوا في الشمال حيث تتحرر تجارتهم من التحرش الأسباني والبرتغالي .

وكما كان لصيد السمك قيمته ، أصبح الفراء مصدرا كبيرا للربح على نطاق واسع ، ولم يحتج الأمر لأكثر من احضار البضائع التي يرغبها الهنود عبر الأطلنطي ، فتلقى القليل من السفن مراسيها في جزء مستتر من خليج سانت لورنس انتظارا لمجيء التجار الهنود ومعهم جلود الحيوان غير المدبوغة . ولم يكن من الضروري فتح الأرض عسكريا ، بل ان ذلك في الواقع ، يؤثر على الارتباط التجاري مع الهنود تأثيرا عكسيا . كما لم يتطلب الأمر ، أيضا مستوطنات كبيرة ، اذ أن تجارة الفراء تضمنت مجرد علاقة المقايضة البسيطة بين الفرنسيين والهنود .

الا أن الفرنسيين قرروا اقامة مستوطنات في أمريكا الشمالية عندما تأكدوا أنهم بدون مستعمرة سكانية فان محطاتهم التجارية ستكون هدفا لغارات النهب الهولندية ، والانجليزية أو من أية دولة استعمارية أخرى . وهكذا أنشئت مستعمرة في بورت رويال في نوفا سكوشيا سنة ١٦٠٤ ، وأخرى سنة ١٦٠٨ في كويبك . هذا الدليل على نية الفرنسيين عدم الاقتصار على التجارة والصيد فقط ، بل وتأييد ادعاءات ملكية الجزء الشمالي من القارة كان كافيا لاغراء الانجليز - على بعد ألف ميل منهم جنوبا - بأن يشنوا عليهم حملة تفنيهم . فبالرغم من أنه لم يكن بين انجلترا ، وفرنسا حرب ، الا أن سير توماس ديل Thomas Dale ، حاكم

فرجينيا ، بعث بالمستكشف المتمرس ، والملاح الماهر ، صمويل أرجول S. Argall ليهاجم المستوطنات الفرنسية سنة ١٦١٣ ، واستطاع القضاء تماما على المستوطنة الفرنسية فى بورت رويال بعد شهور قليلة من اقضاء بوكاهونتاس فى فرجينيا . وخلال عشرات السنين القليلة التالية ، كافح الفرنسيون لزراع مستوطنات صغيرة وحمايتها فى وجه المقاومة الانجليزية النامية والمتركة فى نيوانجلند . ولكن فرنسا كانت مشغولة بحرب الثلاثين عاما فى أوروبا ، ولا يمكنها أن توفر الرجال أو الأموال للتوسع فيما وراء البحار . وبحلول سنة ١٦٤٣ ، وبعد نصف قرن من الاستعمار تقريبا كان لا يزال هناك أقل من أربعمائة فرنسى فى نيوفرانس ، أغلبهم من التجار والهنود أو القساوسة الجزويت الذين وفدوا بأعداد وفيرة لهداية الهنود الى المسيحية . وقد علق أحد الحكام الملكيين فى كندا مؤخرا أنه لم يوجد فى نيوفرانس سوى نوعين فقط من المهام أو الأعمال هما : تحويل النفوس ، وتحويل الفراء .

تحت قيادة صمويل تشامبلين S. Champlain ، تسانده شركة نيوفرانس ، قامت الشركة بعملية تجارية أخرى برأسمال مشترك ، على أساس أكثر رسوخا ، وبتقديم الأرض للصيد ، أغرت مستوطنى فرنسا بإقامة مجتمع زراعى ثابت ، مخصص لتكرار المؤسسات الاجتماعية الفرنسية بعاداتها وتقاليدها فى البرية القفر . وفى سنة ١٦٦٠ ، تناثرت المدن على امتداد نهر سانت لورنس ، بالرغم من أن عدد السكان الفرنسيين لم يتعد الألفين فى المستعمرة ، لكنهم يمثلون عشرة أمثال العدد فى نيوانجلند .

العلاقات الهولندية/الهندية :

كيف كانت العلاقة بين السكان الهولنديين والفرنسيين فى هذه المستوطنات المحلية والاستراتيجية ، وان كانت صغيرة ، وبين المجتمعات الهندية التى صادفتهم ؟ وهل كانت الاختلافات فى الشخصية الوطنية أو أسلوب حياتهم ذات أهمية فى التفاعل بين الهولنديين والهنود ، والفرنسيين والهنود ؟ وهل كانت التجربة الانجليزية/الهندية فى فرجينيا ونيوانجلند متطابقتين ؟ لكى نتخذ مدخلا مقارنا الى العلاقات الأوروبية - الهندية ، يحسن بنا أن نتفهم تفرد التجربة الانجليزية ، وشكلها النموذجى ، ونختبر بعض الأسس العامة ، الشهيرة والبسيطة لما ينسب الى المؤرخ الشهير فرانسيس بارلمان Francis Parlmann ، الذى كتب منذ قرن مضى ، يقول ان فى أمريكا الشمالية « قد سحقت المدنية الأسبانية الهنود ، واحتقرتهم المدنية البريطانية وأهملتهم ، بينما تقبلتهم المدنية الفرنسية وأعزتهم » (١) .

فبالنسبة للهولنديين ، طالما كانت تجارة الفراء ناجحة ، وتمثل المصدر الأول للربح في نيو نيزرلاند ، ظلت العلاقات سلمية مع الموهيكان في منطقة ألواني والقبائل المحلية في المنطقة المجاورة لنيو أمستردام . وبذل الهولنديون كل جهدهم للمحافظة على مودة الهنود ، بعد أن اتضح لهم بجلاء أنه طالما يقلون عن الهنود عددا ، ويعتمدون على مكاسبهم من التجارة فهم بحاجة اذن الى الهنود أكثر من حاجة الهنود اليهم . وذلك يعكس الحال مع سكان فرجينيا في تشيزابيك أو البيوريتان في نيوانجلند ، حيث لم يهدفوا أساسا الى الزراعة أو الاستيطان على نطاق واسع ، بل مجرد المقايضة المربحة للبضائع الأوروبية بجلود الغزال والسمور أو القضاة (ثعلب الماء) ، ولم يكن لدى الهندي ما يخاف عليه كثيرا من الوجود الأوروبي ، لأن الهولنديين الذين جاعوا في أعداد قليلة لم يكن لهم مخطط ظاهر لاقتناء الأرض ، وكانوا شغوفين بالتجارة فيما يحتاج اليه الهنود ، ويمكنهم صيد الحيوانات المتوفرة في أراضيهم .

الصراع للسيطرة على مصادر الفراء :

بقدر ما بدت مقايضة الفراء وجلود الحيوانات بالبضائع الأوروبية مرغوبة لدى القبائل الهندية ، بقدر ما تضمنت خطرا مستترا له مغزى كبير ومهم . فقد كان الهنود ، قبل مجيء الأوروبيين يعيشون على صيد الحيوان ، وقد أدت قلة احتياجاتهم لصيدها ، الى صيانة هذا المصدر . ولكن ما أن دخلت جلود الحيوانات ذات الفراء الى السوق اللولية للأطنطى حتى اندفع الهنود الى الصيد بلا رحمة فيما أصبح عملية إبادة للحيوانات ، مما استنزف حيوان السمور بسرعة مخيفة في مساحات معينة . وهنا ، كما حدث مع الموهيكان الذين كانوا يبيعون للهولنديين أثناء الربع الأول من القرن السابع عشر ، بدأ تجار الفراء بشركة الهند الغربية الهولندية يسعون لمصادقة خصومهم ، الموهوك ، أقرب القبائل الشرقية للايروكوا الذين تمتد أراضيهم غربا حتى البحيرات العظمى ، وأصبح الايروكوا أكبر ممون للجلود غير المدبوغة للهولنديين ، وقد حولهم هذا الدور الى قوة هائلة في الشمال الشرقي .

كذلك انشغل الفرنسيون في تجارة الفراء الى الشمال من المستوطنات الهولندية مع قبائل الهورون Hurons القوية ، التي سيطرت على الأراضي ، شمال البحيرات العظمى . ثم جاء الوقت الذي هاجم فيه الايروكوا قبائل الهورون تحت اغراء المزايا التي يجنونها من تجارة الفراء مع الهولنديين ، ونضوب الفراء في أراضي القبائل التي يسيطرون عليها ، فان نجحوا ، استطاعوا تحويل مصادر الفراء الشاسعة في كندا ، شمال

مونتريال وهى المركز الرئيسى للنشاط التجارى الفرنسى ، الى البانى وهى المحطة التجارية الرئيسية الهولندية . وكان ذلك فى الواقع محاولة لجعل أمستردام هى المتلقى الأكبر لجلود السمور فى أمريكا الشمالية بدلا من باريس . حيث أحضر الايروكوا بنهاية سنة ١٦٣٣ أكثر من ٣٠٠٠٠ قطعة جلد غير مدبوغة سنويا ، الى المراكز التجارية الهولندية . ثم تعاظمت الحاجة الى السيطرة على أراضى الصيد البعيدة ، والى القيام بدور الوسيط الذى يتسلم الجلود من كثير من الصيادين من الغرب ، وينقلها شرقا الى الهولنديين فى البانى . وهكذا يشتد العداء الكامن بين الايروكوا والهورون ، ويتحول الى تنافس صريح للسيطرة على فراء الغرب خلال عشرات السنين الأولى من القرن السابع عشر . وقد ازداد العداء بينهما نتيجة امدادات الهولنديين للايروكوا بالسلاح النارى الاوروبى ، الذى استعملوه فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، وبعد ذلك أصبحت حروب اباداة للهورون . وقد كتب مؤرخ كندى معلقا بأنه « قبل مجيء الأوروبيين ، كانت الحروب بين الهنود محدودة ، ولم تساعد الدوافع اليها ولا الأسلحة البدائية على خسائر كبيرة فيها ، وبعد ذلك أصبحت حروب اباداة - حروبا شاملة ، لأسباب اقتصادية ، ثم ازدادت تدريجيا من أجل أهداف أوروبية » (٢) ، كالحرب من أجل المكانة والهيبة الشخصية ، أو تار دموى ، حل محل القتال للسيطرة التجارية .

ان أهم ما تجدر ملاحظته ، حول طبيعة تأثير الوجود الاوروبى على أكبر الحضارات الهندية وأقواها فى الشمال الشرقى أن الأمر لم يتطلب سوى عدد قليل جدا من الاوروبيين للقيام بها . ففي الربع الثانى من القرن أبيد شعب الهورون ، تقريبا بعد أن كان يضم ٣٠٠٠٠ نسمة أو يزيد ، وذلك بسبب الأمراض الأوروبية وهجمات أعدائهم من الايروكوا ، المدفوعين الى ذلك بالرغبة فى البضائع الأوروبية . وفى نفس الوقت ، استغل الايروكوا علاقاتهم التجارية الواسعة مع الاوروبيين لتنمية قوتهم . كل ذلك ، فجرت مستوطنات صغيرة هولندية وفرنسية ومراكز تجارية متنشرة على امتداد وادى نهر سانت لورنس ، وهلمسن ، التى لم يبلغ مجموع سكانها على مدى نصف قرن تقريبا ، أكثر من ثلاثة آلاف نسمة .

أما ما حدث للقبائل الهندية الأقل شأنا ، والتى لم يكن لها القوة أو الميزة الجغرافية لتلعب دورا فى تجارة الفراء ذات الأهمية البالغة ، فيمكن تصوره بما آل اليه مصير الاثنى عشرة عشيرة أو قبيلة هندية ، أو نحو ذلك والتى عاشت بالقرب من نيوا أمستردام فى الأربعينات من القرن السابع عشر . ذلك أن شركة الهند الغربية الهولندية ، بدأت قبل هذا العقد بقليل ، تعبىء المستوطنين لبناء قساعة المجتمع الزراعى ،

وتضاعف عدد السكان فيما بين سنتي ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ الى نحو الألفين ، مما استدعى شراء الأرض من القبائل الهندية المحلية ، مثل قبائل الروكاواي Rockaways والكنارسي Canarsees ، والماسابيكا Massapeguas والمريك Merrics ، الذين لم يروا مهربا للرحيل عن أرضهم التي باعوها الا بعد أن يسدد المشترون كامل ثمنها ، ويشرعوا في استغلالها ، وهكذا عاش المزارعون من كلا الطرفين جنباً الى جنب ، في مناطق لونيغ ايلاند ، وروكاواي ، وستاتين أيلاند Staten Island . الا أنه عندما وطئت قطعان الماشية الهولندية الحقول الهندية ، أو هاجمت الكلاب المسعورة للهنود مواشي الهولنديين ، انفجرت لذلك مشاعر الغضب ، وزاد الطين بلة محاولة وليم كيفت W-Kieft ، الحاكم اللقيم لشركة الهند الغربية الهولندية ، اصلاح الميزانية المتدنية في المستعمرة بفرض ضريبة على كافة هنود المنطقة ، وحاول الهنود مقاومة هذه الضريبة أو الاتاوة ، وأحيت جميع القبائل الرأي الجريء ، القائل بأن كيفت « لابد أن يكون شخصاً تافهاً ، وضعيماً ، بجيئه للعيش في هذا البلد دون أن يدعوه أحد . . . ويرغب الآن في طردهم أو يعطوه قمحهم بلا مقابل » (٣) .

العنف بين الهولنديين والهنود :

ان مبدأ التوسع الهولندي ، والمتاجرة النشطة ، المتسمة بالاثرة مع الجماعات الهندية المحلية قد جلب معه العنف المتفرق ، لا مفر . وعندما كان يترتب عليه فقد أرواح بعض الهولنديين ، كان الرد المعتاد على ذلك ، هو المطالبة بتسليم الهنود المسؤولين الى القاضى الهولندي . وكان الهولنديون ، في الواقع ، كما كان الانجليز في نيوانجلند ، يحتاجون الى الاعتراف والتسليم بسيادتهم . وقد حدث في سنة ١٦٤٢ أن جماعة من الهاكينساك Hackensack نيواستردام عبر خليج نيوارك Newark Bay قامت بقتل مزارعين هولنديين ، كانت ماشيتهما قد أتلقت قمحهم ، وخدعاهم في التجارة . هنا عرض زعماء الهاكينساك تقديم عقد من الصدف الى أرملة الضحية تعويضاً لها « وتكفيها لدموعها » حسب العرف المتبع لدى الهنود ، ولكنهم رفضوا تسليم القتلة حتى لا يكون ذلك اعترافاً بخضوعهم لقانون الهولندي ، وبدلاً من ذلك ، طلبوا من الحاكم ، كيفت أن يوقف تجارة الكحول الخطرة ، ويمنع الاغارة على الأراضي الهندية .

أصبحت القضية بالنسبة للهولنديين ، كما كانت عند البيوريتان مسألة سلطة ، وكما فكر البيوريتان تماماً في حل عسكري لهذا النوع من المشكلات السياسية . رد الهولنديون في أول مناسبة بأن أنشأوا بالقوة ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالتحذير والنصح أو المفاوضات . فقد

حدث أن قتلت جماعة من « الويكاييسجيك » Wecquaesgeek في ويستشستر westchester رجلا هنديا ، وبعدها بسنتين أي سنة ١٦٤٣ قام فريق من المحاربين ، لعلمهم من الموهيكان من منطقة ألباني وقتلوا منهم سبعة عشر وأسروا غيرهم ، مما اضطر بقية الجماعة إلى الهرب في فزع إلى المستوطنات الهولندية في نيواامستردام طلبا للحماية ، فسمح لهم الهولنديون بالإقامة في موقعين بالقرب من المدينة . إلا أن كيفت وعيره من قادة المستعمرة لم يمكنهم مقاومة الاغراء بآبادة هؤلاء الويكاييسجيك المعسكرين في الخيام ، ليكون واضحا لكل القبائل التي تقع في مدار نيواامستردام ، بما لا يدع مجالا للشك أن عليهم قبول شروطهم في التجارة ، وأن يدفعوا ما يفرض عليهم من جزية كلما احتاج الأمر ، وأن يضعوا أنفسهم تحت السيادة الهولندية .

وفي ليل ٢٥ فبراير ١٦٤٣ ، هاجم ثمانون جنديا هولنديا معسكر الويكاييسجيك بعد أن صدرت لهم الأوامر بقتل الرجال فقط ، وأسر النساء والأطفال . وقد كتب أحد القادة الهولنديين في تقريره :

الأطفال الصغار ، انتزع بعضهم من أمهاتهم ، وقطعوا أربابا أمام أعين والديهم ، وألقيت أشلائهم في أنهار أو النهر ، وربط الأطفال الآخرون على ألواح من الخشب ، ثم قطعوا وذبحوا كالحيوانات مما ينظر له قلب الحاجر ، كما أنقى البعض في أنهر ، وعندما حاول آبائهم وأمهاتهم انقاذهم ، لم يسمح لهم الجنود بالعودة إلى الشاطئ بل تركوا الجميع ، كبارا وصغارا يفرقون . . . وهرب انقليل منهم إلى مستوطنتين ، وقد فقد البعض منهم يده والبعض الآخر رجله ، والبعض ممسكون بأمعائهم بأيديهم . هكذا كان الكل إما مقطوع الأوصال ، أو مضروبا بآلة حادة ، أو مشوها بدرجة لا يمكن تصورها منها . لقد كانوا بحق في حالة اعتقد معها أبناؤنا أن هؤلاء المصابين قد فاجأتهم قبيلة ماكاي [موهوك] المعادية لهم (٤) .

وأحدث هجوم آخر على المخيم الثاني للويكاييسجيك نتائج مماثلة ، إلا أن محاولة إبادة القبيلة ، وبالتالي إضعاف معنويات جميع القبائل الهندية بالمنطقة أتت بنتائج عكسية . فقد بدأ الهنود في منطقة استيطان الهولنديين حملة الانتقام ، حيث شاهد روجر وليامز عند وصوله إلى نيواامستردام ليجر إلى أوروبا على سفينة هولندية « أن شوارعهم تتقد غضبا ، والهولنديون ، والانجليز مذبحون - بعيني رأيت ٠٠٠ السنة اللهب في مدنهم ٠٠٠ واندفاع الرجال والنساء والأطفال لنقل كل

ما يمكنهم نقله للهروب الى هولندية ، (٥) . وأثناء السنتين التاليتين ، هاجمت اثنتا عشرة مجموعة هندية ، على الأقل ، المزارع والمستوطنات المنعزلة على أطراف نيوامستردام ، وأزهقت أرواح عدة مئات من الهولنديين والانجليز بما فى هؤلاء آن هتشينسون وعائلتها التى كانت قد هاجرت الى لونج أيلاند عن طريق رود أيلاند ، بعد طردها من ماساشوستس قبل ذلك بسبع ساعات .

هذا ، وبالرغم من أن الهنود قد أنهكوا المستوطنات الهولندية بالغارات المتعددة ، وأضعفوا معنويات المستعمرة ومواردها المالية ، الا أنهم كانوا الخاسرين فى النهاية . فتشير التقديرات أن أكثر من ألف هندي فقدوا حياتهم قبل توقف الأعمال العدائية سنة ١٦٤٥ . وحدثت أفدح الخسائر بالقرب مما يعرف الآن بباوند ريدج Pound Ridge فى مقاطعة وستشستر ، حيث قامت مجموعة من الرجال بقيادة الكابتن جون أندرهيل J. Underhill ، بطل مذبحة مايستيك فورت ضد البيكوت منذ ست سنوات ، بمفاجأة قرية هندية صغيرة فى جوف الليل البهيم ، فقتلوا بالرصاص والحرائق أكثر من خمسمائة من قبائل التانكيستيك Tankitekes والويوانوى Wiwanoy ، والوابينجر Wappingers .

وهكذا ، تختلف العلاقات الهولندية / الهندية كثيرا فى منطقة نيوامستردام عن احتكاكات الانجليز مع الحضارات الوطنية فى نيوانجلند وعند تشيزابيك . فقد قلت مكاسب تجارة الفراء بعد السنوات القليلة الأولى منذ أن استنفد الصيد حيوان السمور بالمنطقة . وأصبح الهولنديون يعتمدون على تجارهم فى ألبانى لاستنزاف مصادر الفراء الغنية بالداخل . كما أن الهنود المحليين لم يستطيعوا أن يحققوا أى نفع من وراء احتمال تحولهم الى الصورة المسيحية الهولندية ، لأن شركة الهند الغربية الهولندية لم تهتم كثيرا بارسال بعثات تبشيرية الى هنود المنطقة الذين كانوا ينظر اليهم بوصفهم جهلة ، بهيمين ، بينهم وبين الهولنديين هوة لا يمكن تخطيها . كما أن الهولنديين لم يكونوا بحاجة الى زوجات هنديات ، حيث استغنوا عنهن بذلك المدد الوافر من الأوروبيات ، منذ البداية ، تقريبا .

بهذا الموقف المعقد ، مع اعتماد النشاط الاقتصادى على الأراضى ، بدلا من التجارة فى الغالب ، أصبحت القبائل المحلية هى العقبة أمام التوسع والنفوذ الهولنديين . ولما كانت هذه القبائل منقسمة داخليا ، وموزعة بين جماعات الوابينجر ، والتابان Tappans ، والهاكينسك ، والويكايبيجيك ، والنيك Nyack ، والكنارسى ، وغيرها ، كل ذلك سهل على الهولنديين أن يقرروا اتخاذ الحل العسكرى ازاء المشكلة

الهندية ، • وعلى خلاف الموهوك فى أعالي نهر هندسون ، الذين لا يقدرّون بثمن فى اعتماد الهولنديين عليهم فى تجارة الفراء المهمة ، بكل معنى الكلمة ، لم تؤد القبائل والجماعات الهندية فى أدنى الهندس أعمالا معينة فى سلسلة الاحتياجات الهولندية • الا أنهم نظرا لامتلاكهم قوة أكبر من الهولنديين كانت العلاقات الودية معهم أفضل من العداء ، خاصة وأن حرب كيفة بين سنتى ١٦٤٣ ، ١٦٤٦ لم تؤد الى هزيمتهم هزيمة كاملة • وقد نظم عدد من الجماعات الهندية أنفسهم سنة ١٦٥٥ ، وهاجموا نيواستردام ، وقتلوا خمسين هولنديا ، على الأقل ، وأسروا مائة أو يزيدون ، وأشعلوا الحرائق فى المنازل ومخازن الأغذية ، واستمرت هذه الاعتداءات خلال الخمسينات من القرن السابع عشر والعقد التالى لها ، ولكن قوتهم أخذت تنحسر بعد عشرات السنين من حرب الاستنزاف والانهاك • وبينما استعاد الهولنديون قوتهم من العدد والعتاد من أوروبا ، لم يكن لدى الهنود ما يعتمدون عليه سوى مواردهم المتضائلة • وعندما هزم الانجليز الهولنديين فى نيونيزرلاند سنة ١٦٦٤ لم يجدوا سوى بقايا من السكان الهنود الأوائل ، منهارة معنوياتهم •

وعلى النقيض ، كانت العلاقات الهولندية / الهندية فى ألبانى علاقات سلمية ومثمرة • ومن المحتمل أن ما لا يزيد عن مائة هولندي كانوا يسكنون هناك فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، لم يهاجموا الموهوك الأقوياء ، ولم يتعرضوا للهجوم منهم ، لأن أفراد كلا الشعبين كانوا يخدمون احتياجات بعضهم بعضا بشكل يدعو للاعجاب • فبالرغم من قلة عددهم الواضحة ، لم يتردد مستوطنو ألبانى أن يبيعوا السلاح والذخيرة لشركائهم التجار الهنود • وعلى النقيض من ذلك ، كان المستعمرون فى نيواستردام يفوقون الهنود عددا ، مع تفرق الهنود فيما بينهم ، لذلك فرضت قوانين صارمة على بيع السلاح • ولم يكن من الصعب فهم هذه السياسة عند مقارنة التنافس على الأرض فى منطقة نيواستردام بالنشاط التعاونى بين الهولنديين والموهوك فى منطقة ألبانى ، فقد كان السلاح يقدم للموهوك على أن يستعمله الهنود للسيطرة على قبيلة الهورون ، حليفة فرنسا • وبهذا المعنى ، فإن أية بندقية فى يد هندية كانت تساهم فى التدفق المربح لجلود السمور الى أمستردام عن طريق نهر هندسن ، بدلا من ذهابه الى باريس عن طريق نهر سانت لورنس • ولم تجلب هذه التجارة المربحة ، بالضرورة الاحترام والاعجاب المتبادل بين الهولنديين والموهوك ، فقد شاعت السرقات والهجمات على الحيوانات ، والاعتداءات الصارخة على الحقول بين المجموعتين • ولكن أكثر المؤرخين حذرا ، قد كتب عن العلاقات الهندية مع نيواستردام فى القرن السابع عشر ، فقال : « كان السلم محفوظا لأن كلا الجانبين كان سيفقد كل شيء » ،

ولن يكسب شيئا بالأعمال العدائية ... لقد نظر كل عنصر منهما الى الآخر على أنهم لصوص غلال ، ومعتدون على أملاك الطرف الآخر ، أو هنود يعطون ما معهم ، وليسوا مصادر رخاء اقتصادي ، أما اعتقاد كل منهم في الآخر شخصيا فكان خارج الموضوع ، (٦) .

نيونزولاند (نيوهولند) أصبحت نيويورك :

بعد جيل من الصراع الأهلي ، الذي بلغ ذروته باستعادة الملكية في إنجلترا بتولي تشارلز الثاني العرش عام ١٦٦٠ ، قررت إنجلترا أن تبذل محاولة ضخمة ثانية في استعمار جزر الهند الغربية وأرض أمريكا الشمالية ، فكانت المستعمرة الهولندية في نيونزولاند ، بذلك أحد أهدافها الأولى . ونظرا لتكثيف المنافسة التجارية بين الانجليز والهولنديين منذ منتصف القرن ، أصبحت المستعمرة الهولندية هدفا مغريا لوقوعها بين المستعمرات الانجليزية وتشيزابيك ونيوانجلند . ولابد ، للاستيلاء عليها ، من طرد الهولنديين كلية من الساحل الشرقي ، وتوحيد الامبراطورية الانجليزية في أمريكا الشمالية . ولهذا الغرض ، أرسلت بعثة عسكرية بقيادة ريتشارد نيكولز Richard Nicholls الذي استولى عليها سنة ١٦٦٤ دون مقاومة تذكر من الحامية الصغيرة الوحيدة في الطريق . وأصبحت نيونزولاند هي نيويورك ، واضطر السكان الهولنديون الى الاندماج في النظام الاستعماري الانجليزي . وبالرغم من ضرورة انقضاء عدة أجيال قبل أن يؤلف الانجليز وأو نصف سكان نيويورك الا أن النظام الاستعماري الانجليزي قد اشتمل بشكل محكم على السلطة السياسية والتجارة والشئون العسكرية .

لم يكن لتغير السلطة السياسية أهمية تذكر بالنسبة للقبائل الهندية في نيويورك ، وكان من الصعب تمييز الفروق بين الهولنديين والانجليز في علاقتهم كأوروبيين مع هذه القبائل . ولم يستطع مجيء الانجليز أن يغير حقيقة أن المرض والحرب قد قضيا على الجزء الأكبر من قبائل الألجونكي عند نهر هدسن الأدنى . ولا كان الانجليز مبالين الى تغيير نموذج العلاقات منذ أن اضطلوا بالسيادة الأوروبية التي اعتمد عليها الهنود المحليون بدرجة تدعو الى الشفقة . ولا شك أن الانجليز قد اعتبروا أن من حسن حظهم أنهم استعمروا منطقة اكتملت فيها تماما عملية اخضاع السكان الأصليين ، كما لم يكونوا أكثر من الهولنديين ميلا الى تجميع الأنصار من القبائل المحلية بصنوف الأغراء ، عندما كانت الأمور التجارية الأكثر أهمية تتطلب جهدهم .

لقد شهد الثلث الأخير من القرن السابع عشر في نيويورك أقصى تدهور للقبائل الصغيرة في منطقة مانهاتن ، ولونج أيلاند ، والوادي الأدنى لنهر هلسن . فقد تضاعف السكان الهنود عندما كافح الوطنيون للبقاء عن طريق مزيج من الاشتغال بصيده الحيوانات وصيد السمك والعمل بالمزارع ، أو أجراء باليومية في مستوطنات البيض ، فأصبحت علاقاتهم بالأوروبيين علاقة كاملة للعبيد الأرقاء ، تقريبا ، كما لخصها واحد من لونغ أيلاند ١٦٧٠ بقوله : « لا يوجد الآن سوى القليل منهم على الجزيرة . ولم تكن هذه القلة مؤذية بأي حال ، بل كانت نافعة للانجليز ، وانا لنعجب كيف تناقصوا بهذه الصورة الغريبة على يد الرب منذ أول استيطان للانجليز في هذه النواحي » (٧) .

لقد أصبح الهنود المعادون هنودا أصدقاء ، الا أن هذه الصداقة لم تكن سوى المظهر الخارجى لما يحتمل في نفوسهم من اضطراب اجتماعى وسياسى ، وما صاحب ذلك من تبعية ثقافية . وفى هذه الحالة من الفساد والفوضى أصبحت الكحوليات أكثر أهمية لدى القبائل المحلية . فقد أسهمت كثيرا في توقف نشاطهم بقتلها الاحساس فيهم بنوعية حياتهم المتأكلة . لقد عرف النيويوركيون أن قدرة الهنود على المساومة في البيع تتضاعف بعد تقديم كمية كافية من شراب الروم له . وبالرغم من تحريم بيع الكحوليات الى الهنود ، « مع ذلك ، كان كل واحد (منا) يبيعهما » ، على حد تعليق أحد المراقبين سنة ١٧٦٩ (٨) . كما احتج أحد زعماء المينيسيك Minisik بشدة ، بعد ذلك ، بسنتين بأن الكحوليات قد تسببت في موت ستين من رجاله في ثلاث سنوات . ان اضطراب المجلس المحلى للتأكيد سنة ١٦٧٩ ، وفى عدة مرات أخرى في الثمانينات من القرن السابع عشر على أن الهنود في المستعمرة « أحرار وليسوا عبيدا » ، ولا يجب استغلالهم كخدم ضد ارادتهم مدى الحياة ، كل ذلك كان دايلا صارخا على أن السكان الهنود الذين يتناقصون باستمرار لم يفقدوا استقلالهم الحضارى فقط ، بل وحرمتهم البدنية ، بنفس الدرجة .

لم يأت حلول الانجليز في البانى بتغيير ذى بال في العلاقات الهندية . فقد استمر الايروكوا في تعاملهم مع التجار الهولنديين في بادىء الأمر ، ومع المتعهدين الهولنديين أيضا ، وكذلك استقباليهم السلاح البريطانىة نظير القراء . وبطبيعة الحال اتجهت التجارة ، بعد مرور القراء عبر نيويورك الى الأسواق الانجليزية أكثر من اتجاهها للأسواق الهولندية . وتعددت مصادر البضائع التى يستقبلونها من مختلف أنحاء العالم الأوروبى ، الا أن ذلك كله لم تترتب عليه عواقب تذكر ، بالنسبة لمن كانوا ينصبون الفخاخ للايروكوا . وأهم من حلول الانجليز محل الهولنديين

فى الادارة السياسية ، أن الفتح الانجليزى للمستعمرة لم يكن فيه ما يستطيع أن يغير من حالة الركود فى تجارة الفراء الذى طال منذ حوالى سنة ١٦٦٠ . لقد نتج هذا الهبوط عن استنزاف حيوان السمور فى المناطق الشرقية من البحيرات العظمى وصعوبة خداع الفرنسيين للسيطرة على مصادر السمور الغربية .

العلاقات الفرنسية / الهندية :

بينما كان الهولنديون والانجليز يجاهدون للسيطرة على تجارة الفراء من الغرب ، كان الفرنسيون فى الشمال يصوغون علاقاتهم مع المجتمعات الهندية فى مناطق سانت لورنس وشمالى البحيرات العظمى . وكانت للهنود أهميتهم الحيوية بالنسبة للفرنسيين ، بمعنى الكلمة ، هذا الاعتماد على الأهالى الأصليين ، بالإضافة الى الاختلاف الصريح فى موقف الكنيسة الكاثوليكية قد أدى بالعلاقات الهندية ، فى القرن السابع عشر ، الى عزل المستعمرات الفرنسية بعيدا عن غيرهم من الأوروبيين فى أمريكا الشمالية . لقد بدأت الفروق بالأعداد ، حيث كان الفرنسيون قليلي العدد جدا بحيث لم يتمتعوا بأدنى أمل فى البقاء بدون صداقة الشعوب الوطنية المحيطة بهم . وفى سنة ١٦٤٠ ، وبعد أربعة عقود من النشاط الاستعماري بلغ المجموع الكلى للسكان الفرنسيين فى أمريكا الشمالية حوالى ٢٤٠ فرنسيا ، بما لا يوازي عدد سكان أية مدينة فى نيوانجلند . وحتى بعد جيل آخر ، أى سنة ١٦٦٣ ، تزايد عددهم الى ٢٥٠٠ فرنسى فقط ، أى أقل من سكان مدينة بوسطن ، أو كثير من مدن الهورون فى شمال البحيرات العظمى .

وزاد من اتكال هؤلاء الفرنسيين على جيرانهم الهنود أن نسبة كبيرة منهم كانت من الذكور ، اذا قارناهم بالمستوطنين الانجليز والهولنديين ، حيث كانت نسبتهم الجنسية بين الرجال والنساء متوازنة للغاية . أما الفرنسيون فقد اتخذوا من الهنديات ، دون تهيب منهم ، ربات للبيوت ومحظيات ، وزوجات . اذ لم يظهروا أى تخوف من اختلاط النساء ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا شعور الانجليز بالغشيان من هذه العلاقات الجنسية المختلطة . وفى نوفاسكوشيا ، حيث كان عدد النساء الفرنسيات نادرا بشكل غير عادى ، شاع هذا الزواج المختلط لدرجة أن أحد الثقات يعتقد أنه بحلول سنة ١٦٧٦ كانت كل العائلات الفرنسية بها دماء هندية فى عروقها ، فعلا . وفى المناطق الأكثر استيطاناً فى وادى سانت لورنس ، حيث قبائل الألجونكى أقل استقرارا ، وحيث أثار القساوسة الجزويت بعض الاعتراضات على الاختلاط العرقى ، شاع الزنا بدلا من الزواج

المختلط . وكان الجزويت لا يرحبون بالزواج الكنسى بين شخصين من حضارتين مختلفتين ، الا أنهم لم يستطيعوا شيئا ازاء حالات الاضطراب الجنسى العاجلة لأبناء الأبرشية ، كما كتب بارون دى لاهونتان Baron de Lahontan « انهم جميعا ، باستثناء الجزويت يتنقلون فى الليل ، من ماخور الى ماخور ليضاجعوا النساء الهمجيات » . وفى أقصى الغرب ، حيث المحطات التجارية ، « كان الزواج بين صائدى حيوان الفراء ، والنساء الهنديات هو القاعدة ، وليس الاستثناء » (٩) .

لقد أصبح الامتزاج بين الأجناس سياسة رسمية للحكومة فى الستينات من القرن السابع عشر ، عندما قام كولبرت Colbert ، المخطط والمنفذ لمشروع لويس الرابع عشر الخاص باعادة تنظيم الاستعمار ، بالمناداة بالتكامل التام ، والدمج العرقى بين الأجناس ، على قدم المساواة ، وطلب من المستوطنين الفرنسيين « أن يقوموا بتمدين الألبونكيين ... وغيرهم من الهمج ، الذين اعتنقوا المسيحية ، وأن يقنعوهم بالمجى اليهم ويوطنوهم فى المجتمع معهم ، ليعيشوا بينهم ، ويربوا أبناءهم على أساليبهم وعاداتهم » . وبالرغم من معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، شجع كولبرت ، أيضا ، الزواج المختلط ، وحث حاكم نيوفرانس أن يتعهد الامتزاج بين الحضارات « لأنه ، اذا ما صار لهم قانون واحد وحاكم واحد ، فانهم سيشكلون شعبا واحدا ودماء واحدة » (١٠) . وتلك سياسة مبتكرة لوضع الهنود تحت السيطرة الفرنسية الصارمة ، ولكنها مرسومة فى نفس الوقت ، على ألا تدمر السكان الأصليين أو تضعفهم ، بل تستوعبهم وتمتصهم . هذا وقد تأمل عالمان من فرجينيا ، بعد ذلك بنصف قرن ، وهما وليام بيرد ، وروبرت بيفرلى هذه « السياسة الحديثة » التى تبنتها فرنسا فى كندا (ولويزيانا) ، وأسفا على أن « الرقة الزائفة » الانجليزية فى سنوات تشيزابيك الأولى قد منعتهم من الزواج المختلط كما فعل الفرنسيون (١١) .

وقد أشار أحد الدارسين الكنديين الى أن التزاوج بين البيض وغير البيض عندما حدث ، كان فى الأغلب بين الفرنسيين والهنديات ، وأن النسل الناتج من هذه الاتصالات كان يتبع الأم . ومعنى ذلك أن الدماء الهندية نادرا ما تضاف الى الجينات الفرنسية . ولكن ، رغم صحة ذلك ، يهمنى أن نسجل بنفس الدرجة الآثار الاجتماعية لهذه التزيجات المختلطة الواسعة . هذا الاختلاط المستمر ، أوجد صلات ودية للغاية بين الشعبين ، أدت الى تقاهم متبادل بينهما ، بدرجة كبيرة . لقد أعطى نقص نيوفرانس فى الرجال « وفى النساء » سببين مهمين لعلاقات الود والوثام مع الأهالى الوطنيين فى منطقة سانت لورنس .

وكان جميع سكان نيو فرانس يشتغلون بتجارة الفراء أو بتبشير الهنود وتنصيرهم . وكان تعاون الهنود ضروريا في كلتا العمليتين ، ونادرا ما يمكن أن تتم أى من العمليتين بالاكراه . وهكذا كُن التجار الفرنسيون يسافرون مئات الأميال داخل مناطق الهورون النائية حول البحيرات العظمى ينشئون المحطات التجارية ويتعلمون لغة القبائل وعاداتها ، ويشاركون في عملية التبادل الحضارى . وكان التجار الهنود هم الاستثناء في المستوطنات الانجليزية والهولندية ، خاصة بعد السنوات القليلة الأولى حيث كانت الغالبية العظمى من المستوطنين مزارعين ، منهمكين في نشاط لم يكن بحاجة الى خبرة الهنود ، بعد أن أصبحت أساليبه الفنية في زراعة المحاصيل البلدية في المنطقة معروفة للأوروبيين .

أما غير التجار في نيو فرانس فكانوا من القساوسة الجزويت ، بصفة عامة . أنشأوا الأبرشيات المحلية ، وضجروا بأنفسهم في سبيل التبشير في أراضي الهنود المعادين لهم ، ومجدوا الرب بهداية الهنود الى الكاثوليكية . وكانت تجارة الفراء ، في العادة تسير جنبا الى جنب مع العمل التبشيري عن طريق مقار الارساليات التي أقيمت عند طرق الالتقاء المهمة بالنهر حيث تزدهر تجارة الفراء . وبالرغم من أن بعض الجزويت سَنَقُوا طريقهم ببطء ومشقة نحو الشمال ، حيث الشواطئ النائية من خليج سانت لورنس ، وابتعدوا غربا حتى خليج جورجيا Georgian Bay إلا أن جهودهم تركزت وسط ٣٠ ألفا من الهورون المستقرين في منطقة البحيرات العظمى ، في مدن يبلغ عدد سكان الواحدة منها عدة آلاف . لقد كان الجزويت أكثر استعدادا من البيوريتان للظن بأن اعتقاد الهنود في وجود كائن أعلى ، وبخلود الروح ، والقوى الخارقة الطبيعية يمكن تنقيحها بدرجة تكفى لقبولهم من ربهم المسيحى (كذا) ، وبينما كان البيوريتان يصرون على أن يمحو الهنود في نيوانجلند ، قيمه أولا ، ويتخلى عن أساليبه في الحياة ، ويهجر معتقداته الدينية كنقطة انطلاق لقبوله انسيحية ، درس الجزويت التركيب الايمانى لدى الهنود ، وحاولوا البناء عليه ، بدلا من هدمه واستبداله كلية . ولعل بيسان الأب راجينو Ragueneau سنة ١٦٤٧ قد صدم رجل الدين البيورتيانى بوصفه (بيانا) من عمل الشيطان ، الا أنه كشف رد الفعل الايجابى للأبجوناكى تجاه الكاثوليكية :

يجب على المرء أن يكون حريصا جدا ، قبل ان يشجب آلاف الأشياء من بين عاداتهم ، التي تضايق الى حد كبير العقول التي تربت وترعرعت في دنيا أخرى . ومن السهل ان تسمى مجرد الحماقة بأنها زندقة ، وان تحسب الشيء أنه من عمل الشيطان

وهو لا يزيد عن كونه عمل الانسان ، عندئذ يعتقد المرء أنه مضطر لتحريم أشياء معينة تتسم بالعقوق أو عدم التعوى ، مجرد أنها تمت عن جهل وبراءة ، أو هي على الأكثر ، سحيقة ولكنها ليست عادات إجرامية مؤثمة ٠٠٠٠٠ انى لا أتردد فى القول بأننا كنا قساة جدا فى هذه النقطة (١٢) .

هذه المرونة العظيمة ، والرغبة فى تقبل حضارة الأهالى الوطنيين ، بأشكالها الخاصة حتى وإن كانت النظرة اليها حقيرة ، قد أدت الى كثير من التفاعل بين الحضارات فى نيوفرانس أكثر منه فى نيوانجلند . وحيث استقر البيوريتان كان النشاط التبشيري الضئيل مركزا على أضعف القبائل ، تلك التى فقدت أو كانت تفقد استقلالها السياسى ، واكتفاءها الذاتى الحضارى . ونظرا لتعرضهم للأمراض والحروب ، التى أضعفتهم ، ولافساد أخلاقهم ومعنوياتهم نتيجة النمو المطرد للمجتمع الأوروبى ، تخلوا عن الجزء الأكبر من حضارتهم ، وحاولوا تعديل أنفسهم فى صورة الرجل الأبيض . ونظرا لمعيشتهم فى « قرى مؤمنة » قلدوا أساليب الانجليز فى الزى ، وعادات العمل وأشكال العبادة . وعلى النقيض من ذلك ، نجح الجزويت فى نيوفرانس ، وسط أشد المجتمعات الهندية قوة ، حيث بنوا فوق الحضارة الهندية القائمة فعلا ، وهم يطلبون ألا ينسلخ الوطنيون من تراثهم الحضارى ، بل أضافوا اليه .

وتتكشف الطبيعة الخاصة للعلاقات الفرنسية مع الألبجونكى من موقف الفرنسيين تجاه السيادة الهندية . ففي جميع الاتصالات الأوروبية - الهندية ، يمكن اعتبار مفهوم السيادة كنوع من الاختيار لميزان القوى بين الحضارتين . وفى العلاقة مع الهنود الذين تعتبرهم كافة الشعوب الأوروبية شعبا أدنى فى درجته كانت السيادة هى الهدف النهائى المطلوب الوصول اليه ، اذ يعنى ذلك اعترافا من الشعوب الوطنية بأنها لم تعد قوية بحيث تحافظ على استقلالها السياسى . وحيثما تستسلم السلطة ، يكن الاستعباد وراءها مباشرة ، ان لم يكن قد سبقها فعلا . ولذلك ، عندما حارب مؤسسو نيوانجلند قبائل البيكوت سنة ١٦٣٧ ، كان هدفهم استئصال القبيلة الوحيدة القوية التى رفضت قبول نفوذ البيوريتان فى هذا الاقليم أو اخضاعها للقانون والتشريع الانجليزى . ومثال ذلك ، ما فعله المستعمرون فى تشيزابيك بمجرد أن أصبحوا أقوى بشكل كاف ، حيث أجبروا الهنود على التسليم بقوتهم ، وكانت البداية بعقود جون سميث لينتزع ضرائب جديدة من قبل اتحاد البوهاتان . لكن المجلس الحاكم فى نيوفرانس ، حتى سنة ١٦٦٤ ، تناقش فيما اذا كان الهنودى الألبجونكى

الذى يغتصب زوجة مستوطن فرنسى يحاكم أمام القضاء الفرنسى ، اذ يقول أحد مؤرخى كندا الأوائل :

كانت مسألة العلاقات الفرنسية مع الهنود هنا واضحة الصورة بالكامل ، فبالنسبة للهنود الذين يرتكبون أعمالا يعتبرها القانون الفرنسى جرائم ، يقبض عليهم المسئولون عن هذا القانون . وهكذا نقول ان الفرنسيين كانوا سادة مسيطرين فعلا . فلما لم يستطيعوا ، واذا اعتبر الهنود انفسهم خاضعين فقط لقوانينهم البدائية بالنسبة للجرائم التى يرتكبونها ضد الرعايا الفرنسيين ، فالواضح انهم يكونون احرارا ، مستقلين ، غير مقيدين بحكم حقهم الشرعى بقيود المستعمرة الفرنسية ، ولا يعنى ذلك سوى ان نيوفرانس قد قسمت السلطة فى الواقع الى فرنسية ، وهندية (٣١) .

من الطبيعى ان يكون اعلان السيادة شيئا ، ووضعها موضع التنفيذ شيئا آخر . وقد ظل مجتمع المستعمرين الأوروبيين الذين يعتبرون قوتهم كافية لاعلان سيادتهم ، ظلوا يواجهون مهمة فرضها . فقد صدر فى نيوفرانس القرار ، سنة ١٦٦٤ بالتشاور مع رؤساء القبائل المجاورة فى هذا الأمر . وعند الترتيب للمؤتمر ، أشار المتحدث الهنودى الى أن العلاقات الودية كانت قائمة ومصونة لعشرات من السنين ، رغم بعض العنف والتصرفات الاجرامية الفردية على كلا الجانبين وضرورة أن يبذل كلا الطرفين جهده للسيطرة على أفرادهم ، ووافق الفرنسيون الهنود فى هذه الحالة على علم محاكمة المذنب . وبعد نصف قرن أعلن الهنود سنة ١٧١٤ أن الفرنسيين ليس لهم الحق فى سجنهم أو معاقبتهم على شرب الخمر ، طالما أنهم غير خاضعين لقوانين المستعمرة . وكان اعتقادهم أن الخمر ، وليس شاربها هى المسئولة عن اساءة التصرف . كان الرد الرسمى هو الازعان ، وذلك باعتراف الفرنسيين بأنها « مسألة ذوق واحساس بالآخرين » . ورغم موافقة الفرنسيين على ما أكدته الهنود بأنهم مستقلون شخصيا استقلالا ذاتيا ، كامل السيادة لكن أصدروا قوانين تحرم بيع المشروبات الروحية للهنود . وعندما ارتكب الهنود بعض الجرائم تحت تأثير الخمر ، حاولت المحاكم الفرنسية اكتشاف المورد المخالف ومحاكمته لخرقه القانون الفرنسى ، وتقريره قيمة التلقيات التى أحدثها الهنودى المخمور .

لم تظهر السياسة الفرنسية ، بالضرورة ، مبدأ حب الخير كثيرا ، أو فهما وتسامحا للهنودى ، أو تقبلا لحضارته ، وهى سياسة ناشئة عن ضعف أولا وقبل كل شيء ، كما كتب ايكلز Eccles : « كان الفرنسيون

عاجزين عن فرض قانونهم على الهنود ، أو اذا حاولوا ، لآى سبب آخر قوى ، أن يفرضوه بدرجة ما من العنف ، كانوا لابد أن ينفروا منهم الهنود ، الأمر الذى لم يكن الفرنسيون قادرين على فعله ، (١٤) . وبالسيطرة على وعاياهم فى بيع الكحوليات ، واستمرار اعترافهم بسلطة الالجونكيين ، تمكن الفرنسيين أن يتعايشوا بسلام مع الجماعات الوطنية بدرجة غير مسبقة فى أى مكان آخر بأمريكا الشمالية . وقد ساعد على ذلك ، بدون شك ، صغر مستوطناتهم كثيرا ، وقلة تنافسهم على الأراضى الخالية .

هذا ، وبالرغم من التميز السلمى نسبيا فى العلاقات الفرنسية - الالجونكية ، لم يستثن كل الهنود ، تماما ، من النهب والتخريب ، الذى أزعج الحضارات الوطنية الأخرى بعد مجيء الأوروبي . فالأمراض البوائية ، تم تكن قضية سياسية ، أو خاصة قومية ، وقد أصابت الهورون بدرجة مميتة سنة ١٦٤٩ ، كما حدث مع هنود ماساشوستس فى الشرق ، قبل ذلك بثلاثة عقود ، ولم يستطع الفرنسيون ، مهما كانت نواياهم طيبة أن يتفادوا الهجوم على حلفائهم الهورون ، على أيدي الايروكوا بعد أن بدأ التنافس الأوروبي على تجارة الفراء . وحينما استنفلت الامدادات من جلود السمور فى أراضى الصيد التقليدية للايروكوا ، اضطرت الشعوب الخمسة أن تقوم بدور الوسطاء بين الهورون وقبائل الأوتاوا Ottawa ، شمال بحيرتى ايرى وأونتاريو ، وبين تجار ألبانى . ولما لم يتم ذلك بالأسلوب الدبلوماسى ، كما حدث فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، قامت الحرب لهذا السبب ، وخلال سنوات قليلة ، تم القضاء الفعلى على الهورون ، والبيتون Petuns ، والايرى Eries ، الذين يعيشون حول بحيرة ايرى . بعد ذلك ، اشتعلت الحرب بصورة متقطعة عندما استغل الايروكوا جلود السمور المتبقية فى أراضيه المفتوحة حديثا ، ومهروا فى اختطاف أساطيل المراكب الموسوقة بالفراء من أراضى أوتاروا جهة الشمال حيث يتجهون بها رأسا الى الأسواق الفرنسية فى مونتريال .

العلاقات الفرنسية مع الناتشيز :

ان القول بأن الشخصية القومية الفرنسية لم تدخل فى حسابها العوامل الاقتصادية والسكانية ، ضمن علاقاتها مع المجتمعات الهندية ، يمكن شرحه بالتجربة الفرنسية مع الناتشيز ، فى اقليم المسيسيبي الأدنى فى أوائل القرن الثامن عشر . كان الناتشيز شعبا على درجة عالية من التنظيم ، والتمسك بالطقوس ، وهم سلالات أقصى الجنوب من بناء الاستحكامات القلما ، ويقتربون جدا من الحضارة الأوروبية أكثر من أية جماعة أخرى فى شمال شرق أمريكا الشمالية ، بما لديهم من نظام

الطبقات الاجتماعية ، والسلطة الدينية ، والنظام الطبقي الوراثي ، والاحتفال بمناسبة الحرب . وقد علمتهم التجربة العملية ، بعد أن دخل دي سوتو De Soto بلادهم سنة ١٥٤٢ ألا يحتكوا بالأوروبيين أبدا ، الى أن وصل روبرت لاسال Robert La Salle ، المكتشف الفرنسي الذي ادعى بحق فرنسا في ملكية وادي المسيسيبي الأدنى ، سنة ١٦٨٢ . وبعد ثلاثة عقود أخرى ، حين أنشأ الفرنسيون محطة تجارية صغيرة على المسيسيبي سنة ١٧١٣ حيث كان للناشيز في آخر الأمر اتصال بالبعثات التبشيرية الفرنسية والتجار الفرنسيين والانجليز .

وعندما بدأ الفرنسيون بناء مستوطنة دائمة في بلاد الناشيز ، في العقد الثاني من القرن الثامن عشر كجزء من خطتهم للسيطرة على داخل القارة ، وتطويق الانجليز ، أحضروا معهم الجنود والنساء والعبيد السود . لقد كانت التجارة مع الناشيز أمرا ثانويا عند الفرنسيين . وعندما احتله الخلاف في سنة ١٧١٥ ، قتل فيها الهنود أربعة من الفرنسيين ردا على سوء المعاملة التي لاقاها الهنود ، وجه الفرنسيون أسلحتهم المتفرقة اليهم دون تحفظ . وحينما اندلعت حرب ثانية سنة ١٧٢٢ أحرق الحاكم الفرنسي بيانفيل Bienville ، ثلاث قرى للناشيز ، وسواها بالأرض ، كما طالب امبراطور الناشيز تاتوت سيربنت Tattooed Serpent بأن يرسل له رأس واحد من أصغر الزعماء ، وذلك انتهاكا من بيانفيل للعادة القبلية التي تعفى رؤساء القبائل من عقوبة الاعدام .

لم تؤد هذه السياسة الصارمة ، الا الى المزيد من العداوات . ففي سنة ١٧٢٩ ، عندما طالب الفرنسيون بالتخلي عن بعض الأراضي دون تعويض ، وشملت موقع إحدى قرى الناشيز المهمة ، رد الناشيز على ذلك بالتخطيط لهجوم يقضى على مضايقاتهم . وليس أوضح في ذلك الوقت من أن الفرنسيين لم يجهدوا فائدة في الناشيز لتحقيق أغراضهم في المسيسيبي الأدنى ، ولم يشعروا بوخز الضمير لمحاولتهم ازالته . وبالرغم من نجاح الناشيز في هزيمة الفرنسيين في حصن روزالي سنة ١٧٢٩ ، وقتلوا مئات عديدة منهم ، وأسروا كثيرا من النساء والأطفال والعبيد من السود والهنود ، كانت هزيمة الفرنسيين هزيمة مؤقتة ، حيث وصلت التعزيزات سنة ١٧٣٠ ، وبمساعدة من حلفائهم الشوكتاو ، أمطروا معاقل الناشيز بعاصفة من نيران مدافعهم ، فقتل أكثر من ألف ، وأحرق منهم مئات من الأسرى بعد شلهم الى الخوازيق ، وبيع نحو ٤٠٠ في سوق النخاسة في سانتو دومينجو ، وحاول من بقوا أحياء من الناشيز اللجوء في جماعات مبعثرة الى القبائل الجنوبية الشرقية . وبنهاية العام ، لم يعد لقبيلة الناشيز بقاء مستقل ، وهي التي بلغت ذات مرة الخمسة

آلاف تقريبا . ولما لم يجد الفرنسيون طريقا لاستخدام الهنود لصالحهم الخاص ، اتجهوا الى القضية بالكامل على هذا الشعب القديم من عبدة الشمس ، بدرجة لابد أن أثارت حسد الانجليز في نيوانجلند ، والهولنديين في نيواستردام ، والأسبان في المكسيك .

جهود الاستعمار في كارولينا الجنوبية :

بينما كان الايروكوا ، والانجليز ، والهولنديون الفرنسيون يكافحون للسيطرة على تجارة الفراء في الشمال ، كان غيرهم من الانجليز يبذلون جهودا استعمارية على بعد آلاف ميل الى الجنوب في المنطقة التي سميت فيما بعد بكارولينا الجنوبية . وأصبحت هذه المنطقة الخصبة الشاسعة ، مؤخرا ، مركز نظام عبيد المزارع في أمريكا الشمالية ، مع أنها لم تكن في أعين الانجليز في الستينيات من القرن السابع عشر، عند بدء الاستيطان سوى أرض حدود قفر . ولكنها كانت أرضا تفاعل فيها أناس أوروبيون آخرون وهم الأسبان مع المجتمعات الوطنية لأكثر من قرن ونصف القرن . وكان الرواد المستكشفون ، والمغامرون الأسبان هم المترددين على المنطقة ، وأكثر الأسماء المألوفة بينهم اسم بونتي دي ليون Ponce de Leon ، وقد رسموا خرائط للأطلنطي الجنوبي ، وسواحل الخليج منذ أواخر القرن الخامس عشر ، ويجرون اتصالات متقطعة مع أهالي المنطقة . وبحلول سنة ١٥٢٠ ، لابد وأن كانت قبائل السهل الساحل على وعي تام بالأخطار المصاحبة للاتصال بالأوروبيين ، حيث عمل في هذه السنة ، لوكاس باسكويث دي أيلون Lucas Vasquez de Ayllon الضابط الاستعماري الأسباني وعضو المجلس الملكي لأمريكا اللاتينية ، على اغراء نحو خمسين هنديا وحملهم على سفينة وانطلق بهم مسرعا الى سوق العبيد في جزر الهند الغربية . وقد علق الكاتب المعاصر لهم بيتر مارتر Peter Martyr قائلا : « بمثل هذه الوسائل ، بذروا الكراهية ، والصراع في هذه المنطقة الآمنة ، الودودة ، بفصلهم الأطفال عن آبائهم ، والزوجات عن أزواجهن » (١٥) .

وطوال النصف الثاني من القرن ، أقام الأسبان مستوطنات صغيرة على ساحل القارة الجنوبي الشرقي ، وارتبطوا بتجارة بسيطة مع هنود المنطقة ، وبنوا أبرشيات مزودة بالآباء الفرنسيين ، وطردها الفرنسيين بأحكام قضائية سنة ١٥٦٥ بعد أن تجرعوا ، وبنوا مستوطنة في الضاحية القرية من بورت روبال . وقد جرت عدة محاولات لوضع منطقة الخليج بكاملها تحت السيطرة الاسبانية . وفيما بين عامي ١٥٣٥ ، ١٥٤٢ قاد هرناندز دي سوتو Hernandez de Soto حملة في عمق أراضي قبائل الكريك ، على بعد عدة مئات من الأميال من الساحل . وفي سنة ١٥٥٩ انتقل

الاسبان شمالا من المكسيك في محاولة مرسومة ، ليوطنوا سلطتهم في منطقة الخليج الجنوبية . وكان الاسبان يستعبدون الهنود ، أينما ذهبوا ، ويستخيمونهم في حمل المؤن والامدادات . وبين الحين والحين ، كما حدث سنة ١٥٩٧ ، كانت القبائل الساحلية المختلفة تخطط لازالة البعثات الاسبانية والمراكز التجارية من ساحل الأطلنطي وطرد الاسبان ثانية نحو فلوريدا . الا أن الفرنسيين حافظوا على العودة ، كما لو كان الله قد وعدهم بأن يضع كل هنود المنطقة في مدى صوت جرس الأبرشية . وعندما وصل أول المستوطنين الانجليز الى مصب نهر آشلي Ashley في أبريل ١٦٧٠ ، وجدوا أنفسهم على بعد خمسين ميلا فقط من الأبرشية الاسبانية بأقصى شمال الشرق ، جنوب نهر سافانا مباشرة .

وبالنسبة للقبائل المتناثرة وغير المتحدة سياسيا ، في منطقة كاليفورنيا أمثال الجوالي Guals ، والياماسي ، والأبلانش ، والتوسكيجي Tuskeges ، والهيتشيتي Hitchitis ، والويستو Westos ، والكريك ، والكوسابو Cusabos ، وكثيرين غيرهم ، فقد أمدتهم مجيء الانجليز بالفرص ، وعرضهم للأخطار حسب وضعهم السابق . فبالنسبة لهنود فلوريدا الشمالية الذين جرى تبشيرهم ، من المحتمل أنهم رأوا في الانجليز تهديدا لهم ، حيث تعرضوا لهجماتهم وانقضاض القبائل الأخرى التي تسير في فلورهم . أما هنود المنطقة الساحلية مصب نهر آشلي ، الذي كان موقع المركز الاستعماري الانجليزي لشارلستون ، فلعلهم اعتبروا الانجليز منقذين ، لأن هذه القبائل كانت واقعة ، سنين عديدة ، تحت وطأة الهجمات الشديدة من جيرانهم في الغرب ، لذلك صرح أحد المستعمرين الانجليز الأوائل ، في خطاب له الى لندن بقوله : « انهم محبسون بيننا ، لأنهم لن يتجهوا جنوبا خوفا من الياماسي ، آكلة الاسبان ، كما يسميهم الهنود ، كما أن الويستو من ورائهم ، أعداؤهم الألبان ، الذين يقولون عنهم انهم آكلة البشر ، فهم يخافونهم كخوف الأطفال في انجلترا من الثور الهائج ، ولن يذهبوا شمالا لأنهم يقولون عنهم هناك انهم مرضى ضعاف ، ولذلك يعتبرون أنفسهم في أمان عندما يكونون بيننا » (١٦) . وبالنسبة للكريك ، الى الغرب من الويستو ، فلعلهم رأوا أن الانجليز يمكن أن يحلوا مشاكلهم مع جيرانهم الأعداء ، لأنهم اذا ضمنوا التحالف مع الانجليز ، فلا بد أن يهيمنوا على داخل كارولينا ، بلا منازع .

وهكذا ، وصل الانجليز الى كاليفورنيا في وقت ساعد فيه الصراع انقبلي المهلك ، المستوطنين على تشكيل تحالف عاجل مع القبائل الساحلية يرقى الى درجة معاهدة الأمن المشترك . وقبل مجيء الانجليز ، كان للويستو المضياء في الحرب بين الهنود وبعضها البعض ، لأنهم استطاعوا

اقامة صلة تجارية مع التجار الهنود في فرجينيا الذين أمدهم بالسلاح ، ولكنهم أصبح عليهم الآن استعمال الأسلحة الانجليزية ضد الانجليز الوافدين ، الذين تحالفوا مع أعدائهم ، والذين اطمأنوا الى الصداقة الوطيدة مع قبائل الساحل المحلية ، بعد أشهر من وصولهم . ولم يطل الوقت بعد ذلك ، حتى كان الكريك وهم على بعد أميال عديدة جهة الغرب ، يعيشون برسولهم الى الساحل ، يعلنون عن صداقتهم ، ويقترحون عقد حلف عسكري .

وبالنسبة لسكان المستعمرات الانجليز ، الأوائل وقد جاءوا من باربادوس ، جزيرة السكر الانجليزية ، فكانوا يتوقعون استخدام العبيد الأفسارقة للعمل الشاق في مزارع القصب ، تماما كما فعلوا في جزر الكاريبي . الا أن الاسراع الى طريق الثروة ، قد أغراهم الى حد بعيد ، بمجرد وصولهم . وكان من الواضح أن الجزء الجنوبي الشرقي من القارة أكثر كثافة في السكان من الشمال الشرقي . فاذا أمكن جر القبائل الكبرى مثل الشيروكي ، والكريك ، والشوكتاو الى التجارة ، يمكن تحقيق ثروة واسعة من هذا الاتصال بالشعوب الوطنية . وكان الأسباب مقلين في استغلال هذه الامكانية ، حيث كان هدفهم الأساسي تثبيت ادعائهم في ملكية الأرض وحمايتها ، باقامة بعثات تبشيرية تجمع الهنود المحليين ، في حياة زراعية ثابتة ، مستقرة .

لقد أدرك هنري وودوارد H. Woodward أحد الانجليز الأوائل في كارولينا ، بثاقب بصره ، الامكانيات التجارية المحتملة في المنطقة ، حيث جاء إليها في بعثة كشفية سنة ١٦٦٦ ، وبقي سنتين مع قبيلة الكوسابو الساجلية بعد رحيل بقية البعثة ، وأصبح أول انجليزى يتغلغل في داخل كارولينا ، التي كانت على حد تقريره « بلادا بهيجة ، فاتنة ، ذات ثمر ، ولسو كانت مزروعة لكائنات جنة ثانية ، بلا شك » (١٧) . كما أدرك وودوارد ، وغيره من القادة أن الفرجينيين قد افتتحوا لهم تجارة رائجة فعلا مع الكتاوبا والويستو ، ناحية غرب وشمال غرب كارولينا في بورت رويال .

لم يكن السمور هو الشيء المغري في التجارة الهندية بكارولينا ، لأن هذا الحيوان الثمين الذي أثرى الكثير جدا من التجار مع الشمال ، كان يتوافر بأعداد صغيرة فقط في مناخ كارولينا الدافئ . وبدلا منه ، كان جلد الغزال واسع التسويق في قارة أوروبا ، ويتوافر في كارولينا في وفرة ، اذ يقول أحد قادة كارولينا سنة ١٦٨٢ : « كانت قطعان الغزلان لا نهاية لها ، حتى لبيدوا الاقليم كله وكأنه حديقة عامة متصلة للحيوانات » (١٨) . وقد صدرت كارولينا ، فيما بين عامي ١٦٩٩/١٧١٥

حوالى ٥٤٠٠ قطعة من جلد الغزال فى المتوسط كل عام . ومنذ ذلك الحين ، ازدادت التجارة حتى وصلت فى بعض السنين الى أكثر من ١٥٠ ألف قطعة من جلد الغزال .

التجارة فى العبيد الهنود :

ما لبثت تجارة جلد الغزال ، أن تحولت ، فى العقدين الأولين ، بسرعة الى تجارة فى العبيد الهنود . ولم يكن هناك ما يدل على توقع مستوطنى كارولينا الأوائل حدوث ذلك . وقد سبب النمو السريع فى تجارة العبيد الهنود ، فى الواقع ، صدمة وذعرا فى لندن . وقد كان استرقاق الأفارقة فى ذلك الحين جزءا مألوفاً فى استعمار العالم الجديد ، كما كان الهنود يسترقون فى مستعمرات أخرى عند هزيمتهم فى الحرب . إلا أن تجارة العبيد الهنود ، عن طريق الاغارة عليهم واختطافهم ، لم تكن معروفة فى أى مكان من المستعمرات الانجليزية بأمريكا الشمالية . ومع ذلك ، أصبحت هى حجر الزاوية لدى تجار شارلستون منذ السنين الأولى للاستيطان ، وحتى العقود الثلاثة التالية . ولقد كان الكارولينيون الأوائل متمرسين على استخدام العمال الأرقاء فى باربادوس ، حيث كان الرق منظما وشرعيا ، منذ وقت مبكر أكثر منه فى مستعمرات القارة ، مما يساعد على تفسير عدم اعتراضهم على قبول استرقاق الهنود .

لقد تشابهت تجارة العبيد الأفارقة مع التجارة فى الرقيق الهندى ، من نواح كثيرة . فساكن كارولينا أنفسهم ، لم يتوغلوا فى الداخل ، وإنما كونوا أحلافا مع الجماعات الوطنية الساحلية ، وزودتهم بالسلاح . وكافتوهم بسخاء بالبضائع الأوروبية ، وشجعوهم على محاربة الجماعات الهندية الأضعف منهم والتي كانت تعدادهم من قبل . وفى السبعينات من القرن السابع عشر اخترقت قوافل العبيد الأراضى الخلفية من كارولينا الى الساحل ، مثلما كانوا يسرون تساما فى طوابير طويلة عبر المناطق الداخلية من أفريقية الى القلاع التجارية على ساحل غرب أفريقية ، وما أن يصلوا الى شارلستون حتى يشحنوا على السفن ليكملوا ترحيلهم الى مستعمرات أخرى ، كما كان الأفارقة يعبرون الأطلنطى أثناء ترحيلهم وإعادة توطينهم الاجبارى . وكان غالبية العبيد الهنود ، ينقلون الى جزر الهند الغربية ، بالرغم من أن عددا ضئيلا منهم بقى فى كارولينا ، وشحن مئات منهم فى سفن تجاه الشمال ، الى مستعمرتى نيويورك ونيوجلند ، كما يتضح ذلك لمن يقرأ الصحف الاستعمارية فى المدن الشمالية التى كانت تملن باستمرار عن هروب العبيد الهنود . وكان سكان المستوطنات من البيض فى كارولينا ، سنة ١٧٠٨ حوالى ٥٣٠٠ أبيض ، ٢٩٠٠ عبد

افريقي ، ، ١٤٠٠ عبد هندي - منهم حوالي ٥٠٠ هندي ، ٦٠٠ هندية ، ٣٠٠ طفل . وعلى كل حال ، كان الرجال من العبيد الهنود في ذلك الحين ، يتم ابعادهم عن المستعمرة ، حيث كان يصعب منحهم من الهروب ، وفرضوا مسألة العصيان المسلح ، كما حدث سنة ١٧٠٠ ، عندما أجهضت ثورة للعبيد الهنود في كارولينا الجنوبية . ومع ذلك ، فإن عددا ضخما من النساء والأطفال قد أجبروا على حياة الرق ، وتمرسوا عليها كارهين في مستوطنات البيض .

وأصبح من الشائع أن ترى العبيد الهنود الحرفيين وختم المنازل في تشارلستون كما كان الحال في مدن المستعمرات الشمالية ، منذ سنوات عديدة ، مثال ذلك ، أن مستوطنة كنتجهستون الصغيرة في رود أيلاند ، قد ضمت ٩٣٥ فردا أبيض سنة ١٧٣٠ ، ٢٢٣ عبدا هنديا ، ٣٣٣ عبدا زنجيا (٢٠) ، وفي سنة ١٧١٥ كانت ضراوة هؤلاء الرجال الهنود المأسورين في بلادهم قد ازدادت ، بحيث اضطرت ثلاث مستعمرات في نيوانجلند الى إصدار قوانين تمنع استيراد المزيد منهم من كارولينا الجنوبية . وتحدث ديباجة القوانين الثلاثة عن السلوك « الخبيث القبيح » ، الحقوق لهؤلاء الهنود الجنوبيين ، وهورت حظر التجاوة فيهم ، ليس على أسس انسانية بل بسبب « مؤامرات المتهورين ، والعصيان المسلح ، والاغتصاب ، والسرقات وغير ذلك من الجرائم المروعة » (التي) ارتكبت مؤخرا في هذه المستعمرات ، وفيما جاورها على يد العبيد الهنود ، (٢١) . ومع ذلك ، استمر استرقاق الهنود أمرا شائعا في حياة المستعمر ، كما كشفت عن ذلك رغبات العبيات العليا والوسطى حتى قيام الثورة .

الأساليب والتأورات السياسية :

ارتبط نمو التجارة الهندية في الجلود والعبيد ، ارتباطا وثيقا بالخاصية المميزة للسياسة الأولى في كارولينا . وقد تأسست كارولينا الجنوبية في فترة بناء المستعمرات بعد عودة الملكية في إنجلترا ، باقامة المستعمرات عقب فترة طويلة من الحرب الأهلية الانجليزية . وقد أملت الاعتبارات الاستراتيجية على إنجلترا أن تعزز ادعائها بملكية ساحل أمريكا الشمالية بازاحة الهولنديين من منطقة الأطلنطي الوسطى ، وتقوية دعاواها ضد الأسبان باقامة مستعمرات بجنوب تشيزاويك . وبعودة تشارلز الثاني الى العرش سنة ١٦٦٠ ، واضعا ذلك في اعتباره ، أصدر التراخيص لسلسلة من المستعمرات في منطقة وسط الأطلنطي - في نيويورك ، ونيوجرسي ، وبنسلفانيا ، وديلاوير - والمستعمرة كارولينا في ساحل الأطلنطي الجنوبي . وفي كل حالة ، كانت هذه التراخيص التي

تغطي سند الملكية لمساكن واسعة ، تصدر لمجاسيد الملك ودائنيه . وهكذا لم يكن بناء مستعمرة في فترة عودة الملكية بدعم فقط الادعاءات الانجليزية ضد الاسبان والهولنديين ، بل يكافئ أيضا المخلصين الذين وقفوا بجانب تشارلز الثاني في المنفى ، أثناء النظام الجمهوري ، لأوليفر كرومويل Oliver Cromwell في الخمسينات من القرن السابع عشر . وكان أشد المؤيدين للملك في كارولينا الذين نالوا المنح منه ، أمثال دوق ألبمارل Duke of Albemarle ، الذي كان قائدا في الجيش الملكي ، وايرل كلارنيدون Earl of Craven الوزير الأول للملك ، وايرل كرافن Earl of Clarendon أحد الملكيين البارزين أثناء الحرب الأهلية في إنجلترا ، وسير وليام بيركلي حاكم فرجينيا ، وسير جون كوللتون J. Colleton أحد أصحاب مزارع باربادوس ومدعم الملكية في سنوات انهيارها . كل أولئك كانت لهم حقوق على الملك ، وكانت لهم قوة سياسية متسلطة ، لو أبقاهم بجانبه بعد استعادته العرش ، ووجد الجميع الفرصة مناسبة لبسط قوتهم و ثروتهم بإنشاء المستعمرات أو الإقامة فيها بأمرينا .

وعندما منح تشارلز الثاني صك الملكية لهؤلاء الرجال ، سنة ١٦٦٣ ، بدءوا في الحال ، في ابتكار اطار عام للحكومة ، واعتقدوا أنه يمكن أن يجنبهم علم الاستقرار الذي اكتنف المحاولات الاستعمارية الأولى للانجليز . وفي نفس الوقت ، أغرى عددا كبيرا من المستوطنين بالمجيء الى كارولينا ، فبوصفهم ملاكا ، تكون لهم حقوق الملك الاقطاعيين ، تقريبا . فكل أرض تقع في حدود امتيازهم يجب شراؤها منهم ، وهم أحرار في فرض رسم سنوي على كل فدان يبيعونه ، يعرف «بأجر النروج» (*) ، ولهم كذلك ، صلاحيات ادارية وتشريعية وتنفيذية واسعة . لقد كان نفوذهم ، في الواقع ، أعظم ، نوعا ما ، من سلطات الملك نفسه في إنجلترا .

وقع التخطيط الأساسي لعمل مستوطني كارولينا ، على أنتوني أشلي كوبر Anthony Ashley Cooper ، الخبير في شئون المستعمرات ، الذي خدم في المجلس الحكومي لمزارع المستعمرات التابع لكرومويل ، بينما كان محافظا ، في نفس الوقت على صلاته الحميمة مع الملك المنفي . وفي سنة ١٦٦٩ ، وضع أشلي مشروع دستور لكارولينا ، بمساعدة صديقه ومحبيه (**) جون لوك J. Locke ، الذي كان المدرس الخصوصي لأطفاله ، وسكرتير مجلس التجارة والمزارع . ولم يكن لكل من أشلي

(*) تشبه تماما هذه الأيام في مصر «خلو الرجل» - (المترجم)

(**) المحمي : شخص تحت حماية أو رعاية ذي للسلطان - (المترجم)

ولوك أى اهتمام بمشروعات يوتوبيا العالم الجديد ، التى سيطرت على عقول البيوريتان .

كان ما ابتكره آشلى ولوك ، تركيبة عجيبة مما هو حديث ومما هو اقطاعى . فاجتذبا للمستثمرين ، لم تكن تمنح الأرض بأسعار مرتفعة ، بل دون مقابل ، وكانت ، فى بادئ الأمر ، تمنح مساحة ٨٠ فداناً لكل بالغ يود الهجرة ، ثم ازدادت بعد ذلك الى ١٥٠ فداناً . كان هذا الشكل من نظام الأرض ، السخى ، المتسامح ، يشبه نظام الاقطاع . اذ منحت القوانين الأساسية لكارولينا ملاك كارولينا الثمانية ونوابهم وعدداً محدوداً من أشباه النبلاء احتكار السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية فى المستعمرة . ويتولون زمام السلطة بلا منازع ، من خلال نظام محكم من اللجان والمجالس والمحاكم التى ترتبط جميعها بحكمة ونفوذ الملاك الثمانية فى لندن .

ان واقع الاستيطان فى كارولينا ، لم يحمل الا القليل مما يتفق مع ما خطط له مؤسسوها ، لأن الملاك الثمانية البعيدين فى لندن ، لم ينظر اليهم أحد ممن أتوا الى المستعمرة ، بجدية ، وخاصة من المزارعين المشاركين ، الذين تدفقوا من مزارع باربادوس وفرجينيا ، حيث جعلت الأحوال الاقتصادية الكاسدة القيام ببداية جديدة فى قفار كارولينا أمراً جذاباً ، فحضروا لامتلاك ١٥٠ فداناً مجاناً ، وسرعان ما ادعوا ملكية أجود الأراضى أينما وجدوها ، دون احترام للخطط المحكمة ، المدروسة التى تصورها الملاك لاقامة مستوطنة نموذجية ، متضامة المساكن ، بصورة متعامدة ، فاحتلوا بذلك ، أولاً ، الأراضى التى على امتداد الأنهار وطرق المواصلات الرئيسية لنقل محاصيلهم الى الأسواق .

وكما فعلوا فى موضوع الأرض ، ساروا على هواهم فى أمور الحكم . فقد عين الملاك اللندنيون حاكماً يتولى زمام الأمر ، الا أنه سريعاً ما اكتشف أنه عاجز عن أداء أى شئ ، ما لم يتعاون معه المزارعون المحليون . فهؤلاء الاجلاف الميالون للتحرر من كل قيد ، وقد تعهدوا بتحمل مشقات العمل فى المنخفضات المليئة بالمستنقعات فى شرق كارولينا ، لم يكونوا صالحين للعمل فى ظل النظام الصارم لامتلاك الأرض ، والاقامة بها ، وتحمل نظام هيئة السلطة التى تصدر قراراتها على بعد ٣٠٠٠ ميل .

ولما رأى هؤلاء المزارعون الملاك اللندنيين ، يتسمون بالارستقراطية ، ويحبون مصالحهم الشخصية ، دون مراعاة الآخرين ، ولا يعرفون شيئاً عن ضراوة الحياة ومشكلاتها فى المناطق التى لم يسبق ارتيادها ، بدءوا فى تكييف نظمهم ومؤسساتهم الخاصة بالحكم لديهم .

العلاقات بين مستوطني كارولينا والهنود :

أصبح تأسيس تجارة هندية في جلود الحيوان غير المذبذبة ، وفي العبيد ، هو القضية التي تلاقت عندها خطط الملاك ، ورغبات الأفراد المزارعين في العقود الأولى للاستيطان ، فأرسل الملاك تعليمات صارمة بالارتباط المستوطنون بالتجارة مع الهنود ، وعينوا وكلاء عنهم بقيادة هنري وودوارد للإشراف على احتكار التجارة وعقد الصفقات مع المواطنين ، كما أدانوا التجارة في العبيد الهنود بحجة أنها لابد وأن تفرق المستعمرة في سلسلة من الحروب الهندية التي لا نهاية لها ، مما يقضي على سعة كارولينا كمكان آمن للمستوطنين المتطلعين إلى المستقبل .

كانت هذه السياسة الحذرة مع الهنود غير مقبولة من المستوطنين الأوائل ، ذوى الطموح الشديد ، والقلوب التي لا تعرف الرحمة . فهم يدركون أن الزراعة تأتي في المرتبة الثانية ، والأهمية القليلة بمد التجارة الهندية ، كوسيلة لتكوين ثروة سريعة في كارولينا ، ولم يجدوا مبررا يسمح للملاك باحتكار التجارة ، خاصة وأنهم ليس لديهم ما ينفذون به سياستهم بالقوة . لذلك اتخذت خطوات لاعاقبة السياسة الهندية للملاك الذين أقاموا في مستهل الاستيطان نوعا من المشاركة التجارية مع قبيلة الويستو المقيمة على بعد خمسين ميلا من الساحل ، والمعروفة بروحها العدوانية وسابق مهاجمتها للقبائل الساحلية ، لسنوات عديدة ، يساعدها في ذلك التفوق التقني الذي اكتسبوه من تجارة السلاح مع فرجينيا . وباستخدام هنري وودوارد تمكن الملاك من جر الويستو إلى اتفاق تجاري وجعلهم حجر الزاوية لسياستهم الهندية في سنواتهم الأولى . فلا يستطيع الويستو أن يمدوهم بجلود الحيوانات الخام فقط ، بل ويمثلون حاجزا بين مستوطنات كارولينا ، وشبكة البعثات التجارية الأسبانية في الجنوب .

وفي محاولة المزارعين المستقلين في تصرفاتهم لاحتباط احتكار الملاك للتجارة ، تأكدوا من أنه لا خيار لهم إلا بإبعاد الويستو عن الملاك أو بالقضاء عليهم . وتجاهلا من بعض التجار في البداية لاحتكار الملاك للتجارة ، والأوامر بعدم المتاجرة في العبيد الهنود ، قاموا بالتحريض على بعض الحوادث مع القبائل المحلية خاصة الكوسو Kusso ، ثم بعثوا بحملات تأديبية للعودة بالأسرى الهنود لبيعهم في سوق النخاسة . ومع أن الملاك اعترضوا بشدة على أن المستوطنين حرضوا على مجازبة القبائل المحلية كي يستعبدوها ، لم يستطيعوا عمل شيء ليقاف هذا النشاط . وفي سنة ١٦٧٧ ، واعترافا منهم بالواقع ، سمح الملاك لتجار تشارلستون بالتعامل مع القبائل الهندية بالمنطقة ، ولكنهم عاندوا يصرون على حقهم في احتكار

أغلب التجارة الداخلية المربحة مع الويستو والكريك . فكان رد الفعل المحلي هو الاحتشال لشن حرب ضد الويستو أنفسهم . ولم يكن لدى مزارعي كارولينا الرغبة في المخاطرة بحياتهم ضد الويستو . وكانت تنقصهم ، في الحقيقة ، القوة الكافية لهزيمة هذه القبيلة القوية ، ولكنهم وجدوا حل مشكلتهم في تسليح مجموعة من الشاوني تسللت عبر جبال الأبلاتش ، وقسموا لهم الهدايا بسخاء ليهزموا الويستو المرتبطين بالملك ويستروهم . وبدأت الحرب المتعاقدة عليها من الباطن ضد الويستو سنة ١٦٨٠ ، وبعد ذلك بسنوات ثلاث اكتشف ملك كارولينا في لندن أن ما لا يزيد عن خمسين فقط من حلفائهم وشركائهم الأوائل في التجارة ، ما يزالون أحياء في كارولينا . أما الباقيون فقد قتلوا أو بيعوا عبيدا . وهكذا قضى على احتكار الملك للتجارة الهندية بالقضاء على الويستو ، حيث كتب أحد المؤرخين لسياسة الملكية الأولى قائلا : « كان فشلهم التام في القضاء على التجارة غير المشروعة في الهنود الأرقاء ، والذي حركته حرب الويستو بقوة ، دليلا على ضعف سلطانهم » (٢٢) .

وطوال عشرات السنين القليلة التالية ، قام التجار المنزلون ، الذين قبضوا على زمام السلطة في حكومة المقاطعة ، بتسليح الشاولي أو السافانا بعد أن أصبحوا مشهورين « بانغماسهم الشديد في تجارة العبيد » (٢٣) . بل إن الحاكم وأعضاء مجلسه وهم الأدوات الاسمية لتنفيذ سياسة الملك قد انغمسوا بأنفسهم في عملية بيع وشراء العبيد المربحة ، والتي قام بها حلفاؤها السافانا في سلسلة من الغارات على القبائل الداخلية ، والتي تعمقوا فيها مع ازدياد الطلب المستمر على العبيد ، حتى وصلوا أيضا إلى سواحل فلوريدا الأسبانية . وقد بلغت هذه المغامرات التجارية ذروتها في العقد الأول من القرن الثامن عشر . ففي سنة ١٧٠٤ ، قاد توماس مور Thomas Moore أحد الكارولينيين المشتغلين بالتجارة الهندية ، حوالي ١٠٠٠ محارب من الكريك ، وخمسين من أبناء بلده إلى منطقة الأبلاتش ، وفي السنوات الست التالية ، تركت غارات أخرى شبكة الرسائل الأسبانية التي بدأت سنة ١٥٧٣ خرابا يبابا . ووقع في شبكة الرق الانجليزية ما بين ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ من التيموكا Timucas ، والجوالي ، والأبلاتشي Apalachees ، وسبقوا إلى تشارلستون ، وبيعوا للنخاسين ، ونقلوا بالسفن إلى كافة أنحاء امبراطورية إنجلترا الاستعمارية النامية .

كان الملاك اللبندنيون عاجزين عن إيقاف هذه الانحرافات في سياستهم الهندية ، وعندما شجبت تجارتهم العبيد الهنود بوصفها تجارة لا أخلاقية ، كلها تهور وطيش ، رد عليهم سكان المستعمرات بأن الأمن العام يحتاج إزالة بعض القبائل القليلة في عدد أفرادها ، ويؤكدون بالحجج أن نقلهم

بعيها عن المستعمرات أو استخدامهم عبيدا يحفظهم من « القتل الوحشي » ،
على يد السافانا . إلا أن الملاك لم يخدمهم هذا المنطق الملتوي ، فقد أدركوا
تماما ، كما أخبروا الحكومة المحلية بذلك ، أن المستعمرين سيستغلون
السافانا :

فاشتهأؤهم لبارودكم ، ورمصاص بنادقكم والبضائع الأوروبية
..... ليقتصبوا الزوجة من زوجها ، ويقتلوا الأب ، ويستحيوا
الطفل ثم يدمروا ويحرقوا مساكن هؤلاء المساكين ، الذين
وحيوا بنا في بلدكم ، وعززونا . واشبعوا رغباتنا حين كنا
ضعافا ، أو على الأقل لم يمسوننا بضر أبدا ، ثم بعد أن
هاجمناهم ، وطاردناهم ، نرتكب كل هذه الفعال البشعة ،
الكريهة لنحصل على العبيد ، ونبيعهم لتجار الرقيق الهندي
[٩] نسمى شراءهم انسانية ، وحفظا لهم من القتل (٢٤) .

أخذ تجار كارولينا ، بعد حرب الويستو ، بعدة عقود ، يمارسون
تجارة العبيد مع حلفائهم السافانا ، ويقيمون في نفس الوقت تجارة رابحة
في جلد الغزال مع الكريك في الداخل . وكانت الشكوى المطردة بأن
التجارة الهندية مليئة بالمفاسد والمعاملة السيئة ، وأن غش الهنود وخداعهم
لا بد أن يثير في النهاية سخط القبائل المتاجرة ويحرضها على الحرب .
ولكن نظام التجارة ، رغم مناقشته في البرلمان والصحف ، عدة سنوات
قد « وقع بشكل ميثوس منه في النزاع الحزبي المرير بين سياسة
كارولينا ، ومجموعة الملاك ومعارضيه المتنافسين للسيطرة على
التجارة (٢٥) . وكما كان متوقعا ، أدى استغلال التجارة والاعتداء
التدريجي على حرمة أرض الهنود في النهاية ، الى أن يستنتجوا أن حلفهم
مع الكارولينيين كان انتحارا بكل ما يتضمنه من تورط . وادراكا منهم
بأن فرصتهم ضئيلة للحصول على معاملة طيبة ، وأن محاربة هؤلاء
المستغلين لهم ستكلفهم الكثير ، لذلك قرر أغلب السافانا الهجرة شمالا
الى الريف الداخلي لميريلاند وبنسلفانيا . وقسم الكارولينيون المنح السخية
لقبيلة الكتاوبا الهندية وعددها نحو ٤٥٠ فردا لمهاجمة السافانا ،
واستئصالهم . وقد شارك الكتاوبا عدد قليلا من سكان كارولينا بقيادة
ابن حاكم سابق في الهجوم على السافانا مرتين سنتي ١٧٠٧ ، ١٧٠٨ .
ويبرر الحاكم جون أرشداال J. Archdale هذه السياسة ، كتابة فيقول :
« يبدو أن اضعاف الأهالي الهنود الوطنيين كان ضروريا » . واعترف بأن
القبيلتين الرئيسيتين في المنطقة الساحلية ، وهم الويستو والسافانا ،
قد انقرضتا فعلا ، بنهاية العقد الأول من القرن الثامن عشر (٢٦) .

لقد كان لوصول الانجليز الى منطقة كارولينا آثار مدمرة بالنسبة
للقبائل الهندية بها . فمن قبل ، كانت القبائل الساحلية مندمجة في

نظام التجارة الإسباني الذي لم يضرهم ، ولو أنه أخضعهم لهم ، وغير من أصاليب حياتهم . وتعرضت مستعمرة كارولينا الجنوبية ، من ناحية أخرى لآثار مفاجئة لأنها أدخلت تجارة الملابس والأسلحة ، وغيرها من السلع الأوروبية ، التي أدت إلى زيادة كبيرة في العداء بين الهنود ، وأغرت القبيلة منهم بأختها ، وأنقصت أعداد السكان كثيرا ، بل إن أقوى القبائل التي تحالف معها الانجليز بالمنطقة ، تجاريا ، اكتشفت أنه بعد أن استعملت البنادق الانجليزية في استرقاق القبائل الأصغر منها ، والأضعف جاء عليها الدور في برنامج الإبادة .

فرغم نتائج التجارة المهلكة مع الانجليز ، كانت رغبة الهنود في السلع قوية جدا لدرجة لا يمكن معها شيء أيا كان ، أن يمنع قبائل جديدة من الوقوع في هذه الأحلاف التجارية ، بينما يجرى تدميرها لقبائل أخرى . فقد تخلى الكريك ، وهم أقوى القبائل الداخلية وأكبرها عددا ، عن قراهم القديمة على نهر تشاتاهوتشي - Chattahoochee في أواخر القرن السابع عشر ، ونزحوا شرقا إلى ألتاماها - Altamaha ، ليكونوا قريبين جدا من الانجليز ، حتى أن وباء الجدري المخيف الذي انتشر بين القرى الهندية الداخلية سنة ١٦٩٧ ، لم يقنعهم بأن من الأفضل لهم قطع الصلة الأوروبية وازدراءها ، وتحركت كميات ضخمة من جلد الغزال الخام ، محمولة على ظهور الحمالين الوطنيين ، شرقا على طول القوافل الهندية التي تبدأ من أكثر من خمسمائة ميل في الداخل حتى مركز السافانا التجاري على الساحل . كما خدم الكريك الانجليز بأسلحتهم الانجليزية ، بشن الحرب على الأسبان والقبائل الحليفة لها ، وعلى الشوكتاو في إقليم ألياما والميسيسيبي ، حيث يقول أحد المؤرخين من الكريك : « لقد أصبح الكريك يشابهون (الانجليز) نسبيا ، كمجتمع هندي ، غني ، مولع بالكسب بصورة رهيبة » ، ومع ذلك ، « يعتمدون في مذلة على شبكة التجارة الانجليزية » ، (٢٧) .

وسواء أكانت منطقة التفاعل هي وادي نهر سانت لورنس ، أو وادي نهر هدسن ، أو الجزر الساحلية ومنطقة المستنقعات الجنوبية الشرقية ، أو وادي المسيسيبي الأدنى ، وسواء أكان الأوروبيون المتورطون فرنسيين أو هولنديين أو انجليز ، وسواء أكان أيضا ، الهنود هم الهنود أو الموهوك أو الناراجانسيت أو الويستو أو الكريك أو الناشيز فقد دارت العلاقات الأوروبية - الهندية حول محور أساسي واحد : فبالنسبة للأوروبيين ، كانت العناصر الأساسية للاستعمار هي الأرض والتجارة والأمن المادي . وهذه العناصر ذاتها هي الأهداف الأساسية للهنود ، ولكن لابد أن نضيف إليها ضيافة الاستقلال السياسي والحضاري . ففي مناطق التفاعل التي أتى إليها الأوروبيون في أعداد صغيرة للتجارة ، ولم يهتدوا

قواعد الهنود ، اتسمت العلاقات بالمودة ، بصفة عامة ، فاتخذ الأوروبيون والهنود في الباني الهولندية وكندا الفرنسية حرفا للربح المشترك . ولم يهدد الأوروبيون ، استقلال المجتمعات الوطنية ، أو أرضها أو حضارتها ، وبالتالي ، لم يرغب الهنود في مهاجمة أولئك الذين يملكونهم بالسلاح التجارية التي يتوقون إليها .

ولكن ، حيثما كانت الأرض أو الاستقلال السياسي الهندي يتعرض للمغامرات التجارية ، أو حيث تكون الرغبة في الاتجار بالعبيد ، كان الصراع ينشب على نطاق واسع ، بصرف النظر عن الأوطان الأصلية التي جاء منها الأوروبيون ، الذين كانوا هم الغالبين عادة في هذه المصادمات ، إلا أن الجماعات الوطنية جارت بعزم يفوق قوتهم العددية كثيرا . ان الانقسامات الداخلية بين القبائل الساحلية وعدم قابليتهم للتوحيد السياسي لتأمين بقائهم ، كان التفسير الشائع لهزيمتهم النهائية . ولكن التلميح بأن الهنود كانوا عاجزين عن التوحد سياسيا بسبب حضاراتهم « المتخلفة » ، لا ينسبنا أن الأوروبيين كانوا أيضا ، منقسمين الى أبعد حد . فقد ظلت جماعات المستوطنين الأوروبيين المختلفة ، في أمريكا الشمالية ، لأكثر من قرنين من الاستعمار ، دون أن تنهي خصوماتها لتتحد ضد أعدائها الهنود ، فكان المستعمرون الانجليز منقسمين على أنفسهم بدرجة مخزية ، في الواقع في حرب ميتاكوم Metacom سنة ١٦٧٥ ، مما جعل من الصعب عليهم التغلب على عدو يفوقونه عددا وعدة . ان الصورة التي انطبعت عن مشاكل ميتاكوم في الحصول على المساعدة من القبائل المجاورة أمر حقيقي ، ولكن يجب النظر اليها بجانب صورة أندروز Andros حاكم نيويورك ، وهو يغزو كونيكتيكت ، والحرب دائرة وسكان بوسطن ، يطردون من مدنها ، أولئك الانجليز اللاجئين من قراهم المحترقة على الحدود .

هكذا ، أصبحنا ، آخر الأمر ، قادرين تماما على فهم نموذج التفاعل والصراع بين مختلف المجتمعات الهندية - الأوروبية المتنوعة ، بعد أن أدركنا أن كل مجموعة اقتفت مصالحها الخاصة بصورة ثابتة بقدر ما أمكنها ، وتحدها في بادئ الأمر مواردها المتاحة ، وتقيدتها جزئيا الظروف والاتجاهات السائدة قبل مجيء الأوروبيين . وقد أخذ الأوروبيون من كافة الجنسيات كل ما أمكنهم الحصول عليه في أمريكا الشمالية ، وكيفوا نظمهم تبعاً للظروف التي تناسب كل منطقة . وقد عمل الهنود حسابات مشابهة فيما يتعلق بمصالحهم الشخصية ، وتبنوا سلسلة واسعة من الإستراتيجية المشابهة للوصول إليها ، وكان بقاؤهما أحياء (الأوروبيون والهنود) وتعزيز كل منهما لحضارته الخاصة ، وتجميلها هو الهدف الأسمى لكل منهما .

المراجع

1. Quoted in Mason Wade, « The French and the Indians », in « Attitudes of Colonial Powers Towards the American Indian », ed. Howard Peckham and Charles Gibson (Salt Lake City : University of Utah Press, 1969), p. 61.
2. William J. Eccles, « The Canadian Frontier, 1534-1760 » (New York : Holt, Rinehard and Winston, Inc., 1969), p. 59.
3. Quoted in Allen W. Trelease, « Indian Affairs in Colonial New York : The Seventeenth Century » (Ithaca, New York : Cornell University Press, 1960), p. 66.
4. Quoted in *ibid.*, pp. 72-73.
5. *Ibid.*, p. 74.
6. *Ibid.*, p. 115.
7. Daniel Denton, « A Brief Description of New York (1670) », quoted in *Ibid.*, p. 179.
8. « Journal of Jasper Danckaerts, 1679-1680 », ed. Bartlett B. James and J. Franklin Jameson (New York : Charles Scribner's Sons, 1913), p. 79.
9. Alfred G. Bailey, « The Conflict of European and Eastern Algonkian Cultures, 1504-1700 ; A Study in Canadian Civilization » (Sackville, N. B. : The Tribune Press, 1937), p. 112.
10. Quoted in *ibid.*, p. 107.
11. William K. Boyd, ed., « William Byrd's Histories of the Dividing Line betwixt Virginia and North Carolina » (Raleigh : North Carolina Historical Commission, 1929), pp. 3-4 ; Robert Beverley, « The History and Present State of Virginia ... », ed. Louis B. Wright (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1947), pp. 38-39.

12. Quoted in Eccles, « Canadian Frontier », p. 48.
13. Ibid., p. 77.
14. Ibid., pp. 78-79.
15. Quoted in John R. Swanton, « Early History of the Creek Indians and their Neighbors », Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology, Bulletin 73 (Washington D.C. : Government Printing Office, 1922), p. 32.
16. Quoted in *ibid.*, p. 32.
17. Vener W. Crane, « The Southern Frontier, 1670-1732 ». (Ann Arbor ; University of Michigan Press, 1956), p. 13.
18. Quoted in *Ibid.*, p. 111.
19. *Ibid.*, p. 113.
20. Almon W. Lauber, « Indian Slavery in Colonial Times within the Present Limits of the United States (New York : Columbia University Press, 1913), p. 110.
21. *Ibid.*, p. 292.
22. Crane, « Southern Frontier », p. 20.
23. *Ibid.*, p. 139.
24. Quoted in *Ibid.*, pp. 139-40.
25. *Ibid.*, p. 145.
26. John Archdale, « A New Description of ... Carolina » (1707), in Alexander A. Salley, « Narratives of Early Carolina, 1650-1708 » (New York : Charles Scribner's Sons, 1911), p. 285.
27. David H. Corkran, « The Creek Frontier, 1540-1783 ». (Norman : University of Oklahoma Press, 1967), p. 53.

الفصل السادس

الحضارات الساحلية : المقاومة والتكيف

نادرا ما كان الهندي عاملا سلبيا في القرن الأول من احتكاكه بالحضارة الأوروبية . وظهر ذلك في ماساشوستس ، بشكل مفاجئ في الثلث الأخير من القرن السابع عشر ، وفي كارولينا الجنوبية في الربع الأول من القرن الثامن عشر . في هذه الفترة برزت القبائل الهندية في كل من نيوانجلند والجنوب ، عاقبة العزم على ألا تصير شعبا مستعمرا . وفي مناطق أخرى ، مثل فرجينيا وبنسلفانيا قاومت القبائل الصغيرة انتهاك الأجانب لحقوقها وممتلكاتها ، ولكنها ، نظرا لحرمانها من الحلفاء الأقوياء من الهنود ، وتعرضها للضعف بنقص أفرادها ، ابتعدت عن طريق الانتشار الأوروبي ، أو استسلمت لحبسها في أراضي العزل المخصصة لها (المحميات) . وعلى كل حال ، اختارت القبائل الهندية ، في حالات كثيرة ، أن تبدأ الحرب ضد غزاة حضارتها وأراضيها أو تتراجع عن الاحتكاك بدلا من أن تقبل دور الشعب المحكوم . وبدلا من اعتبار هذه المجتمعات الوطنية الساحلية مجتمعات خادمة ، سريعة الزوال ، وبالتالي غير قابلة للتكيف مع وصول الحضارة الأوروبية المتميزة بالفاعلية والنشاط ، يحسن بنا أن ننظر اليهم على أنهم مجتمعات طيبة ، لم يرغب المستعمرون في التثاقف (التبادل الثقافي) معها . وإزاء هذه العنصرية الأوروبية ارتجلت المجتمعات الهندية استجابات متباينة نحو هؤلاء المستعمرين ، تتراوح بين التعاون ، والمقاومة ، والانسحاب . ويمكن اعتبار ذلك محاولة منهم للحفاظ على وحدتهم المشتركة ، وتكاملهم الحضاري ، وكانت تلك فترة عصيبة على القبائل الساحلية ، ولكن الذين يجادلون بأنها فترة تتضمن عدم التكامل الثقافي ، لم يقدموا الدليل الكافي لاثبات هذا الادعاء . والجدير بالملاحظة حقا ، هو أن أغلب الحضارات الساحلية التي جربت عظم وطأة النمو السكاني الأوروبي ، قد احتفظت بقيمها الأساسية لم تفسد . و « ظلت تنظر الى العالم المتغير في إطار منطق حضاراتها الخاصة » (١) .

حاول الناراجانسيت الذين انضموا الى الانجليز ضد البيكوت ، سنة ١٦٣٧ في نيوانجلند ، أن يحتفظوا باستقلالهم بالابتعاد عن المستعمرات الانجليزية . ولكنهم احتلوا بالضبط الأرض التي كان مقدرا لليوريتان أن يتجهوا اليها في توسعهم في وادي نهر كونيكتيكت . وفي سنة ١٦٤٣ ، تكون اتحاد نيوانجلند من مستعمرات ماساتشوستس ، وكونيكتيكت ، وبلايموث ، التواقة الى عقد حلف عدواني ضد الناراجانسيت الأقوياء ، وضد مستعمرة رود أيلاند المزعجة ، المنحرفة . وكان هدف الحلف هو الاستعداد الجيد للحرب ، بواسطة لجنة من عضوين ممثلين لكل مستعمرة لليوريتان . وازدادت جبهة البيوريتان قوة ، بتحالفها مع الموهيجان Mohegans ، أعداء الناراجانسيت . وفي سنة ١٦٤٣ ، عندما تورط بعض الموهيجان في معركة مع الناراجانسيت ، جهز حلف نيوانجلند حملة لتأديبهم . وانتهت المعركة بعد أن فكر الناراجانسيت في عواقبها بالتسليم ، وعقدتهم معاهدة دفعوا بموجبها تكاليف الحملة التي سددوها بالتنازل عن الأرض . وبهذا التكتيك ، استطاع البيوريتان ، تدريجيا إزالة العقبة الرئيسية أمام التوسع الاقليمي .

وبينما كان البيوريتان يتوسعون جنوبا وغربا ، ويزداد عددهم الى نحو ٢٥٠٠٠ سنة ١٦٥٠ ، ثم يتضاعفون الى ٥٠٠٠٠ سنة ١٦٧٥ ، كانت قلة من الرجال تحاول تجربة تنصير الشراذم المتبقية من القبائل شرق نيوانجلند . وتركزت هذه الجهود بقيادة جون اليوت ، وتوماس مايهو Thomas Mayhew ، ودانيال جوكن Daniel Gookin ، وسقط الهنود الذين تأكلت أعدادهم بدرجة خطيرة ، ولم تسلم حضارتهم بسبب الأوبئة والحروب واعتمادهم على السلع الأوروبية . وتكونت عدة آلاف من « الهنود المؤمنين » في أربع عشرة قرية ، الذين حاولوا أن يحاكيوا الرجل الأبيض فاختاروا الأساليب الانجليزية في الزراعة ، والصلاة للرب الانجليزي ، وأشكال الشعر والزى ، والعادات الانجليزية . فكان رفضهم لحضارتهم ثمن دخولهم في « المدنية » . ومع ذلك يشير أحد الدارسين المحدثين لهذه القرى المؤمنة الى أنه « بينما ظهرت المدن ، وكأنها تمثل فترة انتقالية ، تسبق الاستيعاب الكامل في المجتمع الأبيض ، لم يكن لهذا أثر كبير . ان هنود المحميات في نيوانجلند القرن السابع عشر ، مثلهم مثل العديد منهم في الولايات المتحدة اليوم ، يتدنون الى مرتبة معقدة بين حضارتين ، فلا هم جزء من هذه أو جزء من تلك » (٢) .

أما القبائل الأخرى في نيوانجلند ، التي يغلب بها وجود زعماء أقوياء ، وأعدادها أكبر ، فانها قاومت أعمال المبشرين ، أمثال اليوت وجوكن . وكما كتب نيل سالزبوري Neal Salisbury : « كانت عملية

التحويل الى المسيحية ناجحة ، فقط ، مع الهنود الذين تشتتت هويتهم من قبل بسبب الغزو الانجليزى ، ، أو حيث لم يجر غزو كما فى حالة الاوساليات التبشيرية فى مارتا فنيارد (٣) . حتى ان القبائل الأشد التصاقا ، والتي حافظت على درجة من الاستقلال عن المجتمع البيوريتانى المنتشر ، وعت فى أول السبعينات من القرن السابع عشر أن مركزها مخوف بالمخاطر ، ويسوء باطراد . وكان الخيار أمامهم محدودا ، فهم اما أن يخضعوا للمستعمرات الانجليزية فيبيعوا لها الأرض ، ويضعوا أنفسهم تحت حكم البيوريتان ، ويشغلوا عمالا باليومية فى مستوطنات الرجل الأبيض ، أو يبيعوا أراضيهم لقاء أى شئ يحصلون عليه ، ويهاجروا جهة الغرب فى محاولة لوضع أنفسهم تحت حماية قبائل الايروكوا القوية ، الموجودة خلفهم . أو يحاولون ما لم ينجح فيه أحد قبلهم أبدا فى أى مكان من القارة - وهو اتخاذ موقف هجومى هندى عام ضد أناس يفوقونهم عددا ، ولديهم ترسانة غاية فى الضخامة ، تحت تصرفهم .

حرب ميتاكوم :

هى البديل الثالث الذى اختارته قبيلة الوامبانوج ، وتعرف باسم قائدها ميتاكوم ، أو الملك قليب كما أسماه الانجليز . وهو ابن ماساسويت Massasoit ، زعيم قبيلة وامبانوج الذى ارتبط بمستوطنى بلايموث عند وصولهم لأول مرة سنة ١٦٢٠ ، وحارب معهم ضد القبائل الأخرى طوال حياته ، ثم توفي سنة ١٦٦١ . وقد انتبه ميتاكوم الى أخيه وامسوتا Wamsutta ، وهو يشرف على تدهور وضع الوامبانوج . وتوفي وامسوتا بشكل غامض سنة ١٦٦٢ ، بعد أن استجوبه المستوطنون فى بلايموث عن اشاعات عن مؤامرة هندية . وفى العقد الثانى ، فكر ميتاكوم طويلا بوصفه زعيم القبيلة فى وضع شعبه ، واضطر لقبول الضربة المهيمنة تلو الأخرى ، والتي كان أسوأها سنة ١٦٧١ عندما أجبر على تسليم كمية ضخمة من الأسلحة ، وقبول معاهدة استسلام وافق بمقتضاها على اتباع نصائح اتحاد نيوانجلند فى الأمور المتصلة ببيع الأرض للمستعمرين البيض ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ يقيم حلفا غير رسمى للمقاومة الهندية ، اقتناعا منه بأن الخسارة المطردة فى الأرض والسلاح ، مع الآثار المهلكة لكحوليات البيوريتان ، وتعصب حكومة الرجل الأبيض ، كل ذلك لن يتغير الا بمبادرة هندية .

وبالإضافة الى العقلية الهندية التى كانت تتطور ، كان هناك تناقص فى تجارة الفراء ، حيث توقفت تقريبا الامدادات من جلود السمور من المناطق الشرقية سنة ١٦٧٠ . لأن القبائل الساحلية ، مثل التاراجانسييت

والوامبانوج كانت فرصتها قليلة في تجارة الفراء من الداخل ، ومنذ أن
وُفِّعت سوقها في قبضة الايروكوا . واعتمدت على تجارة البسلع الأخرى ،
ولكنها لم تعد قادرة على مد التاجر الأبيض بما يريد منها ، لذلك أصبحت
حالة الهنود ميثسة ، وأصبح شرب الكحوليات وسيلة لتخفيف الآلام ،
ولكنه ساهم ، على المدى الطويل ، على الاحساس باليأس الذي يدفع الى
التهور .

وتدل قدرة ميتاكوم على تجديد المساندة لحركة مقاومته ، على أن
الوامبانوج كانوا شعبا بعيدا عن الفوضى والارتباك رغم نكساته خلال
عشرات السنين . فلم تكن تنقصهم الموارد ولا روح التمرد والعصيان ،
ولا يزالون يقدرون تقاليتهم الحضارية القديمة ، ولذلك بحثوا عن أحلاف
جديدة مع القبائل المحيطة بهم ، وقاموا بالجرب التي تعتبر في حد ذاتها
دليلا على الأمل ، وعلى الالتزام بأقامة حياة جديدة .

كان الحادث الذي فجر حرب ميتاكوم ، محاكمة ثلاثة من الوامبانوج
الذين سيقوا الى القضاء البيوريتاني في عملية انتقام قبل قتل فيها هندي
منتصر ، تعلم في هارفارد ، ويدعى جون سسامون J. Sassamon
الذي خدم فترة كسكرتير ومستشار لميتاكوم . وكان سسامون واقعا بين
حضارتين ، فبالرغم من هجره للمدينة البيضاء ، بعض الوقت ، بعد تجربته
في هارفارد ، أخبر حكومة بلايموث في ربيع ١٦٧٥ أن الوامبانوج يعدون
لهجوم شامل على المستوطنات الانجليزية . وعندما عثر عليه مقتولا بعد
ذلك بقليل ، تمكن المسئولون في بلايموث من تقديم أحد الهنود الذي ادعى
أنه شاهد الجريمة ، وأنه يمكنه التعرف على مرتكبيها ، وبذلك علق ثلاثة
من الوامبانوج على المشانق الانجليزية في يونيو ١٦٧٥ ، وتضمنت هذه
الادانة الادعاء بأن المؤامرة التي نظمها ميتاكوم كانت حقيقة واقعة .

لم تشتعل الحرب في الحال ، لأن حالات الحرائق والسلب
العشوائية ، المتفرقة التي حدثت خلال الأسابيع القليلة التالية ، تحمل
من أول وهلة الانطباع بأن ميتاكوم كان يحاول كبح شباب قبيلته الملهب
غضباً ، والذي كان يدفع بشدة الى حرب قد تجدد احساسهم بكمال
وجدتهم ، وتعيد شرف حضارتهم الذي تعرض للمهانة والخطر على يد
آبائهم على مر السنين . ونشبت الحرب على أشدها في نهاية الصيف .
وكان أعدام الوامبانوج الثلاثة هو العامل المثير لها ، الا أن السبب
الأساسي هو غضب شباب القبيلة الذين رفضوا قبول ارث آبائهم
والخضوع للحياة مع حضارة غريبة عنهم ، وتعتمل صدورهم بالضغينة
لاعتقادهم بأنهم ضحوا بالكثير من أجل التكيف مع الغزاة البيض ، فجهزوا
أنفسهم للمعركة . ولعل احياء حضارتهم عن طريق الحرب ، كان هدفا

له نفس أهمية هزيمة المعتدى الأبيض الذى كثيرا ما أذل ، فى الماضى ،
قبائل نيوانجلند باحتلال أراضيهم قطعة قطعة .

قام أنصار ميتاكوم ، فى الشهور القليلة الأولى من الحرب بهجمات
جسورة ما بين كر ، وفر على مستعمرة بلايموث ، لم تساعدتهم فيها
القبائل الأخرى الكبيرة فى نيوانجلند مثل الناراجانسييت ، والنيبيك
Nipmucs ، والموهيجان . وكان فشل المستعمرين الانجليز فى الاتحاد
عسكريا للانقضاء الفورى على اللوامبانوج سببا فى مجئ حلفاء جدد
لجانب ميتاكوم . ولما وجد كثير من الهنود أن ميتاكوم ورجاله المحاربين
يفلتون بسهولة من مطاردتهم وهم يهاجمون أجنحتهم ، ويمارس معهم ما يشبه
حرب العصابات ، قرروا أن هذه هى الفرصة التى طالما انتظروها ، وانضموا
اليه قبيلة تلو الأخرى حتى كانت الهجمات الهندية فى أواخر الصيف
ممتدة على طول جبهة نيوانجلند ، وبالرغم من استبقاء الانجليز لحلف
النيانتيك والموهيجان والبوكومتك Pocomtucks والبوكاسيت
Pocassets ، انضمت الأخيرة الى جانب القضية الهندية ، تحفزها الى
ذلك الزعيمة ويتامو Weetamoo . والأهم من ذلك أن الناراجانسييت
الذين حاولوا الوقوف على الحياد رسميا ، مع أنه من الواضح أنهم يقدمون
مساعدة سرية للوامبانوج ، قد اضطروا الى الدخول فى الحرب بسبب
هجمات البيوريتان عليهم . وحتى النيبيك ، تلك القبيلة الهندية المحلية
قرب سبرنجفيلد ، والتى كانت تشكو فى صمت ، منذ عدة سنوات ،
رغم اعتقاد المستعمرين بأنها حليف مخلص انضمت هى الأخرى الى الهجوم
فى نهاية الصيف . وبعد شهور قليلة كان هنود النهر فى أعالي الهدسون
يعبثون لهجوم على سكان نيوانجلند ، ولكن خطتهم أجهضت ، عندما حرض
حاكم نيويورك قبلة الموهوك على مهاجمتهم . وبحلول أول نوفمبر أدى تساقط
الثلج على طول وادى كونيكتيكت الأعلى الى اضطرابه تحت الغزوات
الهندية ، وكذلك جبهة نيوانجلند تحت هجمات المحاربين الهنود سريعى
الحركة . وفى مارس ١٦٧٦ كانت قوات ميتاكوم تهاجم ميدفيلد
Medfield ، وويموث Weymouth ، التى تبعد عن بوسطن بأقل من
عشرين ميلا ، وكذلك بروفيدنس ، ورودأيلاند . ويقول أحدث مؤرخى
الحرب المعاصرين : « لقد تراجع خط الاستيطان الانجليزى فى مواضع
مختلفة نحو الساحل . وكان الناس فى أكبر الموانى وأقواها دفاعا تقريبا ،
فى خوف وترقب دائمين » (٤) .

وبدأت الأفكار الخاصة بالتفوق الانجليزى ، تضمحل بعد الضرر
الذى أصاب القوات الاستعمارية من كمين وراء كمين . ونعلم أن « الجنود
الانجليز ذوى الأسلحة الثقيلة قد بدءوا يشكون فى قدرتهم الخاصة على

الوقوف في وجه الهنود رجلا لرجل ، (٥) . وشاعت المقاومة التمهيديّة في ربيع ١٦٧٦ ، وتدمرت المجتمعات الشرقية من تدفق اللاجئين من المدن الواقعة على الحدود ، وأدت ندرة الطعام في المدن الى زيادة فرص المستغلين المتحكمين في التموين ، وحتى في أوقات الأزمات العسكرية ، ظهر أن القوات المركزيّة التي حافظت على المفهوم البيوريتاني للمجتمع مدة جيل كامل ، كان من الصعب عليها أن تنتصر .

وفي ربيع ١٦٧٦ بدأ الهجوم الهندي ينحسر ، ليس نتيجة انتصارات حربيّة للمستعمرين ، بل لنقص الأغذية وانتشار المرض بين الهنود . لقد وجدوا في ظل حرب الانهاك أنه يصعب عليهم الحصول على الطعام والسلاح الذي يسدّ النقص في مخازنهم باطراد . وجرّت محاولات ناجحة ، الى حد ما ، لسدّ هذا العجز من الموهوك ، قرب ألباني . الا أنها عندما نجحت سلطات نيويورك في قطعها ، ساء موقف قوات ميتاكوم جدا ، وبدأت مجموعات تستسلم شيئا فشيئا في صيف ١٦٧٦ ، بينما اتجهت غيرها الى الغرب لتحتّمى بالقبائل هناك . كما تمّ اعدام معظم الزعماء الذين استسلموا أو وقعوا في الأسر . ولكي يدفعوا ثمن تصرفاتهم ، بيع الكثيرون بما فيهم زوجة ميتاكوم وابنه الى أسواق العبيد في جزر الهند الغربيّة والبحر المتوسط ، وقتل ميتاكوم في معركة قرب قرية الوامبانوج التي بدأت عندها الحرب . ولما كان البيوريتان يعتبرونه عوناً للشيطان ، على حد قول أحد القادة انه « شرير ، خبيث جدا ، وثعبان ، وعاهر ، وكلب » لذلك أعيدت رأسه محمولة - في زهو الانتصار - الى المستوطنات الانجليزيّة (٦) . انتهت الحرب بنهاية الصيف بالرغم من أن « اصطياد ذوى البشرة الحمراء أصبح في ذلك الوقت رياضة شائعة بين عامة الناس ، في نيوانجلند ، خاصة بعد أن زادت القيمة الماليّة للأسرى ، وخفّ الخطر جدا على الصيادين الآن » (٧) .

وبانتهاء الحرب ، بلغ قتلى الانجليز عدة آلاف ، وربما ضعف قتلى الهنود . وقد هوجمت اثنتان وخمسون قرية ، ودمرت اثنتا عشرة من بين تسعين قرية للبيوريتان على يد « الأفاعى ذوى البشرة البرونزية » كما يسميهم كوتون مائر . أما القرى الهنديّة فقد تمّ تدميرها تماما . ولم تكن أربعون سنة لتكفي جبهة البيض كي تعود ثانية الى النقطة التي كانت عليها عشية الحرب . وتلك فرصة أخيرة ، كان يتوق اليها هنود الساحل في نيوانجلند ، فلو أنهم استطاعوا أن يضمّنوا مساعدة الأبنّاكي لهم ، تلك القبيلة القويّة على الحدود الشماليّة ، والتي كانت على علاقة متينة بالفرنسيين ، أو مع الموهوك ، أبعد عشيرة لا يروكوا جهة الشرق لكانت النتيجة مختلفة تماما . ولكنهم لم ينسوا العداوات القبليّة القديمة

بينهم ، وربما كان الأهم من ذلك أن القبائل الداخلية الأقوى قد قدرت أهمية المشاركة التجارية مع الانجليز أكثر من الحفاظ على حياة هنود الساحل . فبالنسبة لمن بقى من الهنود ، ظلت لديهم تلك الحقيقة المرة بأن الانجليز قد انتشروا ، وسادوا ، ويجب النظر اليهم الآن باعتبارهم « حماة » لهم . وعقب كارثة الحرب ، كانت القبائل التى ظلت على الحياد أو قدمت المساعدة الحربية للمستعمرات هدفا لقوانين صارمة للغاية . اذ صدر قانون سنة ١٦٧٧ بحبس الهنود المتبقين ، بصرف النظر عن اختيارهم الدينى ، فى واحدة من القرى المبتهلة الأربع الباقية حتى الآن . فى حين أصبح مئات قليلة غيرهم « مزارعين مستأجرين فقراء ، أو خدما بالأجر » لدى الجماعات الانجليزية . وأصبحت الحركة التبشيرية بين الهنود بضربة قاصمة ، حيث لم يبق بعد الحرب سوى القليل لتنصيرهم ، ومن تبقى منهم فقد احتبسوا لاجراءات الأمن ، داخل مدن هندية قليلة حيث أصبحوا تحت وصاية مستعمرة بيوريتانية لا يهتمها وضعهم الدينى فى قليل أو كثير ، طالما انكسرت سيطرتهم على المنطقة .

وبالرغم من الصورة الختامية لانتصار الانجليز الذى تم بسبب استنفاد الجهد الهندى ، أكثر منه نتيجة لتفوقهم العسكرى ، أظهرت حرب ميتاكوم أن بعض القبائل الساحلية كانت مستعدة أن تخاطر بانقراضها ، بدلا من أن تصبح شعبا مستعمرا فى ثقافته وأرضه . ولم يحاول البيوريتان ، مطلقا ، أن يتبنوا سياسة استيعاب حقيقية لعدم استعدادهم لقبول الهنود الا كرعايا مسالمين يحكمهم المجتمع الانجليزى ، دون أن يحتويهم ضمنه . وخضعت أضعف القبائل الساحلية لهذه السياسة . أما القوية منها فقد اختارت المقاومة ولو لدرجة الإبادة ضد مجتمع يفوقها فى الرجال والمصادر المادية . لكننا ، فى نهاية الحرب ، نجد هنود نيوانجلند فيما عدا التخوم الشمالية ، يتضاءلون بشكل مفرج ، فى السكان ، والأرض ، ومصادر الثروة ، والاستقلال السياسى ، والاقتصادى .

تمرد بيكون :

بينما كان سكان نيوانجلند ، يحاربون من أجل البقاء سنتى ١٦٧٥ ، ١٦٧٦ كان مستعمرو تشيزابيك محصورين أيضا فى صراع البقاء الذى لم يشمل الحرب بين مجتمعات الحمر والبيض فقط ، بل أيضا الحرب داخل الجماعة البيضاء . وعندما انتهت حرب ميتاكوم فى نيوانجلند ، كانت مئات عديدة من البيض ، وعدد أكبر منهم من الهنود صرعى فى فرجينيا ، وميريلاند ، ويلف العاصمة جيمستاون الخراب والدمار . كما كانت قوة انجليزية من ألف رجل فى طريقها لعبور الأطلنطى لوضع حد

لما ارتآه الملك رفضا غير شرعى لسيادته على فرجينيا . وقد سمي هذا النزاع البالغ التعقيد بثورة أو (تمرد) بيكون ، نسبة الى ناتانيال بيكون Nathaniel Bacon ، صاحب المزرعة ، وعمره تسعة وعشرون عاما والذي جاء الى تشيزابيك منذ سنتين فقط .

يبدو أن تمرد بيكون جاء تقريبا ، دون سابق انذار . فقد ازدادت فرجينيا بسرعة منذ منتصف القرن ليبلغ سكانها حوالى ٤٠٠٠٠ سنة ١٦٧٠ ، وتصدر الى انجلترا ، سنويا ، نحو ١٥ مليون رطل من التبغ . وكان سير وليام بيركلي يشرف على ثروات المستعمرة بوصفه الحاكم الملكى ، وهى وظيفة تولاهها بصورة متقطعة لأكثر من عشرين سنة . وقد وقع بيكون فى شرك التمرد ضد كل من الهنود والحاكم الملكى ، وهو الذى تعلم فى كمبردج بانجلترا ، وكان بمنزلة ابن عم للحاكم من الدرجة الثانية ، وعضوا فى مجلسه وحضر الى فرجينيا ومعه ثروة تكفيه لشراء مزرعة تبغ قائمة ، ومكتملة بعدد من العبيد .

ولكنه ، وكثيرا غيره ، ممن كانوا يبحثون عن الكسب المادى فى فرجينيا ، وقد انزعجوا بشدة ، لانحسار الفرص الاجتماعية والسياسة الهندية التى رسمها الحاكم بيركلي على مر السنين . وفى سنة ١٦٤٦ ، عقدت معاهدة ، فى نهاية الانتفاضة الهندية الثانية ضد الفرجينيين ، منحت قبائل تشيزابيك الأراضى الواقعة شمال نهر يورك ، والتى تمتد شمال غربى خليج تشيزابيك الى داخل فرجينيا ، واتفق زعماء الهنود والبيض على أن يكون ثمن السلام منح كل جانب من الحضارتين حقوقا مقصورة عليه فى ملكية الأرض فى مناطق معينة ، وبذلك تجنبوا الصدام مدة ثلاثة عقود تقريبا ، بعد سنة ١٦٤٦ . وتقدمت ، فى الواقع تجارة الفراء المربحة مع عديد من القبائل ، بالرغم من تدمير البعض من احتكاكها على يد الحاكم وبعض من دائرة محاسبيه . وازدادت الكراهية لهذا الاستقرار فى العلاقات الهندية على يد موجة المستوطنين الجدد الذين وصلوا فرجينيا فى الخمسينات والستينات من القرن السابع عشر ، وعلى وجه الخصوص من جمهور الخدم البيض العاملين بعقود زمنية ، والذين وجدوا بعد خدمتهم أن من الصعب عليهم منافسة المزارعين المستعمرين فى فترة كساد أسعار التبغ ، ومع ازدياد أعدادهم ضغطوا على حكومة فرجينيا باطراد لفتح أراضى شمال نهر يورك للاستيطان ، وهم يتساءلون عن علة حجز هذه المساحة من الأرض لحفنة من الهنود ، الى الأبد ، بينما يسرى امتياز فرجينيا على كل الطريق الى « البحر الجنوبى » تاركا عددا وافرا من قطع الأراضى ناحية الغرب للقبائل المحلية ؟ وقد كتب بيركلي الى المقر الرئيسى فى عدة مناسبات بأن واحدا من كل ثلاثة أو أربعة رجال لا يملكون

أرضاً ، أو أصبحوا فقراء ، وأننا يجب أن « نتوقع بلا مبالغة » أن جميع هؤلاء الأعداء « سيتمردون علينا عندما يحققون أقل ميزة ٠٠٠٠ بأمل أن نجعل ظروفهم صعبة بمشاركتنا لهم في خيرات البلد » (٨) .

هذا التشوق الى الأرض مع تقلص الفرص ، قد تحول الى عنف في يولية ١٦٧٥ عندما شعرت جماعة من الهنود « الدوج » Doeg بالاهانة لتخلف أحد أصحاب المزارع عن سداد ثمن بضاعتهم ، فحاولوا سرقة خنازيره . وقد أحبطت خططهم فلما انتقم الدوج بقتل البيض المعتدين ، وقتل الانجليز لعدد كبير منهم ، شن ثلاثون من المزارعين المجاورين لهم مذبحة انتقامية ، انتهت بقتل عشرة من الدوج وأربعة عشر من السسكيهانوك حلفاء الفرجينيين لعدة سنين . ولما لم تفعل حكومة فرجينيا شيئاً لتعويض أصدقائها السسكيهانوك عن قتلهم ، حاول الهنود الانتقام بهجمات على المستوطنات النائية على طول حدود ميريلاند وفرجينيا .

لقد جاء الحادث ، كما اعترف الفرجينيون البيض مؤخراً نتيجة حتمية لحمل امتلاك الأرض وكراهية الهنود التي أدت الى « الشروع في احتلال وانتزاع أية مدينة خاصة أو أرض تتسع لهم [للهنود] وترك قطعانهم من الماشية والخنازير سائبة في أرضهم ، فاذا حدث أن نفق واحد منها نتيجة الهوام والحشرات الضارة أو ما شابه ذلك فانهم يستمطرون اللعنات على الهنود ، ويدوسونهم ، ويسيثون معاملتهم (رغم أن الحكام كانوا يحاولون العكس) ٠٠٠ » (٩) . ونجد كذلك أن من أساس الهجمات العشوائية للانجليز هو أن هنود فرجينيا كانوا يتناقصون في العدد والقوة بدرجة خطيرة في عشرات السنين الأولى ، بحيث لم يشكلوا سوى مقاومة ضعيفة « للمنقضين على الأرض » كما لقبوا بعد ذلك ، والذين وجدوا الفرصة لفتح كل الأراضي التي لا تزال باقية في أيدي الهنود ، وذلك بالابادة الصريحة مائة بالمائة لبقايا قبائل تشيزابيك ، حيث بقي ، في منطقة فرجينيا ، في ذلك الوقت أقل من ألف هندي من الذكور ، هؤلاء كتب عنهم الحاكم بيركلي سنة ١٦٧١ أنهم « أخضعوا بالكامل فلا خوف منهم مطلقاً » (١٠) . فكان هذا الضعف دعوة للبيض باتباع العنف .

اذ استطاع سكان ميريلاند وفرجينيا ، في سبتمبر ١٦٧٥ أن يضعوا في الميدان ألف رجل مسلح تسليحاً جيداً ، وسار نحو ألف من مزارعي تشيزابيك ورجال الميليشيا الى أرض مسيجة على نهر بوتوماك Potomac R. كانت مستعمرة ميريلاند قد خصصتها للسسكيهانوك ، وبمحاصرتهم لقرية بها نحو مائة من الرجال الشجعان وعائلاتهم طلبوا خروج الزعماء للتفاوض في شروط استسلامهم ، وعندما نفى السسكيهانوك أية مسئولية لهم عن الهجمات على الحدود ، سيق هؤلاء الزعماء الى خارج القرية وأعدموا .

وبالرغم من محاكمة ضباط الميليشيا المتورطين في هذه الجريمة ، كانت العقوبة بغرامة خفيفة ، أو عدم ادانتهم نهائيا على يد القضاء المحلي . ولما روعت هذه « الوحشية » الانجليزية ، الحاكم بيركلى ، شجب الهجوم واجراءات القضية ، ولما لم يلق سوى تأييد ضئيل فى المستعمرة لم يسعه سوى التعبير عن قلقه فقط . ولما كان الهنود خاضعين بالقوة وينظر اليهم كعقبة أمام المزيد من التوسع ، أصبح الفرجينيون لا يمكنهم التحدث لمصلحتهم ، أو يتصرفون ضد أولئك الذين سارعوا بمعاداتهم ومع تعهد السسكيهانوك بالحرب بالرغم من تفوق الجانب المضاد ، استعدت فرجينيا لصرفهم عما سمعوا بحدوثه فى الشمال تحت قيادة ميتاكوم ، اذ سرت الشائعات كالنار فى الهشيم ، فى المستعمرة ، بأن السسكيهانوك يقدمون أموالا كثيرة للعشائر الهندية الغربية ليهاجموا معهم الأوروبيين ، وأنه قد تم فى نفس الوقت تعزيز التحالف بين أنصار ميتاكوم والهنود الجنوبيين .

صمم السسكيهانوك على الانتقام ، فشنوا الهجوم فى ربيع ٧٥/ ١٦٧٦ ، وحصدوا فيه أرواح ستة وثلاثين من سكان المستعمرات ، مما جعل سكان الحدود ينقلبون - لغضبهم وخوفهم - على أقرب الهنود الى أيديهم وهم الأبوماتوكس Appomattoxs ، واليامونكى ، المستقرين ، الذين يعيشون فى المناطق المخصصة لهم داخل مساحة المستوطنة ، والذين اعترف أحد الكتاب بعد الحرب « أنهم كانوا دائما عرضة لأطماع جيرانهم الفرجينيين » (١١) . وفيما أسماه أحد مؤرخى الحرب المحدثين « التضحية بالدم » أخذ ناتانيال بيكون على عاتقه قيادة الحركة العسكرية ، وبدأ فى اباداة الهنود المسالمين فى المنطقة (١٢) . واقتناعا منه بأن الهنود المتسببين « كانوا قد اختلطوا ، فى مكر ، وسط كثير من عشائر وعائلات الهنود حتى كان من الصعب علينا أن نميز كيف ، ومن أى الأقوام المذكورة هذه نبعت الأخطاء المذكورة آنفا » ، وطلب بيكون من بيركلى تفويضا ليقود المتطوعين ضد أى هندي يمكن تواجده (١٣) . وعندما رفض بيركلى اجازة الهجمات غير الشرعية ، أعلن بيكون ، وهو مشتعل غضبا ، اصراره على مواصلة العمل ، بموافقة الحاكم أو بدون موافقته . وهنا أعلن بيركلى أن يكون متمرّد ، وجرده من عضويته كمستشار ، وقام بحملة من حوالى ثلاثمائة مزارع فرجينى للقبض عليه . وبالتالي ، جمع بيكون قواته من حوله ، واتجه رأسا الى الصحراء و « الى قدر يناسبنى أكثر مما يسرك أن ترسمه لى » على حد ما أخبر الحاكم ، تحديا له (١٤) .

وكان حل الموقف المتدهور لدى بيركلى ، أن يشن حملة تأديبية لمعاقبة أى هندي يهاجم المستوطنين البيض ، ولكن مع محاولة المفاوضات

السلمية • وفي نفس الوقت ، اتجه الى بناء حصون على امتداد الحدود ، يزودها بخمسمائة رجل يتجولون بينها ويحافظون على السلام بين الشعبين • وكانت تلك سياسة دفاعية مكلفة ، فأموال بناء الحصون وتزويدها بالرجال ، لا يمكن أن تأتي الا من دخل المزارعين ، بزيادة الضرائب لسنوات قليلة تالية •

لقد أخطأ بيركلي فى الحكم على كل من المستوطنين البيض والهنود • فزعما السسكيهانوك لم يستطيعوا السيطرة على رجالهم المحاربين الذين شنوا هجماتهم ، مرة ثانية ، حتى أثناء تفاوضه مع زعمائهم • كما لم يرغب الفرجينيون البيض فى شىء من سياسة الاحتواء المكلفة التى ابتدعها • اذ هبطت السوق بحددة ، فى تلك السنوات ، وذهب وباء بنصف ماشية المستعمرة فى الصيف السابق ، وحل الجفاف الشديد بمحصول سنة ١٦٧٥ ، وهم يناقشون الحاكم الآن فى ذلك الحل الضعيف المكلف لأكبر نكبة هندية حلت فى الثلاثين سنة الأخيرة • والمسألة من وجهة نظرهم أسهل من ذلك بكثير ، وحلها يكلف القليل •

وفى مايو ١٦٧٦ ، أعلن بيكون نفسه قائدا لرجال الحدود المتمردين ، والذين عزموا على اتباع سياستهم الخاصة بشأن الهنود • وكان هدفهم الأول المستوطنة الحصينة للهنود الأوكانيتشى Occaneechees ، الذين كانوا بمثابة أصدقائهم ، والذين دمروا حديثا ، قبيلة من السسكيهانوك العسكريين قريبا منهم اظهرا لولاثهم للفرجينيين ، حيث أبادوها فى هجوم مباغت فى منتصف الليل • ويدعى النقاد المتأخرون بأن شهية رجال بيكون ، قد حركها ما قيمته ١٠٠٠ جنيه من جلد السمور ، داخل الحصن • ومع ازدياد أنصاره ، بعد كل هجوم على الهنود ، سار بيكون الى جيمستاون لمجابهة الحاكم الذى اتهمه من قبل بخيانة الحكومة ، وطلب بيكون تكليفا رسميا يعطيه الشرعية فى هجومه على الهنود ، فوافق له الحاكم فى النهاية تحت ضغط شديد ، الا أنه ، بعد تحرك بيكون ومحاربيه من الهنود ، عاد بيركلي واعتبره متمردا ، وجمع أكبر عدد مستطاع من مؤيديه وحاول مطاردته • ثم قضى بيركلي وبيكون بقية الصيف ، ومع كل منهما عدة مئات من الأنصار ، يناور الواحد منهما الآخر ، ويبحث عن مؤيدين جدد ، ويضرب مؤخرة قوات الآخر فى معارك شبه حربية ، كما يقترح فكره كيف يوقف هذه السلسلة من الأحداث التى بدأت بعدم الاتفاق على السياسة الهندية • وكان الوقت فى جانب بيركلي ، لأنه بمجرد سحق الهنود فى إحدى المرات ، تملك القلق متمردى فرجينيا من العودة الى مقارهم الرئيسية ، فضلا عن أن تقارير بيركلي عن التمرد ، الى انجلترا ، جاءت ببرقية تفيد بأن ألفا من القوات الملكية فى طريقها الى فرجينيا ، ومعها

لجنة تحقيق ملكية في يناير ١٦٧٧ ، الا أن ناتانيال سيكون توفى في ذلك الوقت بحمى المستنقعات ، وذاب أنصاره في منطقة الحدود .

ومع أن الفرجينيين ، الذين اتبعوا سيكون كانوا مستائين من الضرائب العالية ، والمحسوية في الحكومة ، وتمتع بيركلي وأصحابه بقبضة قوية على السلطة والمنافع ، كانت سياسة الحاكم الهندية ، الوقائية ، قبل أول اراقة للدماء ، وسياسته المسالمة بعد ذلك ، هي الدافع لأقوى عصيان مسلح . وكانت الحاجة الى حرب اباداة على يد الرجال الذين لم يعودوا يخشون في سبعينات القرن السابع عشر من السكان الهنود ، الذين تقلص عددهم بالمرض والحروب المتقطعة في عشرات السنين السابقة . كان السلام مفيدا ، مدة ثلاثة عقود ، لأن فرجينيا كان بها أكثر قليلا من ٨٠٠٠ مستوطن ، بينما كانت الاتفاقية التي تم بموجبها اقضاء كل الهنود من الأرض الواقعة جنوب نهر يورك ، تسمح بمجال كبير للتوسع . لكن سكان فرجينيا ، قد تضاعفوا أربع مرات ، في الثلاثين سنة التي جاءت في الوسط ، بينما ازداد الهنود ضعفا ، اذ لم يكن الفرجينيون على الحدود يطلبون السلام وانما الحرب فقط .

أدرك المحققون في اللجنة الملكية ، هذه العقلية الميالة الى الابداء الجماعية للشعوب ، بعد وصولها الى فرجينيا بقليل . وفي رسالة الى مجلس نواب المدن الانجليزية ، الذي كان يناقش معاهدة سلام مع الهنود المتبقين ، استنكر المحققون « ذلك النوع من الرجال المتهورين ، الذين لا يراعون حقوق الغير ومشاعرهم ، ويطرون صيحة الحرب بشدة وطيش ، وبلا سبب ، ويبدون وكأنهم يرغبون ويهدفون الى اقتلاع شامل للهنود من جذورهم » ، واعتبرت اللجنة أن نقض سيكون وأتباعه للعهد ، ومجاهرتهم بتدمير واستئصال أولئك الهنود المسالمين ، الذين هم أبعد ما يكونون عن ايذاء أنفسهم أو ايذاءنا ، لدرجة أننا يجب أن نعتز بأنهم أفضل حراس لتأميننا على الحدود من غزوات الهنود البرابرة الآخرين ، ومذابحهم المفاجئة ٠٠٠ ، (١٥) . انما ذلك (النقض من سيكون) جمود دنىء للمعروف ، وخبل مذهل ، وقبيح بدرجة لا توصف ، بل هو الجنون المطبق ، ، وحينما وقعت اتفاقية للسلام في مايو ١٦٧٧ ، أعطى أحد بنودها دليلا اضافيا على أن الفرجينيين على الحدود ، قد اعتبروا الهنود مجرد عقبات غير مؤثرة ، تقف في طريقهم ، كما أشارت المادة الرابعة ، بشكل خاص الى التعديات الصارخة من الخطافين الانجليز لأراضيهم [أى الهنود] ، ودفعهم الهنود الى القضاء على قطعان ماشية الانجليز وخنازيرهم ، من باب الانتقام ، (١٦) . وهكذا أدرك الفرجينيون أن

السبب الأكبر للتمرد هو ضربات الهنود الموجعة ، فى هجمات انتقامية
أمكن اتخاذها عندئذ سببا لشن حرب الإبادة لهم .

ولكن القول بأن يكون وأتباعه « أطروا صيحة الحرب اطراء شديدا
بدون سبب » فىسئ فهم حقيقة أساسية فى توجهات البيض نحو القبائل
الساحلية فى الربع الأخير من القرن السابع عشر . ان البيكونيين قد
قدروا بدقة ، أهمية محاربة الهنود ولم يخفوا اقتناعهم بأنهم سيكسبون
كل شئ فى أى نزاع متوقع مع القبائل الصديقة وغير الصديقة على السواء ،
فلا بد أن يموت بعض رجال الحدود وهم يهاجمون الهنود ، ويقتل البعض
الآخر فى قتالهم مع قوات بيركلى ، كما أسر ثلاثة وعشرون وأعدموا للخيانة
العظمى . الا أن المزايا التى جنوها من الحرب كانت مهمة بالنسبة لمن
بقى منهم أحياء ، حيث كتب أحد المؤرخين يقول : « كانت للتمرد آثاره
المدمرة ، وبعد تاريخهم الطويل فى الحرب والهزيمة ، وجد هنود أراضى
المد وسفوح الجبال صعوبة متزايدة فى الحفاظ على عاداتهم المعيشية » (١٧) .
فى الواقع ، تناقصت الآلات القليلة المتبقية من هنود فرجينيا بدرجة
تدعو للرتاء ، فى شرائح صغيرة من الأرض التى خصصت لهم ، حماية
من خطر المستوطنين البيض الجياع الى الأرض ، والذين لم يسمح لهم
بالاستيطان على مقربة منهم بمسافة تقل عن ثلاثة أميال . الا أنه لم يسمح
لبقايا اتحاد بوهاتان ، أن تحيا بطريقة تساعد على نموها ، حيث انتشر
التوسع فى نيوانجلند ، بدون منازع ، فى الواقع ، حتى بلغ الحدود
الاقليمية للقبائل الداخلية الأقوى .

ان المغزى وراء تمرد بيكون ، وأهميته بالنسبة للعلاقة بين الأجناس
أنها أثبتت أنه حتى أعلى مستويات السلطة فى أية مستعمرة انجليزية ،
لم تستطع أن تمنع هجمات المستوطنين البيض لاستئصال شأفة الهنود ،
رغم أنها مخصصة لحفظ السلام بين المجتمعين (الأوروبي والهندي) .
وكان بيركلى يمثل سلطة الملك فى فرجينيا ، ولكنه لم يستطع أن يفعل
شيئا يذكر للسيطرة على من اعتبروا الهنود عائقا أمام التوسع فى الأرض
على حدود فرجينيا . وبعد سنة ١٦٧٥ قام مجلس نواب المدن - وهو
يعكس مصالح المزارعين المحليين ، بسحب سلطة الحاكم فى عدم السماح
بصكوك ملكية الاراضى للأفراد ، تلك السلطة التى مارسها الحاكم منذ
سنة ١٦٦٦ كى يمنع المستوطنين من الاستيلاء على الاراضى الملاصقة
للمستوطنات الهندية ، وبعد ذلك أصبح من السهل اكراه الهنود بالتهديد ،
ليبيعوا أراضيهام الموجودة فى مستوطنة البيض . وكما كتب وزير فرجينيا
سنة ١٦٧٨ : « كان الانجليز ، فى العادة ، اما أن يخوفهم أو يخدعهم فى
المساومة ، وفى نظير التافه من المال يسحب الأرض منهم . . . ثم يأتى

هو ، ويوطن نفسه فيها ، ويدمر بقطعان ماشيته وخنازيره كل محاصيل
هنود المدينة الآخرين ٠٠٠ وكان ذلك أحد الأسباب المهمة لهذه الحرب
الآخيرة ، وهؤلاء الذين دخلوا عنوة ، وكانوا بالتالى السبب الرئيسى لها
وكانوا رغم ذلك ، ضمن السباقين ، فى مقدمة التمرد والعصيان ،
والشاكين كثيرا من الضيم « (١٨) . ولم يستطع أى حاكم ملكى أن يفعل
شيئا ازاء هذه الأساليب والترتيبات . فقد انتقلت القوة فى المستعمرات
الى المستوى المحلى ، مما جعل من الممكن حتى بالنسبة لأشد الحكام
الاستعماريين عدالة أن يحفظ توازن العلاقة بين الحضارات المختلفة .
ولربما ، لم يحاول أحد ممن تقلدوا السلطة الاصرار أكثر من وليام بيركلى
ليكبح جماح الاتجاهات العدائية الميالة الى الإبادة الشعبىة التى عمت
الانجليز المتعطشين الى الأرض على حدود تشيزاويك فى القرن السابع
عشر ، لكن بيركلى شاهد مستعمرته تندفع دون توقع منه لذلك الى حرب
أهلية ، احترقت فيها عاصمته وسويت بالأرض ، وتلاشت ضيعة خاصة
تقدر بثمانية آلاف جنيه ، تحت هجمات أولئك الذين كانوا مستعدين
لمحاربة كل من رفاقهم الانجليز ، والهنود .

ولابد أن السسكيهانوك وغيرهم من قبائل المنطقة الساحلية ، قد
وعوا الدرس دون أن يخطئوه ، وحتى عندما أقروا بسلطة الأوروبيين ،
واعتبروا أنفسهم تحت رعاية القانون الانجليزى ، وتحملوه ، وحتى عندما
حاربوا الهنود المعادين لحكومة البيض ، لم يتوقعوا العيش فى سلام .
فقد كانت السلطة ذاتها التى ربطتهم بمستعمرة فرجينيا ، فى معاهدات
صداقة ودفاع مشترك ، كانت هى نفسها السلطة العاجزة عن فرض
سيطرتها على رعايا البيض ، حيث قوبلت محاولاتهم للتعاون مع المجتمع
الانجليزى بانكار الانجليز عليهم الحق فى الحياة الهادئة الا كسياسة
مؤقتة ، كما تعلموا أيضا ، أنه حتى فى حالة انقسام المجتمع الأوروبى على
نفسه كما حدث فى فرجينيا سنة ١٦٧٦ ، يمكن لشراذم المجتمع الأبيض
الكثيرة العدد ، والأحسن منهم تسليحا ، والتى خاضت عمليات عسكرية
على جبهتين أن تتفوق عليهم وتهزمهم . كما أن هؤلاء ، وهم مبعثرون فى
مدن صغيرة تمثل كل منها أجزاء صغيرة من قبيلة ، كانت ذات يوم أكبر
منها الآن وأقوى ، رغم ذلك كان محكوما على قبائل الساحل بالاخفاق ،
سواء اختاروا الحرب أو السلام . لقد كان ثمن البقاء أحياء فى فرجينيا
أو نيوانجلند هو التضحية بالهوية القبلية المستقلة والخضوع لمدينة
البيض ، كمزارعين أجراء أو عمال باليومية أو خدم بالمنازل .

وصول الكويكرز :

احتفظ هنود الحضارات الساحلية بأرضهم ، وطرق معيشتهم لأطول

فترة فيما بين نيوانجلند وتشيزابيك ، فى عشرات السنين التى أعقبت حرب ميتاكوم وبيكون ، وذلك من ناحية ، لأن عددا قليلا من الأوروبيين استوطنوا فى المنطقة خلال نصف القرن ، بينما كان سكان ماساتشوستس ، وكونيكتيكت ، وميرلاند ، وفرجينيا يزدادون بسرعة . ويساوى ذلك فى الأهمية أن الأوروبيين ، عندما وصلوا فى أعداد كبيرة جاءوا وهم مؤمنون إيمانا راسخا بفلسفة دينية تسمى « الصحابية » ، التى تؤمن بمبدأ اللاعنف ، والعلاقات العادلة بين البشر من كافة الأجناس والأديان . وطالما كانت فلسفة مجتمع الصحاب هذه قوية ومسيطرة ، كانت العلاقة بين الأجناس فى وادى نهر ديلاوير قوية اذا قورنت بمناطق أخرى فى أمريكا الشمالية . ولكن حين ضعف التزام الكويكرز بمبدأ اللاعنف أو تلاشى ، وفقدوا السيطرة السياسية على المنطقة ، اختفت فى هدوء آخر فرصة للحكم الذاتى الهندى على امتداد السهل الساحل لأمريكا الشمالية .

بدأ الكويكرز يهاجرون الى منطقة الأطلنطى الوسطى فى منتصف السبعينات من القرن السابع عشر ، أولا الى جرسى الغربية والشرقية ، التى كانت فيما سبق جزءا من نيونيزرلاند ، ثم الى بنسلفانيا فى الثمانينات من القرن السابع عشر والتى أصبحت مركز آمال الكويكرز فى إقامة المدينة الفاضلة فى العالم الجديد . وكان الكويكرز ، مثل أبناء عمومتهم البيوريتان ، يتقدون حماسا رائعا بعقيدتهم الراسخة . وهم يشاركونهم كثيرا فى فكرهم الدينى ، لأنهم يعتبرون ، أيضا ، الكنيسة البروتستانتية الانجليزية منحرفة ، وأعلنوا ارتدادهم عن مبادئها الشكلية . ولكنهم رفعوا راية الثورة البيوريتانية بإجراءات متطرفة ضد الكنيسة الانجليكانية ، وانتقدوا بشدة كل أشكال الوساطة بين العبد المؤمن وربّه . وبهذا المفهوم ، كان الكويكر صوفيا باطنيا ، بشكل أساسى ، ومقتنعا بأن صلاح المؤمن لا بد أن يوصله لعفو ربّه ورحمته مباشرة ، دون مساعدة من قسيس أو كاهن أو طقوس دينية أو أية وسائل أخرى .

تعرض الكويكرز للاضطهاد الشديد ، فى انجلترا بعد ظهور حركتهم فى الخمسينات من القرن السابع عشر ، ولذلك بدعوا يرسمون خططهم لتأسيس مستعمرات خاصة بهم فى العالم الجديد . فأرسلوا ممثلهم الأوائل الى ماساتشوستس حيث تعرضوا للشتم والنفى والتمثيل بهم ، بل وللشنق أيضا ، لممارستهم العملية لمعتقداتهم ، ثم الى جزر الهند الغربية ، ورود أيلاند ، وتشيزابيك . ثم فى سبعينات وثمانينات القرن السابع عشر الى نيوجرسى وبنسلفانيا . وفى فترة بناء المستعمرات بعد عودة الملكية الى انجلترا سنة ١٦٦٠ أعطى صك امتياز أحدث مستعمرة الى أهم مواطن انجليزى من الكويكرز ، وهو وليام بن ، الذى عقد العزم

علي جعلها مركز حركة الكويكرز في العالم الجديد . وهو يرى أن الناس من كافة الأجناس والأديان ، وبصرف النظر عن خلفياتهم الاجتماعية القومية يمكنهم العيش معا في سلام في بنسلفانيا . وعلى كل حال ، فرغم عدم الترحيب بالكويكرز في أى مكان آخر في العالم الجديد ، وانتشار الاعتقاد بأن الحرب والعنف هي مواقف لا يمكن تجنبها لكسب المستعمرات الانجليزية في وجود الهنود والفرنسيين والأسبان والهولنديين ، ومع ذلك ساد السلام والتآلف بين القبائل في بنسلفانيا .

وهكذا ، عندما وصل الكويكرز الى وادي نهر ديلاوير ، لم يهددوا الهنود بأى أذى . ومع ذلك ، فإن أهالى المنطقة ، وهم مجموعة غير ثابتة نسبيا ، تتكون من قبائل صغيرة كانت الديلاوير أكبرها ، لم يكن لديهم سبب قوى يجعلهم يعتقدون فى اختلاف هؤلاء الأوروبيين عن غيرهم ممن عرفوهم طوال ثلاثة أرباع قرن . فقد عاصروا ، على مر السنين ، مجيء الهولنديين والسويديين ثم الهولنديين مرة ثانية ، والانجليز فى آخر الأمر . ومن هذا التعرض لثلاث حضارات أوروبية متباينة ، تتكلم كل منها لغة مختلفة وتؤمن بصورة مختلفة من العقيدة البروتستانتية ، من ذلك كله ، تعلم الهنود التقنية الأوروبية ، وقيم الحضارة المادية . فلما وصل الكويكرز كان لدى الديلاوير خبرة واسعة بالأسلحة النارية الأوروبية والمشروبات الروحية ، أى السلعتين الرئيسيتين فى تجارة جلود السمور والقضاعة (ثعلب الماء) وجلود الغزال . وتعرضوا - كغيرهم من القبائل التى احتكت بالأوروبيين - لتناقص شديد فى عدد السكان . وقد قدرت قوة الديلاوير بألف فرد قبيل وصول الكويكرز . لعل هذا العدد يقل عن نصف ما كانوا عليه قبل وباء الجدري الذى أصاب القبيلة ثلاث مرات ما بين سنتى ١٦٢٠ ، ١٦٧٠ .

وطبقا لأحدث تأريخ للديلاوير ، كانت الغلبة الانجليزية على وادي نهر ديلاوير فى ستينات القرن السابع عشر أشد تهديدا للديلاوير من الوجود السابق للهولنديين والسويديين (١٩) . ولعل السبب فى ذلك ، أن مجيء الانجليز قد جلب معه تحت الأنظار ، مستوطنين جددا ، ممن لا أرض لهم ، والذين بدعوا يضغطون بشكل غير مقبول لامتلاك الأرض . الا أن أعمال العنف والطرده من الأرض بالجملة كالذى حدث فى شمال وجنوب وادي نهر ديلاوير لم يكن أحد مظاهر الاحتكاك بين الأوروبيين والديلاوير . فهم الآن على شفا تجربة نوع جديد تماما للوجود الأوروبى ، حيث بدأ عهد جديد بوصول وليام بن وجمعية الصحاب سنة ١٦٨١ .

كان الكويكرز الذين هاجروا الى مستعمرة بن Penn الجديدة من المزارعين أساسا ، بمعنى أنهم اهتموا كغيرهم من المستعمرين بحيازة

المساحة الملائمة لأغراضهم من الأرض . كما أنهم لم يختلفوا عن رفاقهم المواطنين في التماس النجاح المادى . وكان الكويكرز مثل البيوريتان ، قد تم تجنيدهم فى انجلترا من طبقة المجتمع المتوسطة الناشئة ، ونظرا لما شاع عنهم من نجاح مشهود فى بنسلفانيا على مدى الأجيال القليلة التى تلت ، كان الحافز الاقتصادى يجرى فى عروقهم بنفس القوة لدى غيرهم فى القارة . الا أنه كانت لهم رؤيتهم الفكرية أيضا . فهم يعتقدون أنه بالرغم مما سجله التاريخ عكس ما يروونه ، فإن الناس من مختلف الحضارات والمعتقدات يمكنهم أن يتعايشوا فيما بينهم فى مودة وسلام . ولم يكن هذا التفاؤل عن جهالة منهم ، لأنهم كانوا يعون تماما ما حدث عند لقاء الأوروبيين مع الهنود فى أنحاء أخرى من أمريكا الشمالية ، وما تضمنه من صراعات دموية قضت تقريبا على الهنود فى أكثر منطقتين ازدحاما فى أمريكا الشمالية البريطانية ، قبل خمس سنوات فقط من استلام بن لصك ملكية بنسلفانيا ، ومع ذلك تعهدوا بمبدأ اللاعنف ، وهم راغبون فى تجنب الصراع الذى أحرق بالمستعمرات الأخرى ، ومقتنعون بإمكان انجاز ما لم يستطعه الآخرون من خلال « التجربة المقدسة » للكويكرز .

أرسى بن أساس العلاقات السلمية ، حتى قبل أن يضع قدمه فى بنسلفانيا ، حيث كتب الى الديلاوير خطابا بعث به مع مندوبيه الذين سبقوه اليها ، يقول فيه : « ان ملك القطر الذى أعيش فيه وأنعم بخيراته ، قد عهد الى بمقاطعة عظيمة فى ذلك المكان ، ولكنى أرغب فى أن أنعم بها بحبكم وموافقتكم ، لأننا يجب أن نعيش معا جيرانا وأصدقاء . » (٢٠) . بهذا البيان الفريد ، اعترف بن بالهنود كملاك ، لهم الحق فى أرض الدولة ، وأشار الى أنه ، بموافقتهم فقط سيسمح للمستوطنين باقامة مزارعهم ومدنهم ، وقد كان له حق ملكية كافة الأراضى بموجب عقد الامتياز الممنوح له . فيجب اذن على المستعمرين أن يبتاعوا الأرض منه . ولكنه بعث بدوره بملحوظة سابقة وهى أنه لن يبيع أى أرض قبل أن يشتريها بنفسه أولا من الزعماء المحليين . وعزز بن تعهده بالتزامه بكلمته بأنه لن يتسامح بعد ذلك فى المظالم التى عانى منها الهنود سابقا ، ووعد بتنظيم دقيق للتجارة الهندية مع تحريم بيع الكحوليات . وقد اضطر فولتير Voltaire أن يكتب مؤخرا ، رغم عدم الدقة الواضحة ، أن ذلك « كان الميثاق الوحيد بين هؤلاء الوطنيين (الهنود) والمسيحيين الذى لم يتعرض لاساءة أو نقض » (٢١) .

وحينما وصل المستوطنون الكويكرز ، بقيادة ابن عم بن بدوا مفاوضات الأرض فى الحال ، مع الديلاوير أو اللينى ليناب Lenni Lenapes

كما كانوا يسمون أنفسهم • وكان لابد أن يشك الهنود في وعود بن التي بدأت كغيرها بالتعبيرات الأوروبية عن النوايا الحسنة ، التي لم تتعد مخارج الفاظها • الا أن الديلاوير كانوا متأثرين بلا شك بذلك المدد الوافر من السلع التجارية التي عرضت نظير الأرض على طول نهر ديلاوير شمال الموقع الذي أصبح عاصمة لفيلادفيا • ومن هذه السلع : العقود من الصدف (الوامب Wampum) ، والبطاطين ، وأقمشة الخيام الصوفية ، وغلايات الشاي ، والمعازق ، والفئوس ، والسكاكين ، والمرايا ، والمناشير ، والمقصات ، والمثاقب ، والملابس ، كما ضمت شراب الروم المسكر ، والبارد ، وطلقات الرصاص ، وعشرين بندقية ، مما يشير الى أنه حتى أولئك الذين أقروا اللاعنف ورغبوا في تحريم المسكرات كوسيلة لاقامة علاقات مستقرة ، لم يتحملوا الامتناع عن بيع السلع التي يرغبها الهنود بشدة •

ان مجيء بن الى مستعمرته سنة ١٦٨٢ ، أوقفه أمام الديلاوير وجها لوجه • وكان مبدأ المسالمة وليس العنف هو الذي يشغل ذهنه ، ولابد أن الديلاوير قد تبينوا ذلك من شغفه بدراسة حضارتهم ولغتهم • فقد توسع بن في تنقله في بنسلفانيا الشرقية ، يزور مستوطنات الديلاوير ، ويتعلم لغتهم مثلما فعلته تماما حفنة قليلة فقط من الانجليز في قرن ونصف قرن من الاستعمار ، ويقول فيما كتبه : « لقد جعلت مهمتي أن أفهمهم ، ويجب ألا احتاج مترجما في أية مناسبة ، ويجب أن أقول اني لا أعرف لغة في أوروبا لها كلمات أكثر من لغتهم عنوبة في النبرة والتشديد على المقاطع ، (٢٢) •

ويتبقى عامل آخر ، أدى الى العلاقات السلمية ، وهو غياب التجارة الهندية الواسعة • فقد تركزت تجارة الفراء شمال بنسلفانيا ، وبالرغم من الجهود التي بذلها بن لتحويل التجارة الداخلية لتمر عبر فيلادفيا بدلا من ألباني ونيويورك ، نجده يفشل في ذلك للغاية ، وخيب ذلك آمال بن ، والتجار الكويكرز ، ولو أن ذلك قد حد ، على المدى الطويل من الاتصالات بين البنسلفانيين والهنود ، وبالتالي قلل فرص سوء التفاهم والأعمال العدائية • كما أن توقيت وصول الكويكرز جعل التجارة مع الهنود الأبعدين غربا مستحيلة ، حتى انتهى أول جيل في المستوطنة تماما • وازدهرت تجارة الفراء في وادي ديلاوير بين السسكيهانوك الذين يصطادون في المناطق الداخلية من خليج ديلاوير والتجار الهولنديين والسويديين الذين أقاموا بالمنطقة منذ العشرينات من القرن السابع عشر • ولكن ضعف السسكيهانوك ، نتيجة التنافس والتقاتل مع الايروكوا جهة الشمال ، ثم قبيل مجيء الكويكرز بالحروب مع الميريلانديين والفرجينيين

خلال تمرد بيكون • وبعد ذلك هاجرت بقايا القبيلة جهة الشمال حيث وضعوا أنفسهم تحت حماية أعدائهم السابقين من الايروكوا • مما أدى الى ترك بنسلفانيا الشرقية تسكنها قبائل محلية صغيرة فقط ، حتى ان موظفا حكوميا بارزا ، لاحظ سنة ١٧٠٢ أن مستعمرة بن كانت تبدو « خالية من الهنود تماما » (٢٣) •

وطالما كان نفوذ بن وتأثيره قويا في مستعمرته ، ساد الوثام العلاقات الهندية بصفة عامة ، يساعد على ذلك ، من جهة ، غياب المنافسة على الأرض ، وضالة تجارة الفراء • وأقام في مستعمرته ما بين سنتي ١٦٨٢ ، ١٦٨٣ ، وما بين ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ ، ولكنه لم يرجع اليها بعد زيارته الثانية أبدا • فقد مرت عليه اثنتا عشرة سنة أصابته خلالها عدة ضربات ، أعجزته ، كما لم يمارس أى دور تقريبا في مستعمرته خلال السنوات الست الأخيرة من حياته • وتزامن مع أفول نجمه تطوران ، دفعا بالعلاقات الهندية في بنسلفانيا في نفس الاتجاه الذى سلكه الهنود في المستعمرات الأخرى ، وهما : ظهور التجارة الهندية ، ومجيء موجات المستوطنين الأوروبيين المتعطشين الى الأرض •

ومما يثير السخرية ، أن سياسة الكويكرز في التسامح مع جميع الجماعات الدينية والعرقية ، قد جذبت الى بنسلفانيا فى أوائل القرن الثامن عشر نفس الجماعات الأوروبية التى قوض تعطشها الى الأرض وازدراؤها للهنود تجاه الكويكرز الى الثقة فى الأهالى الوطنيين ومحبتهم • فقد جاءت أول مجموعة من هؤلاء ، سنتي ١٧١٠ ، ١٧١١ وهم المينونايت السويسريون Swiss Mennonites الذين استقروا عند أحد روافد نهر السسكيهانوك على بعد ستين ميلا الى الداخل من فيلادلفيا • وفى سنة ١٧١٧ ، وصلت مجموعة أكبر منها من البروتستانت الألمان فى أول تدفق للمهاجرين البلاتينيين (*) ، الذين بلغت نسبتهم ٤٠٪ من سكان المستعمرة فى منتصف القرن الثامن عشر • وفى السنة التالية بدأت موجة أخرى تدفق معها عدد كبير من الايرلنديين من أصل اسكتلندى ، الذين بدءوا يستقرون قرب بتسبرج الحالية • ولم تشارك جماعة من هذه الجماعات فى فكرة الكويكرز المثالية حول التعايش المنسجم بين الجنسيات المختلفة • فقد ساقهم من أوطانهم الكساد الاقتصادى الزمن ، ولم يكن يهمهم سوى اقامة حياة جديدة تتركز حول فلاح الأرض فى المناطق النائية من مستعمرة بن ، والحصول على أرض بشكل معقول ، والعيش فى مستعمرة يكونون

(*) البلاتينيون هم أبناء البلاتينيات (Palatinate) ، وهما مقاطعتان ألمانيتان ، كان يحكم كلا منهما ، فى عهد الامبراطورية الرومانية المقدسة ، امير اقطاعى ذو امتيازات ملكية فى مقاطعته - (المترجم) •

فيها أحرارا في ممارسة دينهم ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين لمواءمة أنفسهم للعيش مع القبائل المحلية ، خاصة اذا ما رغب سيطرة الأراضى وموظفو الحكومة فى التعاون معهم لطرد الهنود من أراضيهم .

ومن سخرية الأقدار أيضا ، أن كثيرا من الهولنديين الذين هاجروا هربا من الظلم الأوروبى ، كان عليهم أن يواجهوا ، كذلك ، لاجئين جددا هاربين من الظلم . ففى أواخر القرن السابع عشر ، والنصف الأول من الثامن عشر ، أصبحت وديان بنسلفانيا التى تشرب من نهر سسكيهانا ملاذا لعدد من القبائل التى هاجرت داخليا من الجنوب والغرب ، بعدما سمعت عن السياسة الكريمة للكويكرز مع الهنود ، والتى اعتقدوا أنها ستقدم لهم فرصة بعيدا عن المواقف الميئسة التى وجدوا أنفسهم فيها نتيجة الاحتكاك بالمجتمع الأوروبى ، فجاء النانتيكوك ، والكونوى Conoys من ميريلاند ، هاربين من الحرب والاسترقاق الذى هبط بأفراد قبائلهم الى العشر ، عدة عقود من السنين ، وهو ما أخبر به أحد المتحدثين الهنود ، حكومة بنسلفانيا بقوله : « ان سكان ميريلاند لا يعاملون الهنود كما تفعلون أنتم مع الآخرين ، لأنهم يستعبدونهم ، ويبيعون أطفالهم جريا وراء المال ، (٢٤) . كما أتى التوسكارورا ، والتوتيلو Totelos من فرجينيا وكارولينا الشمالية ، لأسباب مشابهة . وجاء من الجنوب الغربى ، الميامى Miamis ، والشاونى Shawness الذين عاشوا من قبل ، فى وادى أوهايو ، وتاجروا مع الفرنسيين . وهكذا ، تقدم عدد ضخم من الهنود باطراد تدريجى الى منطقة بنسلفانيا الوسطى فى الثلث الأخير من القرن السابع عشر . وكان الأمر بالنسبة للأوروبيين الذين وصلوا فى أوائل القرن الثامن عشر ضربة حظ غير متوقعة ، حيث سهل الهنود الاستيطان الأوروبى المتأخر بتنظيف الأرض لزراعة المحاصيل ، وإقامة مواقع القرى بالقرب من وسائل نقل المياه ، وتمهيد ممرات ومسالك فى الأماكن الوعرة أو غير الآهلة لاستخدامها للصيد . فلما وصل البنسلفانيون الجدد ، جنوا ثمار هذا العمل التمهيدى ، باستخدامهم الطرق الهندية للتقدم نحو الغرب ، واحتلالهم مواقع المدن الهندية ، واستيلائهم على الحقول النظيفة المعدة للزراعة .

تدهور الوثام فى بنسلفانيا :

انتبه شعب الديلاوير ، وغيرهم من اللاجئيين الهنود الى تدهور وضعهم مباشرة ، بعد موت وليام بن فى انجلترا . وبعثوا بشكاوى مريرة الى حكومة فيلادلفيا بأن المستوطنين الجدد يبنون سدودا للطواحين فى اتجاه مجرى النهر ، وبالتالى ، يصدون السمك عن الصعود الى أعلى النهر

لوضع البيض وتفريخه . وكان المستوطنون يتدققون ، ويضعون أيديهم بلون وجه حق على الأرض التي لم تكن قد اشترتها الحكومة بعد . وأخذوا يوزعون المشروبات الروحية ، بحرية تامة ، وبأساليب الخداع والمكر للهنود أثناء مساومتهم ، وأصبح الارهاب الصريح هو الأداة المستعملة في سياسة البيض الخاصة بالأرض ، حيث كان يسود انصاف الكويكرز وعدلهم ذات يوم . الا أن القبائل فضلت الجلاء عن أراضيها بدلا من الحرب ، وهي تعلم ما حدث عند اللجوء الى العنف في فرجينيا ونيوانجلند ، فهاجر الفرع الرئيسى من الديلاوير سنة ١٧٢٤ الى الغرب ، فاستقر جزء منهم قرب حدود مستعمرة البيض ، ولكن البعض الآخر ابتعدوا الى نهر أوهايو ، كل ذلك وهم مشحونون بالسخط والامتعاض . وبعد ذلك بجيل ، عندما تحالفوا مع الفرنسيين وهاجموا الانجليز ، حلفاءهم السابقين ، كان لابد أن يجنى البنسلفانيون ثمرة غرسهم السابق . وقد كتب أحد أشخاصهم البارزين عن عملية طردهم قائلا : « هذا الشعب المسكين ، قد تعرض للاذعاج والتشتت . . . ولما وجدوا أنهم لن يتمكنوا من جنى محصول الحبوب اللازمة لخبزهم ، انتقلوا بهدوء الى نهر سسكيهانا ، رغم تدميرهم من سوء المعاملة . . . ، وقد كانت لديهم بالتأكيد ، نفس أسباب التدمير ، مثل كافة الهنود الآخرين في هذه القارة كأساس لحروبهم التي شنوها بصورة فظيعة في بعض الأماكن ، ليدمروا السكان الأوروبيين . » (٢٥) .

ثم أتى التطور في تجارة الفراء في بنسلفانيا بالتغير الثانى الذى دمر سياسة بن الهندية ، فقد كان يأمل في تجارة الفراء منذ البداية ، وذاق حلاوة احتكارها . لكن تجارة الفراء التى سيطر عليها الايروكوا كانت فى القبضة القوية لتجار نيويورك . وفى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، على كل حال ، خاب أمل الايروكوا على يد شركائهم التجار من الهولنديين والانجليز فى ألبانى ونيويورك . ولما اشتكوا من ارتفاع أسعار البضائع وسوء معاملة التجار ، اقترحوا على حكومة بنسلفانيا امكانية تحويل تجارتهم من فراء الغرب الى نهر سسكيهانا الذى له منابعه فى قلب أراضى الايروكوا ، ومن هناك تنتشر على طول نهر شويلكيل Schuylkill الى فلادلفيا . وجرت اتصالات تجارية أخرى مع قبيلة الشاونى الذين هاجروا شرقا من اقصى الغرب ، ولكنهم أبقوا على علاقاتهم التجارية مع صائدى الحيوانات من الهنود فى وادى أوهايو ، وحصل تجار بنسلفانيا أخيرا على وسيلة لربط أسواق الأوروبيين والوطنيين معا .

جيمس لوجان :

ارتبطت تجارة الفراء بالمنافسة على الأرض ارتباطاً معقداً في بنسلفانيا كما في غيرها من المستعمرات . ويسهل ادراك ذلك جيداً اذا نظرنا الى تلك الشخصية التي انهمكت للغاية ، في كل من مسائل الأرض والتجارة الهندية في مستعمرة الكويكرز - ألا وهو جيمس لوجان، وهو إيرلندي - اسكتلندي المولد ، استسلم في ضعف للكويكرز ، وبعث به بن إلى بنسلفانيا سنة ١٦٩٩ عندما رأى في هذا الشاب تألقاً في الذكاء ، وحماساً في العمل ، يرشحه ليعمل أمين سره الخاص ، ولم يكن مخطئاً في رؤيته لما وراء لوجان من امكانات . فقد كان لوجان تواقاً طوال حياته لدراسة الكلاسيكيات (أدب الاغريق والرومان) ، واللغات الأوروبية والفلسفة ، والتاريخ والعلوم . فكان لابد أن يصبح مشهوراً ، ان عاجلاً أو آجلاً في المستعمرات ، كواحد من عمالقة الثقافة والفكر - ومثالا براقاً للأوروبي الغربي ، المتعدد الجوانب ، والموجه الرئيسي لتقسيم المدينة في منطقة الحدود ، وكانت مكتبته الخاصة لاتضاهيها مكتبة في أمريكا في فترة ما قبل الثورة ، وتعادل اسهاماته في الثقافة الاستعمارية قبل سنة ١٧٥٠ اسهامات أي أوروبي آخر في القارة ، ومع ذلك كان لوجان ميالاً الى الثروة والنفوذ . وقد حقق كليهما بالفعل . وبوصوله كسكرتير لبن ، جمع لوجان سلسلة مذهلة من الوظائف ، منها وكيل الأملاك الخاصة ، وعضو مجلس الشورى ، ورئيس المحكمة العليا ، ووزير المقاطعة ، وأمين صندوق ريع الأملاك ، والوصي على ضيعة بن بعد وفاته ، ونتيجة لشغله كل هذه الوظائف أصبح ذا خطر في سياسة بنسلفانيا في العقود الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر ، كما أصبح ، تلقائياً ، واحداً من أغنى أغنياء المستعمرة بوصفه تاجراً ومضارباً في عمليات صائدي حيوانات الفراء الفرنسيين الذين أعطتهم خبرتهم مدى الحياة في تجارتهم الهندية أهمية لا غنى عنها ، فكان يستورد كميات من السلع من انجلترا ثم يوظف نفوذه السياسي ، والتنفيذي المتعدد الجوانب ، مع الرشوة لتسهيل ربحه ، وقد كتب في ذلك أحد المؤرخين للتجارة الهندية في بنسلفانيا فقال :

في التجارة الهندية ، لقي لوجان ، التاجر ، مساعدة عظيمة في أسواقه ونظامه في التسويق بواسطة لوجان وكيل الأملاك الخاصة ، ولوجان وزير المقاطعة ، ولوجان وكيل عائلة «بن» . فعندما لا يرغب لوجان التاجر في المخاطرة بماله الخاص في أعماله الخاصة ، كان لابد أن يقوم لوجان وكيل الأملاك باقراض التاجر ، من مال المقاطعة . . . وعندما أثبت

**التاجر علم استفادته ، استطاع لوجان وكيل الأملاك والزعم
السياسي أن يرتب في هدوء مع حليفة الموثوق فيه ، كبير
المساحين ليخصص قطعة أرض للتاجر ليتخذها قاعدة
لعملياته (٢٦) .**

هذا فضلا عن أنه قد باشر ، بصفته وزير المقاطعة ، المفاوضات
الدبلوماسية مع الهنود ، وكان بإمكانه استخدام تجارته رسلا عنه
ومترجمين ، وهي سياسة عززت هيبة التاجر مع الهنود مما أعطاهم
سببا آخر لاحترام نفوذ لوجان التاجر ، وظلت تتراكم مزايا أخرى كثيرة
نتيجة قدرته على أن يكون شبكة معلوماته التجارية عن أفضل الأماكن
خصوبة وأفضلها موقعا في الريف الداخلي . وكان الهنود خبراء مهرة
بالزراعة ، ومؤتلفين مع المناطق الخلفية التي تمتد المدن بالمؤن وغيرها .
ولذلك كانوا ينتقون بحكمة ، ما يزرعونه في قراهم . وقد خصص لوجان
أراضي المقاطعة للتجار في أقرب المواقع الممكنة من هؤلاء الهنود ، وعقد
صفقات كبيرة بنفسه ، ثم بدأ يوجه الوافدين من السويسريين ، والألمان ،
والاسكتلنديين / الإيرلنديين الى هذه المناطق . وبازدياد عدد المستوطنين
البيض ، ازدادت قيمة ممتلكات لوجان من الأراضي . وفي نفس الوقت ،
فان ائتلاف محاصيل الهنود غير المحمية بالأسوار بواسطة ماشية وخنازير
الأوروبيين خلق المشاكل أمام الزراعة الهندية مرارا وتكرارا ، « وكان
جوهر (هذه) الأنشطة ضد الهنود هو جرهم ناحية منطقة السسكيهانا
وراء التجارة ، ثم دفعهم الى أبعد من ذلك جهة الغرب ، مع افساد اتجاههم
الاقتصادي وصرفهم عن الزراعة المستقرة ، والمبالغة في أهمية الصيد
وحياة البداوة والترحل » (٢٧) .

في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، تم تفسير بنسلفانيا
الشرقية من سكانها الهنود ، كما أن أراضي الديلاوير التي امتنع الحصول
عليها عن طريق تجارة الفراء أو التنازل للملاك البيض خاصة الدائنين
المجاورين لقرى الديلاوير أمكن الحصول عليها بالتواطؤ مع غيرهم من
الهنود ، وهم في هذه الحال ، الايروكوا الذين اتجه اليهم البنسلفانيون
ليساعدوهم في طرد آخر القبائل المحلية ، حيث كان جيمس لوجان أول
من طلب من حكومة المقاطعة عقد حلف مع الايروكوا الذين يفرض اتحادهم
الشمالي القوى سلطانه على كل القبائل الهندية الصغيرة التي تقطن
بنسلفانيا . وكان هدف التحالف ، طبقا لحسابات البيض هو تحقيق
السلام بين الأجناس المختلفة وهو ما لا يمكن الحصول عليه الا اذا تولت
الشعوب الهندية الأقوى مسئولية ادارة شئون الجماعات الهندية الأصغر
منها . ولكن الغرض الحقيقي من الحلف هو طرد الديلاوير من مواطنهم دون

اللجوء إلى القوة • وهكذا اضطرت عشيرة من الديلاوير سنة ١٧٣٢ إلى التخلي عن أرضها في تولبهوكين Tulpehocken على بعد حوالي ٦ أميال من فيلادلفيا ، والهجرة إلى نهر سسكيهانا إلى شاموكين Shamokin ، حيث عاشوا تحت مراقبة وإشراف زعيم ضعيف للديلاوير •

وبعد عشر سنين ، تمت عملية طرد الديلاوير في مؤتمر بفيلادلفيا ، وكان موضوع القضية هو الأرض الواقعة بين نهري ليهي Lehigh وديلاوير والمعروفة بـ «مقرن أو ملتقى الديلاوير» • وفي سنة ١٧٣٥ ، أبرز لوجان صك نقل ملكية قديم ادعى بأنه موقع سنة ١٦٨٦ ، وأن أسلاف زعماء الديلاوير الحاليين قد تخلوا بموجبه عن هذه الأرض إلى وليام بن ، ولكن نظرا لعجز لوجان عن اظهار النسخة الأصلية ، ولنقص مراجع نقل الملكية في سجلات الأراضي في فيلادلفيا ، والنقل الشفوي لتقاليد الهنود وانتقال ملكية الأرض بينهم من جيل إلى جيل ، بدقة يندر أن يصيبها الخطأ ، كل ذلك يشير إلى ما انتهى إليه البنسلفانيون وهو اقتناعهم التام بأن لديهم سندهم في اجبار الديلاوير على ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالاتفاق ، واحتج زعيم الديلاوير نوتيموس Nutimus ، وتيشيكونك Tishecunk بأنه لو كان أسلافهم باعوا الأرض فلا بد أن يكون لديهم علم أكيد بذلك ، وجادلهم لوجان في ذلك بأنهم كانوا في ذلك الوقت « عيالا صغارا » • وتهمنا هنا ، رؤية نوتيموس لنظامين من القيم واجه كل منهما الآخر ، كما يكشف عن الأسلوب الهندي في تسجيل التاريخ ، فقد رد نوتيموس « بأنه أخذه عن والده » :

ومع ذلك ، كان يمكنه أن يعرف ، من الأسلوب الهندي المعروف في بيع الأرض ، لأن الهنود يملكون أرضا تحدها المرتفعات ونهر كريك وروافده • وكان الزعيم ، ومعه دائما تفويض من الآخرين بالبيع يجمع رؤوس العائلات التي لها حق ، أيا كان ، في الأرض ، فيبيع ، ويقسم بينهم ما حصل عليه نظير الأرض مع إخبارهم عن سبب تسلمه لهذه السلع ، وبعد ذلك يوزع رؤساء العائلات حصتهم بين شباب الأسرة ، ويخبرونهم بعملية البيع ، وهكذا ، لابد أن يعلم بالأمر ، تماما ، كل فرد له أي حق كان • فضلا عن ذلك ، كلما حدث بيع ، يدعو الزعيم الذي باع ، زعماء القبائل المجاورة بصفتهم أصدقاء ، ليس لهم حق ، وذلك ليشهدوا على البيع ، ويعطيهم نصيبا من السلع ليتذكروا به واقعة البيع • وهذا ما نظنه أفضل طريقة ليعرف الكل بما حدث • لأنك عندما تأخذ عقدا منا فانك تغلق عليه

خزانتك ، فلا يعرف احد ماذا اشتريت ، وكم دفعت فيه ،
وعندما تباع بعد ذلك أرضنا قطعا صغيرة مقابل مبالغ طائلة
تستطيع أن تبني ٠٠٠ منازل ترتفع الى عنان السماء بينما
تسول منك القليل لأنفسنا ، وبتوزيعه بيننا وبين اصلقاتنا
نضطر أن نسكن في الأوغام ، ومع ذلك ، لم ندع بأى حق
على أرض بعناها صراحة ، ونحن نعلم ألا حق لنا في ذلك (٢٨)

وبالرغم من اعتراض زعماء الديلاوير على شرعية هذه الصكوك ،
لاقوا معارضة موحدة من البنسلفانيين والايروكوا . وفي النهاية وقعوا
على تصديق لوثيقة سنة ١٦٨٦ المدعاة ، وذلك انحناء منهم للتهديدات
المستترة بأن المقاومة لن تؤدي الا الى صراعات يتلوها عنف تتسبب في
تآكلهم وانقراضهم . وبعد ذلك بعامين ، في سنة ١٧٣٧ كانت أهداف
الوثيقة الهندية أن « يتم نهبهم » بغير حق ، بناء على الصك المزعوم الذي
يمنح بن كل الأراضي الممتدة من نقطة محددة في مقاطعة بكس
Bucks County غربا الى أقصى ما يستطيع رجل أن يصل اليه في
مسيرة يوم ونصف . وكانت هذه المسيرة نفسها فرصة أخرى للاحتياف
على الهنود وسلب حقوقهم . فقد وصل حديثا اثنان من أبناء وليام بن الى
بنسلفانيا لتعزيز ملكياتهما بسبب تدهور أسعارها أثناء بيع الأراضي ،
وشاركا شخصا في التخطيط لارسال فرق كشفية سرية داخل الغابات
لتمهيد الممرات الوعرة وذلك بحرق الأشجار أو وضع علامات عليها بقض
أجزاء من لحائها ، لتسهيل عبور الجوالين في هذه الأرض بأسرع ما يمكن .
وباستخدام ثلاثة من الجواله المدربين تدريبا خاصا لتتبع هذه الممرات
المعلمة ، استطاع ابننا « بن » أن يملك ادعاءهما في أراضي الديلاوير الى
٦٠ ميلا تقريبا أبعد من الحدود التي عنها زعماء الديلاوير .

وفي ظل هذه الظروف ، أصبح ١٢٠٠ ميل مربع ، تقريبا في أيدي
آل بن ، بينما تم تجنب عشرة أميال مربعة عن طيب نفس كأراضي
المحميات تخصص لاستعمال الهنود . ولكن نوتيموس وغيره من زعماء
الديلاوير رفضوا الرحيل عن أراضيهم بعد أن ملأهم مرارة هذا الدليل
الآخر على خداع البيض وخستهم . وبدأ مئات من المستوطنين يتدفقون
الى القطع الصغيرة من الأرض ، التي باعها آل بن ولوجان ، الذين دفعتهم
بصيرتهم النافذة الى عقد صفقات كبيرة في المنطقة . وكان حل الصراع
المتوقع هو دفع الايروكوا لطرده الديلاوير ، حيث أشار حاكم بنسلفانيا
سنة ١٧٤١ بقوله : « نحن نتوقع منكم الآن ، أن تضطروا هؤلاء الهنود
الى الرحيل عن أرض ملتقى الديلاوير ، وألا تسمحوا بأى ازعاج
لن يملكونها الآن » (٢٩) .

تجمع ممثلو الايروكوا ، بعد ذلك بعام ، فى فيلادلفيا ، للوفاء
ببتعهدهم ، وفى مجلس كبير حضره زعماء الديلاوير وزعماء الايروكوا
والمستولون فى حكومة بنسلفانيا ، أوما المتحدث الايروكوى الى حقيقة
أساسية فى علاقات الهندى والأبيض وهى : أنه بينما يملك بعض
المستعمرين الانجليز القدرة على خداع الشعوب الوطنية وسلبها ،
أو قهرهم ، بدون مساعدة ، فانهم يعتمدون على العداوة بين القبائل ونهم
الهنود الى البضائع الأوروبية ، وذلك للحصول على مساندة القبائل
القوية فى الصراع ضد القبائل الضعيفة . وفى هذا يعترض الخطيب
الايروكوى قائلا بعنف :

أبناء العم ، انكم تستحقون أن تعلقوا من شعركم حتى تفيقوا
وتعودوا الى الصواب . انتم لاتعرفون أى أرض تقفون عليها
ولا ماذا تفعلون . . . لقد رأينا بأعيننا عقد ملكية هذه الأرض ،
موقعا عليه من تسعة من أسلافكم منذ أكثر من خمسين عاما ،
وعقدا بالتخلي عن الملكية موقعا منذ سنوات ، ليست طويلة
من بعضكم ومن زعماء يعيشون الآن بينكم ، يصل عددهم الى
خمسة عشر أو يزيد ، ولكن ، كيف جرؤتم أن تأخذوا على
عاتقكم بيع الأرض نهائيا ؟ لقد هزمتكم وجعلناكم نسوة .
وانتم تعرفون انكم نسوة ، ولا يمكنكم بيع الأرض أبدا
بأكثر مما تستطيعه النساء . ولا يناسبكم أن يكون لكم حق
بيع الأرض طالما انكم تسيئون استعمالها . وهذه الأرض التى
تدعون بحقكم فيها ضيعتها شجاعتكم . لقد تزودتم باللباس
واللحم والشراب من هذه السلع التى أخذتموها فى مقابلها ،
ثم تريدونها الآن مرة ثانية ، كالأطفال ، وانكم كذلك . . .
لهذه الأسباب جمعا نأمركم بالنزوح فورا ولا نسمح لكم
بالتفكير فى ذلك ، انتم نسوة ، فخلوا نصيحة رجل عاقل
وارحلوا فى الحال . . . قوموا من المجلس وفكروا
فيما قيل لكم (٣٠) .

بعد هذه الهبة المدمرة أو الصرخة العاصفة ، من الايروكوا ، تجرد
الديلاوير من حق البيع والشراء أو تنفيذ العقود ، وظلوا علة أجيال
يعتبرون أنفسهم تابعين للايروكوا ، ولكن الرابطة كانت تبادلية ، لأنه
إذا اعترف الديلاوير بسلطة الايروكوا فى أمور الحرب والسياسة ، فان
الايروكوا أيضا قد اعتبروا الديلاوير احدى « الدعامات » الجنوبية فى
تحالفهم ، واحترموا أسلوبهم فى ادارة أراضيهم الخاصة . والآن ،
ترك الديلاوير فيلادلفيا ، وهم أذلاء ، على يد حماتهم السابقين ، وفقدوا
الأمل فى الاستقلال بأمورهم الداخلية ، بينما ترك الايروكوا فيلادلفيا فى

سعادة غامرة في قافلة من الخيول المسروقة ، والصربات المحملة بالأحذية والجوارب والقبعات والبطاطين والفتوس قصيرة اليد ، والمجارف ، وغيرها من البضائع . ورحل جيمس لوجان وملاك بنسلفانيا ومعهم عدد واف من صكوك الأرض ، يدر عليهم دخلا كبيرا لسنوات عديدة قادمة ، ولم ينس الديلاوير المنسحبون اهانات الايروكوا الساخرة منهم ، ووصفهم بأنهم نسوة وأطفال ، وظلت ترن في آذانهم اثنى عشرة سنة ، حيث أصبحوا ضمن أول قبائل الغرب التي تحالفت مع الفرنسيين ، ليسددوا سلسلة من الضربات المدمرة على طول حدود بنسلفانيا عند بدء الحرب بين الفرنسيين والهنود .

العلاقات بين كارولينا الجنوبية والهنود :

الى الجنوب من تشيزابيك ، تخلصت ، مجموعة أخرى من القوى العسكرية من بقايا القبائل الساحلية في بداية القرن الثامن عشر ، ففي فترة الاستيطان الأولى في كارولينا الجنوبية ، تم تدمير الويستو ، والسافانا ، أو بيعهم عبيدا في خضم الصراع بين ملاك كارولينا والتجار المستقلين للسيطرة على التجارة الهندية . لقد وجه الملاك اتهامات سنة ١٦٩٥ بأن تجار الرقيق قد بسطوا نفوذهم على مجلس الحاكم « وأثاروا الحروب وأقاموا السلام مع الهنود بما يتلاءم مع مصالحهم التجارية » (٣١) . اذ أن هؤلاء الذين اعتمد عليهم الملاك كثيرا ، قد استغلوا نفوذهم لافساد السياسة الهندية لملاك الأراضي لصالحهم الشخصي . الا أنه في أوائل القرن الثامن عشر ، وفي حركة تذكرنا بتحدى بيكون لجماعة الحاكم بيركلي التي احتكرت التجارة الهندية في فرجينيا ، تحدث جماعة من التجار الأقل شأنًا سيطرة الحاكم ومستشاريه على هذه التجارة ، مستغلين مجلس النواب كمحور ارتكاز في محاولة تحطيم سيطرة من هم أعلى منهم على التجارة المربحة ، حتى شكوا الحاكم سنة ١٧٠٧ من « الحشد الهائل من التجار الذين يعرقلون التجارة الآن بشكل مطرد ، بأساليبهم الروتينية المعروفة لمصلحتهم الخاصة » (٣٢) . ولكن إيقاف هذا الحشد الوافر لم يكن ممكنا ، اذ لم يكتفوا بارسال المزيد والمزيد من وكلائهم الهنود الى الداخل ، بل وانتزعوا السيطرة على السياسة الهندية من مجلس الحاكم ووضعوها في أيدي مجلس النواب .

لقد كشف التجار الجدد ، عن خطط لتنظيم دقيق للتجارة ، وكان لابد أن تنتهى المعاملات المشينة كاستخدام المشروبات الروحية لتخدير الهنود لعقد اتفاقات جائرة ، وحثهم على مهاجمة القبائل الصديقة للمستعمرة ، واسترقاقهم ، ولفتسوا النظر الى أن جيمس تشايلد

J. Child ، زوج ابنة الحاكم وشريكه في التجارة قد حرض أخيرا الشيروكي على بعض أصدقائه الهنود ، وكافأهم بسخاء عندما أحضروا ١٦٠ عبدا الى سوق تشارلستون للنخاسة ، وعندما بدأت سنة ١٧٠٧ خطة الاصلاح الداعية الى « تنظيم التجارة الهندية وتأمينها للكافة » ، كان لابد من استخراج رخصة لكل تاجر ، واخضاع أنشطته لاشراف هيئة المندوبين الهندية ، كما لابد من توقف جميع الأساليب التي يلجأ اليها التجار لاسترقاق الهنود المسلمين ، وبيع شراب الروم ، وزيادة قيمة الديون الهندية التي يمكن استغلالها في جعل الهنود شبه أرقاء .

الى أي حد قصدت الهيئة التشريعية اصلاح التجارة الهندية ، التي كانت تدر أرباحا طائلة على من يسيطرون عليها ؟ هنا ما لم يكن معروفا بالضبط . وأيا ما كانت هذه المقاصد ، لم تكن هذه الاصلاحات المقترحة ذات جدوى . اذ أن نقل تنظيم التجارة الهندية من يد أعضاء المجلس الاقليمي الى أعضاء المجلس الشعبي قد كثف من المفساد والمظالم بدلا من تقليلها ، وزادت الغطرسة ، والخداع ، واساءة المعاملة ، في الواقع ، في السنوات التي أعقبت قانون الاصلاح سنة ١٧٠٧ ، مما فجر حرب التوسكارورا سنة ١٧١١ .

حرب التوسكارورا :

كان التوسكارورا شعبا وافر العدد ، يعيش في كارولينا الشمالية ، في قرى كبيرة محصنة يجمعون فيها القنب ، ويزرعون المحاصيل ، ويعتنون ببساتين الفاكهة ، التي زرعوها على شاطئ البحر ، جيلا بعد جيل . وقد كانت القبائل المجاورة لهم ، والمتحالفة مع تجار فرجينيا وكارولينا الجنوبية ، تغير عليهم منذ سنوات . فيسرقون أولادهم ويبيعونهم للنخاسين البيض . وفي سنة ١٧٠٩ ، شاهدوا سربا من الألمان والسويسريين بقيادة البارون جرافينريد Baron de Graffenried يغزون أراضيهم بموافقة ضمنية من الحكومة الاقليمية . واكتشفوا أيضا في تجارتهم المحلية أنه لا يمكنهم الوثوق بعدالة الأوروبيين . الا أنهم أدركوا الضعوبات أمام تشكيل حلف لجميع الهنود ، ولم ينسوا ما حدث لمن لجأوا الى القوة ضد المستوطنين الاستعماريين . فقرروا أن الأفضل من ذلك هو النزوح شمالا الى بنسلفانيا حيث لابد أن يجدوا لهم ملاذا لدى الكويكرز في مستعمرة بن . وفي يونية ١٧١٠ تقابلوا في كونيستوجا Conestoga مع ممثلين لمجلس بنسلفانيا وحلف الايروكوا الذين كانوا يرغبون في وضع أنفسهم تحت حمايتهم . وقد تبعثرت آمالهم ، على كل حال ، لأن حكومة بنسلفانيا تعاليت على التأجيل ولم تقدم أي وعود عاجلة بتوفير ماوى لهم .

ولما كان يستحيل عليهم الانسحاب ، جمع التوسكارورا أكبر عدد ممكن من القبائل المحلية التي تشكو من نفس المظالم مثل : الكورى Correos ، والبسامليكو Pamlicos ، والماتاموسكيكيت Matamuskeets ، وغيرهم ، وهاجموا الأوروبيين المعتدين على ممتلكاتهم وحقوقهم ، وقتل في هذا الهجوم الابتدائي حوالى ١٣٠ انجليزيا والمسانيا ، وأهاج هذا الشقاق الداخلى كارولينا الشمالية ، ونظرا لقلة الكثافة السكانية بها ، نشطت في طلب المساعدة من جيرانها من المستعمرات ، ما دامت لا تملك سوى ميليشيا مهلهلة تواجه بها المهاجمين الهنود . وقد وعدت حكومة فرجينيا بتقديم الملابس والأموال دون الرجال ، حيث لم يكن أهالى فرجينيا مستعدين للتضحية بأرواحهم دفاعا عن أهالى كارولينا الشمالية الذين كانوا يتنازعونهم بعنف الحق في أراضي الحدود . لكنهم وجدوا المساعدة التي ينشدونها في كارولينا الجنوبية ، المستعدة للمعركة . ان رجال التاريخ ، عادة ما يتغنون بالثناء على حكومة كارولينا الجنوبية لمجيئها لانقاذ جيرانها الشماليين ، ولأخذها « أعباء الحرب المالية والعسكرية » على عاتقها ، على حد قول أحد المؤرخين (٣٣) . وحقيقة الأمر ، أن تجار الرقيق الهندي من كارولينا الجنوبية دخلوا النزاع ، لأنهم اشتموا في الجو ، رائحة الريح ، فقام الكولونيل جون بارنويل J. Barnwell ، وهو أحد التجار المهمين في التجارة الهندية بكارولينا الجنوبية بقيادة جيش من ٥٠٠ رجل تقريبا الى أرض التوسكارورا ، ولم يضم هذا الجيش من البيض أكثر من ثلاثين رجلا حيث قصد الكارولينيون الجنوبيون أن يحارب حلفائهم الهنود معظم المعركة عنهم وخاصة الياماسى . وكان وراء عرض المساعدة في آخر الأمر للكارولينيين الشماليين المحاصرين فرصة هزيمة التوسكارورا واسترقاق أعداد كبيرة منهم لبيعهم في سوق الهند الغربية . وقبل أن يصل بارنويل الى حصون التوسكارورا ، في يناير ١٧١٢ كان العديد من الهنود في جيشه قد هربوا من الخطة ، الا أن بقية القوة هزمت مجموعة من التوسكارورا وأسرت منهم ثلاثين عبدا . ومما أفزع بارنويل أن حلفاء الياماسى هربوا بغنيمتهم وعقب على ذلك بقوله : « بينما كنا ننحر بالسيوف في رقاب الرجال (التوسكارورا) استولى جنودنا على كل العبيد بالسرقة والاحتياال ، ولم نحصل الا على فتاة واحدة » (٣٤) .

أمر بارنويل بالانتقال الى مكان آخر لتدمير المثبات من منازل التوسكارورا ، وأخذ العديد منهم أسرى ، وقد سجل في يومياته أن « الأوامر صدرت في الحال بحرقهم أحياء » (٣٥) . وحاول بارنويل بعد ذلك أن ينقض على قلعة أخرى للتوسكارورا لولا أنه وجد قواته منهكة ، وامداداتها سيئة فاتخفت الترتيبات لعقد هدنة . ولما واجه عودته الى

كارولينا الجنوبية وليس معه سوى حفنة من العبيد خرق الهدنة ،
والم بالريف بسرعة لمزيد من الأسرى في طريق عودته . وردا على خرقه
الهدنة جدد التوسكارورا هجماتهم وكانت دعوة للكارولينيين الجنوبيين
مرة ثانية لزيادة ثرائهم بمساعدة جيرانهم . وأعلن ممثل خاص لحكومة
كارولينا الشمالية وهو يستحث ارسال حملة ثانية أن « كثيرا منا يعتقدون
أن المكسب العظيم (الذى) يمكن تحقيقه من العبيد ههناك ، الذين
سيكونون بالآلاف من النسوة والأطفال ، كانوا ٣ أو ٤ آلاف » (٣٦) .
ولما لم يفرغ الكارولينيون الجنوبيون من الصراعات المسمرة داخل حكومة
كارولينا الشمالية ، أصغوا الى نصيحة حاكمهم الذى أكد أن « ما أنجزناه
فعلا (فى الحملة الأولى) ورد الفعل الذى قاموا به لا يشجعنا على اعطائهم
آية مساعدة أخرى ولكننا نتصرف وفقا لمبادئ أسسنا من أن نأخذ البرىء
بالمذنب .. » (٣٧) .

كانت الحملة الثانية ، بقيادة تاجر رقيق هنسلى آخر ، يدعى
جيمس مور James Moore ، وهو بهار محنك فى حملات الرق فى
فلوريدا الأسبانية . فجند جيشا من ٣٣ مستعمرا أبيض ، وما يقرب من
التسعمائة شيوخ وياماسى ، وكريكى وكتاوى . بهجومهم العاصف على
حصن التوسكارورا فى نوهيروكا Nooherooka فى مارس ١٧١٣
هزموا قبيلة كارولينا الشمالية تماما ، وأحرقوا فى الحصن عدة مئات
من العدو أحياء ، وأسروا ١٦٦ رجلا اعتبروهم لا يصلحون عبيدا فقتلوهم ،
وسيق ٣٩٢ توسكارورى ومعظمهم من النساء والأطفال الى سوق
تشارلستون للعبيد . أما خسائر المهاجمين من كارولينا الجنوبية فكانت
٥٧ بين قتيل وجريح ومفقود منهم ٢٢ من البيض و ٣٥ من الهنود ،
وقد دمرت خسائر التوسكارورا أثناء الحرب بنحو ألف تقريبا ، كما أخذ
أكثر من ٧٠٠ فرد عبيدا (٣٨) . وقد هامت البقايا المبعثرة من القبيلة
على غير هدى ، نحو الشمال ، فى أعقاب الحرب ، تبحث لها عن ملجأ فى
حماية الايروكو .

حرب الياماسى :

بعد سنتين من مساهمة الياماسى فى هزيمة واسترقاق أعداء الرجل
الأبيض فى كارولينا الشمالية ، كانوا هم أنفسهم على رأس أكبر حركة
مقاومة ضد الأوروبيين ، وأكثرها نجاحا فى تاريخ المستعمرات الجنوبية
فى القرن الثامن عشر ، وذلك أن مقدراتهم على أن يكونوا رأس حربىة
للانتفاضة التى عمت كل الهنود ، التى لم تشمل الكثير من البقايا
المتناثرة للحضارات الساحلية فقط ، بل وكذلك أقوى القبائل الداخلية
وأكثرها عددا مثل الكريك ، والشوكتاو ، والشيروكى ، جعلتهم أقرب

الى محو المستعمرين البيض من أى وطنيين أمريكيين فى فترات المستعمرات .
ولولا نجاح الكارولينيين فى آخر لحظة فى كسب الشيروكى الى جانبهم ،
لما نجحت المستعمرة من حركة مقاومة هندية قدرها مجلس كارولينا الجنوبية
بأنها ضمت خمس عشرة قبيلة وعشيرة ، مجموع أفرادها أكثر من
٣٠٠٠ . ولقد شغف الياماسى مثل غيرهم من قبائل الجنوب تقريبا
بالارتباطات التجارية مع الانجليز ، ثم نشموا على ما سببته هذه التجارة
من تبعية . وقد وصل الياماسى الى حد اليأس فى علاقتهم مع المستوطنين
الانجليز ، حتى وهم يهاجمون القبائل الأضعف منهم لتزويد تجار العبيد
فى تشارلستون ومساعدة الكارولينيين فى اخضاع التوسكارورا . لأنه
عندما سارع مربو الماشية باقتحام المنطقة الساحلية جنوب تشارلستون ،
فى العقد الأول من القرن الثامن عشر اضطرت حكومة كارولينا الى اصدار
قانون ١٧٠٧ « لتعيين نطاق استيطان الياماسى لمنع الأشخاص من
مضايقتهم بقطعانهم » ، وبالرغم من سهولة اثبات أن القانون قد رسم
لمساعدة الياماسى الا أن المقصد الحقيقى ، كما يتضح من عنوانه كان لعزل
الهنود فى محميات ، وذلك لفتح بقية الأراضى أمام المستوطنين البيض .
وبعد ذلك بسنوات ثلاث ، كانت سلطات كارولينا تقاوم أولئك المقتحمين
الذين شرعوا فى احتلال الأرض فى المنطقة المحجوزة للياماسى .

بل ان التجار الهنود أنفسهم ، الذين اعتمد عليهم الياماسى كانوا
أكثر استبدادا وظلما ، لقد أصغى مندوبو الحكومة الهنود الى تقرير وراء
تقرير عن « الوحشية القاسية لبعض التجسار ، والسراقات الحفيرة ،
والاسترقاق غير القانونى للهنود الأحرار ، وسوء استخدام « الروم »
لتسهيل الصفقات الجائرة ، والموازن المشوشة » ، وكما أبلغ أحد التجار
الهنود من فرجينيا وكيله فى لندن ، سنة ١٧١٥ عن اغسواء النساء
الهنديات ، اللاتى يخرج أزواجهن فى حملات لصيدة الغزال والاغارة على
العبيد (٣٩) . وكان الياماسى يجبرون على صورة من صور السخرة
ابتداء من سنة ١٧١١ فيما أوضحه تقرير الى أعضاء اللجنة الهندية فى
تلك السنة بأنهم كانوا مدينين بكمية من الجلود تقدر بمائة ألف قطعة ،
أى ما يساوى صيد أربع أو خمس سنوات . ولما بدأ تجار تشارلستون
يقبضون على نساء الياماسى وأطفالهن ، لبيعهم عبيدا ، سدادا لجزء من
الديون ، هنا ثار الياماسى .

هجم الياماسى يوم الجمعة الحزينة (السابقة لعيد الفصح) الموافق
١٥ من أبريل ١٧١٥ ، بالتنسيق الجيد مع قبيلة الكريك الداخلية التى
أسىء استغلالها فى التجارة مثلهم تماما . هذه القبيلة ، التى كانت احدى
القبائل الكبرى الثلاث فى الداخل ، استحثها الفرنسيون الذين بنسوا
الحضون والمحطات التجارية فى وادى المسيسيبي الأدنى منذ ١٧٠١ ،

وحاولوا التودد اليهم بعيدا عن الانجليز ، ولعله الزعيم الكريكي النارج برينز Brims of Coweta هو الذى خطط للهجوم الاستراتيجى بشكل عام ، شامل لطرد الاوروبيين من الجنوب الشرقى . وعلى امتداد مستوطنات الحدود ، وأيضا أقام التجار ، كان الكريك ، والياماسى يهاجمون بمساعدة القبائل الصغيرة فى السهل الساحلى أمثال الساراو Saraws والكتاوبا ، والكونجارى ، والككاماو Caccamaws ، والأبلاشى ، والسانتى Santees ، وتدفق اللاجئون الى تشارلستون خلال صيف ١٧١٥ ، عندما حاولت حكومة كارولينا ، يائسة ، أن تعلم قوة عسكرية من المزارعين والخدم العاملين بعقود ، والعبيد ، ومن المتطوعين من فرجينيا وكارولينا الشمالية ، وجاء المدد حتى من أقاصى نيوانجلند ، خاصة وأن المسئولين فى تشارلستون أطلقوا نبوءات متشائمة بأنه اذا انهزم الكارولينيون ، فان القبائل الهندية فى جميع أنحاء القارة ستتحدها الرغبة فى الاندفاع الى المستوطنات الساحلية وتثبيت أقدامها فيها . وفى يونية ١٧١٥ ، كتبت صحيفة بوسطن نيوزليتر أن حوائى ٩٠ تاجر هندية من بين مائة تاجر فى كارولينا الجنوبية قد استسلموا ، أو قتلهم الهنود .

سدد الكارولينيون هجمات فعالة مضادة ضد الياماسى فى خريف ١٧١٥ ، الا أن الكريك ذوى الأعداد الوفيرة ، كانوا لايزالون يحملون المشاعل المحرقة الى كل مستوطنة يمكنهم الوصول اليها . والأكثر من ذلك خطورة ، أنه كان معلوما أنهم يتفاوضون مع الشيروكى أكبر شعب هندى يجاور المستعمرات الجنوبية ، ويسكن منطقة الآباش الجنوبية الجبلية ، وطبقا لأحد التقديرات فى ١٧١٥ كان يمكنهم حشد ما يقرب من ٤٠٠٠ محارب هم ربع عدد السكان . وخلال النصف الأول من سنة الحرب ظل الشيروكى على الحياد ، الا أنه كانت هناك فرصة فى أن يحصلوا على مساندتهم أو أن يمنعوا على الأقل التحالف بينهم وبين الكريك . وهكذا كان للشيروكى فى كفاح لا نظير له ، وضع بالغ الأهمية ، كما بدا ذلك من المحاورات المسعورة من كلا الجانبين لضمان وفاء حليفه .

لقد أدرك الشيروكى ، أنفسهم ، الأهمية البالغة لقراراتهم ، وتأرجحوا بسببه اذ وافقوا أول الأمر على حلف مع الانجليز فى أغسطس ١٧١٥ ، ولكنهم تقاعسوا عن الاشتراك فى الهجوم المقرر فى شهر نوفمبر ضد الكريك . ولما كان الأمر يستلزم عملا جادا ، أرسلت حكومة كارولينا حملة عسكرية من ٣٠٠ رجل تضم مجموعة من العبيد السود ، الى عمق مواطن الشيروكى الجبلية ، ليحدثوا صدمة كهربية تنبه هذا الشعب الهنذى المتردد . وبينما يضغط قادة الحملة على الشيروكى ليحصلوا منهم على التزام محدد ، كانت مجموعة كبيرة من رؤوس الكريك يخطبون أمام

زعماء الشيروكي لحثهم على هجوم مشترك على جيش البيض المعسكر في الغابات ، وانقسم الشيروكي الى صقور وحماة . ولما تغلب الصقور هاجموا الرسل وقتلوهم . وان اعتمد الشيروكي على السلع الانجليزية هو الذي جعلهم في النهاية ينقبلون على الكريك فقد اخبروا الكارولينيين بأنهم اذا لم يحاربوا الكريك « فانهم لن يجدوا وسيلة للحصول على العبيد ، ليتمكنوا من شراء الذخيرة والملابس » من التجار البيض (٤٠) .

ولما رأى الكريك أن الشيروكي ينظمون أنفسهم لقتالهم ، قرروا اخلاء المدن التي استوطنوها في شرق كارولينا وعادوا الى مدنها القديمة على نهر شاتاهوتشي ، ولكي يستبدلوا ارتباطاتهم التجارية والحربية مع الانجليز ، بحثوا عن ارتباطات جديدة مع الفرنسيين على نهر ألباما ، وعند الأسبان في فلوريدا ، وهرب بقايا الياماسي ، مثلهم ، الى الجنوب ليرتبطوا بالأسبان في فلوريدا .

ترك هروب الكريك والياماسي للكارولينيين البيض أراضي جديدة مفتوحة للاستيلاء عليها ، الا أن تعطشهم الى الانتقام في حرب كلفتهم أكثر من ٤٠٠ شخص ، و ٤٠٠٠٠٠ جنيه كان يصعب اشباعه تماما . وقد كتب كاهن انجليكاني في المستعمرة أنه « كان كثير من الهنود اليمانسيين Yammonses والكريك ضد الحرب على طول الخط ، الا أن رجال العسكريين كانوا مصممين تماما على الانتقام مدفوعين بالرغبة في الاثراء باسترقاق كل من يقع في أيديهم من الهنود ، كما كانوا يقتلون (دون تمييز بين متهم وبراءة ، ودون مراعاة للمعاملة الوحشية التي يلقاها هؤلاء البدائيون من تجارنا الأندال) بحيث كان من العبث أن نشرح لهم ما يتضمنه مثل هذا التصرف من قسوة وظلم » (٤١) .

أظهرت حرب الياماسي بوضوح ، مدى الاستغلال الاقتصادي للبيض ، وقصور المقاومة الهندية على السواء ، فلا نجد مكانا في المستعمرات أكثر من كارولينا الجنوبية ، كان الاستغلال فيه مكشوفاً وصريحا للأهالي الوطنيين البدائيين ، لا تقيدهم كنيسة أو حكومة أو مواقف شعبية . ففي سنة ١٧١٧ ، نجح عدد ضئيل من السكان ، حوالي ١٥٠٠ رجل في استخدام القبائل الكبيرة في تحطيم ما يقرب من ١٢ قبيلة ساحلية صغيرة ، وتحويلهم الى عبيد ، ودقوا اسفيناً بين الكريك والشيروكي ، في وقت كان التحالف بينهم لا بد وأن ينهي الوجود الانجليزي بالمنطقة . وكان السلاح الانجليزي الأساسي خلال هذه العملية التي غطت نصف قرن تقريباً هو السلع التجارية ، لأنه بالرغم من التعسفات الشاذة في التجارة الهندية والضريبة الممرة التي فرضتها الاغارة على العبيد على القبائل حتى المسيحيين غرباً ، لم تنقلب قبائل منطقة كارولينا على الذين أمدهم

بالبضائع الأوروبية الا عن كره ومعارضة ، يصحبها في العادة ،
انقسام داخلي .

وكما هو الحال في كل أجزاء القارة ، كان مفتاح النجاح الانجليزي ،
في أية منطقة يقل فيها عددهم ، أن يشجعوا العداء بين القبائل (*) ،
ولم يكن ذلك يساعدهم فقط في الحصول على العبيد الذين يمكن بيعهم
بشكل مربح في نيوانجلندا وجزر الهند الغربية ، بل كان عاملا أساسيا
أيضا في تفريغ القبائل من أراضيها فيسهل على المستوطنين امتلاكها .
وأصبح الأثر المدمر المضاعف ، نتيجة الارتباط بالانجليز هو أساس
المحاولات الفرنسية لكسب الكريك الى جانبهم . فقد كان الفرنسيون
يبنون القلاع منذ السنوات الختامية للقرن السابع عشر ، ويقيمون
علاقات مع القبائل الداخلية . ففي بداية سنة ١٧٠٢ تنافس بيير لو موين
اييرفيل Pierre le Moyne Iberville مهندس الامبراطورية
الفرنسية المعمارى في لويزيانا مع زعماء شعبي الشوكتاو ، والشيكاساو
Chickasaw المحاربين ، وحاول أن يوضح لهم الطبيعة المدمرة للارتباط
بالانجليز ، وظل عشر سنوات تقريبا يبين أن الشيكاساو قد ارتبطوا
بتجار تشارلستون مستعملين البنادق الانجليزية للاغارة على الشوكتاو
وبييعون أسراهم للحصول على مزيد من السلاح والذخيرة ، ففي سبيل
الحصول على حوالى خمسمائة عبد ، قتل الشيكاساو أكثر من ١٨٠٠ من
الشوكتاو ، وخسروا هم نحو ٨٠٠ من مقاتليهم ، وشرح لهم ابتهاج
الانجليز بهذه الترتيبات ، حيث بنوا ثرواتهم على التجارة في العبيد
والسلاح ، بينما يراقبون قبائل الشوكتاو والشيكاساو كل منهما تدمر
الأخرى ، حتى اذا ما وهنت القبيلتان بما فيه الكفاية ، صارتا عاجزتين
تماما عن حماية أرضهما من المستوطنين الانجليز الذين كانت تزداد قوتهم
بوظة كل هندي ، صديقا كان أو عدوا . أما اييرفيل ، فقد عرض تجارة
سلبية على كلا الشعبين ، تجارة خالية من المشاكل في مقابل جنود
الأيائل وليس العبيد .

وبالنسبة لمربي الماشية الانجليز الجياع الى الأرض ، وكذلك زارعى
الأرز في شرق كارولينا الذين استوردوا العبيد من افريقية بأعداد
متزايدة في بداية القرن الثامن عشر ، أصبحت التجارة في العبيد الهنود
غير مربحة بشكل مباشر منذ أن تراكت الأرباح في أيدي تجار
تشارلستون ، كما أن الفوائد الضمنية ، كانت عديدة القيمة لأن السكان
الهنود في أقصى الجنوب استمروا في التناقص ، نتيجة تجارة العبيد ،

(*) أى سياسة « فرق تسد » - (المترجم) .

وبذلك سهلوا التوسع جنوبا وغربا على المستوطنات الأولى المجاورة لتشارلستون . وكان الغموض يكتنف التوسع في تجارة العبيد الهنود . ولكن المؤكد أنه بينما تناقص هذا التوسع في القرن الثامن عشر ، عندما ازداد استيراد الأفارقة تدريجيا حتى تحول الى طوفان من العبيد ، ووصل عددهم الى عشرات الآلاف في منتصف القرن التالي لاستيطان الأوروبيين في كارولينا . وكان الاحصاء الوحيد لعبيد كارولينا الجنوبية في فترة انشاء المستعمرات قد تم سنة ١٧٠٨ وقدرهم بحوالى ١٤٠٠ هندي أحمر وسط حوالى ألف عائلة بيضاء . ولو أن سجلات المستعمرات تشير بدون أرقام دقيقة الى شحن عدد أكبر من ذلك بكثير ، بطريق البحر ، الى المستعمرات الأخرى ، خاصة جزر الهند الغربية . وبالرغم من استحالة ضبط هذه الأمور ، ينسب أحد الاحصاءات المعتدلة ، الفاقد في السكان الهنود الى الموت والاسترقاق خلال النصف الأول من القرن للاستيطان الانجليزى بنسبة حوالى ٥٠ في المائة .

عندما ثار الكريك والياماسى وغيرهم ضد تجار تشارلستون ووكلائهم فى الداخل ، وصلوا الى أقرب ما يمكن أن تبلغه قبائل هندية فى فترة المستعمرات فى تفوقها على الأوروبيين الذين وقعوا فى شرك الاعتماد على الأسلحة الأوروبية وغيرها من السلع التجارية ، اذ انقلب العبيد الهنود بما معهم من أسلحة انجليزية على من أمدهم بها . وقد استطاعوا أن يلحقوا خسائر فى مجموعة سكانية بيضاء عددها حوالى ٦ آلاف بنسبة ٧٪ فى حرب الياماسى ، بما يعادل مرتين تقريبا الخسائر فى نيوانجلند أثناء حرب الميتاكوم ، ولكن لم تكن أية قبيلة من الكريك أو الياماسى أو غيرها ترغب فى أن تعصف بالأوروبيين فى تشارلستون بعد تدمير المستوطنات النائية ، اذ أن هذا كان يتطلب الحصار أو الهجوم الشامل ، وهى أشكال الحرب الأوروبية التى لم يألفها الهنود أبدا . ولما رفض الشيروكى الارتباط بالكريك ، سادت سياسة « فرق تسد » الانجليزية التى شاعت بصورة مكثفة فى العالم الجديد . وعندما وعد الانجليز الشيروكى بسيل من السلع التجارية نظير مساعدتهم ، اختار الشيروكى أن يساعدوا المستعمرين البيض بدلا من أن ينقضوا عليهم . ولكن عقب الحرب ، وكنتيجة لها ، وتمشيا مع حساب الأرباح ، نكصوا عن التجارة مع كارولينا ، وفتحوا باب التجارة مع فرجينيا (٤٢) .

وهكذا تمت عمليات القضاء على غالبية الهنود وطردهم واضعاف حضارتهم فى الأراضى الساحلية بوسائل مختلفة ، خلال القرن الأول من الاستعمار الانجليزى . وقد اكتمل هذا فى نيوانجلند ومنطقة تشيزابيك فى الوقت الذى بدأ فيه الاستيطان الانجليزى فى بنسلفانيا وكارولينا الجنوبية . وحدث ذلك فى الشمال عقب مقاومة مطردة من القبائل القوية

التي استسلمت في النهاية ، في معركة ضارية ، لعدو لم يحاول التكيف
الصادق معهم ، وكان قادرا على ابقاء عدد كاف من القبائل بعيدا عن الحرب
والنزاع ليفوز هو في حرب الابدانة . كما جرت أحداث أخرى ، هزمت
فيها الحضارة الساحلية في فرجينيا وميريلاند . فهنا ، جاهد الهنود
حقيقة من أجل العيش في راحة واستقرار ، الا أن عجزهم عن أداء أي
عمل لخدمة المجتمع الأوروبي كما حدث في نيوانجلند ، أدى الى الصدام
الذي بدأه البيض .

وفي بنسلفانيا ، اختلفت عملية ائتلاف الحضارة ، في شكلها .
ذلك أن الانجليز قد وظفوا هنا ، حلفاءهم الهنود في ذلك ، بدلا من
استخدام العنف لطرد الديلاوير من بنسلفانيا الشرقية . فقد أصبحت
قوة الدبلوماسية ، وليست القوة الحربية هي السلاح الرئيسي في
ترسانة الرجل الأبيض ، ولكن لنتذكر أن الايروكوا وجدوا في هذه
السياسة مكاسب لهم كالبنسلفانيين تماما . وتأخرت هذه العملية
نصف قرن عنها في نيوانجلند وفرجينيا ، لأن استيطان منطقة الأطلنطي
الأوسط جاء متأخرا ، وكانت تحكم علاقات الكويكرز مع الديلاوير في
العقود الأولى للاستيطان سياسة « بن المسألة » ، فضلا عن أنه لم يكن
هناك نشاط أو تنافس على الأرض مما قلل من فرص الخلاف والاحتكاك .
لكن عندما اندفع اللاجئون الأوروبيون الى بنسلفانيا في موجات ، هربا
من التعصب والقهر ، أصبح الهنود ، مرة ثانية ، هم العقبة الوحيدة أمام
الاستعمار الأبيض . كما أصبحوا مصدر قلق مزعج لكل من سماسة
فيلادلفيا والمزارعين الألمان والاييرلنديين الاسكتلنديين ، وفي كارولينا
الجنوبية لم يكن من اتحاد البيض هم الهنود الموتى ، وإنما الهنود الأحياء في
سجنهم . وكان نمو السكان البيض بطيئا للغاية ، ورغبة الهنود في السلع
التجارية عظيمة بحيث كان يمكن للكاروليين أن يراقبوا القبائل
الساحلية وهي تقضي على بعضها البعض ، في حروب ، للحصول على
العبيد ، وعندما فرغوا من ذلك ، حاولوا استخدام نفس الاستراتيجية ،
مع القبائل الداخلية القوية جدا .

تلك كانت هي نفس النتيجة تقريبا في كل المستعمرات على طول
الساحل . وبحلول ثمانينات القرن السابع عشر ، في المستعمرات
القديمة ، والعشرينات من القرن الثامن عشر في المستعمرات الجديدة منها
كانت القبائل الساحلية قد تحطمت وتبعثرت . وبعد أن قضت الأمراض
والحروب على معظمهم ، نجد بقايا هذه القبائل التي ظلت على قيد الحياة
تلمج نفسها في المجموعات الداخلية الأقوى كرعايا لها ، أو تدخل عالم
الرجل الأبيض كأرقاء أذلاء . ولم يكن فشل الهنود في البقاء عن عدم

رغبة أو عدم قدرة على الاختلاط بالوافدين الأوروبيين - فيتعلم لغاتهم ويمتزج بهم ، ويتكيف مع أساليبهم فى التجارة والتفاوض ، كما يؤكد بعض المؤرخين على ذلك ، بل كان فشله ، فى الواقع ، فى أن يتكيف جيدا مع الحضارة المادية للمستعمرين . ان الانجذاب نحو البضائع الأوروبية والاصرار على استمرار العداوات القديمة بين القبائل الأخرى ، أتاحا الفرصة لبقاء المدن البيضاء الساحلية ، فى الوقت الذى ظهر فيه أن قيمتهم كشركاء فى التجارة شئ عرضى ثانوى بالمقارنة بقيمة الأرض التى تؤول ملكيتها الى الأوروبي بعد القضاء عليهم .

ومع هذا ، كان هنود السواحل يؤدون خدمة عظمى للقبائل التى فى أقصى الداخل . اذ وفرت مقاومتهم لمدة طويلة ، الوقت للحضارات الداخلية لتوائم نفسها وتكيفها مع الوجود الأوروبى ولتبتكر استراتيجيات من أجل البقاء عندما اقتربت منهم الجبهة المتجهة نحو الغرب (٤٣) .

المراجع

1. T.J.C. Brasser, « The Coastal Algonkians ; People of the First Frontiers », in « North American Indians in Historical Perspective, eds » Eleanor Burke Leacock and Nancy Lurie (New York : Random House, Inc., 1971), p. 76.
2. Neal H. Salisbury, « Conquest of the « Savage » : Puritans, Puritan Missionaries, and Indians, 1620-1680 » (Ph. D. diss-University of California, Los Angeles, 1972), p. 212.
3. Ibid., p. 242.
4. Douglas E. Leach, « Flintlock and Tomahawk : New England in King Philip's War (New York W. W. Norton & Company, Inc., 1966), p. 170.
5. Ibid., p. 183.
6. Quoted in Alvin M. Josephy, Jr., « The Patriot Chiefs : A Chronicle of American Indian Resistance » (New York : The Viking Press, Inc., 1958), p. 35.
7. Leach, « Flintlock and Tomahawk' », p. 237.
8. Edmund S. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox, » « Journal of American History », 59 (1972-73) : pp. 21-22.
9. Virginia's Deplored Condition » (1676), Massachusetts Historical Society « Collections », 4th Ser., 9 (Boston, 1869) : 164.
10. Quoted in Wilcomb E. Washburn, « The Governor and the Rebel: A History of Bacon's Rebellion in Virginia » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1957), p. 20.
11. « Virginia's Deplored Condition », p. 166.
12. Washburn, « The Governor and the Rebel », p. 35.
13. Quoted in ibid., p. 37.
14. Ibid., p. 41.

15. Quoted in *ibid.*, p. 117.
16. *Ibid.*, p. 161.
17. Nancy Lurie, « Indian Cultural Adjustment to European Civilization in Seventeenth-Century America : Essays in Colonial History », ed. James M. Smith (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), p. 55.
18. Quoted in Washburn, « The Governor and the Rebel », p. 161.
19. C. A. Weslager, « The Delaware Indians : A History (New Brunswick, N. J. : Rutgers University Press, 1972), p. 140.
20. Quoted in *Ibid.*, p. 156.
21. Quoted in Thomas E. Drake, « William Penn's Experiment in Race Relations », « Pennsylvania Magazine of History and Biography, 68 (1944) : 372.
22. Weslager, « Delaware Indians », p. 166.
23. Francis Jennings, « The Indian Trade of the Susquehanna Valley, » « Proceedings of the American Philosophical Society, » 110 (1966) : 410.
24. Quoted in Weslager, « Delaware Indians », p. 182.
25. Quoted in Francis Jennings, « The Delaware Interregnum, » « Pennsylvania Magazine of History and Biography, 89 » (1965) : 178.
26. Jennings, « Indian Trade of the Susquehanna Valley », p. 416.
27. *Ibid.*, p. 420.
28. Quoted in Anthony F. C. Wallace, « King of the Delawares : Teedyuscung, 1700-1763 » (Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1949), pp. 21-22.
29. Weslager, « Delaware Indians », p. 190.
30. « Minutes of the Provincial Council of Pennsylvania (16 vols. ; Philadelphia and Harrisburg, 1815-53) » 4 : 578-80.
31. Quoted in Verner W. Crane, « Southern Frontier, 1670-1730 », (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 120.
32. *Ibid.*

33. M. Eugene Sirmans, « Colonial South Carolina ; A Political History » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1966), p. 111.
34. Quoted in Chapman J. Milling, « Red Carolinians » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1940), p. 119.
35. Ibid., p. 120.
36. Ibid., p. 128.
37. Ibid.
38. Crane, « Southern Frontier, p. 161 ».
39. Ibid., pp. 165-66.
40. Ibid., p. 182.
41. Ibid., p. 179 n.
42. Quoted in W. Stitt Robinson, « Virginia and the Cherokees : Indian Policy from Spotswood to Dinwiddie », in « The Old Dominion : Essays for Thomas Perkins Abernthy, ed. » Darrett B. Rutman (Charlottesville : University Press of Virginia, 1964), p. 30.
43. Brasser, « The Coastal Algonkians », p. 73.

الفصل السابع

أوروبا ، وأفريقية ، والعالم الجديد

ان تجارة العبيد الأفارقة ، فى رأى معظم المؤرخين ، والتي بدأت فى أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت طوال الأربعمئة سنة التالية لهى واحدة من أندر الظواهر المهمة فى تاريخ العالم المعاصر . فهى تمثل أكبر هجرة إجبارية فى التاريخ ، وفضلا عن هذا كان لتجارة العبيد ، واسترقاقهم الأهمية الحاسمة فى بناء امبراطوريات الدول الأوروبية الاستعمارية ، وانتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد . وغالبا ما يغيب عن البال عند الالتفات الى الأهمية الاقتصادية لتجارة العبيد والاسترقاق ، ذلك الانتشار الحضارى الذى احتل مكانه بعد وصول عشرة ملايين أفريقى الى نصف الكرة الغربى . فقد خضع العبيد الأفارقة للنظام الأوروبى وتمثلوا بأساليب الأوروبين ، ولكنهم ، فى ذلك الوقت أفرقوا (جعلوها أفريقية) حضارة الأوروبين فى الأمريكتين ، الأمر الذى كان من المتعذر اجتنابه اذا ما لاحظنا دور التقارب بين هاتين المجموعتين العريضتين من الناس الذين التقى كل منهما بالآخر على بعد شاسع من أوطانهم الأصلية .

ونظرا لتأخر الانجليز فى استعمار العالم الجديد ، كانوا أبطأ بكثير من منافسيهم الأسبان والبرتغاليين ، فى الاتصال بالساحل الغربى لأفريقية ، وفى دخول تجارة الأطلنطى فى العبيد ، وفى انشاء الرق الأفريقى ليكون العمود الفقرى للقوى العاملة فى مزارعهم وراء البحار . ولقد خلفت المستعمرات الانجليزية فى العالم الجديد ، الموجودة على أرض قارة أمريكا الشمالية نحو نصف قرن أو يزيد عن مستعمرات البحر الكاريبى ، فى تحول اقتصاديات مزارعها الى استخدام العبيد . فعلى سبيل المثال ، كان لدى البرازيل البرتغالية سنة ١٦٧٠ ، ٢٠٠ ألف عبد على الأقل ، وباربادوس الانجليزية حوالى ٢٠ ألفا ، بينما لم يكن لدى فرجينيا سوى نحو ألفين . ولم يبدأ التفاعل الحضارى بين الأوروبين والأفريقين ، فى أمريكا الشمالية ، على نطاق واسع الا بعد أكثر من قرن

من بدايته في الأجزاء الجنوبية من العالم . وقد تكرر ، عند تفاعل الحضارتين الانجليزية والأفريقية ، كثير مما حدث عند التقاء الحضارتين في المستعمرات الأيبيرية ، وإن اختلفت نماذج التبادل الحضارى بشكل ملحوظ ، في أمريكا الشمالية عنها في أمريكا الجنوبية ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

تجارة العبيد قديما :

قبل عبور كولومبس للأطلنطي ، بنصف قرن ، رسا قبطان بحرى برتغالى ، يدعى أنتام جونكالفيز Antam Goncalvez على ساحل أفريقية الغربى جنوب الصحراء الكبرى . ولو استطاع التجول فى أفريقية طولا وعرضا ، لرأى قارة مليئة بالتنوع الرائع جغرافيا وحضاريا . ولا بد أن القليل مما رآه قد جعله يعتقد أن الحضارات الأفريقية ، هى حضارات متدنية بطبيعتها ، أو أن شعوب أفريقية قد عجزت عن تطوير نفسها على مر الزمن، مثلما فعلت شعوب أوروبا . هذا الانطباع الشخصى « بالتخلف » والفقر الحضارى كان هو الخرافة التى استمرت ، بعد أن نقلت تجارة العبيد ملايين الأفارقة الى نصف الكرة الغربى . تلك الخرافة التى ساعدت على تبرير وحشية تجارة العبيد ، والتخفيف من جرم الأمم الأوروبية المتورطة فى أكبر عملية فى التاريخ ، لانتزاع شعب من موطنه بالقوة .

لقد زادت شعوب أفريقية عن المائة مليون فى أواخر القرن الخامس عشر عندما بدأ الاتصال الأوروبى المكثف بالقارة . وكانوا يعيشون فى بيئات متنوعة للغاية - صحراوات شاسعة ، وأراضى المسافانا ، وغابات عظيمة وأحراش - ويعتمد أغلبهم على الزراعة ، كما فى أوروبا ، ويجهلون لاختراع الطبيعة لتمدهم بأسباب البقاء . كما أن ازديادهم السريع جدا فى الألفى سنة السابقة لمجئ الأوروبيين ، يوحى بمدى دراينهم بالأساليب الزراعية الأفريقية ، التى استمدت جانبها منها من مهارة الأفارقة فى إنتاج الحديد الذى بدأ فى نيجيريا الحالية ، حوالى ٥٠٠ ق.م . تلك البراعة فى تشكيل الآلات الحديدية التى فجرت تقنية الزراعة الجديدة اللازمة لمد السكان الأكبر عددا بأسباب الحياة . ومع ازدياد السكان زاد التخصص فى الأعمال والواجبات ، وبالتالى زاد التطور ، حيث كانت مجموعات صغيرة من الأسر تتصل ببعضها ، وبمرور الزمن تطورت الى مجتمعات أكبر ، وأكثر تعقيدا ، ويشبه ذلك ما حدث فى «الثورة الزراعية» فى أنحاء العالم الأخرى ، مثل أمريكا الشمالية ، وأوروبا ، والشرق الأوسط ، وغيرها من الأماكن .

من الدراسات الحديثة للتاريخ الأفريقي « قبل الاتصال (الأوروبي) » ،
يتضح أن « الفجوة الحضارية » بين المجتمعات الأوروبية والأفريقية ،
لم تكن كبيرة جدا عند التقاء الشعبين . ففي الوقت الذي وصل فيه
الأوروبيون الى ساحل أفريقية الغربية ، كان عدد من الامبراطوريات
الرائعة قد تكونت بالمنطقة ، مثل مملكة غانا التي ضمت الأرض الشاسعة
بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا ، وما بين نهر النيجر والمحيط الأطلنطي
فيما بين القرنين السادس والعاشر . ونشأ خلال ذلك ، استقرار حضري
واسع ، ومعمار متقدم ، وفنون جميلة متقنة ، وتنظيم سياسى معقد .
وكان السودان الغربى هو الذى أمد العالم الغربى بمعظم الذهب فيما بين
القرنين الثامن والسادس عشر . وأضعفت غزوات البربر فى الشمال
امبراطورية غانا ، التى أفسحت المجال حينذاك لامبراطورية مالى التى
كانت تتوسطها مدينة تمبوكتو Timbuktu المشهورة بثرائها الواسع
وجامعتها الاسلامية التى جمعت بها هيئة تدريس ممتازة مثل غيرها من
الجامعات فى أوروبا . كما كانت ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة
الكونغو ، ومملكة بنين فى طريق النمو والتغير الحضارى ، قبل وصول
الأوروبي لأفريقية ، بمئات السنين . وقد مهر سكانها فى أعمال المعادن
والنسيج والصناعات الخزفية وفن البناء والمشغولات الفنية الدقيقة
وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية فى حجمها . وكان لبعض مجتمعات
غرب أفريقية شعائر دينية معقدة للغاية ، وتجارة اقليمية جيدة التنظيم ،
وقوانين تشريعية ، وتنظيم سياسى معقد .

كان التطور الحضارى فى أفريقية ، يسير بطبيعة الحال ، بمعدلات
مختلفة ، كما فى أى مكان آخر فى العالم . وقد أثرت الظروف البيئة فى
ذلك كثيرا . من حيث التربة الجيدة وكمية المطر المناسبة ، والمعادن الوفيرة ،
كما فى ساحل أفريقية الغربى كان النمو السكانى ، والتوسع الحضارى
يجريان بسرعة نسبيا ، أما حيث كانت تظهر الظروف الصحراوية ،
أو الغابة التى يصعب اختراقها ، فهنا تظل النظم الاجتماعية على بساطتها ،
وتتغير ببطء شديد . كما أن الاحتكاك بالحضارات الأخرى يؤدى الى تغير
سريع فى حين يعوق الانعزال تطور الحضارة . فازدهرت امبراطورية غانا
فى السودان الغربى ، من ناحية ، بسبب صلاتها التجارية مع العرب
الذين فتحوا المنطقة حوال القرن التاسع الميلادى . وازداد هذا التغير
الحضارى بسرعة فى المجتمعات السواحلية Swahili ، المطلة على المحيط
الهندي بعد أن بدأت الاتصالات التجارية مع العالم الشرقى فى القرن
التاسع . وهكذا نجد ، على حد تعبير أحد المؤرخين الأفارقة البارزين ،
« أن تاريخ أفريقية الحضارى هو ... أحد أشكال التطور الشديد التفاوت
بين شعوب دخلت فى مراحل تطور مماثلة فى المؤسسات الاجتماعية ،

وانماط السلوك فى أزمنة مختلفة ، بشكل يمكن تمييزه ، ولأسباب مشابهة يمكن تحديدها بوضوح ، (١) .

بدأت تجارة العبيد ، فيما يبدو سنة ١٤٧٢ ، عندما وصل قبطان برتغالى يدعى روى دو سيبيرا Ruy do Sequeira ساحل بنين ، وتوصل الى بلاط الملك ، حيث تسلم اذنا ملكيا بالتجارة فى الذهب والعاج والعبيد . ولم تكن التجارة تمثل نشاطا اقتصاديا جديدا فقد مارسها الأفارقة من قبل ، فى مناطق نائية عبر قارتهم . ولكنها فى تلك المرة كانت بداية الاتصال مع شركاء جدد فى التجارة من مناطق نائية عن قارتهم . ومن المهم ملاحظة ذلك ، حيث كان المفهوم الخاطيء دائما بأن القوى الأوروبية قد أغارت على السواحل الأفريقية للحصول على العبيد ، وخطفت مئات الآلاف من الضحايا ذوى الحظ السيئ ، البائسين ، الذين لا عون لهم . ففي الواقع كانت التجارة المبكرة فى العبيد متبادلة بين المشترين الأوروبيين والباعة الأفارقة . فضلا عن أن التجارة نفسها كانت مقصورة على المراكز التجارية الساحلية حيث كان يؤتى بالعديد من العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة ، ويبيعون بالشروط التى يحددها البائعون الأفارقة ويتسلمون الأسلحة الأوروبية وأسياخ الحديد والنحاس وأوعية القصدير والأباريق وعقود الخرز ، وشراب الروم المسكر ، والمنسوجات ، نظير الذهب والعاج والعبيد .

ولم يكن الرق ظاهرة اجتماعية جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة . فقد اشتغلت المجتمعات الأفريقية منذ قرون مضت بتجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب أفريقية الى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط . لكنها كانت نشاطا عارضا وليس منظما ، وكان الهدف منها تزويد أمم البحر المتوسط التجارية بالجنود وخدم البيوت والمحرفين فضلا عن العمال الزراعيين . وفى داخل أفريقية ذاتها ، وجد الرق ، منذ زمن بعيد ، على نطاق ضيق ، للنخبة الشخصية ولفترة محدودة من الوقت غالبا ، أكثر منه للعمل الزراعى مدى الحياة . ويشبه هذا النوع من الرق ما قام فى أوروبا منذ قرون ، ونشج عنه استرقاق المسيحيين للمسلمين ، والمسلمين للمسيحيين ، خلال قرون الحرب الدينية . وكان المرء يصير عبدا إما لكونه شخصا « غريبا » أو « كافرا » أو « أسير حرب » أو اذا باع نفسه فى سوق العبيد ليحصل على مال لأسرته أو لارتكابه جريمة شنعاء . وكانت حقوق العبيد محدودة ، وفرصهم فى التغيير الى الأحسن مقيدة بصورة قاسية ، ولكن ، بصرف النظر عن ذلك كله ، كان ينظر اليهم كأعضاء فى المجتمع يتمتعون بحماية القانون ، ولهم حقوق خاصة ، معينة ، منها التعليم ، والزواج ، وحق الأبوة . وأهم من ذلك كله ، أن حالة الرق لم تكن وضعا نهائيا غير قابل للإلغاء ، أو ينتقل آليا الى أبناء العبد أو الأمة .

وهكذا ، ازدهر الرق فى كل من اليونان وروما القديمة ، وفى امبراطوريات الآزتيك والانكا Inca ، والمجتمعات الأفريقية ، وروسيا الحديثة ، وأوروبا الشرقية ، والشرق الأوسط . وتلاشى بالتدريج ، فى أوروبا الغربية ، بحلول القرن الرابع عشر ، بالرغم من أن وضع عبيد الأرض لدى الاقطاعيين لم يختلف كثيرا فى الواقع الاجتماعى عن الرق . ومن الملاحظ أن الرق ، وعبودية الأرض فى كل هذه المناطق لم تكن لها صلة بالصفات الجنسية .

كانت تجارة العبيد ، حين بدأت فى القرن الخامس عشر ، بغرض سيد العجز البسيط فى الأيدي العاملة فى اقتصاد أول من ابتدأ ذلك فى أوروبا وهما أسبانيا والبرتغال . ولم يكن من السهل استيعاب سوى قدر ضئيل من العبيد على فترات ، فى الاقتصاد المحلى لدول جنوب أوروبا ، حيث هيمن الذهب والمعاج والفلفل الأفريقى على الاهتمام الأوروبى ، لذلك فمن المحتمل جدا ، أنه لولا استعمار العالم الجديد لتوقفت التجارة القديمة فى العبيد بعد قرن أو يزيد ، ولأصبحنا نتذكرها مجرد حادثة عابرة ، بعت من اتصالات قديمة للأوروبيين مع أفريقية فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ .

فلما اكتشف الأوروبيون العالم الجديد ، تغير مجرى التاريخ بشكل فجائى خطير . وحين عثر الأوروبيون على مناجم الذهب والفضة فى المكسيك وبيرو ، وعندما اكتشفوا بعد ذلك كنزا جديدا فى إنتاج السكر والتبغ ، ظهر الطلب الجديد على الأيدي العاملة بشكل واسع . وبدا فى أول الأمر ، أن الهنود هم المصدر الواضح للقوى البشرية ، واستطاع الأسبان والبرتغاليون اجبار الأهالى فى بعض المناطق على العمل فى الزراعة والمناجم . الا أن الأمراض الأوروبية أثقلت صحتهم ، وتبين فى بعض المناطق أن الهنود الأحمر فى بيئته شخص يصعب اخضاعه أكثر من اخضاع المستعمر الأبيض فى وطنه . وكان التعاقد مع العمال من الوطن الأم للعمل لأجل معين وسيلة أخرى لمواجهة الطلب على العمال ، ثم تبين أنه مصدر محدود جدا . لذلك كانت أفريقية هى الملجأ الذى اتجه اليه الأوروبيون المستعمرون فى النهاية ، وتحولت القارة فى تصور الأوروبي الى مخزن طبيعى لمعدن واسع من القوى العاملة ، أو « الذهب الأسود » .

ومن أواخر القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر – أى مدة ٤٠٠ سنة تقريبا – كان يؤتى بالأفارقة من أوطان أجدادهم ، ليسندوا احتياجات العمالة فى المستعمرات الأوروبية فى أمريكا الشمالية، والجنوبية ، ومنطقة الكاريبى . وتحدهم أحدث التقديرات بحوالى عشرة

ملايين فرد بخلاف العديد منهم الذين فقدوا حياتهم خلال رحلة نقلهم من داخل أفريقية الى الحصون الساحلية التجارية أو فى منطقة « العروض الوسطى » عبر الأطلنطى ، بل كانت عدة مئات من آلاف العبيد قد نقلوا ، قبل وصول الانجليز الى خليج تشسيزابيك سنة ١٦٠٧ ، الى جزر الهند الغربية والمستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا الجنوبية . وهكذا عبرت المحيط الأطلنطى أعداد من الأفارقة أكثر بكثير من أعداد الأوروبيين ، وشرعوا فى حياة جديدة فى العالم الجديد قبل تحريم وابطال تجارة العبيد فى القرن التاسع عشر .

ان تجارة الأطلنطى فى العبيد ، وقد قصدها بها تزويد المزارع الأوروبية فى العالم الجديد بقوى عاملة ضخمة ، قد غيرت تماما من شكلها القديم ، مثلما تغيرت طبيعة الاسترقاق ذاته . فبعد أن عاد جونكالفيز بأول فوج من الأسرى الأفارقة الى البرتغال سنة ١٤٤١ ، استمرت تجارة العبيد بدرجة ضعيفة نسبيا لحوالى قرن من الزمن . وكان العبيد الذين باعهم اخوانهم الأفارقة الى الأوروبيين من الأقليات الصغيرة من السكان ، وكانوا فى الأغلب أسرى حرب أو مجرمين محرومين بسبب جرائمهم من حقوق المواطنة . وقد أمكن لتجارة العبيد الأفارقة أن تسد احتياجات الأوروبيين الى العمال ، بنسبة قليلة ، مثلما حدث تماما فى منطقة البحر الأسود قبل الغائها بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣ . وكذلك الحال فى مزارع العالم الجديد ، لم يكن الطلب كبيرا على العبيد ، مدة قرن تقريبا بعد « الكشف » . ولم يبدأ الطلب فى الازدياد الا بعد نجاح البرتغال فى تنمية المزارع الكبيرة للسكر على السهول الساحلية الشمالية الشرقية فى أواخر القرن السادس عشر ، حيث انتشرت منها زراعة القصب بسرعة الى البقع الصغيرة جدا ، التى تمتد فى الكاريبى الى أن تحولت معظم ممتلكات إنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وأسبانيا فى الكاريبى ما بين سنتى ١٦٣٠ ، ١٦٨٠ الى مستعمرات للسكر ، يسيطر فيها أعداد صغيرة من المستوطنين البيض على جماهير ضخمة من العبيد الأفارقة .

تغيرت مشكلة الحصول على العبيد ، بازدياد الطلب الجديد على العمالة فى العالم الجديد ، فى مقابل زيادة الطلب على السلع الأوروبية فى أفريقية . وعلى الرغم من سرعة ازدياد الطلب فى القرن السابع عشر ، لم يتيسر العدد الكافى من المجرمين و « الغرباء » ، لذلك اضطر الملوك الأفارقة الى تجارة « الذهب الأسود » عن طريق الاغارة والحرب . وحرصتهم الأسلحة الأوروبية على ارتكاب الشرور ، وهكذا ، ارتبط الاختطاف والعدوان باقامة العلاقات التجارية مع القوى الأوروبية ، بصورة معقدة .

صارت تجارة العبيد ، ذاتها ، عملا تجاريا مربحا للأوروبيين ،
رما دفع الدول الأوروبية الى الحروب الدائمة للحصول على مزايا تجارية
على الساحل الغربى لأفريقية ، خلال القرون العديدة من المتاجرة المكثفة
فى العبيد ، التى أعقبت انشاء مزارع السكر فى العالم الجديد . وأصبحت
المراكز التجارية الساحلية الحصينة هى الهدف الرئيسى للحرب المتتابة
من أجل السيطرة ، فنجده أن الحصن البرتغالى العظيم الذى تأسس لهذا
الغرض فى المينا Elmina على ساحل الذهب سنة ١٤٨٠ ، يقع فى أيدي
الهولنديين أكثر من قرن ونصف . كما عانى الحصن الرئيسى ، الذى أقامه
السويديون على ساحل غينيا ، من الدانمركيين ، والانجليز ، والهولنديين ،
ما بين سنتي ١٦٥٢ ، ١٦٦٤ ، وأصبحت القضية الكبرى للدبلوماسية
الأوروبية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر هى الحصول على حق
ممارسة تجارة العبيد على الساحل الأفريقى والوصول الى احتكار تزويد
المزارع الأوروبية فى العالم الجديد بحصصها السنوية من العبيد . وكان
الهولنديون هم أول الفائزين فى معركة القرن السابع عشر بتجارة العبيد
على ساحل غرب أفريقية ، حيث ان العبيد الذين تجرى اعاشتهم فى
الأسواق الممتدة بالعالم الجديد ، قد وجعلوا أنفسهم يعبرون الأطلنطى على
السفن الهولندية .

لم يكن للانجليز أية أهمية ، فى تجارة العبيد أو الحاجة اليهم فى
مستعمراتهم بأمريكا الشمالية ، حتى الثلث الأخير من القرن السابع
عشر . ولم تبدأ محاولاتهم الجادة لاقتحام هذه التجارة المربحة الا سنة
١٦٦٣ ، حين قام شارل الثانى بعد استعادته التاج الانجليزى بقليل ،
بمنح عقد امتياز لشركة المغامرين الملكية فى أفريقية The Royal
Adventurers to Africa ، وهى شركة مساهمة برأسمال مشترك يرأسها
أخوه دوق يورك . وبعد أن حلت محلها الشركة الأفريقية الملكية سنة ١٧٦٢ ،
اقتصرت عليها وحدها حق نقل العبيد الى مزارع انجلترا فيما وراء البحار .
وبعد سنة ١٦٦٣ ، ولمدة ٣٤ عاما كان كل عبد ينقل عبر الأطلنطى يحمل
علامة الوشم « دى . واى . دى » وهما الحرفان الأولان من اسم دوق يورك ،
الذى تولى الملك سنة ١٦٨٥ . وتم كسر هذا الاحتكار ، سنة ١٦٩٨ نتيجة
الضغط على البرلمان من الأفراد التجار الذين طالبوا بحقوقهم بصفتهم
انجليز ، فى المشاركة فى هذه العملية المربحة ، والتى نمت بشكل هائل
على يد هؤلاء المقاولين . وفى ثمانينات القرن السابع عشر كانت الشركة
الأفريقية الملكية قد صدرت حوالى من خمسة الى ستة آلاف عبد سنويا .
وارتفع المتوسط السنوى ، فى العقد الأول من فترة التجارة الحرة الى
أكثر من عشرين ألفا . وفى بقية القرن الثامن عشر زاد اشتغال انجلترا

بهذه التجارة حتى أصبحت في تسعينات القرن هي الدولة الرئيسية في
تجارة العبيد في أوروبا (٢) .

كيف تقبل الأوروبيون ، بمختلف أصولهم القومية ، الأفارقة ،
وكيف تعاملوا معهم ، خاصة وقد أصبح الرق وتجارة الرقيق جزءا أساسيا
وجوهريا في التجربة الاستعمارية في العالم الجديد ؟ لعل ردود الفعل
الانجليزية ، تجاه الأفارقة كانت أكثر تطرفا وسلبية منها لدى الأسبان
والبرتغاليين . فبالرغم من أن جميع الدول الأوروبية تعتبر مدنياتها أكثر
تفوقا وسموا بالنسبة للمجتمعات الأفريقية ، كان الأسبان والبرتغاليون
أكثر اعتيادا على الأفراد ذوي البشرة السوداء ، خلال قرون من التجارة
والحروب مع شعوب الشرق الأوسط ، وشمال أفريقية المطلة على البحر
المتوسط . ولكن الانجليز ذوي البشرة الشقراء ، عندما وجدوا أنفسهم
وجها لوجه أمام الأفارقة ذوي البشرة السوداء الخالصة ، كان رد الفعل
لديهم سلبيا بشكل خاص . ولعل المصادفة المشؤمة في التاريخ أن
يصبح السواد ، حتى قبل السماع عن قارة أفريقية وسيلة للتعبير عن
بعض القيم المتأصلة جدا في المجتمع الانجليزي ، حيث إن كلمتي « أسود » ،
وعكسها « أبيض » ذاتا مضمون ثقيل على النفس . فكلمة أسود كانت
تعني الغنى والشرير ، والحقود ، كما تعني الليل ، وساعة الخوف ، وهكذا
ارتبطت بأشد المواقف إثارة للقلق في الطبيعة البشرية . وأصبح
الاستخدام الانجليزي لكلمة أسود يشايع هذا المعنى ، فكان يعتبر الشاة
السوداء (وهو الشخص التافه) في الأسرة ، والنقطة السوداء أمام اسم
الشخص (علامة التقصير أو سوء السلوك) واليوم الأسود ، والنظرة
السوداء (المعادية) ، والكذب السوداء ، والكرة السوداء الصغيرة (التي
كانت تلقى في صنفوق لاقتراع كناية عن صوت سلبى) وأصبحت تعني
التصويت السلبى لقبول العضوية في مؤسسة ، فكانت كل هذه
المصطلحات ، تعبيرات قائمة في ضميرهم الحضارى . وعلى عكس ذلك ،
كان اللون الأبيض يمثل النقاء والعنوبة ، والجمال ، والفضيلة ، والسلام .
فالملائكة تتشح بالبياض ، وتزوج البنات في الثوب الأبيض رمزا للعفة
والطهارة ، كما أن حمامة السلام بيضاء . وبذلك كان الانجليز مؤهلين
ثقافيا لرؤية الشر والقبح في السواد . وبهذا المعنى كان لقاءهم غير
امتوقع مع شعوب أفريقية الغربية محكما عليه بالتحيز مقدما بهذه الرموز
اللوئية الموجودة في اللغة والثقافة الانجليزية . لقد كان نفس التعبير
الرمزى باللون موجودا في الحضارة الأيبيرية (أسبانيا) ، إلا أن آثارها
على الشعور العرقى كان يلفظ منها تلك الارتباطات والاتصالات البعيدة
للأسبان والبرتغاليين مع الشعوب الملونة .

وتضاعفت الصورة السلبية بوصف الأفارقة « بالهمجية » و « الوثنية » كما كان يراهم الانجليز . وكان رد فعل الانجليز من هذه الناحية يساوى تماما نظرتهم الى هنود أمريكا الشمالية الحمر . وإن جهل الأفارقة بالمسيحية وعبادتهم « لآلهة زائفة » واختلاف طريقتهم فى الحياة ، قد أبعدهم عن الأوروبيين « المتمدنين » مثلما ميزتهم عن الأهالى الوطنيين فى العالم الجديد تماما .

الرق القديم فى المستعمرات البريطانية :

بالرغم من تعود المستعمرين الانجليز ، على رؤية الأسبان والهولنديين والبرتغاليين يستخدمون العمال العبيد الأفارقة ، إلا أنهم لم يتجهوا بسرعة الى أفريقية ليحلوا مشكلة زراعة المحاصيل التى تتطلب عمالة كثيفة . وفى الواقع ، كان رد الفعل الانجليزى ازاء تجارة الرق سلبيا ، ولو أن ذلك كان يحدث من لحظة لأخرى . وعندما رجع جون هوكنز الى انجلترا سنة ١٥٢٦ بعدة مئات من العبيد الذين أسرهم فى غارة قرصانية من الأسبان ، أعلنت الملكة اليزابث أن هذا التصرف « كره جدا » وتنبأت بأنه « سيجلب انتقام السماء من هؤلاء النخاسين » . إلا أنه بعد أن اتضحت لها الفوائد التى يمكن أن تعود من مثل هذه المغامرات تراجعت الى الجانب المضاد . ورغم ذلك ، لم يكن للانجليز أهمية تذكر فى تجارة الرقيق فى الأطلنطى لمدة قرن آخر تقريبا . فلما انغمسوا فيها فعلا ، لم تثر دهشة كبيرة لأنهم كانوا يحاولون سد الفجوة فى العمالة فى المستعمرات مثل الأسبان . ولاشك أن شيوع الأفكار الثابتة والخاطئة عن الأفارقة بأنهم مخلوقات « متوحشة » وغير متمدينة ، قد سهل على الانجليز أن يحكموا تقييدهم بالسلاسل . وتظل الحقيقة الأساسية أن الانجليز قد أتوا الى العالم الجديد مثلما جاء الأسبان والبرتغاليون والهولنديون والفرنسيون ليكونوا ثروات ، وقيموا لهم ملجأ دينيا وسياسيا . وقد أدت الروح العدائية التى حملها الانجليز للهنود ، فترة طويلة ، وخبرتهم فى استرقاقهم الى سرعة زوال أى شك أو تردد قد يخطر حول استرقاق الأفارقة .

وكانت السابقة التى وضعها أصحاب المزارع الانجليز فى جزر قصب السكر فى البحر الكاريبى هى التى جعلت تشغيل الأفارقة كقوة عاملة من العبيد فى مستعمراتهم على أرض القارة ، أمرا طبيعيا للغاية . فقد تعلموا فى جزر باربادوس وجاميكا وليوورد Leeward أن يقلبوا منافسيهم الأوروبيين فى تشغيل الأفارقة فى استزراع قصب السكر ، ثم حولهم بالضغط والاكراه الى قوى عاملة من العبيد فى الربع الثانى

والثالث من القرن السابع عشر . وفى سنة ١٦٧٥ ، عندما لم يكن يوجد أكثر من ٤ آلاف عبد على أرض أمريكا ، ولم تكن أعراف الرق وقوانينه قد ثبتت ، كان هناك ما يزيد على مائة ألف أفريقى مستعبدين فعلا فى جزر الهند الغربية الانجليزية . وكانت التجارة والمواصلات على أشدها بين المستعمرين فى الكاريبى ، وعلى أرض القارة ذاتها . وهكذا كان لدى المستوطنين فى أمريكا معرفة مفصلة عن امكانية التجارة فى العبيد وتشغيلهم .

ويمكن القول ان الأفارقة كانوا موردا مهما أمام الباحثين عن قوى عاملة . ومما يشير الدهشة أن سكان المستعمرات الأمريكيتين لم يتجهوا الى الرق بشكل أسرع مما فعلوا ، فقد اعتمدوا على البيض العاملين بعقود ذات آجال ، وليس العبيد الأفارقة لأكثر من نصف قرن فى حقول التبغ بفرجينيا ، وميريلاند . أما السود المستوردون قبل سنة ١٦٦٠ تقريبا فكانوا أرقاء ولكن بدرجات مختلفة ، بعضهم لأجل معين ، والقليل منهم مدى الحياة .

لقد حدث فى الثلث الأخير من القرن السابع عشر ، فى فرجينيا وميريلاند ، وفى الثلث الأول من القرن الثامن عشر فى كارولينا الشمالية والجنوبية ، أن تحولت القوى العاملة فى المستعمرات الجنوبية من وضع عمل فيه العبيد البيض والسود معا بالأجل الى وضع خدم فيه العبيد السود لمدى الحياة ، وشكلوا معظم العمال غير الأحرار . ولم تكن أسباب هذا التغير واضحة تماما فى الاتجاه الى اقتصاد زراعى يقوم على الرق فى ميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية . الا أن أكثر التفسير قبولا هو أن دخول الانجليز فى تجارة العبيد الأفارقة قد أعطى الفرصة لمزارع الجنوب أن يشتري العبيد بدرجة أسرع وأرخص من ذى قبل ، لأن العامل الرخيص هو ما كان يبحث عنه كل مزارع للأرز أو التبغ ، ومن ثم ازداد الطلب على العبيد السود عندما انخفض ثمنهم كثيرا عن العمال ذوى العقود ذات الأجل . وهكذا بدأ عدد الأفارقة المستوردين الى المستعمرات ، فى أواخر القرن السابع عشر يزداد ، بينما تنبأقصر ذلك السيل من العمال البيض المتعاقدين بالأجل ، الى أدنى درجة ، وكان العبيد قد وصلوا ، سنة ١٦٧١ الى ٥٪ من عدد سكان فرجينيا طبقا لتقرير الحكومة الملكية هناك ، وفاقهم البيض العاملون بأجل بنسبة ٣ : ١ على الأقل ، وكان الوضع يشبه ذلك كثيرا فى ميريلاند . ولكن بعد جيل تقريبا ، حوالى سنة ١٧٠٠ أصبحوا يمثلون خمس السكان ، وربما غالبية القوى العاملة . وقد قدرهم احصاء لميريلاند سنة ١٧٠٧ ، مثلا بعدد ٣٠٠٣ عمال بيض بعقود ، ٤٦٥٧ عبدا أسود . ثم تضاعف عدد العبيد بعد خمس

سنوات تقريبا (٣) • وخلال جيل آخر تناقص البيض المستعبدون ذوو العقود ، بدرجة ملحوظة جدا ، وأصبح العبيد الأفارقة فى المستعمرات الجنوبية هم العمود الفقرى لقوى العمل الزراعى •

والى الشمال ، فى « المستعمرات الوسطى » فى بنسلفانيا ، ونيوجرسى وديلاوير حيث كان المستعمرون الانجليز قد استوطنوا فى الثلث الأخير فقط من القرن السابع عشر ظهر الرق بصورة عرضية ، نظرا لأن المحاصيل التى تتطلب الأيدى العاملة الكثيفة لم تكن تنمو بشكل واسع فى هذه الأراضى ، حيث يتسبب برد الشتاء فى تعطيل الزراعة لفترة طويلة من العام • وكانت نيويورك استثناء من ذلك • وفى غضون ما قبل سنة ١٦٦٤ عندما كانت المستعمرة هولندية كان الرق مباحا ، وتشجعه شركة الهند الغربية الهولندية ، الى حد ما ، وهى واحدة من أكبر الموردين الهوليين للعبيد • وقد ظل سكان نيويورك هولنديين الى حد كبير ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، ولم ير الانجليز الذين تسربوا اليها ببطء ، سببا يمنعهم من تقليد الملاك الهولنديين للعبيد ، وهكذا أصبحت نيويورك أكبر مستورد للعبيد ، شمال ميريلاند • وفى منتصف القرن الثامن عشر ظلت مناطق الاستيطان الأصلية حول نيويورك وألبانى عبارة عن مجتمعات العبيد بنسبة حوالى ٢٠ ٪ من السكان ، ومن ٣٠ ٪ - ٤٠ ٪ من أرباب البيوت وأصحاب الأسر يمتلكون بشرا خصوصيين •

وبازدياد عدد العبيد ، ظهرت مجموعة مبادئ وقوانين تشريعية وانتشرت فى كل من المستعمرات الجنوبية ثم فى المستعمرات الشمالية بعد ذلك بقليل • وقد اقتبست هذه « القوانين السوداء » أو (قوانين السود) الى حد كبير ، من المستعمرات الانجليزية فى جزر الهند الغربية •

وقد حرمت المهاجرين الأفارقة شيئا فشيئا من الحقوق التى يتمتع بها الآخرون فى المجتمع ، بما فىهم الخدم العاملون بعقود ذات آجال ، ثم قللت نظرة المجتمع والقانون الى العبيد ، تدريجيا ، من كائنات بشرية الى قطعة من الممتلكات المنقولة • وكان أهم ما فى هذه العملية ، التى تجرد الانسان من آدميته أن يمارس العبد الخدمة الموروثة طول حياته ، حين أصبحت العبودية ثابتة ومطردة ، لا فكاك منها الا بالموت ، وحرمانه من كافة الحقوق الأخرى أمرا متوقعا ، لا بد منه • وعندما صارت عبودية أحد الأبوين تنسحب على الطفل بمعنى امتدادها الى الرحم ، ترسخ نظامها الاجتماعى تماما طالما ظل الاهتمام بالرق باقيا •

هكذا ، وبمرور الوقت ، كان على الأمريكيين الأفارقة أن يتواءموا أكثر فأكثر مع عالم مرسوم بقيود محددة بعد أن كانوا يعاملون فى القرن السابع عشر كنظم متعاقدين ، مرتبطين بالعمل لفترة من السنين ثم

يصبحون بعدها أحرارا ، يشتغلون لحسابهم الشخصي ، ويؤجرون على جهدهم وخدماتهم ، ويشترون الأراضي ، ويتحركون حيث يشاءوا ، ويمتلكون العبيد اذا أرادوا . الا ان السود فى الأربعينات من القرن السابع عشر أصبحوا ممنوعين فى فرجينيا من استخدام الأسلحة النارية . وفى الستينات أصبح الزواج بين النساء البيض والعبيد السود يعتبر « زواجا مختللا » ، و « عارا لامتنا » ، ثم أصبح الزنا المختلط بين الأجناس المختلفة يعرض مرتكبيه لعقوبة قاسية ، غير عادية خلال العقود القليلة التى تلت الستينات ، كما حرم الزواج المختلط تماما .

وتعتبر هذه الخطوات العنصرية بسيطة ، بالمقارنة بالحرمان السريع من الحقوق ، الذى بدأ قرب نهاية القرن . اذ فقد الأمريكيون الأفارقة ، فى تتابع سريع حقهم فى الشهادة أمام المحاكم ، أو الارتباط بأى نوع من النشاط التجارى سواء بالبيع أو الشراء ، أو الملكية الخاصة ، أو المشاركة فى الأمور السياسية ، أو الاجتماع فى الأماكن العامة لأكثر من اثنين أو ثلاثة ، أو السفر بدون تصريح ، أو الارتباط بزواج شرعى . بل انهم قد حرموا ، فى بعض المستعمرات من حق التعليم وحرية العبادة للاعتقاد بأن ذلك ينمى فى العبيد جرثوم الحرية ، وهبطت مرتبتهم الانسانية الى حد اعتبارهم جزءا من الممتلكات الخاصة . فلم يعد النظام القانونى لهم بأى تقدم فى التعلم أو الخدمات الاجتماعية ، أو تحسين أوضاعهم فى المستقبل بصفة عامة . وصدرت فى أوائل القرن الثامن عشر قوانين فى مستعمرات كثيرة ، تمنع ملاك العبيد من تحرير أرقائهم . وكان هذا خطوة مرسومة لمنع احتمال رؤية العبيد لغيرهم من الأمريكيين الأفارقة أحرارا ، فيجاهدون من أجل حريتهم .

ان حركة تجريد العبيد من كل حقوقهم ، التى استمرت نصف قرن كان لها أساسها العلمى والنفسى . اذ أنه كلما كبرت شريحة العبيد فى المجتمع ، عظم خطرهم على البيض ، لأن الأبيض مالك العبيد كان يدرك أنه عندما يشتري عبدا أو أمة مكبلة فى السلاسل ، فمعنى ذلك أنه جلب معها امكانية العصيان المسلح . وبناء عليه ، فكلما زاد شبح تمرد العبد ، زادت جهود المجتمع لتفريغ شحنته بالمزيد من تقييد حقوقه ونشاطه . ولذلك فبعد عصيان سنة ١٧١٢ ، الذى أودى بحياة تسعة من البيض ، وجرح عدد آخر منهم ، أصدرت السلطة التشريعية فى نيويورك قانونا للعبيد يضارع قوانين المستعمرات الجنوبية . ومن خلال المستعمرات الجنوبية ، أدى الخوف المفرط من عصيان العبيد الى تقنين العنف لتأمين الاستقرار الاجتماعى . وترتبط هذه الحاجة المتزايدة للتحكم ، بالحاجة النفسية الى تجريد العبيد من آدميتهم ، وبالتالي يمكن تبرير الاستغلال الذى لا يعرف الرحمة لأولئك الذين اعتبرهم القانون شيئا اقل من البشر .

ممكنًا حدثت إحدى المناقشات الكبرى في التاريخ ، وهي إقامة ما ظنه البعض أن يكون المدينة الفاضلة في قفار البراري على كواهل الرجال والنساء السود بعد انتزاعهم بالقوة من وطنهم الأفريقي ، وادخالهم قسرا في نظام الرق الدنيء . لقد كانت النظرة الى أمريكا ، كما أوضحها دافيد ب. دافيس David B. Davis ، قوة تحرير للحياة وتجديدها الى الأفضل ، ولكنها أصبحت صورة « للمتناقض الذاتي البشع » . فعلى الأرض التي بشرت بالحرية ، ووفرة الفرص الشخصية ، بدأت ممارسة الرق الذي لم يكن معروفا منذ قرون ، في الوطن الأم . وصارت أمريكا كغيرها من أنحاء العالم الجديد صورة « تراجع مزعج عن مجرى الارتقاء التاريخي للجنس البشري » (٤) . وقد قرر أحد الانجليز في القرن الثامن عشر ، أن العبيد الأفارقة أصبحوا « قوة هذا العالم الغربي وعصبه » (٥) .

حالة العبيد في أمريكا الشمالية والجنوبية :

نعرف من الدراسات الحديثة ، أن حوالي ٥ ٪ فقط من العبيد ، الذين جرى بهم الى المستعمرات في العالم الجديد ، قد أتوا الى أمريكا الشمالية ، ولذا فإن الثلاثمائة والخمسين ألفا أو نحوها من الأفارقة الذين كافحوا للبقاء أحياء في أوطانهم الجديدة في أمريكا الشمالية ، فيما بين سنتي ١٦٠٠ ، ١٧٨٠ ، يعتبرون قلة صغيرة بالنسبة للمليونين الذين نقلوا الى البرازيل البرتغالية ، والملايين الثلاثة الذين أخذوا الى المزارع البريطانية ، والفرنسية ، والهولندية في جزر الهند الغربية ، والسبعمائة ألف الذين صدروا الى أمريكا الإسبانية . ولكن ، كيف عاش العبيد في الأنحاء المختلفة للعالم الجديد ، وإلى أي مدى يمكننا شرح الاختلافات في معاملتهم ، وفرص تحريرهم ، وما هي فرصتهم اذا تحرروا لاكتساب موضع يليق بهم ، وتتوفر فيه عوامل بقائهم كأشخاص أحرار ؟

أثبت أول من قاموا بالمقارنة في دراسة الرق في الأمريكتين ، وجود فروق حادة بين حالة العبيد في كل من المستعمرات الإسبانية والبرتغالية ، وحالتهم في المستعمرات البريطانية . ويرجعون هذه الفروق التي يؤكدونها ، الى حد كبير ، الى حقيقة أن الاختلاط الجنسي كبير جدا اليوم في أمريكا اللاتينية عنه في أمريكا الشمالية ، وأن سياسة الفصل والتمييز العنصري الرسمية لم تجسدها قوانين أمريكا اللاتينية أبدا ، وأن التوثر والصراع العنصري الذي ميز الحياة الأمريكية في القرن العشرين ، يختفي كثيرا في مستعمرات أمريكا اللاتينية كالبرازيل مثلا . ويمكننا أن نأخذ التزاوج بين الأجناس ، خاصة بين البيض وغير البيض مثلا صارخا لهذه الاختلافات . فالزواج بين الأجناس المختلفة لم يكن ممنوعا أبدا في

البرازيل ، أما في المستعمرات الأمريكية فقد بدأ حظر الزواج بين الأجناس حظرا قانونيا ، في منتصف القرن السابع عشر حيث منعت كل مستعمرة بصورة فعلية في بداية القرن الثامن عشر ، وتعديلت هذه القوانين وتحورت من وقت لآخر ، واستمرت خلال فترة الرق ، وبعد الغائه في بعض الحالات . وظل الزواج المختلط محظورا قانونا ، حتى سنة ١٩٤٩ في تسع وعشرين ولاية ، منها سبع عشرة ولاية ليست من ولايات الجنوب .

ثبت أن هذه الاختلافات ، كانت تدل على أن الرق في أمريكا الأسبانية والبرتغالية لم يكن في قبضة الرق بأمريكا الانجليزية ، كما لم توصد الأبواب تماما أمام التحرر النهائي - ويقال أن الأفريقي في أمريكا اللاتينية قد اختلط جنسيا مع السكان البيض منذ البداية ، فلم تسلب منه حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية قط . وعندما فتح باب الحرية ، وجد أنه يستطيع أن يجد له مكانا كريما في المجتمع . وعلى العكس من ذلك ، فقد العبد ، في مستعمرات أمريكا الشمالية كل حقوقه حتى بداية القرن الثامن عشر ، وكان يعامل ، لذلك ، بوصفه مجرد متاع منقول . وكان العتق نادرا ، بل ومحظورا ، في الواقع ، في كثير من المستعمرات ، في القرن الثامن عشر . وهؤلاء الأمريكيون الأفارقة الذين نالوا حريتهم بالفعل ، خاصة بعد الثورة الأمريكية ، وجدوا أنفسهم دائما في أحقر مراكز المجتمع ، حيث سحبت منهم بالتدريج حقوقهم السياسية والاجتماعية التي منحت لهم في البداية كمواطنين . وقد عبر فرانك تاننباوم Frank Tannenbaum ، وهو رائد في الدراسة المقارنة للرق ، عن رأيه في اختلاف مصائر المهاجر الأفريقي في كل من قارتي العالم الجديد بتسمية كتابه « العبد والمواطن » (٦) .

ما هي سلسلة الحوادث أو الأحداث ، التي وضعت الأفريقي في المستعمرات أمريكا اللاتينية على طريق الحرية ، بينما كان الطريق الذي سلكه السود في أمريكا الشمالية الانجليزية مسدودا دائما ، حتى بعد نيل الحرية ؟ يرى تاننباوم ومن نهج نهجه أن الإجابة تكمن وراء الأجواء الفكرية والثقافية المختلفة التي كافح الأفريقي خلالها في العالم الجديد . فقد انضم المستعبدون في المستعمرات البرتغالية والأسبانية إلى ثقافة كاثوليكية العقيدة ، استبدادية ، وتشبه القرون الوسطى في مؤسساتها السياسية ، وسلطة أبوية محافظة في العلاقات الاجتماعية ، تخضع للكنيسة الكاثوليكية في نظم قوانينها ، أما الأفارقة الذين جرى بهم إلى أمريكا ، فقد واجهوا ، على خلاف ذلك تماما ، ثقافة بروتستانتية المذهب ، تحررية ، و « حديثة » في مؤسساتها السياسية ، تهتم بشخصية الفرد في علاقاته الاجتماعية ، وانجليزية سكسونية في نظم قوانينها . ومما يشير

السخرية أن « الحضارة الأسبانية والبرتغالية غير المعاصرة » ، هي التي حمت العبد وأعدته في النهاية لما هو أفضل من الرق . فالكنيسة الكاثوليكية لم ترسل قط ، ممثلها الى العالم الجديد بأعداد أكبر بكثير مما أرسلتهم الكنائس البروتستانتية ، بل انها كرست كذلك نفسها بصدق لصيانة حقوق الانسان للسود . وتأكيدها منها على أن عناية الله يستحقها كل فرد ، مهما كان مركزه ضئيلا أو معتقداته فاسدة ، جاهد رجل الدين الكاثوليكي لهداية الناس من كل لون وصنف حيثما وجدوا وأيضا كانوا . لذلك كان الهنود والأفارقة في المستعمرات بأمريكا اللاتينية أهدافا مناسبة تنصرف اليها حماسة القساوسة الجزويت والدومينكان ، والفرنسيسكان . وكان لنظرة الكنيسة الى الجماهير الضخمة من الهنود والأفارقة المستعبدين على أنهم مسيحيو المستقبل ، الأثر الملطف على ما يجب أن يفعله السادة بعبيدهم ، أو ما يسنه المشرعون من قوانين .

وبنفس الطريقة، ساعد نقل قانون الكنيسة الرومانية الى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية على حماية العبد من أن يصبح مجرد متاع منقول ، لأنه يعترف بحقوق العبيد والتزامات أسيادهم تجاههم . فالعبيد والاماء ، وان كانوا يحتلون ، بلا جدال ، أدنى درجة في السلم الاجتماعي ، الا أنهم يظلون أعضاء في المجتمع ، يحميهم القانون من السيد الجشع أو السيد الساذي .

ويبقى وسيط ثالث بين العبد وسيده - وهو الحكومة نفسها . فالنظم السياسية الأسبانية والبرتغالية بسلطتها المركزية الشديدة كانت تدور حول قوة الملكية والأرستقراطية ، وأصبح من المتوقع أن يشع نفوذها خارج عاصمتها في أوروبا الى مستعمرات العالم الجديد التي قامت تحت حكم ملكي صارم ، ولما كان التاج شهيد الارتباط بالكنيسة الكاثوليكية المكرسة لحماية حقوق العبيد ، كان ملاك العبيد في المستعمرات مسئولين عن تنفيذ السياسة الاجتماعية المرسومة في الوطن الأم . والخلاصة ، أن قامت بعض الهيئات المتضامنة مع السلطة ، بالعمل لصالح العبد الأفريقي فوقفت بينه وبين سيده الذي حظرت عليه أن يطلق لنفسه العنان في معاملة عبده ، وأكملت أن العبد - رغم استخدامه واستغلاله - الا أن له الحماية ، وهو في آخر الأمر مهيا لعضوية المجتمع الكاملة . أما في المستعمرات بأمريكا الشمالية والبحر الكاريبي ، فمن الثابت غياب مثل هذه المؤسسات الوسيطة اللطيفة ، غيابا كاملا . فكان سادة العبيد أحرارا الى أقصى درجة في اتباع نزواتهم وأهوائهم في معاملة العبيد ، وتشكيل السياسة الاجتماعية والقانونية التي تثبت الرق . وكانت الحكومة في أمريكا الشمالية أكثر إتجاها للديمقراطية والاقليمية ، والانفصال كبير

بين الكنيسة والدولة ، والأفراد أقل تقيدا بالسلطة والتقاليد ، ولذلك كان العبيد تحت رحمة أسيادهم بدرجة غير عادية . كما أن الكنيسة البروتستانتية لم تهتم كثيرا بهداية العبيد ، وعندما كانت تؤدي ذلك كان نفوذها قائما على أساس محلي ، بخلاف المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، ولذلك كانت هدفا لنفوذ ملاك العبيد البارزين في المنطقة .

وكانت الحكومة أقل اتجاها للمركزية ، إذ سمحت إنجلترا للمستعمرات أن تصوغ الكثير من قوانينها ، واكتفت بإشراف ضعيف على مزارعها . وقد خلا القانون الانجليزي السكسوني المنقول الى العالم الجديد من ذكر شيء عن الرق ، حيث ظل الرق غير ظاهر في إنجلترا ، عدة قرون . وهذا ما ترك رجال المستعمرات أحرارا في رسم قانون جديد ، يقسو ويستغل حسبما يتفق مع رغبتهم في نظام العمل الذي كانوا ينشئون . وقد ثبت بالبراهين في أمريكا ، أن ملاك العبيد صاغوا حضارة تهتم لدرجة عالية بإرادة الفرد وحرية الفكر والعمل والكسب ، ولا تطبق أدنى مراجعة أو كبح لحقوق ملاك العبيد في استخدام ملكيتهم البشرية واستثمارها بأية طريقة يرونها مناسبة . فقد كانت حقوق الملكية هي الأجدر بالاهتمام في الحضارة الأنجلو أمريكية . ومع قليل من القيود النسبية في بعض المؤسسات العلمية ، والاجتماعية لكبح جماح ملاك العبيد ، لم يقف شيء بين المهاجرين الأفارقة الجدد وقيام نظام لاستعبادهم بالكامل - وهكذا ، أثبت تانباوم وآخرون ، بالدليل ، وجود نظام مغلق جدا ، ومهدر لانسانية العبيد في بيئة المستعمرات الانجليزية الأكثر « تنورا » و « تطورا » عنه في محيط أشد المستعمرات الأسبانية والبرتغالية اقطاءا وتسلطا .

ولكن علماء التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا ، أثاروا اعتراضات على هذا التحليل للرق والعلاقة بين الأجناس في العالم الجديد ، حيث يشيرون الى الفجوة التي تفصل بين النص القانوني والواقع الاجتماعي . كلنا نعلم ، بلاريب أن القوانين لا تعكس دائما الظروف الاجتماعية الفعلية . ومثال ذلك ، أننا إذا استرشدنا بالتشريعات القانونية ، بعد الحرب الأهلية عن حالة الزوج الأمريكيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ربما انتهينا الى أن الأمريكيين الأفارقة يتمتعون بالمساواة مع الأمريكيين البيض في العصر الحديث ، إذ تكفل لهم القوانين كل شيء على الإطلاق ، ولكن الفرق كبير بين نص القانون وبين ما يحدث فعلا .

وعندما أمعن المؤرخون النظر في الظروف المحلية ، في مختلف المستعمرات بالعالم الجديد ، وجدوا أنه في المناطق الريفية من المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، حيث كان استخدام العبيد على أشده ، لم يكن نفوذ

الكنيسة قويا بنفس الدرجة ، كما كانت سلطة المسئولين الاستعماريين
الأسبان أشد ضعفا ، ففي هذه المناطق كان سادة العبيد أحرارا في معاملة
عبيدهم بما يرونه مناسبا تماما ، مثلما الحال في المستعمرات الانجليزية .

زد على ذلك ، أن الدراسات الحديثة قد بينت أن الاختلافات الواسعة
في معاملة العبيد كانت تحدث داخل مستعمرات كل دولة أوروبية . ففي
نيوانجلند البيوريتانية وبنسلفانيا الكويكرز ، لم تكن الأحوال في وحشية
ولايات الجنوب الأنجلو أمريكية ، وذلك لأن كنائس البيوريتان والكويكرز
كانت تمثل قيودا على سلوك ملاك العبيد من جهة ، ولأن العبيد ، من جهة
أخرى ، وهم نسبة مئوية بسيطة دائما بين السكان كان أكثر استخدامهم
كحرفيين ، وخدم في البيوت بالمقارنة بالجنوب ، حيث كان العمل الزراعي
الكثيف هو ما يهم سادة العبيد في الأساس . وكذلك الحال ، في منطقة
Recife البرازيلية الحضرية ، حيث كانت ظروف العبيد أفضل
بكثير عنها في مزارع الحدود ، في مقاطعة ريو جرانده دوسول Rio Grande
do Sul الجنوبية النائية .

وهناك عامل آخر ، بعيد تماما عن المناخ الفكري والحضارى ، وهو
اهتمام المؤرخين الشديدا بالمحاولات الحديثة لتصوير الاختلافات بين نظم
الرق بدقة، وعزل الأوجه الفريدة في الرق الانجليزى في أمريكا الشمالية .
ومنها النسبة البسيطة بين السود الى البيض . فحيث يمثل العبيد شريحة
صغيرة من اجمالى السكان، كما فى نيوانجلند ومستعمرات وسط الأطلنطي
الانجليزية ، كانت قوانين الرق تسمح ببعض الحقوق ، فكان الاعتقاد العام
بأن الدين والتعليم مفيدان للعبيد ولم نسمع احتجاجات عندما أقام
الكويكرز والانجليكانيون مدارس للزنجوج فى أماكن مثل بوسطن
وفيلادلفيا . ولم يكن الزواج نادرا ، وكان يسمح للآباء العبيد أن يعمدوا
أطفالهم فى الكنيسة الانجليكانية ، ولو أن الدفن كان يتم فى مقابر
« الغرباء » ، وكانوا أحرارا فى عقد الاجتماعات فى الأماكن العامة، وتعترف
بهم المحاكم بهذه المناطق .

وفى المنطقة من ميريلاند الى جورجيا، اختلفت الأحوال بشكل واضح .
ففى مستعمرات تشيزابيك كان العبيد يمثلون نحو ٤٠ ٪ من مجموع
السكان ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، وفاق عددهم فى كارولينا
الجنوبية أعداد البيض ، بنهاية فترة المستعمرات . وكانت قوانين العبيد
فى هذه المناطق عبارة عن تشريعات قمعية ، ويصدق الأمر نفسه فى جزر
الكاريبى الانجليزية حيث فاق السود البيض فى العدد بنسبة ٣ : ١ ،
وكثيرا ما كانت تصل الى ١٠ : ١ فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الوسط
المحاطين فيه بمن استرقوهم أصبح التحكم والسيطرة عاملا حاسما للملاك

العبيد الذين عاشوا في خوف دائم ومطرد من العصيان المسلح للسود . ولما تفوق العبيد في العدد ، احتاط البيض لعمل شيء يضمنون به ألا يجد العبيد فرصة لتنظيم أنفسهم والتآمر ضدهم . وهكذا عاشوا فيما يشبه الموقع العسكري ، وسط اشاعات مستمرة عن تمرد السود مما جعل أصحاب المزارع البيض يضاعفون العقوبات على مثيري الاضطراب منهم ويردون على عدوانهم بعنف ووحشية ، على أمل أن يروغوا بقية العبيد فيخضعوا خائعين . من ذلك عقوبة اخضاء العبد الذي يعتدى على امرأة بيضاء ، والاعدام حرقا على خازوق لمن يتآمر على الاشتراك في عصيان مسلح ، وكلها كانت عقوبات شائعة في المستعمرات ذات النسبة العالية من العبيد السود ، أما حيث كان العبيد شريحة صغيرة من السكان فلم تكن مثل هذه المحاولات تجري لابرار مدى وضاعة شأنهم أو لتركهم بالكامل تحت رحمة ساداتهم .

والعامل الثاني الذي يؤثر في خصائص مجتمعات العبيد ، ذلك النظام الاقتصادي الذي وقعوا في شركه . فحيث كان السود يعملون في نظام المزارع القائمة على انتاج المحاصيل النقدية ، مثل القطن والقصب والبن والأرز كانوا يقاسون أسوأ حالات العبودية وحشية . وكانت تكاليف الحياة البشرية مروعة في هذه المناطق مثل مزارع القطن الأمريكية في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومزارع القصب في الكاريبي في القرن السابع عشر حتى التاسع عشر ، ومزارع البن البرازيلية في القرن التاسع عشر . وكان بلوغ أقصى حد من الربح هدفا طامحا في هذه المزارع ، تحقق بتشغيل العبيد حتى الموت ثم استبدالهم بعبيد آخرين يستوردون للعمل بدون أجر .

وكانت الظروف أفضل من ذلك في المناطق التي يقل فيها العبيد ، حيث يستخدمون للعمل الموسمي أو الخدمة في المنازل أو كحرفيين . ولم تكن هذه الأعمال أقل اجهادا فحسب ، بل كانت الفرصة أيضا أمام الأفكار الدينية والخيرة للتدخل من قسوة العلاقة المتأصلة بين السادة والعبيد . ففي نيويورك الانجلو - هولندية ، ورسيف البرتغالية ، كان العبيد يعاملون أسوأ معاملة ، إلا أن فرصهم في الحياة والبقاء كانت أكبر بكثير منها في المزارع الواسعة . وعندما كانت الأراضي الزراعية في ازدهار وتوسع سريع ، كما هو الحال في كارولينا الجنوبية في القرن الثامن عشر ، وكوبا القرن التاسع عشر كان العبيد يتعرضون لأسوأ استغلال ، عادة ، نظرا للحوافز الخاصة التي دفعتهم الى أقصى حدود التحمل البشري . ولعل تكاليف المعيشة لم تكن في أي مكان بنفس القسوة التي كانت عليها في جزر السكر بالهند الغربية . وكما كتب أحد الانجليز عن ذلك سنة

١٧٨٨ (٧) بأن العبيد كانوا يعتبرون « قطعانا كثيرة من الماشية » ، يمكنها « الاستمرار فى مزاولة مهامها الشاقة ، الخيفة ، ثم يلفظون أنفاسهم الأخيرة » بعد سبع سنين أو ثمان .

أما العاملان الآخران اللذان أثرا فى حياة العبيد ، فقد نبعا مستقلين عن بعضهما من المؤسسات والاتجاه الفكرى العام . ويتصل أولهما بما إذا كانت تجارة العبيد لا تزال مفتوحة فى مناطق معينة أم لا : فإذا كانت كذلك ، كان المدد الجديد من الأفريقيين متيسرا باستمرار ، ومعاملة العبد قاسية فى العادة . ولم يكن تشغيل العبد حتى الموت يمثل مشكلة ، حيث يسهل استبداله . أما إذا كانت التجارة فيهم مقيدة ، كانت تتخذ احتياطات كبيرة لتأمين رأس المال المستثمر فى هذه الممتلكات البشرية ، لأن استبدالها لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التناسل ، وهى عملية طويلة غير موثوق فيها . مثال ذلك ، أن جزر باربادوس كانت تمثل مصيدة الموت للأفارقة فى القرن الثامن عشر . ومع سبل الامدادات من العبيد الأفارقة ، المنيسر الحصول عليهم ، ومع الغياب الفعلى للمؤسسات الوسيطة التى يمكن أن تقيد ملاك المزارع الخاصة بالقصب فى معاملة العمال العبيد ، لا يقيدهم فى ذلك إلا حسابات التكلفة - أى المكسب والخسارة لم يبال السادة بهلاك عبيدهم . ووجدت ظروف مماثلة لذلك فى المناطق البرتغالية المنتجة للبن بشمال شرق البرازيل فى القرن التاسع عشر . ويذكرنا أحد المؤرخين المحدثين ، بصرف النظر عن الخلفية القومية والظروف الثقافية للعالم الجديد ، « لم ينبع العامل الأساسى فى تقييد الرجل الأبيض على طول تاريخ الرق الأفريقى ، من وخز الضمير الإنسانى ، بل من المصلحة الشخصية . فالرجل الأبيض لم يأت بغية الإبادة الجماعية ، بل جاء لأسر الأفراد أحياء حتى يستطيع وضعهم تحت سيادته الكاملة ، من أجل مصلحته أو راحته الشخصية » (٨) .

والعامل الآخر المؤثر فى حياة العبيد ، هو انتشار الأمراض الاستوائية . ففي المناطق الحارة بما فيها أغلب أمريكا الشمالية ، كان العبيد أقل تعرضا بكثير لأنواع الحمى المهلكة ، التى تحصده كلاً من الأوروبيين والأفارقة فى المنطقة الاستوائية ، ولعل لذلك أهميته القصوى فى تفسير انخفاض نسبة الوفيات وارتفاع نسبة المواليد فى المستعمرات الانجليزية عنها فى مستعمرات القوى الأوروبية الأخرى فى الجنوب الأمريكى والكاريبى . فالحقيقة المروعة أن حوالى ٥ ٪ فقط من عبيد العالم الجديد قد جاءوا الى أمريكا الشمالية البريطانية ، ومع ذلك أصبح السود الأمريكيون يمثلون ، فى منتصف القرن العشرين ، أكثر من ٣٠ ٪ من كل الأفراد ذوى الأصل الأفريقى فى نصف الكرة الأرضية . وبالمقارنة ، نجد

أن البرازيل التي استوردت حوالى ٣٨٪ من كل العبيد الذين جئ بهم الى الأمريكتين كان لديها منهم ٣٦٪ فقط من الأصول الأفريقية التي تعيش فى نصف الكرة (الغربى) فى منتصف القرن العشرين . وقد استوردت جزر الهند الغربية البريطانية حوالى ٨٥٠.٠٠٠ عبد فيما بين سنتى ١٧٠٠ ، ١٧٨٠ ، الا أن السود من سكان الجزر فى السنة الأخيرة كان عددهم حوالى ٣٥٠ ألفا فقط . وفى المقابل ، استوردت المستعمرات الأمريكية أقل من ٢٥٠ ألفا فى نفس الفترة ، لكن عددهم وصل الى حوالى ٥٧٥ ألف زنجى من السكان سنة ١٧٨٠ - . وتعكس هذه النسب المختلفة لنمو السكان عدة متغيرات منها الاختلاف بين نسبة الذكور والاناث أثناء فترة الرق ، ومعاملة الرقيق ، ونسبة الخصوبة بين الزوج الأحرار الى جانب مجموعة عوامل أخرى ، ولكن مهما أمكن تصنيف هذه العوامل يتضح فى النهاية أن الأفارقة الذين جئ بهم الى مستعمرات أمريكا الشمالية كانت لهم فرصة للحياة أفضل من نظرائهم فى المستعمرات الاستوائية ، حيث كانت الظروف المرضية لا تناسب الحفاظ على حياة البشر الا نادرا ، أحرارا أو عبيدا ، بيضا كانوا أو سودا .

ورغم الأهمية البالغة لاختلاف المعاملة النسبية للعبيد فى مختلف مزارع المستعمرين الأوروبيين ، الا أن هناك اعتبارا آخر ، ألقى عليها ظللا قاتمة ، ذلك هو الرغبة العارمة لنيل الحرية التى وصل اليها العبيد فى مستعمرة دون الأخرى ، بينما نجد المعاملة النسبية ، لا تزال موضوعا ينشط المؤرخون فى بحثه ، يبدو أن العبيد فى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية كانت لديهم فرص واسعة جدا للعمل متحررين من قيود الرق عنها فى المستعمرات البريطانية . ونجد التعدادات السكانية الخاصة بالقرن الثامن عشر قليلة وناقصة ، ولكننا نعلم أن نسبة الزوج الأحرار الى العبيد سنة ١٨٢٠ كانت حوالى واحد الى ستة فى الولايات المتحدة ، وواحد الى ثلاثة فى البرازيل ، وواحد الى أربعة فى المكسيك ، وواحد الى اثنين فى كوبا . وقد فاق السود الأحرار فى كوبا الأسبانية فقط عدد العبيد المحررين فى كل الولايات الجنوبية سنة ١٨٠٠ بثلاثين ألف فرد ، بالرغم من أن السكان السود فى الجنوب الأمريكى قد فاقوا نظرائهم فى كوبا بنسبة ٣ : ١ تقريبا .

ان المؤرخين الذين أكدوا على الجانب الأسبانى العظيم والعنصرية الأقل قسوة لدى المستعمرين الأسبان والبرتغاليين ، قد فسروا هذه الفرصة العظيمة للتحرر فى مستعمراتهم على أنها دليل على المرونة النسبية، والطبيعة الحيرة لأنظمتهم هناك وأنها شاهد على الالتزام باعداد العبيد للمواطنة . الا أن هؤلاء الذين يؤكدون على اثبات الأهمية الفائقة للعوامل

السكانية والاقتصادية هم الأكثر اقناعاً من غيرهم . فهم ينبهون إلى أن « حاجة » البيض إلى السود الأحرار ، وليس الاهتمام الانساني بحريتهم هي التي حركت الكثير من الملاك الأسبان والبرتغاليين لتحرير أملاكهم من البشر . ونظراً لهجرة الانجليز إلى المستعمرات الأمريكية بأعداد أكبر بكثير من الأسبان والبرتغاليين لذلك توفر العدد الكافي منهم لشغل أغلب وظائف الصناعات الماهرة ، والمشرفين ، وتجار الماشية وجنود الميليشيا - وهم « الجزء العامل ، المتحرك في الاقتصاد » (٩) . ولكن الهجرة الأوروبية الخفيفة نسبياً إلى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية تركتهم يعانون النقص الشديد فيمن يمكنهم الاشتغال بالأعمال الأرقى من العمل اليدوي . لذلك كان من الضروري خلق طبقة من السود الأحرار الذين يعملون للبيض بالأجر ، حتى يمكن أن يسير الاقتصاد في يسر لصالح ملاك الأراضي والتجار والمستثمرين البيض . هذا وبالرغم من أن ملاك المزارع وسيادة العبيد في المناطق الحضرية الشمالية قد دربوا بعض العبيد ليصبحوا عمالاً ماهرين ، إلا أن الأعمال الدنيسا كانت من نصيب معظم الأفارقة في المستعمرات الانجليزية ، وحيثما كان الأمريكيون الأفارقة يشتغلون كأحرار في مجتمع الرجل الأبيض كانوا يتمتعون بحقوقهم المدنية والسياسية ، وفيما عدا ذلك ، ظلوا عبيداً . وان عدم تقييد أصحاب العبيد ، من الناحية القانونية بتحرير العبيد في المستعمرات الأسبانية مثلما كانوا في المستعمرات الانجليزية ، يعتبر شاهداً كبيراً على أن القانون كان يتبع حاجة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية أكثر من أي اهتمام فكري بالعبيد مستمداً من سوابق قديمة ، وهناك أدلة تبين أن ملاك العبيد البرازيليين ، غالباً ما كانوا يعتقدون عبيدهم العجزة والمسننين ليتحرروا من تكاليف الاحتفاظ بعمال غير منتجين ، وهو ما كانت تعرفه المستعمرات الانجليزية أيضاً ، وتمارسه .

والوضع الثاني ، الذي كان السود الأحرار فيه ، عنصراً حيوياً لمصالح المستعمرين البيض في أمريكا اللاتينية هو اعتبارهم جزءاً من نظام الدفاع العسكري ، فعلى سبيل المثال ، يتضح أن النظم الانجليزية والبرتغالية للرق ، كانت تختلف عن بعضها البعض بدرجة كبيرة في موقفها من تسليح العبيد ، لأنه بينما كان ينذر السماح بذلك في المستعمرات الانجليزية ، كان يستخدم في البرازيل على نطاق واسع . ولشرح هذه المفارقة ، تلزمنا الإشارة فقط إلى أن المستعمرات البرازيلية لم تكن تستطيع أن تأمل في صد الهجمات الفرنسية في أواخر القرن السادس عشر ، والغزو الهولندي في الربع الثاني من القرن السابع عشر ، والمذابح الفرنسية في أوائل القرن الثامن عشر ، دون أن تسليح عبيدها الزنوج . وقبله كتب كارل دجلر Carl Degler في مقارنة شاملة للرق في البرازيل والولايات المتحدة أنه « نظراً لأن الوطن الأم ٠٠٠ كان

ضعيفا جدا ، أو غير مهتم بتقديم مساعدات كثيرة ، لذا كان من الواجب تعبئة كل موارد المستعمرة ، الضئيلة ، المتناثرة ، للدفاع الذى شمل كل فرد من القوى البشرية ، مهما قلت أهميته ، بما فى ذلك العبيد السود ، (١٠) . أما فى المستعمرات الأمريكية ، فكانت الحاجة الى تسليح العبيد طفيفة بعض الشيء . فبالرغم من أن السفن الاستعمارية كانت مهددة من آن لآخر بالغارات البحرية من القوى الأوروبية الأخرى ، كانت المستعمرات الساحلية نادرا ما تتعرض للهجوم من منافسين أوروبيين ، باستثناء نيوانجلند ، حيث كان عدد الكبير بها قليلا .

وحين اقتضت الضرورة العسكرية ذلك ، سلح الملاك الأمريكان عبيدهم متجاهلين ، أو مجننين مؤقتا تلك القوانين التى كانت تحظر ذلك بشدة . وعندما فترت ثورة دانيال بيكون ضد حكومة فرجينيا سنة ١٦٧٦ ، أسرع بإعلانه من جانب واحد تحرر كل خادم أو عبد ينضم الى حركته . ومن الواضح ، استجابة كثير من العبيد لأنه من بين مجموعة واحدة من حوالى أربعمئة ثائر متمرّد ، كان ثمانون على الأقل عبيدا هاربين . وفى كارولينا الجنوبية حيث جعل التهديد الأسباني مشكلة الدفاع العسكرى قضية أكبر منها فى أى مكان آخر فى المستعمرات الانجليزية ، كان مطلوبا من كل قائد ميليشيا ، بحكم القانون ، سنة ١٧٠٨ « أن يسجل ، ويدرب ، ويحضر الى الميدان عبدا قويا مسلحا ببندقية أو رمح ، لكل فرد أبيض » (١١) . وفى حرب الياماسى ، بعد ذلك بسبع سنين ، كان سكان كارولينا الجنوبية سعداء فقط ، لاستخدام العبيد فى محاولة لدرء هجمات أعدائهم من الهنود الحمر . وعندما غزا الحاكم نشارلز كرافن Charles Craven بلاد الياماسى ، فى يولية ١٧١٥ ، كانت قوته المكونة من عدة مئات يكاد يتساوى فيها المستوطنون البيض مع العبيد السود .

وهناك وسيلة ثالثة ، ذات أهمية حاسمة ، جعلت الأفارقة أكثر قيمة وهم أحرار عنهم وهم عبيد ، فى مستعمرات أمريكا اللاتينية ، تلك هى الاتصال الجنسي بالزواج أو غيره ، خاصة بالنساء السوداوات فى المقام الأول . ولكن الظاهرة التى شملت الانتباه بشكل قوى هى انتشار المعاشرة بين جنسين مختلفين ، كالفنى حدث فى أقطار أمريكا اللاتينية بين الأوروبيين والهنود الحمر ، والهنود والأفارقة ، وبين الأفارقة والأوروبيين . وقد أشار الى ذلك ، المؤرخ الأمريكى اللاتينى ماجنوس مورنر Magnus Mörner بقوله : « لم يشهد مكان فى العالم ، مثل هذا الاختلاط الجنسي الهائل الذى كان يجري فى أمريكا اللاتينية والكاريبى منذ سنة ١٤٩٢ » (١٢) . وقارن بعض المؤرخين بين الحلفية الحضارية للشعبيين

الأوروبيين ، وبرهن على أن الأسبان والبرتغاليين ، قد تفاعلوا عبر قرون من الحروب والعلاقات الاقتصادية مع بربر شمال أفريقية ، وبذلك نما بينهم الاختلاط الجنسي ، بشكل مرن . أما الانجليز ، فقد ظلوا معزولين نسبيا في جزيرتهم الحصينة ، قبل أواخر القرن السادس عشر ، يختلطون بالمحضارات الأخرى في نطاق ضيق .

الا أن هذه الاتجاهات السابقة ، المنقولة الى العالم الجديد ، كان من الممكن أن تضحل أو تتلاشى ، لولا الظروف القاهرة التي كانت تشجع الامتزاج الجنسي هناك . فقد حدث أن هاجر الذكور من الأسبان والبرتغاليين بدون نساء ، بدرجة أكبر من الانجليز الذين غلب مجيئهم مع عائلاتهم . وقد حمل الأسبان والبرتغاليون معهم فكرا عنصريا ، يبرر بدرجة كافية الاختلاط بالنسوة الهنديات والأفريقيات ، بالرغم من تفضيلهم البشرة البيضاء والدم الأوروبي . لذلك شاعت العلاقات الجنسية، آنذاك في المستعمرات الأمريكية اللاتينية ، حيث اتخذ المسنعمرون من النساء الهنديات والأفريقيات ربات للبيوت ، ومحظيات ، وزوجات . وكانت هذه المشاركة مقبولة دون عوائق تذكر أو قيود اجتماعية ، إذ أنه من الطبيعي ، في غياب المرأة الأوروبية أن تقوم العلاقات الجنسية مع امرأة سوداء البشرة ، أو حتى الزواج منها .

لم يكن الأمر كذلك في أغلب المستعمرات الانجليزية . حيث جاءت الانجليزيات مع الرجال الى نيوانجلند البيوريتانية بأعداد متقاربة نسبيا بين الجنسين ، مما جنبهم الحاجة الى الأفريقيات والهنديات . وفي المستعمرات الجنوبية ، حيث كان النقص في أعداد السيدات البيضات في النصف الأول من القرن أو نحو ذلك ، كانت المرأة الأفريقية أيضا غائبة ، نظرا لضالة استيراد العبيد ، حتى العقد الأخير من القرن السابع عشر . وعندما تيسر الحصول على المرأة السوداء بأعداد كبيرة ، أصبحت النسبة العددية بين البيض من الرجال والنساء في سبيلها للعلاج . ولم يكن مبدأ التفوق العرقي مبدأ صارما ، نظرا لأن وجود النسوة البيضات هو الذي جعل الاختلاط بين الأجناس ضارا بالسمعة رسميا ، ومخالفا للقانون ، دائما ، بالرغم من ممارسة الأفراد له بصفة شخصية ، الى حد بعيد . ولو كان الرجال البيض استمروا بدون الانجليزيات في الوقت الذي بدأت الأفريقيات تتدفقن على المستعمرات الجنوبية ، لكان قد تعطل تماما ، ذلك النفور الانجليزي المزعوم ، بلا شك ، من الشريك ذي البشرة السوداء . فقد ساد اقتناع الانجليز ، نتيجة خبرتهم في جزر الهند الغربية ، بصعوبة أو استحالة أن تقيد المبادئ الرجال الانجليز، المحرومين

من النساء ، من اشباع رغباتهم الجنسية . ولم تكن الانجليزيات فى جزر
باربادوس ، وجامايكا ، وليوارد متوفرات كوفرتهن فى مستعمرات القارة .
ونظرا لاحاطتهن ببحر من النساء السوداوات تابع الرجال الانجليز فى
لهفة تجربة الاسبان والبرتغاليين فى معايشة امائهم ، والزواج منهن
أحيانا . لقد رأى وينثروب جوردان Winthrop Jordan أن تجريم العلاقات
الجنسية مع الزنوجيات ، كما حدث فى المستعمرات الأمريكية فى القرن
الثامن عشر ، كان أصعب بكثير من محاولة إلغاء قصب السكر (١٣) .
وهكذا ، فحيث كانت تفتقد المرأة البيضاء ، كانت تظهر الحاجة الى المرأة
السوداء ، وحيث تشتد الحاجة اليهن ، تشتد الحماسة لقبولهن ، ويتوقف
تماما تنفيذ قوانين حظر الاختلاط أو الزواج بين الأجناس .

اذن ، اختلف الرق فى الأمريكتين ، بدرجة كبيرة ، سواء فى معاملة
العبيد أو فى مدى تفتح النظام ، أو فى رغبة المجتمع السائد فى التبادل
الحضارى مع الأفارقة الموجودين بينهم . فكل ما نقلته مختلف مجموعات
المقيمين الأوروبية معها الى العالم الجديد من ميراث حضارى مغاير ، قد
لعب دورا فى تشكيل اتجاهاتهم العامة وسياساتهم ، وقوانينهم . الا أن
ضرورات الحياة فى العالم الجديد ، بما فيها من احتياجات اقتصادية
وجنسية وعسكرية قد عمل أكثر من ذلك فى تشكيل المواقف العنصرية
ونظام الرق . فكان لابد أن نتوقع أن تلعب صور الاستيطان والتطور
الاقتصادى المختلفة هذه ، أهم الأدوار الفعالة ، النشطة ، والتغير المستمر
فى إعطاء نظم العبيد صورتها الفعلية . فقد كان من بيدهم القدرة على
صياغة الآراء وتشكيل المؤسسات مقيدتين فى ذلك ، بالطريقة التى
تساعدهم على تحقيق أهدافهم .

المراجع

1. Basil Davidson, « The African Genius » (Boston : Little, Brown and Company, 1969), p. 187.
2. These statistics on the slave trade, and others that follow are taken from Philip D. Curtin, « The Atlantic Slave Trade : A Census » (Madison : University of Wisconsin Press, 1969).
3. Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population Before the Federal Census of 1790 » (New York : Columbia University Press 1932), p. 124.
4. David Brion Davis, « The Problem of Slavery in Western Culture » (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1966), p. 25.
5. Eric Williams, « Capitalism and Slavery » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1966), p. 30.
6. Frank Tannenbaum, « Slave and Citizen : The Negro in the Americas » (New York : Alfred. K. Knopf, 1946).
7. Quoted in C. Vann Woodward, « American Counterpoint : Slavery and Racism in the North-South Dialogue ». (Boston : Little, Brown and Company, 1971), p. 101.
8. Richard Hofstadter, « America at 1750 : A Social Portrait » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1972), p. 107.
9. Carl N. Degler, « Neither Black Nor White : Slavery and Race Relations in Brazil and the United States » (New York : The Macmillan Company, 1971), p. 44.
10. Ibid., p. 79.
11. Verner W. Crane, « The Southern Frontier, 1670-1732 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 187 n.
12. Magnus Mörner, « Race Mixture in the History of Latin America » (Boston : Little, Brown and Company, 1967), p. 1.
13. Winthrop D. Jordan, « White over Black : American Attitudes Towards the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1968), p. 140.

الفصل الثامن

رد الفعل الأفريقي تجاه الرق

من السهل أن نفترض أن الأفارقة ، حال بيعهم غداة وصولهم الى العالم الجديد ، كانوا مؤهلين للعمل في ظل نظام صارم غير مألوف يفرض عليهم الذلة ويجردهم من أفريقيتهم . وهناك عناية بالغة واهتمام مسرف بنوع نظام العبيد الذي صاغه ملاكهم من حيث دساتير السود التي شرعوها ، ومعاملتهم للعبيد ، والتطور الاقتصادي الذي خططوه ، بحيث أصبح العبيد أنفسهم منسبين دائما كشركاء مؤثرين في العملية الحضارية ، كيف عاشوا حياتهم اليومية في مرحلة مختلفة للغاية من مراحل الحضارة ؟ ، والى أية درجة تعدلت حضارتهم البدائية في مجتمع الأوروبيين البيض ؟ كيف عانوا من فقد حريتهم ، واستجابوا لانفصالهم عن كل ما اعتادوه في حضارتهم الوطنية ؟ والى أية درجة صاغوا حضارة أفرو - أمريكية جديدة مميزة عن الحضارة الأوروبية المحيطة بهم ؟ ، ونحن نتساءل عن « ماذا فعل العبيد لأنفسهم ، وكيف فعلوا ذلك ؟ » بدلا من أن نسأل عن « ماذا حدث للعبيد ؟ » على رأى يوجين جينوفيز Eugen Genovese سنظل ننظر اليهم بصفتهم هدفا للدراسة ، وليس مجرد سبب لاستفساراتنا التاريخية (١) .

الاستيلاء على العبيد وترحيلهم :

لا يمكن لأية رواية أو تفسير لعمليات استعباد الأفارقة ، مهما كانت أن تنقل إلينا مدى الألم والانحطاط المعنوي الذي صاحب التدفق الأوربي للساحل الغربي لأفريقية ، وما نتج عنه من شحن السفن الأوروبية بأولئك الذين وقبوا أسرى في أيدي الموردين الأفارقة لتجار العبيد الأوروبيين . ولما تضاعف الطلب على العبيد الأفارقة مرارا في القرن الثامن عشر ، تعرضت المناطق الخلفية ، الداخلية للسودان الغربي والأوسط للغزو المتكرر على يد جيوش ووكلاء كل من ملوك الساحل والداخل . ولعل ٧٥٪ من العبيد المنقولين الى أمريكا الشمالية الانجليزية قد أتوا من أفريقية الغربية ، فيما بين نهري السنغال والنيجر وخليج بنين Benin ، وتم



Philip D. Curtin, « The Atlantic Slave Trade :
A Census, pp. 157-160.

المصدر :

أشهر القبائل :

- | | | | |
|----------------|-------------|---------------|----------------|
| (١) الفولاني | (٢) البربر | (٣) الولوف | (٤) الماندينجو |
| (٥) الفن | (٦) الهاوسا | (٧) اليوروبا | (٨) الأشانتي |
| (٩) الفانتى | (١٠) السوسو | (١١) الايبو | (١٢) الافيك |
| (١٣) السيكى | (١٤) التيكى | (١٥) الفسوندى | (١٦) الباكونجو |
| (١٧) الموبوندو | | | |

**النسب المئوية للعبيد المستوردين ، والمناطق الساحلية للمصدر الأصلي
الى المستعمرات الانجليزية الثلاث**

المنطقة الساحلية للمصدر الأصلي	فرجينيا ١٧٦٩-١٧١٠	كارولينا الجنوبية ١٨٠٧-١٧٦٣	جامايكا ١٨٠٧-١٦٥٥
١ - السنغال وغامبيا	١٤ر٩	١٩ر٥	٣ر٧
٢ - سيراليون	٥ر٣	٦ر٨	٥-
٣ - ساحل مهب الريح (وندوورد)	٦ر٣	١٦ر٣	٥ر٩
٤ - ساحل الذهب	١٦-	١٣ر٣	٢٥ر٥
٥ - خليج بنين	—	١ر٦	١٣ر٨
٦ - خليج بيافرا	٢٧ر٧	٢ر١	٢٨ر٤
٧ - أنجولا	١٥ر٧	٣٩ر٦	١٧ر٥
٨ - موزمبيق ومدغشقر	٤ر١	٠ز٧	٠ر٣

استرقاق معظم الجزء الباقي ، من أنجولا على الساحل الغربى لأفريقية الوسطى ، وقد كانت أنشطة الرق في هذه المناطق مسئولة عن حرمانها من سكانها بدرجة ملحوظة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

كان العبيد يسيرون ، بمجرد أسرهم ، الى البحر ، فى « قوافل » coffles أو مواكب . وقد وصف الاسكتلندى، منجو بارك Mungo Park قافلة العبيد التى مشى معها مسافة ٥٥٠ ميلا عبر جامبيا ، فى نهاية القرن الثامن عشر بقوله : انها تكونت من ٧٣ رجلا وامرأة وطفلا ، مربوطين معا من رقابهم بسيور من الجلد . وحاول كثير من الأسرى الانتحار بآكل الطين ، وانقطع الأمل فى آخرين بعد لسع النحل لهم بدرجة خطيرة ، كما مات آخرون من الارهاق والجوع ، ثم وصلت قافلتهم ، بعد شهرين ، الى الساحل ، وقد أنهكهم العطش ، والجوع ، والتعرض لسوء الأحوال الجوية والأخطار (٢) .

ان الغضب ، والاندهال ، والأسى ، الذى صاحب المسيرة الاجبارية التى كانت رحلة أول قائمة منها لمسافة خمسة آلاف ميل ، الى العالم الجديد ، زاد منه نقل العبيد فعلا الى سفن القباطنة الأوروبيين الذين كانوا يحملون شحناتهم البشرية فى سفن خشبية صغيرة الى الأمريكتين . لقد كتب أحد التجار الأوروبيين فى أواخر القرن السابع عشر : « عندما يصل العبيد الى فيدا Fida ، من داخل القطر ، يوضعون فى سقيفة أو قفص يبنى لهذا الغرض قرب الشاطئ » وحين يأتى الأوروبيون لاستلامهم ، يتم اخراجهم فى سهل فسيح ، حيث يفحص أطباء السفن الجراحون كل جزء من بدن كل واحد منهم الى أصغر عضو فيه وهم عراة تماما ، رجالا ونساء ، ثم يجرى فرزهم ، ويستبعد الضعفاء منهم . ويطلق على العبيد المرفوضين لفظ « مكرونيين » Mackrons لكونهم أكبر من ٣٥ سنة من العمر ، أو بهم عيوب فى الشفاه أو العيون أو الأسنان ، أو وخطهم الشيب ، أو بهم مرض تناسلى أو أية شائبة أخرى » (٣) . ومن الطبيعى أن مثل هذه المعاملة المهينة للإنسانية كانت جزءا من عملية انتقاء السلعة والمساومة عليها . ولكنها كانت أيضا ، جزءا من العملية النفسية فى محاولة لسلب الأفارقة احترامهم الذاتى ، وتجريدهم من كرامتهم .

ان القسوة تولد القسوة ، فبعد شراء العبيد كان كل عبد منهم ، يوسم بسيخ من الحديد المحمى لتمييز الشركة التى اشتترته ، هل هى أسبانية أم برتغالية ، انجليزية أم فرنسية أم هولندية . وهكذا وصل عبيد شركة أفريقية الملكية الانجليزية الى أمريكا فى القرن السابع عشر ، وعلى صدورهم حرق للحرفين « دى . واى Dy » اختصار « دوق يورك » . وهكذا أطلعت الحضارات المتقدمة ، أعضاء المجتمعات الأمية « التى ليست

لها لغة مكتوبة ، على رموزها الأبجدية لأول مرة ! وتستمر إحدى الروايات قائلة : « كان العبيد الموسومون ، يعادون الى حظائرهم السابقة التي بنيت لحجزهم فيها » حتى يتم تجميع شحنة كاملة (٤) . ثم جاء التغير النفساني المفاجيء الثانى ، مع نقل العبيد فى قوارب كبيرة وطويلة الى السفن المنتظرة عند الميناء . ويصف قبطان انجليزى حالة اليأس التي امتلأ بها العبيد ، وهم على وشك أن يفقدوا كل أثر لأرض أجدادهم ، ويبحروا فى محيط شاسع ، لم يسبق لأحد منهم أن رآه من قبل . « ملأ الزوج العناد والاشمئزاز لترك أوطانهم ، فكانوا يقفزون من القوارب ، عادة ، أو الزوارق الطويلة الضيقة أو السفن ، ويظلون تحت الماء حتى يفرقوا تفاديا لانقاذهم بقواربنا التي كانت تقتفى أثرهم ، فقد كانوا يتوقعون مخاوف فى باربادوس أخطر مما يمكن أن نتوقعها فى جهنم » (٥) .

ذلك الفزع الذى أدى الى الانتحار ، وهم ما زالوا على أبواب أفريقية ، انتشر تماما فى المرحلة الثانية - منطقة عروض الحيل (العروض الوسطى) من ساحل أفريقية الغربى الى العالم الجديد . فكانت أحوالهم على ظهور السفن مخزية ، ميثسة ، رغم أنه كان من الواضح أن من مصلحة قباطنة السفن تسليم أكبر عدد ممكن من العبيد الى الشاطئ الآخر من الأطلنطى . وبالرغم من أن المحافظة على حياة العبيد ، بدلا من القضاء عليهم كانت على الهدف الأساسى ، الا أن القسوة الوحشية كانت تمارس سواء بقذف أى عبد يسقط صريع المرض ، من فوق السفينة خلال الرحلة ، أو بمعاقبة المشاغبين منهم بقسوة سادية ، وذلك لخلق جو من الخوف يجعل أى تفكير فى العصيان المسلح لا يخطر ببال العبيد الآخرين (٦) . ويصف تاجر العبيد الانجليزى ، جون أتكينز Atkins سنة ١٧٢١ ، كيف كان القبطان وهم على متن السفينة ، « يضرب بالسياط ويشق جلود » الكثير من المتأمرين على التمرد ، وكيف كان يحكم على آخرين « بالموت بطرق وحشية ، باجبارهم ، أول الأمر على أكل قلب أحدهم وكبدته بعد قتله . أما المرأة التي يشير اليها فكانت تشد الى قائم ، وتجلد بالسياط ، ويخدش جسدها بجراح طويلة بالسكين ، أمام العبيد الآخرين حتى تموت » (٧) . وهذا وصف كان يمكن تكراره بلا نهاية ، الا أن كل وصف كان يقودنا الى النقطة الآتية وهى : أنه بالرغم من أن المهندسين البحريين الأوروبيين قد تنافسوا على إنتاج أكثر السفن كفاءة لحمل أكبر الشحنات البشرية الى العالم الجديد ، الا أن الموت على متن السفن ، سواء للعبيد السود فى أسفل المركب أو البحارة البيض فوقه ، كان مرتفعا بدرجة لا تصدق ، وبنسبة ربما تتراوح بين ١٠ - ٢٠٪ فى كل رحلة .

وتدلنا محاولات انتحار الأفارقة وتمردهم الذى كان يحدث غالبا أثناء عبور المحيط ، على أن القسوة المستخدمة فى أسر الأفارقة ، ووسمهم

بالجديد المحمى ، وبيعهم ، وتقلهم من قارة أخرى ، لم يكن ذلك كله كافيا لخضوع الأسرى فى هدوء لمصيرهم . ويحاول مؤرخ للرق فى القرن الثامن عشر ، تحرير الوسائل الرهيبة فى معاملة العبيد بقوله : « ان حالات العنف الكفيرة التى ارتكبتها (العبيد) بقتل أطقم البحارة بالكامل ، وتدمير السفن التى تمسح تحت سيطرتهم ، كل ذلك جعل هؤلاء القساة مسئولين كلية عن نزعتهن القموية الخبيثة التى تستلزم معاملتهن كما لو كانوا ذئابا أو خنازير برية » (٨) . لكن القارىء المعاصر يمكنه أن يكشف فى هذا التصوير للأفارقة المستعبدين برهانا واضحا على أن الخضوع لم يكن من سمات هؤلاء المنقولين قسرا الى العالم الجديد . وما أعظم هذه المقاومة التى أدت الى ابتكار وسائل تقنية للتعذيب لتتلاءم مع آلاف العبيد الذين صمموا على الكفاح حتى الموت فى منطقة العروض الوسطى ، بدلا من الوصول الى العالم الجديد ، مقيدين فى السلاسل ! . وعادة ما كان الضرب الوحشى بالسياط ، وكى الشفاه بالفحم الساخن ، يستختم باستمرار لاجبار العبيد المتمردين ، المحروطين على فتح أفواههم ، فاذا لم تكف هذه الوسائل ، استخدمت آلة فتح الفم « Speculum Oris » لإبعاد فكى العبد المقاوم عن بعضهما .

واذا أخذنا فى الاعتبار ، الخوفيات التى حدثت أثناء الأسر ، والمسيرة الجبرية الى الساحل ، ومنطقة العروض الوسطى ، نجد أن واحدا فقط من كل أسيرين أفريقيين قد عاش ليرى العالم الجديد . ولا بد أن التجربة قد أفقدتهم الحس والمبالاة ، واستنفدت قواهم الجسدية . وتبقى بعد ذلك ، خطوة أخرى فى عملية الاسترقاق ، وهى البيع بالمزاد العلنى الى السيد فى العالم الجديد ، والنقل الى محل إقامته . ان إعادة توطين أى واحد من نحو ثمانية ملايين أفريقى ، جئ بهم الى الغرب عبر الأطلنطى ، فيما بين القرنين السادس عشر ، والثامن عشر قد تستغرق حوالى ستة أشهر ، من وقت الأسر حتى وصوله الى مزارع السيد الأوروبى . وخلال هذه المصيبة الشخصية الطويلة الأمد ، كان العبد ينقطع بالكلية عن كل ما تعود من لغة وأسرة وعلاقات واسعة مع أقرانه ، وعقيدة القبيلة ، وغير ذلك من أشكال الأمن الاجتماعى والنفسى . ثم يبقى أمام هؤلاء الضحايا لحاجة الأوروبى الى عامل رخيص ، أن يتكيفوا مع بيئة جديدة ، ولغة جديدة ، وموقع عمل جديد .

التكيف مع حياة الرق :

ان أول ما يفكر فيه العبد بغريزته ، وقد وجد نفسه فى مزارع التبغ بفرجينيا أو مزارع القصب بجامايكا ، هو البقاء على قيد الحياة ، ولكى

يحقق ذلك اضطراب كغيره من المتهورين أن يدرس بعناية وحرص أساليب ظالميه . وفى حالات كثيرة ، كان هناك عبيد سبق المجيء بهم فعلا الى المزرعة التى تم نقله اليها ، فيتعلم منهم فنون الكفاح للبقاء حيا . فاذا كثر العبيد الآخرون كما فى كثير من المزارع الجنوبية فى منتصف القرن الثامن عشر ، واذا كان العبيد الجدد مستمرين فى الوصول من أفريقية ، اذن يكون من الأسهل والأنسب المحافظة على عناصر الحضارة الأفريقية حية ونشطة . وعلى كل حال ، لم يكن القضاء على الحضارة الأفريقية من السهل الممكن ، لأن الحضارات الجديدة دائما ما تنشأ وتتطور من الحضارات السابقة فى تغير تدريجى ، يوفق بين المعتقدات المتعارضة . وقد كتب جورج راويك G. Rawick أنه بالرغم من الحقيقة المؤكدة بأن الأفريقى قد تغير تحت سيطرة الأمريكى ، الا أنه فعل ذلك بوسائل أفريقية ملحوظة ، (٩) . فالموسيقى ، والرقص ، والألعاب ، والقصص والأساطير الشعبية ، كانت ضمن أكثر الوسائل الحضارية بقاء ، كما بقيت الى حد ما ، أساليب الحديث ، والدين ، والمحظورات والمجرمات ، والمعتقدات الخرافية . ولابد أن ملاك العبيد كانوا على وعى بمحاولات عبيدهم للمحافظة على تراثهم الحضارى ، وأنهم سمحوا بذلك ، بلا شك ، طالما لم يتعارض ذلك مع « أقلمة » المهاجرين الجدد . فاذا عاق ذلك ، تكيفهم مع نظام الحياة والعمل الجديدين ، حاول هؤلاء الملاك محو هذه الاتجاهات الأفريقية . الا أنه على مدى التاريخ الطويل للرق لم يكن من الممكن محو ذاكرة العبد أو عاداته أو معتقده محوا كاملا . فالقديم يتغير ليلائم متطلبات موقف جديد ، ومحيط بيئة جديدة ، فكان ما ظهر هو توليفة من عناصر الحضارة الأفريقية والأوروبية .

ان الصدمة التى لازمت الاستيلاء على العبيد وبيعهم ونقلهم ، أحدثت جروحا خاصة للجيل الأول ، أولئك الذين جئ بهم مباشرة من أفريقية الى المستعمرات الأمريكية عن طريق جزر الهند الغربية . لأن نسلهم الذى ولد فى ظل الرق بأمريكا ، كان تكيفهم أسهل بكثير . ولكن ، بصرف النظر عما اذا كان الأمريكيون الأفارقة قد جئ بهم الى أمريكا أو ولدوا فى ظل العبودية فانهم كانوا مقيدين بالاحتكاك اللصيق ، العميق بالحضارة الانجليزية . وبالنسبة للأفارقة « الغرباء الهمج » أو « العائشين فى الملح » على حد تسمية أصحاب المزارع لعبيدهم الواصلين حديثا ، فكانت فترة الاقتحام أو « الأقلمة » تستغل فى تعريفهم بالحياة فى حقول التبغ والأرز فى ميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية . ونظرا لأن معظمهم أتوا من قبائل زراعية ، كانوا مستعدين تماما للعمل فى الزراعة . ولعل مهارة أهالى غرب أفريقية ، فى الواقع ، فى زراعة الأرز تفسر الى حد كبير أنه بينما كانت الجهود الانجليزية المبكرة مع هذا المحصول لم تكن ناجحة

فى كارولينا الجنوبية ، أصبح محصولا ناجحا للغاية بعد احضار العبيد مباشرة من افريقية فى بداية القرن الثامن عشر ، وربما كانت مرحلة تكيفهم أسهل لهم من كثيرين غيرهم . فقد فضل المزارعون أن يستوردوا العبيد الجدد أثناء أشهر الصيف حتى يتمكنوا من العمل فى محصول واحد على الأقل قبل حلول جو الشتاء الذى يودى بحياة كثير منهم . وكان من المعتاد أن يستغرق العبد سنوات عديدة لالتقاط مبادئ اللغة الجديدة ، بالرغم من أن بعضهم كانوا يتكلمون الانجليزية بشكل غير سليم فى أقل من سنة . لقد سهل على العبيد ، بلا شك ، الذين كانوا مزارعين أو خدما فى أوطانهم أن يتكيفوا مع حالة الرق بالعالم الجديد بدرجة أسهل منها لدى الأقلية التى كانت تشغل مواقع اجتماعية أعلى فى البناء القبلى . وكان المزارعون دائمي الشكوى من « عجرة » العبيد وتراخيهم ، الذين لم يرتفعوا الى مستوى العمل فى وطنهم ، وكان مشترى العبيد بالمزاد يبحثون عن طراز العبد الذى كان يألف حياة الحقول .

فى دراسة تكيف الأفارقة مع حياة العبيد والحضارة الانجليزية ، توصل المؤرخون الى نتائج مختلفة بشكل مدهش . فمنذ سنوات عديدة كان مقبولا ، على نطاق واسع ، القول بأن الأفارقة قد اجتازوا بسهولة انتقالهم الجغرافى من أوطانهم الى أمريكا ، وانتقالهم الاجتماعى من رجال أحرار الى عبيد . وكان يعتقد ، عامة ، أنهم طيعون ، قانعون فى أسلوب حياتهم الجديدة . ولا يزال هذا الرأى يتجسد فى كثير من الكتب المقررة بالمدارس الثانوية والمعاهد والكليات ، وفى الأساطير المحيطة بـماضى الزوج . كما نرى ستيبن فتشيت Step'n Fetchit فى أفلام هوليوود واحدا من السلالة الحديثة لهذا العبد المتواكل ، الكسول ، الذى تكيف مع أسلوب الحياة الجديدة ، ويجد الدفء والأمن والسكن فى مزارع الجنوب . هكذا يقول أحد كتب التاريخ المقررة باحدى الكليات الواسعة الانتشار :

بصفة عامة ، عندما كان السيد والعبد يبدآن فى علاقة وثيقة ، ينشأ بينهما احساس متبادل بالعطف والود والتعلق ، مما يمنع الأول من القسوة غير المناسبة تجاه الآخر . ونرى أن هناك دائما بعض السادة القساة الذين علموا ختمهم السود معاملة لا انسانية ، الا أنهم كانوا قلة ، بلا شك . وكان يعزز المشاعر الطيبة بين السيد وعبيه ، بدرجة كبيرة ، التصرف اللبق ، والميل الى الانقياد لدى الزوجى . ونادرا ما يكون مكفهر او غير راض ، ونادرا ما يضمم الحقد لسيله لحرمانه من حريته . بل كان ، على العكس ، يمضى فى أداء واجباته

اليومية مبتهجا ، يغنى ، عادة ، اثناء العمل ولكونه
لم يعرف الراحة ابدا ، ولا رفاة المدنية في وطنه ، سهل
عليه الخضوع للمتاعب الشاقة ، والاستسلام لظروف وضعه
المهين (١٠) .

يستند هذا التفسير ، على افتراض أن الأفارقة كانوا في الواقع ،
بلا حضارة قبل مجيئهم الى أمريكا ، وأن لديهم خصائص متأصلة مكنتهم
من تكييف أنفسهم دون شكوى مع وضعهم كعبيد . ويتضح هذه الخرافات
نفسها بنفسها . فهي تبريرات ذاتية ، منتحلة لأكثر من قرنين من الوحشية
الموجهة من شعب نحو شعب آخر . ولكن ظهرت صياغة حديثة جدا
لرد الفعل الأفريقي للاستعباد يجب أخذها بجديّة أكثر ، وهي تمثلهم
أيضا طبعين ، يسهل انقيادهم . ولا يكمن مصدر هذا النوع من السلوك
في لطف السيد ، والطبيعة الخيرة للاستعباد الأمريكي ، عامة ، بل يرجع ،
على العكس تماما الى طبيعة نظام المزارع الجائر تماما ، والمغلق على جماعته .
وقد افترض ستانلي الكينز Stanley Elkins في كتابه عن الرق
« Slavery : An American Institution » ، بأن المهاجرين الأفارقة المستعبدين
قد وقعوا في شبكة السلطة والوحشية ، باحكام وبشكل مستمر ، بحيث
لم يستطيعوا سوى المحافظة على بقائهم جسديا ونفسيا بتنمية ميكانيكيات
الدفاع المتعمق في داخلهم . ان الشخصية الأفريقية السليمة ، كما يؤكد
الكينز قد تعرضت للتحويل ، اذ عدل العبد سلوكه ، ليوائم مطالب
الشخصية البيضاء المهيمنة والتي تقف على رأسه ، ويبدعها سلوكا منحه
الحياة أو الموت . لقد كان نظام الرق بهذه القسوة والوحشية ، وكان
المؤسسات والهيئات الملطفة كالكنيسة والحكومة من الضعف بحيث
العبيد كانوا اذا عرفوا لحياتهم قيمة ، يضطرون الى أن يصبحوا كالأطفال
المطيعين ، الخاضعين بالكامل من أجل البقاء .

ان ابتداء شخصية « سامبو » ذلك الذي ينكمش ، ويتذلل ،
ويتكلم ، ويتصرف كطفل ، وفي النهاية ، يصبح صورة مشابهة للشخصية
الوحيدة المهمة في حياته - صورة السيد - يمكن فهمها ، حسب رأى
الكينز برسم الشبه الجزئي لليهودى في معسكرات الاعتقال النازى ،
الذى انتزع من بيئته المالوفة له ، ومن عائلته ، وأصدقائه ، وقيم
مجتمعه . وجرى استعباد اليهود فى وحشية ونقلوا الى مسافات بعيدة
فى سفن العبيد ذات السياج ثم دفعوا بالقوة الى مواقع العمل بالسخرة ،
حيث يسيطر الحراس على كل صغيرة فى حياتهم . وقد تعلم اليهود
التفاعل مع هؤلاء الحراس ، واعتمدت فرصهم للبقاء على تكييفهم الفوري
مع النظام الجديد ، وانهك السبعجاء تماما فى هذا الكفاح للبقاء على

جسدهم وتوازنهم النفسى ، بحيث اذا أعوزهم الرجوع فى الوقت المناسب الى احترام ذاتهم مع المستبدين بهم ، بدعوا فى التشبيه بأولئك الذين لهم عليهم سلطة مطلقة .

وبنفس الصورة ، يؤكد الكينز صحة رأيه ، بأن العبد الأفريقى قد وقع فى شرك نظام يمارس سلطته بوحشية مطلقة . وباحضار العبيد وهم مكبلون فى الأصفاة الى هذا النظام ، كانوا يعاملون معاملة الأطفال ، ويرتدون الى سنانجة الطفولة وتذللها . ولما ولد أطفال العبيد فى هذا الجو ، لم يجدوا أمامهم أية فرصة لتنمية الشخصية السوية . وفى جميع الحالات ، صار الأفارقة الأمريكيون عبيدا متذمرين ، يكتمون غضبهم دائما ، ولا يتصرفون أبدا تصرفا واضحا متفقا مع الذوق السليم أو مستقلا ، ونادرا ما يبالون بالعواطف الانسانية . ويقول الكينز : « كان عبد المزارع النموذجى ، سهل الانقياد ، ولكنه يتحمل المسئولية ويخلص فيها ، ولكنه كسول ، ومتواضع ولكنه يميل الى الكذب والسرقة بشكل يثير السخط ، وتملا السخافات الصبغانية سلوكه ، وحديثه تضخمه مبالغات الطفولة ، يعتمد على سيده اعتمادا كليا ، ويرتبط به ارتباطا طفليا » (١١) .

لقد وجهت انتقادات عديدة الى « فرضية الكينز » فيما يتعلق بتكيف الأفريقيين مع الرق منذ نشر كتابه سنة ١٩٥٩ . ويبرهن بعض هذا النقد على أن الاختلاف كان بالغا بين معسكرات الاعتقال ، والمزارع الجنوبية للعبيد بحيث لا يجدى معه التشابه الجزئى كأداة للتحليل ، فيسجل أحد نقاد الكينز أنه « بالمقارنة بنزلاء المعسكر النازى نجد أن العبد كان أكثر تحررا من التهديد بالموت ، وكان الأمر يتطلب منه قليلا من الاستسلام الدليل كى يتفاداه . علاوة على أن حياة العبد كانت تستحق أكثر من رصاصة ، بعكس الحال فى المعسكر » (١٢) . ويؤكد ناقدون آخرون ، بالدليل على أن شخصية « سامبو » ما هى الا صورة مشوهة ابتدعها الجنوبيون فى القرن التاسع عشر ، الذين حاولوا الدفاع عن الرق أمام هجوم من يطالبون بالغائه ، وذلك باختلاق صورة الطفل العبد ، الضائع ، الخاسر اذا فقد سيده . فقد كان مجتمع الجنوب يحتاج الى « سامبو » للدفاع عن قانون الرق ، ولذلك ابتدعوه .

ومع ذلك ، يجادل آخرون بأن العبيد كانوا يتصرفون مثل « سامبو » ليتفادوا حنق سادتهم ، ولكن فى صورة لعبة « الشخصية المفتعلة » التى يمثلون فيها دور السيد ، عن قصد أو غير قصد . وأنهم عندما يدعون الطفولة ، ويتظاهرون بالخنوع والاضطسلام ، انما يفعلون ذلك وهم يعلمون تماما أن أسيادهم يريدون منهم تمثيل ذلك ، وبذلك ، يفوقون ظالمهم ،

دهاء ، فى ألعابهم • وقد قرر أحد العبيد قائلا : « كنت أضطر الى مراقبة تغيرات أسارير وجه سيدى ، ومن يرتبط بهم ، لأرسم سلوكى طبقا لما أعتقد أنه المزاج السائد لديهم فى أى وقت » (١٣) • وأخيرا ، من المقنع أنه حتى لو كان نموذج شخصية سامبو موجودا ، فهى صورة متطرفة لسلوك العبد ، فى جانب من السلسلة التى كانت تجرى طول الوقت بين « سامبو » تجاه الطرف الآخر - وهى صورة العاصى ، المنفر ، الثورى ، مثل جابريل بروصر Gabriel Prosser أو نات تيرنر Nat Turner . (١٤) •

تقف دراسات الرق التاريخية ، الآن ، عند مفهوم أن أية محاولة مرضية تبحث عن الشخصية الأفريقية تحت ظروف الرق ، يجب أن تبدأ بتحليل لمزارع الرق التى عاش فيها العبيد ، وعملوا بها • ويذكرنا جون بلاسنجيم Blassingame بأن « سلوك العبد الأسود ، كان مرتبطا ارتباطا لصيقا بطبيعة المزارع قبل الحرب ، وسلوك السيد ، وفهم الرجل الأبيض وإدراكه الحسى ، أو سوء إدراكه ، مع مجموعة عوامل أخرى أثرت على العلاقات الشخصية » (١٥) كان الرق ، إذن ، عادة اجتماعية ، لكنه لم يكن منظما أو استبداديا فى أدائه بحيث يمكنه التحكم الكامل فى حياة العبيد وأشكال حضارتهم • فبالرغم من أنه كان يمثل مجموعة مبادئ صارمة للعبيد ، لم تكن المزارع تدار أبدا بفعالية كبيرة أو بعقلانية بحيث تترك العبد دون « مسافة اجتماعية » ملحوظة يتحرك فيها ويتصرف بلباقته • هذه المسافة للتصرف والمناورة ، قد سمحت للعبد بدرجة من الاستقلال المادى والنفسى • واذن ، اختلف السادة ، أيضا ، والمشرفون فى ميولهم وسلوكهم بدرجة كبيرة • ان قدرة العبيد ، فى الحقيقة ، على إبطاء سرعة العمل ، وعلى الانتقام من بربرية سيادتهم الساديين ، وفق ذلك كله ، اقناع السادة والمشرفين أن انتاجيتهم (كعبيد) ترتبط بحصولهم على درجة من المكانة الاجتماعية ، ذلك كله ، كان يمثل جوانب مهمة فى العملية التى كيف بها « مجتمع العبيد » حضارته الخاصة •

ورغم أنه كان على العبيد أن يعملوا من شروق الشمس الى غروبها تحت سياط المشرف عليهم ، وتحت شبح السيد من الغروب الى الشروق ، وفى فترات الراحة ، والعطلات ، الا أنهم كانوا بعيدين عن بصر ملاكهم وسمعهم بشكل عام • لقد نمت حضارة السود فى فترات فاصلة غير مقصودة ، ولكنها محتومة فى نظام اجتماعى ، رسم أساسا ليعتصر العمل من ضحاياه • ولم يكن من السهل القضاء على عناصر حضارة السود ، الا بقتل العبيد أو تشويهم اذا خرجوا عن الأدوار الاجتماعية المرسومة لهم بكل دقة وصرامة ، وكان ذلك ، فى حد ذاته ما لابد أن يحكم على نظام الرق بالاخفاق •

ان استجابة الأفريقي للرق يجب لذلك ، أن تأخذ في الاعتبار التنظيمات المتنوعة والمرنة الى حد ما ، التي بنيت عليها حياة العبيد . ويجب التمييز أيضا بين استجابة الأفارقة القادمين حديثا ، والعبيد « المولودين بالداخل » ، وكذلك بين العبيد العاملين في الحقول ، والخدم المحليين في منازل أصحاب المزارع ، والحرفيين في الورش . فقد كانت روح المقاومة وسط الأفارقة « الغرباء الهمج » القادمين من أوطانهم حديثا ، سريعة وصريحة في الغالب ، ونادرا ما كان يسهل كسرها اذا صدقنا الروايات المعاصرة في القرن الثامن عشر ، حيث كتب أحد المندوبين المرافقين من الانجليز يقول : « اذا كان من الواجب سحقه ، سواء لعناده واستعصائه على العلاج أو حسب الفرض الذي أميل اليه » لعظمة الروح ، فيحتاج الأمر الى ٠٠٠٠ سوط صارم . وانك لتدهش فعلا من مثابرتهم ٠٠٠٠ وهم يموتون في العادة قبل أن تلحق بهم الهزيمة » (١٦) . وتوضح دراسة جيرالد مولين Gearld Mullin عن العبيد الهاربين في القرن الثامن عشر ، في فرجينيا وكارولينا الجنوبية ، أن الأفارقة المستوردين حديثا ، كانوا غالبا ما يهربون بوسائل تعكس روح الشعب السائدة التي تشربوها في الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي . فهم عندما يهربون ، يفعلون ذلك في جماعات ، خاصة في صحبة العبيد من أبناء بلدته ، وقد هربت سنة ١٧٧٣ مجموعة من أربعة عشر عبدا من القادمين حديثا ، من أحد نخاسي فرجينيا واندفعوا بسرعة في إحدى بلاد الريف غير المعروفة ، بحثا عن ملجأ وملاذ لهم (١٧) . وتكشف اعلانات القرن الثامن عشر في صحف كارولينا الجنوبية عن ذلك الجهد التعاوني المشترك الذي يضم عبيد المنطقة الواحدة من أفريقية في محاولات الهروب . فكانت الصحف تعلن باستمرار عن مجموعات هاربة من « رجال جامبيا » أو عبيد من « بلاد الفولا » . وكانت الأراضي الخلفية لكارولينا ، وكذلك حدود فلوريدا الهندية الأسبانية هي الجذابة لكل من يميل الى الهروب ، وخاصة بعد سنة ١٧٣٣ عندما صدر مرسوم أسباني يدعو العبيد الانجليز للهرب الى فلوريدا . وقد تأكد أحد الكارولينيين الشماليين من أن العبيد المستوردين حديثا في مستعمرته وأغلبهم من غينيا ، كانوا أقل اجتهدا ، وأكثر نشاطا في مقاومة الرق أكثر من العبيد « المولودين بالداخل » (١٨) .

تغير هذا الضرب من العصيان العلني ، عندما بدأ امتصاص الأفارقة في حضارة المزارع المتحدة بالانجليزية . وبالعيش في المزارع من أي مكان ، وبالعديد من العبيد الى الكثيرين غيرهم ممن « ولدوا بالداخل » ، تعلم القادمون حديثا طرق الروتين في الزراعة ، ونقل الشتلات ، وإزالة الأعشاب الضارة ، وتنقية الديدان ، والحصاد ، ونقل المحاصيل . لكنهم تعلموا أيضا طرق التقليل من ملل واجباتهم المرهقة ، والتقليل

منه الى أقصى حد . فكان الابطاء فى العمل ، والتخلف عنه ، وادعاء المرض ، وكسر الأدوات ، وغير ذلك من صور التهرب ووسائل تجنب الارهاق البدنى ، كما كانت صوراً مأكرة للتمرد على حالة الرق ذاتها . لذلك كان أصحاب المزارع أمثال لاندون كارتير Landon Carter من فرجينيا لا يكفرون عن الشكوى بقولهم : « يبدو أن عبيدنا ذوو قلوب ميتة ، فهم ما بين عاجز عن العمل أو غير مؤد له » (١٩) . وقد قال أحد المراقبين للرق الأمريكى : « يبدو أن العبد لا ينجز أكثر من نصف ما ينجزه العامل فى إنجلترا » ، مع « الاهمال الذى يشوب عمله » (٢٠) . ومن بين صور العصيان الأخرى الكثيرة ، كان الهروب الذى يتم عادة بالاختباء فى الغابات ، والخروج على القانون بهجوم العبد الهارب على حقول ملاك العبيد ليلاً وعلى مخازن الحبوب وحظائر الماشية والمنازل ، واتلاف المحصول ، واحراق المخازن والحظائر ، وتنظيم السرقات الصغيرة فى ضوء القمر ، حيث يقوم العبيد فى مجموعات بسلب الدجاج والمحاصيل ، والمشروبات الكحولية ، والآلات ، ومحتويات المنزل ثم يبيعونها فى سلسلة السوق السوداء التى تنتشر غالباً ، على مسافات بعيدة .

هذا وعندما ينتقل العبيد المتفاهمون نسبياً ، من الحقل الى المنزل ، ويغيرون وظيفتهم من عمال زراعيين ، الى خدم فى المنازل ، كانوا يتعرضون لمزيد من التغيرات التى تؤثر فى سلوكهم . فالعبيد ، فى نظر المالك ، يستطيعون أن يهنتوا أنفسهم لما بلغوه من تقدم قريبهم من الحياة « المتمدينة » ، ومنحهم وضعاً أعلى فى السلطة الهرمية فى المزارع ، مما يخفف عنهم عبء العمل ، وبالرغم من أن القليل منهم قد قاوموا هذه الفرصة « للتقدم » المصحوبة بفرص أخرى أفضل ، فى الملابس والمأوى ، كان الكثيرون يدركون أن دور الخادم المنزلى له ثمنه الباهظ لأنه يجعلهم أقرب ما يكونون ارتباطاً بأسرهم ، وملازمة لهم ، وهكذا تتقيد قدرتهم على الاحتفاظ ببعض الوسائل القديمة التى كانوا يستطيعون ممارستها ، فى عزلة مناسبة فى أحياء العبيد ، كما يفقدون عضويتهم - الى حد ما ، فى مجتمع السود ، كما يفقدون فرصة ابتعادهم عن بصر سكان المزارع البيض ومراقبتهم . وتراكت على هؤلاء العبيد متطلبات جديدة ، بعد أن أصبح كل اتجاه أو تصرف من العبد تحت الفحص والتدقيق الكاملين من سيده وسيدته . وبانغماسهم فى العلاقة اليومية بمن يهيمنون على حياتهم ، نشأت لدى كثير منهم مشكلات الكلام ، مثل التأتأة والفأفة ، وهى علامة ظاهرية تشير الى صعوبة داخلية فى محاولة التصرف بأسلوب يرضى سيده وسيدته ، ولكنه يتضارب مع مشاعره ورغباته الحقيقية . ولم يستطع التمرد أن يأخذ نفس صورته فى الحقل ، ولذلك صارت

وسائل تمرد العبد ، هي السكر والتمارض ، والتوسع في مخالفة الرأي شفويا ، وعاطفيا ، مع أولئك الذين لهم سلطة التحكم في رقابهم .

ونظرا لأن المزرعة كانت عالما صغيرا بذاته ، مكتفيا اكتفاء ذاتيا . نسبيا ، ويضم مجموعة متنوعة من الواجبات لذلك احتاج الى حرفيين مهرة في التجارة والحدادة ، والطحن ، وصنع الطوب ، والنسيج ، وصنع البراميل واصلاحها ، والتجصيص والنقاشة ، وما شابه ذلك . ونظرا لمهارة العبيد في ذلك ، أصبحوا أكثر تشربا لحضارة البيض ، يتحركون بحرية أكثر بين المنزل والحقل ، والورشة ، وبين المزرعة والمدينة ، وبين المستودع ورصيف الشحن . وهناك أعمال أخرى ، تتطلب مهارة خاصة ، مثل تجفيف التبغ ، وصنع الأطواف العائمة لنقل حزم الأرز ، والمعدنيات عبر متاهات الجزر في مجارى المياه الداخلية في الجنوب . ولذلك يسجل موللين أن « الحرفيين كانوا أيضا ، مزدوجي الثقافة ، يبلغون الحد الأدنى من الجدارة ، ويظهرون أحيانا علامات الضيق العميق في مناقشاتهم مع أسيادهم ، (٢١) . كما أصبحوا مهرة ، واسعى الخيال في أسلوب المقاومة ، وكثيرا جدا ما كانوا يهربون أحيانا الى الزنوج الأحرار في المستعمرات الأخرى ، أو يؤجرون أنفسهم كبجارة ، ويتسوقون من العربات ، ويعيشون في المدن مع الزنوج الأحرار الآخرين والبيض الفقراء . وتعلموا كيف ينجحون في التغلب على صعوبات ومشكلات عالم البيض . ولم يكن هروبهم في مجموعات ، بل بصفة فردية ، وتعودوا استغلال مهاراتهم ودهائهم الجديد ، وذلك دليل على مدى تشربهم الحضارة الجديدة ليجتازوا ببراعة تلك المواقف التي لابد أن يحسنوا فيها أوضاعهم . وقد أعطاهم وضعهم في قمة سلم العبيد ، المهارات والمميزات التي كانوا دائما قادرين على تحويلها الى مهارات فردية أو عامة لكثير نظام الرق . وقد سجلت دراسة للرق في عاصمة فرجينيا في القرن الثامن عشر نسبة الحوادث والهروب العالية بين العبيد الحرفيين ، وهم أكثر الأفارقة الأمريكيين امتزاج حضارة - أو ثقافا - في المستعمرة (٢٢) .

إذا تمعنا في استعباد الأفارقة في أمريكا ، بصفته صداما أو تفاعلا بين حضارتين ، يمكننا أن نرى أن اكتساب العبيد لحضارة جديدة لم يتضمن فقط تكيفهم مع الكدح اليومي المميت في المزارع ، بل يشمل أيضا التربية على استراتيجية الكفاح للحفاظ على الحياة ، والمقاومة ، والعصيان . لقد أراد ملاك المزارع أن يهيئوا عبيدهم بأسرع ما يمكن في مجتمع المزرعة الصغير ، الا أنهم ، ويا للسخرية ، كما يقول موللين : « لم ينجح امتصاص العبيد في المجتمع الاستعماري الا مع قلة من الأفارقة . أما الكثير من نسلهم فقد أظهروا العصيان والتمرد ، ولذلك كان من

الصعب السيطرة عليهم ، (٢٣) . وفي مقارنة مذهشة مع فرضية الكينز الذى صور عملية التثاقف والجمع بين حضارتين أو أكثر من حضارتين بأنها دهاء ، واصرار على فرض احترامه على الآخرين ، نجد الأفريقي ، فى مجتمع العبيد ، فى القرن الثامن عشر ، يبدو أنه قد تواءم مع هذه البيئة الجديدة بطريقة المقاومة الدائمة المليئة بالابتكار . ولقد انتزع سادة العبيد الجهد والعمل والطاعة من عبيدهم بكل معنى الكلمة - ولو لم يفعلوا لانهار الرق بالضرورة كنظام اقتصادى واجتماعى - الا أنهم فعلوه بصعوبة ، أبعد ما تكون عن النجاح الذى كانوا يرغبونه .

العصيان :

كان العصيان ، بطبيعة الحال ، هو أخطر تعبير عن التمرد . وقد قارنت مجموعة من المؤرخين بين الثورات القليلة نسبيا للعبيد الأمريكيين ، بالثورات المتكررة للعبيد فى البرازيل وجزر الهند الغربية ، وخرجوا بنتيجة أن الأفارقة فى أمريكا كانوا أقل العبيد اتجاها للثورة عنهم فى أى مكان آخر فى نصف الكرة الأرضية ، ولا يوجد فى الواقع تشابه أمريكى لانتفاضات العبيد المكثفة التى حدثت فى جامايكا فى القرن الثامن عشر ، أو موجات العصيان المسلح التى أبقت على مدينة باهيا Bahia فى شمال البرازيل ، فى حالة تمزق بعشرات السنين الأولى من القرن التاسع عشر . وقد حدثت أكبر انتفاضة فى أمريكا المستعمرات ، فى كارولينا الجنوبية سنة ١٧٣٩ عندما حصل حوالى مائة من العبيد على مخزن للأسلحة ، فقتلوا كثيرا من البيض ، وفروا تجاه حدود فلوريدا حيث كانوا يأملون فى اللجوء عند الأسبان ، كما سبق أن فعل نفر قليلون من العبيد منذ عشرات السنين . الا أن الخطة أخمدت بواسطة الميليشيا البيض اعترضوا مجموعة العبيد بمساعدة من الهنود الحمر وهزموهم فى معركة ضارية . وبينما قضى على ثورات قليلة أخرى فى مهبها ، مثل مؤامرة الاستيلاء على أنابوليس Annapolis وميريلاند سنة ١٧٤٠ كانت الثورات الكبيرة من هذا النوع نادرة فى تاريخ الرق الأمريكى ، كما لا نجد نظيرا أمريكيا لأشباه الحكومات التى كونها العبيد الفارين فى سورينام الهولندية ، وجيانا الفرنسية ، وكوبا الأسبانية ، والبرازيل البرتغالية . وفى هذه المنعزلات ، شكل آلاف من العبيد الهاربين مجتمعاتهم الخاصة ، وصمدوا عشرات السنين للمذابح المتكررة على فترات منتظمة على يد جماعات المستعمرين . وتعطينا فلوريدا الأسبانية فقط ، والتى هرب إليها مئات وليس آلاف من العبيد فى القرن الثامن عشر مثالا أمريكيا لأشباه الحكومات هذه .

مثل هذه الأمثلة لا تثبت ، في الحقيقة العصيان الأكبر لعبيد أمريكا اللاتينية ، وإنما تشير الى فرص العبيد للترتيب لثورة ناجحة تزداد بنسبة عكسية مع قوة المجتمع الأبيض . فقد حذر أحد المراقبين سنة ١٧٤١ من أنه « كلما كبر عدد السود في منطقة من مناطق الحدود ، وكلما عظم التفاوت بينهم وبين عامة الشعب من البيض ، زاد تعرضها للخطر . لأن كل هؤلاء (السود) أعداء يكتمون عداؤهم ، ومستعدون للاتحاد مع أعداء هذه التخوم المكشوفة في أول فرصة تسنح لهم » (٢٤) . وهكذا ، عندما تفوق العبيد على البيض في العدد بنسبة ستة أو ثمانية الى واحد استطاعوا أن يخططوا للعصيان بصورة متكررة ومنظمة أكثر مما كانوا أقلية من السكان . وكذلك الحال ، كانت فرص النجاح في الهرب تؤدي الى الافلات من الرق . ففي البرازيل ، حيث اختلط الأفارقة بالهنود الأحمر عدة أجيال ، كانت هناك فرص للاختباء أو الالتحاق بجماعة هندية ، وراء الحدود أكبر بكثير منها في أمريكا المستعمرات ، حيث نادرا ما تكون مزارع العبيد على بعد يقل عن مائة ميل من ساحل الأطلنطي ، وحيث كان الاختلاط الأفريقي/الهندي خفيفا ، بالمقارنة . ان قلة العصيان الصريح في المستعمرات الانجليزية الرئيسية لا يدل على زيادة استسلام العبد الأمريكي وخنوعه ، ولكن تفيد فقط في الإشارة الى المشكلات الأكبر التي يواجهها أي متمرّد يكون من المتوقع ثورته ضد مالكيه في المستعمرات الرئيسية بالقارة . وقد انحصر العصيان في أحوال مختلفة ، في أشكال أخرى ، تمتاز بزيادة الحذق والمكر ، وقلة التعرض للخطر ، وزيادة الفعالية .

أصدرت كل المستعمرات ، تقريبا ، قوانين خاصة لمواجهة الحرق العمد للمباني والممتلكات ، ودس السم ، طوال عشرات السنين الأولى من القرن الثامن عشر ، ثم أعادت تنظيم هذه القوانين ، بعد جيل آخر بزيادة تشديد العقوبة ، ويعتبر كل ذلك إشارة واحدة الى مثابرة المقاومة للاستعباد ، ودليلا على العداء الثابت الذي أظهره العبيد ضد ساداتهم . ليس التسجيل التاريخي للثورات المسلحة في الواقع ، « دليلا قاطعا يفسر مقاومة العبيد » . . . بقدر ما كانت كثرة مجموعات القوانين التي تجيز وسم المجرمين ، والضرب بالسياط ، والحرق ، وبترو الأطراف ، والتعجيز بقطع أوتار الأرجل ، والقتل ، لكى يبقى العبيد مسالمين ، لا يميلون للعنف » (٢٥) . وهناك دليل مشابه ، على أن السود كانوا بعيدين عن الانكفاء على التبعية الناشئة منذ مراحل الرق الأولى وخضوعهم الدليل يمكن أن نجده في الخوف الدائم من تمرد السود ، الذي وجد طريقه في المجتمع الأبيض . ونجد المثال الحي على ذلك ، في رد فعل المستعمرات الجنوبية في مستهل حرب السنوات السبع سنة ١٧٥٥ .

فقد اشتكى قائد القوات البريطانية في أمريكا الشمالية وليام شيرلي W. Shirley من أنه لا يمكن توقع شيء من ميليشيا الجنوب ، لأنهم إذا ما تركوا مخيماتهم الحالية ، فلا بد أن يهرب العبيد في جماعات كبيرة الى الفرنسيين الذين كانوا يعدونهم « بالحرية والأرض للاستيطان » . كما سلم لويس ايفانز Luis Evans ، أحد البارعين في الاستراتيجية في بنسلفانيا بأن ميليشيا الجنوب لا يستطيعون اتخاذ أية خطوة فيقول : « ان الأحوال العامة لا تطاق ، فمعهم ٠٠٠٠ بيض قليلون ، لا يكفون لمنع ارتداد عبيدهم عنهم ، وإذا حدث لأى طرف بارز أن انهزم خارج بلدته ، فمن النادر أن يتمكن من منع ثورتهم العامة (٢٦) » . وأمل حاكم فرجينيا فى أن يوفر قليلا من وحدات الاحتياطى لمجهود الحرب بين المستعمرات ، ولكنه خاف بدرجة كبيرة من « اتحاد العبيد السود ، الذين تجرأوا جدا عند هزيمة نهر أوهايو [لجيش برادوك] » . وتضرع لله أن « تكون قادرين على هزيمة مخططات أعدائنا ، والإبقاء على الخضوع التام عند هؤلاء العبيد » (٢٨) .

الرق فى الشمال :

إذا كان العبيد أبعد ما يكونون عن الخضوع والطاعة فى مجتمعات المزارع حيث كانوا يمثلون نصف السكان غالبا . فكيف استجابوا للرق فى المستعمرات الشمالية ، حيث كونوا ٣٪ فقط من مجموع السكان فى معظم نيوانجلند ، وربما ١٠٪ فى رود آيلاند ، ونيوجرسي ، ونيويورك ، وبنسلفانيا ؟ وقبل أن نبدأ أية إجابة على هذا السؤال ، يجب أن نعرف أن استجابة العبيد فى الشمال كانت لنوع يختلف عن الرق فى مزارع الجنوب . فبجانب تمثيلهم لأقلية صغيرة من السكان ، اختلفت طبيعة عملهم فى المناطق الشمالية ، اذ كانوا يستخدمون فى جماعات للعمل غير المنتظم بالحقول ، ويعملون ، بدرجة نموذجية كحرفيين ، وعمال مزارع بالأجر أو كخدم خصوصيين . وبينما كانت أغلبية عبيد الجنوب يشتغلون بالمزارع مع كثير من غيرهم من العبيد ، كان الرقيق الشمالى النموذجى ، عبدا كان أو أمة ، يعمل بمفرده أو مع واحد أو اثنين فقط من أهل الريف . زيادة على ذلك ، لم يكن العبد الشمالى يحيا فى مثل أحياء عبيد المزارع . حيث كان يمكن للسود أن يحافظوا بدرجة معقولة على استقلالهم ، وعزلتهم الحضارية ، بعيدا عن أعين المالك . اذ أن كل عبد شمالى ، كان ، فى الواقع ، يأكل ويشرب ويسكن فى منزل سيده . كل هذه العوامل ، أى انخفاض نسبتهم السكانية ، وتفرقهم الواسع ، واحتكاكهم غير المريح بالبيض ، جعلت من الصعب جدا أن يحاولوا الحفاظ على ارتباطهم بالماضى الأفريقى ، بينما ضمنت لهم عملية التشاقف بخطى سريعة نسبيا .

لقد كان الرق في المدن الشمالية أكثر ترسخا وعمقا عنه في مناطق الريف . ففي مدينة نيويورك ، حيث بدأ الهولنديون ، في العادة ، الاعتماد على العبد العامل خلال نصف القرن الذي سيطروا فيه على المدينة كان ٢٠٪ من السكان تقريبا ، أفارقة أمريكيين سنة ١٧٥٠ ، وكان اثنان من كل خمسة من أرباب الأسر يملكون عبدا واحدا على الأقل . وفي فيلادلفيا وبوسطن في منتصف القرن الثامن عشر ، شكل العبيد نحو عشر السكان ، ونستطيع أن نجدهم لدى أسرة من بين كل خمس أسر . وفي السنوات العشر السابقة للثورة ، كان أكثر من ألف عبد أسود يعملون لحساب أسيادهم في المدن الثلاث جميعا .

ونظرا لأن عملهم كان أقل مشقة ، بصورة نموذجية ، ومعاملتهم أفضل من مزارع الجنوب ، في العادة . لذلك يتوقع المرء أن يكون العبد الشمالي أقل مقاومة للعبودية من زملائه في الجنوب . إلا أن الأمر لم يكن بهذه الصورة . فمثلا ، بالرغم من استيعاب العبيد السود للحضارة الانجليزية/الهولندية في مدينة نيويورك لما يقرب من القرن تقريبا ، إلا أنهم لم يكونوا حتى بداية القرن الثامن عشر قد روضوا أنفسهم على الرق ، ولم يتطوروا بشكل يبشر بالنجاح إلى عمال لا يحتدون في تذرهم . فقد قامت مجموعة من أكثر من عشرين عبدا ، في ليل يوم ٦ أبريل ١٧١٢ ، طبقا لتخطيط سابق ، بحرق أحد المباني ، ثم انتظروا الرجال البيض القادمين للاطفاء ، وبمهارتهم في استعمال السكاكين ، والفئوس ، والمسدسات ، قتلوا منهم تسعة ، وجرحوا غيرهم قبل أن يفروا هارين . وقد ذكرت التقارير فيما بعد أنه « لولا وجود الحامية [من الجنود الانجليز] هناك لأصبحت المدينة كلها رمادا وقتل الجزء الأكبر من السكان » (٢٨) . وعندما أخمدت المؤامرة وجرى التحقيق فيها ، ألقى حوال سبعة عشر عبدا في السجن ، وحوكم ثلاثة وأربعون ، وأدين خمسة وعشرون وفيهم كثير من النساء والعبيد من الهنود الحمر . ومن الأحكام التي تم تنفيذها ، يتضح لنا مدى الفزع من تمرد السود ، الذي كان يسرى كالحمى في مجتمع البيض ، وهي : اعدام ثلاثة عشر عبدا شنقا ، وموت واحد وهو مصفد في الأغلال ، وحرق ثلاثة وهم مشدودون على الخازوق ، وتكسير عظام واحد على عجلة التعذيب ، كما فضل ستة آخرون الانتحار على أن يقاسوا العقوبة على يد مجتمع البيض . ثم أصدرت الجمعية التشريعية بنيويورك قانونا جديدا للعبيد ، على وجه السرعة ، ينظم بدقة حريتهم في التحرك ، ويسلبهم معظم الحقوق التي كانوا يتميزون بها حتى ذلك الوقت عن نظرائهم الجنوبيين . كما أسرع المشرعون في المستعمرات المجاورة إلى فرض قيود جديدة على السود ، أو فرض ضرائب عالية ، كما حدث في بنسلفانيا ، بدرجة تجعل استيراد الأفارقة عملية غير مربحة .

هذا التعذيب الخاص بالقرون الوسطى ، الذى وقع على المتآمرين سنة ١٧١٢ ، لم يحقق النتائج المرجوة ، من اخضاع الزنوج الشماليين بالأرهاب . بعد جيل ، يحمل ذكريات حية لدى كثير من العبيد ، اكتسحت الساحل الشمالى موجة من اضطراب العبيد ، بدأت فى نيو جرسى سنة ١٧٤٠ ببعض حوادث حرق حظائر الماشية أو مخازن الغلال ، وهى حوادث لم تكن شائعة فى الشمال . وقد دفع اثنان من العبيد حياتهم ثمنا لهذا التمرد . وبعد شهور قليلة اكتسحت سلسلة من السرقات والحرائق مدينة نيويورك ، وكان من بين المباني المحروقة ، فورت جورج وهو حصن الحامية الانجليزية . وكان من بين المتهمين فى هذه الحوادث حارس حانة للبيض وزوجته ، وعاملة تعمل مومس فى الحانة بعقد . وقد اعترفت بعد قليل من التعذيب بتورط سيدها مع عدد من العبيد فى مؤامرة لحرق المدينة تماما ، وقتل جميع سكانها البيض . ولشدة الخوف من هذه الشائعات أحيلت القضية الى دار القضاء العالى ، ويظل البيان الذى أصدره رئيسه من المحاكمة مصدرا قيما لفهم كل من سلوك العبيد فى مدينة نيويورك ، ومخاوف سكان المدينة البيض .

حوكم اثنان من العبيد بتهمة السرقة واحتمال التآمر، ولما استحالت اقامة الدليل على تأمرهما ماتا « بصورة بشعة » على المشنقة دون أن يعترفا بشئ . وبعد شهر ، تم شنق الحارس وزوجته بتهمة الخيانة العظمى ، رغم امتناعهما الكامل عن أى اعتراف بخصوص مؤامرة العبيد . وقبل موت الخادمة شنقا بتهمة التآمر أنكرت ما قالت به بخصوص المتمردين السود ، الا أن الخوف والرغبة فى ضمان خنوع السود ، كانا يعلمان المدينة كلها ، وبدأ تصيد العبيد وتهديدهم بالتعذيب والطرده اذا لم يكشفوا عن شخصيات المتآمرين . وبذلك تم انتزاع اعتراف فى الشهور التالية ، وقبل انتهاء المحاكمة بسنة تقريبا كان قد تم سجن ١٥٠ عبدا ، ٢٥ أبيض، وتعذيب واغدام ثمانية عشر عبدا ، وأربعة من البيض ، وحرق ١٣ عبدا على الخازوق ، مع نقل ٧٠ آخرين خارج المستعمرة الى جزر الهند الغربية .

من المحتمل أن يكون كثير من هؤلاء المقبوض عليهم ، والمعتقلين ، والمقتولين أبرياء وضحايا الخوف والغضب اللذين سادا نيويورك سنتى ١٧٤٠ ، ١٧٤١ . ولكن رد فعل البيض العنيف ، والذى اذا قورن بمحاكمات العراف سالم Salem فى التسعينات من القرن السابع عشر تعكس الخوف السائد فى المدينة من أن العبيد لابد أنهم يميلون حقا فى صميم نفوسهم للعصيان المسلح ، وأنهم مستعدون لتكرار سلوكهم العنوانى والثورى ضد مجتمع البيض ، ما لم تتخذ أشد الاجراءات قمعية ضدهم . ولو اعتبر سكان نيويورك عبيدهم « سامبو » أو « مولدين »

(من التزاوج بين الزوج والهنود الحمر) ، وأن فيهم طفولة واتقيادا ، لما أمكن تصديق مؤامرة كهذه ، ولا العقوبة الوحشية التي قابلوهم بها .
اذ أن النيويوركيين لم يكونوا راغبين في تدمير ممتلكاتهم البشرية التي يستثمرونها، ولكنهم يعيشون في خوف مزعج من أن عبيدهم لابد سيثورون عليهم ، لأنهم تعلموا من سلوك العبيد اليومي أن الأسير الأفريقي مشاكس بطبعه ، مستعد للنزاع ، وعامل دائم المقاومة ، يندد أن يغير تشوقه الى الحرية . وقد بينت أحداث كتلك التي جرت في نيويورك أنه حتى عبيد المستعمرات الشمالية كانوا يترقبون أية فرصة لكسر قيودهم ، أو اذاقة مجتمع البيض بعض الآلام التي وزعها البيض عليهم من قبل .

بل ان بوسطن وفيلادلفيا ، اللتين كانتا مركز نشاط الدعوة لابطال الرق في المستعمرات ، كان فيهما بعض المفاهيم الخطأ عن ميل العبيد الى الرضا أو الخنوع . وقد واجه الحكام في فترة المستعمرات ، استمرار ، حالات مقاومة السود لاسترقاقهم في بوسطن ، وكان القساوسة البيوريتان أمثال كوتون ماثر يشعرون أنهم مضطرون الى اللقاء محاضرات على العبيد ، حول المجد الذين يناله في عيون الرب أولئك الذين يخضعون لسيادتهم عن طواعية . الا أن « الولع بالحرية » الذي دفع العبيد الى تحدى أسيادهم ، والقرار منهم ، وتدمير الممتلكات ، والتعبير عن سخطهم بالسكر والمشاكسة والخصام ، لم يقض على صبر البوسطونيين . وحاول رجال الدين القضاء أن يقنعوا العبيد بقولهم : « ان عبوديتكم لطيفة وسهلة...فأنتم تلقون ما يفوق الانسانية في المعاملة ، وتناولون الطعام والملبس ، وتنعمون بالماوى كأحسن ما تتمنون » . وحذروهم : « أنكم اذا أعطيناكم الحرية فلن يحيا الكثير منكم بالقرب منا كما تفعلون الآن » . ورغم ذلك ، يسجل أحد قضاة بوسطن أن العبيد قد انشغلوا « بالطموح المتواصل الى الحرية الممنوعة » ، (٢٩) .

وفي فيلادلفيا ، حيث أتت جهود الكويكرز لابطال الرق بأسوأ أنواع العبودية في أمريكا الشمالية ، كان العبيد ، أيضا ، يتمارضون ، ويتوقفون فجأة عن العمل ، ويكافحون من أجل حريتهم . وقد كتب بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin بنفسه سنة ١٧٧٠ ، وكان له عبيد ، الى صديق أوروبى يقول له : « لعلك تتصور أن الزوج صنف لطيف من الناس أو قابل للتشكيل . البعض منهم كذلك ، في الحقيقة . الا أن الغالبية منهم نزاعون للتأمر ، وأشرار ، عصى ، عنيدون ، حاقدون ، ميالون للانتقام ، وقساة الى أقصى درجة » ، (٣٠) . وقد نبعت فكرة جوزيف جالوواى Joseph Galloway ، صديق فرانكلين وأحد ملاك العبيد بأن عبيد فيلادلفيا كانوا مصممين على نيل حريتهم منذ سنة ١٧٧٠ ، عندما دخل

الجيش البريطاني فيلادلفيا ، حيث أعلنت نسبة كبيرة من عبيد المدينة استقلالهم بالانضمام الى القوات البريطانية ، مع أن بعضهم كان معروفا بحسن معاملة ساداتهم لهم .

حصارة السود في المستعمرات الأمريكية :

كانت المقاومة والثورة هما صور الهجوم على نظام الرق ، ومحاولة ايجاد نهاية لهذا النظام الاجتماعي شيئا فشيئا . وكان ميزان القوى ، يتدعم دائما بقوة ضد العبيد . ولذلك لا نندهش من قلة تكون جماعات منظمة للمقاومة ويهمننا جدا أن نحاول فهم كيف كافح العبيد ، وهم يحيون داخل حدود نظام الرق المقيدة لهم في المحافظة على أكبر ما يستطيعون الإبقاء عليه من الاستقلال الشخصي والحصارى ، ليقاوموا عملية تطبيعهم فى قوالب وأنماط عامة شائعة من المواقف التى يحاول مالكوهم التركيز عليها ، والصاقها بهم . وإذا نظرنا الى المزرعة أو المدينة على أنها كانت ساحة قتال ، « حارب فيها العبيد ساداتهم من أجل البقاء المادى والنفسى » (٣١) ، فان ذلك يساعدنا على أن نمنع النظر بدقة فى جانب حياة السود وحصارتهم فى أمريكا المستعمرات . وهنا يمكننا التركيز بوجه خاص على ثلاثة أوجه من حياتهم وهى : الدين ، والعمل ، والأسرة .

الدين :

أتى العبيد الى العالم الجديد ، ومعهم ميراث دينى معقد ، لم يستطع أى قدر من التمييز النفسى أو اساءة معاملتهم بدنيا أن يمحوا هذه المعتقدات العميقة الجذور لديهم . وكان الناس لديهم ، فى الواقع ، وهم يتحملون أنواع الضغط اليومى الموروث فى علاقة العبد بالسيده ، يهرعون الى أعماق مصادرهم العاطفية ترويجا عن أنفسهم . ونظرا لمحيثهم من حصارات ، يضيق فيها جدا تقسيم الحياة بين أنشطة دينية وأخرى مدنية دنيوية بصورة أكبر منها فى المجتمع الأوروبى ، وحيث يضيق الفاصل بين الحياة الدنيسا والحياة الآخرة ، لذلك جعل العبيد الأفارقة الأنشطة الدينية « مجالا للابداع الكامن ، والقوة الاجتماعية الجديرين بالاعتبار » (٣٢) .

ولا شك أن العادات الدينية والشعائر الجنازية ، والهيكل المقدسة والتعاوين الحامية من الأرواح الشريرة ، كانت تستعمل بشكل مخفف فى مزارع العالم الجديد أو دخلت عناصر مسيحية فى تشكيلها . ولا نعرف مدى السرعة التى حدث بها ذلك ، ولكن الواضح أنها اختلفت من مكان الى مكان . ففي نيوانجلند ، كان العبيد قلة فى العدد ، ومحاولات تشريهم المسيحية كانت نشطة نسبيا . فقد شاع بين العبيد تلقينهم الدروس

الدينية الخاصة والذهاب الجماعي الى الكنيسة ، وأصبح كثير من أطفال السود ، مع منتصف القرن الثامن عشر يلتحقون بالمدارس التي افتتحتها الأنجليكانيون والكويكرز . ودأب القساوسة البروتستانت ، في المدن الشمالية ، على الزواج من الامة ، وتنصير أبنائهم منهم . كذلك ، طمست الاتجاهات الأفريقية هناك بدرجة أسرع بكثير منها في الجنوب ، نظرا لسكنى العبيد عادة في منازل البيض بأعداد صغيرة أكثر من اقامتهم وسط مجتمع أسود في أحياء العبيد .

لم يكن سادة العبيد ، في مزارع الجنوب يتلهفون الى رؤية عبيدهم يتعلمون المسيحية ، الا أن الجناح التبشيري للكنيسة الأنجليكانية ، عملا منه بالخطوة العريضة لمورجان جودوين Morgan Godwyn لسنة ١٦٨٠ ، لتنصير أفارقة المستعمرات الانجليزية وهنودها ، بعث الجناح بمنسوبة الى مناطق عديدة في القرن الثامن عشر ، كما اهتمت كنائس أخرى بإعطاء دروس للعبيد . ومع ذلك من المحتمل أن العقائد والطقوس الأفريقية قد حافظت على بقائها لفترة أطول منها في الشمال ، نظرا لقدرة العبد على المحافظة على احساس عميق بالخبرة الجماعية ، وكان على صلة دائمة بأفريقيا الأم عن طريق العبيد الوافدين عليه حديثا . وبعد أن تحقق سادة العبيد من ذلك ، وجعلوا أنفسهم في ورطة ، إذ أن استمرار الديانة الأفريقية يقوى من الهوية الجماعية ، ويغذى روح المقاومة ، إذن ، لامحالة من ابدالها بالعقيدة المسيحية . ولكن مالك العبيد ، لم يكن في نفس الوقت ، يرغب في أن يجد ملكيته من البشر يخضعون لفكر جديد يقلل من رغبة العبد منهم في العمل . لذلك ، عندما سمحوا لعبيدهم بحضور اجتماعات الكنيسة ، كانوا يأملون في أن يتعلموا مثاليات الخضوع والخنوع والطاعة ، حسبما وعدهم المبشرون ، لا أن يتعلموا مثاليات الأخوة بين البشر ، وقصة فرار اليهود من الاضطهاد .

لقد كانت المشكلة في دروس المسيحية ، صعوبة الاقتناع بها ، وهي تكشف للعبد عن عناصر الفكر الديني التي تجعله مطيعا فقط ، بينما تعزله بالقوة عن العناصر التي تغذى فيه الرغبة في التحرر . وقد حرص القساوسة البروتستانت على أن يطبعوا في أذهان العبيد بأن قبول المسيحية يجب ألا يفسد بالحصول على الحرية ، واعتمدت معظم المستعمرات القوانين التي توضح ، بلا لبس ، أن التنصير لا يلزم السيد ، أدنى التزام بتحرير عبده . ولكن مع اضطراب العبيد لكبت فكرة التحرر ، انتشر بينهم في الجنوب في القرن الثامن عشر أن التحول الى النصرانية ، وإن كان لا يهدف الى فك قيودهم ، الا أنه خطوة أولى في هذا الاتجاه . فهل يعكس ذلك تعود العبيد على التعاليم الغربية التي تقول بأن المسيحي لا يمكنه أن يستعبد

أخاه المسيحى ، أم أنه من مصيده آخر ؟ ذلك أمر غير مؤكد . ولكن التوازن بين التحول الى النصرانية والحرية النهائية قد ساد وانتشر فى بداية القرن الثامن عشر . وفى سنة ١٧٣٠ ، بعد فترة من النشاط التبشيرى غير العادى ، فى فرجينيا ، بدأ عدد من العبيد المتنصرين يروجون للقول بأن قبولهم للمسيح يحول لهم حريتهم . واجتمع عدة مئات من العبيد فى مقاطعة نورفولك وبرنسس آن Princess Anne بفرجينيا يعدون للثورة . الا أن الخطة اكتشفت وتم شنق أربعة من قادتها . ومنذ ذلك الحين ، ازدادت مقاومة العبيد العملية الاستجواب المنظم .

وكان العائق الآخر ، أمام الدعوة للمسيحية ، ذلك رأى السائد لدى كثير من ملاك العبيد بأن عرض عقيدة نجار الناصرة ، قد جعلت العبيد « مغرورين ، وقحين » كما أمرهم توماس بيكون ، أحد قساوسة تشيزابيك الذى حذرهم بقوله : « يجب ألا تكونوا خلما تحت المراقبة بمعنى ألا تنهكوا فى عملكم (فقط) الا فى حضور سيدهم » (٣٣) . وقد لاحظ بيتر كالم Peter Kalm ، أحد المسافرين السويديين الى أمريكا ، الاعتقاد السائد بأنه اذا ما تحول العبيد الى النصرانية ، فإن أسيادهم « سيعجزون عن المحافظة على تبعيتهم وخضوعهم بعد ذلك » بسبب الاعتزاز الذى سيشعر به الأفارقة « عندما يرون أنفسهم على نفس المستوى مع سادتهم فى الأمور الدينية » (٣٤) .

ان مجيء اليقظة الكبرى فى أربعينات القرن الثامن عشر ، قد بشر باقتراب عهد جديد من النشاط وسط أولئك المتلهفين الى تنصير العبيد ، وعهد جديد أيضا من تقبل العبيد للتعاليم الخلقية المسيحية . وفى أبرشية وليامزبورج Williamsburg ، عاصمة فرجينيا ، تم تنصير ما يقرب من ألف عبد خلال جيل واحد فيما بين سنتي ١٧٤٦ ، ١٧٦٨ . كما نشط البرسبتاريون (المشيخيون) (*) فى المستعمرات الجنوبية ابتداء من حوالى ١٧٤٠ ، حيث نجد صمويل ديفيز Samuel Davies مثلا ، يفتخر ، فى سنة ١٧٥٠ بأن لديه مائة عبد ضمن أبرشيته فى مقاطعة هانوفر بفرجينيا ، ويدعى بعدها ببضع سنين أن نحو ثلاثمائة من السود تلقوا تعاليم المسيحية على يديه . وقد دون الأنجليكاني جوناثان بوتشر Jonathan Boucher أنه نصر ٣١٥ عبدا فى يوم واحد سنة ١٧٦٧ ، وأنه منذ ذلك اليوم كانت شريحة ضخمة من عبيد فرجينيا ، خاصة أولئك الذين يعيشون فى ضواحي المدن الصغيرة ، مثل وليامزبورج ونورفولك ،

(*) المشيخية : صفة لكنيسة بروتستانتية ، يدير شئونها شيوخ منتخبون ، يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية - (المترجم) .

قد تشربت تعاليم المسيحية على يد الأنجليكانيين والبرسبتاريين ،
والميثوديين (المنهجيين) (*) .

ومما أعطى هذه الجهود قوة خاصة هو اغراء وحلاوة التزام أسلوب
« الموقظين » ورسالتهم بالعبيد . كان اغراء البروتستانتية محدودا دائما
بالنسبة لشعب تقوم ديانة أسلافه في المقام الأول على فهم الطبيعة كقوة
كامنة فيهم ومحركة لهم ، ولا تسمح رؤيتهم للبعث والحساب بوجود فروق
حادة بين ما هو مدني وما هو ديني ، فالدين والحياة اليومية لديهم شيء
واحد . ولم تكن للصلاة البروتستانتية قوة تذكر على معالجة العالم الغريب
المليء بالقمع والكبت ، والني وجد العبيد أنفسهم فيه ، رغم تميز هذه
العقيدة بالبراعة والتعقل ، وخلوها من العناصر الباطنة الغامضة ، والعناية
بها من القساوسة المحترفين الذين يضغطون على السلبية عند المتعبدين .
ولكن نظرا لأن النزعة الى احياء كل ما له صلة بالماضي ، وخاصة ايقاظ
الشعور الديني كانت تبشر بميلاد الشخص من جديد ، وتسعمل الحركات
الموسيقية والجسدية وتتطلب مشاركة فعالة من كل فرد في تجربة عاطفية
حادة يبدو أنه كان لها سحرها الهائل لدى الأفارقة . وكانت هذه وجهة
نظر دينية ساهمت بدرجة كافية مع أساليب السلف ومعتقداتهم مثل
التحكم في الأرواح أو الأشباح ، ولها معنى في تجارب الحياة اليومية
لتسمح باستمرار النزعات الأفريقية ، وأن يأخذ التكيف مكانه في نفس
الوقت مع أشكال الحضارة الجديدة .

لقد كان أمل سادة العبيد في العقيدة المسيحية ، سواء من حيث
الزهد والتقشف أو جانبها العقلاني أو احياء الروح الدينية وعادات السلف
أن تقوم مقام الأفيون المخدر للعبيد ، وحتى وإن لم يشاركوا عبيدهم في
شيء مما أنتجه عمالهم ، أو تخلوا عن كل حقوقهم عليهم في حياة عبودية
دائمة ، فقد أمكنهم على الأقل أن يواسوا أنفسهم بمعرفتهم أن المسيحية
تقر الضعف والفقر والذلة من الوجهة الدينية . هذه الصيغة الجديدة في
الأذهان قد جعلت الذين درسوا عقيدة العبيد السود يفسرون بصورة
تقليدية ان أهم تأثير للبروتستانتية على مجتمع العبيد هو الانحراف
بعقولهم « عن الآلام والحرمان في هذا العالم الى عالم ما بعد الموت حيث
لا بد أن يجد المرهق راحته ، وضحايا الظلم تعويضهم » (٣٥) إلا أن العبيد
لم يستسلموا لما اختاره القساوسة الأنجليكانيون أو البرسبتاريون لغرسه

(*) الميثودي أو المنهجي : أحد أتباع الحركة الدينية الإصلاحية ، التي قادها في
أكسفورد تشارلز وجون ويزلي ، عام ١٧٢٩ ، في محاولة منهما لحياء كنيسة انجلترا -
(المترجم) .

فى نفوسهم وأذهانهم ، وإنما أخذوا ينتقون ما يناسبهم من ديانة البيض ويشكلون خبرتهم الدينية الخاصة بهم بأسلوب لم يعطهم مجالا للحياة شبيهة المستقلة عن سيطرة السيد فقط ، بل وأمدتهم أيضا بوسائل نفسية مهمة ، تنقل غضبهم وتسلط علوانهم بطرق لا تجلب عليهم العقاب البدنى من المجتمع الأبيض .

وتكشف أناشييد الدينية الزنجية ، الكثير عن طبيعة هذه الديانة ذات الحدين . فكثير من أناشييد العبيد هذه والتي كانت تعديلا وتكييفا لأناشيد البيض أو توليفة فريدة من نماذج الأنغام الأفريقية والألحان الأنجلو - أمريكية مع كلمات معدلة تعكس كلها ألم تجرية الرق . وكانت بعض هذه الأغاني الزنجية تسمى « أغاني المحنة » أو « أغاني الحزن » ، ويسهل التعبير الموسيقى عن هذا الألم ، بلا شك ، أداء من يغنونها جماعيا . كما كانت الأغاني الدالة على الكفاءة والقوة موضوعا آخر لهذه الأغاني الروحية الزنجية .

ولا يمكننا معرفة ما اذا كانت أغاني مثل « نحن شعب الله » أو « أنا أومن حقا بأننى ابن الله » أو « أنا مولود من الرب وأعرف أنى كذلك » هل كان العبيد يغنونها فى القرن الثامن عشر أم لا ، طالما أنه من الصعوبة بمكان أن نؤرخ لأصولها . ولكن هناك مبررا بسيطا للاعتقاد بأنه لو كان العبيد وجدوها تعززهم فى القرن التاسع عشر ، لما ابتدعوا أغاني وأناشيد دينية زنجية بموضوعات مشابهة فى فترة ما قبل الثورة . وان المثير للدهشة والاعجاب فى هذه الأغاني أنها تصور مشاعر الجدارة والاستحقاق ، بل والاعتقاد بأن العبيد سينتصرون فى آخر الأمر ، ويسودون ، لأنهم أسعى من ساداتهم . وفى وسط مجتمع يعمل على اقناع العبيد بافتقاره الى الجدارة ، وبفقر حضارته الأفريقية وهمجيته ، تبين الأغاني الاعتزاز الشديد للأسود بسواده ، وشعورا ثابتا وقويا برفقائه من أبناء طائفته ، واحساسا بالهدف من الحياة . وتظهر الموسيقى الدينية الزنجية كم كان صعبا على المجتمع الأبيض أن يلاحظ مدى وعى السود ، وأن يجبروهم على الالتزام بقيم البيض والاهتداء بها ! (٣٦) .

وتشتمل كثير من أغاني العبيد أيضا على موضوع المقاومة والثورة . فالنشيد الذى يمجده شمشون الذى يزار قائلا : « اذا عرفت طريقى ، فلا بد أن أهدم هذا المبنى » قد يكون له معنى توراتى فقط لدى البيض الذين كان يغنونها صبح كل يوم أحد فى كنائس دائرتهم بالجنوب . ولكن المبنى بالنسبة للسود العاملين فى الحقل هو صرح العبودية ، وهنم لا يعنى سوى تدمير نظام الرق كله . ويشبه ذلك نشيد « ألم يحرق الهى

دانيال ، الذى يشير الى تحرير اليهود من أعدائهم فسان له معنى آخر ، حديثا ، لدى العبيد الذين اتخذوه احدى أغانيهم الخاصة .

لقد كانت كل الشخصيات الرمزية تقريبا فى الأناشيد الدينية الزنجية ، أمثال دانيال ، وداود ، ويشوع ، ويونان وموسى أبناء (اليهود) شخصيات العهد القديم الذين تحرروا من مضطهدهم فى هذه الحياة الدنيا وليس فى الآخرة ، كما أنهم تحرروا بطرق ذات معنى خاص لدى العبيد . فقد شق البحر الأحمر ليترك العبيد اليهود يعبرونه ثم ينطبق على فرعون وجنوده ، كما أن شمشون المتهور ، عند تعرضه للخطر هدم قصر الذين هزموه . وكان العبيد فى هذه الأغاني يغنون لما هو أبعد من التحرر فى الآخرة ، حيث أشار لورانس ليفين Lawrence Levine أن موسيقاهم الدينية لم تكن مقدسة بالمعنى الضيق لارتباطها بشعيرة دينية معينة أو صلاة الأحد . لقد كانت مقدسة بأسلوب أفريقى واضح بالمفهوم الأكبر لربط حاضره المرء بشعائره القديمة المتصلة بالأساطير والخرافات مع ربطها أيضا بإمكانية ميلاد جديد فى المستقبل . فقد خلق العبيد الذين وقعوا فى قبضة العبودية المؤبدة ، استقلالهم الحضارى الخاص بهم « يتجاوز حدود العالم الضيق الذى اضطروا للعيش فيه . ومد حدود عالمهم الى الماضى حتى اندمج مع عالم (العهد القديم) ، كما اتجهوا به الى أعلى حتى أصبح هو والعالم الآخر شيئا واحدا . وتعتبر الأغاني والأناشيد الدينية سجلا لشعب اكتشف المنزلة وانسجام المشاعر والمصالح والقيم ، والجماعة التى يحتاجها ليحفظ بقاءه ، مع ابتداعه لعالم متسع ، فى داخله ٠٠٠ » (٣٧) ونرى فى الموسيقى الدينية ، واستمرار المشعوذين فى المزارع ، ورجال الودونية (٢٠) ، والعرافين ، مجاهدة من الأمريكين الأفارقة للتكيف مع حضارة البيض مع محافظتهم على بقاء فاصل بينهم وبين عالم ساداتهم .

العمل :

نجح العبيد الأمريكيون أيضا فى استغلال العمل اليومى أداة للحفاظ على نفسيتهم ، وكيفوا عاداتهم الأفريقية فى العمل مع ظروف العالم الجديد بما يساعدهم على تحمل حياتهم . وكانوا يدركون تماما أن العمل الذى يؤدونه إنما هو لمصلحة سيدهم فقط . إلا أنهم كانوا يتصرفون ، أثناء عملهم اليومى بعبء وسائل منها : كسر القاس أو المجرفة ، واقتلاع

(٢٠) الودونية Voodoo دين زنجى ، أفريقى الاصل ، منتشر بين زنوج هايتى ، يقوم بالدرجة الاولى على اساس من السحر والعرافة .

الشتلات المزروعة حديثاً ، والاهمال في جميع المحصول ، اشارة منهم الى تحديهم لأسلوب سادتهم في زجرهم وحشهم على العمل ، وضربهم على يد المشرفين عليهم بالسيوط . وقد تعلم أسيادهم من ردود أفعالهم هذه أن هناك حدوداً لا يمكنهم تخطيها . فلم تكن القسوة في دفعهم الى العمل سوى تأكيد لقانون العائد المتناقص . ولم يكن لحرمان العبيد من عطلة يوم الأحد التقليدية أو راحة الكريسماس ، من معنى سوى الحصول على عمل أقل في المستقبل . ويشبه ذلك محاولة فرض مستويات عالية جداً مما يشجع العبيد على انجاز أقل أو الانتقام من سادتهم - وقد أوضحت جريدة كارولينا الجنوبية « الجازيت » هذا الدرس ، سنة ١٧٣٢ ، حيث قررت أن أحد السادة الذي ساق عبيده في هجيع الليل لينظفوا محصول الأرز ويعبثوه في البراميل ، وجد مخزنه قد تحول الى رماد في الصباح « بكل ما كان فيه من قبل » (٣٨) .

وكان للعبيد طرق أخرى ثابتة وأكيدة للمقاومة يعبرون بها عن تفضيلهم « للتوفيق بين العمل ووقت الفراغ بما يظهر ثقافة كل من أفريقية ومزارع العبيد في فترة ما قبل الصناعة » (٣٩) . فمن عاداتهم أن يعملوا بجهد ولفترة طويلة في المهام التي تتطلب عملاً جماعياً ، ولكنهم يبدون استعدادهم للمقاومة عندما يعملون وحدهم . وهم بتفضيلهم العمل الجماعي ، يظهرون اتجاهها نحو العمل ، يغاير تماماً مبدأ الفرد الأوروبي في اتباعه « لدافعه الباطني لأداء عمل ما » وتنفيذه بشكل مستقل . فقد عودتهم خلفيتهم الأفريقية على ممارسة العمل الزراعي الجماعي وجاهدوا للبقاء على هذا النموذج من العمل في حياتهم وهم عبيد .

الأسرة :

وقد كشف العبيد عن أهم معقل للدفاع ضد متاعب الرق ، على مستوى الأسرة ، بتلك الروابط الطبيعية الحميمة بين الرجل وزوجة ، والوالد وولده ، والأخ وأخيه . فلم تكن معظم قوانين المستعمرات تعترف بشرعية زواج العبيد أو أسرهم . وقد أشار المؤرخون الى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤيد ، في حذر ، زواج العبد وحياة العبد في أسرة . واعتبروا ذلك أحد الأدلة الدافعة على شدة قسوة النظام الأمريكي ، الذي يتهمون في أسوأ أشكاله بانكار حق العبد حتى من أبسط الحقوق الانسانية ، وهو الارتباط الأسري .

ولقد أوضح الباحثون اليوم، أن هذه النظرة تنقصها الدقة التاريخية . فهي لا تقوم فقط على أساس الافتراض الخاطئ بأن ملاك العبيد وجدوا أن إلغاء الحياة الأسرية يوصلهم إلى الإدارة الفعالة المربحة للمزارع ، ولكنها

لم تعمل حساب قدرة العبيد على القيام بدور فعال فى تشكيل علاقاتهم الشخصية والاجتماعية الخاصة فى اطار قيود « قانونهم الخاص الفريد » . ولا ريب أن يضع سادة العبيد العقبات فى طريق عبيدهم اذا حاولوا من جديد خلق نماذج الأسرة الأفريقية فى العالم الجديد . ونظرا لاعتبارهم من الممتلكات الخاصة فلا يمكنهم اجراء العقود ، وبالتالي يستحيل زواجهم قانونا . ومن أشد مظاهر الرق وحشية وأهمها ، أن يباع أحد الزوجين فى أسرة لا تقوم الا على زوج واحد فى وقت واحد مما ينهى الزيجة بصورة عنيفة مفاجئة .

يعتبر النقص العام فى أعداد النساء عاقبا آخر أمام الحياة الأسرية المستقرة وذلك بالرغم من عدم الاعلان عن الزيادة العددية فى الذكور فى مستعمرات القارة كما فى جزر الكاريبي وأجزاء كثيرة من أمريكا الأسبانية والبرتغالية . وعلى قدر ما يمكننا التحقق منه من البيانات الضئيلة المتوفرة أن استيراد العبيد كان يتم بنسبة حوالى ثلاثة رجال الى امرأتين ، وكانت هذه الزيادة فى الذكور خاصة فى الجنوب ، تعنى أن اقامة روابط أسرية دائمة أو شبه دائمة لا تتوفر للعدد الكلى للعبيد الذكور . وفى نيويورك ، أكبر منطقة يسكنها العبيد فى أقصى الشمال فاق عدد الذكور فوق سن السادسة عشرة عدد الاناث بنسبة ٤ : ٣ فى سنة ١٧٥٦ . وقبل ذلك بسنة وصل التكافؤ فى عدد الأولاد فى رود آيلاند الى ٢٥٠٠ عبد بالبحر بينما زاد عدد الذكور فى ميريلاند فى نفس السنة عن الاناث فى سن البلوغ بنسبة ١١ : ٩ . أما فى دائرة سانت جورج ، بجنوب كاليفورنيا فقد زاد عدد العبيد عن عدد الاماء بنسبة ٥ : ٣ ، سنة ١٧٢٦ (٤٠) . ومع انجاب الأطفال اختفى هذا التفاوت بين الجنسين تدريجيا ، ولكنه لم يصل الى حد التساوى الا بعد انتهاء تجارة الرقيق بجيل أو نحو ذلك ، سنة ١٨٠٨ . وفى الشمال ، حيث تقل ملكية العبيد كانت هذه المشكلة أكثر حلة ، لأنه بالرغم من أن النسبة بين الجنسين كانت على مستوى متوازن أكبر منها فى الجنوب ، الا أن معظم ملاك العبيد كان لدى الواحد منهم عبد واحد أو اثنان فقط ، وبذلك كان لا يحدث اجتماع فى المعيشة بين الذكور والاناث من العبيد تحت سقف واحد ، الا بين الحين والآخر .

ومن المواقف الأخرى أمام الحياة الأسرية السليمة ، ذلك الدور الذى لعبه اغتصاب الرجل الأبيض للنساء السود ، فكم منهن من اغتصبت أو اغويت بالوصال فى علاقات جنسية مع سيدنها الأبيض ! . ولو أننا اذا احتكنا الى القدر الكبير من السكان الخلاسيين (المولدين) حتى سنة ١٨٠٠ لابد أن يكون عددهم كبيرا . ولعل أقصى أسلحة المالك الأبيض تلميحا للنفس وازعاجا لحالة العبد الاجتماعية أن يرى العبد - أو يعرف - أن

سيده يغتصب زوجته أو يفويها على ذلك . وقد كتبت أنجيلا ديفيز Angela Davis « ان اغتصاب المرأة السوداء ، لم يكن من الناحية السياسية ، قاصرا على مجرد الاعتداء عليها ، ولكن كان مجتمع العبيد ككل هو الهدف غير المباشر . اذ كان السيد ، وهو يشن الحرب الجنسية على المرأة ، لا يؤكد سلطته على أحد الأشكال المهمة الخطيرة في مجتمع العبيد ، بل كان يهدف أيضا الى تسديد ضربة الى الرجل الأسود » (٤١) .

ذلك الألم المبرح الذي فتج بهذه الصورة كانت له آثاره الجارحة حتما ، على محاولات بناء زواج مستقر ، حيث لم يكن لرب الأسرة حول ولا قوة في حماية أقرب الناس اليه من أشد أشكال التهجم عليه عمقا وإيلاما . ويشير رجوع الكثير جدا من الكتاب والروائيين السود في العقود التي تلت انتهاء الرق الى هذا الموضوع السابق الى مدى عنف الألم الذي استمر يتردد في وعي السود وضميرهم . ومثال ذلك ، ما كتبه ديبوا W.E.B. Dubois بعد ثلاثة أرباع قرن من التحرر :

« سوف أسامح الجنوب الأبيض كثيرا يوم الحساب : أغفر له رقه ، لأن الرق كان عادة قديمة قلم العالم ، وسأغفر له مقاومته لقضية كانت خاسرة تماما ، ولتذكرى هذا الصراع بلموع حارة ، غزيرة ، سأغفر له ما يسمى «بالتفاخر بالجنس» ، وهيامه بدمه المتناثر ، وحتى خيلاءه وتكلفه القديم المثير للضحك . ولكن لن أغفر له شيئا واحدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ذلك هو اهانة الوحشية المستمرة المتعمدة ، التي لا مبرر لها ، للأنوثة السوداء التي كان يبحث عنها بشبق لاشباع شهوانيته بصورة داعرة » (٤٢) .

على هذا المستوى من العقبات الهائلة ، كان العبيد قادرين على إقامة روابط جوهرية حميمة بين الرجل والمرأة والوالد والابن . فقد أقاموا باستمرار زيجات بين العبد وأمة واحدة ، فاذا لم تكن هذه الزيجات قد استمرت طويلا كما في مجتمع البيض ، فيمكن تفسير كثير من ذلك بمواقف النظام نفسه واتجاهاته التي كانت فوق سيطرة العبد مثل فترة الحياة القصيرة للأمريكيين الأفارقة ، وانقطاع الزواج بسبب بيع أحد الزوجين أو كليهما ، والدعوة الى الحرية التي دفعت الكثير من العبيد الى الهرب . وقد شجع كثير من المزارعين عبيدهم على الحياة مع بعضهم البعض والقيام بدور الأبوة لأنهم اكتشفوا أن العبيد يكونون أكثر أداءا للواجب وأكثر إنتاجا عندما يرتبطون بزوجة وذرية . ولم يكن اهتمامهم بأخلاقيات عبيدهم هو الدافع الى تشجيع الزواج والحياة الأسرية قدر اهتمامهم بزيادة ناتج عملهم الى الحد الأقصى ، وتقليل ترددهم الى أدنى درجة .

ما وظيفة الرجل ، ووظيفة المرأة داخل الأسرة السوداء ؟ اكتسب هذا السؤال المتداول كثيرا ، أهمية جديدة ، لأن الفكرة السائدة أن أسرة الرفاهة برئاسة المرأة هي امتداد وصدى طبيعى لمجتمع الأمومة لدى العبيد . وعلى هذا رأى كتب عالم الاجتماع فرانكلين فريزيار Franklin Frazier أن « كانت الأم هي الرأس المميز في مجموعة الأسرة ، بصفة عامة . فقد كانت هي ربة الكوخ الذى يحضر اليه (الزوج) أو الأب في زياراته الأسبوعية عادة . وفي مثل هذه الأحوال ، تأخذ المجموعة الأموية شكلها ، ونمتد جنور مسئولية المرأة الزوجية عن أسرتها » (٤٣) . ومن المفروض ، طبعا ، وتبعاً لهذه الصيغة أن ينشأ العبد بعد التحرر في حياة أسرية عادية ، باهتة التقاليد ، بعد أن صدمته المشاكل عند محاولته التكيف كرجل حر مع عالم مدنى وصناعى متزايد ، فلم يستطع العتقاء أن يكونوا مع بعضهم نفس الخلية الأسرية ذات الأب والأم والتي كانت نموذجاً في المجتمع الأبيض .

بالرغم من وجود تكوين الأسرة الأموية السوداء ، بلا شك ، الى حد ما في المستعمرات الجنوبية في القرن الثامن عشر ، يظل الشك قائماً في أن هذه كانت خاصية مميزة لأسرة العبيد . ولا شك أن الرجال من العبيد كانوا مخصصين أو عاجزين على الأقل بوسائل سلطوية ، ما داموا لم يستطيعوا الهيمنة على علاقاتهم مع أسرهم ومجتمعهم ، كما كانوا يفعلون من قبل في قراهم القبلية في أفريقيا . إلا أن الرجل الأسود كان يؤكده سلطته بتكملة مؤونة الأسرة من الغذاء عن طريق صيد الحيوان بالشراك ، وتنظيم رقعة الحديقة الصغيرة وراء كوخه ، وتدريب أولاده ، وأهم من ذلك كله ، أنه كان الشخص الأساسى في المقاومة النشطة للرق . فتزوج العبيد فعلاً من الاماء ، وأقاموا بنجاح ملحوظ حياة أسرية مستقرة نسبياً ، متسلحين بالموروثات الرائدة الفطرية الأصيلة في وضعهم الاجتماعى . واستطاع العبيد في بعض الحالات الحفاظ على علاقاتهم الأسرية بالتهديد بالثورة أو العصيان ، ومثال ذلك ، عندما ترنحت حكومة كارولينا الجنوبية تحت ضربات الياماسى سنة ١٧١٥ ، تفاوضت على تعهد بتبادل ١٣٠ من رجال الميليشيا في فرجينيا نظير عدد مماثل من الاماء ، إلا أنهم اضطروا الى الرجوع عن هذه الصفقة تحت التهديد بالعصيان المسلح الشامل من العبيد ، اذا ما أرسلت الاماء الى الشمال (٤٤) .

وبينما كافح الرجال العبيد للحفاظ على دورهم في الأسرة السوداء ، احتلت نساؤهم مكاناً في الأسرة والمجتمع الأسود يختلف تماماً عن مركز النسوة في مجتمع البيض في القرن الثامن عشر . ففي هذا القرن ، وخاصة

فى المزارع الجنوبية قيدت فكرة بقاء المرأة فى البيت النساء البيض ، حيث ينتظر منهن القيام بدور الحارس على فضيلة البيض وحضارتهم ، ثم فقدت البيضساوات درجة استقلالهن التى كانت من مميزات المرأة فى الريف الأوروبى . وبالمقارنة ظل للنساء السوداوات شأنهن ، الذى لا غنى عنه لكل من العمل بالمزرعة واستقرار مجتمع العبيد . فكن يعملن فى الحقول ، كما يعملن فى أكواخهن . وقد كتبت أنجيلا ديفيز ، ساخرة : « كان على الأمة أن تتحرر من قيود أسطورة الجنس اللطيف فلكى تؤدى دورها كأمة ، كان عليها أن تلغى دورها كأمرأة » أى امرأة فى وضعها التاريخى تحت الوصاية الكاملة للرجل . فقد وضعتها القوة المطلقة للأمور على قدر المساواة مع رجلها فلم تستطع تركيبة التفوق لدى الذكور أن تندمج تماما فى التركيبات الذاتية لنظام الرق (٤٥) .

لم تكن سلبية المرأة وانسحابها الى موقعها فى الحياة المنزلية الذى بدأ يميز حياة المرأة البيضاء فى القرن الثامن عشر ، فى المزارع الكبيرة ، وفى الطبقة العليا فى الأوساط المدنية الشمالية ، كل ذلك لم يكن جزءا من حياة المرأة السوداء التى احتفظت بشكل متناقض ظاهريا ، وبسبب وقوعها فى ربة الرق ، بتركز قوة واستقلال ذاتى داخل مجتمع السود ، مما جعلها أكثر مساواة للرجل منها فى حالة النسوة فى مجتمع البيض . فقد كانت الأسرة السوداء شركة متساوية فى أداء المهام وتحمل المسئوليات ، فكانت تشبه كثيرا من هذه الناحية أسرة الألبونكى والسيو فى تركيبها أكثر منه فى نظام الأسرة الأوروبية ، حيث كانت للنساء الهنديات أهمية كبيرة فى العمل الزراعى والمشاركة فى مسئوليات تربية الأبناء ، واحتفظت بصفة عامة ، بدرجة من القوة والاستقلال الذاتى لم يكن يسمح بمثلها فى مجتمع البيض .

ولما كان الرق ، فوق كل شئ ، نظاما يعتصر أكبر كمية من العمل من ضحاياه ، لذلك اشتمل فى الغالب على ضروب من القسوة والوحشية جعلت من الصعب ، تقريبا ، الحفاظ على الحياة الأسرية . الا أن العبيد الأمريكين ، كانوا يحظون ، عامة ، بالكساء ، والغذاء ، والمعاملة الطبية أكثر من عبيد جزر الهند الغربية ، والبرازيل ، والأجزاء الأخرى من العالم الجديد ، حيث لم يكن للمجتمع الأبيض جنود راسخة ، وحيث وجد ملاك المزارع أن تشغيل عبيدهم حتى الموت ، ثم شراء بدلاء عنهم ، أقوىاء ، نشطين من أفريقيا أمر يزيد من ربحهم . ولما كان للعبيد أثرهم فى تكوين حضارة خاصة بهم . كما كتب أحد العلماء السود حديثا قائلا : « أستطاع العبيد بذلك أن يصوغوا أسلوب حياة ومجموعة قيم - تعبر عن روح الجماعة

وعبقريتها - حفظتهم من أن يكونوا جميعا سجناء التعريفات المحددة التي حاول المجتمع الأكبر فرضها عليهم . وكانت روح الجماعة وعبقريتها هذه مزيجا من الخصائص الأفريقية وعناصر العالم الجديد التي ساعدت العبيد . . . (أن يتحسسوا طريقهم على طول مسيرة الرق الأمريكى ، ومكنتهم من أن يتحملوا) . . . (٤٦) .

هذا ولا يمكننا من ناحية الكم أن نحدد ، أبدا ، مقدار الحضارة التي استطاعت أن تبقى تحت ظروف الرق فى القرن الثامن عشر . وليس هذا بالأمر المهم جدا وأهم من ذلك أن تفهم أن الأفارقة فى المزارع الانجليزية قد كیفوا عناصر من الحضارة الأفريقية مع متطلبات الحياة الجديدة فى بيئة جديد . ولا شك كثيرا فى أن سادة العبيد كانوا مصممين على إزالة كل سمة أفريقية تقلل من فاعلية العبيد فى العمل ، وحققوا فى ذلك بعض النجاح . ويصدق القول أيضا بأن الرق قد أزال كثيرا من الاختلافات الثقافية بين العبيد الذين جاءوا من تشكيلة واسعة من جماعات حضارية أفريقية مثل ، الهولانتى ، والاييرو ، واليوروبا ، والملاجاسى ، والأشانتى ، والماندينجو ، وغيرهم . ولكن يجب ، أن نتذكر فى نفس الوقت ، أنه خلال القرن الثامن عشر ، وعلى خلاف القرن التاسع عشر ، كانت أعداد كبيرة من الأفارقة الجدد تصل كل عام ، وزادت مرات استيراد العبيد بسرعة فى القرن الثامن عشر ، لدرجة أن أصبح من المحتمل ألا يزيد العبيد الأمريكىون بالمولد عن أكثر من النصف أبدا ، وربما الثلث من البالغين . وقد حفظ هذا التدفق المستمر للحضارة الأفريقية كثيرا من عناصرها التي تحولت فيما بعد بدرجة يصعب معها تمييزها . ومن خلال تعديل حضارتهم الخاصة المتميزة داخل القيود الصارمة لنظام الرق ، استطاع السود أن يحافظوا على صورهم الدينية شبه المختلفة ، وموسيقاهم ورقصهم الخاص ، وحياتهم العائلية ومعتقداتهم وقيمهم الخاصة بهم . وقد أثبتت جميعا أنها كانت وسائل للبقاء يصعب انكارها فى نظام العمل الاجبارى . وقد كان على العبيد التظاهر بالاحترام ، وادعاء الخضوع وهم مكرهون بشدة فى وجوه كثيرة . ورغم ذلك احتفظوا بعناصر مهمة من حضارتهم التقليدية ، وتعلموا أن يكسبوا بجهودهم مجالات من النشاط بعيدا عن الاحتكاك بالسيادة أو المشرفين مما أعطى الحياة معنى وأهمية لديهم .

المراجع

1. Eugene D. Genovese, « In Red and Black : Marxian Explorations in Southern and Afro-American History » (New York : Random House, Inc., 1971), p. 106.
2. Daniel P. Mannix and Malcolm Cowley, « Black Cargoes : A History of the Atlantic Slave Trade, 1518-1865 » (New York : The Viking Press, Inc., 1962), pp. 101-2.
3. Quoted in Basil Davidson, « The African Slave Trade : Precolonial History, 1450-1850 » (Boston : Little, Brown and Company, 1961), p. 92 .
4. Ibid.
5. Quoted in Mannix and Cowley, « Black Cargoes », p. 48.
6. Equiano, « The Interesting Narrative of the Life of Olaudah Equiano, or Gustavus Vassa, the African » (London, 1789), rpr. in « Africa Remembered : Narratives by West Africans from the Era of the Slave Trade », ed. Philip Curtin (Madison : University of Wisconsin Press, 1967), p. 92.
7. Davidson, « African Slave Trade », pp. 94-95.
8. Edward Long, « The History of Jamaica » (London, 1774), quoted in Mannix and Cowley, « Black Cargoes », p. 111.
9. George Rawick, « From Sundown to Sunup : The Making of the Black Community » (Westport, Conn. : Greenwood Publishing Co., 1972), p. 6.
10. Oliver P. Chitwood « A History of Colonial America, 3d ed. » (New York : Harper & Row, Publishers, 1961), pp. 351-52.
11. Stanley M. Elkins, « Slavery : A Problem in America Institutional and Intellectual Life » (New York : Grosset & Dunlap, Inc., 1963), p. 82.

12. John W. Blassingame, « The Slave Community Plantation Life in the Antebellum South » (New York : Oxford University Press, Inc., 1972), p. 93.
13. Ibid., p. 200.
14. See especially Ann J. Lane, ed., « The Debate Over Slavery : Stanley Elkins and His Critics » (Urbana : University of Illinois Press, 1971).
15. Blassingame, « The Slave Community », p. 154.
16. Quoted in Donald D. Wax, « Negro Resistance to the Earth American Slave Trade », *Journal of Negro History*, 51 (1966) : 11.
17. Gerald W. Mullin, « Flight and Rebellion ; Slave Resistance in Eighteenth-Century Virginia » (New York : Oxford University Press, Inc., 1972), pp. 39-47.
18. John Brickell, « The Natural History of North-Carolina » (Dublin, 1737 ; repub. Raleigh, N.C. : [n.p.] 1911), 272-73.
19. Quoted in Mullin, « Flight and Rebellion », p. 53.
20. Quoted in Ibid., p. 54.
21. Ibid., p. 83.
22. Thad W. Tate, « The Negro in Eighteenth-Century Williamsbury » (Williamsbury, Va. : Colonial Williamsbury, 1965), pp. 198-99.
23. Mullin, « Flight and Rebellion », p. 38.
24. [Benjamin Martyn], « An Imperial Inquiry into the State and Utility of the Colony of Georgia (London, 1741), quoted in Peter Hutchins Wood, « Black Majority : Negroes in Colonial South Carolina from 1670 through the Stono Rebellion » (Ph. D. diss, Harvard University, 1972), p. 290.
25. Sidney Mintz, « Toward and Afro-American History », *Journal of World History*, 13 (1971) : 321 .
26. Quoted in Lawrence H. Gipson, « The Great War for Empire : The Years of Defeat, 1754-1757 (New York : Alfred K. Knopf, Inc., 1946), pp. 14-15.

27. Ibid., p. 15.
28. Quoted in Kenneth Scott, « The Slave Insurrection in New York in 1712 », *New York Historical Society Quarterly*, 45 (1961), : 51.
29. Lawrence W. Towner, « 'A Fondness for Freedom' : Servant Protest in Puritan Society », *William and Mary Quarterly*, 3d Ser., 19 (1962) : 202.
30. « A Conversation between an Englishman, a Scotchman, and an American », in Verner W. Crane, « Benjamin Franklin on Slavery and American Liberties », *Pennsylvania Magazine of History and Biography*, 62 (1938) : 8.
31. Blassingame, « Slave Community, p. 184.
32. Rawick, « From Sundown to Sunup, » p. 32.
33. Bacon, « Sermons Addressed to Masters and Servants ... » (Williamsburg, Va., 1743), in « Bases of the Plantation Society, » ed. Aubrey C. Land (New York : Harper & Row, Publishers, 1969), p. 232.
34. Peter Kalm's Travels in North America, ed. Adolph B. Benson (New York : Dover Publications, Inc., 1966), 1 : 209.
35. E. Franklin Frazier, « The Negro Church in America » (New York : Schocken Books, 1964), p. 45.
36. Lawrence W. Levine, « Slave Songs and Slave Consciousness : An Exploration in Neglected Sources », in « Anonymous Americans : Explorations in Nineteenth-Century Social History », ed. Tamara K. Hareven (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice Hall, Inc. 1971), pp. 99-130.
37. Ibid., p. 115.
38. South Carolina « Gazette », Oct. 14, 1732, cited in Wood, « Black Majority, » p. 446.
39. Eugene D. Genovese, « The History of Slaves », *New York Review of Books* (Sept. 21, 1972), p. 17.
40. Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population Before the Federal Census of 1790 ». (New York : Columbia University Press, 1932), pp. 67, 101, 126 ; Frank J. Klingberg, « An Appraisal of the Negro in Colo-

nial South Carolina : A Study in Americanization » (Washington, D. C. : The Associated Publishers, 1941), pp. 58-60.

41. Angela Davis, « Reflections on the Black Woman's Role in the Community of Slaves », *Black Scholar*, 3 (1971-72) : 13.
42. W.E.B. Dubois, « Darkwater : Voices From Within the Veil (New York : AMS Press, 1969), p. 172.
43. « The Negro Family in America », quoted in « Black Matriarchy : Myth or Reality ? » ed. John H. Bracey, Auguts Meier, and Elliott Rudwick (Belmont, Cal. : Wadsworth Puplishing Co., 1971), p. 8.
44. David D. Wallace, « South Carolina : A Short History, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), p. 91.
45. Davis, « The Black Woman's Role », p. 7.
46. Sterling Stuckey, « Through the Prism of Folklore : The Black Ethos in Slavery », *The Massachusetts Review*, 9 (1968) : 418.

الفصل التاسع

تحول الحضارة الأوروبية

بلغ عدد سكان المستعمرات الأوروبية الملاصقة للساحل الشرقي للقارة ، سنة ١٦٥٠ ، حوالى خمسين ألفا • وتضاعف هذا العدد ، بعد نصف قرن ، خمس مرات ، ليصل الى ربع مليون نسمة • وفى سنة ١٧٥٠ ، ازداد العدد الى الخمسة أمثال ، وفيهم حوالى ٢٠٠ ألف أفريقى • وهذه نسبة فى الزيادة السكانية لم تكن معروفة فى أى مكان آخر فى العالم • وقد بلغ سكان المستعمرات الانجليزية فى أمريكا فى منتصف القرن الثامن عشر ثلث عدد الانجليز أنفسهم ، مما دفع علماء الاحصاء السكانى القدامى ، أمثال بنيامين فرانكلين الى تقدير أنه بعد أربعة أجيال أخرى سيفوق عدد سكان المستعمرات سكان البلاد التى جاءوا منها •

المهاجرون من أوروبا :

بطبيعة الحال ، لم يكن هؤلاء الأمريكيون الأوائل ، الذين تضاعفت أعدادهم بسرعة ، من الانجليز فقط ، فقد جاء مهاجرو القرن السابع عشر أساسا من انجلترا ، واختلطوا بأعداد صغيرة من الهولنديين والفنلنديين ، الذين كانوا مقيمين فعلا على امتداد الساحل ومع عدد ضئيل نسبيا من الألمان والاييرلنديين من أصل اسكتلندى ، والفرنسيين ، والأفارقة الذين وصلوا أخيرا خلال القرن السابع عشر • والقرن الثامن عشر هو قرن هجرة غير الانجليز • فقد تدفق فى بداية العقد الثانى من القرن آلاف من الألمان والسويسريين والاييرلنديين من منطقة ألستر بشمال ايرلنده ذوى الأصل الاسكتلندى والأفارقة • وقد جاء بعضهم طواعية والبعض الآخر كرها ، ومع ذلك ، فسواء وصلوا كعبيد أو كخدم يعقود ذات أجل ، أو أحرارا ، نجدهم قد عدلوا بدرجة بالغة فى جينات السكان الموجودين ، بحيث لم يبق أى دم انجليزى يجرى فى عروق نصف السكان تقريبا فى المستعمرات الثلاث عشرة بنهاية العصر الاستعمارى ، عندما أخذت بوادر الثورة تلوح فى الأفق ، وكانت هذه أكبر نسبة من المواليد غير الانجليز

فى التاريخ الأمريكى ، حتى بعد تدفق الأوروبيين الهائل فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • ولم يحدثنا التاريخ ، أساسا ، عن حياة شريحة صغيرة فقط من هؤلاء السكان ، فنحن نعرف الكثير عن القادة السياسيين والعسكريين والرجال الذين جمعوا الثروات ، وأولئك الذين تركوا ، بحكم مراكزهم العليا فى المجتمع ، أسمائهم وآراءهم فى السجلات الرسمية والشخصية فى ذلك الوقت • ولكن التغير الحضارى الذى ما كان ليحدث خلال القرن قبل الثورة قد حمل الكثير من الأعمال لآلاف الأفراد « الصامتين تاريخيا » والتى تفوق بكثير أعمال القادة الذين شكلت أقوالهم وأفعالهم معظم تاريخنا المكتوب • وقد كتب جون آدامز بعد الثورة أن « من الواضح التزام الرجل الفقير بما يمليه الضمير ، ورغم ذلك فهو خجول •• يشعر بأنه غائب عن نظر الآخرين ، وهو يتلمس طريقه فى الظلام ، فلا تنتبه البشرية إليه • يهيم أو يضل الطريق دون أن يلفت الأنظار • وهو فى وسط الزحام ، وفى الكنيسة ، فى السوق ••• ضئيل ، مغمور ، كما لو كان (شيئا) فى عليقة البيت أو قبو الخزين ، ليس ذلك عن لوم له أو استهجان ، أو عيب فيه ، فهو غير مرئى ، ليس الا » (١) • ويشبه ذلك أن المؤرخين « لم يروا » الجزء الأكبر فى مجتمع المستعمرات الذين نتبين آثار أقدامهم الآن على رمال الزمن •

لقد كانت طريقة الأداء ، والانحراف عن السبيل المألوف ، واتجاهات ، وآمال ، ومخاوف جمهور الأفراد العاجزين ، غير ذوى الأهلية هى التى أدت الى التغير الحضارى الواضح فى أمريكا فى القرن الثامن عشر بدرجة جعلت الطبقة الأرستقراطية الأوروبية لا تمل من التجوال فى المستعمرات وتسجيل الخصائص المميزة للناس الذين يرونهم مختلفين تماما عن عرفوهم فى أوروبا • وكان كل ما وصفوه - بالرغم من أدائه بطريقة عملية كاملة - هو مجموعة من الأنشطة الاقتصادية وأشكالا من التنظيم الاجتماعى والسياسى ومجموعة مؤلفة من القيم والمبادئ التى انصهرت معا فيما نسميه حضارة • وخلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن الثامن عشر ، تغيرت هذه الحضارة بشكل واسع بحيث لو رآها جون سميث أو جون وينتروب - فيما لو عادا الى الحياة اليوم - لأصابهما الذعر •

الطبقات الاجتماعية :

لعبت الأصول الاجتماعية لأولئك الذين اندفعوا أفواجا الى المستعمرات فى القرن الثامن عشر ، دورا فى عملية التحول الحضارى • فمن الطبقات العليا للمجتمع الأوروبى ، لم يأت أحد تقريبا ، ونجد أن

عددا من الانجليز فى قمة الهرم الاجتماعى ، فى القرن السابع عشر ،
قد قاموا بدور ايجابى فى استعمار العالم الجديد ، أمثال : والتر رالى ،
وريتشارد جرينفيل فى فرجينيا ، وآل كالفيرت the Calverts
الذين أسسوا ميريلاند ، وملاك كارولينا ونيوجرسى أصحاب المراكز
والسلطة فى بلاط تشارلز الثانى ، وحفنة قليلة غيرهم . ولكنهم أسهموا
فى كثير من ذلك بأموالهم وقدرتهم التنظيمية أكثر منه بأرواحهم .
ولم ينطلق من قيودهم بانجلترا سوى القليلين الذين هاجروا بشكل دائم
الى أمريكا ، وكان المهاجرون من أمثال هذه الطبقة العليا قليلين جدا ،
فى القرن الثامن عشر ، حيث اعتساد بارون دى جرافينريسد
de Graffenried ، وكونت فون زينزيندورف Zinzendorf فقط أن
يقودا من آن لآخر مجموعات من الألمان والسويسريين والاييرلنديين من
أصل اسكتلندى الى عمق القارة فى بنسلفانيا وفرجينيا وكارولينا الشمالية
والجنوبية . وهما يمثلان الطبقة العليا فى المجتمع الأوروبى .

وبلى النبلاء ، على المستوى الاجتماعى ، أبناء البلد ، ومعهم مجموعة
موظفى الحكومة ، وأعضاء المهن ، والتجار الأغنياء وهؤلاء الرجال الذين
قاموا جميعا بشركات المحاصة (*) التى اكتسبت أهمية كبيرة فى الأخذ
بيد المستوطنات فى أوائل القرن السابع عشر ، واستمروا فى تقديم
جزء كبير من رأس المال المستثمر اللازم لتنمية اقتصاد أراضى ما وراء
البحار . وساهموا فى القرن السابع عشر ، بشكل جوهري فى الهجرة
الى الأطلنطى سواء بحضورهم بأنفسهم أو بإرسال أبنائهم الشباب .
وبدخل فى هذه الفئة ، القساوسة البيوريتان من خريجي أكسفورد
وكامبردج ، وكثير من التجار الأوائل فى بوسطن وفيلادلفيا ، وبعض
أصحاب المزارع الكبار فى فرجينيا وميريلاند وكارولينا الشمالية
والجنوبية . ومع ذلك ، من المحتمل أنهم جاءوا فى القرن الثامن عشر
بأعداد أقل من ذلك .

ويأتى فى الدرجة التالية ، صغار ملاك الأراضى الزراعية فى الريف
وأصحاب المتاجر الحرفيين فى المدن ، وكان لهم احترامهم فى السلطة
الهرمية فى المجتمعات الأوروبية ، ولهم حق المشاركة فى الحياة السياسية ،
ووزنهم كبير فى عضوية الكنيسة .

(*) شركات المحاصة : شركات مستقرة ليس لها وجود قانونى ازاء الغير ، حيث
لا يعلم الغير شيئا عن وجودها ، ولا يعرف الشركاء فيها ، ويتم تعامل الشركاء مع الغير
بصفتهم الشخصية ولحساب الشركة . وتنحصر علاقة الشركاء ببعضهم فى مجرد اقتسام
الأرباح والخسائر طبقا للشروط المتفق عليها - (المترجم) .



- | | | |
|--------------------------------|------------------------|----------------|
| ١ - ماين (جزء من ماساشوسيتس) | ٢ - نيوهامبشير | ٣ - ماساشوسيتس |
| ٤ - كونيتيكت | ٥ - نيويورك | ٦ - بنسلفانيا |
| ٧ - نيوجرسي | ٨ - ديلوير | ٩ - فرجينيا |
| ١٠ - كارولينا الشمالية | ١١ - كارولينا الجنوبية | ١٢ - جورجيا |
| ١٣ - ميريلاند | | |

وعادة ما يدفعون بأنفسهم ، من خلال العمل الشاق ، والحظ السعيد ، أو الزواج المميز ، للرقى درجة أو درجتين في السلم الاجتماعى ، أو يعيشون على الأقل ليروا ابنا لهم يدخل إحدى المهن أو يباشر عمله فى التجارة . ولعلهم يمثلون ثلث المهاجرين الى المستعمرات ، وهناك شكلوا العمود الفقرى للطبقة المتوسطة ، ثم ارتقوا وبسرعة الى درجة أعلى فى مجتمع به ثروات وفيرة ، فهم مجموعة من الكادحين ، الطموحين ، المهرة الذين استطاعوا الارتفاع بحظوظهم وثرواتهم بطريقة كانت مستحيلة تقريبا لو ظلوا قابعين فى وطنهم .

وإذا أخذنا هذه الجماعات الجدد ككل ، من النبلاء والطبقة الحاكمة ، والطبقة المتوسطة من المجتمع الأوروبى نجدهم يمثلون نحو نصف الأوروبيين الذين سافروا بحرا الى الجانب الغربى من الأطلنطى فى القرن السابع عشر ، وربما كانوا يمثلون أقل من ثلث المهاجرين فى القرن الثامن عشر . ويتكون باقى سكان المستعمرات من الخدم المتعاقدين ، رجالا ونساء وأطفالا ، والذين لم يكن لديهم ما يكفى لسداد قيمة السفر الى العالم الجديد ، ولذلك كانوا يتعاقدون على العمل لعدد من السنين ، فى مقابل سفرهم بالبحر . وكانوا من طبقات مختلفة ، فبعضهم أصحاب متاجر ، والبعض الآخر حرفيون أو مدرسون ، ومزارعون مغمورون ممن قل حظهم ، أو أضررت أحوالهم الاقتصادية بالكساد التجارى . والأهم من ذلك كله ، أنهم لم يرتفعوا أبدا فوق خط الفقر ، ولا يتوقعون أية فرصة لتحقيق ذلك . وكان هؤلاء هم أحسنهم . أما أسوأهم فكانوا مجرمين صغارا ، أناسا تركوا انجلترا أو اسكتلندا أو ايرلندا أو ألمانيا طواعية أحيانا ، وأحيانا أخرى بناء على طلب السلطات . فالموظفون المحليون كان يمكنهم أن يتخلصوا من غير المرغوبين ، ويقللوا عبء الضريبة على أصحاب الملكيات الذين يعولون أشخاصا متقاعدين ، ونزلاء الملاجىء ، وذلك بإبعاد هؤلاء المحرومين من حقوقهم الانسانية ، الى حياة جديدة ييشرونهم بها - أو الى موت عاجل - فى العالم الجديد ، فعلى سبيل المثال ، فى محاولة من مجلس شورى الملك ، لتنظيم حملة استعمارية الى نيويورك سنة ١٦٦٩ أرسل الى السلطات المحلية يحثهم على تجنيد « الشحاذين والعاطلين الأصحاء ، والرعاىء ، والفجر ، وسيئى السمعة ، والمشهورين بالفجسور ، واللصوص وغيرهم من الأشخاص الفسقة الأقدار » (٢) .

الخدم المتعاقدون بأجل :

مادام الخادم المتعاقد بأجل ، قد أصبح يمثل نسبة مرتفعة بين المهاجرين فى القرن الثامن عشر ، فمن المهم اذن ، أن نفهم الجوانب الفنية

والتطبيقية لهذا المشروع التجارى المربح ، الخاص بنقل العمال الموثقين الى المستعمرات ، حيث كان الخلم البيض المتعاقدون يمثلون مثل العبيد الأفارقة والهنود الحمر قيمة لا تقدر بثمن فى مجتمع غنى بالأرض ، فقير فى العمال ؛ وقد كتب بنيامين فرانكلين سنة ١٧٥٩ : « يقوم العمل فى المستعمرات ، فى الأساس ، على الخدم المتعاقدين لأجل والمبعوثين من بريطانيا وإيرلندا وألمانيا ، لأن انتاجهم العالى فى عملهم لا يمكن انجازه بأية وسيلة أخرى » (٣) . ونسى فرانكلين أن العبيد السود كانوا فى كثرة الخدم البيض سنة ١٧٥٩ حتى فى مقره الرئيسى فى فيلادلفيا ، وأنهم يؤلفون الجزء الأكبر من قوة العمل فى المستعمرات الجنوبية . الا أن النقطة العامة الأساسية صحيحة : فقد كانت أمريكا فترة المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية ، تنمو على يد عمال خاضعين لرقابة الحكومة والضرائب ، وبصرف النظر عما اذا كان كل عضو مؤسس فى مجتمع المستعمرات صاحب مزرعة صغيرة للتبغ فى فرجينيا ، أو تاجيرا فى نيويورك ، أو مزارعا فى كونيتيكت ، أو نجارا للسفن فى بوسطن ، فانه يريد بجانبه عاملا موثقا بمجرد أن يتجمع معه ما بين ٢٠ - ٤٠ جنيهها لشراؤه ، فقد كان العامل الاضافى يعنى القدرة على انتاج المزيد من السلع والخدمات ، والتي تعنى بدورها المزيد من الأرباح . وفى عصر سبق وجود الآلة ، أصبح الطلب على جهد الآخرين أمرا مهما للغاية ، كما أصبح العامل البشرى سلعة أوروبية للتصدير ، تبحث عنها المستعمرات ، بلهف شديد .

كانت شروط الخدمة يعقود ذات أجل ، فى غاية البساطة . اذ يربط الخادم نفسه أو نفسها ، بعقد قانونى مع قبطان سفينة لمدة محددة من الزمن ، عادة ما تكون بين أربع أو سبع سنوات . وفى مقابل ذلك ، يوافق القبطان على نقل الخادم لمسافة ثلاثة آلاف ميل ، وانزاله عند احدى مجموعات المزارع العلنى فى موانئ المستعمرات . ثم يقوم القبطان بتوقيع العقد لمن يرسو عليه المزارع . وبموجب شروط العقد ، يوافق الخادم على الاخلاص فى الخدمة ، نظير الغذاء والكساء والمأوى ، وفى نهاية عقد الخدمة يحصل على مبلغ صغير من المال ، وأحيانا على بعض الآلات ، وفى أحيان أخرى يحصل على ملكية فدان من الأرض .

وهكذا ، أصبحت صناعة نقل العمال الموثقين جزءا منتظما من التجارة بين أوروبا وأمريكا ، وحافظت مجموعة التجار وقباطنة وسماسرة التهجير ومقاوى الأنفار على الآلاف من الأوروبيين على طريق المستعمرات ، خلال فترة ما قبل الثورة . وكان الخدم يشحنون على المراكب كآية بضاعة شحن أخرى عبر المحيط ، ثم يباعون على الجانب الآخر . وذلك هو النظام الذى أمد الأعضاء المؤسسين لمجتمع المستعمرات بالعمال ، ثم بالحرية فى

فى النهاية ، والحلم بحياة أفضل لمن وقعوا فى شباك الفقر ، كما أتت بالأرباح المجزية لكافة السماسرة ، وقد حدثت تعسفات مستمرة فى هذا النظام بالطبع . فكما أهدرت تجارة العبيد الأفارقة والهنود الحمر حياتهم الانسانية ، كذلك كانت التجارة فى عمال العقود مشروعا تجاريا قدرا فى العادة ، وكان الخطف والنقل ، كرها أو خداعا لأولئك المتنقلين بحثا عن عمل ، وحمل السكرى ، قسرا على السفن ، كان مرضا ممستوطنا فى ذلك الوقت . فكان كثير من سكان أى ميناء سيئى الحظ ، يستيقظون ذات صباح ورؤوسهم مصدعة ليجدوا أنفسهم ، فى قبضة سفينة متجهة بهم الى الغرب عبر الأطلنطى ، وحالما يجدون أنفسهم على السفينة ، ترتفع نسبة الوفيات بينهم ، بسبب أحوالهم الجديدة . وينقل وصف جوتليب ميتلبرجر Gottlieb Mittlberger ، الذى رافق قاربا محملا بخدم ألمان مبحرا من روتردام الى فيلادلفيا سنة ١٧٥٠ ، بعض مشاعر هؤلاء الباحثين عن حياة أفضل فى المستعمرات الأمريكية ، وما تحملوه انتظارا لفرصة يبيعون فيها أنفسهم بعقد عمل لبعض السنوات الأولى من عمرهم :

كانت السفينة ، خلال رحلتها ، مليئة بعلامات الأسى المثيرة للشفقة ، من روائح ، وهياج ، ورعب ، وتقيؤ ، وضور مختلفة من دوار البحر ، والحمى ، والدوسنتاريا ، والاسسقربوط (تورم اللثة ونزف الدم منها) ، والسرطان ، وعفن الفم ، وما شاكل ذلك من أمراض كلها ناتجة عن كبر السن ، والطعام المملح بنسبة عالية خاصة اللحم ، وكذلك المياه الشديدة القذارة التى تؤدى الى تلف الكثيرين وموتهم . أضف الى ذلك كله ، النقص فى الطعام ، والجوع ، والعطش ، والصقيع ، والحر والرطوبة ، والخوف ، والبؤس ، والحنق والنواح ، وغير ذلك من مصادر الازعاج . وهكذا انتشر القمل ، خاصة على المرضى مما يضطرهم الى حك أجسادهم وهرشها . وتبلغ هذه البلوى ذروتها عندما نضيف اليها ضرورة معاناة المرء يومين أو ثلاثة أيام وليال عاصفة ، يتأكد خلالها كل فرد بأن السفينة غارقة لا محالة بكل ما على سطحها من بشر ونادرا ما يستطيع الأطفال ما بين سن سنة وسبع سنين مقاومة الرحلة البحرية ليظلوا أحياء ، وعلى الوالدين دائما أن يلاحظوا نشاطهم هنا وهو يعانى فى ألم ، ويموتون ثم يلقى بهم فى المحيط نتيجة الفاقة والضعف والجوع والعطش ، وما شابه ذلك . وقد رأيت أنا ، بنفسى - واحسرتاه - هذا المصير الحزن لاثنين وثلاثين طفلا على ظهر مركبنا ، انتهى الأمر بهم جميعا الى القائه فى مياه البحر ! (٤) .

لقد وصف ميتلبرجر حدود أقصى ما وصل اليه الحال فى عرض البحر وانقلاب النزلاء حينذاك بعضهم على بعض • ولكنهم يتذكرون فى المقام الأول القرى التى أتوا منها قائلين : « آه ! لو رجعت الى بيتى ، ولو أرقد فى زريبة خنازير ! » • ويحتمل أن ربع أولئك الذين أبحروا من الموانئ الأوروبية لم يحيوا ليروا غابات العالم الجديد ، أو ماتوا فى ظروفهم المتدنية بعد وصولهم بقليل • أما من قاوموا المحنة وأخطار « الطعام المتبل » فى أمريكا الشمالية - والتأقلم مع الظروف الجديدة - فقد ساروا قلما • فضلا عن التكيف الطبيعى والنفسى مع بيئة وأسياد لا يعرفون عنهم شيئا بالمرة ، وفى مستعمرات الجنوب خاصة ، تحمل العامل الزراعى ضريبة باهظة وسط أولئك الذين صمم السادة على الحصول منهم على أكبر قدر ممكن من العمل والجهد فى السنين الخمس أو الست أو السبع الممتدة فى عقد العمل • وإضافة الى صعوبات الحياة بالنسبة للخادم ، كان هناك حق السيد فى منعه من الزواج ، وبالتالى ضياع وقت الخادمة • فكان معظم السادة يحرمون على خدمهم الحياة الأسرية •

إذا سلمنا بقسوة نظام العمل بالعقود ذات الأجل ، فلا ندهش عندما نجد صحف المستعمرات مليئة بإعلانات عن هروب بعض الخدم ، أو توشيحها بلاغات عن هروب بعض العبيد • وكان الخدم يعرفون العقوبات المقررة لذلك وهى : الضرب بالسياط ، والخدمة الإضافية التى تقدر عادة بضعف الوقت الضائع على السيد ، وأحيانا بنسبة خمسة أمثال ، كما فى فيلادلفيا ، أو عشرة أمثال كما فى ميريلاند • ورغم ذلك هرب الخدم بالئات ، وقاموا بين الفينة والفينة بعصيان مسلح محدود • وعندما جاءت الحرب اندفعوا أفواجا لتسجيل أنفسهم فى الجيش البريطانى ، وكان كثير من السادة يرغبون فى أخذ التعويض الذى يدفعه الجيش ، ويدعون الخدام الحرون يذهب لحال سبيله •

لقد كان الهدف الكبير لكل خادم ، أن يحرز مكانا على سلم الفرص - أو ما كان يتراءى له كذلك فى قرى اسكتلندا وإيرلندا وألمانيا ، الا أن أحد المؤرخين ينبهنا الى أنه « لن يكون من السهل أن نفترض أن الخدم الطلقاء ، المعتمدين على أنفسهم خاصة المتحررين من مزارع التبغ كانوا فى حالة ذهنية أو بدنية تسمح للواحد منهم أن يبدأ حياة جديدة نشطة قوية ، أو أن تلك السنوات الطويلة اليانعة تنتظرهم » (٥) • وبالرغم من الصعوبة البالغة فى تتبع حياة الخدم المتحررين تشير لنا أكثر الدراسات عن عبودية البيض الى أن واحدا فقط من كل عشرة من الخدم المتحررين وصل الى وضعه كمزارع فى ظروف مريحة ، وأن واحدا آخر حقق وضعه كصانع ماهر • أما الثمانية الباقون فقد ماتوا قبل أن يحصلوا

على حريتهم ، أو أصبحوا بعد اطلاق سراحهم عمالا باليومية لا يملكون شيئاً ، أو متشردين أو باعة جائلين بدون رخصة أو نزلاء بالملاجئ المحلي (٦) ، ولعل فرص الحياة للخادم كانت أفضل منها في القرن السابع عشر . ولكن من المحتمل أن تكون قد ساءت في القرن الثامن عشر باختفاء بعض مرونة المجتمع وسهولته . وبالرغم من أن حفنة من الخدم الذين نجحوا في تحقيق شهرة لهم أمثال القادة الثوريين دانيال دولاني Daniel Dulany وتشارلز تومسون ، وجون لامب John Lamb هم الذين أثاروا اهتمامنا ، إلا أن الاحتمالات الاحصائية لارتقائهم الى الوضع الكامل للطبقة الوسطى كانت طفيفة للغاية . ومن ذلك الحجم الصغير من الباحثين عن الفرص في المستعمرات الأمريكية ، تبرز أمامنا قصة العمل الشاق الذي لا يرحم وقمة الفشل الذريع . فلم يكن المستفيدون الأساسيون من هذا النظام هم العمال البيض المرتبطين بعقود ، بل ان المستفيدين هم من كانوا يشغلونهم .

المجتمعات الزراعية : الشمال والجنوب :

إذا ضمنا الأرض الخصبة الى الامداد بالعمال الموثقين بعقود ذات آجال من البيض ، والسود ، والهنود الحمر ، الملزمين بمدد معينة ، وطموح الآلاف من صغار المزارعين والحرفيين المستقلين في عملهم ، يظهر أمامنا مجتمعان زراعيان مختلفان عن بعضهما في أمريكا القرن الثامن عشر . ففي الشمال ، نجد مجموعات زراعية صغيرة مكونة من بضع مئات من الاسر التي زرعت الحقول النائية أو قسموا خسمات حرفية في المدينة كانت تتناثر خلال المنظر الريفى الطبيعى . ويندر وجود العبيد نسبياً ، فلا يمثلون أكثر من ٢ أو ٣ فى المائة من السكان فى أغلب المناطق الريفية، مع أنهم يكونون نحو ٨ فى المائة من سكان بوسطن ، وفيلادلفيا ، وأكثر من نسبة الضعف فى نيويورك والمنطقة المحيطة بها . وامتلكت الأرض نسبة عالية من الرجال ، وبالرغم من التفاوت فى القدرة والاستعداد والظروف التى أدت بالتدرج الى تكوين طبقات اقتصادية واجتماعية أكبر ، كان الغنى الحق والفقير المدقع هم القلة فى العدد ، والفجوة بينهما صغيرة اذا قارناها بالمجتمع الأوروبى . وعاش أغلب الرجال ليكتسب الواحد منهم مزرعة من خمسين فدانا على الأقل . واستخرجوا من التربة والأرض دخلاً معتدلاً ، وان كان لا يمثل ثروة مدهشة على مدى الحياة العملية ، ولكنه وفر لهم الأمن من العوز ووفر لهم ميراثاً صغيراً لذريتهم .

وفى المستعمرات الجنوبية ، كافح كثير من المزارعين من صغار الملاك مستقلين عن غيرهم بالرغم من أنهم كانوا مستثمرين فى تشييدهم فى الأرض أكثر من تجمعهم فى قرى . لم يلفت هؤلاء الرجال نظر المؤرخين

كثيرا بالنسبة للآلاف من ملاك الأراضي الذين عاشوا مع عبيدهم وعمال العقود لديهم في مزارع منفصلة شديدة التباعد ، على امتداد الأنهار والجداول التي تجرى من منطقة بيدمونت عبر السهل الساحلى حتى المحيط . ولكن الصورة المعتادة لمجتمع المزارع الجنوبية المكونة من رجال واسعى الثراء يستغلون جهد الجماعات الضخمة من العبيد السود هي صورة مبالغ فيها الى أبعد حد . فربما كان نحو ٤٠٪ من الذكور الجنوبيين البيض يعملون مزارعين مستأجرين أو عمالا زراعيين ، أما الرجال الباقون من ملاك الأرض ، فان اثنين من كل ثلاثة في منطقة تشيزابيك كانوا يديرون مزارع من مائتى فدان أو أقل . وفي كارولينا الشمالية كانت المزارع أصغر من ذلك مساحة ، وأندر في الرجال ذوى الثراء الحقيقى . والعكس صحيح في كارولينا الجنوبية ، فقد كان امتلاك العبيد على نطاق أوسع ، وتميل المزارع الى أن تكون أكبر ، والمزارعون ذوى الثراء الجوهري يمثلون نسبة من السكان أعلى . وفى بداية سنة ١٧٢٦ ، كانت ٨٧ أسرة من بين ١٠٨ أسر من سكان دائرة سانت جورج لها ملكية من العبيد ، وبعد جيل ، فى دائرة سانت بارتولوميو St. Bartholomew امتلكت نحو ٢٥٠ أسرة بيضاء أكثر من خمسة آلاف عبد (٧) .

وعلى الجملة ، ربما لم يكن هناك أكثر من خمسة بالمائة من ملاك أثرياء فى منتصف القرن الثامن عشر بحيث يمتلكون مزرعة تساوى ألف جنيه - أى أنهم لا يختلفون كثيرا عن الشمال ، وشبيه بذلك أن الذين يمتلكون عددا كبيرا من العبيد لم يكونوا من الكثرة كالاقتصاد الشائع بيننا . وبالرغم من ازدياد عدد العبيد فى المجتمع الجنوبى بسرعة فى القرن الثامن عشر من حوالى ٢٠ ألفا سنة ١٧٠٠ الى ٢٠٠ ألف سنة ١٧٥٠ ، لم يمتلك غالبية الذكور البالغين البيض عبيدا على الإطلاق فى منتصف القرن ، ولعل العدد الذى كان يدير مزارع بها أكثر من عشرين عبدا لم يزد عن ١٠٪ من البيض الخاضعين للضرائب . وعلى الرغم من أن كارولينا الجنوبية هي استثناء واضح ، كان الجنوب فيما قبل الثورة يسيطر عليه ، بصفة عامة من الناحية العددية ، صغار الملاك الذين ربما كانت مزارعهم فى متوسط حجم مزرعة نيوانجلند مرتين . ومع ذلك ، لم تكن تزيد عن نصف حجم مزرعة نموذجية فى بنسلفانيا أو نيوجرسى أو نيويورك .

ومع ذلك ، كان الهدف فى الجنسوب ان لم يكن الواقع هو فى المزارع الكبيرة ، حيث يجب على العبيد السود أن يجعلوا الأرض تدر عائدا يكفى الحياة المترفة ، ولكن اذا تحدثنا احصائيا ، لم يحقق كثير من المستعمرين البيض حلمهم فى الجنوب . ولو أن ذلك هو ما عمل الناس من أجله ، وأتوا ليحققوا راحتهم المادية باستغلال جهد العبد الأفريقى

وقت أن كان سكان المستعمرات الشمالية يستعملون السود والبيض في العمل الموثق بأجل ، ويتحولون الى سوق اقتصادية تتوفر فيها السلع والعمل على أساس التبادل الحر .

لعل أخلاقيات البروتستانت في العمل ، والتي طبعت في أذهان الرجال روح الكدح والاقتصاد في الصرف والمبالغة في تبرير النشاط الاقتصادي ، لم تؤثر في نفسية المستعمرين الجنوبيين كقوة تأثيرها في نظرائهم الشماليين ، ولكن وفرة الأرض الخصبة في الجنوب والامكانيات الواسعة للحصول على العبيد بعد سنة ١٦٩٠ كانت الباعث الضروري لظهور مجتمع عدواني شديد التنافس . ولقد أوردت كتب التاريخ قصصا شعبية كثيرة عن فرسان الجنوب وهم يستريحون تحت أشجار الماجنوليا ، الجميل ورقها وزهرها ، ولكن المستعمرين الأوروبيين في الجنوب في القرن الثامن عشر كانوا شرهين في الجري وراء الثروة والراحة المادية مثلما يفعل قرناؤهم في الشمال . وإذا قيل ان المناخ الحار في المناطق الجنوبية كان يولد التراخي والكسل ، فالحقيقة أيضا أن المزارعين في الجنوب لم يكن لديهم شتاء طويل مجمد ، لا يجدون لهم عملا فيه ، سوى اصلاح أدواتهم وقطع الخشب . كان الحقل النموذجي في نيوانجلندا ينتج محصولا واحدا في السنة ، أما كارولينا الجنوبية فكانت تنتج محصولين من الأرز أو أشجار النيلة ، فضلا عن أن معوقات التكيف وفق أوضاع المجتمع الجديد في نيوانجلند ، وتحامل البيوريتان ضد تجميع الثروة التي لم تكن تصرف بطرق تفيد المجتمع ، لم تعق نشاط المقاتلين أبدا في الجنوب . ولم يكن للديانة الحديثة النشأة في معظم المستعمرات الجنوبية سوى جنود ضعيفة ، كما لم يترسخ تكيف الجماعات وفق الظروف والأوضاع الجديدة نظرا لقلتها ، وتباعد مواقعها .

الأرض والثروة والطموح :

مما يثير السخرية ، أن إحدى نتائج التطور والنجاح العام لمستعمرات أمريكا البريطانية ، في القرن الثامن عشر ، هي تحطيم حلم الجيل الأول بالمدينة الفاضلة . وقد شجعت أخلاقيات العمل البيوريتاني وجود الفرص التي بدت وكأنها بلا حدود ، شجعت الرجال على العمل الشاق في مهنتهم التي كان النجاح حليفها بصفة عامة في العالم الجديد . وتضاءل الدافع الديني تدريجيا ، وبدأ الرجال ينظرون الى الأرض والجهد الذي يبذلونه فيها على أنها ليست مجرد مصدر رزق ، بل طريقا الى الثروة أيضا . وبعد أن كان ينظر الى الأرض من قبل كوسيلة لاستمرار الوجود أصبحت الآن بضاعة يستطيع العاقل المتدبر أن يضارب برأسماله فيها . وقد شتم القسس البيوريتان ، من قبل ، رائحة ما يجري في الجو ، فأصنروا

تحذيرات لم تردع أحسدا تقريبا • فنجد (القس) اينكريس ماثـر Increase Mather يصرخ سنة ١٦٧٦ قائلا : « الأرض ! الأرض ! » لقد أصبحت هي الوثن المعبود لدى الكثيرين في نيوانجلند » (٨) • وكما كتب جيمس هنريتا James Henretta حديثا أن مفهوم « الخير المحدود ، وصعوبة التكيف في المجتمعات الريفية نتيجة غياب الأراضي غير المزروعة وندرة موارد الثروة وأدواتها » قد حل محله « مفهوم جديد عن الامكانيات التي تقدمها البيئة الجديدة » (٩) •

ولما كانت نسبة الأهالي الى الأرض تبشر بالنجاح اذا قورنت بالمجتمعات التي جاءوا منها كشف المستعمرون الطامحون بشدة ، عن نظرة عدوان بالغة ، أصبحت نموذجا لسلوكهم ، ومنذا الذي كان يمكنه كبح جماح انسان في هذه الأرض المجهولة المترامية الأطراف ، في هذه الوديان النهرية التي لا يدعى أحد ملكيتها بمجرد أن يتركها الهنود الحمر ؟ كان ذلك هو المفهوم الجديد في مجتمع كل ما فيه ممكن • وبذلك كانت « الغلبة لسلوك المقاولين المتنافسين » (١٠) •

لم تفتقر الديانة ولا مفهوم المكسب المحدود ، فقد استمر الناس يذهبون الى الكنيسة عن ايمان ، بل وجرف المستعمرات التنافس الديني في أربعينات القرن الثامن عشر • الا أن الالتزام الديني عامة ، بمعنى الاستعداد للحياة الآخرة كان في انحدار • فقد استنكر أحد رجال الدين الذي اعتاد أن يرثى لمقاصد من يعظم بقوله : « قليل من السماء ، وكثير من الأرض » • كما كان كتاب فرانكلين « الطريق الى الثروة » هو الذي شتد من الروح العدائية لمقاولي القرن الثامن عشر ، بدليل أنه كان أكثر الكتب رواجاً لبضع سنين • لقد أزيحت كوابح الطموح الاقتصادي فجأة ، ومع ضعف حماس البيوريتانية في القرن الثامن عشر ، لم يكن هناك الكثير مما يكبح الغرائز الحيوانية المفترسة في أولئك المتشوقين الى مصارعة زملائهم جريا وراء المكسب المادي • وقد نفجع أحد الفيلادلفيين البارزين سنة ١٧٠٦ بقوله : « كل رجل يعمل لمصلحته » بعد مرور جيل واحد على بنر « بن » بنور « تجريته المقدسة » (١١) • وقد عبر عنها بشكل أوضح ، بعد ذلك بجيلين ، كادولادر كولدن Cadwallader Colden حاكم نيويورك الذي نشأ وتربى في المستعمرة : « ان المبدأ الوحيد الذي ذاع وانتشر في حياة الشباب هو الحصول على المال ، وأصبح تقييم الرجال على قدر ما يملكون من نقود » (١٢) • وكرر نفس الفكرة ، أحد المعاصرين في رود آيلاند حين كتب « ان الرجل الذي يملك « المال » هنا ، بصرف النظر عن كيف اكتسبه ، يصبح الكل في الكل ، أما المعوز الذي هو مجرد شخص تافه ، فليكن « سلوكه » عرضة للتقريع دائما أبدا » (١٣) •

ولما استحوذت هذه القيم المكتسبة على الناس ، حل مفهوم الفرد محل المجتمع فى التفكير ، فنجد نصيحة لسلف مثل الكاهن البيوريتانى ، جون كوتون ، التى تقول « انطلق ، كل رجل ينطلق ، تحدوه روح الخدمة للمصلحة العامة ، دون أن ينظر الى شئونه فقط » ، أو مبدأ وينتروب الأساسى القائل : « يجب أن تفوق الرعاية العامة كل الاعتبارات الخاصة » . وأخذت هذه النصائح والمبادئ تفقد وزنها بالتدريج فى مجتمع القرن الثامن عشر ، حيث تتابع فتح البرارى بدرجة كبيرة والاستيلاء عليها وعلى سكانها ، وأثبت الرجال تكيفا كاملا وتحملا مدة مائة عام ، وبدت احتمالات المستقبل واسعة لدرجة أن نما اتجاه فكرى دفع بالأمريكيين فى المستعمرات الى التشوق الى اثبات خطأ الشاعر جون دون John Donne ، من عصر اليزابث ، الذى نصح بأنه لا يستطيع أى رجل أن يعيش بنفسه فى جزيرة منعزلة . وقد ثبت امكانية الاكتفاء الذاتى النسبى ، ومع فوز المستعمر النموذجى بممتلكاته ، الا أنه كان يرغب فى المزيد . ويصف هذا التحول فى الاتجاه ، زائر فرنسى ، اشترى له سكنا فى نيويورك فيقول :

« يبدو الأوروبي الذى يجرى لأول مرة ، محدودا فى أهدافه وأفكاره ، ولكنه يغير فجأة ميزانه . . . وسريعا ما يتنفس هواءنا فيخطط لمشاريعه ، ويباشر الأعمال الشريرة التى لم يكن يفكر فيها أبدا فى بلده . . . يبدأ يشعر بتأثير نوع من البعث الجديد ، وبأنه لم يكن يحيا قبل اليوم ، بل كانت حياته مجرد حياة بلاذة وخمول ، وهو يشعر الآن بنفسه كرجل لأنه يعامل كذلك . . . يبدأ ينسى صراعه للبقاء ، واعتماده على الغير . . . » (١٤) .

لقد أغفل المتغطرس الفرنسى ، سان جون كريفيكر Crèvecoeur من مبدئه العام ثلث المجتمع الاستعمارى الذين كبلتهم أغلال العمل الاجبارى ، ولكنه أدرك جوهر إعادة التوجيه والتكييف النفسى العميق الذى عم كثيرا من سكان المستعمرات فى القرن الثامن عشر ان لم يكن أغلبهم . وقد كانت المفارقة أن الثروة الاستثنائية الضخمة ، وتحرير الطاقات الاقتصادية ، وظهور مذهب الحرية الفردية فى مجتمع القرن الثامن عشر ، كانت تفضى الى ظروف جديدة ، أقل تشجيعا عن ذى قبل . وإن ضغط النمو السكانى السريع على مساحة الأرض الثابتة شرق حاجز جبال أبلاش اتجه نحو الذروة فى منتصف القرن الثامن عشر ، وتعتبر الأراضي غير الممنوحة ملكيتها لأحد خاصية فى المنطقة الساحلية فى نيوانجلندا ، أمرا من الماضى - أو فى خبر كان - واستمرت إعادة تقسيم الأراضي الأصلية الممنوحة بين الأبناء والأحفاد الى أبعد حد ممكن ، مع

تجزئة المزارع الى وحدات اقتصادية صغيرة غير قابلة للنمو . وكان الحل الواضح لمشكلة ازدحام السكان هو الاتجاه الى الأرض الجديدة على حدود ولاية ماين Main ، غرب ماساشوستس ، وكونيكتيكت ، عبر الأبلش في بنسلفانيا ، وفرجينيا ، وميريلاند ، وكارولينا الشمالية والجنوبية . لكن ، كان من الضروري التغلب على الهنود المعادين ، والفرنسيين والأسبان قبل أن تبدأ حركة الانتقال نحو الغرب . وهكذا ، أدى تشبع السهل الساحلى الشرقى الى ازدياد جاذبية أراضى القبائل الداخلية مرة وراء مرة ، وبدأت تتكون شركات الأراضى فى منتصف القرن الثامن عشر ، لتدعى حق الملكية ، ولو ادعاء كاذبا لهذه الأراضى الغربية القيمة ، التى لابد أن ارتفعت قيمتها للغاية عندما بلغ الجيل التالى سن الرشد ، وبحث عن مجال حيوى له فى الغرب .

تغير التركيب الاجتماعى :

استمرت الزيادة السكانية ، والنمو الاقتصادى مدة قرن ونصف ، على يد أفراد مغامرين عدوانيين ، يزداد حبهم للماديات . وقد غير ذلك كلا من تركيبة مجتمع المستعمرات ، واتجاهات السكان تجاه هذا التركيب ، ولكنه غيرهم فى اتجاهات متعارضة . فقد تقبل المجتمع الأوروبى للقرن السابع عشر على كلا جانبي الأطلنطى طبيعة السلطة الهرمية فى الشئون العامة ، وتعذر اجتناب الفقر المحتوم ، وحق الطبقة العليا فى المجتمع فى حكم من هم أدنى منها . ولم تكن الدرجات الاجتماعية والتبعية الذاتية مباركة من الرب فقط بل كان يعتقد بضرورتها لصيانة استقرار المجتمع وتماسكه . لذلك تركز الاهتمام بالتفريق بين الأفراد عن طريق الزى والألقاب وآداب المعاشرة الاجتماعية ، بل وفى العقوبات المفروضة فى الاجراءات الجنائية . فعلى سبيل المثال ، لم يكن البيوريتان يقفون فى الكنيسة فى الصف فى صباح أيام الأحد فيشغلون المقاعد الخشبية الثابتة كيفما اتفق ، بل كان كل مقعد مخصصا للشخص حسب رتبته الاجتماعية . وكان « تقرير المقاعد » - كما كانت تسمى عملية التخصيص بذكاء ، مسئولية لجنة كنسية استخدمت كل معيار يستفاد به من حيث الاحترام الاجتماعى - من سن ، ونسب ، ومركز اجتماعى ، وخدمة المجتمع ، وثروة - فى رسم خطة جلوس جماعة المصلين ، ولم يدخل البيوريتسان الكنيسة أبدا دون التنبيه عليهم وتذكيرهم بالمكان الذى يشغلونه فى سلسلة المجتمع . ويشبه ذلك ، تذكير جون وينتروب لركاب أربىلا Arbella وهم فى طريقهم الى خليج ماساشوستس ، سنة ١٦٣٠ بالحكمة المألوفة المتعلقة بطبيعة الأمر الالهى بالتسلسل الاجتماعى الهرمى، حيث يقول : « ان الله تعالى ، بعنايته الالهية البالغة حكمة وقداسة قد فرض ... الوضع الاجتماعى للبشر ، بحيث انه فى كل الأوقات ، يكون

البعض أغنياء ، والآخرون فقراء ، والبعض نبلاء بارزين فى القوة والكرامة ، والآخرون وضعاء ، خاضعين للغير « (١٥) .

لم يختلف المهاجرون الأوروبيون الى أمريكا عن بعضهم البعض ، بدرجة ملحوظة ، فى تركيبتهم الاجتماعية ، بالرغم من الالتزام الفلسفى بالسلطة الهرمية . وكان مجتمع المهاجرين يتركز فى الطبقتين الدنيا والوسطى مع التوافر الهائل للحصول على الأرض ، مع أن فرص جمع الثروات الكبيرة كانت ضيقة نسبيا ، خلال معظم القرن السابع عشر اذا لم يكن مدى الفساد سوى عمله الخاص وزوجته وأولاده وخادم أو خادمين . وحتى فى المدن التى شرعت فى إعادة توزيع الثروة ، وأدت الى أن يظهر الأذكي ثراءه الحقيقى ، وأن يبقى الفقير على فقره ، شهد فجر القرن الثامن عشر مجتمعا استعماريا سادت فيه الطبقة الوسطى بدرجة مناسبة . وتركت حفنة من كبار ملاك المزارع بصمتها فى وادى نهر هدسون والمستعمرات الجنوبية ، الا أن أكبر ملاك للعبيد فى فرجينيا ، فى بداية القرن الثامن عشر ظلوا يملكون أقل من مائة عبد ، ولم يزد عدد الرجال الذين يملكون ألفى جنيه - يتكونها لورثتهم - عن أكثر من خمسة رجال ، وفى سنة ١٧٢٢ ، توفى أحد أغنياء تجار فيلادلفيا وهو لا يملك أكثر من ١٠٠٠ جنيه الا قليلا ، وهو مبلغ ضخم ، لكنه غير مؤثر بالمعيار الأوروبى .

المساواة بين البشر :

فى القرن الثامن عشر ، وخاصة فى نصفه السابق للثورة ، تضاعف الالتزام القديم بالسلطة الهرمية والاذعان لها ، وفى نفس الوقت ازدادت طبقات المجتمع . وكانت المواقف الاجتماعية تتحرك فى اتجاه متعارض مع التركيبة الاجتماعية ، فقد أصبحت المساواة بين البشر هى المثل الأعلى بالنسبة للبيض الأحرار (دون غيرهم) ، كما يتضح من ملاحظات احسن صحف فيلادلفيا التى ذكرت قراءها فى سنة ١٧٥٦ بأن الطبقة المتوسطة من الناس « يستمتعون بالحرية ويفرغون بها ، وأن أحقر شخص فيهم يرى أن من حقه المعاملة اللطيفة الكيسة مثل أرفع الناس شأنًا » (١٦) . وقد شاعت هذه التعليقات بينهم ، ولقد اندهش كريفيكر الفرنسى لرؤيته العمال المستأجرين الذين « يجب أن يجلسوا على مائدتك ، ويطعموا ... من أحسن ما لديك » ، كما كتب المدرس فيليب فيثيان Philip Fithian عن « عمال يجلسون على الموائد ، وفى قاعات الاستقبال ، لدى أسيادهم ومن هم أفضل منهم ، يستمتعون بهذه الميزة ، وباحترام مجتمعاتهم ، والحديث معهم » (١٧) .

كان الأوروبيون يحكمون على ما يرونه ، قياسا على ما كانوا يعرفونه في وطنهم ، وبالتالي يبالغون ، أحيانا ، في درجة المساواة التي يظنون أنهم يرونها ، ولكننا نشك قليلا ، في أن الأمريكيين في منتصف القرن الثامن عشر ، بتجاهلهم للقهر العنصرى الذى كانوا يمارسونه ، كانوا يفتخرون بمفهومهم الجديد عن مجتمع لا يسيطر فيه الأرستقراطى الثرى . وليس فيه جمهور من البيض الفقراء ، يتمرغون فى الوحل . فالهدف المثالى هو تحقيق مساواة اقتصادية تقريبية ، يلقي فيها كل انسان مسنواة اجتماعية مقبولة ، « ولا بد أن تلغى فيها التفرقة المثيرة للبغض والاستياء » (١٨) . فعندما طاف بنيامين فرانكلين بالريف الانجليزى سنة ١٧٧٢ ، ارتاع مما رآه ، وشكر الله أن الأمريكيين يختلفون عنهم . « فملك الأراضى والنبلاء العظام ، والسادة الأماجد ، ذوو الثراء الفاحش ، الذين يعيشون فى أعلى درجات البحبوحة والعظمة » يمكن أن نراهم جنبا الى جنب مع « السواد الأعظم من الجمهور ، ومستأجرى الأراضى والمنازل ، شديدى الفقر ، الذين يعيشون فى أشد درجات التعاسة الدنيئة ، فى أكواخ قذرة من الطين والقش ، ولا يرتدون سوى أسمال بالية » ، ان كل ما استطاع أن يفعله فرانكلين هو هز رأسه ، وتعزية نفسه بمعرفته أن الأمريكيين كانوا على خلاف ذلك . وفى تجاهل منه للهنود الحمر والأفارقة ، كتب « كنت أفكر دائما فى سعادة نيوانجلند ، حيث يكون كل انسان حرا فى ملكية الأرض ، وله صوت فى المسائل العامة ، يعيش فى منزل دافئ ، ولديه كمية وافرة من الطعام الجيد والوقود ، تغطيه الملابس من قمة الرأس الى أخمص القدم ، والسلع المصنعة قد تكون كلها من صنع عائلته » (١٩) . وقد صدرت تصريحات مماثلة ممن احتفوا مثله بهذه الحالة الفريدة للمجتمع الأمريكى ، حيث يؤكد تاجر فيلادلفى لقرائه « لا بد أن تثق فى أن هذه واحدة من أفضل البلاد للانسان الفقير فى العالم » . وفيما يتعلق بالطبقات الدنيا فى نيوانجلند ، يعتز مؤلف كتاب « الزراعة الأمريكية » American Husbandry فيقول : « لا يكاد يوجد جزء فى العالم فيه من هم أفضل حالا . . ذلك اليسر العظيم فى الحصول على مزرعة ، يجعل الطبقة الدنيا من الناس تكد وتكدح ، حيث يختفى ، مع ارتفاع أجر العامل ، كل ما يحمل أقل مظهر للاستجداء او حالة الفقر المعوز ، المنتشرة ، التى نراها شائعة فى انجلترا » (٢٠) . وقد لخص الألماني ميتلبرجر الفكرتين المثاليتين عن المساواة الاقتصادية ، والاحتقار الديمقراطى للحكومة ، والمؤسسات الاجتماعية المستبدة ، بقوله : « كانت بنسلفانيا هى « النعيم للمزارعين ، وجنة عدن للحرفيين ، والجحيم للموظفين والمبشرين » (٢١) .

لا بد أننا لاحظنا أن كل هؤلاء المعلقين ، كانوا يشغلون وظائف

لا بأس بها في المجتمع ، جعلتهم لا يصفون الواقع ، بل يصفون حلم الحياة الاستعمارية . فالحقيقة ، أن مجتمع القرن الثامن عشر ، حتى بالنسبة لسكان المستعمرات البيض ، كان يبتعد ، في الواقع ، عن الحلم . فقد أفسحت الاتجاهات الجديدة المراعية للغير مكانا لأساليب الفكر والسلوك الفردي ، الوقح ، المتشبت برأيه ، لذلك ، أصبح المجتمع أكثر طبقية ، وتوزيع الثروة أقل عدلا ، ونشأت الطبقات الفاحشة الثراء ، والطبقات الأخرى السلبية . كما أن التدفق الهائل للمهاجرين في منتصف القرن بعد سنة ١٧١٥ ، جعل الأغنياء ذوي رأس المال الكافي ، يضاربون في الأراضي ، ويشترون العبيد ، والخدم ، أو يشاركون في التجارة . وأصبح تعظيم الثروة وتبجيلها ظاهرة ظاهرة في القرن الثامن عشر ، في كل قطاع بالقطر ، شماله وجنوبه ، ريفه وحضره . وظهرت بيوت أثرياء الريف في مدن بوسطن ، ونيويورك ، ونيويورك ، وفيلادلفيا ، وشارلستون ، كشاهد على ثرواتهم من التجارة ، وبناء السفن ، والمضاربة في الأراضي . ولعل هذه المضاربات كانت أكثرها ادرارا للربح . وقد كتب أحد سكان فيلادلفيا سنة ١٧٦٧ « من الأقوال السائرة تقريبا أن كل ثروة عظيمة تجمعت هنا في هذه السنوات الخمسين ، قد جاءت من الأرض » (٢٢) . وفي الفترة الاستعمارية المتأخرة ، لم يكن مستغربا أن نجد لدى المضاربين في الأراضي عزبة تساوي ما بين ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ جنيه ، فقد كانت ممتلكات الكويكر الفيلادلفي ، اسراييل بيمبرتون Pemberton تقدر بستين ألف جنيه قبل الثورة مباشرة . كما جمع أغنياء المزارعين في مناطق الشمال الريفية ضياعا تقدر بما بين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جنيه . وتكونت ثروات أكبر من ذلك في الجنوب ، لأن الاستيراد السريع للعبيد الأفارقة بعد سنة ١٦٩٠ ، وخاصة بين سنتي ١٧٢٠ ، ١٧٧٥ قد ساعد على سرعة تزايد الأرباح من زراعة التبغ والأرز . وحقق المزارعون الكبار في منطقة تشيزابيك ، أمثال تشارلز كارول Charles Carroll روبرت « كنج » كارتر Robert « King » Carter ، ووليام بيرد ، ثراء مذهلا قبيل الثورة مباشرة ، وكانت ضياعهم التي تساوي الواحدة منها ١٠٠٠٠ جنيه أو أكثر تضارع في قوتها الشرائية ممتلكات تساوي مليوني دولار سنة ١٩٧٠ . ولم يكن غريبا أن نرى في المزارع الكبيرة في الجنوب بين ٣٠٠ - ٤٠٠ عبد ، بينما كان أكبر مالك للعبيد في القارة في أواخر القرن السابع عشر لا يملك أكثر من ٥٠ عاملا موثقا .

تساؤل الديمقراطية الاقتصادية :

ساعدت الزيادة السريعة في السكان واستثمار رأس المال على نطاق واسع في شراء الأراضي ، والرقيق ، عددا قليلا من الرجال ، بنجم ثروة رائعة بلا شك ، حتى في المجتمع الانجليزي . كما أدى نمو المجتمع

الاستعماري أيضا الى خلق ظروف ، كان من الصعب على كثير من الأشخاص أن يحتفظ فيها بالخبز على مائدته ، والخشب في مدفاته . وتأكدت هذه الحقيقة في المدن على وجه الخصوص ، حيث زادت الفروق في الثروات بسرعة كبيرة . وبنيت الملاجئ واصلاحيات الأحداث في الربع الثاني من القرن ، في كل المدن الكبرى لاعالة من يعجزون عن العناية بأنفسهم من : المسنين ، والمعوزين ، والمرضى ، والمجانين ، واليتامى ، ومع ذلك ففيما بين سنتي ١٧٢٥ ، ١٧٧٥ ازداد الفقراء في المدن بدرجة أسرع بكثير منها لدى سكان الحضر ككل ، وبعد حوالي سنة ١٧٥٠ لم يعد الفقر يقتصر على المسنين والمنهوكين .

كانت بوسطن ، وهي أول مستوطنة يوتوبية في أمريكا الانجليزية ، أول من أحس بشدة الضائقة الاقتصادية . فقد بلغ سكان المدينة حوالي ١٢ ألف نسمة ، سنة ١٧٢٠ ، وازدادوا الى حوالي ١٦ ألف في العقدين التاليين . ولكنهم استقروا ابتداء من ١٧٤٠ حتى ما بعد الثورة ، كما في المدن الساحلية الأخرى مثل مالم ، وماربيلهد Marblehead ، ونيوبوري بورت Newbury Port ، حيث كانت تتمتع بصناعة السفن ، وكان اقتصاد نيوانجلند يعتمد على الاستيراد بصفة عامة . وزاد الانفاق على الفقراء ، الذي استقر دون الألف جنيه سنويا ، في عشرينات القرن الثامن عشر ، فارتفع تدريجيا في العقد التالي ، وكانت زيادتها أسرع من الزيادة السكانية في أربعينات القرن الثامن عشر . كان المشرفون المؤكلون بالفقراء سنة ١٧٥٣ يرفقون تقارير الى الهيئة التشريعية بماساتشوستس أن نفقات اعالة الفقير في بوسطن قد بلغت ضعفها في أية مدينة في حجمها « على وجه الأرض كلها » حسب تقدير المطلعين . وسواء أكان ذلك صحيحا أم لا ، فإن الأمر المؤكد أن عددا كبيرا من الناس في المدينة كانوا في كرب حقيقي . وكتب المشرفون سنة ١٧٥٧ أنه « سيبلغ عدد الفقراء الذين يتلقون الاعانات كليا أو جزئيا في ملجأ المدينة وخارجها حوالي الألف ٠٠٠ » ، وأن الذين يتلقون صدقة خاصة ، من الكنائس والمؤسسات الخيرية قد تكاثروا في مجموعهم الكلي (٢٣) . وأصبحت بوسطن ، تنوء ، في الستينيات من القرن الثامن عشر بعبء الفقراء الى حد بعيد ، وقد اجتذبت اليها عددا كبيرا من المحاربين القدماء المعوقين من حرب السنوات السبع ، وكان لها نصيبها الدائم من البحارة المصابين المتوقفين عن العمل ، والمحطمين نفسيا ، لقد اتخذ المشرفون أشد الاجراءات صرامة لتخليص المدينة من « الغرباء » الذين يتجولون فيها بحثا عن الراحة أو الاعانة ، ولكن بالرغم

من « التنبيه بالطرد » علي ١١٢٥ شخصا ما بين ١٧٦٩ ، ١٧٧١ ، ظلت ملاجئ المدينة وجمعياتها الخيرية في السنة الأخيرة تزدهم بثلاثمائة نزيل تقريبا ، بينما يتلقى أكثر من خمسمائة راشد آخرين اعمالت خارجية . ومع ذلك ، كان هناك ثمانمائة آخرون مسجلون في قائمة الضرائب سنة ١٧٧١ بوصفهم لا يملكون شيئا ، مما يدل على أن أكثر من نصف سكان المدينة من الراشدين البيض كانوا فقراء أو معدمين . لقد أصبحت بوسطن ، وهي المركز الحيوى لحلم المدينة الفاضلة لليوريتان ، احياء جديدا للصفات التي ابتعد عنها المجتمع الأوروبي .

يتضح من النظر الى مدينتي نيويورك وفيلادلفيا اللتين ازداد نموهما بسرعة خلال فترة واحدة ، أن ازدياد الفقر وانعيايم الملكية في بوسطن لم يكن راجعا الى ركود اقتصادي ، ففي نيويورك لا تبين القائمة الأولى للعالة ، سنة ١٧١٣ سوى رجلين وثلاث عشرة امرأة ، كلهم من المسنين أو العجزة . ثم ارتفع الرقم الى ٥٨ سنة ١٧٣٥ ، الا أن هذه الزيادة كانت متناسب تقريبا مع نمو سكان المدينة ، ومع ذلك كانت المدينة بحلول سنة ١٧٧٢ تعول ٤٢٥ فقيرا في الملجأ والجمعية الخيرية . كما يظهر نفس المنحنى الصاعد في نفقات المجلس المحلي لاعانة الفقراء ، حيث بلغ متوسطها ٥٢٣ جنيه في السنة ، في السنوات العشر من ١٧٢٥ ، ١٧٣٥ ، وارتفع الى ١٢٠٠ جنيه في السنة سنة ١٧٥٩ ، ثم أصبح المتوسط حوالي ٥٠٠٠ جنيه في السنوات السابقة للثورة مباشرة (٢٤) .

وفي فيلادلفيا ، ظهرت نماذج اجتماعية مشابهة ، باعتبارها الميناء الرئيسي لدخول الآلاف من المهاجرين الألمان والاييرلنديين من أصل اسكتلندي ، الذين عبروا الأطلنطي بحثا عن فرص أكبر في القرن الثامن عشر ، ولذلك كان لها دور لا تحسد عليه في استيعاب كثير من المرضى والمكروبين الذين هبطوا الى الشاطئ في غاية المرض والانهيار المعنوي ليشقوا طريقهم غربا نحو الأراضي المتاحة بوفرة ، لكن مشكلة فقراء فيلادلفيا كانت أكثر من مجرد انعكاس لعدد كبير من السكان انعابرين ، اذ تقول تقارير المشرفين علي الفقراء سنة ١٧٥٥ ان الملجأ كان يضم في العقد السابق حوالي من ٤٠ - ٦٠ فردا في السنة ، وكان ذلك في فترة هجرة كبيرة ، وبعد ذلك ، بدأت قوائم الفقراء تقفز بسرعة . وفي سنة ١٧٦٨ كان يسمح لأكثر من أربعمئة فرد سنويا بالدخول الى الملجأ والجمعية الخيرية ، ثم قفز الرقم بحلة الى ما فوق السبعمائة سنة ١٧٧٥ . واعتبر مئات غيرهم « فقراء » وأدخلوا مستشفى بنسلفانيا للمرضى الفقراء ، كما قدمت الاعانة الخارجية الى غيرهم على يد المشرفين . وبينما تضاعف عدد السكان تقريبا فيما بين سنتي ١٧٤٠ ، ١٧٧٥ ، ازداد عدد الفقراء بالمدينة الى العشرين مثلا ، وتحكى لنا نفس القصة ،

أرقام الانفاق العام والأموال الخاصة الموجهة للمتجولين والعجزة • وقد زاد الانفاق العام من أقل من ٥٠٠ جنيه في السنة في الربع الأول من القرن ، وأقل من ألف جنيه في السنة في الربع الثاني الى نحو ١٠٠٠٠ من الجنيهات فيما قبل الثورة مباشرة • كما وزعت الكنائس وجمعيات البر اعانات اضافية ، وبالرغم من أن حالة السجلات لا تسمح لنا بحسابات دقيقة ، فان تقديرا متحفظا يضع ١٠٪ على الأقل من أعضاء المجتمع الراشدين في هذه المدن الاستعمارية على قائمة اعانات الفقر في نهاية العهد الاستعماري ، وهكذا ، كانت الديمقراطية الاقتصادية تتضاءل وتذبل بازدياد الديمقراطية السياسية •

لقد كان من المحتم أن يميل التوسع الاقتصادي والقيم الديمقراطية المتجسدة في المجتمع الى اطراء المعتدين والقادرين في اندفاعهم غربا نحو التوسع الذاتي المادي • فكلما عظمت الفرص – والفرصة هي إحدى السمات الأساسية للآلية في المجتمع الديمقراطي – كلما اتسعت الفجوة بين الغني والفقير ، فيحدث التغاضي غير المباشر عن أقول المساواة الاقتصادية كلما نمت المساواة الثقافية والسياسية • فالمجتمع المفتوح ذو الفرص الوافرة في القرن الثامن عشر ، أمام المقاولين ، مع قلة القيود الحكومية نسبيا قد أدى بدرجة متناقضة الى توسيع الفجوة بين الغني والفقير ، والى تركيز القوة الاقتصادية في أيدي طبقة عالية ضئيلة العدد في المجتمع ، الذي أصبح الفرد فيه ، وليس المجموع هو محور الاهتمام ، وكان السكان البيض في أمريكا المستعمرات يحولون ما يعتقدون أنه أمريكي فريد الى ما كان يشبه باطراد تلك الظروف الأوروبية التي هربوا منها •

ان اختلاف مواهب الرجال في التعامل مع بيئتهم الاقتصادية ، والاستفادة من الحرية باستغلال العامل الأسود والأبيض ، والحصول على سندات ملكية أرض الهندي الأحمر ، كانت تسجل في النهاية في قوائم الضرائب حيث تقدر ثروة كل رجل بجانب ثروة جيرانه • وقد انتهت جهودهم في مجملها الى نقطة لا تقبل الجدل ، وهي أن نمو السكان والتطور الاقتصادي قد تسببا في قلة العدالة في توزيع الثروة ، والى زيادة عدد المعدمين فعلا في كل مجتمع ، وحدث التغير ببطء في المناطق الريفية ، ولكن سرعته ازدادت في المراكز التجارية الساحلية •

ففي قرية نورثامبتون ، في ماساشوسيتس ، مثلا ، سيطر نحو ١٠٪ من كبار ملاك الأراضي على ٢٥٪ من الثروة الخاضعة للضريبة سنة ١٦٧٦ ، وازدادت سيطرتهم ببطء على مصادر القوة الى نسبة ٣٤٪ سنة ١٧٥٩ • وفي نفس الوقت ، ظلت نسبة الممتلكات الخاضعة للضريبة والتي يملكها الثلث الأدنى في المجتمع ثابتة عند حوالي ١٠٪ • وفي

مقاطعة تشستر Chester بينسلفانيا كان أغنى ١٠٪ من المزارعين في تلك المنطقة الخصبة والغنية بإنتاج القمح جنوب غرب فيلادلفيا يهيمنون على حوالى ٢٤ ٪ من الثروة سنة ١٦٩٣ ، و ٣٠ ٪ تقريبا سنة ١٧٦٠ ، بينما تناقصت القوة الاقتصادية خلال هذه الفترة لأدنى ٣٠٪ من ملاك الأرض من ١٧ر٤٪ الى ٦ر٣٪ من جملة الممتلكات الخاضعة للضرائب بالمقاطعة (٢٥) .

كانت نسبة التغير في المدن أكبر من ذلك بكثير ، حيث استولى أعلى ١٠٪ من الملاك في بوسطن سنة ١٦٨٧ على ٤٦ ٪ من الممتلكات الخاضعة للضرائب ، بينما كان نصيب ٣٠٪ من صغار الملاك حوالى ٣٠٪ نسبة هزيلة قيمتها ٢ر٦ ٪ من الثروة ، وبعد ذلك بأربعة أجيال ، في سنة ١٧٧١ امتلك العشر الذى على القمة ٦٣٪ من الثروة بينما لم يمتلك أدنى ٣٠٪ شيئا البتة ، أو امتلكوا مجرد واحد فى الألف من الموارد الخاضعة للضريبة . وفى بوسطن ، حيث كان عدد السكان فى ثبات معظم القرن الثامن عشر ، والركود الاقتصادى مخيما بشدة على مجالات كثيرة ، تضاعف الاستقطاب الاقتصادى فى فيلادلفيا المنفتحة بقوة ونشاط . وفى سنة ١٦٩٣ أى بعد عقد من الاستيطان بقليل ، ادعى الثلث الأعلى من السكان ملكية ٤٦٪ من ثروة المدينة ، وبعد مرور ثلاثة أرباع القرن ، امتلكوا ٧١٪ من الثروة الخاضعة للضريبة سنة ١٧٧٢ . ولم تكن هذه المكاسب ، كما فى بوسطن ، على حساب الثلث الأدنى فى المجتمع والذى كان يملك ٢ر٢٪ فقط سنة ١٦٩٣ ، وانما كان على حساب العناصر المتوسطة (٢٦) .

إذا كان الفقر قد ضرب فى حياة الجزء الأكبر من سكان الحضر ، فهو وضع عادى على الحدود ، حيث لم تكن الفجوة بين الغنى والفقر موجودة تقريبا لعدم وجود أغنياء فى أى مكان هناك . فقد كانت التركيبة الاجتماعية فى منطقة الحدود فى منتصف القرن الثامن عشر ، تمثل المجتمع الريفى على حافة القارة قبل ذلك بقرن . وتميز مجتمع الحدود بقلة عدد المزارعين الذين عاشوا فى شظف على نفس السهل ، سواء أكانوا فى مدن غرب ماساشوستس وكونيكتيكت التى اكتشفها أبناء اليانكى المزارعون فى الربع الثانى والثالث من القرن الثامن عشر . أو الأراضى الواقعة على طول نهر موهوك فى نيويورك ، ونهر سسكيهانا فى بنسلفانيا التى كانت تمثل أمل المهاجرين الألمان والاسكتلنديين والاييرلنديين ، أو الأرض الخلفية لميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية والتى امتصت نحو ٢٥٠ ألف نسمة فى فترة المستعمرات

الأخيرة ، واشتروا الأراضي بثمان بخس ، وصل في العادة الى أربعة شلنات للآكر (*) (ومع ذلك فقد كان يكفي لاتاحة ربح ملائم للمضاربين من الجهة الشرقية في تجارة الأراضي) ، وكافحوا لتحويل حياة العيش البسيط الى حياة الربح . وأهل الكثيرون في الحصول على أراض زراعية تكفيهم في سنوات قليلة لانتاج فائض محاصيل السوق . الا أن هذا الأمر كان يستغرق عادة ، معظم حياة الواحد منهم لاقتصاره على المساعدة من أبنائه ، وبعض حيوانات الحقل القليلة ، وكافح آخرون لدخال تحسينات كثيرة على قطعة الأرض التي يملكها الواحد منهم ، بما يكفي لجذب المستوطنين المندفعين نحو الغرب في موجة الاستيطان التالية فيدفعون فيها ثمنا يكافي جهود صاحبها .

تكررت مؤسسات المجتمع الشرقي بسرعة ، على جبهة نيوانجلند ، حيث اندفع الناس غربا في مجموعات ، فيجدون أمامهم قرى وكنائس جديدة حيثما ذهبوا . وقد عاش هؤلاء الفلاحون والمزارعون البسطاء ، رغم فقرهم ، حياة لم تتفسخ فيها الروابط تماما داخل مؤسساتها هذه . ولكن الى الجنوب من نيويورك على المنحدرات الشرقية للأبلاش عاش مجتمع هامشي شبه همجي ، حيث نجد الكاهن الانجيلي ، تشيـارلز وودماسون الذي قضى ثلاث سنوات ، يتجول على قدميه من مستوطنة الى أخرى في المنطقة الخلفية لكاريولينا في الستينات من القرن الثامن عشر ، نجده يفرع مما رآه ، فيقول : « نظرا لرغبة القسيس في الزواج ، وفسق الناس وتحررهم ، يعيش المئات حياة التسري واتخاذ المحظيات – يتبادلون زوجاتهم كالماشية ، ويحيون حياة الطبيعة ، تعوزهم العفة ، ويسودهم الشذوذ بدرجة أكثر من الهنود الحمر . . . » ، كما وجد في بيفركريك Beaver Creek أكوأخهم مفتوحة تماما ، لا يسترها حجاب ، يكادون يفرشون الغبراء ، ويلتحفون السماء ، بلا أدنى غطاء ، ليس لديهم جرعة شراب سوى الماء القراح ، كل كسائهم ، قميص وبنطلون ، أو قميص وتنورة نسائيتان . وربما كان بعضه قماشاً خشناً من الكتان والصوف وبلا أحذية أو جوارب ، والأطفال نصف عراة ، الهنود الحمر احسن منهم ، ملبسا ومسكنا ، (٢٧) . وقد حمل وود ماسون معه بصفته انجليكانية انجليزيا ، كل ما يحمل من تحيز ديني ضيـد الايرلنديين الاسكتلنديين البرسبتاريين (**) ، وهم الجزء الرئيسي من سكان المنطقة ، لكننا لانجد سببا للشك في أنهم عاشوا تلك المعيشة الخشنة . ويقول انه بعد قيامه بالوعظ في فلات كريك Flat Creek « لمجموعة ضيخة

(*) الأكر : أقل من الفدان بقليل ، أو نحو ٤ آلاف متر مربع .

(**) البرسبتارية أو المشيخة : صفة لكنيسة بروتستانتية ، يدير شئونها شيوخ

منتخبون ، متساوون في المنزلة – (المترجم) .

من الناس ٠٠٠ خليط هائل / وحشيد مختلط من كافة الطبقات ، امتنع وجهه لما فعلوه بعد الصلاة من « عريضة ، ورقص ، وغناء ، ودعارة » .
 ويزيد الأمر نوضيحا بإشارات من يديه ، فيقول : « كانت غالبية الجماعة مخمورين تماما قبل أن أغادر المكان - وكانوا أفظاظا ، في حالة تشبه عامة الهمج ، لا يقلون عنهم درجة » . لقد أغضب عينييه ، فزعا من بعض ما رآه ، ولكنه أبقاهما مفتوحتين بما يسمح له أن يلاحظ الفتيات « ذواب الروس المكشوفة ، والسيقان العارية ، والأقدام الحافية ، لا يستوهن سوى قميص وتنورة - ومع ذلك لا أستطيع أن أمنعهم من ذلك - فحرارة الجو لا تسمح بارتداء شيء (سوى) ثوب رقيق » . ويسنطرد قائلا : « تتصرف الفتيات تصرفا شاذا جدا . . اذ يضيغن قمصانهن بحيث نلتصق بأجسادهن أشد التصاق ، ويشددنها بالدبوس لتبرز استدارة صدورهن . . ويشددن تنوراتهن على أردافهن ليبرزن جمال السيقان - صحيح أن العري هنا ليس أمرا مستهجنا أو مبتذلا ، وهن يكشفن أجسادهن تماما ، في سلوك منهن غير مهذب - فيدلكن أنفسهن وشعورهن بزيت الدببة ، ثم يعقصنه الى أعلى كذيل الحصان ، مثل الهنديات ، لا يختلفن عنهن في شيء » (٢٨) .

مذهب الفردانية السياسي :

انتشر نفس النشاط الفرداني ، المتواصل ، وسط المستعمرين الأوروبيين في أمريكا القرن الثامن عشر ، سواء أكان ذلك في المنطقة الخلفية لكارولينا ، الخالية فعلا ، من المؤسسات والطبقات الاجتماعية ، أو في الموانئ الساحلية حيث يجرى الاستقطاب الاقتصادي ، جنبا الى جنب مع نمو المدارس والكنائس والمحاكم ، والنوادي . وساد الاعتقاد أن البيئة تقدم فرصا لا حدود لها ، حتى بالرغم من أن فرص الحياة كانت تضيق ، وتقل أمام فقراء المهاجرين أو أولئك الذين ولدوا في أدنى طبقات المجتمع . وفي هذا الجو ، على حد قول أحد المؤرخين (٢٩) انتشر على نطاق واسع « اغراء استغلال الحكم في أغراض شخصية » ، فوجد المسئولون الحكوميون ، سواء في المجلس المحلي أو الاقليمي أنفسهم محاطين بالمطالب التي لا تتفق مع المهام التقليدية للحكومة ، حيث ان المستوطنين وسماسرة الأراضي الذين وقعوا في منازعات حول الحقوق الشرعية في الأراضي الهندية ، جاءوا بدعاواهم أمام المجلس التشريعي للمستوطنة ، ودافعوا عن قضاياهم بالتلاعب بكل وسائل الاستغلال والرشوة والتي غيرنا اسمها الآن الى جماعات الضغط (اللوبي) . وتنافس التجار للحصول على حق تجهيز البعثات العسكرية ، ورشوة أعضاء الهيئة التشريعية بأمل الحصول على العقود . وتكتل السماسرة في مجموعات ،

واستغلوا تأثيرهم في المجالس التشريعية للمستعمرات لكسب بنود لتأسيس نقابة أو شركة ، وبمجرد تأسيسها يسعون الى مزيد من الفوائد التشريعية في شكل صكوك امتياز لانشاء بنوك للأراضى - وهى مؤسسات تصدر الأوراق المالية بضمان الأراضى - لكى توسع دائرة العملة ، وبذلك تسهل على من لديهم حوى النشاط الحدودى أن يشتروا الأراضى التى تحت أيديهم .

وباقتراب عهد الثورة ، حلت فلسفة الفردانية ، محل فلسفة الجماعة ، كما انهار التكامل الاجتماعى تحت ضغط الطموح الفردى بعد أن كان أمرا حتميا ، لا غنى عنه ، كما انتصر الالتزام بمصلحة الفرد على مصلحة الجماعة . ورغم اصرار القادة السياسيين فى بياناتهم العامة على التأكيد بأنهم يمثلون المصلحة العامة ، أصبح معروفا أنهم كانوا يعينون فقط حسب مصالح مجموع من سيستفيدون من حولهم ، وفى بداية العشرينات من القرن الثامن عشر ، ارتفعت أصوات كثيرة جدا بأن المجتمع يتكون من مجموعات ذات مصالح مشتركة ، وأن جوهر السياسة أن تجعل مصلحة مجموعة الفرد ذاتها تغلب على مصالح مجموع الآخرين ، الا أنه لم ينقض نصف القرن حتى هوجم ، فى الحال ، مذهب « المصلحة العامة » القديم . ولما أكد أحد الكتاب فى صحيفة « نيويورك جازيت » سنة ١٧٦٥ بأن « (مصلحة الفرد) هى المبدأ الأكبر لكل سلوك انسانى ، أصبح من غير المعقول أو من العبث أن نتوقع خدمة أو معروفا من شخص عليه أن يتصرف بما يخالف مصلحته الخاصة » . وقد اعترف بجلاء بما كان يدور طويلا فى أذهان الأوروبيين فى أمريكا ، بالرغم من النفور من ذلك الاعتراف ومعارضته (٣٠) .

هذا ، ولا بد أن يستمر الجدل حول المصلحة الشخصية مقابل المصلحة العامة لعشرات السنين . فمن رأى البعض أن انتصار الفردية هو انحراف عن الرؤية النبيلة التى جاء بها البيوريتان الى الشواطئ الأمريكية لأنهم اعتبروا تفوق المصلحة الشخصية شكلا من أشكال السماح بأشد غرائز السلب والنهب ، وتشجيعها واضفاء الشرعية عليها . فى حين يرى آخرون بأنها كانت خطوة عظيمة للأمام ، فى تاريخ البشرية ، حيث سمحت للانسان أن يتصرف بحسرية ، وكبحث القوي اللازمة للتسلط فى مفهوم « المصلحة العامة » .

كانت الطرق المتعددة للتخلص من القيود الحكومية والفكرية ، وتمجيد مفهوم المصلحة الشخصية ، هى الصيغة المضبوطة للتطور السريع لمساحة واسعة من الأرض قد حباها الله بمصادر وافرة للثروة ، وسكان طموحين من المجددين الأوروبيين ، ذوى التفكير الواقعى ، ولا جدال فى

أنه بالرغم من تناقص الفرص ، وتزايد مشكلة فقر المناطق الحضرية في القرن الثامن عشر ، كان أواسط الأوروبيين في أمريكا ، يعيشون أفضل بكثير مما لو كانوا قد لزموا أوطانهم الأم • وصدق الزائرون الأمريكيون لأوروبا ، أمثال فرانكلين ، عندما أثبتوا أن أشد الأشخاص بؤسا في المستعمرات ، لم يبلغ به السوء نصف ما كان يبلغه واحد من كل خمسة في إنجلترا •

لكن فرانكلين ومعظم المؤرخين ، الذين كتبوا خلال قرن ونصف بعد وفاته ، قد أغفلوا من اعتبارهم بقصد أو عن غير قصد ، ربع المجتمع الأمريكي الذي كان مكبلا في الأصفياد ، أو المطرودين أفرادهم بعيدا عن أرضهم ، وهم أسوأ فقرا من أشد الأشخاص بؤسا في المجتمع الأوروبي • لقد كان ما يقرب من ٢٢٪ من السكان الأمريكيين ، عند فجر الثورة من السود ، وكانت غالبيتهم العظمى من الرقيق • ويعيش عدد لا حصر له من الهنود ، اما أشباه عبيد في مستوطنات البيض ، أو في مجتمعات مخصصة لهم ، أو يكافحون للاحتفاظ بأرضهم الأساسية ، واستقلالهم السياسي • ولم يكن هؤلاء مجرد أعضاء في المجتمع ، الذين يقفون عند أدنى درجات السلم فيه فقط ، بل كانوا سكان « البدروم » في بيت أزيل عنه السلم المؤدى الى الدور الأرضي • ومع ذلك ، فهم جزء من المنزل ، وبدونهم لم يكن البناء ليقوم أو يمكن أن يرتفع عاليا •

ان أية مقارنة بين المجتمع الأوروبي ومجتمع الأوروبيين في أمريكا يجب ، أن تضع في الحسبان أن تفوق الأوروبيين في أمريكا كان راجعا الى حد كبير الى أنهم كانوا يحتلون أرض الهنود الحمر ، ويستغلون جهد الأفارقة • فلو أننا أخذنا « كل » شعب أمريكا في منتصف القرن الثامن عشر ، وقارناه « بكل » شعب إنجلترا لاختفت الفروق في الثروة ، ومستوى المعيشة ، وفرص التقدم في أغلب الأحوال • فقد كان ربع السكان الأدنى اى القاع في أمريكا مستعبدا أو يناضل من أجل البقاء ، ولذلك كانوا أشد بؤسا من نظرائهم في المجتمع الأوروبي • أما الريعان الثانى والثالث من المجتمع الأمريكى ، واللذان يتكونان من الخدم بالعقود ذات الآجال ، وسكان الحدود الفقراء ، والعمال الزراعيين ، ومستأجرى الأراضي ، والعمال المعدمين في المناطق الحضرية ، والبحارة ، ربما لم يكن هؤلاء جميعا أحسن حالا من قرنائهم في الشرائح المماثلة في المجتمع الانجليزى • وكانت ميزتهم الأساسية أنهم يستطيعون أن يأملوا في الارتقاء في المجتمع ، حيث كان الحصول على الأرض مازال متيسرا ، ويحصل العامل على أجر أعلى من نظيره في وطنه الأم • ولا أن بعضهم قد حققوا فرصتهم في حياتهم ، ولكن البعض الآخر ، ولعلمهم الأكثرية قد فشلوا في ذلك ، ومع ذلك نقلوا الأمل الواعد الى أبنائهم • وفي ربع

المجتمع الأمريكى المترفع على القمة ، ظل الرجال يكافحون لبلوغ السلطة والثراء المادى الذى كانت تتميز به الطبقة العليا فى سيلم المجتمع الأوروبى ، ويمكن أن ينسب نجاحهم ، الى حيلة كبيرة ، الى قدرتهم على السيطرة على جهد عدد ضخم من العبيد ، أو الى المضاربة فى الأراضى التى اغتصبوها بصورة أو بأخرى من سكانها الأصليين . فقد كان تحرير الرجل من السلطة معناه وقوع رجل آخر فى العبودية ، وهروب رجل من قيود الكنيسة والحكومة معناه هلاك لرجل آخر ، والجنة لشعب هى هاوية الجحيم لشعب آخر .

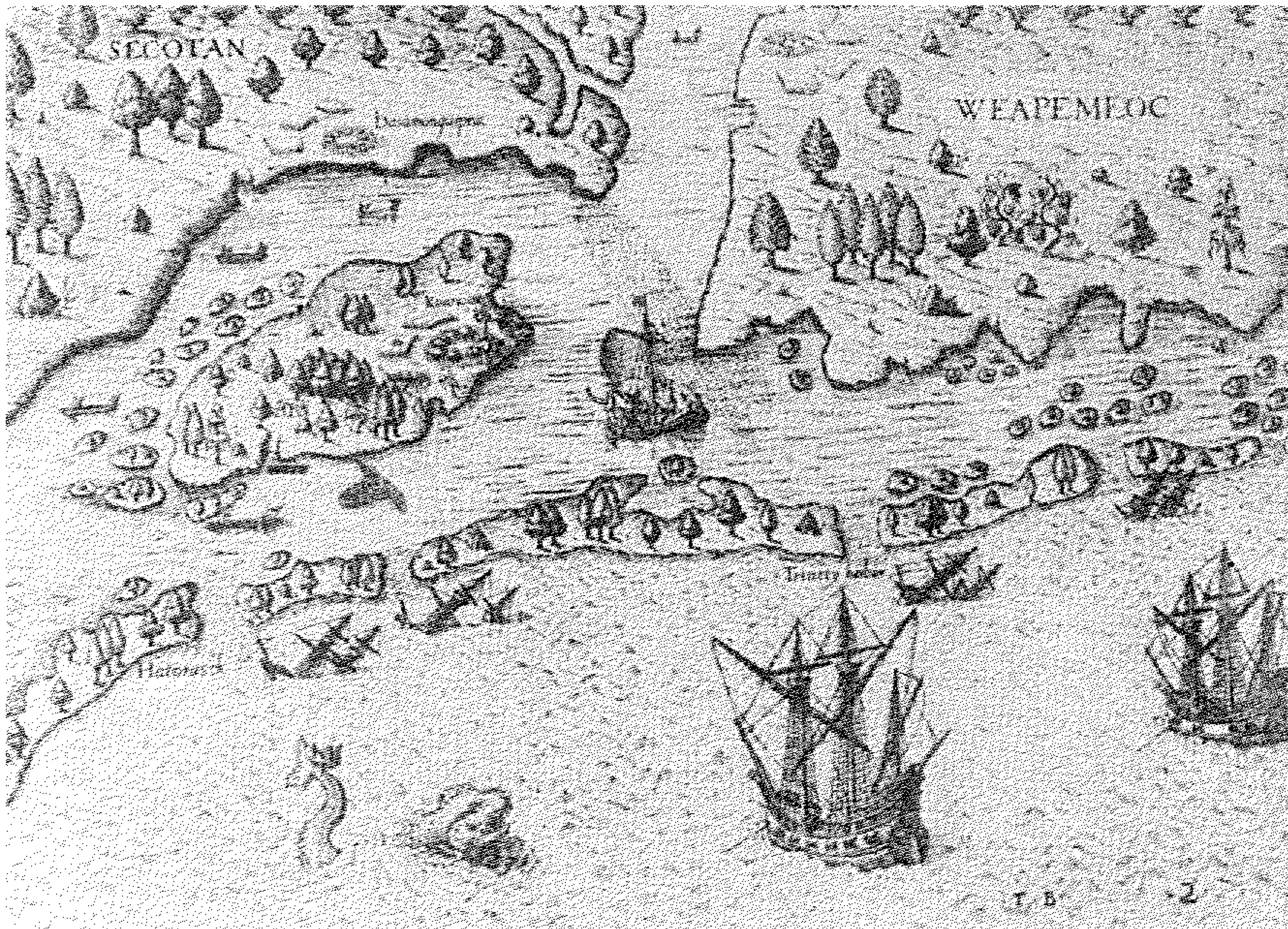
بهذا المعنى ، كانت ملامح نجاح مجتمع المستعمرات الأمريكى شديدة الخصوصية ، امتزجت فيها قطرات عرق الأفريقى بتراب أرض الهندى السيلية . وكان تغير القرن الثامن عشر ، خاصة فى الجنوب ، من استخدام العامل الأبيض بعقود محددة الأجل الى استخدام الرقيق الاسود قد عزز امكانات تحقيق الأرباح لملك الأراضى ، الى حيلة كبيرة ، وفى نفس الوقت ، على حد قول ادموند مورجان « قد عوق نمو الحرية ، وأوقع الكتابة بالطبقة الدنيا » . ولا بد أنه أصبح من ناجية أخرى ، مصدر سخط اجتماعى وصراع طبقى واسع الانتشار (٣١) ، فالحرية والعبودية ، والبعض والسود ، والنجاح المادى واستغلال البشر ، كانت كلها مرتبطة ببعضها بميثاق غير مقدس .

المراجع

1. Quoted in James A. Henretta, « The Evolution of American Society, 1700-1815 » (Lexington, Mass. : D.C. Heath and Company, 1973), pp. 3-4.
2. Quoted in Peter Gouldesbrough, « An Attempted Scottish Voyage to New York in 1669 », Scottish Historical Review, 40. (1961) : 58.
3. Quoted in Marcus W. Jernegan, « Laboring and Dependent Classes in Colonial America, 1607-1783 » (New York : Frederick Ungar Publishing Co., 1965), p. 55.
4. Gottlieb Mittelberger, « Journey to Pennsylvania, ed. and trans. Oscar Handlin and John Clive » (Cambridge : Harvard University Press, 1960), pp. 12-15.
5. Richard Hofstadter, « America at 1750 : A Social Portrait » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1972), p. 61.
6. Abbot E. Smith, « Colonists in Bondage : White Servitude and Convict Labor in America, 1607-1776 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1947), pp. 297-300.
7. Frank J. Klingberg, « An Appraisal of the Negro in Colonial South Carolina : A Study in Americanization » (Washington, D.C. The Associated Publishers, 1941), pp. 58-60 ; William Langhorne, « An Account of The Spiritual State of St. Bartholomew's Parish, » (1752), South Carolina Magazine of History, 50 (1949) : 200.
8. Quoted in Perry Miller, « The New England Mind From Colony to Province » (Boston : Beacon Press, 1961), p. 37.
9. Henretta, « Evolution of American Society », p. 8.
10. Ibid., p. 9.
11. Quoted in Gray B. Nash, « Quakers and Politics ; Pennsylvania, 1681-1726 » (Princeton : Princeton Univ. Press, 1968), p. 303.
12. Quoted in Henretta, « Evolution of American Society », p. 99.

13. Quoted in Carl Bridenbaugh, « Cities in Revolt : Urban Life in America, 1743-1776 » (New York : Capricorn Books, 1964), p. 140.
14. J. Hector St. John Crèvecoeur, « Letters from an American Farmer » (New York : E.P. Dutton & Co., Inc., 1957), pp. 54-56.
15. « A Modell of Christian Charity » quoted in Darrett B. Rutman, « Winthrop's Boston ; A Portrait of a Puritan Town, 1630-1649 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1965), pp. 7-8.
16. Quoted in Hofstadter, « America at 1750 », p. 131.
17. Ibid., p. 141.
18. Jackson T. Main, « The Social Structure of Revolutionary America » (Princeton : Princeton University Press 1965), p. 236.
19. « The Writings of Benjamin Franklin », 10 vols., ed. Albert H. Smyth (New York : The Macmillan Co., 1907), 5 : 362-63.
20. Quoted in James T. Lemon, « The Best Poor Man's Country : A Geographical Study of Early Southeastern Pennsylvania » (Baltimore: : Johns Hopkins University Press, 1972), xiii ; American Husbandry (London, 1775), ed. Harry J. Carman (New York ; Columbia Univ. 1939), pp. 52-53.
21. Mittelberger, « Journey to Pennsylvania », p. 48.
22. Pennsylvania Magazine of History and Biography, I (1977) : 277.
23. Records Relating to the Early History of Boston, 39 Vols. (Boston : Rockwell and Churchill, 1881-1909), 14 : 240, 302.
24. Raymond Mohl, « Poverty in Early America, A Reappraisal », New York History, 50 (1969) : 9, 13-15.
25. William R. Tillman, Unpublished analysis of wealth distribution in Northhampton Mass. : James T. Lemon and Gary B. Nash, « The Distribution of Wealth in Eighteenth-Century America : A Century of Change in Chester County, Pennsylvania, 1693-1802 », Journal of Social History, 2 (1968) ; 11-14.
26. Gray B. Nash, « Wealth, Poverty, and Mobility in Pre-Revolutionary American Cities », unpublished ms.

27. Charles Woodmason, « The Carolina Backcountry on the Eve of the Revolution, ed. » Richard J. Hooker (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1953), pp. 15, 33.
28. Ibid., pp. 56, 61.
29. Richard L. Bushman, « From Puritan to Yankee : Character and the Social Order in Connecticut, 1690-1765 » (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 267-88.
30. Bernard Friedman, « The Shaping of the Radical Consciousness in Provincial New York », *Journal of American History*, 56, (1969-70) : 789.
31. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox », *Journal of American History*, 59 (1972-73) : 25.



حفر يتخيل فيه الفنان اللقاء الأول في أمريكا الشمالية بين أهالي أمريكا الأصليين والمستعمرين الانجليز عند جزيرة رونوك سنة ١٨٥٨.



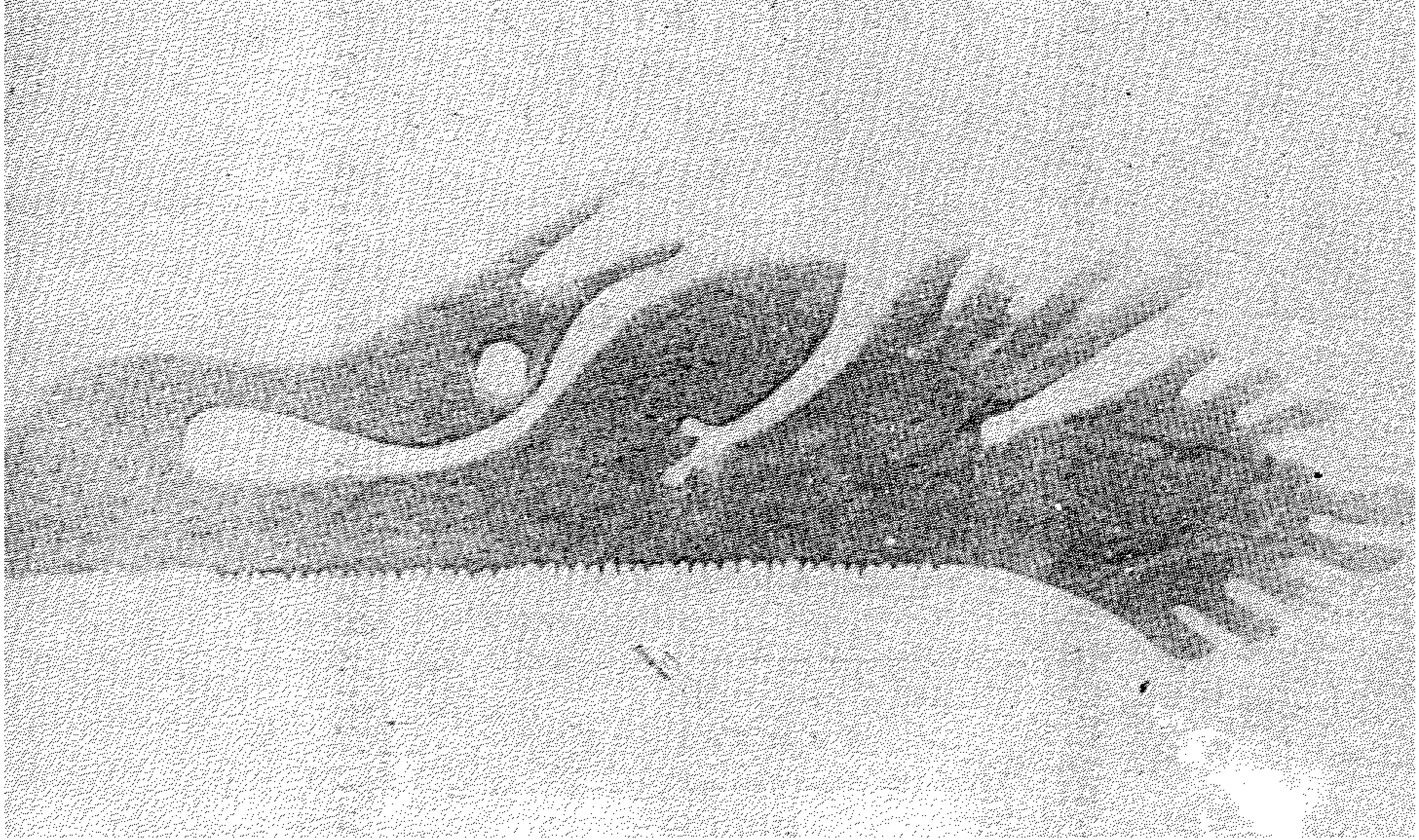
نيو أمستردام الهولندية عام ١٦٢٦، التي أصبحت انجليزية عام ١٦٦٤، ولكنها حافظت على جوها وشكلها المعماري خلال عصر المستعمرات.

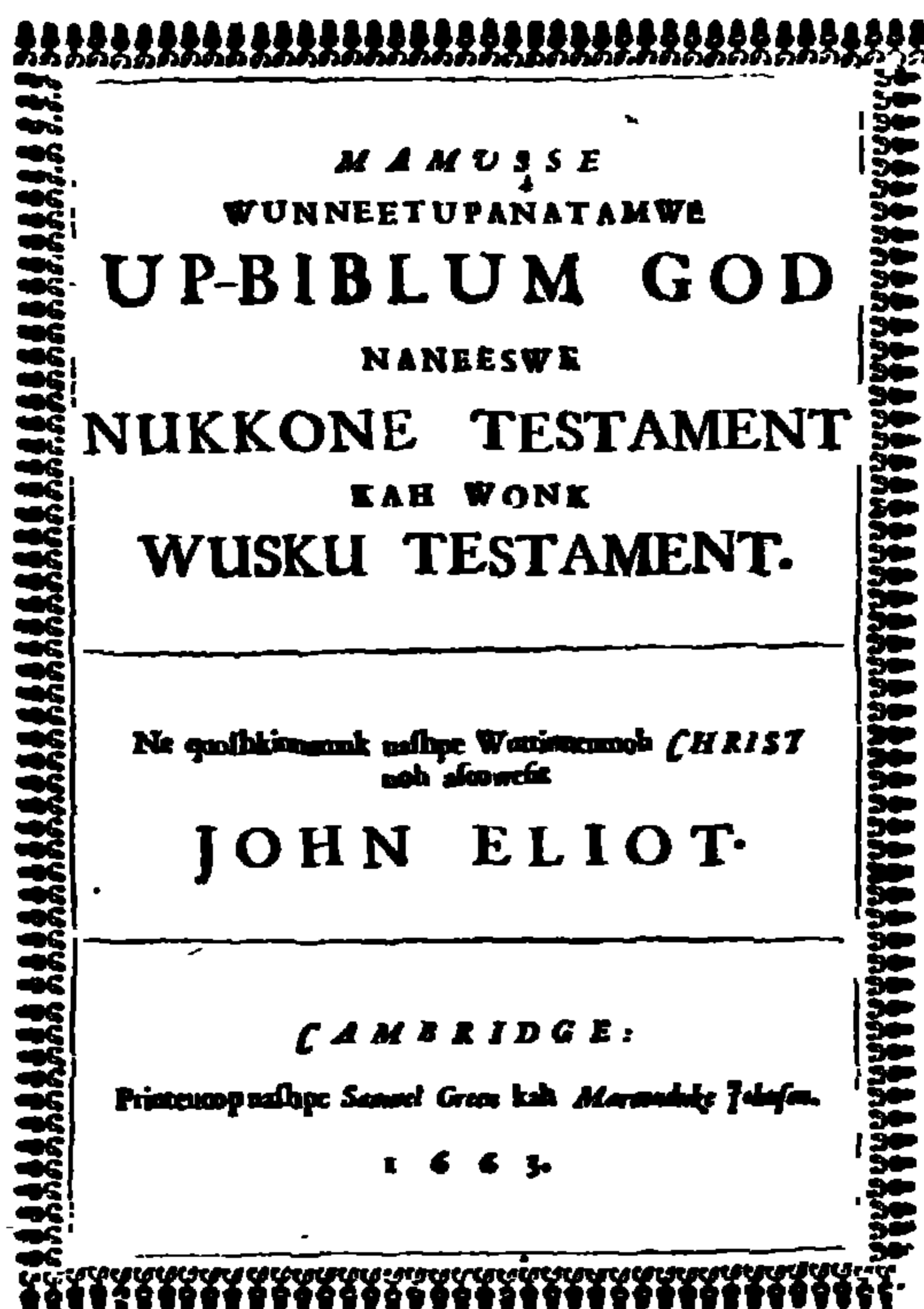


اتسمت شخصية جون وينثروب، قائد هجرة البوريين إلى نيو انجلاند بالقوة والعزيمة

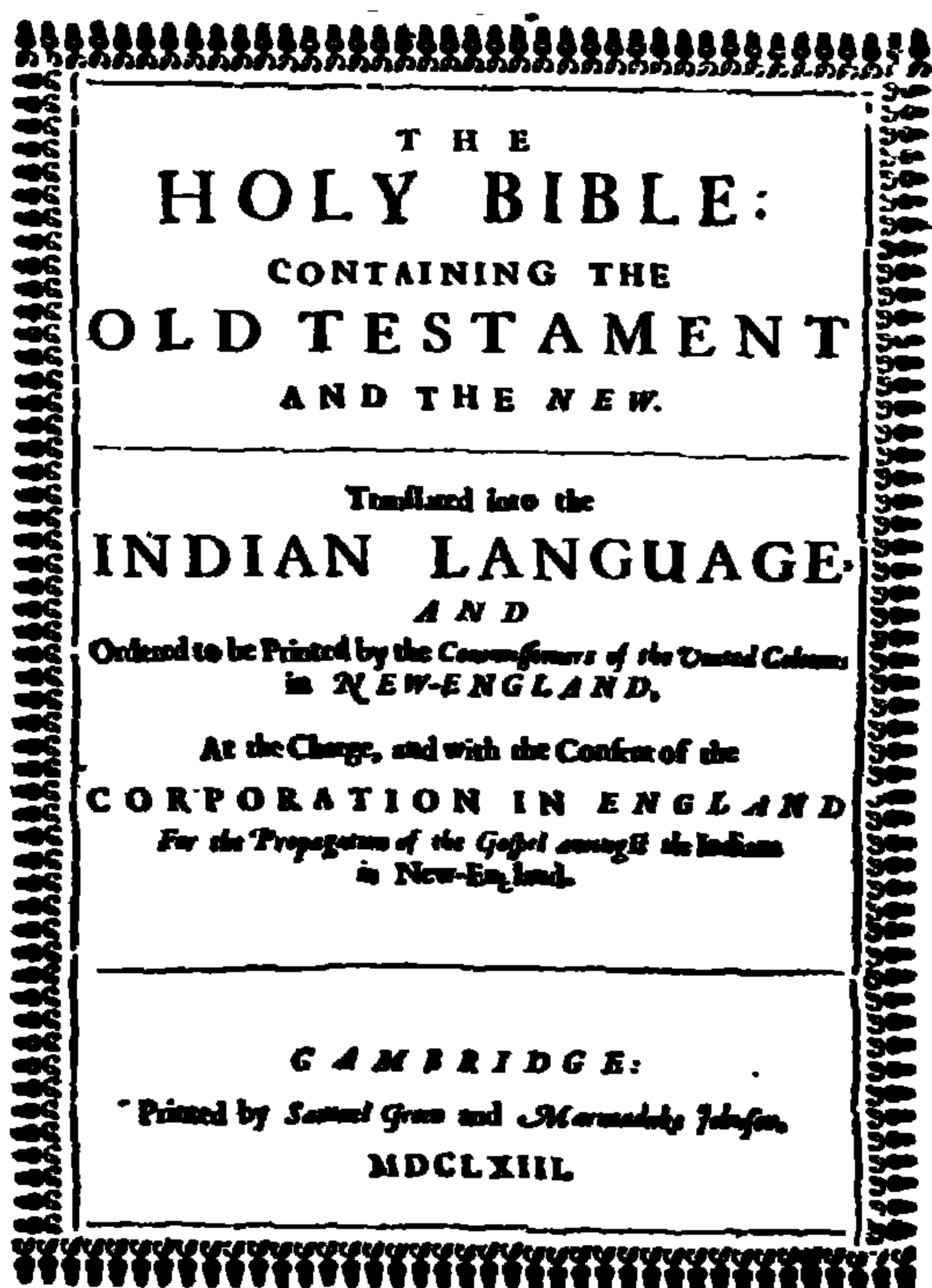


أمشاط علي شكل عرف الديك، وأشياء زخرفية أخرى، دقيقة الصنع، أكتشفت في مواقع بناء الاستحكامات في هوبويل *Hopewell*، كانت تصنع قبل مجي الأوربيين ببضعة قرون.



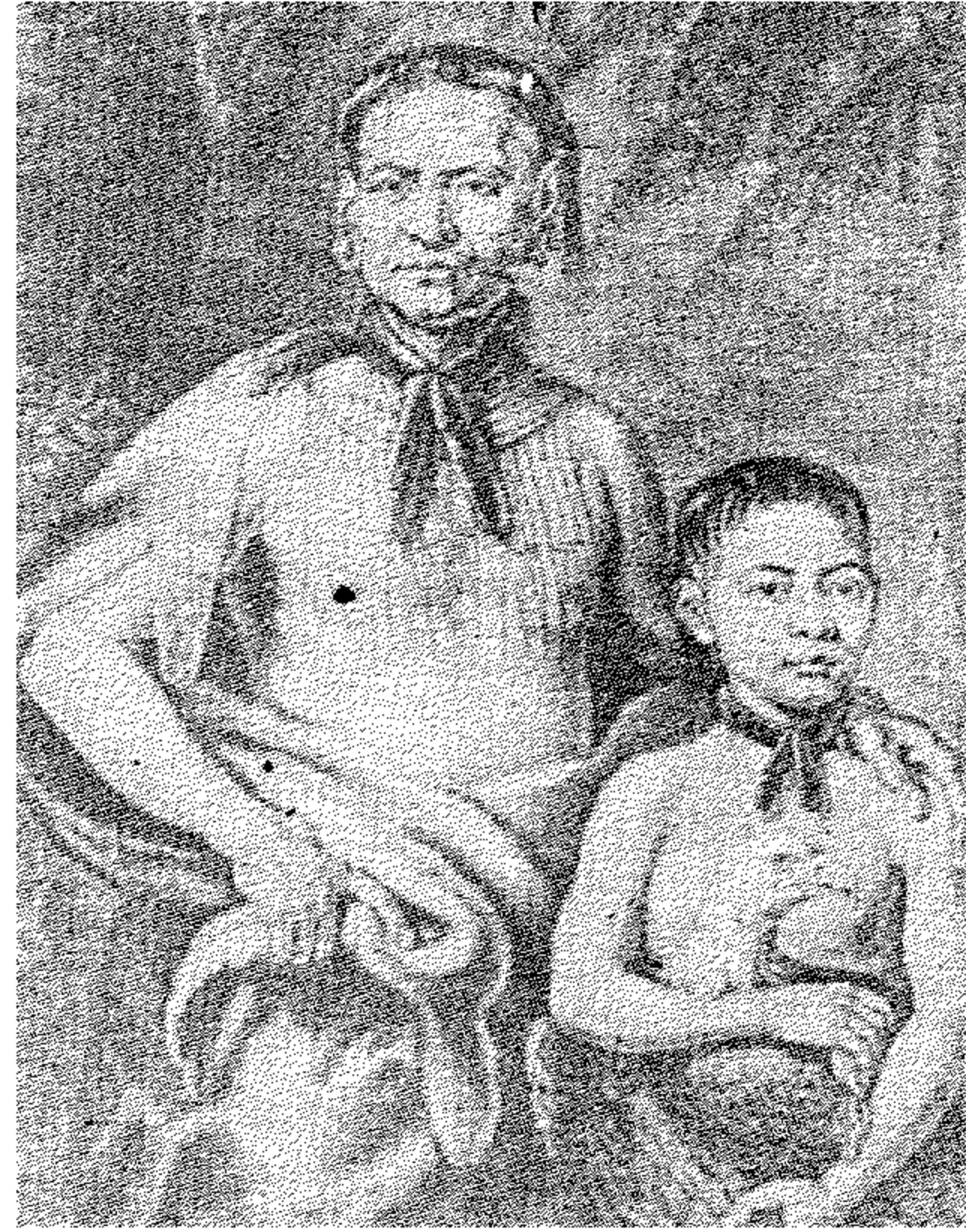


للترجمة الألفونكية للإنجيل، جزء من محاولات جون إليوت لتصير هنود انجلاند الجنوبية، ولم يكن
 أداة دينية فقط، بل أيضاً، جزءاً من تحقيق السيادة السياسية لليوروبيين.





لابوينزا Lapowin، زعيم من الديلاوير. جلس
لهذه الصورة سنة ١٧٣٥، وبعدما بسنتين
تنازل عن قطعة أرض شاسعة لأبناء وليام
بن William Penn.



توموتشيتشي tomochichi، الذي ولد قبل أن
يضع أول إنجليزى قدمه فى كارولينا. وهو يجلس
لرسمه مع ابن أخيه عام ١٧٣٤.



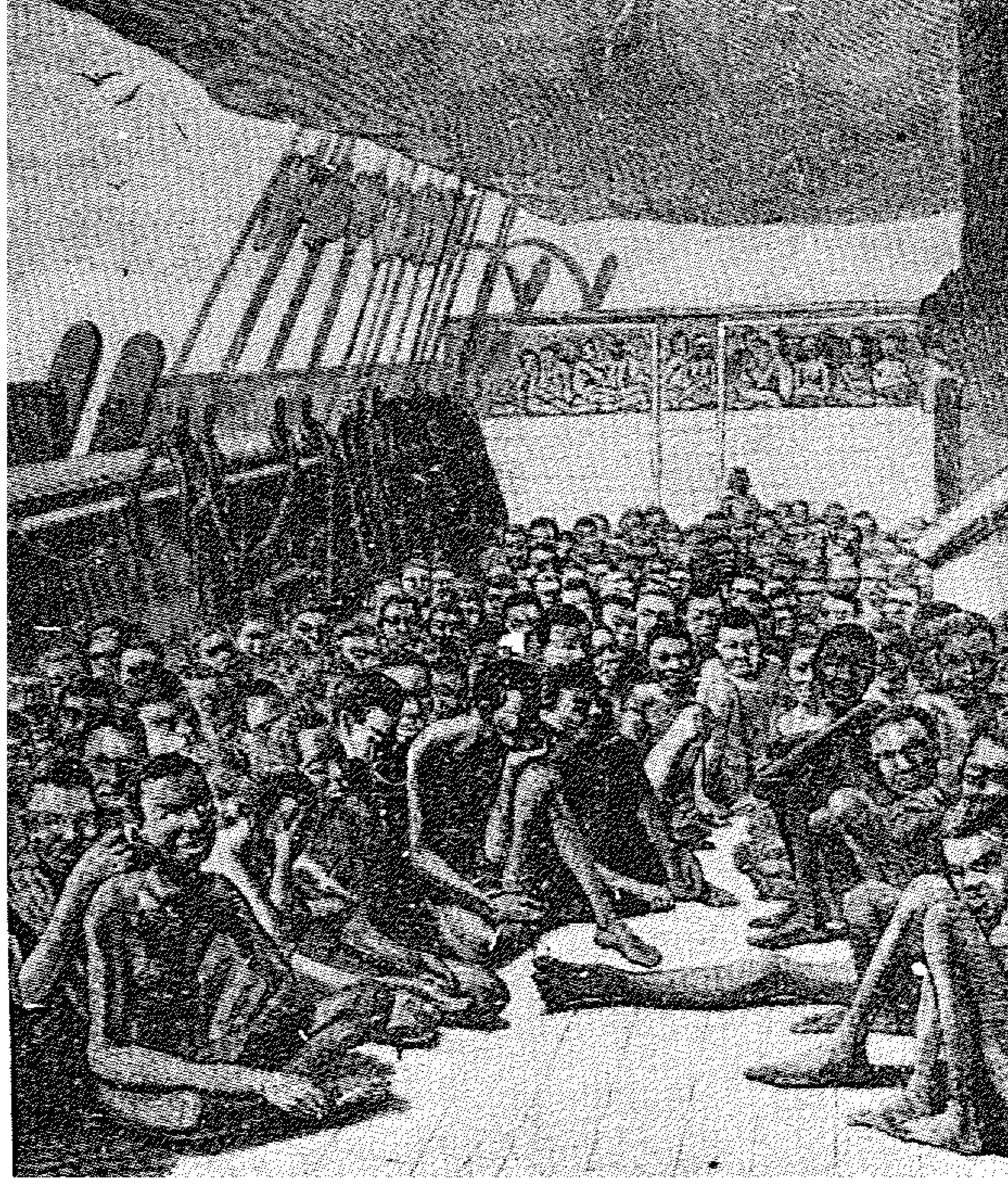
زار هؤلاء الزعماء من الشيروكى لندن بصحبة
ضابط إنجليزى بعد حرب الشيروكى ١٧٦٠ -
١٧٦١ / (مؤسسة وليامزيرج الاستعمارية، قسم
المجموعات التذكارية).



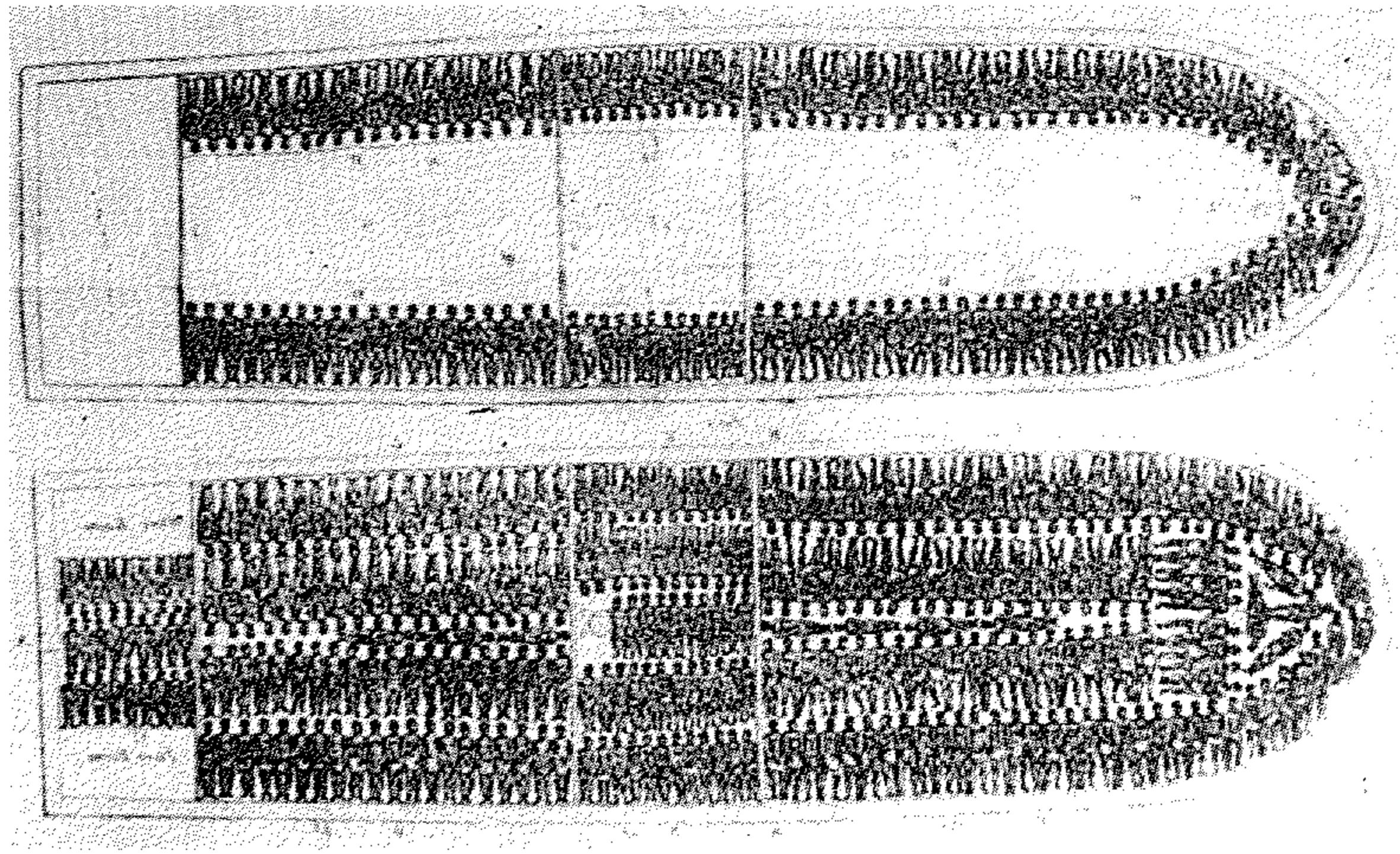
الهنود أكلة لحوم البشر، (فكرة) وجدت أساساً في أذهان الأوروبيون، إلا أن مثل هذه الصورة التي رسمها تيودور دي براى *Theodor De Bry* قد لعبت دوراً في تصوير الهنود على أنهم «متوحشون».



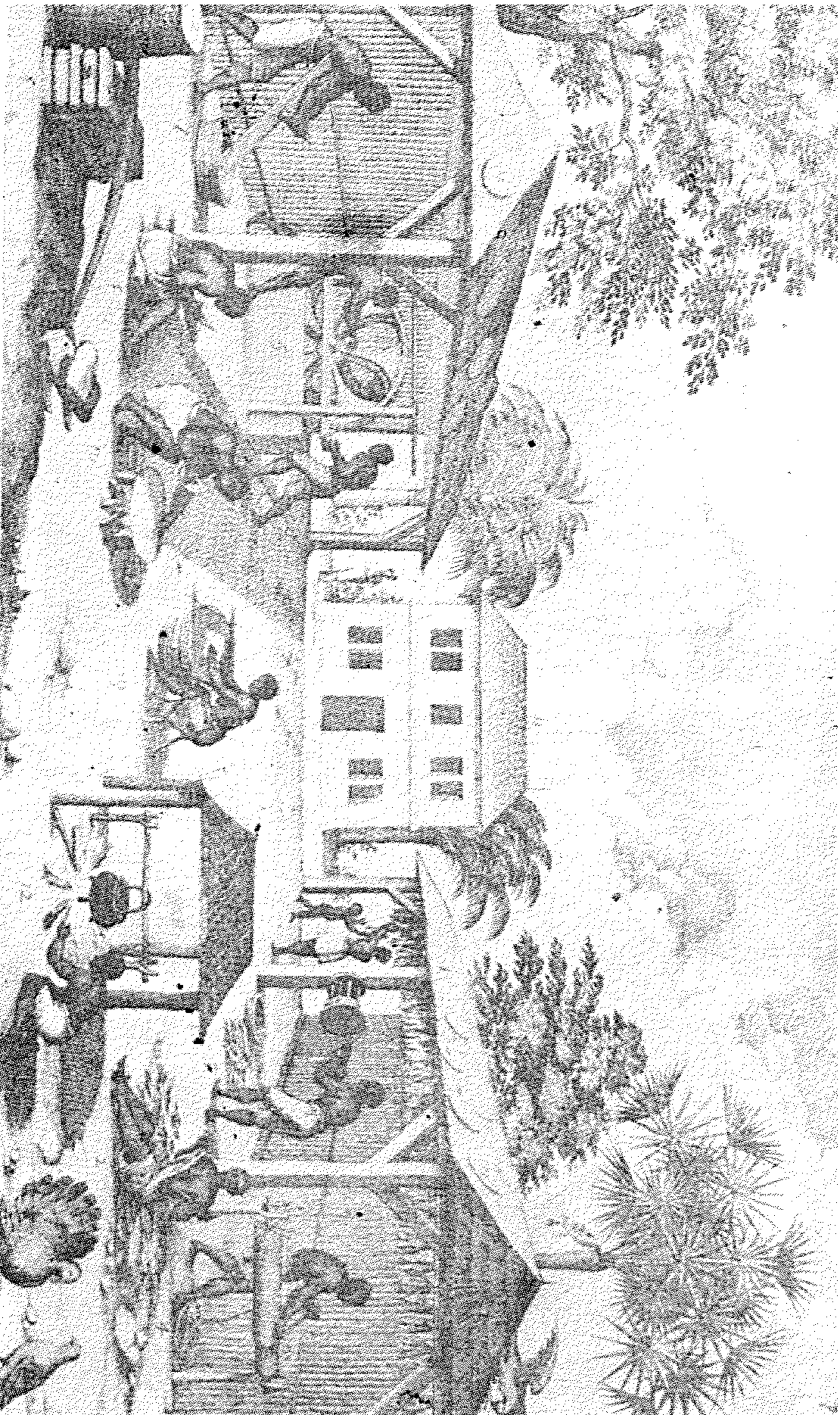
قام هذا الزعيم من الموهوك برحلة إلى إنجلترا سنة ١٧١٠. ليتفاوض مع الحكومة الإنجليزية، كما قام حفيده جوزيف برانت *Joseph Brant* بنفس الرحلة بعد ٦٥ عاماً، واشترك مع الانجليز في الثورة الأمريكية.



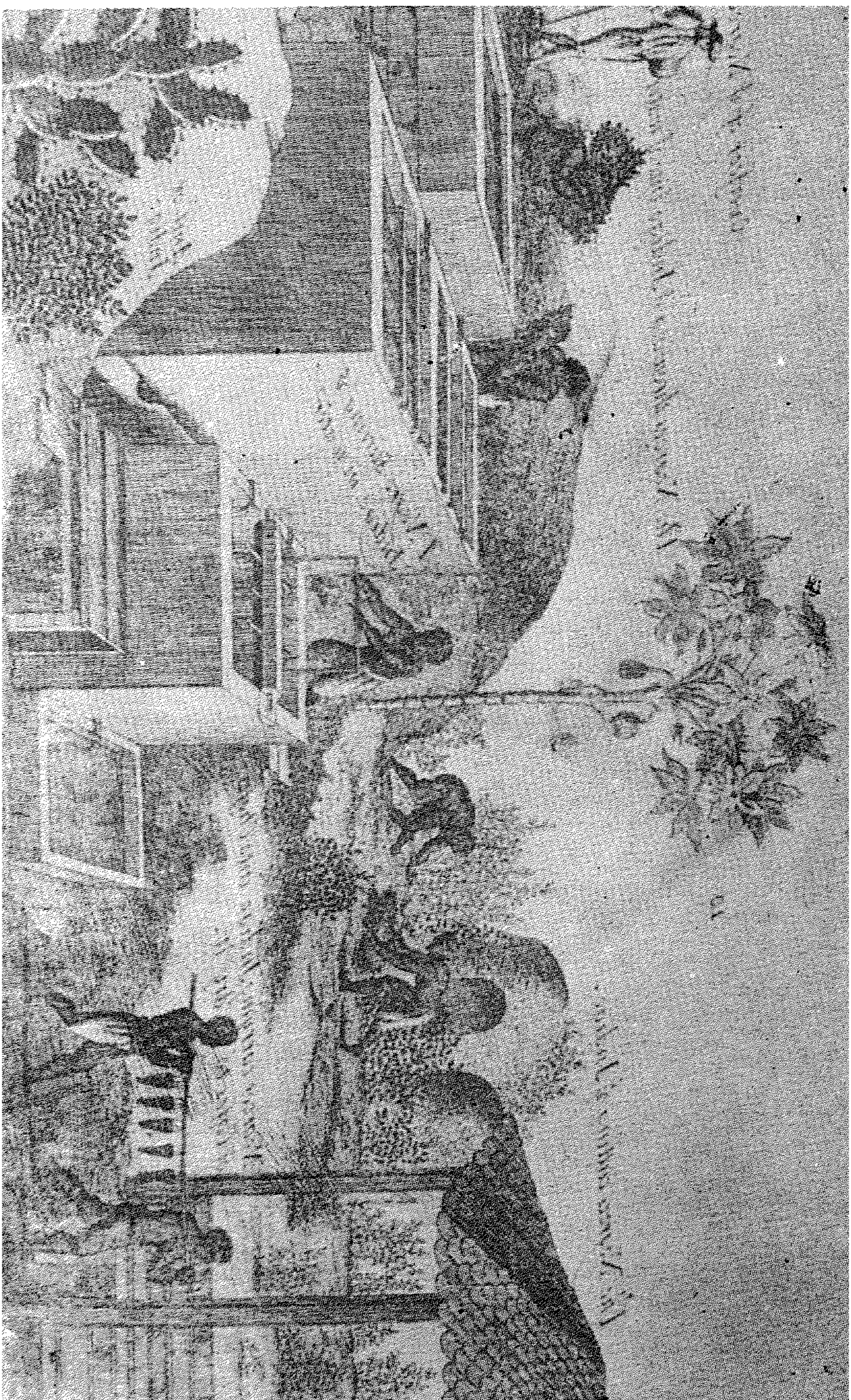
كان أكبر جزء من صدمة العبيد، في عملية التكيف الحضارى مع الحياة الاستعمارية الأوروبية هو ذلك الجزء من الرحلة الذى يمرون فيه «بعروض الخيل».



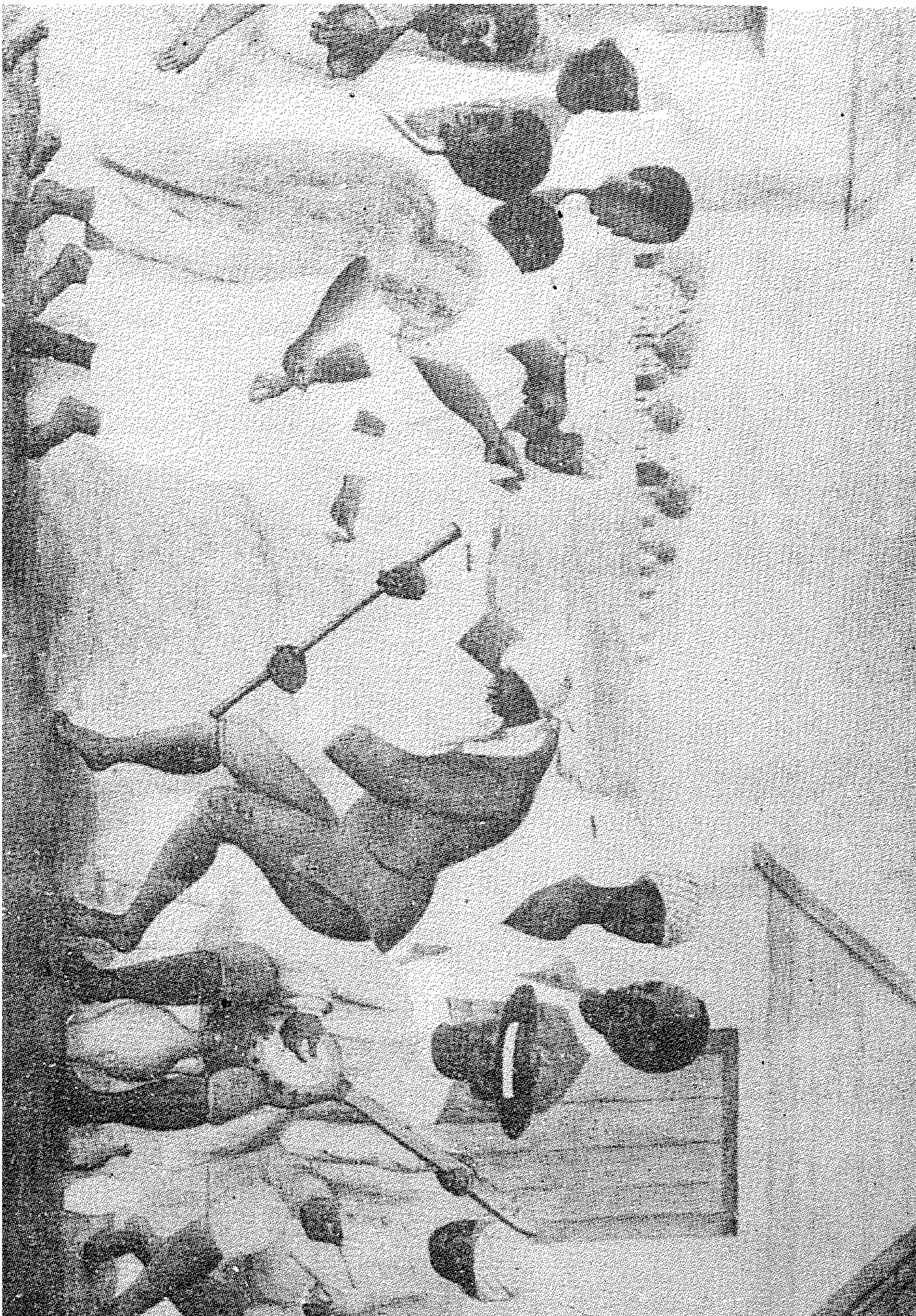
تتنافس مهندسو العمارة البحرية الأوروبيون فى تصميم سفن تستوعب أكبر ما يمكن من شحناتهم البشرية، إلى العالم الجديد، وأكثرها ربحاً.



وضعت زراعة التبغ على يد الأمريكيين الأفارقة، الأساس للاقتصاد الواحد، المبشر في منطقة تشيزابيك في القرن الثامن عشر



انماج النبيلة الذي كان عمل المبيد في المقام الأول، كانت له الأهمية العظمى في تكوين الثروة في كارولينا الجديدة في القرن الثامن عشر.



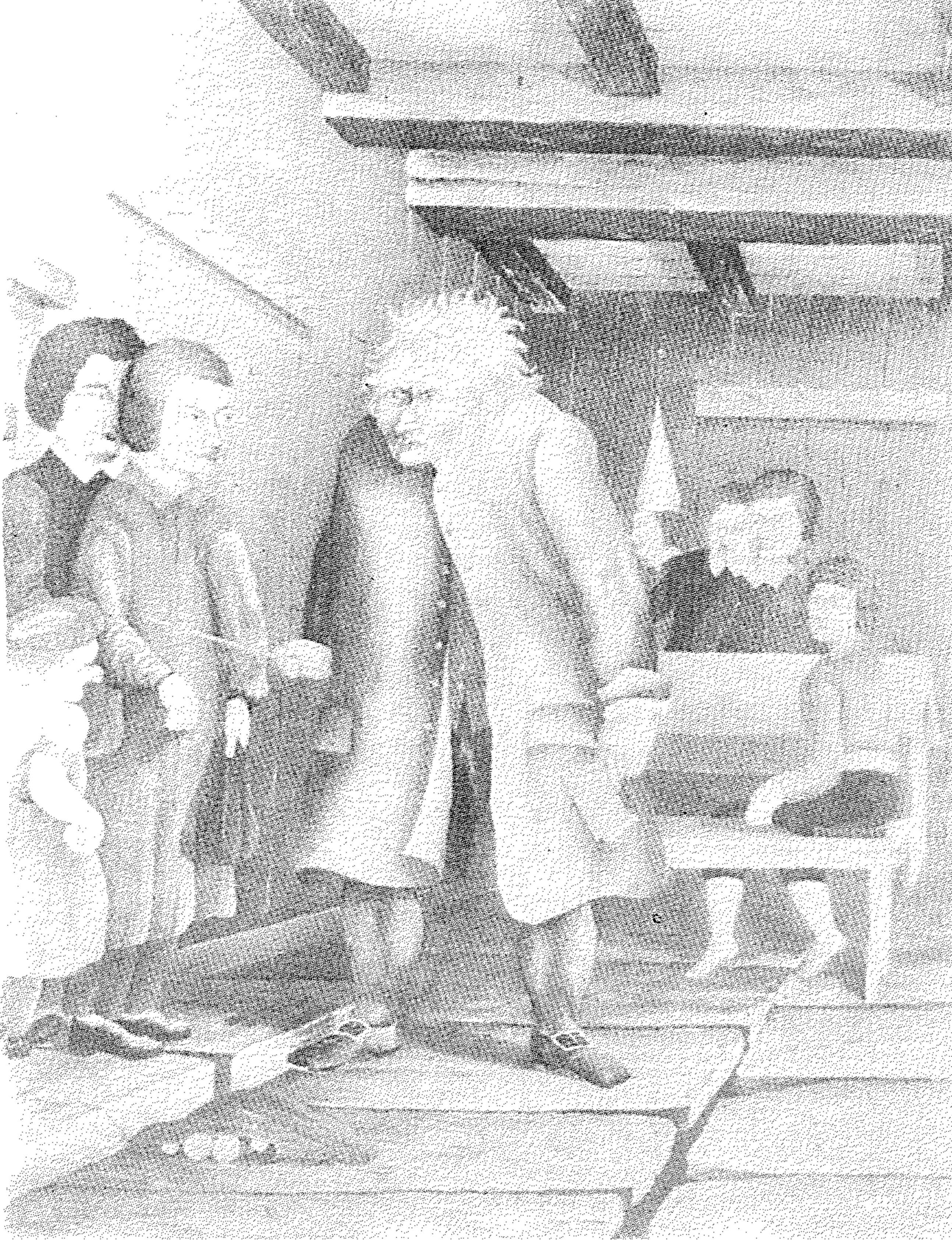
صورة زليخة من كارولينا الجديرة، تبين الاحتفاظ بأشكال الحضارة الأفريقية في أمريكا الشمالية. ويعتقد أن الرقص الدينى (غير المدنى) مصدر اليوريا، كما يوضح من الآلة الوثنية والطيلة.



الكويكرز في المصلى، يعبرون في حرية ودون خوف ضد الرق واستغلال الهندود. وعلى خلاف غيرهم من البروتستانت يسمحون للنساء بدور مساو، تقريبا في المسائل الدينية.



مدينة بوسطن سنة ١٧٦٤ تبدو مزدهرة، ولو أنها تعرضت بعدها بقليل لحريق مدمر، وتعانى تدهورا اقتصاديا. (بإذن من جمعية بوسطن مبنى المجلس التشريعي القديم).



هذه الصورة لناظر مدرسة من القرن الثامن عشر، خير شاهد على أن التخويف والعنف كانا عنصريين رئيسيين في المفاهيم الأوروبية عن تنشئة الأطفال وتربيتهم.

الفصل العاشر

حروب تكوين الامبراطورية ، والاستراتيجيات الهندية للبقاء

فيما بين سنتي ١٦٧٥ ، ١٧٦٣ ، قامت ثلاث قوى أوربية : فرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا ، بتوظيف الحرب والدبلوماسية في صراع متطور من أجل التجارة والأرض ، في تلك المساحة الشاسعة بين نهر المسيسيبي والمحيط الأطلنطي ، وفي مياه الكاريبي . ولما كانت كل من التجارة والأرض التي يتشوقون إليها في أمريكا الشمالية ، تقع في يده القبائل الهندية ، لذا كانت هذه القوى الثلاث على اتصال دائم ووثيق بزعماء المجتمع الهندي . ولقد نسيت كتب التاريخ عندنا ، الى حد بعيد ، بل ما كان واضحا بشكل جلي خلال هذه الفترة ، أن السلطات الأوروبية قد بذلت دقتا طويلا ، وجهدا جهيدا ، سواء في أسبانيا الجديدة ، أو فرنسا الجديدة ، أو إنجلترا الجديدة ، أو في أي مكان آخر في المستعمرات الأوروبية ، في المفاوضات والتجارة والحرب مع أو ضد الهنود من مختلف الثقافات أو الحضارات ، وفي ارسال التقارير ، والالتماسات ، والشكاوى الى الحكومات في الوطن الأم بخصوص الشئون الهندية . وأصبح المسئولون عن شئون المستعمرات في مدريد ، وباريس ، ولندن يعرفون عن السكان الهنود في الأقاليم التي يطالبون بها تماما مثلما يعرفون عن سكان مستعمراتهم .

وفي هذا الصراع الثلاثي على القارة ، يسهل أن نتصور أن الهنود الحمر كانوا مجرد البيادق الضعيفة في لعبة الشطرنج التي يرغب الأوروبيون اللعب بها على لوحة القارة ، ثم ينتهي الأمر بها الى ازاحتها جميعا خارج اللوحة . وهذا المنظر هو جزء من أسطورة القوة الحضارية والعسكرية الساحقة للمستعمرين ، واذعان الهنود عند التقائهم بها . الا أنه بولغ كثيرا في قوة الأوروبيين ، وأبخست قوة المجتمعات الهندية المحلية . ولزيادة الدقة ، يجب القول بأن الحضارات الهندية بالداخل لم تتبادل في التورط في المحاولات المعقدة بين القوى الأوروبية المتنافسة ، فقط ، بل ولعبت أيضا دورا نشطا وفعالا في نمو الأحداث وتطورها .

فقد عجز الهنود عن ارجاع الساعة الى الوراء ، أو ازالة الأوروبيين والقائم في البحر ، لكن القبائل الداخلية كانت على العكس ، أقوى بكثير من قبائل الساحل الأضعف منهم والأقل سكانا ، الذين لم يجدوا وسيلة لمقاومة الغزاة أو التشبه بهم ، لذلك استطاعت القبائل الداخلية أن تتفاعل مع الأوروبيين بصورة مختلفة تماما . وساعد الهنود ، خلال القرن الثامن عشر على تشكيل تاريخهم الخاص . ونظرا لاثارة القوى الأوروبية ضد بعضها وانقسامها فيما بينها ، لم يجدوا من الوسائل للتغلب على القبائل الداخلية الا قليلا ، واضطروا الى الاعتماد على التحالف مع الهنود ، حفاظا على أنفسهم ، ولو في المناطق المحدودة التي احتلوها . ولما أدركت الشعوب الهندية ضعف الأوروبيين أخذوا المبادرة ، وجنوا الكثير نظير تأييدهم ومساندتهم . ورغم كونهم الخاسرين في النهاية كان التفاعل معهم سلاحا ذا حدين فعلا . اذ استغل الأوروبيون الهنود لتعزيز قوتهم ، وكذلك فعل الهنود بالأوروبيين بنفس الدرجة .

وفي النهاية ، اذا نظرنا الى المنافسة الأوروبية الاستعمارية من وجهة النظر الهندية يمكننا أن نفهم حقيقة طبيعة الاحتكاك بين الحضارات في أمريكا الشمالية . فعلى سبيل المثال ، بينما كان الحكام الأوروبيون والبيروقراطيون الاستعماريون يدبجون ملايين الكلمات على الورق ، ويحركون الجيوش والأساطيل عبر ثلاثة آلاف ميل ويشغلون آلاف الأشخاص في صناعة السلع الهندية وشحنها ، كان الايروكوا ، سكان الغابات غير المتعلمين ، والذين لا يزيد عددهم عن ٢٥٠٠ محارب ، ١٢٠٠٠ فرد يسعون بدهاء وراء مصلحتهم الشخصية ، ويشكلون الأحداث في أمريكا الشمالية . وقد كتب المؤرخ الفرنسي لا بوتاري La Potharrie سنة ١٧٢٢ : « انه لمن المستغرب أن يتمكن ثلاثة أو أربعة آلاف نفس من جعل عالم جديد يرتعد بالكامل . ان نيوانجلند محظوظة جدا لاستطاعتها البقاء في حظوتهم . أما نيو فرانس فهي في كآبة دائمة بسبب حروبهم ، ويشعرون بالخطر عبر مسافة تزيد عن ١٥٠٠ فرسخ (*) من بلاد حلفائنا » (١) . وقد حذر « خبير » من الجيل التالي ، حاكم نيويورك ، « من أن أي جانب يقف الهنود (الايروكوا) به ، لابد أن يميل الميزان فيه لصالحهم » (٢) .

كانت استراتيجية فرنسا ، بعد تولي لويس الرابع عشر العرش ، سنة ١٦٦١ ، أن يقيم امبراطوية داخلية في أمريكا الشمالية ، تطوق الانجليز وتثبتهم على الساحل . ووضعت نيو فرانس (فرنسا الجديدة)

(*) الفرسخ : مقياس للطول يتراوح بين ٢٤ ، ٢٦ من الميل - (المترجم) .

تحت الاشراف الملكي سنة ١٦٦٣ ، وأرسل ألف جندي الى المستعمرة بعد ذلك بعامين ، وبدأت حركة سياسية علوانية للتوسع فى الأرض وبداية ثمانينات القرن السابع عشر ، لم تكن فرنسا قد أحكمت قبضتها فى وادى نهر سانت لورانس فقط ، بل وأقامت سلسلة من القلاع والمحطات التجارية على قوس يحيط بشمال وغرب المستوطنات الانجليزية احاطة شبه كاملة . وقام الفرنسيون برحلات استكشافية سريعة على طول الطريق مع نهري الينوى والميسيسبى ، وخلال عشرين سنة أخرى ، كانت الحصون والمحطات التجارية قد ظهرت فى موبيل Mobile ، وبيلووكسى Biloxi على خليج المكسيك وعند ذلك وجد تجار العبيد والجلود أنفسهم يواجهون منافسين جددا فى تلك المنطقة الشاسعة من الميسيسبى الأدنى ، التى سبق أن ادعوا ملكيتها من قبل .

ان أحلام السيطرة الأوروبية التى تسلطت على فكر لويس الرابع عشر وأقلقته ، جرت كل القوى الكبرى فى سلسلة من الحروب الشاملة التى شغلت معظم الخمسين سنة ، فترة حكمه . وقد اصطنع الملك الفرنسى حرباً أوروبية مرتين فيما بين سنتي ١٦٦٥، ١٦٧٥ لكى يهاجم آل هابسبرج المنافسين له فى أوروبا . ونجح فى أولى هذه الحروب فى قهر الأراضى المنخفضة (هولندا) الأسبانية . ولكن فى آخرها ، اتحدت قوى البروتستانت فى أوروبا ضده ، ادراكاً منها للخطر الناهم على ميزان القوة فى أوروبا ، والذى يعتمد عليه كل فرد فى حفظ السلام . وبعد عقد آخر ، ابتداء من سنة ١٦٨٨ ، تحرك لويس مرة ثانية ، ودار أولاً على أقرب جيرانه وأضعفهم ، أرض الراين الألمانى ، وفى نفس الوقت رمز الى تصميمه على سحق أوروبا البروتستانتية بطرده جميع البروتستانت من بلاده ، فهاجر معظم هؤلاء الهوجونوت Huguenots (*) الى انجلترا ومستعمراتها فى أمريكا . وقد جلبت حروب أوروبا الحرب الى أمريكا ، وكان لابد أن تتصادم جيوش وأساطيل فرنسا وانجلترا فى كل مكان فى العالم ، بعد اصطدامها معاً فى كل من انجلترا وفرنسا نفسيهما طوال الخمس والعشرين سنة التالية .

لقد اكتشف الانجليز والفرنسيون فى أمريكا فى الحربين اللتين وقعتا بين سنتي ١٦٧٩ الى ١٦٨٩ ، وسنتي ١٧٠١ الى ١٧١٣ ، الصعوبات الهائلة لجرد جعل قواتهم العسكرية تصطدم ببعضها فى قفار شاسعة لا تصلح لحرب العصابات بسبب ظروف الطقس والأمراض والنقل والتموين . وقد قام الانجليز بمحاولات ثلاث لضرب مراكز القوة الفرنسية

(*) الهوجونوت هم البروتستانت الفرنسيون - (المترجم) .

– فى بورت رويال ، ونوفاسكوشيا اللتين تتحكمان فى مصب نهر سانت لورانس ، وكويبك فى وسط نيوفرانس • وخلال حرب تحالف أوجسبرج ، سنة ١٦٩٠ ، استولوا على بورت رويال ، الا أن انقضاضهم على كويبك كان كارثة عليهم بمعنى الكلمة • وقد شنت ماساشوستس فى الحرب الثانية حملة لاقتحام بورت رويال ، لكنها تعثرت وفشلت سنة ١٧٠٧ • بل انه ، عندما بعثت انجلترا بأسطول صغير من ستين سفينة وجيش من خمسة آلاف رجل سنة ١٧٠٩ تعثروا قبل الوصول الى أهدافهم ، ولم يستفد من هذه المحاولة الشائنة سوى تجار بوسطن المتعاقدين على الامداد والتموين •

بهذا الفشل المطبق للحرب على الطريقة الأوروبية ، حاولت كل من انجلترا وفرنسا أن تعهد الى حلفائها الهنود بالمهام العسكرية ، من الباطن ، وقد نجحوا فى ذلك من حين لآخر ، خاصة مع الفرنسيين الذين لم يمانعوا فى الزج بقواتهم الخاصة بهم مع حلفائهم الهنود فى النزاع ، فأبديت شينيكنادى Schenectady ونيويورك فى فبراير سنة ١٦٩٠ ، كما سويت بالأرض كل من ويلز ، وماين ، وديرفيلد Deerfield سنة ١٧٠٤ ، وآمنت مدن أخرى على طول حدود نيوانجلند بقوة الهجمات الفرنسية الهندية ، ولم يستفد الانجليز من ضغوطهم المتكررة على الايروكوا ليهاجموا أعداءهم ، فقد كان الايروكوا يتركون تماما الانقسامات الداخلية التى تمزق نسيج المجتمع الاستعماري الانجليزى والتى بدت واضحة جدا سنة ١٦٨٩/٨٨ فى مستهل حرب حلف أوجسبرج ، عندما وقف الانجليزى فى وجه الانجليزى فى حركات عصيان داخل فى ماساشوستس ، ونيويورك ، وميريلاند • وحتى عندما هدأت الخلافات داخل المستعمرات ، لم تسمح العداءات بينها الا بتعاون هزيل ، وهو ما كان لابد أن تفضى اليه تركة الحكام الملكيين واداريى المستعمرات الذين أرسلوا من لندن • كل ذلك لم يكن سرا على الايروكوا ، فلما كانوا يستشارون لمحاربة الفرنسيين فى سنة ١٦٩٢ كان ردهم السريع :

انكم تستحثوننا يوميا كى نصارب أعداءكم ونلهمهم ، وتأمرؤنا أن نستمر فى شجاعة ، ولكننا نراكم لا تفعلون شيئا من جانبكم ، ولا نرى لكم أية قوة تواجهون بها العدو اذا اقتحم عليكم ، ولا نسمع عن عمل جليل يمكن أن تؤدوه فى البحر ، فلم نسمع بشئ من ذلك • ان الحرب يجب أن تكون ساخنة ومتواصلة أيضا من جانبكم ، وكل ما نجده هو ان جيراننا من نيوانجلند ، وبقية الانجليز المتعاهدين على العمل معنا يلزمون جميعهم البيوت ، ويحثوننا لاداء المهمة (٣) •

دبلوماسية الايروكوا :

لم ينجح الانجليز - على حد سواء - فى محاولاتهم للفوز بالاعتراف بالسيادة الانجليزية بعيدا عن حلفائهم المزعومين . وقد حاولت سلسلة الحكام الملكيين فى نيويورك أن يستعملوا تعبير « الأب » و « الأبناء » فى مفاوضاتهم مع الايروكوا . وهذا الأسلوب اللغوى ، الذى دل دلالة مؤكدة على مركز الأمة الهندية الضعيف ، قد قبلته قبائل نهر هدسون ، بعد ما عانت من خراب فى حروبها مع الهولنديين والانجليز فيما بين سنتى ١٦٤٠ ، ١٦٨٠ . الا أن الايروكوا لم يكونوا بحاجة الى قبول هذا اللفظ الدال على الخضوع . فهم « لم يكونوا رعايا » كما يقول مؤرخ حديث « بالرغم من تحالفهم مع نيويورك سياسيا ، وعدم استقلالهم اقتصاديا الى حد ما ، كانوا يصرون باستمرار على أنهم (أحرار) ، ويطالبون بحكام نيويورك بمناداتهم (بالاخوة) » (٤) . ومع براعة الأوروبيين فى لعبة تحريف الكلمات ولها كى يختلط المظهر بالمخبر ، اضطر الايروكوا الى الاعلان باستمرار مثلما صرحوا سنة ١٦٨٤ « اننا وضعنا أنفسنا تحت الساشم العظيم تشارلز الذى يعيش على البحيرة العظمى » ثم يكملون حديثهم بالتذكير « بأننا شعب حر ، نوحده أنفسنا مع الزعيم الذى نرتضيه » . بعد هذا الاعلان بقليل ، والذى وجهوه الى الانجليز ، أوضحوا للفرنسيين فى جلاء « أنفسنا ولدنا أحرارا ، لا نعتمد على يونونديو Yonondio حاكم نيوفرانس ، ولا على كورلاير Corlaer حاكم نيويورك . نحن نستطيع أن نذهب حيث نشاء ، ونرافق من يعجبنا ، ونبيع ونشتري ما يحلو لنا » (٥) . وكان التحالف مع الانجليز ، بالنسبة للايروكوا فى الثمانينات من القرن السابع عشر جزءا من لعبة الدبلوماسية فقط ، وليس أكثر من وعد مؤقت بالتأييد يمكن نقضه فى أى وقت .

ولا يوحى ذلك بأن الايروكوا لم يتورطوا أو ينهمكوا فى الصراع الأنجلو - فرنسى من أجل تكوين امبراطورية . فقد كانوا كذلك حقا . الا أن وقوعهم فى هذه الشباك لم يكن بتوجيه من الانجليز أو الفرنسيين أو بوضعهم أيا من أهداف القوى الأوروبية فى الاعتبار . فقد أجرى الايروكوا حساباتهم ، واتخذوا قراراتهم الخاصة داخل مجالس العشائر الخمس المركزة فى أونوندياجا . فهنا ، صارع ممثلو العشائر الخمس مشكلة تطلبت منهم كل مهارة دبلوماسية وقوة عسكرية فى النصف الأخير من القرن السابع عشر ، وهى كيف يحافظون على وضع الايروكوا كوسيط فى تجارة الفراء بين المنطقة الشمالية من البحيرات العظمى وأسواق الفراء فى البانى ومونتريال . فلم يكن كافيا تدمير هورونيا Huronia فى المنطقة الشرقية للبحيرات العظمى ، لأن الايروكوا كانوا لا يزالون مضطرين لمنع

القبائل الأبعد ، وهي الأوتاوا ، والنيبسينج Nippissing ، والسيوكس Sioux من المتاجرة مباشرة مع الفرنسيين الذين أقاموا محطات تجارية في مساحة شاسعة يحدّها تقريباً خليج هدسون شمالاً ، وواي أوهايو جنوباً ، لذلك ، ساء الايروكوا ، بعد انتهاء حروب الهورون سنة ١٩٥٦ في الأنهار التي تؤدي الى مونتريال ، وأقاموا كمائن للقوارب المستطيلة الخفيفة التي جاءت في أساطيل صغيرة عندهم صيدهم السنوي لحيواني القندس والقضاعة . وفي نفس الوقت الذي مارس فيه أعداء أسبانيا الأوروبيون قرصنتهم في البحر ليعيدوا توجيه الذهب والفضة المستخرجين من المكسيك وبيرو الى لندن وباريس ، انهمك الايروكوا في القرصنة عند الطرق المائية في الجزء الشمالي من القارة وذلك لتحويل الفراء من مونتريال الى الباني ، وبالتالي من باريس الى لندن في آخر الأمر .

كانت المشكلة بالنسبة لفرنسا هي كيف تحمي روابطها التجارية مع القبائل الغربية ، وقد ثبت استحالة الأخذ بأي من الخيارين اللذين جربتهما كحل للمشكلة وهما : إبادة الايروكوا ، أو التحالف معهم . أما بالنسبة للايروكوا ، فكانت المشكلة هي الحفاظ على قوة بشرية كافية لاستمرار اعتراض طريق الفراء الغربي ، بينما يبدون أعداء لهم أمثال السسكيهانوك الى الجنوب ، أو الشاوني الى الجنوب الغربي . وفي النهاية ، كان التحالف طبيعياً بين ممولى أوتاوا ، وسماسرة الايروكوا ، والمشتريين من الباني . وقد أدت الأسعار المرتفعة التي قدمها الانجليز ثمناً للفراء والبضائع الجيدة من الصوف الانجليزي ، وارتفاع نسبة الكحول في مشروب الروم الانجليزي الى زيادة الرغبة في تجارة الباني أكثر من تجارة مونتريال .

أدرك الفرنسيون مدى النكبة التي يجريها التحالف بين أوتاوا والايروكوا على نيوفرانس ، لذلك قضوا الثلث الأخير من القرن السابع عشر في محاولات لتمزيق هذه المشاركة التجارية . فشّن الفرنسيون الموجودون في بلاد الايروكوا هجمات متقطعة من حين لآخر ، كانت تنتهي بحرق قرى العدو الهندي ومؤنه ، عندما يفشلون في قتاله . وكانت هذه الغزوات تنجح أحياناً ، كما حدث سنة ١٦٦٦ ، عندما التمس الايروكوا السلام ، ودعوا المبشرين الفرنسيين الى مدّهم ليرشدوهم الى « الطريق الصحيح » - الأمر الذي حافظوا عليه بمهارة . ولكن حينما أثبتت لهم حساباتهم أن الوقت قد حان ، خاصة بعد هزيمة السسكيهانوك سنة ١٦٧٥ وانساجهم في قواتهم المحاربة ، كان لابد للايروكوا أن يقتلعوا المبشرين الجزويت ، ويسلحوا ضربات مدمرة لمراكز القوة الفرنسية . فغزت العشائر الخمس سنة ١٦٨٠ اقليم الينوي ، ودمروا القرى والحصون

الفرنسية ، واستولوا على القوارب الفرنسية الطويلة الخفيفة والفراء في الطرق النهرية المؤدية الى الشرق . وكرروا الهجوم سنتي ١٦٨٤ ، ١٦٨٩ . ولم يكن الهجوم في السنة الأخيرة اشباعا لرغبة الانجليز العائدين حديثا لمحاربة فرنسا ، بل لأسباب داخلية تتعلق بالايروكوا ، خاصة للرد على الاعتداءات الفرنسية في بلاد السينيكا سنة ١٦٨٧ .

لقد استطاع الفرنسيون ، من وقت لآخر ، أن يستفيدوا من المساواة المحدودة من الأوتوا وبقايا الهورون في هجماتهم على الايروكوا . ولكن هذه القبائل الغربية كانت تدرك تماما أن حليفها الطبيعي هو من يدفع في سلعهم أفضل الأسعار . وعلى ذلك ، أيدوا الفرنسيين ، بما يكفي للمحافظة على رضائهم ، ولكنهم لم يلزموا أنفسهم مطلقا بمحاربة الايروكوا ، ولم يظهروا لهم ، في الحقيقة ، في الأعم الأغلب ، سوى مظهر العداء . وهم بذلك يعملون وفق سياسة « نحن جميعا اخوة ، ويجب أن نكون جسدا واحدا ، ولا نملك سوى روح واحدة » . ويبررون ذلك بأن « الفرنسيين يدعوننا للحرب ضد الايروكوا ، وهم يرغبون في استغلالنا لنتخذونا عبيدا لهم . فبعد أن يساعدنا في تدمير العدو ، سيفعلون معنا ما يفعلونه بماشيتهم التي يربطونها في المحراث لتفزع لهم في الأرض . فلنتركهم يقومون بالمهمة وحدهم . ولن ينجحوا في هزيمة الايروكوا . وبذلك نكون سادة أنفسنا دائما » (٦) .

أصبح من الواضح ، لكل الأطراف ، بنهاية القرن السابع عشر ، أنه برغم التفوق العددي الكبير للانجليز على الفرنسيين ، لم يتمكنوا من هزيمة الكنديين لافتقاد الوحدة بين المستعمرات ، وعدم رغبة الحكومة في الوطن الأم في مددهم بالقوات العسكرية . واتضح أيضا أن الفرنسيين كانوا عاجزين سواء عن تدمير الايروكوا لافتقارهم الى القوة العسكرية أو تشكيل أي حلف معهم لمعاناتهم من المنافسة في تجارة الفراء التي تمنعهم من ذلك ، كما تبين أن الايروكوا يحتفظون بوضع جغرافي استراتيجي في الجزء الشمالي من القارة . ولكن بالرغم من نجاح الايروكوا ، والتأثير الواسع الانتشار على القبائل الجنوبية والغربية منهم ، إلا أنهم عانوا بشدة في تحقيق دور الوسيط في تجارة الفراء ، إذ أنهم بعد أن تلقوا ضربات موجعة من هجمات الفرنسيين في نهاية القرن السابع عشر ، أخذوا يبحثون عن وسيلة جديدة يتجنبون بها الحروب من أجل فراء القندس النفيس . وقد اتضح لهم ، ساعتها ، أنه لا يمكنهم تقريبا أن يتوقعوا شيئا من العون الحربي من حلفائهم الأنجلو أمريكي منذ أن أخلت حكومة نيويورك بوعودها المتكررة لهم .

جاء حل مشكلتهم سريعا وجزئيا ، ففي صيف ١٧٠١ دخلوا في مفاوضات مع كل من الانجليز والفرنسيين ، انتهت بتوقيع معاهدتين في وقت واحد تقريبا في مونتريال وألباني . وقد وعدوا فرنسا ، في احدهما بالحياد في أية حرب تنشب بينها وبين انجلترا مستقبلا . وذلك مكسب عظيم للفرنسيين الذين كان الايروكوا يزعمونهم ، وأصبح بإمكانهم الاعتماد على حيادهم . وبالنسبة للانجليز الذين فقدوا بذلك حليفا عسكريا ، نخلي الايروكوا عن أراضيهم الغربية الخاصة بالصيد ، والتي انتزعوها من الهورون قبل ذلك بنصف قرن . هذا النموذج البارع من الدبلوماسية يتضمن أن ولاء الايروكوا الأساسي كان لا يزال للانجليز . ولكن الأمر لم يخرج عن كونه تخليا صوريا عن الأرض ، لأنه لم يكن في وسع الانجليز أدنى قدرة على احتلال هذا الاقليم أو التحكم فيه ، خاصة وأن هذه الأراضي التي نحن بصددتها قد أعاد الفرنسيون ، في الواقع فتحها مؤخرا مع حلفائهم الواياندوت Wyandots . ولكي يكمل الايروكوا مفاوضاتهم للتسوية ، سألوا القبائل المجاورة لهم جهة الغرب .

سارت سياسة الايروكوا ، على نحو حسن لمدة نصف قرن تقريبا . ونحرت العشائر الخمس (التي أصبحت عشائر ستا ، بعد اضافة التوسكارورا) من الحروب من أجل فراء القندس النفيس ، وانهمكوا في دورهم كمتعهدين لتوريد الفراء ، وزادوا عددهم باستيعاب بقايا القبائل الساحلية التي أهلك الأوروبيون القسم الأعظم منها ، وعناصر القبائل الغربية التي هزمها الايروكوا أنفسهم ، من قبل . فمنذ أوائل القرن السابع عشر ، حينما كان الايروكوا يناضلون لفرض نفوذهم على قبائل منطقة البحيرات العظمى ، أصبحوا هم القوة السائدة في الغابات الشمالية الشرقية ، وقوة يحسب كل من الفرنسيين والانجليز لها حسابا . وبالرغم من أنهم لم يزدوا كثيرا عن سكان مقاطعة نيويورك وحدها في بداية القرن الثامن عشر ، إلا أن رغبتهم في الحرب ومهارتهم الدبلوماسية ووضعهم المهم ، الذي لا غنى عنه عبر طريق تجارة الفراء قد أعطاها مركزا بالغ الأهمية . ذلك المركز القوي الذي أشار اليه حاكم كويبك باحترام عندما كتب الى وطنه سنة ١٧١١ بوجوب تجنب الحرب مع الايروكوا بأي ثمن « لأن قسري [عشائر] الايروكوا الخمس يجب أن نخشاهم أكثر من المستعمرات الانجليزية » (٧) .

لم تمر سنة كاملة على عقد الايروكوا معاهدتهم في ألباني ومونتريال ، حتى نشبت حرب أخرى بين الانجليز والفرنسيين . ولكن ، بينما كان الفرنسيون وحلفاؤهم المحليون من الهنود الحمر يشعلون المدن على طول حدود نيوانجلند ، اكتفى الايروكوا على الخطوط الجانبية ، برؤية

التجارة الانجليزية والفرنسية يعصف بها . فقد كانوا يؤكّدون رأيهم أن الانجليز غير جديرين بالثقة أو الاعتماد عليهم كحلفاء عسكريين بسبب رفض نيويورك المجيء لمساعدة نيوانجلند . فالنيويوركيون ، خوفاً منهم أن تتعرض للخطر أرباحهم من تجارة الفراء ، وتجارتهم في السوق السوداء التي كانوا يمارسونها مع عدو الفرنسيين الكندي ، وضعوا التجارة في بالهم ، ويرى بعض المستولين في ماساشوسيتس ، أنهم كانوا يتاجرون فيما ينهبونه من المدن الخربة على حدود نيوانجلند . وكانت مساعدة الايروكوا الوحيدة هي ارسالهم لثلاثة من الموهوك وواحد من الماهيكان الى لندن مع شخصيتين بارزتين من نيويورك ، ليستعجلوا العون الانجليزي في الحرب ضد كندا . وعندما وصلوا الى لندن سنة ١٧١٠ ، قاموا بزيارة رسمية للملكة آن في القصر ، وتوقفوا عن برنامجهم بعد وصولهم ، وحضروا حفلة راقصة قاصرة على الرجال فقط في الحديقة الملكية ، يتسابعهم حشد من المهتمين بهم أينما ذهبوا .

وفي ختام حرب الملكة آن سنة ١٧١٣ ، منحت معاهدة صلح أوترخت Utrecht ، فيما يبدو ، مكاسب جوهرية للانجليز في أمريكا الشمالية نزولا على طلبهم . فتخلت فرنسا لانتجلترا عن نوفا سكوشيا ، ونيوفوندلاند ، وخليج هدسن ، واعترفت بسيادة الانجليز على الايروكوا . (لم يحدث هذا التنازل من الايروكوا) وسمحوا للتجار الانجليز بفتح تجارة مع القبائل الغربية التي كانت مقصورة على الفرنسيين من قبل . الا أن التنازلات المكتوبة على الورق لم تكن تعني شيئاً يذكر ما لم يستطع الانجليز الاستفادة من مزاياها باحتلال الاراضي التي اكتسبوها أو اقامة مراكز تجارية في العمق الداخلي . ولم يستطع الانجليز ، لمدة الجيل التالي ، أن يجدوا القدرة على شغل أنفسهم بهذه المناطق النائية . وركزوا انتباههم الآن على أن ينشئوا بالتدريج وبشكل متصل قطاعات من السكان بين الساحل ومرتفعات أبلاتش . ولم يستفيدوا من مزايا حقوقهم الجديدة فقط ، الا حينما قاموا ببناء قلعة ومحطة تجارية في أوسويجو Oswego على بحيرة أونتاريو . وتأجل الفصل الأخير في الدراما الاستعمارية ، ومصير الايروكوا والقبائل الغربية لمدة أربعين سنة .

دبلوماسية الكريك :

استطاع الايروكوا حماية مصالحهم التجارية ، وتجنبوا الحرب ، بإثارة القوى الأوروبية ضد بعضها لمصلحتهم الشخصية ، وفهم اتحاد الكريك الكونغرادي في الجنوب الشرقي فهما كاملاً قواعد السياسة الواقعية - المبنية على عوامل عملية ومادية دون نظر الى العوامل النظرية

أو الأخلاقية - التي قلت حرب الياماسى ما بين سنتى ١٧١٥ - ١٧١٧ .
فقد كان للكريك ، مثل الايروكوا ، تحالف دفاعى غير متكامل قبل بدء
الاستيطان الأوروبى . لكنهم وجدوا أيضا ، أن من الممكن الاستفادة من التجارة
الأوروبية ليصبحوا مجتمعاً مرهوب الجانب فى تلك المنطقة الشاسعة التى
تشوق اليها انجلترا وفرنسا وأسبانيا . وكما حدث مع الايروكوا ، لم
يعزز الكريك قوتهم فقط ، بل عانوا خلال ذلك من تكثيف الحرب والنضال
الذى اشتعل بادخال التجارة الأوروبية لأول مرة . ولم تنقضى عشرون سنة
بعد اتقان الايروكوا « لنظام الترجيع » بين الانجليز والفرنسيين ، حتى
كان الكريك يدفعون أنفسهم الى وضع وكأنهم فيه « حراس ميزان القوى
فى البرية بالجنوب » (٨) . وخلال ربع قرن من المحاولات البارة كانوا
يقدمون الوعود للانجليز والفرنسيين والأسبان ، ويسحبونها ، لانتزاع
تنازلات تجارية وعسكرية منهم . وحافظوا فى نفس الوقت على استقلالهم
الى حد كبير . وكما حاول الانجليز ، من قبل ، تحريض الكريك والشيروكى
ضد بعضهما البعض - حيث عبر واحد من كاروليناس عن ذلك بقوله :
« بأننا نحتفظ بكليةما أصدقاء لنا ، لفترة من الوقت ، ثم نساعدهم على
أن يقطع الواحد منهم رقبة الآخر دون أن تغضب أحدا منهم » . عمل
الكريك على بقاء الفرنسيين والانجليز والأسبان ، يصارع بعضهم بعضا
بحيث لا تتمكن أية قوة أوروبية من السيطرة على الاثنتين الأخريين . وقد
برع زعيمهم ، بريمز فى ذلك لدرجة أن عبر أحد الانجليز فى كارولينا
عن رأيه فيه بأنه كان « سياسيا عظيما كأي حاكم فى أمريكا » (٩) .

كان اتباع الكريك سياسة الحياد العدائى الجديدة ، سلوكا منطقيا،
بعد أن أدى التحالف التجارى المقتصر على الانجليز فى أوائل القرن الى
تعسفات أثيمة على يد التجار الانجليز . وقد أعلن الكريك الحرب ضد
مستغليهم ، ضمن استراتيجيتهم من أجل البقاء ، الا أن حركة المقاومة هذه
قد فشلت ، نظرا لعدم قدرتهم على اغراء الشيروكى للارتباط معهم فى شن
هجوم شامل ضد الانجليز . والآن بدأت فى التحرك ، سياسة من التعاون
المحدود الحذر التى كانت أبعد ما تكون عن الاستراتيجية السلبية رغم
هزيمتهم فى الحرب . وبدلا من ذلك ، كانت عبارة عن رد فعل ايجابى
من الزعماء الهنود الذين يحاولون بناء قوة شعبهم ، وهم مدركون جيدا
مزايا التفاعل مع الغرباء فى بلدهم .

كان من الضرورى أن يبتكر الكريك أساليبهم السياسية فى سياق
التنافس الداخلى بين جماعات الهنود ، وكذلك التنافس بين الانجليز
والفرنسيين والأسبان . ومنذ وصول الانجليز الى كارولينا ، وازعاجهم
للحدود الشمالية لفلوريدا الأسبانية بغاراتهم المتكررة ، كان حلم الأسبان

أن يجهزوا حملة بالبر والبحر تسحق ادعاءات الانجليز وطموحاتهم في المنطقة . وقد جرت هذه المحاولة سنة ١٧٠٢ ، وانتهت بفشل ذريع ، على كل حال ، ولم ينتج عنها سوى هجوم انجليزي مضاد بعد ذلك بسنتين ، ألقى بمعظم الجبهة التبشيرية الأسبانية في فلوريدا الى الضياع . وخطط الانجليز لهجماتهم على المحطات التجارية الفرنسية في المسيسيبي الأدنى وخليج المكسيك في سنة ١٧٠٨ . ولكننا نجد في سنة ١٧١١ وسيلة أكثر فائدة لضرب القوة الفرنسية الوليدة ، حيث استخدم الانجليز حملة عسكرية تتكون أساسا من حلفائها الهنود في الهجوم على الشوكتاو ، الحلفاء الأساسيين للفرنسيين . ومع ذلك ، لم تنجح واحدة من هذه الهجمات على مراكز الحدود الأمامية للدول الأوروبية المتنافسة ، وأدت معاهدة أوترخت التي أنهت الأعمال العدوانية بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا ، الى احباط الانجليز بفشل حلمهم في السيطرة على الجنوب الأدنى من الأطلنطي الى المسيسيبي . وقد كان الكريك يأملون في منع هذا التخطيط للسيطرة الانجليزية بينما يحافظون على صلاتهم التجارية معهم .

اتخذ الكريك ، عقب حرب الياماسي ، الاجراءات الضرورية لاستعادة ميزان القوى بتقديم عروض للأسبان ، الذين حرضهم الانجليز على محاربتهم لسنوات عديدة . فأرسل الزعيم بريمز ابنه الى سانت أوجستين St. Augustine ، ومعه وتعليمات بالسماح للأسبان أن يبنوا حصنا في كاويتا Coweta المدينة الرئيسية للكريك الجنوبيين . كما تم ارسال مبعوثين آخرين من الكريك الى مكسيكو سيتي ، ليعقدوا معها حلفا . وفي خلال السنة التالية ، اجتمع زعماء الكريك مع السينيكا ، على بعد أكثر من ألف ميل جهة الشمال ، كما اجتمعوا مع الانجليز في شارلستون . وفي سنة ١٧١٧ ، عمل الكريك تسوية معقدة ، تظل بعض قراهم بموجبها في فلك أسبانيا ، والبعض الآخر في فلك إنجلترا . ووقعت معاهدة رسمية مع الانجليز ، تركت الكريك أحرارا في تجارتهم مع من يرغبون ، أيا كان، ولكنها حددت أسعارا ثابتة في تجارتهم مع الانجليز ، وكفلت السلاح والذخيرة لاستخدامها ضد القبائل غير المحبة للانجليز ، واتفقوا على أن يشترك الكريك والانجليز في مسئوليتهم عن ارتكاب جريمة أو يسبب ضررا للآخر .

لقد رمز بريمز الى استراتيجية في ميزان القوى بارسال ابن له كمبعوث رئيسي الى الانجليز ، وابن آخر كمبعوث رئيسي الى الأسبان . ونظرا لنضال كل من الكارولينيين الانجليز ، وأسبان فلوريدا لتكون لهم اليد العليا مع الكريك ، كان لابد أن يحاول كل منهم اقناع بريمز بتعيين « ابنهم » Their son « خليفة له في السنين القادمة . وحاول الانجليز في

سنة ١٧٢٢ التسلسل الى سياسة الكريك باعطاء تفويض لأوليتا ، Ouletta ابن بريمز ومبعوثه اليهم بوصفه زعيما لشعب الكريك تحت والده . وقد تحطمت محاولة كسب الاعتراف بالسيادة الانجليزية بعد ذلك بسنتين ، عندما اغتيل أوليتا على يد اليماسى وهم العدو العنيد للانجليز الذين لا يزالون متحالفين مع الأسبان . وأصبح الآن ، سيبيكوفى Seepeycoffey التابع للأسبان هو المرشح الوحيد لخلافة بريمز ، فلما مات سيبيكوفى سنة ١٧٢٦ ، ورث عمه الحق المباشر فى زعامة الكريك .

حافظ بريمز على سياسة تحريض الأسبان والانجليز كل منهما على الآخر الى أن توفى فى بداية الثلاثينيات من القرن الثامن عشر . فقه استمر الكريك فى مساعلة اليماسى الذين كانوا فى حرب متقطعة مع الانجليز . كما استمروا فى مهاجمة الشيروكى حلفاء الانجليز الحميين ، واتبع الانجليز استراتيجيات متنوعة لاجبار الكريك على الارتباط التام معهم - كالتدخل فى شئون الكريك السياسية ، وأوامر منع أو تحديد شحن البضائع ، والتهديد بحرب مشتركة بين الشيروكى والانجليز ضدهم - ولكنه ، بينما نجحت هذه الوسائل فى جعل الكريك أقرب التصاقا بالانجليز ، وفى اقناعهم بالتخلي عن مساندتهم التقليدية لليماسى ، حافظ الكريك على استقلالهم الذاتى ، وظلوا قوة بالغة الأهمية فى المنطقة . وقد كتبوا الى الجمعية التشريعية لكارولينا الجنوبية فى سنة ١٧٣٧ « أنهم عوملوا كحلفاء ، لا كرعايا للتاج فقد احتفظوا بممتلكاتهم وحافظوا على استقلالهم » (١٠) . وبقوتهم العددية ، وبراعتهم الدبلوماسية ، استطاع الكريك أن يحتفظوا بوضعهم البارز خلال عشرات السنين التى أعقبت حرب اليماسى . وطوف مبعوثوهم آلاف الأميال ، وتفاوضوا بين سنتى ١٧١٥ ، ١٧٣٣ ، مع الأسبان فى سانت أوجستين ، وفيرا كروز Vera Cruz ، ومكسيكوسيتى ، ومع الانجليز فى تشارلستون ولندن ، ومع الفرنسيين فى فورت تولوز على نهر ألباما ، ومع زعماء الشعوب الهندية الأخرى من حدود فلوريدا حتى البحيرات العظمى . وكانوا ، فى بعض الأحيان ، يجرون مفاوضات متزامنة مع قوتين أوروبيتين على أشبه الخصام معهما . كما أجرى الايروكوا مفاوضات مزدوجة فى مونتريال وألبانى سنة ١٧٠١ .

نجح الكريك ، بعد عشرات السنين من وفاة بريمز ، فى الحفاظ مرتين على حيادهم فى أوقات عصيبة . ففي سنة ١٧٣٩ ، عندما أعلن الانجليز الحرب على الأسبان ، ضغطت حكومة كارولينا بشدة على الكريك ليشاركوا ، فى هجوم على سانت أوجستين مع الجنرال جيمس أوجليثورب Oglethorpe ، الذى أسس مستعمرة جورجيا بين كارولينا الجنوبية

وفلوريدا قبل ذلك بسبع سنين . وبالرغم من اشتراك قليل من قرى الكريك مع الحملة الانجليزية التي انتهت بكارثة ، ظل معظم الكريك بعيدا عن الصراع ، وهم مقتنعون بأن سياسة التجارة مع من يقدم أفضل الأسعار ، أيا كان ، دون التحالف العسكرى مع أية قوة أوروبية ، هي حجر الزاوية لبقاء الكريك ونموهم . ولابد أنهم هناؤا أنفسهم لالتزامهم بسياستهم ، لأن الشيروكى الذين انضموا الى الانجليز قد عادوا ومعهم الجندى الذى انتشر بشكل وبائى فى مدن الشيروكى ، فى سنتى ١٧٤٠ ، ١٧٤١ . وفى السنة التالية ، عبر أحد زعماء الكريك تعبيرا جديدا عن الاستراتيجية السابقة ، حين أكد أن « أرض الكريك التى تخص الانجليز كما تخص الفرنسيين هي فى الحقيقة ليست لأى منهما ، ولكن لكل منهما الحرية فى أن يأتى هناك للتجارة » (١١) .

تعرضت سياسة الحياد الكريكى ، للاختبار مرة ثانية فى أربعينات القرن الثامن عشر ، عندما اشتركت فرنسا مع أسبانيا فى حرب ضد الانجليز . فقد دعا جيمس جلين James Glen ، الحاكم الملكى الجديد لكارولينا الجنوبية ، عددا من الزعماء من مدن الكريك الأعلى سنة ١٧٤٦ الى اجتماع سرى ، صرح فيه بما يجول فى خاطره من مكافآت للكريك اذا ما انضموا الى هجوم انجليزى على فورت تولوز ، المعقل الفرنسى الرئيسى عند نهر ألباما الأدنى ، وتم التصويت على المشروع فى اجتماع آخر فى بلدهم وانتهى بخذلان الانجليز مرة ثانية فى جهودهم للحصول على المساندة الهندية التى احتاجوا اليها فى طرد الفرنسيين فى الجنوب الأدنى . وقد حاول جلين للمرة الثانية أن يعبئ الكريك والشيروكى ، ليقوموا بهجمات على الفرنسيين سنة ١٧٤٧ ، واتضح فشله فى مهمته عندما حصل مالاتشى Malatchi أصغر أبناء بريمز ، والزعيم الموالى لفرنسا على الاعتراف به امبراطورا للكريك الجنوبية . وقد حضر مالاتشى مؤتمر تشارلستون فى السنة السابقة ، ورفض أن يعبس الحاكم الانجليزى فى وجهه تهديدا له بسحب التجارة الانجليزية ، وبدلا من ذلك ، عاد الى مدينة الكريك الجنوبية ، الرئيسية ، وهاجم الخطة الانجليزية ، ثم قام بزيارة شخصية الى سانت أوجستين وفورت تولوز ليخبر الأسبان بالعروض الانجليزية . وسارع باخطار الانجليز بالترحيب بهم للتجارة فى بلاد الكريك على ألا يبنوا قلاعا ، أو يتوقعوا تأييد الكريك لهم فى الهجوم العسكرى على الأسبان والفرنسيين .

التحولات فى المجتمع الهندى :

فى منتصف القرن الثامن عشر ، اظهرت الشعوب الهندية الداخلية فى أمريكا الشمالية قدرتها على التكيف مع الوجود الأوروبى ، وأن تحول

تفاعلها الاقتصادي والسياسي معه لصالحها الخاص . وقد تكتسفت حضارة الأوروبيين للهنود مدة قرن ونصف ومنها انتقوا ما وافقهم ، فاختاروا من وسط تجارة الفراء والجلود والعبيد ، الأصناف الأوروبية من ملابس ، وأسلحة ، وأدوات معدنية ، ومجموعة متنوعة من أدوات الزينة . فتغيرت حضارتهم المادية بهذا القدر . وحدث الكثير جدا في هذا المجال بحيث أدى التوفيق بين هذه الأشياء المتناقضة الى فقد الهنود لكثير من مهاراتهم الوطنية الأصيلة . فكانت الزراعة ، وصيد البر والبحر هي السعامة لرزق الهنود قبل مجيء الأوروبيين ، واستمرت بعد ذلك . ولم تفعل الأدوات الأوروبية - كالفأس - سوى زيادة كفاية وفعالية الزراعة الهندية . واستعان الأهالي بالسككين والشخص في صيد السمك ونصب الفخاخ للحيوانات بصورة مكثفة ، ليحصلوا على السلع اللازمة للمقايضة ، ولكن لم يكن ذلك سوى امتداد لمهاراتهم القديمة . فضلا عن أن كثيرا من القبائل الداخلية، كالايروكوا والكريك قضت معظم وقتها في نقل الفراء والجلود من القبائل النائية غربا الى الأسواق الانجليزية والفرنسية ، أكثر من صيدهم للسمور والأياثل ذات الفراء والجلود الغالية .

وعلى كل حال ، أتى التفاعل مع الحضارات الأوروبية بتحولات أهم بكثير الى المجتمع الهندي ، اذ لم تتغير أساليب الحرب فقط بدخول البندقية اليهم ، بل زادت أيضا حدة الأعمال العدوانية ذاتها الى حد بعيد . ولم تكن كل حروبهم تعتبر حروبا رمزية محدودة قبل مجيء الأوروبيين ، ومع ذلك لم تكن هناك سابقة لإبادة القبائل أو الاغارة بهدف أسر العبيد ، والتي ميزت حرب الكريك في الجنوب في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر .

الكحول :

هناك حقيقة أخرى غير مفهومة تماما ، حتى الآن . تلك هي استهلاك الكحول لأول مرة . ولاشك كثيرا في أن شراب « الروم » قد صار واحدا من أهم بنود التجارة الهندية . لقد استفاد منه الأوروبيون كثيرا ، وروج له التجارة ، اذ أنه ما أن تذوقه الهنود حتى أضيف الى القائمة الاجمالية للمواد التي يحتاجونها . وزيادة حجم التجارة هي الهدف الرئيسي دائما لدى التجار والباعة الساحليين ، ولذلك اهتم أغلبهم بالتوظيف الاقتصادي لوله الهنود بالروم . فبعد أن دخل الكحول في حياة الهنود أصبح عاملا مهما في العلاقات التجارية فيما بينهم . وأصبحت نوعية الروم الانجليزي في مقابل الروم الفرنسي لها الاعتبار الاول في تحويل تجارة الشمال في الفراء من مونتريال الى الباسيفي . وفي كارولينا ، بالرغم من أن زعماء

الكريك كانوا يبحثون دائما في تأجيل تجارة الروم ، الا أن قرار الأوصياء على جورجيا باعفاء الكحول من الرسوم - كجزء من محاولتهم اصلاح التجارة الهندية في الثلاثينات من القرن الثامن عشر - لم يمتد احتجاجات زعماء الكريك ، الذين لم يرغبوا في التخلي عن القوة التي يتمتعون بها كموزعين للروم بالرغم من ادراكهم لآثاره الموهنة لحضارتهم .

هذا ، وبالرغم من أن تقدير حجم الآثار الاقتصادية للروم على التجارة ليس بالأمر الصعب ، الا أن السؤال الأكثر صعوبة هو ما مدى تأثيره على الحضارة الهندية . ويرى الاتجاه الحديث أن ادمان الهنود للكحول كان وسيلة لازالة آلام شعب وقع أسيرا بين حضارتين ، فنظرا لعجزهم عن الاحتفاظ بأساليبهم التقليدية في الحياة بعد أن أصبحوا معتمدين على العناصر المادية للحضارة الأوروبية ، وفشلهم بنفس الدرجة في قبول المجتمع الأبيض لهم ، لذا يقولون دائما ان الهنود قد تحولوا من اليأس الى الكحول . وهكذا نظر المؤرخون ، والأنثروبولوجيون ، وعلماء النفس الى أن شرب الخمر كان وسيلة للهروب من الاحساس الداخلى بالدناءة ، الذي نتج عن الاحتكاك الطويل الأمد بمجتمع الرجل الأبيض الذي أسماهم « بالعبيد » و « الهمج » . فالسكر يمنحهم ، على الأقل ، هروبا مؤقتا الى ماض يصورونه رومانسيا قبل مجيء الرجل الأبيض ، وبالتالي ، يساعدهم مؤقتا في حل أزمة هوية مؤلمة . والمشكلة في هذا التفسير أنه مهما كانت قيمته في الكشف عن أسباب ادمان المسكرات في المجتمع الحديث ، فانه لن يرضينا في تفسير السكر وسط الهنود والأوروبيين في القرن الثامن عشر . فلم يكن يعرف للأوروبيين أزمات هوية في مجتمع ما قبل الثورة ، علاوة على أن استهلاكهم للكحول كان مذهلا حتى بالمقاييس الأمريكية . وكل ما يمكن تقريره من الاحصاءات الهزيلة المتيسرة أنه كان أكبر بكثير منه بين هنود تلك الفترة . وتكفي تلك الاحصاءات لتأكيد ذلك . ففي فيلادلفيا ، سنة ١٧٧٢ ، مثلا ، كان سكانها العشرون ألفا يستطيعون شرب ما يكفيهم في أية حانة أو خان من الثلاثمائة بالمدينة . وقد كانت كمية الروم المستهلكة بالنسبة لكل فرد أكبر بكثير من تلك التي استهلكها الهنود وراء جبال الأبلش ، الذين لم يمكنهم الحصول على الروم بمثل هذه الكمية أو يقدرون على شرائها .

وعندما أصبح مفهوما أن استهلاك الكحول يختلف معناه باختلاف الثقافات ، وأن سلوك السكر يتشكل وفقا للمبادئ الحضارية المتنوعة ، أصبح من الممكن أن نستبصر دور الكحول في المجتمعات الهندية في الداخل . ويرى علماء الأنثروبولوجيا ، حديثا ، أن شرب الهنود للخمر في العهود الأولى من اتصالهم بالأوروبيين كان في أساسه « فترة

(تعطيل) لنمط اجتماعي منظم من قواعد آداب السلوك والمعاشرة المعتادة،
ثم أصبح في القرنين التاسع عشر ، والعشرين صورة من صور الاحتجاج
الاجتماعي وشكلا من أشكال التحرر من اليأس . ففي القرنين السابع
عشر والثامن عشر ، شرب الهنود الروم لأسباب حضارية ، فهموها على أنها
الصخب والسكر البين ، والتخلي عن اللياقة المعتادة ، وكذلك الامان
الخطير ، في بعض الأحيان لدرجة فقد الوعي ، (١٢) . وتجسد ادمان
الكحول في سلسلة من القيم التي أقرت التبغ من قبل كعادة حضارية ،
لا ترتبط فقط بالمخالطة الاجتماعية والكرم - كتبادل البيرة (الباب) -
بل أيضا كعادة تستثمر في المناسبات الاجتماعية والمعاني الدينية .
وهناك علامة مميزة أخرى لطبيعة العلاقات الأوروبية الهندية
المتبادلة . ذلك أنه ، كما أصبح شرب الكحول الأوروبي عادة اجتماعية
لها مناسباتها الاجتماعية داخل المجتمعات الهندية تماما ، فان تدخين
التبغ ، أصبح عادة اجتماعية لها معانيها الحضارية وسط الأوروبيين .
فقد اختار الأوروبيون التدخين الهندي ، فورا ، بعد أن جردوه من معناه
الديني . واستخدموه كمطاف اجتماعي ، ومسكن بارد أو معتدل . وما أن
انتشر في أوروبا ، لم يستطع أي تحذير طبي من أكثر الأطباء احتراما ،
أو حتى هجوم الملوك عليه ، أن يوقف هذا الجنون . وبنهاية القرن السابع
عشر ، كانت إنجلترا تستورد سنويا أكثر من ثلاثين مليون رطل من تبغ
العالم الجديد ، وربما كان الأوروبيون على جانبي المحيط الأطلنطي أكثر
ادمانا للتبغ الهندي بدرجة أشد من ادمان الهنود للكحول الأوروبي . هذا
التبادل في العادات الاجتماعية ، والذي اتخذوه لأسباب تناسب حضارة
كل منهما ، كان مصدر أرباح طائلة للتجار أصحاب السفن التي حملت
التبغ من أمريكا الى أوروبا ، والروم من الكاريبي الى أمريكا الشمالية .

أصبح الكحول ، بشكل آخر ، شيئا مهما في الاتصالات بين الهنود
الاحمر والبيض ، اذ كان يوزع ، عادة ، قبل أن تبدأ المفاوضات بشأن
الأرض أو السلع التجارية . وقد لاحظ كثير من المعلقين في القرن الثامن
عشر أن الأوروبيين كانوا يحثون الهنود على السكر الشديد ، حتى يسهل
حينئذ خداعهم وسلب بضائعهم . وبالرغم من أن هذه الطريقة قد تكون
حقيقية واقعة بين هنود الساحل الذين كانوا ينهبون الى مستوطنات
البيض للمقايضة ، يقيمون في العادة أياما عديدة هناك يشربون خلالها في
حرية عند دعوة التجار البيض لهم ، كان من المحتمل ألا تكون هذه هي
التجارة النموذجية . اذ أن الهنود لم يستسيغوا أن يكثر الأوروبيون من
الاحتياال عليهم ، وكانوا طبقا لشهادة كثير من التجار على نفس الدرجة من
البراعة في المساومة مثل شركائهم البيض . ولقد كان توزيع الكحول عند

بدء المفاوضات ، فى الحقيقة ، أسلوبيا شعائريا لاستهلال عقده يفيد كلا الطرفين . ولما كان لدى الهنود أكثر من مكان يتاجرون فيه ، لم يكن من مصلحة التجار أن يبعثوهم بجعلهم يسكرون ، ثم يسرقون منهم بضاعتهم . وليس معنى ذلك ، أن نقول انه لم تكثر الممارسات العنيفة على كلا الجانبين . ففى عدد من المناسبات ، أحضر بعض التجار غير المرخصين ، كميات من الروم الى احدى القرى الهندية ، وراقبوا استهلاكها بشغف ، ثم رحلوا ومعهم صيد الشتاء من الفراء والجلود . ومع ذلك ، كان الأوروبيون يشكون من أنهم « قد تعرضوا للاعتراض والنهب » على يد الهنود ، كما اعتاد الهنود أن يشكوا من خداع الأوروبيين واحتيالهم . وعندما كانت عملية المتاجرة تتم فى مراكز الحدود أو فى القرى الهندية ، تلك الممارسة التى جرت فى كل مكان بمنطقة كارولينا ، وفى المناطق الخلفية لفرجينيا وبنسلفانيا فى القرن الثامن عشر ، كانت سرقة الهنود وهو فاقده الوعى لافراطه فى الشراب هى الاستثناء وليست القاعدة . لقد كان الهنود يحصلون تجارتهم الى حيث يمكنهم الحصول على أفضل الأسعار ، وأوفر كمية من البضائع التى يرغبون فيها . وكانت قدرتهم الفائقة على الحركة والانتقال على الطرق البرية والمجارى المائية الداخلية ، مع امكانية مقايضتهم مع أكثر من مول أوروبى ، قد جعلت من الأمور اللازمة أن يحافظ تجار المستعمرات على علاقاتهم التى كانت فى صالح الهنود . وحين تقاعسوا عن ذلك ، كما حدث مع تجار كارولينا ، كان الهنود يأخذون بضائعهم الى الفرنسيين والأسبان ، أو الى تجار منافسين فى جورجيا وفرجينيا . فاذا لم يتيسر لهم أحد هؤلاء البدلاء ، كان آخر ما يلجأون اليه هو الثورة والتمرد ضد أولئك الذين أساءوا معاملتهم .

لقد كان من الممكن ، حين كانت القبائل تفقد أرضها ، واستقلالها الذاتى وسلامة حضارتها ، كان من الممكن أن يتحول السكر من شكل استرخاء اجتماعى وتسلية الى حل لمعضلة الثورة الداخلية العدائية ضد البيض ، والتى لا يمكن التعبير عنها ظاهريا . ويبدو أن هذه هى الحال بين بعض القبائل الساحلية التى فقدت أرضها ونفوذها فى القرن الثامن عشر . فقد حافظوا على بقائهم فقط ، تحت المتع الحسية (ملذات المجتمع الأبيض) . وقد يكون ادمانهم الشراب الفاسد الذى ينسب اليهم كثير من المراقبين ، دلالة على حالتهم الداخلية القلقة التى يعانونها . ونظرا لضعفهم وعجزهم عن التعبير العدوانى تجاه البيض ، تراكت احباطاتهم، وانعكست عليهم داخليا . ولم يكن أمامهم للتخفف من هذا الوضع سوى شرب الخمر ، أو الانتحار فى الحالات الشديدة . ولكن حيث كانت القوة متوازنة بين الهنود والبيض ، تلك الحالة التى كانت لا تزال سائدة فى معظم أجزاء أمريكا القرن الثامن عشر ، لا تتفق صورة الهنود المخمور ، فى تصوراتنا

التاريخي ، كثيرا ، مع واقع النموذج الجسم « للمهجي » العدوانى العنيف ،
الذى أصبح من صنع الحضارة البيضاء .

التنظيم السياسى :

كان النظام السياسى ، بجانب ادخال الأشياء المادية ، واستعمال
الكحول ، هو التغير الحضارى الرئيسى الذى نتج عن الاحتكاك الهندى
بالمجتمعات الأوروبية . ويختلف هذا التغير من مجتمع لآخر ، وخير مثال
يهدينا فى ذلك هم الكريك والشيروكى . فبالرغم من انتمائهم الى مجموعات
لغوية مختلفة ، واستمرار محاربة كل منهم للآخر ، تشابهت بنيتهم
السياسية السابقة لهذا الاحتكاك ، ولاقوا نفس القوى التاريخية فى
القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ألا وهى التجارة ، والحرب ، وانتهاك
حرمة الأرض . ورغم تحالفهم المهلهل مع بعضهم ، كان الاستقلال الفاتى
المحلى للمدن والعشائر هو الملمح الأساسى لبنائهم السياسى . فسالولاء
الأساسى لجمهور الكريك والشيروكى كان موجها الى المدينة ، لا الى
« الحلف » . اذ يحتاج أى اتفاق أو تصرف سياسى كبير الى رأى الجماعى
للمدينة . وقد جرت محاولات لتنسيق سياسة المدن المحلية ، دون أن
يجبر رأى الأغلبية أى طرف على التصرف ضد رغبته . وهكذا ، كانت المدن
أو مجموعات منها تتداول مع الأوروبيين بصفة فردية ، وتعقد الاتفاقات
مع التجار ، وتتصرف فى المسائل الحربية بصورة شبه مستقلة . وكان
يزيد الشقاق بين الأطراف ، ما ينشأ من توتر ، وشدة بين الزعماء المدنيين
والعسكريين فى نحو ستين مدينة للشيروكى ، وعدة عشرات من مدن
الكريك . وكانت غالبية الانشقاق اللاتم فى القرن الثامن عشر ، تقع بين
مدن الكريك الجنوبيين والكريك الشماليين ، وهو ما يشبه تقريبا ،
الانشقاق بين مدن الشيروكى أعلى التلال ، وشيروكى الوسط ، وشيروكى
السفوح . مثل هذه الانقسامات كانت تهور ، فى الغالب ، حول الاقتراب
الجغرافى من التجار الفرنسيين أو الانجليز .

ونتجت عدة تغيرات مهمة فى البناء السياسى للكريك ، نتيجة التجارة
والحرب ، والاحتكاك الدبلوماسى مع الأوروبيين فى القرن الثامن عشر .
وقد دفعت الحاجة الى التعامل مع التجار والحكومات الانجليزية والأسبانية ،
الكريك الى التحرك نحو عقد « حلف » فضفاض ، ولو أن العمل المنسق
كان من الممكن أن يعطيهم قوة أكبر فى تعاملهم مع الدخلاء . وكان التغير
السياسى الثانى هو الانتقال التدريجى نحو وراثة الأب بين الزعماء
أو « الميكوس » . وقد غير ذلك من الزعامة التقليدية التى كانت العضوية
فيها فى عشيرة الأم قبل الاحتكاك بالأوروبيين ، ثم مال الاتجاه فى القرن

الثامن عشر نحو تسليمك السلطة لابن الزعيم بدلا من ابن أخيه ، مما أوجد نظامي الوراثة الأبوية والوراثة الأموية في وقت واحد . ولعل أحد أسباب هذا التحول نحو الخط الأبوي هو ميل السلطات الانجليزية والفرنسية والأسبانية الى تعزيز ترشيح ابن الزعيم مما يتفق مع النظرة الأوروبية للنظام السياسي ، وذلك جزء من المحاولة الأوروبية للتدخل عنوة في السياسة الداخلية للمجتمعات الهندية لكي تؤثر على زعماء قبائل الحلفاء الهنود وشركاء التجارة في فضالهم الثلاثي الأركان ، أي في الصيد والتجارة والحرب التي رفعت شأن كثير من الرجال في المجتمع الهندي ، وبذلك أسهمت بالتالي في خلق مناخ حضارى ، يستحسن تنمية خط الوراثة الأبوية .

ومن المحاولات الأخرى للسيطرة على القوى المحركة للسياسة في مجتمعات الكريك والتشيروكي ، مساندة ترشيح ابن معين للزعيم ، أو تفويض أشخاص معينين لتسهيل الاتصال والتعاون . وقد حاول الانجليز إقامة أولينا ابن الزعيم بريمز وكيلا لهم ، وبعد موته نقلوا اعترافهم الخاص الى أخيه سيببوكوفى ، المرشح الأسباني . وكانت الهدايا السنوية ، وهي جانب أساسى في حسن العلاقات ، توزع عن طريق هؤلاء الرؤساء المفوضين ، وبالتالي ، يعززون مكانتهم ، وهيبته داخل مجتمعهم الخاص . هذه الممارسة الانجليزية في اصطفاء رؤساء معينين للتفاوض معهم قد منحت القوة لأولئك الذين لم يكتسبوا سلطتهم بشرف الانتساب التقليدى الى الأم ، ولكن من خلال التدخل الحقيقى من سلطة خارجية . وقد صار التوكيل من الموظفين الاستعماريين ، ان عاجلا أو آجلا ، عاملا مهما في درجة النفوذ الذى يستخذه زعيم معين .

كان الزواج من امرأة هندية وسيلة أخرى لاكتساب النفوذ في القبيلة ، خاصة اذا كانت المرأة من عشيرة ذات سلطة ونفوذ . فقد تزوجت ماري موسجروف بوزومويرث Mary Musgrove Bosomworth وهي ابنة أخ أو (لعلها) أخت للزعيم بريمز من ثلاثة رجال انجليز على التوالي ، وبالرغم من معارضتها العنيفة للانجليز ، بين حين وآخر ، شغل أزواجها مراكز مهمة جدا داخل اتحاد الكريك . وهكذا ، فمن خلال الزعماء المفوضين بالوكالة ، والزواج من الهنديات ، عمل الكارولينيون على تقوية المجموعة المؤيدة للانجليز في اتحاد الكريك ، واستخدام نفوذهم في القرارات السياسية .

وبالرغم من أن هذا التدخل ، يمكن النظر اليه كوسيلة لقلب وفساد الخطوط التقليدية للعادات والسلطة السياسية من أجل تجنيد زعيم ما بصورة تفيده الانجليز ، يمكن اعتبار ذلك أيضا تكييفا مقصودا للأساليب

السياسية التقليدية لدى الشعوب الهندية ، التى واجهت غزاة جددًا أقوياء ، وترغب فى التدفق المستمر للبضائع .

وبتعديل معيار القراية المعتاد ، اختار الكريك زعماء مستعدين للعمل لصالحهم تماما . وكان تقرب المرء الى الانجليز أو الاسبان يتحقق بتزويج أخته لأحد الأوروبيين ، أو قبوله تفويضا ، أو أن يكون له أب أوروبى . ولكن الكريك لم يكونوا سلبيين تماما فى أى من هذه الحالات ، أو عاجزين فى الرد على مبادرة البيض . ففي فترات تبادل السلطة بين المجموعات الأوروبية الموجودة بالمنطقة ، كان الكريك « يتغلبون على المصاعب والمشكلات بشكل مبدع وبعده طرق متنوعة فى المواقف المختلفة التى وجعلوا أنفسهم يواجهونها » (١٣) .

غير الشيروكى ممارساتهم السياسية ، كما فعل الكريك ، فى القرن الثامن عشر ، استجابة للمتطلبات الجديدة المتعلقة بالحرب والتجارة مع الأوروبيين . فقبل سنة ١٧٣٠ تقريبا ، كانت الوحدة الأساسية فى سلطة الشيروكى هى القرية المستقلة ذاتيا ، وكانت الحاجة قليلة الى توحيد سياسى أكبر . ولكن التوتر مع جيرانهم الكريك ، بتشجيع من الانجليز الذين اتبعوا سياسة (فرق تسد) مع حلفائهم حفاظا على بقائهم ، وكذلك خلقت علاقاتهم المتقطعة مع الانجليز ، الحاجة الى مركزية سياسية . ومع منتصف القرن ، شكل الشيروكى نوعا من التنظيم السياسى الذى يتخطى القرية . لقد جمع الزعماء المدنيون أو « الكهان » تحت زعامة أولد هوب Old Hop نفوذهم المشتت من قبل ، وكونوا نوعا من « حكومة الكاهن » القبليّة ، التى تصدد القرار بالتنسيق مع المدن .

وحيث أثبت ذلك عدم كفايته فى المهام التى واجهته فى السنوات الشداد بعد منتصف القرن ، بدأ المحاربون يهيمنون على المجالس القبليّة ، حيث ان الشيروكى قد تهيؤوا فى الستينات من القرن الثامن عشر لعصر جديد من النضال ، يجعل « الالتجاء الى الحرب والمحاربين جزءا من الحياة الواقعية لا لبس فيه ، وذلك قبل أن يبلغ المحارب أقصى درجات الاحترام والمنزلة السامية من الزعماء المدنيين ، وكذلك باعطاء زعماء الحرب سلطة سياسية نافذة ، جديدة على الشعب » (١٤) . وبهذه العملية التى استهلها المجتمع الشيروكى ، حدثت التغيرات السياسية التى مكنت عشرات القرى من الاندماج فى وحدة قوية .

وبينما أدخلت قبائل الداخل تشكيلة واسعة من السلع الأوروبية فى حضارتها المادية ، ووقفت تركيباتها السياسية لتلائم الأوضاع الجديدة ، تميزت مظاهر أخرى من حياتها بدرجة عالية من الهوية الاجتماعية

والاستمرار الحضارى . وكان الايروكوا ، والكريك ، والشيروكى ، وقبائل أخرى لم تتأثر ، بصورة فريدة بمعظم قوانين وأنماط السلوك الأوروبى ، ولم يجدوا مبررا لاستبدال ما هو محل اجلال وتقدير من حضاراتهم الخاصة ، بما يزدرونه فى حضارة الغير . وقد انطبق ذلك على النظم السياسية للواقدين الجدد ، وعاداتهم ، ونظمهم فى القانون ، والعدل ، والدين ، والتعليم ، ونظام الأسرة والخبرة فى تربية الطفل . وراقب الهنود العادات الأوروبية فى كل هذه المجالات فى حذر ، ولكنهم لم يروا فيها الا القليل الذى يستحق المحاكاة . وثقة منهم فى معتقداتهم الخاصة واستقلالهم السياسى ، رفضوا دمج أفكار ، ونظم اجتماعية ، وقيم غريبة عنهم فى أسلوب حياتهم . وفى الحقيقة ، بقدر ما أمكن للهنود اثبات ذلك وتأكيد ، بقدر ما فشلت هذه المؤسسات الاجتماعية فى الغالب ، فى اثبات نجاحها فى النظام الحضارى الأوروبى .

لقد كان المبشرون الأنجليكان الماملون على نشر الانجيل مزعجين دائما ، بهذا التناقض فى جهودهم لتحويل الهنود الى المسيحية . اذ تساءل الهنود ، لماذا يجب عليهم أن يتحولوا الى نظام يدعى التفوق ، ورغم ذلك تسوده الجريمة ، والفوضى الاجتماعية ، والشقاق الحزبى ؟ وقد كتب المبشر الانجليكانى فى كارولينا ، سنة ١٧٠٩ ، روبرت مول Robert Maule أنهم [الهنود] فى الأعم الأغلب ، محبوبون للعدل والمساواة فى معاملاتهم . وقد سألت بعضهم عما اذا كان يود أن يكون أو أن عنده أية رغبة فى أن يدخل فى دين الرجل الأبيض ، فأجابونى صراحة بلا ، فقلت : فيم الخلاف ، ولم ذلك ؟ فأجابونى : لأن باكارارا [الرجل الأبيض] غير صالح ، باكارارا يغش ، باكارارا يكذب ، باكارارا يشرب البراندى ، ونحن لا نحب ذلك (١٥) . وقد كرر القسيس الطوافون فى كارولينا الشمالية والجنوبية ، نفس الرسالة ، مرارا وتكرارا فى تقاريرهم الى رؤسائهم فى لندن . وكتب تشارلز وودماسون ، الحزين ، فى نهاية فترة المستعمرات أن « معظم المستوطنين عاشوا فى حال من الفسق والتحرر . . . وكانت أحوال الكارولينيين الشماليين ، عامة ، فاسدة ومنحلة – أى أن البلد كان مسرحا للتحرر والفساد والانحلال . . . وتعدد الزوجات شائع جدا . . . بصورة غير شرعية ، والتسرى باتخاذ المحظيات أمر عام ، لا يفقد المرء به سمعته الحسنة » (١٦) . هل هناك أى عجب ، اذا عجز الرجل الأبيض عن اقناع الهنود بتفوق أسلوبه فى الحياة ؟

كان الكارولينيون لا يزالون فى مرحلة الكشف والريادة ، بطبيعة الحال ، الا أنهم كانوا يشكون من نفس المشكلة عن طريق مبشرى المستعمرات الانجليكان – وهى محاولة تلقين « الهيج » الأفكار والأساليب

المسيحية ، بينما كان أغلب المسيحيين الذين احتكوا بهم أكثر « همجية » من الهنود أنفسهم . فكان السكر ، والخطأ ، وعدم التعاون من بين أهم الخصائص الغالبة الواضحة المميزة للمجتمع الأبيض . وهكذا ينقلونها بشكل غير منطقي ، الى عقول الهنود باعتبار حضارة البيض المسيحيين حضارة متفوقة ، يجرى حثهم بشكل متصل ليرتقوا اليها . وان جون لوسون John Lawson الموظف ، صاحب الاقطاع في كارولينا الشمالية والجنوبية ، الذى ملكته له الحكومة البريطانية في أوائل القرن الثامن عشر قد ضرب كبد الحقيقة في تفسيره قلة الاقتباس الحضارى خارج مجال الماديات .

فيقول في سنة ١٧٠٨ : « لقد كانوا لنا ، في الحقيقة ، أحسن مما كنا نحن لهم ، فهم يملوننا دائماً بالمؤن فى مساكنهم ، ويراعون تسليحنا ضد الجوع والعطش : ولكننا لم نفعل مثل ذلك معهم (على وجه العموم) بل نتركهم يمرون جوعى على أبوابنا ، فلا نمد لهم يد العون ، عادة . وكنا ننظر اليهم باحتقار وازدراء ، ونراهم أحسن قليلا من البهائم فى شكلهم البشرى ، مع أننا اذا درسناهم جيدا ، فسنجد أن لدينا ، بالرغم من ديننا وتربيتنا ، فسادا وانحرافات أخلاقية أكثر مما لدى هؤلاء الهمج ، أو مما يعرفون به » (١٧) . ولم يكن الهنود يتكتمون ازدراءهم لحضارة انبيض . فعندما اقترح على الايروكوا سنة ١٧٤٤ أن يعيشوا ببعض شبائهم الى فرجينيا ليتعلموا كالأبيض ، كان اقتراحهم المضاد أنه « اذا بعث السادة الأماجد الانجليز بمجموعة من أطفالهم الى أونونداجا فان المجلس الأعلى سيعتنى بتعليمهم ، وتنشئتهم فى أحسن صورة ، حقا ، ويخلق منهم رجالا » . (١٨) .

ويصلق الأمر نفسه فى الزواج والعلاقات الاجتماعية . فبالرغم من أن الأوروبيين كانوا يحتقرون عادات الهنود فى الزواج الرفاقي (*) أو تكرار الزواج بواحدة ، ويتهمونهم « بالتححرر » و « الفسق » و « الخيانة » فى عاداتهم الجنسية ، كانت العلاقات العائلية بين الهنود ، مرضية لهم تماما ، كما اعترف بذلك قليل من المراقبين الأوروبيين . لقد كتب توماس بين Thomas Paine عقب وصوله الى المستعمرات عن رأى « همجى أمريكى » فيما يتعلق بالزيجات المسيحية ، حيث أعلن الهنودى مجاهرة رفضه لأسلوب الزواج المسيحي الذى يرفض الطلاق :

بينما فى زيجاتنا الهندية ، التى ليس بها أية طقوس سوى الليل المشترك ، والتى ينقضى بمجرد منح السرور المتبادل ،

(*) الزواج الرفاقي : شكل من اشكال الزواج ، مجرد من حقوق الأزواج والتزاماتهم التقليدية ، يتميز بطلاق ميسر ، يقطع العلاقة نهائيا بين الزوجين اذا لم ينجبا - (المترجم) .

نجعل مهمتنا أن نرضى عواطفنا التي نخاف أن نلحقها ، ونكون
أحرارا في الانفصال ، ونبادر ما نحس انحرافا في ذلك
أو لا نشعر به أبدا . ولكن اذا وجد بيننا ما يستحق الأذراء
فإننا نكف الارتباط فورا . إن الله خلقنا أزواجا ، وكل منا
يبحث عن الله في مكان أو آخر ، وواجبنا أن نجد كل منا
الآخر ، حيث لا يهدف مخلوق أبدا إلى أن يكون تقيسا (١٩) .

والخلاصة ، أنه بينما تغيرت المظاهر المادية للحضارة الهندية بدرجة
مهمة ، كما تغيرت البناءات السياسية إلى أدنى درجة ، تميزت معظم مظاهر
الحياة الهندية باستمرار حضاري ، لم يلحقه تغير مدى الفترة الطويلة من
التفاعل مع الأوروبيين . فقد كانت المجتمعات الهندية ، انتقائية تماما ،
كالمجتمعات الأوروبية ، فيما تقتبسه من الحضارات التي احتكوا بها ،
ووقفوا بين ما يخدمهم مما يتعارض مع أفكارهم ومبادئهم ، ورفضوا ما لم
يبشرهم بأي تحسن في إطار قيمهم الخاصة وأسلوب حياتهم . لقد رغبوا
في التفاعل مع الأوروبيين ، دون الاندماج معهم .

في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، حافظت القبائل الداخلية ،
أمثال الكريك ، والشيروكي ، والايروكو على درجة من التوازن مع
المجتمعات الاستعمارية الانجليزية بالاستخدام الماهر لقوة أوروبية ضد
أخرى ، والعمل من حين لآخر على تذكير الأوروبيين بأن التجارة والمساعدة
العسكرية الهندية لها قيمتها وأهميتها لهم مثل أهمية السلع الأوروبية
للمجتمعات الوطنية . وقد كتب سكرتير هندي من نيويورك « إن حفظ
التوازن بيننا وبين الفرنسيين ، هو المبدأ السائد في السياسة الهندية
الحديثة » (٢٠) . فقد نفع الهنود الأوروبيين ، كما كان الأوروبيون نافعين
للهنود ، كما كانت القوة موزعة بينهم تقريبا . إلا أنه في أوائل النصف
الثاني من القرن الثامن عشر ، حدث تغيران كبيران على كلا جانبي الأطلنطي ،
أنهى وجود التوازن بين الشعوب الهندية والأوروبية تقريبا .

ازدياد السكان :

كان التعاظم السكاني الهائل ، على الجانب الأمريكي من المحيط ،
خاصة في المستعمرات الانجليزية ، الذي خلق نقصا في الأراضي على السهل
الساحلي ، في الخمسينات من القرن الثامن عشر ، وبعث بآلاف المستوطنين
المتعطشين إلى الأرض ، يتدفقون خلال شعاب جبال الأبلاتش ، بحثا عن
أقاليم جديدة . فقد ازداد سكان المستعمرات الانجليزية من ربع مليون
نسمة سنة ١٧٠٠ إلى ١٢ مليون سنة ١٧٥٠ ، ثم ازدادوا أربعمائة ألف
أخرى في السنوات العشر التالية . وحدثت ثلاثة أرباع هذه الزيادة في

مستعمرات جنوب نيويورك . وكان الوكلاء الأوائل لهذه الاندفاع الهائلة نحو الغرب هم المضاربين في الأراضي الشرقيين . فما كان عليهم الا أن يراقبوا المهاجرين الألمان والاييرلنديين من أصل اسكتلندي ، الذين يرسون يوميا في بالتيمور ، وفيلادلفيا ، ونيويورك ، حتى يدركوا أن الثروات ستكون لمن يستطيعون ادعاء ملكيتهم للأرض الواقعة غرب المستوطنات .

وبرأسمال قدمه المستثمرون اللندنيون ، وأصحاب مزارع التبغ في فرجينيا ، والتجار الشماليون ، تكونت شركات للأراضي في الأربعينات والخمسينات من القرن الثامن عشر لتستفيد من هذا الانفجار السكاني (الديموجرافي) . فحصلت شركة أراضي أوهايو ، التي تكونت سنة ١٧٤٧ ، على نصف مليون فدان في وادي أوهايو . ونالت شركة أراضي مسكيهانا ، التي تكونت بعد ذلك ، بخمس سنوات ، حق ملكية مئات الآلاف من الأفدنة في بنسلفانيا ، ثم تسابقت ، في العقد التالي شركة ديلاوير ، وشركة ميامي ، وشركة انديانا ، وغيرها من المؤسسات الخاصة لاثبات حقوقها المزعومة . وبالرغم من أن البعض منها ، مثل شركة مسكيهانا أعلنوا أنهم يقصدون الى « فتح أكثر الأبواب فعالية لنقل نور انجيل المسيح المجيد بين قبائل الهنود العديدة التي تسكن هذه الأجزاء الداخلية » ، لم يكن هناك شك في الهدف الأساسي الذي يدور في ذهنهم (٢١) . فقد بدأ وكلاء المجتمع الانجليزي يبذلون جهودهم في غير رحمة للضغط على الزعماء الهنود للتخلي عن أراضيهم وبيعها ، ليمهدوا الطريق لمستوطنات جديدة للبيض . زد على ذلك ، أنه كلما أوغلت المستوطنة في تحركها غربا ، ازدادت قربا من امبراطورية التجارة الغربية للفرنسيين والعشائر الهندية المتحالفة معها .

الاستراتيجية الهندية في حرب السنوات السبع :

على الجانب المقابل من الأطلنطي ، عجلت المنافسات الدولية بحسم هذه القضية ، غرب مرتفعات أللجني . ففي سنة ١٧٤٨ ، أنهت فرنسا وانجلترا خلافتهما التي أدت الى قيام الحرب بينهما سنة ١٧٤٣ ، ولكن الطريق كان يعد لتجديد العداوات ، حتى قبل أن يجف مداد بنود المصالحة ، حيث ان عنصر التجار القوي في انجلترا ، يساندتهم الوكلاء الأمريكيون كانوا ينادون بتدمير تجارة فرنسا فيما وراء البحار . بل بدأ القتال في براري أمريكا الشمالية ، حتى قبل أن تؤدي الأحداث في أوروبا الى اعلان الحرب رسميا . وفي الوقت الذي انتهت فيه ، في منتصف الستينات من القرن الثامن عشر ، كان على فرنسا أن تتخلى عن ادعاءاتها في شمال الأطلنطي ، وتحطم نظام توازن القوى الأوروبية ، الذي كان مفتاح الاستقلال السياسي الهندي .

وأثناء الأربعينات من القرن الثامن عشر ، توغل تجار الفراء الانجليز من فرجينيا وبنسلفانيا في عمق وادي أوهايو ، وأقاموا مراكز أمامية على النهر. ورافده . وفي سنة ١٧٤٩ ، كتب قائد فورت ميامي ، الفرنسي ، جنوب ديترويت تقريراً بأن نحو ثلاثمائة تاجر انجليزى يعملون في أراضي أوهايو ، وينجحون في إيقاع الهنود في فلك تجارتهم . رجال بهذا الحس بعلم السياسة الطبيعية - أى بأثر العوامل الجغرافية والاقتصادية والسكانية في سياسة الدولة الخارجية - تأكدوا ، لعشرات السنين أن النضال على القارة لابد أن يتوقف على السيطرة على ما وراء اللجني غرباً . وقد اكتفى الانجليز ، لأكثر من قرن ، بسكنى السهل الساحلى الضيق ، تاركين قلب القارة لمنافسيهم ، مع حصولهم على نصيبهم من التجارة الهندية عن طريق الاتصالات التجارية التى تركزت فى البانى وتشارلستون . وهم يهددون الفرنسيين ، الآن ، حيث المصالح الفرنسية الحيوية . بالإضافة الى ذلك ، كان من الواضح أن سيطرة الأراضى ، المقتنين أثر تجار الفراء ، هم أنفسهم الحارس الأمامى لنمو السكان بنسب هندسية .

وكان أمام فرنسا خياران ، فاما أن تقاوم ، أو أن تسلم القارة للانجليز والأسبان . وقد اختارت الأول منهما ، بمحاولة صد واجبات أية زيادة فى التوسع الانجليزى باقامتها الحصون على طول وادي أوهايو ، والامعان فى جعل الهنود يتحللون من صلاتهم الانجليزية . وجرت محاولات لاقتناع الايروكوا ، والشاونى ، والديلاوير فى اقليم أوهايو بالأبقاء لهم الا بالتحالف مع الفرنسيين . ولقد حذر مبعوث فرنسى ، فى أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر من أن « الانجليز لا يتوقون الى سلب فرائكم وجلودكم غير المدبوغة ، بقدر ما يهمهم أن يصبحوا ملاكا لأراضيكم . وانكم عمى لدرجة أنكم لا ترون أن اليد التى تلاطفكم هى ذاتها التى ستذيقكم سوط عذاب ، مثل الزنوج والعبيد ، بمجرد أن تمتلك تلك الأراضى » (٢٢) .

لم يرغب الهنود ، على المدى القريب ، بالرغم من وعيهم التام بالتدفق انسكانى نحو الغرب ، فى أن يقطعوا صلاتهم بالتجار الانجليز ، الذين جلبوا اليهم البضائع الأوروبية ، التى لم يستطع الفرنسيون مجاراتها فى السعر أو النوع ، فضلا عن أن قوة الانجليز فى المنطقة كانت حقيقة واقعة . وكان الكلام الفرنسى عن التجارة جنوب البحيرات العظمى مجرد وعود . وقد بدأت فرنسا ، سنة ١٧٥٢ ، حملات لمدة أربع سنين ، لتغيير هذا الوضع ، فهاجمت المراكز التجارية الانجليزية ، وأقامت الحصون لتجارتها الخاصة . وقبل سنة ١٧٥٥ ، كانوا قد طردوا التجار الانجليز من وادي أوهايو ، ووطدوا أنفسهم فى أقصى ما وصلت اليه فروع النهر قرب

بتسبرج ، وبنسلفانيا الحاليين . وصلوا ببراعة ، ذلك الشاب الطموح ، جورج واشنطن الذى حاول طردهم من فورت ديكن Fort Duquesne .

وقد أصاب الشلل المميت ، المحاولات الانجليزية للرد على هذه الحملة الفرنسية الجريئة ، بسبب الانقسام الداخلى ، الذى كشفه تماما مؤتمر البانى ، سنة ١٧٥٤ . وكانت هذه هي المحاولة الأولى من المستعمرات للتوحد لأغراض عسكرية ، ومن خلال عمل موحد لاقتناع الايروكوا الذين يهتم الجميع بخروجهم عن موقفهم الحيادى . وكان من الأغراض الأساسية للمؤتمر أن يثبتوا للايروكوا أن فكرة الالتحام والحل القتالى تنتشران فى المستعمرات الانجليزية . ولكن ، بينما كان ممثلو المستعمرات يحاولون صياغة خطة للاتحاد ، كان وكلاء الأراضى فى كونيتيكت وبنسلفانيا ، مستغرقين فى التآمر لشراء أراضى الايروكوا غرب نهر مسكيهانا . وفى النهاية تحطمت محاولة التعاون بين المستعمرات ، وغادر الايروكوا المؤتمر ، مقتنعين ، على حد قولهم ، بأن الانجليز « مثل النساء ضعاف وجبناء ، يسهل الاعتداء عليهن » (٢٣) .

كان المقرر فى عواصم أوروبا ، وليس فى أمريكا ، أن يتم حسم الأمر بالقوة . وفى لندن ، تم تكوين تشكيلين بسرعة ، تحت امره الجنرال جيمس برادوك Braddock ، وصدر الأمر فى فرنسا لأربعة آلاف جندي نظامى بالتوجه الى الحصون الفرنسية فى لويزبورج بجزيرة كيب بريتون ، لحراسة طريق سانت لورانس البحرى وكويك . وقد قضى جيمس برادوك السنة الأخيرة من حياته فى شق طريقه عبر الأطلنطى ، وقيادة جيشه ، يعززه المتطوعون والمؤيدون الأمريكيون عبر بنسلفانيا ، وفى القفار الغربية . وعلى بعد أقل من عشرين ميلا من فورت ديكن كمن الفرنسيون وحلفاؤهم الهنود للأمريكيين الانجليز ، وأنزلوا هزيمة منكرة بجيش برادوك الذى كان يظن أنه لا يقهر ، وقوامه ٢٢٠٠ جندي ، وذلك بمهاجمته بقوة فى حجم ثلث قوته . وقد قتل وجرح ثلثا القوة الانجليزية ، وهرب الباقون تاركين وراءهم المدفعية والخيول ، وقطعان الماشية والمؤن .

عم الفرع الأراضى الخلفية لفرجينيا وبنسلفانيا ، بقية صيف سنة ١٧٥٥ ، بسبب اغارة الهنود الذين كانوا يغذون بالحقد فى صمت ضد المعتدين على حرمة الأراضى من البيض ، والتجار الحقراء . وجاءت الآن فرصتهم ليلازموا القوة العسكرية الفرنسية ، والحزازات المستمرة منذ عشرات السنين . ومن بين أول من أصاب المجتمعات الانجليزية والايروندية / الاسكتلندية ، والألمانية بالذعر هم الديلاوير ، الذين سبق اخراجهم بالغش والخلاع من أراضى القبيلة شرق بنسلفانيا منذ جيل مضى ، وكما تدفقوا بأعداد كبيرة نحو الغرب كلاجئين ، هربا من الظلم والاضطهاد

الاستعماري ، فانهم يرسلون الآن آلاف من اللاجئين الأوروبيين الهاربين الى الشرق ، بعد أن أعمالوا فيهم الحرق والقتل ، والسلب على طول جبهة بنسلفانيا ، كما صرخ أحد سكان المستعمرات قائلا وهو يبكي : « لقد تركت جميع السيدات والأطفال تقريبا مساكنها ، في طول سسكيهانا وعرضها ، وامتلات الطرقات بأعداد غفيرة من الجوعى ، العزل ، المعوزين » (٢٤) .

وفي سنتي ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ ، أدى تكرار انتصار الفرنسيين الى ذعر المستعمرات الانجليزية ، والى الهروب الجماعى منها . وسقطت محطة أوزويجو التجارية الانجليزية ، على بحيرة ايرى في أغسطس سنة ١٧٥٦ ، واستسلم ألفان من الجنود فى فورت وليام هنرى قرب بحيرة جورج فى أغسطس ١٧٥٧ . وكان الوضع الانجليزى ميئسا الى هذا الحد . لدرجة أن أشيع فى كويك أن حاكم بنسلفانيا وقد أفزعته الهجمات الهندية داخل فيلادلفيا لمسافة ثلاثين ميلا ، كان يرغب فى منح الهنود المعادين ، حق المرور الحر ، داخل المستعمرة اذا ركزوا هجماتهم على جبهة فرجينيا . وقد أدت غارات أخرى على حدود نيوانجلند ، فى وادى موهوك عند نيويورك ، وعلى كامل امتداد الجبهة من نيويورك حتى جورجيا ، الى توقعات مشئومة فى المستوطنات الانجليزية بأن القارة ستسقط فى قبضة الفرنسيين وحلفائهم الهنود .

لم يحدث هذا التفكك بين المستعمرات الانجليزية ، من قبل ، ولا ساد تغليب المصالح الشخصية المؤلم على مصلحة الجماعة . وقد تحدى سبعة آلاف كندى فرنسى وحلفاؤهم الهنود مليوناً ونصف المليون انجليزى ، مع مساندة الجيش البريطانى لهم ، وهزمهم تماما .

وفى هذه الظروف ، استمرت آمال الانجليز فى الحصول على المساندة أو على الأقل التعهد بالحياد من الأحلاف الهندية الرئيسية الأربعة فى الداخل ، وهم الايروكوا ، والشيروكى ، والكريك ، والشوكتاو ، لانه لو اكتسبهم المعسكر الفرنسى الى جانبه ، فلن تستطيع حتى التعزيزات المكثفة الضخمة من القوات البريطانية والمؤن ، والتي تم تعبئتها بتوجيه من وليام بت ، الذى تولى عبء رئاسة الوزارة الانجليزية ، فى الأيام الحالكة لسنة ١٧٥٦ ، أن توقف هذا المد الفرنسى . ولعله منذ أن اضطرت أول جماعة من المستوطنين الى الاعتماد على هنود الساحل ليمدوهم بالغذاء ، ويعلموهم فنون الزراعة أثناء « فترة المجاعة » لم يحدث أبدا أن اعتمدت المستعمرات الانجليزية هذا الاعتماد على رضا الهنود .

ولم يلن من الممكن ، قبل ذلك ، التأكد من مدى ما يبعثه التأيد أو الحياد الهندى من اطمئنان . وقد ثبت أن من الصعب الحصول على ولاء

القبائل الداخلية المزدحمة ، بعد قرن من العداة المتقطع ، والجوع المسعور الى الاراضى الغربية الهندية ، والذي جرى خلال العقد السابق . وقد بدت نبوءة تلك الكلمات التى كتبها سنة ١٧٥٤ ، ادمون آتكن Edmon Atken تاجر تشارلستون الهندى ، الذى أصبح بسرعة الحاكم الانجليزى للهنود الجنوبيين حيث يقول : « أصبحت أهمية الهنود اليوم أمرا معروفا ، ومفهوما ، بصفة عامة ، وليس لدينا أى شك فى أن ازدهار مستعمراتنا فى القارة يتوقف نجاحه أو فشله على مدى أهميتنا وحظوتنا بينهم . وعلى الرغم من أنهم أصـدقـاؤنا ، الا أننا نجدهم أرخص وأقوى ما يكونون لحماية مستعمراتنا ، فعندما يعادوننا ، يستطيعون بما لديهم من قدرة على التخريب ، حسب أسلوبهم فى الحرب أن يفقدوا تلك الممتلكات قيمتها ، رغم كل ما يمكننا عمله » (٢٥) .

الايروكوا :

يمكن توضيح وضع الايروكوا ، بتصورنا لقابلية الانجليز للموقع فى يد الأعداء ، والتى أشار اليها آتكن . ففى مفاوضاتهم مع الفرنسيين ، ادعى الانجليز أن تأييد الايروكوا حقيقة لا ريب فيها ، وأخبروا حاكم كندا ، بصورة غير قاطعة أن كل أعضاء قبائل الايروكوا هم رعايا ملك انجلترا . بلا نزاع (٢٦) . ولكن الانجليز كانوا يعرفون أن تحالفهم مع الايروكوا ، وتابعيهم الديلاوير ، الشرقيين ، لا يمكن ضمانه الا بوسيلتين فقط هما : استمالتهم بالرشوة ، أو باظهار القوة لهم بدرجة تقنع الديلاوير بأن الانجليز سينتصرون بمساندتهم أو بدونها ، وبذلك يرون أن الحكمة تقتضى أن يختاروا الجانب الرابع منذ البداية . لقد أثبتت أول حيلة عسكرية فشلها سنة ١٧٥٤ ، عندما غادر ممثلو العشائر الست مؤتمر ألبانى ومعهم ثلاثون عربية بضائع محملة بالهدايا دون أن يخطوا مقابلا سوى التلويح الدائم بأنصاف الوعود ، بالمساندة ضد الفرنسيين الذين استمروا يحرزون انتصارات كبيرة فى السنوات الثلاث التالية . ولم يساند الايروكوا الانجليز الأمريكين الا عندما دفعوا لهم أجورا كجنود مرتزقة ، وذلك كما حدث سنة ١٧٥٧ حينما جمع نحو خمسمائة من الموهوك ٣٣٦٠٢ جنيه لصالح القوات الانجليزية فى نيويورك (٢٧) .

وقد بذلت محاولات أخرى خلال السنتين التاليتين لجعل الايروكوا يخضعون الديلاوير المهاجمين والذين دفعوا خط المستعمرات فى بنسلفانيا الى الوراة ناحية المقاطعات الشرقية . وكانت بنسلفانيا ذاتها ، منقسمة بين الكويكرز المعارضين للحرب ، الذين يعتقدون أن سكان الحدود الاسكتلنديين والاييرلنديين يجنون ثمار ما بذروه سنين طويلة ، من استغلال للهنود ، وسوء معاملتهم لهم ، وسلبهم بالخداع والغش ، وبين المناضلين من

البرصبتاريين - أتباع الكنيسة المشيخية - والانجليكان الذين كانوا يريدون استخدام الضرائب في هجوم مضاد قوى ضد المهاجرين ، فقد كتب المترجم الرسمي للمستعمرة ، سنة ١٧٥٧ ، عقب المؤتمر الذي عقد من أجل التخلص من غضب الديلاوير ، فقال : « لقد عرف الهنود ضعفنا عندما أبلغناهم بانقساماتنا » (٢٨) .

وعلى كل حال ، مرت سنة ، حتى أكتوبر ١٧٥٨ ، قبل أن يستطيع الانجليز الحصول على وعد من الايروكوا بالسيطرة على الديلاوير وإيقاف هجماتهم على بنسلفانيا . وقد غادر الهنود المؤتمر بعربة قطار ملأى « بالهدايا » . ومن السهل أن نفترض أن هذه التنازلات من الهنود كانت ببساطة رد فعل للحوافز التي قدمها البيض . ومن وجهة نظر الهندي ، من ناحية ثانية ، كان لمعاهدة إيستون Easton Treaty معنى مختلف . فلم يكن هناك التزام عسكري للانجليز ، وقد استعاد الايروكوا قطعة الأرض الشاسعة غرب نهر مسكيجانا ، التي كانوا قد تخلوا عنها لبنسلفانيا منذ أربع سنوات في مؤتمر ألبارني ، في مقابل تعهدهم بالحياد ، وتأكيدهم على طمأنة الانجليز من جهة عداوة الديلاوير . وهكذا ، تدعم تأمين الأمن الاقليمي ، غرب مرتفعات اللجني .

باستثناء التأييد القاتر من الموهوك ، فإن الايروكوا - وهم أبعد العشائر الست شرقا - اما حافظوا على حيادهم أو حاربوا ، كما في حالة السينيكا مع الفرنسيين في حملاتهم سنتي ١٧٥٧ ، ١٧٥٨ . أما عن الموهوك ، فلا يمكن تفسير تحالفهم مع الانجليز بقربهم من مركز التجارة الانجليزية فقط في ألبارني ، ولكن أيضا ، بالمبالغ الضخمة التي كانت تدفع نظير خدماتهم ، وواقع زواج وليام جونسون الذي عين مراقبا بريطانيا للهنود الشماليين ، من امرأة من الموهوك ، ومعيشتهم بينهم لعدة سنوات ، بعد وصوله الى أمريكا سنة ١٧٣٩ . وكما اكتشف كل الانجليز ، الذين حاولوا التودد الى الايروكوا في السنوات الكثيرة من ١٧٥٤ - ١٧٥٨ ، عقدت العشائر الست العزم على متابعة سياستهم التقليدية للتحرر من الحروب الأوروبية ، وحماية أوطان قبائلهم . ولهذه الأسباب ، تصدوا لكل حملة حربية حاولت المرور عبر أراضيهم . وفي مايو ١٧٥٨ ، طلبت العشائر الست ، بوجه خاص ، من وليم جونسون أكثر الانجليز نفوذا وتأثيرا أن يبتعد عن المؤتمر الكبير للايروكوا في أونونداجا ، حيث كان يأمل في أن يجندهم لمساندة الحملة الصيفية ضد الفرنسيين في فورت تيكوندروجا Fort Ticonderoga . وبالرغم من أن الموهوك قد أعطوا بعض الوعود ، كانوا حريصين على ألا يشتركوا مع الجيش الانجليزي الا بعد أن حارب معركة الرئيسية .

وفي سنة ١٧٥٩ ، عكس الايروكوا موقفهم . وأدت الملاحظات التي بعث بها جونسون لاستطلاع رأى الملك الى أن يقرر في تفاؤل ، أنه اذا جهز الانجليز حملة ضد معقل الفرنسيين في فورت نياجارا « أو أى مكان آخر في بلاد العشائر الست ، فاني أستطيع بذلك ، أن أقنع الجزء الأعظم منهم ، ان لم يكن جميعهم ، بالانضمام الى قوات جلالته » (٢٩) . ومع ذلك ، لم يكن جونسون هو القادر على أن « يقنع » بل ان الايروكوا هم الذين قيموا حجم الوضع العسكري الانجليزى / الفرنسى وأهميته في مجالسهم الخاصة ، ثم أعادوا تشكيل نظامهم الخاص في الحكم ، وبعد هزيمة أربع سنوات ، عاد المد لصالح الانجليز في يولية ١٧٥٨ عندما سقطت لويزبورج ، وفورت فرانتيناك Fort Frontenac ، وهما المركزان الاستراتيجيان للقوة الفرنسية في الأطراف المقابلة من نهر سانت لورنس ، قبل هجوم الانجليز الأمريكين . وفي نوفمبر ١٧٥٨ ، تخلى الفرنسيون ، بواسطة الديلاوير الذين قبلوا وعود معاهدة ايستون ، عن فورت ديكين ، عند تفرعات نهر أوهايو . وبنهاية العام ، كان أوهايو الأعلى في أيدي الانجليز ، لأول مرة ، منذ أربع سنوات . وقد عبأ وليام بت قوة الشعب الانجليزى المحاربة – فكان الرجال في الميدان أكثر مما وجدها في نيوفرانس كلها – وكفوا عن الشجار ، لفترة طويلة حتى يوقفوا المد الفرنسى .

ساعتت هذه الانتصارات الانجليزية على ابعاد الايروكوا عن موقف الحياذ الذي تمسكوا به طويلا . ومما حفزهم على الارتباط بالقضية الانجليزية ، أسر السفن الفرنسية التي تجلب السلع التجارية طوال السنة الى مونتريال – وهو تحول غير متوقع للثروة التي حسنت من موقف الانجليز ، الى حد بعيد في اقناع العشائر الست واستمالتهم . وفي أبريل ١٧٥٩ جاء زعماء الايروكوا الى كاناجوهارى Canajoharie مدينة الموهوك ، تنفيذاً للسياسة الجديدة في معاهدة ايستون ، ووعدها ثمانمائة محارب بهجوم على فورت نياجارا ، المحطة الفرنسية لتجارة الفراء على بحيرة أونتاريو . فقد قدر الايروكوا حساباتهم جيدا ، بأن الفرنسيين ينحدرون الى الهزيمة في أمريكا الشمالية .

استلزم هذا التحول في الأحداث من النقيض الى النقيض ، بالنسبة للايروكوا أن ينظموا قواهم بسرعة . وتم ذلك في يولية ١٧٥٩ عندما طردوا الفرنسيين من فورت نياجارا ، وبذلك فتحوا للانجليز المدخل الاستراتيجى الى القبائل الغربية . فقد كتب ضابط انجليزى أن « الاستيلاء على نياجارا ، كان أعظم نتيجة بالنسبة للانجليز ، لأنها تعطينا المناسبة السعيدة لبدء الصداقة وتعزيزها مع هذه القبائل الكبيرة العدد من الهنود التي تسكن على حواف بحيرات ايرى ، وهورن ، ومنتشيجان ، وكذلك بحيرة سوبيريور .

وكانت تجارة الفراء التي تحملها هذه القبائل المتمركزة كلها عند نياجارا ، من الأهمية بمكان ، حتى ان بعض الخبراء المهرة ، قد أخبروني بأن الفرنسيين لا يرون قيمة لكندا بدون امتلاك هذا المر « (٣٠) » . لقد تحطمت الامبراطورية الفرنسية الآن ، تماما ، في أمريكا الشمالية .

من المهم أن نشير الى أن القبائل الست استطاعوا ، طوال الحرب أن يقيموا بدقة الميزان العسكري المتقلب بين القوى الأوروبية المتنافسة ، وشكلوا سياستهم وفقا لذلك . وبالرغم من أنهم لم يكتبوا مذكرات تفسر تصرفاتهم العسكرية ، ولم يحركوا قوات أو امدادات في الميدان ، الا أن وسائل اتصالهم وشبكة معلوماتهم قد امتدت عبر كافة أنحاء المنطقة التي كان يتحارب فيها الانجليز والفرنسيون . وقد أدركت مجالسهم بذلك ووعى متى يكون الميزان الاستراتيجي في الاتجاه البريطاني . لقد أطرى معظم مؤرخي « الحرب العظمى من أجل الامبراطورية » براعة وليام بت في « استمالة » الايروكوا و « حثهم » على الوقوف في جانب الانجليز . الا أن الدليل المؤكد هو أن الايروكوا ، كانوا يعيدون تقييم موقفهم الشخصي باستمرار ، خدمة لمصالحهم الشخصية . وبالرغم من مداينة الانجليز لهم ، والهدايا ، وإعادة المناطق التي سبق أن استولوا عليها ، رفض الايروكوا الوقوف بجانب الانجليز طوال السنوات الأربع الأولى للحرب ، أو حتى السماح بمرورهم عبر أرضهم . ولكن عندما بدأ تفوق الانجليز العسكري يعلن عن نفسه عام ١٧٥٩ ، عدل الايروكوا عن حيادهم بسرعة ، وشاركوا في جني ثمار النصر . وإذا كانت « سياستهم الواقعية » قد فشلت ، على كل حال ، فقد كان ذلك لعدم ادراكهم أن الحفاظ على القوة الفرنسية في أمريكا الشمالية كان ضروريا للحفاظ على مصالحهم ، على المدى البعيد .

الشيروكي :

كان الكريك ، والشيروكي ، في الجنوب ، منمكنين في اجراء حسابات مماثلة لتحقيق مصالحهم الشخصية . وكان الشيروكي أكبر عددا من الايروكوا والكريك ، ولربما بلغ مجموعهم نحو ١٢ ألف نسمة ، في منتصف القرن الثامن عشر . وقد اعتبر الانجليز تحالفهم أو حيادهم أمرا لا غنى عنه للوجود الاستعماري في المنطقة من فرجينيا حتى جورجيا . ونظرا لسكنائهم في مرتفعات الأبلاتش الى غرب مستوطنات كارولينا وجورجيا ، ولبسالة محاربيهم المشهورة ، تحالف الانجليز معهم في التجارة والحرب منذ أواخر القرن السابع عشر . ولما واجه الكارولينيون أعداء آخرين من الهنود ، اعتبروا مساندة الشيروكي لهم هي حجر الزاوية في سياستهم الهندية ، ولم يغفل الشيروكي عن ذلك . فهم يدركون أنهم لعبوا الدور الحاسم في حرب الياماسي سنة ١٧١٥ ، كما ناوروا كاحسن ما تعارف

عليه الساسة الأوروبيون ، على حد ما اعترف به الكارولينيون . وفي سنة ١٧١٧ ، اشتكى زعماء كارولينا بقولهم : « انهم اهانونا للغاية ، في آخر مرة كانوا هنا [في تشارلستون] ، وأنهم جعلونا في الواقع توابع لهم بمطالبهم التي كنا مجبرين على تنفيذها » (٣١) .

تذبذب تأييد الشيروكي في مواضع مختلفة ، بعد حرب الياماسي ، خاصة في الثلاثينات من القرن الثامن عشر . فقد أثارت مساوىء الاستغلال التجارى خلال هذا العقد حنقهم ، وعندما جاءهم الألماني الغامض ، جوتليب بريبر Gottlieb Priber في سنة ١٧٣٦ ، وجدهم مستعدين لتقبل رسالته . فرحبت به مدن الشيروكي نظرا لاحترامه الحقيقي للحضارة الهندية ، وسخطه على المجتمع الأوروبي ، الذي اعتبره فاسدا فسادا لا شفاء منه . وكان المؤرخون مفتونين بمجتمع المدينة الفاضلة في جمهورية أفلاطون الذي كان بريبر يشرح به في كل مكان يذهب اليه ، مما جعل مستوطنات البيض تعتبره مخرجا جديدا . ولكن أهمية بريبر لدى الشيروكي كانت تكمن في جهوده لتعليمهم استعمال الموازين والمكاييل حتى يستطيعوا حماية أنفسهم من التجار غير الشرفاء ، المضللين . كما نبههم بريبر ، أيضا ، الى الحفاظ على حريتهم بعدم الثقة في أى أوروبي ، وشجعهم على رعاية صلاتهم التجارية مع الفرنسيين في نيواورليانز كوسيلة لتقليل النفوذ الانجليزى أو القضاء عليه .

وتضمنت خطة لاستمرار البقاء الهندى في الجنوب عقد تحالف بين كل القبائل الكبرى في المنطقة ، واقامة مدينة يلجأ اليها العبيد والمدنيون الهاربون داخل اقليم الشيروكي ، وأن يجعل الهنود يصممون تصميميا لا يلين الا يسلموا أية أرض تابعة لهم ، وألا يقسموا أى تنازلات لأى قوة أوروبية ، وأن يستمروا في لعبة توازن القوى في علاقاتهم مع الفرنسيين والانجليز والاسبان . وتدل نظرة الشيروكي له على أنه « رجل عزيز جدا عليهم » على مدى تأرجح الأفكار المعادية للأوروبي ، خاصة الانجليزى ، والتي تردد صداها في ذهن الشيروكي حتى عندما كانت العلاقات وثيقة مع الكارولينيين .

حينما أصدر حاكم كارولينا الجنوبية أمرا بالقبض على بريبر ، سنة ١٧٣٩ ، رفض الشيروكي تسليمه الى السلطات الاستعمارية ، ولكن الكريك قبضوا عليه سنة ١٧٤٣ ، وهو في طريقه الى الفرنسيين في نيواورليانز ، وسلموه الى الانجليز في جورجيا ، حيث مات هناك في فريديريكا Frederica ، بعد سنوات قليلة من سجنه . وفي سنة ١٧٤٨ ، قامت حكومة كارولينا بمعاداة الشيروكي ، برفضها تنفيذ معاهدة المساعدة المتبادلة عندما هوجم الشيروكي من قبائل الكريك الشماليين ، وردا على

ذلك ، هاجم الشيروكى تجار كارولينا البيض ليثبتوا أنهم لا يعتبرون أنفسهم رعايا انجليز ، وانما لديهم القوة الكافية للتحكم فى هويتهم الخاصة . وكانوا يعرضون على الفرنسيين اقتراحاتهم من أن لآخر ، للاخلال بتوازن الانجليز .

اعتمد الانجليز على الشيروكى ، بقدر اعتماد الشيروكى على الكارولينيين . وهذا أمر معترف به صراحة بانتهاء ثورة الشيروكى سنة ١٧٥٠ ، حينما ذكر حاكم كارولينا الجنوبية المجلس التشريعى بأنه « من الضرورى جدا لنا أن نكون على صداقة مع الشيروكى بوجه خاص » ، « لأنهم يبلغون نحو ثلاثة آلاف مقاتل محترف ، وأكبر شعب نعرفه فى أمريكا باستثناء الشوكتاو ٠٠٠ » (٣٢) . ولما كان الشوكتاو مرتبطين منذ مدة طويلة بالفرنسيين فى منطقة ما وراء المسيسيبى ، فقد هب الشيروكى منطقة فاصلة ، لا غنى عنها بين الانجليز وأعدائهم الفرنسيين . كما أن رغبة التاج فى تسليم نحو ٦٠٠٠ جنيه الى الكريك والشيروكى ، تعويضاً لهم عن الهدايا سنتى ١٧٤٩ ، ١٧٥٠ ، تعتبر شاهداً قوياً على اهتمام الانجليز بالحفاظ على التحالف . وتضاعفت مصاريف كارولينا الجنوبية على الهدايا الهندية بين سنتى ١٧٥٠ ، ١٧٥٨ فبلغت ١٤٨٣٧ جنيه فى السنة الأخير - وهى دليل آخر على قدرة الهنود على استغلال اعتماد الكارولينيين عليهم (٣٣) .

ان سياسة الشيروكى فى المحافظة على التحالف الظاهرى مع الانجليز ، بينما هم يحاولون فى الواقع الاحتفاظ باستقلالهم فى تصرفاتهم ، كانت أوضح ما تكون فى الفترة من ١٧٥٣ - ١٧٥٥ . وفى آخر ١٧٥٣ ، ١٧٥٤ ، واطلب حاكم فرجينيا ، بشكل جدى على ملاطفة الشيروكى لكسب تأييدهم لمحاولة واشنطن طرد الفرنسيين من ملتقى روافد نهر أوهايو . فبدون المساندة الهندية فقط ، لا يمكن التغلب على القوات الفرنسية الأكبر منه . ورد زعماء الشيروكى بوعدهم للفرجينيين بألف من المحاربين ، بينما كانوا يضغطون فى نفس الوقت على حكومة كارولينا لتحسين أسعار التجارة ، ويتبادلون الرأى مع الفرنسيين فى فورت تولوز على نهر ألباما ، وعبروا لحاكم فرجينيا عن اهتمامهم بإحياء التجارة القديمة بين فرجينيا والشيروكى التى كان يخدمها الشيروكى فى الماضى ، وذلك ليدكروا الكارولينيين بأن تجارتهم مرغوبة ولا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها . ولكن ، فى النهاية ، اختفى وعدهم لواشنطن بمشاركته فى غزوته داخل البرارى ، كما يختفى الدخان فى الهواء .

وفى السنة التالية ، عندما رجع الفرجينيون يبحثون عن دعم لحملة برادوك استخدم الشيروكى بمهارة وعودهم بارسال مئات من المحاربين

الذين لم يلتحقوا أبدا بحملة برادوك ، وذلك ليحصلوا على التجارة مع فرجينيا بشروط مقبولة لهم أكثر مما قدمه الكارولينيون . فقد كانوا على وعى تام بأن كارولينا الجنوبية وفرجينيا كانتا أقرب ما تكونان للانفجار فى قتال للسيطرة على تجارة الشيروكى ، فاستخدموا هذا العداء بين الاستعماريين لمصلحتهم . وحينما لقي برادوك هزيمته النكراء ، لم يكن معه فى جيشه سوى ثمانية من الهنود .

فى مايو ١٧٥٥ ، قابل الكارولينيون رؤساء الشيروكى بعيدا فى داخل بلادهم لعقد معاهدة بينهما وعندما وافق الشيروكى على الاعتراف بملك الانجليز حاكما لهم ، والتنازل عن بعض أراضيهم للحكومة الملكية ظن الكارولينيون أنهم أنجزوا تقدما عظيما ومفاجئا فى اغراء الهنود بالخروج عن حيادهم . وفى مقابل ذلك ، تعهدوا بتوفير السلع التجارية بأسعار رخيصة وبناء حصن فى بلاد الشيروكى ، لتكفل لهم الحماية ضد الفرنسيين وأعدائهم الكريك .

ولقد اتضح ، فى خمس السنوات التالية مدى عدم فهم الانجليز لدبلوماسية الهنود . فبالرغم من احتفال حاكم كارولينا الجنوبية بمعاهدة ١٧٥٥ ومباهاته « باضافة ما يقرب من ١٠٠٠٠ فرد الى رعايا جلالته ، وأكثر من ٤٠ مليون فدان الى أراضيه » ، لم يعتبر الشيروكى أنفسهم رعايا للسلطة البريطانية أو يخضعوا أراضيهم لها ، الا بقدر ما تخدم أهدافهم المشتركة على نحو يرضونه (٣٤) . فقد حارب نحو ٢٥٠ من الشيروكى مع ميليشيا فرجينيا على الحدود الغربية ، سنة ١٧٥٧ ، ولكنهم وافقوا على الخدمة بصفقتهم مرتزقة لا رعايا . فاذا لم يدفع لهم حسب الاتفاق ، يقومون فورا بنهب مستوطنات حدود فرجينيا ، ليجمعوا بالقوة ما قصرت الحكومة البيضاء عن اعطائه لهم . وتكررت العملية فى السنة التالية ، الا أن سكان الحدود فى فرجينيا ، فى هذه المرة ، والذين يفترض أن الهنود يحاربون من أجلهم ، هم الذين بدءوا ينصبون الكمائن للشيروكى العائدين من القتال ، والذين أقاموا مساكنهم بعيدا عن المنطقة . وبذلك ، فقد ثلاثون شيروكيا حياتهم على يد حلفائهم فى صيف وخريف ١٧٥٨ . أضف الى دافع الكراهية الهندية للفرجينيين تخصيص المستعمرة جائزة وقدرها ٥٠ جنيها عن كل فروة رأس للهنود الأعداء أمثال الشارونى . ففروة الرأس بالنسبة للفرجينيين الجشعين هى فروة الرأس ، سواء أكانت لشيروكى أو لشارونى . فكل جائزة كانت تكسب حاملها ما يعادل دخل مزارع على الحدود لمدة سنة . ولم يتطلب الأمر أكثر من بضع حوادث من هذا النوع حتى تتأجج فى كل مكان ، جمرات العداء للانجليز الكامنة فى مدن الشيروكى ، على يد الجماعات المؤيدة للفرنسيين . فقد خرج الرسل الى

الكريك ، والتشيكا ساو ، وفى شتاء ١٧٥٨ - ١٧٥٩ ذاع الحديث عن ثورة كل الهنود ، على طول الحدود الجنوبية ، وعمل وكلاء الانجليز ، فى جدية ، لاقتناع القبائل بأن التعرض لشحنات السفن الفرنسية فى أمريكا الشمالية يجعل من المستحيل على الهنود أن يحصلوا من الفرنسيين على السلاح والذخيرة أو حتى السلع العادية ، وكان ذلك أعظم سلاح فى يد الانجليز .

وبالرغم من أن قدرة الانجليز على قطع خطوط الامداد والتموين الفرنسية قد أبعدت الكريك عن الثورة ضد الانجليز ، كان على الشيروكى أن يجدوا تفسيراً لحالات الوفاة لكثير من عشرات الرجال من قبيلتهم . وقد اشتعلت حرب الحدود فى كل مكان من الأراضى الخلفية لكارولينا وفرجينيا . وبالرغم من بعض حالات الاسترضاء ذهب رؤساء الشيروكى الى تشارلستون لمحادثات سلام ، فى سبتمبر ١٧٥٩ ، وكان حاكم كارولينا الجنوبية ، وليام هنرى ليتيلتون W. H. Lyttelton ، تواقاً للحرب فى ذلك الوقت مثلما كان الشيروكى الغاضبون ، فقام بحملة على أراضى الشيروكى ، قوامها ١٧٠٠ رجل ، لعلها كانت أكبر قوة انجليزية تجمعت حتى الآن فى الجنوب لمحاربة الهنود . وفى المعاهدة التى انتزعها منهم بالقوة ، وبخ ليتيلتون الهنود على كل ما حدث . انها لم تكن معاهدة سلام أبداً ، فى الواقع ، اذ وقعها زعماء الشيروكى تحت الاكراه ، ولم تحقق شيئاً سوى زيادة اشتغال غضبهم .

اندلعت الحرب مرة ثانية ، فى سنة ١٧٦٠ ، بدرجة أقوى . وكان الشيروكى فى هذا الوقت أكثر اتحاداً عن ذى قبل ، فى مقاومتهم للانجليز . وسرعان ما أدرك الحاكم الجديد لكارولينا الجنوبية ، وليام بل W. Bull أن الشيروكى يضارعون أكبر قوة ميليشيا أمكنه أن يضعها فى الميدان . وانحناء منه للظروف ، وافق على معاهدة بها تنازلات للشيروكى ، وعبر عنها بدقة بقوله : « قد لانرى أنها مناسبة حسب قواعد الشرف المرعية وسط الأوروبيين » (٣٥) . ولقد أثبت وصول ١٣٠٠ رجل من القوات الممتازة لسير جيفرى أمهرست Jeffrey Amherst ، فى أبريل ١٧٦٠ وحملتهم التالية ضد الشيروكى ، صعوبة محاربة الهنود على أرضهم . ونظراً لعجزها عن التقدم فى الأرض الكثيرة التلال ، وتعرضها للكماثن دائماً « أنجزت الحملة القليل » على حد ما انتهى اليه أحد المؤرخين « ما لم تكن قد عززت معنويات الشيروكى » (٣٦) . وعادت القوة الى تشارلستون بعد أن تلقت ضربات عنيفة ومخزية الى أبعد حد . وبعد ذلك بقليل ، استسلمت الحامية الرئيسية الانجليزية فى بلاد الشيروكى بعد حصار هؤلاء لهم . وفى الصيف التالى ، حاول الكرة ١٨٠٠ جندي بريطاني نظامى باشتراك ٧٠٠ من ميليشيا القرى المحلية ، ولكنهم حققوا نجاحاً أكبر ، فى هذه المرة ، بحرقهم قرى الشيروكى ومحاصيلهم . ومع انقطاع الامدادات

الفرنسية فعليا ، خضع الشيروكي لمعاملة سلام اعترفوا فيها بالسيادة الانجليزية ، وأقامت الحدود الشرقية لاقليمهم .

جرت محاولات من الشيروكي ، طوال ثورة ١٧٥٩ - ١٧٦١ لحث الكريك على خلع قضيتهم . وكان رفض الشيروكي طوال جيلين سابقين ، لمشاركة الكريك في حرب الياماسي ضد الكارولينيين قد كلف الكريك نصرهم . واليوم فان قرار الكريك ببقائهم على الحياد يكلف الشيروكي الكثير . وبالرغم من أن قلة من الكريك قد قتلت بعض التجار الانجليز ممن لا أخلاق لهم ، سنة ١٧٦٠ ، الا أنهم حافظوا على حيادهم ، بعد أن أدرك أغلبهم أن الفرنسيين لن يستطيعوا ملهم بالسلع والذخيرة ، وهكذا ، تركوا الشيروكي يحاربون الانجليز وحدهم ، ويكافحون نقص الطعام ، وعجز الذخيرة ، ووباء الجدري ومن السخرية ، أن البضائع الوحيدة التي كانت تصل اليهم من الفرنسيين ، كانت بواسطة ربابنة سفن نيوانجلند الذين يهربون التموين الى الحصون الفرنسية على خليج المكسيك . واضطر الشيروكي ، تحت وطأة نقص البضائع الى العودة الى عادات قديمة لهم ، مثل تفصيل الملابس من جلود الأيائل والدببة ، وتزويد رؤوس السهام بأسنة من العظام بدلا من النحاس الوارد من السفن التجارية . ولكن ، نظرا لانقطاع السلع التجارية الأخرى عنهم ، وعدم استطاعتهم تنظيم موقف هجومي من كل الهنود . فقد لحقوا بالفرنسيين الخاسرين في الحرب العظمى من أجل الامبراطورية .

الكريك :

بينما رأى الايروكوا أنه يمكن قهر الفرنسيين ، فضموا جهودهم الى الانجليز ، وتذبذب الشيروكي بين التحالف مع الانجليز ، والحرب ضدهم أثناء حرب السنوات السبع ، ثابر الكريك على سياسة الحياد التي كانت السمة المميزة لدبلوماسيةهم منذ حرب الياماسي . وظلت اهتماماتهم الأساسية في التجارة والحفاظ على سيادتها السياسية . وطوال الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، تنقل الكريك من أراضي الشيروكي الى المراكز التجارية الفرنسية في فورت تولوز ، وموبيل ، يقبلون الهدايا من كل من الفرنسيين والانجليز ، ويعقدون صفقات المخبون بأفضل شروط ممكنة لهم في تجارة الجلود . وكان الصراع المتهور في مدن الكريك يدور بين أنصار فرنسا ، ومؤيدي الانجليز ، وأتباع الحياد . ولكن ، في سنة ١٧٥٧ ، أعاق التفوق البحري البريطاني ، الشحن البحري الفرنسي تماما ، مما أصاب زعماء الكريك بضربة حاسمة مباشرة ، وهم الذين كانوا يؤيدون قيام ثورة هندية شاملة ضد الانجليز من الشاوني ، والكريك ، والتشيكاساو ، والكتاوبا . وقد شدد الانجليز قبضتهم على الكريك في

سنتي ١٧٥٨ ، ١٧٥٩ باعداق الهدايا عليهم . ونظرا لحساسيتهم من احتمال انتشار تمرد الشيروكي ، قضى هنري اليز Elus ، حاكم جورجيا ربيع ١٧٦٠ وهو يحاول أن « يحرض كل ذي نفوذ ، في محاولة منه لعطع العلاقات بين هذين الشعبين » - الكريك والشيروكي (٣٧) .

وبالرغم من رفض الكريك لمشاركة الشيروكي ، الا أنهم استغلوا تمرد جيرانهم لمنفعتهم الخاصة . فحينما كانت تندر السلع الانجليزية أو يرتفع سعرها ، كانوا يخبرون التجار الانجليز ، بصورة عرضيه أن الخلاف مع الشيروكي والفرنسيين الذين هم على صلة دائمة بهم ، قد اتخذ شكلا جديدا جذابا . ولكن حقيقة الأمر ، أن اشتعال ثورة الشيروكي قد قسمت الكريك بشكل سيء . واستمر أنصار الفرنسيين يشيرون الشيروكي لبذل مزيد من المحاولات ضد الانجليز ، بل وقتلوا أحد عشر مستوطنا انجليزيا في محاولة منهم لاثارة هجوم انجليزي ، مما يثير شعب الكريك بالضرورة ليقفوا وراء الشيروكي . وقد فشلت ، على كل حال ، حكومتا كارولينا وجورجيا في أن تلتقطا هذا الطعم . لقد كان قرار عدم الرد على قتل التجار ، أو حتى مطالبة الكريك باعدام القتلة ، دليلا مثيرا على الوضع القلق ، المحفوف بالمخاطر بالنسبة للمستعمرين الجنوبيين ، وعلى حاجتهم الأساسية لبقاء الكريك على الحياد . فلو كان ميزان القوى في جانب الانجليز ، لكانت قد اتخذت اجراءات عنيفة ، تجعل الكريك في موضع المساءلة عن أمثال هؤلاء القتلة .

وبالرغم من انتصارات الشيروكي في سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٦١ ، بما في ذلك الهزيمة التي أنزلوها بحملة مكونة من ١٦٠٠ جندي بريطاني وأمريكي ، فسدت محاولة الكريك لوقف مبدأ التوسع الانجليزي في النهاية ، بسبب عجز الفرنسيين عن توفير فيض بديل من الأسلحة والسلع الحيوية . وفي لقاء حاسم مع الفرنسيين والشيروكي والكريك في فورت تولوز في مارس ١٧٦١ ، اتضح بجلاء أن الفرنسيين لا يملكون أية ذخيرة حربية أو هدايا ، أو سلع تجارية ليعززوا بها محادثاتهم لطرد الانجليز من القارة التي قررت الانتصارات الانجليزية في الشمال مصير الفرنسيين فيها نهائيا . وانتهت بالنسبة للكريك ، سنوات الانقسامات الداخلية ، والمفاوضات الخارجية ، وحافظوا على حيادهم ، وأبقوا على تجارتهم الربحية مع كل من الفرنسيين والانجليز لمدة نصف قرن . وان كانوا قد أصبحوا بهذه العملية معتمدين على الارتباط التجاري الأوروبي .

ان الانتصارات الانجليزية - الأمريكية في الشمال ، التي بدأت ، سنة ١٧٥٩ بالاستيلاء على فورت نياجارا ، واستمرت بالانتصار الحاسم لولف Wolfe في كويك ، وبلوغ الذروة في السنة التالية بسقوط

مونتريال ، كل ذلك أنهى تماما قرنين من الزمان للوجود الفرنسي في أمريكا الشمالية . لم يقر السلام رسميا حتى سنة ١٧٦٣ ، ولكن الأعمال العدائية انتهت قبل ذلك بعامين .

كان صلح باريس ضربة قاسية ، بالنسبة للشعوب الهندية التي برهنت على هذا الاستقلال في التصرف ، وعلى هذه القوة المؤثرة خلال حرب السنوات السبع . وعلى خلاف القبائل الساحلية ، التي شاهدت انحسار أعدادها واستقلالها خلال الاحتكاك بالمدينة الأوروبية ، زادت القبائل الداخلية قوة ، وازدادت هيبتها العسكرية ، وتطورت تكنولوجيا نتيجة علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الانجليز ، والفرنسيين ، والأسبان . فقد كانوا قادرين على تحويل اعتمادهم على التجارة الأوروبية لصالحهم طالما كان هناك أكثر من مصدر للسلع ، وقادرين على فهم الأسلوب الأوروبي في المكائد الدبلوماسية ، واستعماله لخدمة مصالحهم الشخصية ، وأثبتوا قدرتهم على تجنب أو هزيمة الجيوش الأوروبية المتفوقة عليهم في العدد .

ومع ذلك ، بالرغم من أنهم كانوا يلعبون بعض الأدوار الحاكمة على أرض القارة ، لم تملك هذه الشعوب الهندية أدنى قوة للسيطرة على المحيط الفاصل بين أوروبا وأمريكا الشمالية ، أو على التجارة التي تدفقت عبره . وكان هذا ، في النهاية ، هو العامل الذي أضعف قوتهم من الأساس . ان سيطرة البحرية البريطانية على المحيط الأطلنطي وجهت ضربة قاصمة مباشرة في المباراة الفاصلة ، لأن الفرنسيين في أمريكا بدون سلع تجارية كانوا كعدمهم تماما . ذلك لأن عدم قدرتهم على الحصول عليها لم يقلل من مجالهم في المناورة فقط ، بل جعلت أيضا الحركات الوليدة حديثا والشاملة لجميع الهنود ، ضد الانجليز حركات عقيمة ، وهي التي لابد أنها امتدت من أرض السسكيهانا على سواحل البحيرات العظمى في الشرق الى أرض الياماسي في فلوريدا ، وشملت الميامي ، والشاروني ، والديلاوير ، والشيروكي ، والكتاوبا ، والكريك ، والشوكتاو اذا اقتصرنا على القبائل الكبرى فقط . ولقد استطاع مجرد جزء من هذه الشعوب أن يزحزح الحدود الانجليزية - الأمريكية الى نحو مائة ميل فقط من الساحل في الأدوار الأولى من حرب السنوات السبع . ولو حدث أن اتحدوا تحت امرة الجيوش والامدادات الفرنسية لكانت خطط الفرنسيين لحكم القارة قد أصبحت حقيقة واقعة .

اعترفت معاهدة باريس للسلام ، الموقعة بين انجلترا وفرنسا واسبانيا سنة ١٧٦٣ ، باعتبار كندا وكل أمريكا الشمالية شرق نهر المسيسيبي اراضي انجليزية . وتخلت فرنسا لاسبانيا عن الأرض الواقعة

غرب المسيسيبي ، وتنازلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترا . وابتداء من هذه السنة فصاعدا ، لم تتعرض السيطرة الانجليزية في النصف الشرقي من أمريكا الشمالية للاعتراض من برلمانات أوروبا . ولم يطل أمد استخدام الكريك ، والشيروكي أو الايروكوا للعبة الترجيع في المعركة الفاصلة لاكتساب مزايا لهم في التجارة مادام لم يبق سوى مصدر واحد للسلع التجارية . وحتى العداوات بين المستعمرات ، والتي عادة ما كانت تستثمرها الجماعات الهندية ، كانت تتوارى ، لأن الجهد الحربي كان يوجه المقاطعات الانجليزية الثلاث عشرة بدرجة غير مسبقة . وانتهى قرنان من التنافس الأوروبي لامتلاك شرق أمريكا الشمالية والسيطرة عليها ، نهاية مفاجئة ومثيرة . واضطر الايروكوا ، والشيروكي ، والكريك ، وغيرهم من قبائل وشعوب الداخل ، أمام هذه الحقيقة الواقعة ، أن يتكيفوا معها ، حتى بالرغم من أن معظمهم قد اعتبر الادعاءات السياسية والاقليمية الانجليزية لا أساس لها من القانون ، الى أن غيروها أو اتفقوا عليها في مفاوضات ثنائية .

المراجع

1. Quoted in Anthony F. C. Wallace, « The Origins of Iroquois Neutrality : The Grand Settlement of 1701, » *Pennsylvania History*, 24 (1957) : 235.
2. Archibald Kennedy to George Clinton, 1746, *Clinton Papers*, vol. 3, Clements Library, University of Michigan.
3. Lawrence H. Leder, ed., « The Livingston Indian Records, 1666-1723 » (Gettysburg, Pa. : Pennsylvania Historical Association, 1956), p. 165.
4. Quoted in Francis Jennings, « The Constitutional Evolution of the Covenant Chain, » *Proceedings of the American Philosophical Society*, 115 (1971) : 90.
5. Allen W. Trelease, « Indian Affairs in Colonial New York » (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1960), pp. 264, 267-68.
6. Wallace, « Origins of Iroquois Neutrality, p. 226.
7. Quoted in William J. Eccles, « The Canadian Frontier, 1534-1760 » (New York : Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1969), p. 133.
8. Verner W. Crane, « Southern Frontier, 1670-1732 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 260.
9. Ibid., pp. 263, 260-261.
10. « The Colonial Records of South Carolina, Journal of the Commons House of Assembly, Nov. 10, 1736 — June 7, 1739, ed. J. H. Easterby » (Columbia : Historical Commission of South Carolina, 1951), p. 75.
11. Quoted in M. Eugene Sirmans, « Colonial South Carolina ; A Political History » (Chapel Hill : Univ. of North Carolina Press, 1966), p. 198.
12. Nancy Oestreich Lurie, « The World's Oldest On-Going Protest Demonstration : North American Indian Drinking Patterns »,

Pacific Historical Review, 40 (1971) : 321 ; and Craig MacAndrew and Robert B. Edgerton, « Drunken Comportment, A Social Explanation » (Chicago : Aldine Publishing Co., 1969).

- 13. Robert F. Berkhofer, Jr., « The Political Context of a New Indian History, » Pacific Historical Review, 40 (1971) : 364.**
- 14. Fred Gearing, « Priests and Warriors ; Social Structures for Cherokee Politics in the 18th Century », American Anthropological Association « Memoir » 93 (1962) : 102.**
- 15. Robert Maule to Society for the Propagation of the Gospel, (June 3, 1710), SPG Mss, A 5, No. 133 (Microfilm of Library of Congress Transcripts), UCLA Research Library.**
- 16. Charles Woodmason, « Carolina Backcountry on the Eve of the Revolution : The Journal and Other Writings of Charles woodmason, Anglican Itinerant, ed. Richard J. Hooker » (Chapel : Hill : University of North Carolina Press, 1969), pp. 80-81.**
- 17. Lawson, « A New Vauage of Carolina ... ed. Hugh T. Lefler » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1967), p. 243.**
- 18. Quoted in Irving Hallowell, « The Backwash of the Frontier : The Impact of the Indian in American Culture », in Paul Bohannan and Fred Plog, eds., « Beyond the Frontier : Social Process and Cultural Change » (Garden City, N.Y. : The Natural History Press, 1967), p. 325.**
- 19. « The Complete Writings of Thomas Paine », 2 vols., Philip S. Forner, ed. (New York : Citadel Press, 1945), 2 : 1119-20.**
- 20. Peter Wraxall, « An Abridgment of the Indian Affairs ..., » Charles H. McIlwain, ed. (Cambridge : Harvard University Press, 1915), p. 219.**
- 21. Petition of Subscribers to the Susquehannah Company, 1755, in Julian P. Boyd, ed. « The Susquehannah Company Papers » (Wilkes-Barre, Pa. : Wyoming Historical & Genealogical Society, 1930), I : 255.**
- 22. Quoted in Eccles, « Canadian Frontier », p. 158.**
- 23. E. B. O'Callaghan, ed., « Documents Relative to the Colonial History of the State of New-York » (Albany : Weed, Parsons & Co., 1855), 6 : 870.**

24. Quoted in Douglas E. Leach, « The Northern Colonial Frontier, 1607-1763 » (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966), p. 200.
25. Wilbur R. Jacobs, ed., « Indians of the Southern Colonial Frontier ; the Edmond Atkin Report and Plan of 1755 » (Columbia : University of South Carolina Press, 1954), pp. 3-4.
26. Governor Clinton to Governor of Canada, Oct. 10, 1748, in O'Callaghan, ed., « Documents Relating to Hist. of New-York, 6 : 492 ».
27. Wilbur R. Jacobs, « Diplomacy and Indian Gifts : Anglo — French Rivalry Along the Ohio and Northwest Frontiers, 1748-1763 » (Stanford : Stanford University Press, 1950), p. 178.
28. Lawrence H. Gipson, « The British Empire Before the American Revolution, 14 vols. » (New York : Alfred A. Knopf, 1936-69), 7 : 58.
29. Ibid., p. 342.
30. Quoted in Leach, « Northern Colonial Frontier », p. 204.
31. Quoted in David D. Wallace, « South Carolina : A Short History, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), p. 90.
32. David H. Corkran, « The Cherokee Frontier : Conflict and Survival, 1740-1762 » (Norman : University of Oklahoma Press, 1962), p. 15.
33. Sirmans, « Colonial South Carolina », p. 275 ; Jacobs ed. « Atkin Report and Plan », pp. 27, 31 n.
34. Quoted in Corkran, « Cherokee Frontier », p. 61.
35. Quoted in Sirmans, « Colonial South Carolina », p. 335.
36. Ibid., p. 336.
37. Quoted in W. W. Abbot, « The Royal Governors of Georgia, 1754-1775 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), p. 80.

الفصل الحادى عشر

امتزاج الشعوب

بينما كان الهنود الحمر ، والأفارقة ، والأوروبيون بما يضمه كل منهم من شعوب متنوعة ، يحققون أقدارهم ومصائرهم فى محيط معقد من التنافس القبلى الضخم ، والنمو الاقتصادى ، والتغير السكانى ، والتحول الاجتماعى والسياسى ، كانت كل مجموعة تتفاعل مع الأخرى ، أيضا ، على أعلى المستويات الشخصية . هذا الاختلاط الجنسى والاجتماعى بين أفراد من مختلف السلالات الوراثية ، والذي نسميه فى العادة بتمازج الأجناس ، لا قيمة له فى حد ذاته ، ما لم يراع المحاولات التى تتمسح بالعلم لتحديد الحجم النسبى لكل مجموعة « عنصرية » عرقية فى المجتمع ، وهى ممارسة لها أهداف دعائية وسياسية ، ومع ذلك فتزاوج الأجناس له أهميته من وجهة أخرى . فبقياس مداه ، يمكننا أن نوسع رؤيتنا لعملية التثاقف أو التبادل الحضارى والامتصاص - أى مزج العناصر الثقافية أو الحضارية وامتصاص حضارة ما فى حضارة أخرى ، فتمازج الأجناس عنصر مهم فى كل من هاتين العمليتين فى العادة .

ان معظم التفكير فى موضوع التمازج بين الأجناس فى أمريكا الشمالية، يبدأ بالفكرة العامة اللافتة للنظر بأن الأوروبيين فى هذه القارة لم يمتزجوا حقا بالأفارقة والهنود فى أى مكان ، بنفس درجة تواتره المستمر فى مجتمعات أمريكا اللاتينية . كما لم يمتزج الأفارقة والهنود بنفس الدرجة ، ومن المعروف أن أمريكا اللاتينية هى العالم الذى حدث فيه أكثر امتزاج بين الأجناس فى تاريخ البشرية ، وأن أمريكا الشمالية حيث تجمع الأوروبيون ، والهنود ، والأفارقة خلال نفس الفترة تقريبا ، تتميز بانعدام مثل هذا الاختلاط بين الجينات ، بصفة عامة . ويبدو أن أرقام الإحصاء الرسمى لسكان أمريكا الشمالية والجنوبية المعاصرتين يؤكد هذا الاعتقاد . فهى تبين ، مثلا ، أن ٢٠٪ فقط من الفنزويليين ، ١١٪ فقط من البناميين هم من البيض ، وأن (المولاتو) أى المولدين أو الخلاسين - ذوى اللون البرونزى (الأسمر الضارب الى الصفرة) فى البرازيل يشكلون شريحة من السكان أكبر بكثير مما فى الولايات المتحدة ، وهكذا دواليك .

وبالرغم من أن معيار العضوية في مجموعة جنسية معينة ، يختلف بدرجة كبيرة من مكان لآخر ، ولن يكون دقيقا ، فليس من الضروري أن ندقق في التفاصيل حول التركيب الجنسي لأي من مجتمعات العالم الجديد ، مادامت النقطة الرئيسية ليست محل جدال وهي - أن الاتصالات الجنسية التي كانت تمارس على نطاق واسع قد أنتجت شرائح أكبر ، من المستيزو mestizos أو الهجن (الأوروبي - الهندي) ، والمولاتو mulatto أو المولدين أو الخلاسين - (الأوروبي - الزنجي) ، والماسي mustees (الأفريقي - الهندي) في النصف الجنوبي من العالم الجديد عنه في نصفه الشمالي .

ويشرح ذلك تفسيران ، بصفة عامة ، أولهما : أنه قبل تجربة إعادة اكتشاف أوروبا للعالم الجديد ، كان لدى الأسبان والبرتغاليين تجربة واسعة في التفاعل مع شعوب مختلفة عنهم حضاريا ، خاصة مع ذوى البشرة السوداء ، أكثر من خبرة الانجليز . فخلال قرون من الحرب والتجارة مع البربر والمغاربة - خاصة في الأندلس - وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقية ، كانت الحضارة الأيبيرية قد امتصت فعلا عناصر حضارية ووراثية جديدة ، وأظهرت اتجاهات مرنة نحو اختلاط الشعوب في علاقات جنسية . وبالمقارنة ، بقي الانجليز مدة طويلة داخل جزيرتهم - الحصن المعزول - محيين من الحضارات الأخرى ، ولذا كانوا ميالين للشك في التزاوج العرقى ، بل والانزعاج من رؤيته .

ونتيجة طبيعية لهذه المناقشة ، نجد أن المواقف المتساهلة من الكنيسة الكاثوليكية تجاه غير المسيحيين ، ومنظومة القانون الرومانى ، التي أبقت للعبد على درجة من الكرامة وشبه الاستقلال ، والاتجاهات المتساهلة للحكومات الأيبيرية الفاشستية - التي تخضع الفرد وحقوقه بالكامل لمصلحة الدولة - قد اتحدت كلها لجعل التمازج بين الأجناس مقبولا ، وبالتالي شائعا في مناطق العالم التي كانت أسبانيا والبرتغال تواجهان فيها الهنود والأفارقة بأعداد كبيرة . وعلى العكس من ذلك ، تثبت الأدلة أن البروتستانتية الانجليزية كانت صارمة في قبول الناس « الهمج » ، في ميثاق الايمان ، ولم يكن لدى القانون الانجليزى ما يقوله في موضوع الرق، تاركا المستعمرين أحرارا في التوسع في المؤسسات والنظم الصارمة جدا لكبح جماح عمالهم المكبلين بالقوانين ، كما أن الحكومة الانجليزية لم تكن مهتمة بممارسة سلطة كبيرة في مستعمراتها ، خاصة في موضوع معاملة الجماعات غير الانجليزية الخاضعة لها . فاذا أخذنا هذه الاختلافات في الخبرة السابقة ، والمؤسسات والنظم الاجتماعية ، والمواقف والاتجاهات ، وفي السياسة الحكومية لذلك لا يدهشنا أن يختلف تاريخ الامتزاج بين

الأجناس كثيرا في مستعمرات أسبانيا والبرتغال عنه في مستعمرات
انجلترا •

فقدت هذه الحجج كثيرا من قوتها التفسيرية في الوقت الحاضر ،
نظرا لأن المؤرخين يفحصون باهتمام وحرص شديدين الأحوال الاجتماعية
والسكانية التي تميز التفاعل الحضارى في مختلف أجزاء العالم الجديد •
فبالرغم من تسليم كل المؤرخين تقريبا بالعلاقة المتبادلة بين العوامل المادية
والأيديولوجية ، يظهر اليوم أن درجة وطبيعة الاختلاط بين الأجناس ، في
أمريكا الجنوبية والشمالية ترجع أساسا الى الظروف التي قابلتها في
هذا العالم الجديد أكثر من الاتجاهات السائدة في العالم القديم • فسهولة
وجود النسوة الأوروبيات ، ومعدل السكان الأوروبيين ، والأفارقة ، والهنود
في منطقة ما ، ومدى امكانية الضغط على الهنود في نظم العمل الاجبارى ،
والحاجة الى توظيف غير الأوروبيين في المواقع المهمة • كل ذلك ، كان يبدو
أن له دورا في تشكيل نموذج الامتزاج بين الحضارات • وهكذا ، لا نجد
غربة في أن نكشف أنه في هذه المناطق التي كانت النسوة الأوروبيات
قليلات العدد فيها ، طرح الرجل الأبيض جانبا كل تعصب جنسى جاء به الى
العالم الجديد ، وعاشروا النساء من الأجناس الأخرى ، وكان البديل عن
ذلك ، اما التقشف والبعد عن الجنس ، واما اللواط ، واما العلاقة البهيمية
مع الحيوان • وقد جذبت كل هذه البدائل الثلاثة بعض الرجال ، ولكن
الأغلبية منهم فضلوا العلاقة الجنسية مع نساء المجموعة المختلفة عنهم
حضاريا • ولا ندهش كذلك ، اذا وجدنا أنه حيث كان الهنود والأفارقة
كثرة ، كان التخالط أكثر شيوعا عنه في حالة قلة عددهم • وفي
نيوانجلند ، حيث استقر الهنود بأعداد قليلة متناثرة ، ودمرتهم الأوبئة
في السنوات الأولى من الاستيطان الأوروبى حدث قليل من الاختلاط بين
الحرر والبعض • وفي المكسيك ، حيث كان الأسبان في بحر من الهنود
المستقرين بكثافة ، حدث اختلاط ضخم ، طوال فترة المستعمرات •

ان مثل هذه التفسيرات المعقولة ، مفرطة في بساطتها أكثر مما ينبغي،
بطبيعة الحال ، ويجب أن توجه اليها دراسات أكثر تفصيلا • ولا نجد
سوى بحث كاف ، قد أجرى في مجال العلاقات بين السود والبعض فقط ،
يترك أمامنا المجال لتعميمات ثابتة • أما العلاقات بين الهنود والبعض ،
وبين الهنود والأفارقة ، فلا تزال بدون دراسة • وطالما أن ذلك هو عمل
الجيل التالى من العلماء الباحثين ، فكل ما يمكننا تقديمه هو بعض
الاقتراحات غير النهائية في هذا المجال •

الاحتكاك الهندي - الأوروبي :

يحس أن نبدا بهذا النوع من الاتصال ، بين الهنود والأوروبيين ، نظرا لسبقه لكل أنواع الاتصالات ، وربما كان له بعض التأثير على مجرى الأحداث بعد ذلك . لقد كان التمازج الجنسي بين الأوروبيين والهنود محدودا للغاية ، في نيوانجلند ، وبعد ذلك في مستعمرات نيويورك ، ونيوجرسي ، وبنسلفانيا ، وديلاوير بوسط الأطلنطي . فقد هاجر الرجال الانجليز الى هذه الأجزاء من الامبراطورية الناشئة مع عائلاتهم . فان كان بعضهم عزابا فقد وجدوا عددا كافيا من السيدات غير المتزوجات ليسكنوا بهن حاجتهم الى الزواج . وكان التماثل في أعداد الجنسين ، من الذكور والاناث ، يستقر بسرعة كبيرة ، واستمر ذلك طول الفترة الاستعمارية ، ماعدا فترات ما بعد الحرب حيث فاق عدد النساء ، أحيانا عدد الرجال بفارق بسيط . وكان تعزيز هذا الوضع الإحصائي السكاني عاملا حضاريا قويا . إذ أن الهجرة بالعائلة قد أكدت تأصيل البنية القوقية لحضارة كاملة كانت مهددة للغاية بالامتزاج الجنسي ، خاصة اذا افترضنا الرأي الشائع تقريبا وسط البيض بأن حضارتهم كانت أبعد في تفوقها من حضارة الحمر والسود « الهمج » .

كان العامل السكاني الثاني المؤثر ، هو عدد الهنود الصغير نسبيا في هذه المناطق ، والعجز النسبي عن استعاضة أولئك الهاربين من الأوبئة أو الصراع المتكرر على فترات منتظمة ، والذي أضعف المجتمعات الهندية الساحلية أثناء بداية فترة الاحتكاك . كان الزواج بين حضارتين شيئا نادرا . فقد تزوج عدد من تجار القراء العاملين على الحدود من زوجات هنديات ، وكان لجميعهم تقريبا علاقات جنسية متواصلة مع الهنديات . إلا أن الحالة الجديرة بالذكر في هذا التزاوج في المناطق المستوطنة هي حالة وليام جونسون ، المشرف الشمالي على شئون الهنود ، الذي تزوج امرأة من الموهوك . وبعد ترقيته مؤخرا الى رتبة فارس ، لبطولاته العسكرية حقق نفوذا كبيرا لدى الموهوك الذين أسموه « وارا جيهياجي » Warraghiyagey أي « الرجل الذي أخذ على عاتقه أشياء عظيمة » . وقد منح هذا التقدير السامي ، لأنه انحرف بشكل جوهرى عن مبدأ البيض بقبوله عادات الموهوك ، وتعلمه لغتهم مثلما حاول أن يفعل قليل من البيض . ان جونسون لم يولد أو ينشأ في المستعمرات ، وقليلون هم الذين حرصوا على اتباع هذا النموذج حتى ولو كان لموظف امبراطورى رفيع الشأن ، حين تعلق الأمر بالزواج ، طالما كان في المستعمرات الشمالية عند كبير من النساء الأوروبيات . ويقال ان زواج جونسون ، كسابقة أولى ، شملت انتباه صحف لندن بدرجة كبيرة ، قد أدى الى حدوث ثمانى عشرة زيجة أخرى بين الحمر والبيض ، ومع ذلك يعتبر هذا العدد قافيا .

وبعيدا ، الى الجنوب ، فى مستعمرات تشيزايبك ، ساد نموذج سكاني مختلف فى عشرات السنين الاولى . فمع استثناءات قليلة ، لم تكن الأوروبيات متوفرات فى فرجينيا حتى حوالى سنة ١٦٢٠ . فضلا عن أنه يبدو أن الرجال الأوروبيين لم يلجأوا كثيرا الى النسوة الهنديات . ويمكن تعليل ذلك إما بالقرار الواعى من القبائل المنتسبة الى البوهاتان بمنع نسايتهم من مخالطة الدخلاء ، المتطفلين الأوروبيين ، الذين أظهروا العداء منذ البداية ، وإما لكراهية الانجليز الشديدة للنساء الهنديات ، بدرجة تجعلهم يتغلبون على الشهوة الى النساء ، وهو ما اعتقده كثير من المحللين بفرجينيا فى أوائل القرن الثامن عشر . فقد كانوا يؤيدون الزواج المختلط بالهنديات حتى فى ذلك الوقت المبكر ، وينصحون بأنه اذا كانت هذه « السياسة الحديثة » قد اتبعت من البداية لأمكن التغلب على عداوات السنين الاولى الباهظة الثمن . فنرى وليام بيرد ، وهو غير غريب على الاستمتاع الجسدى مع النساء من مختلف ألوان البشرة ، يدعى بأن الانجليز كانوا متشربين « برفاهة كاذبة » فى السنوات الاولى ، وبذلك لم يقنعوا أنفسهم بمضاجعة الهنديات ، واعتقد بيرد أن قبائل التشيزايبك كان يضايقها ذلك الرقص . ولم يستطيعوا أبدا « أن يقنعوا أنفسهم بأن الانجليز يحبونهم من قلوبهم طالما أنهم يأنفون من الزواج من بينهم » . وتبنى روبرت بيفولى ، مؤلف رواية « ولاية فرجينيا الحالية وتاريخها » رأيا مشابها بتأسفه على عدم حدوث أى تزاوج واقتناعه بأن الهنود كانوا يتشوفون الى ذلك ، (١) .

ان الأدلة المحدودة المتعلقة بهذه المسألة ، لا تساند هذه الآراء ، على كل حال . فقد كان الجزء الأكبر من الذكور السائدين فى مستعمرة فرجينيا ، يتكون من ممثلى الطبقة الانجليزية الدنيا ، والتي تضم الكثيرين من ذوى الخبرة الحربية فى أيرلنده ، والأراضى المنخفضة الأسبانية ، وأجزاء أخرى من العالم . وكان الاحتشام غير ملحوظ فى تركيبتهم ، وتوحى رغبتهم المبكرة فى المعاشرة الجنسية للأفريقيات بأن السبب الحقيقى لعدم تواصل الاتصال الجنسى بالهنديات ، هو عدم الجاذبية الهندية أكثر منه لدى الرغبة الأوروبية . ولم يوطد الانجليز أنفسهم كفاتحين فى السنوات الاولى ، كما فعل الأسبان والبرتغاليون ، ولذلك ، لم تكن قبائل تشيزايبك مضطرة الى تسليم نسايتها . كما أن النساء الهنديات لم يرفضن استقبال الفرجينيين الذين كانوا ينسلون هاربين من ظروفهم الشديدة الوطأة فى جماعتهم الخاصة ، ليعيشوا وسط شعب البوهاتان ، وازدادت أعدادهم بدرجة دعت الى سن قوانين تفرض عقوبات قاسية لهذا السلوك الدال على النكت بالعهد . ولقد أشرنا من قبل ، الى تلك الحالة الوحيدة للزواج المختلط داخل جماعة بيضاء تضمنت عهدا خاصة بين جون رولف وبوكاهونتاس ، ذلك الزواج السياسى ، بصرف النظر عن الحب الذى قد

يكون كل من الاثنین قد أحس به نحو الآخر . وقد ادعى بعض المؤرخین أن مجلس الملك ، بعد أن تشاور بدقة فيما اذا كان رولف قد ارتكب خیانة عظمی بزواجه من أميرة هندیة ، لم يشجع أى زواج أكثر من ذلك بین الجنسین . ولكن كان الاتهام الخطیر هو الخیانة العظمی للزواج بابنة عدو ، والواقع أن بوكاهونتاس ورولف كان یحتفل بهما فی مهرجان فی لندن أينما حلوا ، بما فی ذلك القصر الملکی . وفى أوائل القرن الثامن عشر ، كان مجلس التجارة یروج رسمیا لتبنى سياسة الامتزاج الجنسی فی المستعمرات الأمريکیة ، وهو مؤشر صریح على أن فكرة امتزاج الدم الهندی بالدم الأوروبی لم تكن تؤثم سلوك الفرد فی انجلترا .

اعتدل التفاوت العددی بین الذكور والاناث البیض بعد عشرات السنین الأولى من الاستيطان الانجلیزی فی تشیزاییک . بالإضافة الى أنه ، بنهاية الحرب الهندیة الثانية سنة ١٦٤٤ ، كان السكان الوطنیون فی منطقة الساحل ، مجرد شریحة صغيرة من السكان البیض ، ثم صارت قلة قليلة من الهنود فی ختام ثورة بیكون سنة ١٦٧٥ . واذا نظرنا الى الامتزاج الجنسی ، فی ضوء الحقیقة القائلة بعلم معرفة حالة واحدة منه فی فرجینیا ، فی ذلك الوقت ، یصبح ادعاء الحاكم سبوتزود Spotswood سنة ١٧١٧ بأن « انحرافات شعبنا لیست كانحرافات الفرنسین » قولا لا یمكن اعتباره دلیلا على أن التعصب الجنسی كان یمنع مثل هذه الزیجات (٢) . كما لم تبق هناك حاجة أو فرصة للزواج الأوروبی - الهندی ، ولم یكن اختلاف « الانحرافات » فی نیوفرانس انعکاسا لاختلافات فی الشخصیة الوطنیة بقدر ما هو تفاضل فی الاحتیاجات . بل ان من المسلم به أن الأوروبیات كن المفضلات على امتداد سانت لورنس ، مع شیوع اتخاذ الفرنسین زوجات وخیلات هنديات .

وكان الجنوب الشرقی ، ای کارولینا الشمالیة والجنوبیة ، وجورجیا ، هو المنطقة الانجلیزیة الوحيدة التى تطابقت فیها الخصائص الاحصائیة السكانية تقریبا مع مناطق الاستعمار الأسبانی والبرتغالی . فمنذ السنوات الأولى ، لم یتوفر ، هنا ، الحصول نسبیا على المرأة البیضاء ، مع سهولة وجود المرأة الهندیة ، فكانت النتيجة اتصالات مباشرة واسعة بین الانجلیز والهنديات . وتخلو السجلات بشكل واضح من أية اشارات أو دلالات على « الاحتشام » عندما یتعلق الأمر بالعلاقات الجنسیة بین أفراد حضارتین مختلفتین . وبالعکس ، تزخر الروایات والسجلات المعاصرة باشارات الى علاقات جنسیة غیر معقدة بین الشعبین . ویصدق ذلك بوجه خاص على تجار الفراء الذین یتعاملون مع المناطق الداخلیة ، الذین لن یتخلوا أبدا عن اشباع حاجتهم الى « الضجیعات » أو « رفیقات الفراش » ، على حد تعبر جون لوسون من أوائل القرن الثامن عشر . وكانت القبائل الهندیة

تخصص نساء معينات بوصفهن «فتيات التجارة» أو قل «فتيات تجاريات» ، ويخصص لهن قصات معينة للشعر تدل على أن وظيفتهن هي اشباع رغبة التجار ، بينما يحصلن على النقود « بمواهبهن الطبيعية » . هؤلاء فقط ، هن اللواتي يتيسر للرجل الأبيض الثور عليهن ، « لأن الرجال الهنود » ، حسبما كتب لوسون « كانوا يرغبون (كلما أمكن) في الاحتفاظ بزوجاتهم لأنفسهم ، كما يفعل غيرهم في أنحاء العالم الأخرى ، (٣) » .

وبينما كان التجار يعاشرون النساء الهنديات في مناطق الداخل ، كان الكارولينيون يقابلون الهنديات الابهاء المشتريات من سوق النخاسة في المستعمرات الساحلية . وبعد حرب الياماسي ، التي نشبت ، سنة ١٧١٥ ، والتي شكلت الاغارة على العبيد خلالها ، قضية مهمة ، تناقص استرقاق الهنود في كارولينا . الا أنه أثناء الخمسين سنة الأولى من تاريخ المستعمرة ، يشهد الهدد الكبير من الأطفال من الأمهات الهنديات والآباء البيض ، في تشارلستون على الامتزاج المكثف الذي كان يجري هناك . فقد زاد عدد الرجال البيض عن النسوة البيض في كارولينا الجنوبية ، بنسبة تزيد عن ١٣ : ٩ حتى أواخر سنة ٧١٠٨ ، ولم يكن الرجال الذين بدون سيدات ، يمانعون في الاستفادة من وجود الهنديات . ولم يكن في جورجيا ، الا توماس يوزومورث Bosomworth ، القسيس الملحق على مستعمرة المدينة الفاضلة أوجليثورب الذي رأى أن الزواج من امرأة من الكريك ، في السنوات الأولى من الاستيطان أمر جدير بالاحترام ، واقتضى به الكثيرون بعد ذلك . وقام كل من جون ماككونالد ، والكسندر كامبيرون ، نائبا مندوب الحكومة للهنود لدى الشيروكي في الفترة الاستعمارية الأخيرة ، قاما بالزواج من امرأتين من الشيروكي . وكان زعيما الشيروكي ، بعد الثورة ، سيكوريا ، وجورج لوري من مواليد الزواج المختلط في هذا العصر .

إذا ، كانت الاعتبارات السكانية ، هي التي تحدد الزواج المختلط بين الهنود والأوروبيين ، أكثر مما تحدده المواقف والاتجاهات المسبقة . وواضح أيضا ، في قوانين زواج البيض من غير البيض ، في جميع المستعمرات أثناء فترة الاستعمار أن المواقف والاتجاهات تختلف تجاه الأفارقة ذوي البشرة السوداء عنها تجاه الهنود ذوي البشرة البرونزية . كذلك ، كانت قوانين الزواج المختلط ، يوجه أغلبها تقريبا نحو الزواج بين البيض والسود . وقد منعت كارولينا الشمالية وفرجينيا ، فقط ، الزواج بين الهنود والبيض (بالرغم من أن ماساشوسيتس فكرت في مناقشة مثل هذا القانون) ، ولم تطبق أية مستعمرة عقوبات خاصة لحالات الزنا بين الحمر والبيض ، كما كانوا يفعلون دائما في حالات السود مع

البيض . والواقع أن الكثيرين قد نقلوا اتجاهاتهم الأوروبية ، فطبقوا
مقاييسهم في الجمال . ووصفوا المرأة الهندية بها ، بينما لا نجد مثل هذه
الأوصاف عن المرأة الأفريقية . وقد كتب روبرت بيغري سنة ١٧٠٥ أن
الهنديات « كن جميلات ، بشكل عام ، يمتلكن رقة غير مألوفة في الشكل
والتقاسيم ، ولا يحتجن الى حلى صغيرة للزينة ، بل يكفيهن المظهر
العام » (٤) . وقد عبر بهذا المزاج كثير من المعلقين الاستعماريين الآخرين .

ان القصور العام في الزواج المختلط بين الحمر والبيض ، قد أندر
بمجز الحضارتين عن فهم بعضهما البعض الفهم الجيد . ولم يتطور الانسجام
كثيرا بين الهنود والبيض أبدا ، في أمريكا القرن الثامن عشر ، لأن الهنود
نادرا ما يكونون راغبين في مقايضة حضارتهم بحضارة أخرى يرونها دون
حضارتهم شأنًا ، ولأن المستعمرين لم يجدوا للهنود فائدة سوى أنهم
أصحاب فخاخ لصيد حيوان الفراء ومستهلكون للسلع الأوروبية ، وحلفاء
حرب ، بعكس مستعمرات أمريكا اللاتينية تماما ، حيث أدى نقص أعداد
النساء البيض ، وقهر العمال الهنود واستعبادهم الى التلاحم الشديد بين
قرب بين الشعبين ، وخلق بذلك عددا كبيرا من السكان الهجن (الهندي -
الأوروبي) . وتبين أكثر التقديرات تحفظا عن السكان الهجن أنهم بلغوا
٢٥٪ من سكان أمريكا الأسبانية في أوائل القرن التاسع عشر ، وأن كثيرا
من هؤلاء قد وصلوا الى مرتبة الحرفي الماهر ، ورئيس العمال في بعض
الدوائر ، والمليشيا ، بل وجامع لعشور الكنيسة ، وجاب للضرائب
أيضا . ولكن في أمريكا المستعمرات ، ظل انتاج نسل نصف هندي ونصف
أوروبي هو حصة العلاقات الجنسية قصيرة الأجل بين تجار الفراء البيض
والنساء الهنديات في معظم الحالات تقريبا داخل المجتمع الهندي . وأصبح
عدد من ذكور هذا النسل أنفسهم تجارا للفراء ، أو وسطاء ومتعهدين
بين الانجليز ومجتمع الهنود . كما برز غيرهم ، أمثال جوزيف برانت من
الموهوك ، والكسندر جيليفراي McGillivray من الكريك في زعامة
المقاومة الهندية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وبالرغم من
أن المؤرخين لم يدرسوا ، حتى الآن ، الأمريكيين الهجن (المستيزو) دراسة
منظمة ، والذين يتلذذ من يزدرونهم بتسميتهم « الهجن » هناك دلائل على
أن هؤلاء الأشخاص ، الذين يعتبرهم المستعمرون هنودا فقط كانوا أكثر
الناس الذين ينفر المجتمع الأبيض منهم ، ويبتعد عنهم ، ويصور أحدهم
الفرجينيين ذلك بوضوح ، سنة ١٧٥٧ فيقول : ان التجار الذين « عاشروا
أمريكيات من الهنود الحمر » كانوا يتركون نسلهم « كما يفعل الثيران
والدببة ، لتربيتهم أمهاتهم كيفما اتفق » . كما هو متوقع ، وأشار الى
أن « بعض هؤلاء الهجن ، أولاد الزنا ، كانوا قياديين أو قادة عسكريين
بارزين ، من الذين عادوا علينا بهذا الكم من الضرر » (٥) .

الحالة الوحيدة التي حدث فيها تحول ثقافي بين الهنود والأوروبيين، تضمنت تحويلا للبيض الى الثقافة الهندية أكثر من تحويل الهنود الى الثقافة الأوروبية . فبامتداد فترة المستعمرات - وهو ما يفزع منه كثيرا حراس الحضارة البيضاء - كان بعض المستعمرين يهربون الى القرى الهندية ، أو حينما يؤسرون في الحرب ، ويعيشون وسط القبيلة بضع سنين ، كانوا ينغرون بشدة من العودة الى مجتمع البيض . هذا « الارتداد الى الهمجية » كما كان يصر دعاة تفوق الحضارة الأوروبية أن يسموه ، قد جذب انتباه كثير من الروائيين الأمريكيين ، منذ أواخر القرن الثامن عشر . فقد كان توقع المستعمرين البيض أن يروا أهاليهم يفضلون أسلوب الحياة الهندية عن أسلوب حياتهم شنودا يثير الحسرة والانزعاج . وقد كتب بيوريتاني من القرن السابع عشر يقول : « لا يمكن للمرء أن يتخيل وجود ما يسحره أو يأسره لدى هؤلاء اللحديين ، المغرورين ، الطائشين ، القساء ، الهمج المتوحشين ، الحمقى (وباختصار) الأدوات الشيطانية وأسوأ أنواع الوثنيين » (٦) .

ولكن ، رغم هذا التصوير الخيالي الجامع ، كان المستعمرون مضطرين أن يعايشوا فكرة أن كثيرا منهم قد وجدوا المجتمع الهندي محققا لأكثر احتياجاتهم عنه في الحضارة الأنجلو أمريكية . ويزيد الأمر سوءا أن الهنود يأخذون الطريق العكسي ، في الواقع ، فيختارون البقاء في مجتمع البيض بعد أن تكشفت لهم سوءاته . وقد كتب الفرنسي المتطرس، المشهور، سانت جان كريفكير الذي عاش أكثر من عشر سنوات في أمريكا في أواخر فترة المستعمرات في كتابه ، « رسائل من مزارع أمريكي » :

« آية قوة هذه ، تلك التي تجعل الأطفال المتبنين ، عندما يكبرون بين هؤلاء الناس ، لا يمكن إقناعهم أبدا بعد الطاح أن يختاروا العادات الأوروبية من جديد ؟ ان كثيرا من الآباء القلقين المتلهفين رأيته بعد عودة السلام عقب الحرب الأخيرة [حرب السنوات السبع] يلهبون الى القرى الهندية التي عرفوا أن أبناءهم قد قتلوا اليها كاسرى حيث انتابهم أسى يجلب عن الوصف عندما اكتشفوا أن أبناءهم قد أصبحوا هنودا بمعنى الكلمة ، وإن أكثرهم لم يعرفوها مطلقا ، وإن أولئك الذين كانت سنهم تسمح لهم بالتعرف على آبائهم وأمهاتهم رفضوا رفضا باتا أن يتبعوهم ، وجروا الى آبائهم الذين تبنوهم أو اختاروهم ليحموهم من سيل الحب المتدفق الذي أبداه لهم آبائهم الحقيقيون المحزونون ! وإن كان يصعب تصديق ذلك ، لكنني سمعت أيضا آلاف الحالات التي تؤكد

من أشخاص ثقات ٠٠٠ ويتأمل كريفكير قائلا : « لابد أن في الارتباط بهم اجتماعيا شيئا غريبا أسرا ، على نحو يفوق أى شيء بيننا يمكن أن نفخر به ، لأن هناك الآفيا من الأوروبيين يعتبرون هنودا ، ولكننا لا نجد مثالا واحدا من هؤلاء السكان الأصليين القلعة قد أصبح أوروبيا بختباره » (٧) .

هذه الشهادة من كريفكير ، والتي تعتبر اجتهادا موفقا لظاهرة ، سبق أن لاحظها كادوللاند كولدن Cadwallader Colden ، حاكم نيويورك ، وبنيامين فرانكلين ، وأكدها بحث تاريخي لم يدع مجالا للشك في أن هذا التحول الحضارى قد جرى أساسا في اتجاه واحد ، وأنه أصبح من العسير جدا اقناع « الهنود البيض » بالعودة الى حضارتهم القومية الأصلية طالما جربوا الحياة الهندية . وبصرنا ذلك بالفروق بين الحضارتين . وحتى قبل مجيء الأوروبيين ، كانت الحضارات الهندية ، عادة ما تتقبل في مجتمعاتها ، كأعضاء كامل الأهلية ، أى أشخاص من أسرى الحرب . وفى بعض المناسبات كانوا يضمون الأسير الى أسرة بعينها ، تعويضاً لها عن فقد طفل أو أى قريب آخر . ان اندماج هؤلاء الوافدين الجدد في نظام القرابة ، وفى المجتمع بصورة عامة ، دون أحكام تفضيلية لتفوق حضارة الأسر ، قد جعل من السهل على « الغرباء » الأسرى أن يتكيفوا شخصيا بسرعة . فقد كان الطفل الأبيض الذى يأخذه المجتمع الهندى يعامل معاملة أبنائهم ، ويعطونه لآى دور يجوز اشتراك الآخرين أو الآخرين من سنة فى أدائه . ومن أشد الأدلة إثارة ، على قبول الحضارات الهندية الكامل « للغرباء » وصول عدد من البيض والزواج الذين هربوا الى المجتمعات أو أسرهم الهنود ، الى الزعامة .

وفى المقابل ، يختلف المجتمع الأبيض ، فى هذه النقطة ، اختلافا صارخا . فبالرغم من تبني بعض الأطفال الهنود لدى العائلات البيضاء ، إلا أن النموذج العام هو العزل الاجتماعى لهذا الوافد ، وعلى حد ما كتبه أحد الدارسين لهذا الموضوع « لم يكن ذلك (العزل) لعجز الهندى عن الارتقاء الى مستوى الشعوب المتحضرة ، بل الأصح هو عدم وجود الرغبة الكافية من جانب البيض للترحيب بالهندي واستيعابه ، وكذلك لغياب أية مؤسسة حضارية يمكن أن تفكر مليا فى الانتقال من حضارة الى أخرى بطريقة سليمة ومقبولة نفسيا » (٨) . حتى ان الهنود المتنصرين الذين كانوا يتدربون فى مدارس البيض ، مثل سامسون أوكم Camson Occum الموهيغانى - من جنوب شرق ولاية كونيتيكت - كان من المتوقع رجوعهم الى المجتمع الهندى بدلا من أن يحتلوا مكانة مرموقة فى حضارة البيض . وكانت النظرة الى الهنود تعتبرهم غرباء دائما ، ولا يسمح لهم بالعيش

داخل مجتمع البيض ، الا نادرا ، وعلى هامشه الخارجى ، ان المستعمرين ، وهم يعملون من داخل مجتمعاتهم الصغيرة ، ومحاطين بحضارة اعتبروها باختيارهم ، حضارة وضيعة ، بل و « بربرية » و « وحشية » ، وبعبارة عن التمدين ، « قد أقاموا حائطا وقائيا من الشعور المتعالى بالتفوق » ، وذلك لكى يبعدوا عنهم هؤلاء الذين يبدوون لهم كمصدر تهديد (٩) . هذا العجز عن اظهار العقلية أو الأساليب الفنية الاجتماعية التى تلمج الهنود فى وسطهم ، ينم عن احساس بعدم الأمان الشخصى والحضارة بين أناس لم يملوا أبدا من الادعاء بتفوق أسلوب معيشتهم .

امتزاج البيض والسود :

تعد درجة امتزاج البيض بالسود فى أمريكا المستعمرات ظاهرة شديدة التعقيد ، لأنهم كانوا دائما شديدى القرب من بعضهم البعض ، سواء فى المناطق التى كانت النسوة البيض يكثرن فيها أو يندرن . وقد أدى هذا التقارب الى اتصالات جنسية واسعة ، ولو أنها لم تتضمن زواجا مختلطا الا نادرا . وقد يتصور المرء ، للوهلة الأولى ، أن هذه الندرة فى التزاوج بين الأجناس هى نتيجة كره عميق من البيض للسود فى ذاته . ولو كان الأمر كذلك ، لاستحال تفسير ما ادعاه غالبية المراقبين الدارسين لاجتماع القرن الثامن عشر ، على حد قول أحد الفرجينيين بأن « البلاد تعج بالمولدين غير الشرعيين » (١٠) . وتساعد احصاءات القرن الثامن عشر السكانية ، على توضيح هذه النقطة ، بالرغم من أن مثل هذه التعليقات لا تفيد البتة بشيء فى التحديد الاحصائى الدقيق للتمازج بين الأجناس خاصة بين الأبيض وغير البيض . ففى ميريلاند ، سنة ١٧٥٥ ، أظهر تعداد السكان أن ٨٪ من الزنوج فى المستعمرة كانوا من المولدين (المولاتو) ، ثم كشف تعداد سكانى آخر ، بعد جيل ، فى رود آيلاند ، سنة ١٧٨٣ عن أن ١٦.٥٪ من المستعمرة البالغ عددهم ٢٨٠٦ زنوج كانوا ذوى دماء مختلطة ، كما أن أحد مسجلى العبيد فى مقاطعة تشسنىر Chester بينسلفانيا ، سنة ١٧٨٠ ، قد سجل ٢٠٪ من الزنوج بصفتهم مولدين (١١) . وفى هذه الأماكن الثلاثة كلها ، كانت النسوة البيض فى كثرة عدد الرجال البيض تقريبا ، مما يشير الى أنه حتى فى حالة توفر الحصول على المرأة البيضاء كان للرجال البيض علاقات جنسية متكررة مع النسوة السوداوات .

واذا لم تكن هذه الاتصالات زائلة فى كشافتها ، فيمكن تفسير ذلك ، أساسا بعدم توفر النسوة السوداوات أيضا فى الفترة التى كان فيها عجز فى عدد النسوة البيض . إذ لم يبدأ دخول العبيد الى المستعمرات الانجليزية

بأعداد ملحوظة حتى نهاية القرن السابع عشر ، وحتى ذلك الوقت ، كان عدد النساء البيضات في كل مستعمرة كارولينا الجنوبية الناشئة يكاد يساوي عدد الرجال البيض ، فكان عدد السكان البيض في المزارع الجنوبية سنة ١٧٢٠ نحو الخمسين ألفا ، لا يزيد عدد السوداوات منهم عن ١٠٠٠٠ امرأة . وقد سكن المستعمرات الجنوبية ، في نفس الوقت ، نحو ٧٠٠٠٠ فرد بالغ من المستعمرين ، نصفهم تقريبا من النساء . ويخالف ذلك تماما ، الوضع في البرازيل البرتغالية ، وبيرو الأسبانية ، أو حتى جزر الهند الغربية الانجليزية . ففي كل هذه المناطق ، لم يكن الحصول على النساء الأوروبيات متيسرا نسبيا لفترات أطول بكثير .

ويقدم لنا مثال مستعمرات الكاريبي الانجليزية الدليل المؤكد الحاسم لموضوع الاتجاهات المسبقة ، التي تحدد طبيعة ودرجة اختلاط الأجناس . فمع قلة النساء البيضات عن الرجال البيض حتى القرن الثاني من الاستيطان ، لم يتردد البيض في استغلال السوداوات في سد هذه الفجوة ، بل ان المتزوجين من ملاك المزارع البيض ، كانوا على حد قول أحد المسافرين ، يحتفظ الواحد منهم بفتاة مولدة أو خادمة سوداء ، في منزله أو عند مستودعاته واستراحاته لأغراض معينة ، . كما يعلن أحد المؤرخين المشهورين للقرن الثامن عشر في جزر السكر الانجليزية ، مؤكدا بصورة حية « أن كل من يظهر الاستياء من مثل ذلك على أنه نوع من الزنا ، كانوا يعتبرونه في غاية الحق ، حيث انه لا يوجد واحد في العشرين يمكن أن يقتنع بوجود أي آثم أو عار في مضاجعة أمته ، (٢١) » .

وعلى كل حال ، كان الامتزاج بين الأجناس ، يشيع لذة جنسية خاصة ، في مستعمرات القارة ، رغم ادائته وتأثيره من المجتمع . وكان ذلك تطورا يرجع تاريخه الى القرن الثامن عشر أكثر منه للقرن السابع عشر . ولقد نجح المؤرخون ، باصرار على اثبات أن الأفارقة في أمريكا الشمالية كانوا معزولين عن البيض عقب مجيئهم بقليل ، في العقد الثاني من القرن السابع عشر . إلا أنه حتى سنة ١٦٦٢ ، عندما أصدرت فرجينيا قانونا يفرض غرامة على الزنا بين شريكين من البيض والسود ضعف القيمة المعتادة ، لم تصدر أية دعوى صريحة أمام المحاكم تعبر عن النفور الاجتماعي من الاختلاط الجنسي . كما حرم الزواج المختلط في فرجينيا ، سنة ١٦٩١ ، وفي ماساشوسيتس سنة ١٧٠٥ ، وفي ميريلاند سنة ١٧١٥ ، وبعده ذلك ، في ديلاوير ، وبنسلفانيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية ، وجورجيا .

لم يكن التغير الرئيسي في القرن الثامن عشر ، سواء بالزيادة الملحوظة أو النقصان الواضح في الامتزاج الجنسي ، يعكس تغيرات في

الدوافع الخاصة بالأفراد ، بل تعكس تبديلا فى المواقف العامة نحوه .
فيكتب وينتروب جوردون أنه « بتغير القرن ، كان من الواضح ، فى كثير
من مستعمرات القارة أن المستوطنين الانجليز قد شعروا باشمئزاز ،
وتحول مفاجئ ازاء الاتصال الجنسى أو التزاوج بين الأجناس ، من حيث
المبدأ ، على الأقل ، (١٣) . وتندد الهيئة الكبرى للمحلفين فى تشارلستون
بكارولينا الجنوبية ، مثلا ، « بالعادة التى شاعت جدا بالمعاشرة الجنسية
للزواج ، وغيرهم من الخدمات الاماء فى هذه المقاطعة » ، سنة ١٧٤٣ (١٤) .
ولك أن تجد تعليقات مماثلة فى كافة المستعمرات . ولكن مع الزيادة
انسريعة للسكان السود ، وبعد أن أصبح الرق نظاما اجتماعيا أساسيا فى
مجتمع المستعمرات اكتشف رجال التشريع أنه ما داموا لا يستطيعون
التحكم فى علم الأحياء - أو بيولوجيتهم - فيمكنهم على الأقل - الحفاظ
على النسب النقى للنسل الشرعى للمجموعة السائدة ، بوضع قوانين
تحظر الزواج المختلط .

فى مجتمع لمس فيه الرق نواحي الحياة ، للشريحة العظمى من
السكان ، أصبح من الضرورى احتواء السود منهم فى شبكة محكمة من
السيطرة ، والاصرار ، المرة تلو المرة ، على سيادة البيض وهيمنتهم .
وكانت من وسائل ذلك ، التأكيد على حالة العبد غير المتمدنة أو « الهمجية »
والتي تبرر استعباده من ناحية ، وتجعل الاتصال الجنسى معه محظورا من
قبل الحكومة ، من ناحية أخرى ، وفى عدة تصريحات عامة متنوعة ، وفى
مجموعات القوانين المتعلقة بذلك ، كان النسل الناتج عن اتصال جنسى
بين أبيض وسوداء أو العكس يوصف بأنه « زائف » أو « هجين » . وكون
المولد « المولاتو » لم يعتبر فى مرتبة أعلى من الأسود الخالص السواد ،
وينظر اليه القانون باعتباره أسود تماما لم يكن يتعارض ذلك بشدة فقط ،
مع وضع المولاتو فى كافة أنحاء العالم الجديد تقريبا ، بل كان يوحى بعمق
أيضا ، بالحالة الذهنية التي سيطرت على فكر الأمريكيين ، فى القرن
الثامن عشر . فرغم عدم حاجة الرجال البيض الى النساء السوداوات من
الوجهة الاحصائية ، الا أن العلاقات الجنسية كانت مستمرة بلا انقطاع .
ولا يمكن التشريع بخصوص الرغبة الجنسية ، بعيدا عن نفسية البيض ،
واذا لم تتوافق القوانين والرأى العام مع المطالب الخاصة الملحة ، فلا ضرر
يذكر على كل حال ، طالما كانت هيمنة البيض محفوظة ، بعدم الاعتراف
بشرعية الأطفال ، وهم ميراث العلاقات الجنسية المختلطة .

بانقضاء القرن الثامن عشر وثيدا ، تحولت المواقف بجدة تجاه جنس
الهنود ، والأمريكيين الأفارقة . وارتبط هذا التحول الشديد بالاختلافات
الحادة فى طبيعة ودرجة الاحتكاك الجنسى الذى ميز علاقات البيض والحر ،

وعلاقات البيض والسود . ولا يمكن فصل المواقف تجاه الرجل الأسود عن الحقيقة القائلة بأن العلاقات الجنسية ، خاصة بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء كانت مستمرة ، وبطريق الاكراه في العادة ، طوال القرن الثامن عشر . وكان لابد للرجل الأبيض أن يحظر الزواج المختلط كوسيلة لاقرار الحقيقة النهائية بأن الزنجي ، حتى وهو حر ، ليس ندا للرجل الأبيض . ولكن الأبيض كان يمارس سلطته باستغلال النساء السوداوات جنسيا بعيدا عن الزواج - وهو تصرف يتلاءم مع مفهوم سيادة الرجل الأبيض . ولكن الأبيض كان يمارس سلطته باستغلال النساء السوداوات الأحرار ، مع النساء السوداوات الاماء فهو وسيلة ، اذن ، لاعلان حق القوى وقوة المجتمع الأبيض ، بشكل صريح ، مؤلم .

لم يكن الاتصال بالمرأة الهندية بهذه الصورة أبدا ، ومصادق ذلك أن تجار الفراء اذا تيسر لهم الحصول على امرأة هندية ، لا يكون ذلك من موقف الأمة ذات الحظ العاثر ، التي لا حول لها ولا قوة ، تقريبا لمقاومة عروض سيد يمكنه الحكم عليها بالحياة أو الموت ، أما وقد اختارت الاستسلام للرجل الأبيض - اذا حدث ذلك - فعلى شروط مقبولة من الطرفين في العادة . فضلا عن أنه كان من الشائع المعروف أن الهنود لم يكونوا يتحرشون بالأسيرات الا نادرا . بهذه الفروق ، يمكننا أن نفهم الخوف الذي كان يشغل بال أمريكا البيضاء لمدة ثلاثمائة سنة - الخوف من الرجل الأسود ، المتحرق شوقا الى المرأة البيضاء . ان المشهد الثابت في الاتجاهات والكتابات المعاصرة عن هذا « المقتصب الأسود » يلقي نظرة سريعة على أسباب ودوافع ثورات العبيد التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فيبدو أن هذا الخوف من الرجال السود الذين براهم يهبون ليس طلبا لحريتهم ، ولكن جريا وراء النساء البيضاء ، ينبع من مشاعر الذنب، الناشئة عن اغتصاب النسوة السوداوات ، والخوف المرتبط ذهنيا من طالب النار الأسود ، والذي تفرض أنه ممتلئ غضبا ، ويحوم للانتقام ، ردا على أولئك الذين استعبدوه أولا ، ثم سلبوه نسائه بعد ذلك . ويندر أن نجد هذا التعبير عن الخوف الجنسي فيما كتب عن الهنود . ولما كانت الاتصالات الجنسية الطارئة ، والتي لا يشوبها اكراه مع الهنديات لا يمكن أن تثير اتهاما كبيرا ، كان من النادر أن يتصور الرجل الأبيض ، أن من يلقاهم من الرجال الهنود المعادين له هم طلاب نار جنسي . وفي القرن الثامن عشر لم يحدث تشويه للرجل الهندي ، مطلقا ، بتصويره كمغتصب مسعور ، يتربص في الأدغال ، أو بتصويره النساء البيض . وكان يوصف الهندي في الواقع ، أحيانا ، بأنه مخلوق ليس له في الجنس ، بدرجة واضحة ، وقد خلق ذلك ، بدوره ، صورة مشوشة للعداء في ذهن الأبيض ، وفي النهاية ، « الهيجي » الخادم جنسيا ، الذي لا شك في

عدائه . ولكن كانت النظرة للعبدو الهندي عامة على أنه رجل يمسك بسكين في يده ، ومصمم على جز فروة الرأس مع شعر الرجل الأبيض ، المعتدى على حقوقه وممتلكاته . أما الرجل الأسود ، فكان التصور أنه يركز في طلبه للثأر على جانب تشريحي آخر في الجسم (غير الرأس وفروة الشعر) .

والحقيقة الأشد إثارة ، حول الامتزاج الجنسي في أمريكا ما قبل الثورة هي أنه لم ينتج عنه ثقاف أو استيعاب وامتصاص على نطاق واسع ، على الأقل بالمقارنة بمجتمعات أخرى في العالم الجديد . ففي المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، كان يقبض على النساء الهنديات كجزء من استعباد السكان الأصليين ، عامة ، وبالتالي عاش الرجال الأسبان محاطين بهن . ومن خلال التسرى بالمحظيات والزواج المختلط اندمجت هؤلاء النسوة في الحياة الأسبانية والبرتغالية ، وكان الآباء الأسبان يعترفون بالنسل الهجين - المستيزو - الناجم عن هذه الزيجات . وكان أن لعب المستيزو ، في الواقع ، دورا كبيرا في المراحل المتأخرة من الفتح والاستعمار الأسباني . وبالرغم من أن الرجال الأسبان والبرتغاليين كان لابد أن يبنوا نساءهم الهنديات عندما تيسر الحصول على الأيبيريات ، حيث تقول دراسة حديثة أن الرجل منهم « فضل الزواج من بغى بيضاء بدلا من امرأة من الأهالي الوطنيات » . ولكننا لا نشك كثيرا في أن نطاق الاختلاط الجنسي كان أوسع بكثير منه في أمريكا الشمالية ، وأنه أدى إلى استيعاب جزء ضخم من السكان الهنود .

وتتشابه حالة الأفارقة في ذلك ، إلى حد ما . فقد وصل العبيد في وقت مبكر في عملية الاستعمار الأسباني والبرتغالي ، عنها في أمريكا الشمالية الإنجليزية ، وجاءوا بأعداد كبيرة تناسب أسيادهم الأوروبيين ، وقد أدت خدماتهم كحرفيين مهرة ومشرفين على العبيد الهنود إلى إعطاء الكثير منهم منزلة أعلى من زملائهم العاملين معهم . وبانتهاء فترة الفتوحات ، ابتدع المستعمرون الأيبيريون الصورة العنصرية الخاصة بهم بتصنيف الأفراد حسب لون البشرة - أي « النظام الصبغي » ، كما كان يسمى من قبل (١٥) . ولكن نظرا لأن كل فئات الطوائف ، كانت تعتبر في التسلسل الجنسي جزءا طبيعيا من المجتمع المتعدد الأجناس ، لذلك لم يترسخ تحریم والاتصال والتزاوج بين الأجناس . ولما كانت درجة التخالط هذه بين المجموعات الحضارية الثلاث قد أصبحت أكثر دقة وتفصيلا ، صار الانتقال من مجموعة لأخرى سهلا نسبيا بحيث ضعفت في النهاية ، طريقة التمييز بين المستيزو ، والكاستيزو (الأصيل) Castizo والمولاتو ، والموريسكو (المسلم الأندلسي بين النصاري) ، والالبينو albino (الأمهق ذو البشرة البيضاء والشعر الأبيض) ، والتورنا torna ، والأتراس atras ، واللوبي lobo ، والثامبايجو zambaigo المولد من الزنوج والهنود الحمر) ، والكامبوخو

cambujo ، والألباراثادو albarazado ، والباركونو barconco والتشياميزو chamiso ، وهلم جرا .

وعلى كل حال ، رفض الانجليز الاستيعاب والامتصاص ، في مستعمرات أمريكا الشمالية حيث كانت لهم اعتراضات قوية ، ليس على العلاقات الجنسية مع ذوات البشرة السوداء ، بل على منح السود وضعاً قانونياً ، بقبول مثل هذا الاختلاط الشرعى أو بإفساح المجال لنسلهم بين المجتمع الأبيض . وبالرغم من أن لون البشرة أخذ أهمية عبر أجيال من الارتباط بالرق ، لم يخش المستعمرون كثيراً من الاتصال العلنى ، الصريح بالنساء السوداوات . ولكن الارتفاع بالمكانة الاجتماعية لهؤلاء الذين كانوا يرزحون فى قاع المجتمع ، وفى درجة من اللوثية يصعب سبر أغوارها ، كان أمراً مثيراً للاهتمام .

وكان الحل ، هو ضمان عدم احتلال المولاتو لمنزلة وسط بين الأبيض والأسود . فآية سلالة سوداء كانت تضع الشخص ضمن السود ، وكان معنى سوادك أن تظل عبداً دائماً . وما قاله كارل ديجلر فى مجتمع أمريكا اللاتينية من أن « المولاتو قد أفلتوا من التضييق عليهم » لم يكن له وجود فى أمريكا الشمالية الانجليزية . ذلك أن قلة الحاجة نسبياً الى استدعاء الزنوج أو المولاتو ، وعدم أهمية الاعتراف بشرعية الأبناء (المخلطين) ، وتأسيس أسرة بيضاء مؤصلة الجنور ، الى أبعد حد ، ونمو نموذج الانسان الأسرى ، ووفرة المدد من النساء البيض ، كل ذلك أعطى مبررات خاصة لاستبعاد الدليل القوى على وجود المعاشرة الجنسية التى حددت نقاء حضارة الرجل الأبيض .

كانت المستعمرات الأمريكية ، إذن ، بحاجة الى عامل المزرعة ، وكان الاضطراب الى الطرف الآخر ، الذى يستطيع المرء معه أن ينفذ كل نزواته الجنسية ، من وقت لآخر ، ما داموا يعتبرون النساء السوداوات داعرات طبيعتهن . ومن تحريم الزواج المختلط ، مع التغاضى عن العلاقة الجنسية بينهما ، وتحديد كل النسل المختلط بأنهم سود ، وجد المجتمع الأبيض الاجابة المثالية على احتياجاته للقوى العاملة ، ورغباته الجنسية غير المقبولة ، والخارجة عن الروتين ، واضطراره للحفاظ على حضارته العتيقة النقية ، ومشكلة الابقاء على سيادته المطلقة على المجتمع ، ولو نظرياً على الأقل .

هذه المنظومة من الآراء فى السياسة الجنسية ، لم تكن مرتبطة كثيراً بالتعصب القومى للرجل الانجليزى بخصوص الظروف التاريخية للاستيطان الانجليزى فى أمريكا الشمالية . ويتضح ذلك أكثر ، بالنظر بعناية الى وضع المولاتو فى جامايكا الانجليزية من الوجهة الشرعية . وفى منتصف

القرن الثامن عشر ، كان أكثر من ٩٠٪ من سكان جامايكا من السود ، وفاق عدد الرجال البيض عدد نساءهم بكثير ، وقد اقتضى ذلك الاختلال في الملامح السكانية نظاما يسهل معه الحصول على النسوة السوداوات دون تردد من الرجل الأبيض ، ويرتفع فيه النسل المولاتو الى مراكز مهمة في مجتمع الجزيرة . وهذا هو ما حدث بالضبط . فاتباع نظام التمازج الجنسي . وفي سنة ١٧٣٣ ، كانت ممارسة منح المزايا والممتلكات للمولاتو قد دخلت في نص القانون . ويقول دييجلر ان مثال جامايكا « برهان قوى على أنه كان يمكن أن تتغير المواقف الحضارية للرجل الانجليزي ، والمختلفة تماما ، تحت ظروف معينة ، في اتجاه يشبه الى حد كبير النزعة التي اتخذها البرتغالي في البرازيل ، (١٦) » .

الاحتكاك الأفريقي - الهندي :

ان تقارب الحضارتين الأفريقية والهندية هو أقل الفصول دراسة وفيها في تاريخ العلاقة بين الأجناس في أمريكا القديمة . ولا جدوى ، بطبيعة الحال ، أن نبحث عن هذا النوع من التشاقف ، في أماكن لم يلتق فيها الهنود بالأفارقة بأعداد جوهرية ، وبالتالي لم يتيسر سوى القليل من التهجين المتبادل ، في نيوانجلاند ، حيث أبيدت القبائل الساحلية قبل أن تصل الأعداد القليلة جدا من الأفارقة ، على فترات متباعدة . وتجدر ملاحظة وضوح اختلاط الهنود الحمر بأعداد قليلة من الزنوج ذوي النفوس الخليفة في أماكن قليلة ، مثل كيب كود ، حيث كان الهنود يعيشون في أواخر القرن الثامن عشر . وهذا ما حدث أيضا في عدد من مدن نيوانجلاند ، خاصة على امتداد الساحل ، حيث تم تصدير العبيد الهنود من كارولينا الجنوبية بأعداد ضخمة في أوائل القرن الثامن عشر . وقد بين تعداد للسكان في سوث كنجستون South Kingston في رود آيلاند سنة ١٧٣٠ ، ٣٣٣ عبدا زنجيا ، ٢٢٣ عبدا هنديا ، ولم تكن السماء الناتجة عن الاختلاط الجنسي بينهم تثير الغرابة أو الانتباه . وينص تقرير في ماساشوسيتس سنة ١٧٩٥ على أن السود بصفة عامة ٠٠٠ غادروا وطنهم ، والتجأوا الى المدن الساحلية ، واندمج بعضهم ، واختلطت ذريتهم بالهنود في كيب كود ، ومارتا فينيارد (١٧) . وفي نيويورك ، التي ضمت أكبر كمية من السكان العبيد ، شمال تشيزابيك ، يبدو أن الاختلاط الجنسي بين العبيد والهنود ، رغم استحالة تقديره ، كان أكثر من المعتاد بكثير . وقد ارتبط العبيد من الزنوج والهنود برباط اللص سنة ١٧١٢ عندما تعاونوا في عصيان مسلح في نيويورك سيتي . ومنذ ذلك الحين ، عرف موظفو الأقاليم أن أفضل الأماكن للبحث عن العبيد الفارين كان وسط القبائل المحلية الصغيرة التي بقيت في لونج آيلاند ووادي نهر هلمسن . وعلى كل حال ، تركز العبيد السود في مدن

الشمال ، وهذه هي بالضبط ، الأماكن التي كان يمكن أن يوجد فيها الهنود من آن لآخر ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

وفي مستعمرات تشيزابيك ، قللت الظروف القاهرة أيضا ، من إمكانية اندماج الأقارعة والهنود . وكان يؤثر بالعبيد في أعداد قليلة فقط عندما تكثر نسبة الهنود في منطقة ميريلاند الساحلية . ففي سنة ١٦٧٠ ، سكن أقل من ألفي عبد منطقة تشيزابيك ، وبانتهاء ثورة بيكون سنة ١٦٧٦ ، كان السكان الهنود بأعداد ضئيلة في مناطق استيطان البيض . ومع ذلك ، يوجد اليوم في مجتمعات ثلاثية العرق منعزلة في ديلاوير ، وميريلاند ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية ، عدد كبير من العبيد الهاريين الذين وجها الملاذ وسط العديد من القبائل الساحلية ، والتي اختلطت سلالتهم بالبيض أيضا .

لم يجد الهنود والأقارعة أنفسهم يواجهون الأوروبيين معا بأعداد كبيرة إلا في كارولينا الجنوبية وجورجيا فقط . فهنا كانت المنطقة الوحيدة في أمريكا الانجليزية التي انطبق فيها الوضع الذي ساد معظم مناطق الاستعمار الإسباني والبرتغالي . ولم يدرس المؤرخون عملية التثاقف الأفريقي / الهندي في أي جزء منها ، وأغلب من بحثوا فيها قد سلموا بتقارير خبراء القرن الثامن عشر المهتمين بهذه القضية ، الذين ادعوا « بوجود كراهية طبيعية بين الهنود والزنج ، قد منعت الاثنين من الاتحاد والتآمر لتدمير المستعمرة ، أو أعلنوا بصراحة شديدة قولهم : « اننا نقرأ في أي موضع عن حدوث مصاهرة أو جماع أو حتى تعاطف وانسجام بين السلالتين » (١٨) .

وسيكشف المزيد من البحث الدقيق أنه هذه المزاعم كانت محاولات لإخفاء الخوف المزعج من أن الهنود والعبيد لابد أنهم سيوحون قواهم لطرد المستغلين البيض والقائمين في البحر . وهي مخاوف لها ما يبررها ، نظرا لأن الهنود في الجنوب الشرقي ظلوا خلال فترة ما قبل الثورة بأعداد وفيرة في مناطق الاستيطان الأبيض ، واتحدوا مع العبيد السود بما يفوق عدد السكان البيض بدرجة كبيرة . مثال ذلك ، أن البيض في كارولينا الجنوبية قد فاقهم عدد العبيد من السود والهنود ، ومن الهنود المحيطين بهم بنسبة ٣ : ١ ، ٤ : ١ طوال الفترة الأولى للاستعمار ، بل أنه حتى منتصف القرن الثامن عشر نجد نحو ٢٥ ألف أبيض فقط في المستعمرة مع نحو ٤٠ ألف عبد أسود وربما ٦٠ ألف هندي تجمعوا في قبائل الكريك ، والشيروكي ، والموكتاو ، والتشيكا ساو ، وقبائل ثانوية أخرى . وبعد عشرين سنة ، قبيل الثورة مباشرة زاد السكان البيض إلى نحو خمسين ألفا ، لكن السكان من العبيد قد زادوا بنسبة أسرع ، إلى حوالي ٧٥ ألفا .

وعاش الكارولينيون الجنوبيون محاطين بأولئك الذين لو استطاعوا أن يخذلوا وسائل متفقا عليها لقهروهم في أية لحظة . وان الانتفاضات الهندية التي ميزت الفترة الاستعمارية ، وتتابع ثورات العبيد ومؤامرات العصيان المسلح التي قضى عليها في مهدها ، قد جعلت الكاروليين الجنوبيين ، واعين بصورة مرضية الى أنهم لا يمكنهم أن يأملوا في الحفاظ على سيطرتهم على الوضع الا بأعلى درجات الحذر ، واتباع سياسة « فرق تسد » .

إذا اعتبروا الكاروليين البيض قادرين على الاحتفاظ بقبضة خطيرة على الموقف ، فتلك شهادة على قدرتهم على إثارة قبيلة ضد أخرى ، وعلى نجاحهم الجزئي في الإبقاء على العبيد من الهنود والزنوج متقسمين بعضهم على بعض . وكانت سياسة الكاروليين ، كما قرر أحدهم « أن نحافظ على استخدام الهنود والزنوج أحدهما ضد الآخر ، خشية أن يسحقنا أحدهما ، بما لهم من تفوق عددي ضخم علينا » (١٩) . وقد جربت طرق مختلفة لتحقيق ذلك . فصدرت القوانين التي تحظر على الأمريكيين من أصل أفريقي ، سواء أكانوا عبيدا أم أحرارا أن ينتقل الواحد منهم في بلاد الهنود بوصفه تاجرا أو مساعدا تاجر . وكان يطلب من القبائل الهندية باصرار أن تعيد العبيد اللاجئين إليها ، ووقعت معاهدات مع الكريك ، والشيروكي ، وقبائل أخرى ، تتضمن دائما فقرة تشترط ضرورة إعادة العبيد الهاربين ، الى حكومة كارولينا . وقدمت الحكومة هبات وجوائز للهنود مقابل العبيد الذين يقبضون عليهم ويعيدونهم . واستخدم خفر الحدود ودورياتها لمنع العبيد من الوصول الى أراضي الهنود . وكان الشك في السود يقوي بين الهنود كوسيلة للبقاء على تبادل المساعدة بينهم في أدنى درجاتها ، حيث يقول الحاكم ليتيلتون سنة ١٧٣٨ : « كانت سياسة هذه الحكومة دائما ، خلق بغض شديد [للهنود] للزنوج » (٢٠) .

لقد كان الهدف مزدوجا من دمج العبيد السود في ميليشيا كارولينا الجنوبية أثناء الحروب الهندية . فبدونهم ، كان يصعب على الكاروليين شق طريقهم لهزيمة أعدائهم من التوسكارورا ، والياماسي ، والشيروكي ، كما ساعد استخدام الجنود السود على تذكير الهنود بأن الأفارقة ليسوا أصدقاء لهم . فقد كان نصف جيش كارولينا من السود بقيادة الحاكم كرافن ضد الياماسي سنة ١٧١٥ . كما سارت سرية أخرى من السود مع القائد بايت Pight في نفس الحملة . ولما أثبتت هذه القوات عدم قدرتها على هزيمة الياماسي ، طلب مجلس النواب « جيشا دائما » من ١٢٠٠ رجل منهم ٤٠٠ من الزنوج أو غيرهم من العبيد ، (٢١) وذلك تنفيذًا ، فحسب ، للسياسة التي بدأت سنة ١٧٠٨ لتكوين ميليشيا من السود والبيض بأعداد متساوية . ونجد ثلاثة وسبعين عبدا ضمن الحملة ضد ميانتي أوجستين سنة ١٧٤٠ ،

وبحلول ١٧٤٧ تغير القانون بحيث لا يسمح بأكثر من ثلث القوة من الجنود السود ، وتلك دلالة على الخوف المتزايد من تمرد السود . الا أن عددا قليلا من الكارولينيين السود حارب ضد الهنود أعداء الحكومة البيضاء في حملاتها ضد الشيروكي سنة ١٧٦٠ . وقد دلت حرب الشيروكي على مدى حيرة الكارولينيين بين تمرد الأحمر ، وعصيان السود . فقد كان كثير من السود مطلوبين لمحاربة العدو الهندي ، الا أن القلق والخوف من ثورة السود كان يعظم أيضا في فترة استيراد العبيد بكميات كبيرة . ولذلك فشلت الدعوة في مجلس النواب في كارولينا ، بصوت واحد ، لتجهيز ٥٠٠ عبد « للخدمة ضد الهمج المتوحشين » .

هذا ، وكما كان العبيد يستخدمون في قمع الثورات الهندية ، كان الهنود يستخدمون بنفس الدرجة لاضمار ثورات السود . ففي ثورة ستونو سنة ١٧٣٩ ، وهي أعظم حركة عصيان للسود اثارة في كارولينا الجنوبية ، استسمى هنود « المستوطنة » للاحقة العبيد الذين راوغوا رجال الميليشيا واتخذوا طريقهم نحو فلوريدا الأسبانية . وقد طالب مجلس نواب كارولينا الجنوبية بمنح كل هندي ملابس ، وأسلحة ، وذخيرة ، ووعده بخمسين جنيها لكل من يعيده عبدا حيا ، أو خمسة وعشرين جنيها لمن يعيده ميتا . وقد بلغ ما تم دفعه لخدمات الهنود في النهاية أكثر من ٢٠٠٠ جنيه . واستخدم الهنود لانجاز ما كانت تعجز الميليشيا البيضاء عن أدائه ، واتخذت محاولات أخرى لصد ثورات السود ، بإعادة توطين القبائل الهندية في المناطق التي كان بها أعداد كبيرة من العبيد الذين ينشئون مزارع الأرز والنيلة التي أصبحت أساس اقتصاد كارولينا الجنوبية في القرن الثامن عشر . وقد نشأت هذه السياسة أصلا ، في بداية القرن الثامن عشر ، ونفذت بنشاط ، خاصة في الثلاثينات منه ، عندما أدى تكوين السكان العبيد الى ارتفاع كارولينا خوفا من ثورة السود . لقد طلب البيض من المحاربين الشيروكي سنة ١٧٣٧ « أن يأتوا الى المستوطنات ليمثلوا رعا للزنج » (٢٢) ، وبالرغم من عدم تسجيل ما اذا كانوا قد استجابوا أم لا ، فإن الطلب يعكس سياسة البيض في تحريض الهنود ضد العبيد السود .

وبالرغم من تلك الجهود النشطة ، العنيفة لأذكاء الكراهية بين الهنود والأفارقة كان عدد منحل من العبيد يأتون الى المجتمعات الهندية طوال الفترة الاستعمارية . ومن المستحيل قياس هذه الظاهرة بدقة احصائية ، ولكن الاصرار على تضمين المعاهدات الهندية فقرة تشترط ارجاع العبيد الفارين يظهر بوضوح أن المنسح والجواز الحكومية المقدمة للهنود نظير القبض على العبيد لم تكن في الغالب تلقى الاستجابة الكافية . فمثلا ، منحت قبيلة التوشكارورا ، اللجوء لعدد كبير من العبيد في الفترة السابقة لاندلاع

الحرب سنة ١٧١١ . وعند اشتعالها حارب الأفارقة مع التومسكارورا ، وقيل ان واحدا منهم ، يدعى هارى Harry صمم قلعة التومسكارورا على روافد لنهر نيوسى Neuse . وبعد أربع سنوات ، وأثناء ثورة الياماسى ، كان العبيد اللاجئون ينشطون أيضا فى الاغارة على مستوطنات البيض . بل ان الياماسى ، بعد أن تخلوا عن نضالهم ، رفضوا إعادة حلفائهم السود مما « شجع عددا كبيرا آخر [من العبيد] على الفرار الى هذه المكان » (٢٣) . على حذو قول مستول كارولينى .

كان وضع الياماسى على امتداد الساحل بين المستوطنات الانجليزية والمخافر الأسبانية الامامية فى فلوريدا سببا آخر لهروب العبيد فى هذا الاتجاه . وأصعد الأسبان فى أوائل سنة ١٦٩٩ مرسوما ملكيا يحد بحماية كل العبيد الانجليز اللاجئين ، وتكرر هذا العرض على فترات منتظمة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ، حتى انه بعد انتهاء حرب الياماسى ، لم يشجع الهنود عبيد كارولينا الى الانضمام اليهم فقط ، بل وشاركوا أيضا فى غارات سرقة العبيد من المزارع المتطرفة . وفى سنة ١٧٣٨ هرب ٢٣ عبدا من بورت رويال الى سانت أوجستين ، وانضموا فى الحال الى مستوطنة من الزوجات الأحرار التى تكونت من ٢٨ عبدا أقاموا فيها فعلا مع عائلاتهم . أى أنها كانت ، بصورة ما ، هى المخفر الامامى المكون من الخمسين الى المائة عبد الذين ثاروا فى ستونو Stono سنة ١٧٣٩ فى محاولة ضخمة لقتل البيض والهرب الى فلوريدا الأسبانية . وعندما شن أوغليثورب ، حاكم جورجيا هجوما على سانت أوجستين سنة ١٧٤٠ كجزء من الحرب الانجليزية / الأسبانية لاقى مقاومة شديدة مشتركة من الأسبان والهنود ، سنة ١٧٣٩ ، وهى أعظم حركة عصيان للسود اثارة فى كارولينا الجنوبية وعبيد كارولينا سابقا ، الذين لم يجهلوا صعوبة فى صد الحملة التى أنفق فيها الكارولينيون أكثر من ٧٠٠٠ جنيه . وبعد ذلك بستين ، رد الأسبان بهجوم على جورجيا ، وكانت ضمن القوات الغازية فرقة كان قادتها الزوج « يزينون ملابسهم العسكرية بشرائط ، ويحملون نفس رتب الضباط البيض ، ويمشون ويتناقشون بنفس الحرية وعدم الكلفة مع رئيسهم وزملائهم » (٢٤) . ويكشف أحد مؤرخى القرن الثامن عشر من كارولينا الجنوبية عن مدى زعزعة قبضة سادة العبيد ، البيض على عبيدهم ، وذلك عندما ذهب حذو الى أنه اذا كانت الحملة الأسبانية قد هاجمت كارولينا الجنوبية بدلا من جورجيا لكان الانجليز قد ضاعوا تماما لأن كارولينا الجنوبية كان بها « مثل هذه الأعداد من الزوجات الذين كانوا سيحرزون قوة تجعل كل مقاومة لهم عقيمة وبلا فاعلية » (٢٥) .

لم يهرب العبيد في الجنوب الى الياماسي وفلوريدا الأسبانية فقط ،
ففي سنة ١٧٢٥ ذكر أحد ملاك العبيد البارزين في كارولينا الجنوبية في
تقرير يثير القلق أن العبيد قد أصبحوا معروفين بسهولة في بلاد الشيروكي
المرتفعة ، وأصبحوا يجيدون اللغة الانجليزية بل ولغة الشيروكي أيضا
بطلاقة . وكذلك آوى الكريك العبيد الهاربين الى مدنتهم وفي نفس السنة
التي أعلن فيها عن الحاجة الى عبد بارع في لغة الشيروكي ، حضر وفد الى
كويتا ، المدينة الرئيسية في الكريك الأدنى ، ومعه عبد من كارولينا سابقا ،
كان يعمل مترجما بين الكريك والأسبان . ويعتبر وجود عبد سابق آخر
يعمل مترجما نشطا بين الفرنسيين والكريك خلال هذه الفترة شهادة على
القدرة اللغوية لدى بعض العبيد الفارين ، وقابليتهم للاستيعاب في الحضارة
الرائدة للأمم الأوروبية الأخرى ، تماما كما في مجتمعات الكريك ،
والشيروكي ، أو الياماسي . وينتهي أحد دارسى الاتصالات بين الحمر والسود
في الجنوب الشرقي الى أن العبيد الفارين « كان لهم تأثير ضخم ، في رقعة
مترامية الأطراف ، كوكلاء للفرنسيين والأسبان وسط القبائل الهندية
الواقعة على حدود المستوطنات الانجليزية » (٢٦) . وكان التهديد كبيرا بفقد
العبيد ، وتوجههم الى الكريك سنة ١٧٢٢ ، لدرجة جعلت حاكم كارولينا
الجنوبية يصدر اعلانا يمنع الكريك من دخول مستوطنات البيض بالمستعمرة ،
 طالما أن زياراتهم التي كان مفهومها الظاهري هو التجارة كانت تشجع
أعدادا كبيرة من العبيد على العودة في اثرهم الى الداخل . وفي الستينات
من القرن الثامن عشر ، كان الكارولينيون يضغطون مؤخرا على الكريك
بشدة لارجاع العبيد الفارين ، وبالرغم من تسليم بعض السود من آن لآخر ،
بقي المثبات منهم في المنطقة الهندية ، يمزجون بين خصائصهم الحضارية
وخصائص هؤلاء الكريك والشيروكي وغيرهم .

استطاع الكارولينيون البيض ، الحد من تنفق العبيد السود الى داخل
البلاد باصدار أقصى قانون للعبيد في المستعمرات ، وبدفع مبالغ طائلة
ليساندهم الهنود في الأوقات الحرجة ، وباعداد مجتمعهم عسكريا . ولم
يحدث أن أصبحت بلاد الشيروكي الجبلية أبدا ملجأ للعبيد الفارين ،
يضارع المخاض الجبلية للعبيد الأبقين في جامايكا ، أو « الكيلومبوس
Quilombos » البرازيليين ، مثلما كان يخشى كثير من الكارولينيين . ومع
ذلك ، لم يحدث أبدا أن نجحت سياسة بث الكراهية وتعزيزها بين
المجموعتين . فعلى امتداد القرن الثامن عشر ، كان العبيد يهربون بأعداد
ضخمة الى القرى الهندية ، ويرتبطون بها . وبين الفينة والفينة ، عندما كان
يرتفع الثمن كثيرا أو تزداد الحاجة الى استرضاء الكارولينيين كان لابد من
ارجاع بعض هؤلاء الفارين الى سادتهم البيض . ولكن ، يبدو أنهم في الغلب
الحالات قد اختفوا في المجتمع الهندي ، واتخذوا لهم زوجات هنديات ،

وأنجبوا منهم أبناء مختلطي الدماء وسباهتموا في التثاقف الأفريقي الهندي، بنفس طريقة أولئك العبيد الذين عاشوا مع الهنود المستوطنين في المنطقة الساحلية . وإلى هذا الحد ، شارع التزاوج والاختلاط الأفريقي/الهندي في المستعمرات الجنوبية حتى أضيف مصطلح « المستى Mustee » إلى مفردات اللغة في الجنوب لكي يصنف النسل الناشئ من أبوين أحدهما أفريقي والآخر هندي .

وبالرغم من الدليل على الاحتكاك الضخم بين الهنود والأفارقة ، إلا أنه من عدم الدقة التاريخية ، والتبسيط السياسي أن نفترض أن علاقاتهم يمكن تفسيرها بأنها انجذاب طبيعي بين الشعوب المقهورة ليتحدوا ضد مضطهديهم . إذ لم يعمل الكريك ، والشيروكي وغيرهم من القبائل الجنوبية بطريقة منظمة أبدا ، في فترة المستعمرات على الاتحاد مع العبيد . ولا بد أن مشاكل وسائل الاتصال والاختلافات الثقافية قد زادت من صعوبة ذلك، ولكن المهم جدا أن الجماعات الهندية ، خاصة بعد حرب الياماسي سنة ١٧١٥ كانت مصممة على استخدام مجتمع البيض لأهدافهم الخاصة أكثر من أن تزيلها نهائيا . وهكذا اختلف تصرفهم مع الأفارقة مع تقيدهم الثابت بمصلحتهم الشخصية . فكانوا يقبضون عليهم أحيانا كعبيد ، وأحيانا أخرى يعطونهم الملاذ ، ويقرونهم في قراهم ، وفي بعض الأحيان ، عندما يشتد ضغط البيض عليهم كانوا يعينون عددا منهم يكفي لارضاء مطالب البيض ، وفي أحيان أخرى يصطادونهم لمن يدفع الثمن . ولم يكن يرحب بعبيد المستعمرات الانجليزية دون النظر لأهليتهم إلا عندما يكون للقبيلة الهندية ارتباط تجاري قوى خارج فلك الانجليز ، كما عند الأبلاش، في فلوريدا الأسبانية .

وتحليلنا النهائي ، أن اختلاط الشعوب في أمريكا القرن الثامن عشر كان حصيلة مجموع المعدلات السكانية، والظروف التاريخية للاستيطان الانجليزي . ففي سنة ١٧٧٠ كان هناك نحو ٢٣ من المليون شخص يعيشون شرقي مرتفعات اللجني ، منهم ١٧ من المليون من البيض ، ونصف المليون من السود ، وواحد من عشرة فقط من المليون أو أقل من الحمر . هذه الأثرية للبيض تغاير تماما كل الأجزاء الأخرى تقريبا من العالم الجديد ، التي استوطن فيها الأوروبيون ، كما أن كل العوامل الجانبية الأخرى كفلت أدنى حد من الامتزاج الجنسي . أما حيث سكن الناس من مختلف الألوان ، على قرب شديد من بعضهم ، حدث الاختلاط الجنسي بمختلف أنواعه على نطاق واسع ، وملحوظ . أما كون العلاقات الجنسية لم تكن مشروعة اجتماعيا ، كما في المستعمرات الأوروبية الأخرى ، فلم يكن يعكس ذلك اختلافا في نماذج الاستيطان فقط ، بل يعكس أيضا الاهتمام

الخاص بالمحافظة على « مجتمع متميز » في أمريكا الشمالية الانجليزية ،
يتخذ الأسرة محوره . وأيا كانت المواقف والاتجاهات السابقة بين
البرتغاليين في البرازيل ، والفرنسيين في كندا ، والانجليز في جزر الهند
الغربية ، كان هؤلاء المستعمرون يمثلون أقلية من السكان في بيئات عالمهم
الجديد ، استطاعوا بصعوبة ، دون أن يتخلوا عن أهدافهم ، أن يختاروا
المواقف الاجتماعية العنصرية الصارمة ، والقوانين التي شرعها الانجليز في
مستعمراتهم بأمريكا الشمالية ، حيث صمدوا كجزء غالب على مجموع
السكان .

لا ريب أن أكثر ما يثير الدهشة هو درجة امتزاج خطوط الألوان التي
حدثت في مجتمع كانت المجموعة المهيمنة فيه تطالب بقوة باحتفاظ بلعائها
نقية . ونرى البون شاسعا بين القرارات الحكومية كما تعبر عنها قوانين
تحريم الامتزاج الجنسي ، وبين الممارسة الاجتماعية الفعلية ، كما نراها في
القطاع الكبير من السكان ذوي الدماء المختلطة . ويمكن تفسير ذلك ، فقط ،
برغبة البيض في الإبقاء على سيطرتهم الاجتماعية الصارمة ، بينما هم
ينغمسون في نفس الوقت في الانشباع الجنسي ، الذي زاده وغناه شركاء
يختلفون عنهم في لون البشرة بدلا من أن يكونوا مصدر تهديد لهم .

المراجع

1. William Byrd, « Histories of the Dividing Line Betwixt Virginia and North Carolina », ed. William K. Boyd (Raleigh : North Carolina Historical Commission, 1929), p. 3 ; Robert Beverley, « History and Present State of Virginia », ed. Louis B. Wright, (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1960), pp. 38-39.
2. A Brock, ed., « The Official Letters of Alexander Spotwood Virginia Historical Society Collections », N.S., 2 : (Richmond : Virginia Historical Society, 1885), 227.
3. Lawson, « Voyage to Carolina », ed., Lefler, pp. 189-90.
4. Beverley, « History and Present State of Virginia », ed. Wright, p. 159.
5. James Hugo Johnston, « Race Relations in Virginia and Miscegenation in the South, 1776-1860 » (Amherst : University of Massachusetts Press, 1970), p. 169.
6. Quoted in Roy Harvey Pearce, « The 'Ruins of Mankind' : The Indian and the Puritan Mind », Journal of the History of Ideas, 13 » (1952) : 205.
7. J. Hector St. John Crevecoeur, « Letters from an American Farmer » (New York : E.P. Dutton & Co., Inc., 1957), pp. 208-09.
8. A. Irving Hallowell, « American Indians, White and Black : The Phenomenon of Transculturation », Current Anthropology, 4 (1963) : 527.
9. Ibid., p. 528.
10. Quoted in Johnston, « Race Relations in Virginia », p. 170.
11. Edward B. Reuter, « The Mulatto in the United States » (repr. (New York : Negro Universities Press, 1969), pp. 112-14 ; Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population before the Federal Census of 1790 » (New York : Columbia University Press, 1932), pp. 69-70.

12. Jordan, « White Over Black : American Attitude Towards the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1968), p. 140.
13. Ibid., p. 139.
14. Quoted in Ibid., p. 140.
15. Magnus Mörner, « Race Mixture in the History of Latin America » (Boston : Little Brown and Company, 1967), pp. 54-60.
16. Carl N. Degler, « Neither Black Nor White : Slavery and Race Relations in Brazil and United States » (New York : The Macmillan Company, 1971), p. 240.
17. Quoted in Kenneth W. Porter, « Relations between Negroes and Indians within the Present Limits of the United States », *Journal of Negro History*, 17 (1932) : 311.
18. Quoted in Chapman J. Milling, « Red Carolinians » (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1940), p. 63.
19. Quoted in William S. Wills, Jr., « Divide and Rule : Red, White, and Black in the Southeast, » *Journal of Negro History*, 48 (1963): 165.
20. Ibid.
21. David D. Wallace, « South Carolina : A Short History, 1520-1948 (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), p. 88.
22. Willis, « Divide and Rule », p. 175.
23. Quoted in Milling, « Red Carolinians », p. 153.
24. Kenneth W. Porter, « Negroes on the Southern Frontier, 1670-1763 » *Journal of Negro History*, 33 (1948) : 68.
25. Ibid.
26. Ibid., p. 77.

الفصل الثانى عشر

الحر ، والبيض ، والسود ، عشية الثورة

نص اعلان جورج الثالث . سنة ١٧٦٣ ، على أنه « من العدل والعقل ، والضرورة لمصالحنا ، ولأمن مستعمراتنا ، ألا تحدث للأمم أو القبائل الهندية العبيدة التى ترتبط معها ، والتى تعيش تحت حمايتنا ، أية مضايقة أو ازعاج فى ملكيتهم لهذه الأجزاء من الأراضى والاقطاعات الواسعة الخاضعة لسيادتنا ، ونحتفظ بها لهم أو لاي منهم كأراض للصيد خاصة بهم ، ما داموا لم يتنازلوا عنها أو اشتريناها منهم » (١) . هكذا ، حاولت الحكومة الانجليزية ، فى ختام سبع سنوات من الحرب الدولية ، أن تنسق سياسة هندية للقارة فى أمريكا الشمالية ، حيث كان الأمر متروكا لكل مستعمرة ، طوال قرن ونصف لتصرف شئونها الهندية .

ونظرا للدغة التى أصابتهم من تحالف معظم قبائل أمريكا الشمالية مع الفرنسيين فى حرب السنين السبع ، حاولت الحكومة الانجليزية أن تنتهج سياسة جديدة تباعد بين الحر والبيض ، وتبقى على هذا الانفصال بينهم . ولم يكن من الممكن اصدار أى اعلان آخر أوضح من ذلك عن فشل الاستيعاب الذى تكلم عنه الكثيرون فى الماضى ، والقليلون هم الذى عملوا ما يعززه ويرعاه .

علاقات الحر والبيض بعد ١٧٦٣ :

كان يجب ، حسب نصوص اعلان ١٧٦٣ ، رسم خط يتبع بالتقريب قمم جبال ابلاش ، ابتداء من ماين حتى جورجيا : فكان حكام المستعمرات المختلفة مكلفين أن يمنعوا « فى الوقت الحاضر ، وإلى حين اشعار آخر بمشيئتنا » أى أعمال للمساحة أو منح أراض وراء خط تقسيم مياه الأبلش . « فكل الأراضى والأقاليم الواقعة غرب منابع الأنهار التى تصب فى البحر من الغرب والشمال الغربى ، محفوظة للشعوب الهندية بوجه خاص . وعلى جميع المستوطنين البيض الموجودين حاليا وراء خط تقسيم الأبلش ، الانسحاب شرق هذا الخط .

ويعتبر اعلان ١٧٦٣ واحدا من أهم الوثائق المؤثرة في التاريخ الأمريكي وقد أكد المؤرخون المقيمون « بنظرية الحدود » لفردريك جاكسون تيرنر Frederick Jackson Turner أن هذه المحاولة لكبح قوة الأمريكيين الناظرين الى الغرب دوما ، قد أبعدت المستعمرين ، وأعطتهم قوة دافعة أساسية للتخلص من ثير الوطن الام المقيد لحركتهم . ويوافق المؤرخون الاقل في مثاليتهم على أن الاعلان كان حافز عظيم أدى الى الثورة، ولكنهم أشاروا الى أن أكبر من آثارهم البيان هم سياسة الأراضي على الساحل الشرقي ، الذين استشاطوا غضبا لرؤية أعظم مصدر للربح في أمريكا الشمالية يغلبت من قبضتهم في ذات اللحظة التي أزيل فيها « الخطر » الفرنسي من القارة . ولكن ، قلما لوحظ قبل أن يرسم البيروقراطيون الاستعماريون في لندن حدود سنة ١٧٦٣ بعدة سنوات ، أن كانت قبائل الداخل الهندية ، ابتداء من السينيكا ، والأوتلوا ، والالينوى ، والميامي ، والسيوكس في الشمال ، الى الشيروكي ، والكريك ، والشوكتاو في الجنوب ، يحاولون هم أنفسهم تثبيت الخط الاقليمي الذي يحد من توسع البيض . وكانت تلهيهم في هذه المحاولات تقتهم المؤكدة ، بأنه على العكس من لغة اعلان ١٧٦٣ ، لا يعيشون تحت «الحماية» الانجليزية ولكنهم يستطيعون ، في الواقع ، حماية مصالحهم ، ويؤمنون بقايعهم بالتخلص من « الحماية » الانجليزية ، والنضال للحفاظ على أرضهم وصيانتها .

وبالرغم من أنه لم تكن لدى القبائل الهندية طريقة لحساب الزيادة السكانية في المستعمرات الثلاث عشرة ، كانوا على وعى تام بأن المستوطنين يتحولون بأعداد كبيرة ، غير مسبوقه في أراضيهم القبلية الخاصة بالصيد ، في أعقاب الجيوش الأنجلو - أمريكية التي كانت تطرد الفرنسيين من وادي أوهايو ، ابتداء من سنة ١٧٥٩ . ان الزيادة السكانية ، فيما بين سنتي ١٧٥٠ ، ١٧٦٥ ، كانت في الواقع ، تضارع الزيادة التي حدثت أثناء حملة النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وتركز أكثر من نصفها في مستعمرات نيويورك ، وبنسلفانيا ، وفرجينيا . حيث بدأ السماسرة الجوعى الى الأرض ، المهاجرون يتدفقون عبر الأجزاء الغربية من هذه المستعمرات ، بمجرد طرد الفرنسيين منها . وسواء قبل أو بعد تعيين خط الاعلان سنة ١٧٦٣ ، كان المعتدون على الأرض مشغولين بتدعيم ادعائهم ملكية الأراضي التي لم يكن للانجليز حق فيها ، بنص معاهداتهم الخاصة مع القبائل الهندية . فأراضي الكريك ، مثلا ، كانت مضمونة بمعاهدة وقعت سنة ١٧٣٣ ، كما تمكنت حدود مستوطنة للبيض في اقليم الشيروكي بانتهاء حربهم سنة ١٧٦١ بمعاهدة مع حكومة فرجينيا . الا أن هاتين المعاهدتين لم يكن لاي منهما تأثير على سياسة الأراضي أو المستوطنين

البيض الذين احتشدوا بأعداد غفيرة في الاقليم الهندي ، مطمئنين الى معرفتهم ان حكوماتهم المحلية ليست لديها الرغبة ، ولا القوة لعمل شيء يذكر حيالهم .

كان رد الفعل الهندي ، هو مقابلة القوة بالقوة ، ولو بدون المساعدة الفرنسية . فتميزت الحدود الجنوبية كافة بمصادمات دموية في بداية الستينات بالقرن الثامن عشر ، حيث تحارب الهنود والمستوطنون ، فوق الاراضي الهندية التي كانت الحكومة المحلية قد ضمنتها للقبائل . وقد جرت محاولات لتكوين حلف دفاعي آخر شامل لكل الهنود ، حتى مع المخاطرة ان يقطع الانجليز املاكهم من السلع التجارية ، بينما بذل الانجليز كل جهدهم في سلسلة من المؤتمرات للحصول على تنازلات عن الارض بتملق الكريك والشيروكي ، وبث العداوة بين القبائل الكبرى . وكان واضحا من تصميم القبائل الجنوبية على مقاومة الانتهاكات الانجليزية ان هزيمة الشيروكي ، سنة ١٧٦١ لم تخمد الحماسة الحربية للهنود الجنوبيين ، (٢) . وحتى مع زوال الفرنسيين من القارة ، ظلت القوة تتذبذب ، تقريبا . وهنا ما كان يرمز اليه بقوة رفض الكريك سنة ١٧٦٣ تسليم رجال من قبيلتهم لقتلهم اربعة عشر من مفتصبي الاراضي البيض . وقرار الانجليز الذين حاولوا عبثا الحصول على تأييد من الشيروكي والمشوكتاو لمحاربة الكريك حتى لا يغلب القتل من الانتقام . وعجز الكريك من الناحية الأخرى ، عن عقد حلف هندي جنوبي سنة ١٧٦٣ عندما كان على هذه الحركة الهندية الموحدة أن ترتبط بثورة هندية كبرى في الشمال الغربي لاعطاء الشعوب الوطنية احسن المزايا في القرن الثامن عشر .

ان لم يكن رد الفعل الهندي لانتصار الانجليز على فرنسا نوعا من خضوع الجبناء في الجنوب ، فهو في الشمال أكثر علنا . ففي يونية سنة ١٧٦١ ، لبس السينيكا اكثر المؤيدين للفرنسيين دائما بالنسبة للشعوب الهندية الستة حزاما أحمر من الصدف (دلالة على عزمهم على الفهاب للحرب) الى ديترويت حيث كان يعسكر الجيش البريطاني وسط مختلف القبائل التي حاربت من قبل مع الفرنسيين وهم : الديلاوير ، والشاوني ، والأوتاوا ، والهورون ، والتشيبويا Chippewas والبوتساواتومي Potawatomies . وكانت بعثة السينيكا تمثل محاولة لأخذ المبادرة في مقاومة السياسة الانجليزية الجديدة نحو الهنود ، التي قلصت التجارة ، وفرضت على الهنود احضار فرائهم الى الحصون البريطانية ، وأنهت نظام الهدية ، السنوية ، وحظرت تجارة الروم ، وأنشأت ، بصفة عامة ، اتفاقات تجارية أقل ارضاء للهنود عن تلك التي كانت قائمة قبل الحرب .

وكان لدى الصينيين هافس اضافى لسلوكهم طريق الحرب . فقد رأى
الجنرال أمهرست Amherst القائد العام للقوات الانجلو أمريكية خلال
حرب السنوات السبع أن يكافئ بعض ضباطه بأراضى الصينى القريبة
من نياجارا ، فى انتهاك منه لمعاهدة موقعة بين الايروكوا وحكومة نيويورك ،
ولم تنظر المدن الهندية باستخفاف الى هذا الكرم الذى جاء على حساب
الصينى .

وكان ما اقترحه الصينى على القبائل الشمالية هو التمسك لهجوم
على كافة المراكز الامامية الانجليزية ، الممتدة على طول البحيرات العظمى
حتى بتسبرج جنوبيا . فلابد من طرد الانجليز من وادى أوهايو ، وبلاد
الايروكوا ، وعبر المرتفعات الى السهل الساحلى . وليس من المؤكد أن
هذه « السياسة الوطنية » - القائمة على حماية مصالح الاهالى الاصليين
قبل مصالح المهاجرين - كانت تتضمن حلا للكف عن التجارة الانجليزية
تماما ، بالرغم من احتمال ، أنه بعد سنوات كثيرة من المشاكل التجارية
لم يراعوا أو يحترموا أية تجارة مطلقا سوى التجارة التى تتقيد بأسعار
زهيدة . هذا وبالرغم من رفض القبائل الغربية لخطة الصينى بعد
مناقشة طويلة كانوا أبعد عن الرضا بما سمعوه من سير وليام جونسون ،
المشرف الهندى الشمالى ، حينما وصل الى ديترويت بعد ثلاثة شهور ،
حيث أعلن أنه جاء ليزيد « رابطة الصداقة » اشراقا وبهجة ، وتكلم بحماسة
عن اهتمام الملك بصالح « جميع رعاياه » ، ولكنه لم يعد بشئ بشأن غلو
السعر للسلع التجارية ، وعدم توفر الحصول على شراب الروم ، وتوقف
الهدايا السنوية ، أو عدم كفاية التمويل بالذخيرة التى كانت مخصصة
للقبائل ، فقد قال عن ذلك كله انها أمور تخص السياسة الرسمية ،
فوق سلطته .

رغم أن جونسون كتب تقريره متفائلا الى الجنرال أمهرست فى
ختام المؤتمر ، مؤكدا أنه غادر ديترويت والأمور « موطدة هناك » ، على
أساس ثابت جدا ، لدرجة أنهم لن يخرقوا السلم أبدا ما لم يستشاروا
بشدة . ، الا أن واقع الأمر الشنيع هو أن الهنود ، على الرغم من اظهارهم
الصداقة والتفاهم كانوا مصدر تنقيص خطير (٣) . وقد أدرك الموقف
بدقة جورج كروغان G. Croghan أكثر التجار الانجليز خبرة فى وادى
أوهايو حيث كتب : « ان الهنود لديهم توقعات عظيمة بأن نسخو فى اشباع
رغباتهم ، ومن منطلق فقرهم ونزعتهم الجشعة ، لا يمكنهم تحمل مثل هذا
الاحباط . ولا شك أن الجنرال [أمهرست] لديه مبرره الخاص لمعهم
السماح باعطائهم أية هدية أو ذخيرة ، واتوق الى أن يكون له اثره المرغوب ،

ولكنى أنتهز هذه الفرصة لأعرفك أنى أفزع من النتيجة ، لأنى أعرف أن الهنود لا يقرون على المثابرة الطويلة ويعون فى ذكرتهم نجاحهم الحديث جلتا على جبهاتنا فى بداية هذه الحرب ، مما يجعلهم يتأملون مليا فى عجزهم الحالى عن محاربتنا . وإذا قطع السيخكا ، والديلاوير ، والشاونى علاقاتهم معنا ، فسينتهى الأمر بحرب شاملة مع كل العشائر الغربية (٤) .

بالإضافة الى الحالة العامة السيئة ، الداعية للمسيحيان ، كانت هناك مواعظ معلم الديلاوير ، وساحر الجماهير المبسو نيولين Neolin فى الوقت الذى قطع فيه الانجليز سبلهم التجارية التى اعتمد الهنود عليها ، بدأ نيولين سلسلة من الأسفار فى كل المناطق الهندية ليلج على الهنود اما أن يعودوا الى « حالتهم الأصلية التى كانوا عليها قبل أن يكتشف البيض بلادهم » أو يواجهوا الانقراض البطيء على أيدي المستوطنين المندفعين بأعداد كبيرة عبر الجبال . ووصف عديد من التجارب بالتفصيل ، الولادة الجديدة للحضارة الهندية ، التى بشر بها معلم الديلاوير الملهم ، وأن رؤيا نيولين التى رواها ، والتى نقلها اليه فى أحلامه رب الحياة قد أوضحت بجلاء أن خلاص الهنود لا يكمن فى قبول المسيحية والحضارة الأوروبية ، بل بالرجوع الى عاداتهم القديمة ، وأن الروم يجب استنكاره بالايمان المغلظة ، وكذلك يجب الحلف على ترك المادريات فى حضارة البيض . ويجب كبح الزيادة السكانية من خلال التقشف والامتناع عن المسكرات حتى يتم الرجوع الصعب الى الأوضاع القديمة . وبين فى وعظه أن « هذه هى الحالة المحزنة التى أكرهنا عليها » .

ما هو الواجب فعله الآن ، وما العلاج الصحيح ؟ أنا أدلكم عليه ، أيها الأصطفاء . اسمعوا ما أمرنى الروح الأعظم أن أخبركم به ! عليكم ان تضحوا ، بالطريقة التى أرشدكم اليها ، بأن تخلصوا انفسكم تماما من العادات التى اخترتموها منذ جاء هؤلاء البيض بيننا ، عليكم أن ترجعوا الى حالتنا البهيجة الأولى ، التى عشنا فيها فى سلام وغنى ، قبل أن يأتى هؤلاء الغرباء ليقلقوا راحتنا ونزعجوننا . وفوق كل ذلك ، يجب ان تمتنعوا عن شرب كحولهم المهلك الذى أجبرونا عليه من أجل زيادة مكاسبهم وانقاص أعدادنا (٥) .

كان لرسالة نيولين هذه ، دوى هائل ، ليس فقط فى بلاد الديلاوير ، بل أيضا بين القبائل الهندية الغربية الأخرى ، ولم تناد بنهضة حضارية فقط ، بل وبمقاومة ثورية أيضا . وتساءل قائلا : « لماذا تضحون بتحتل

سكنى البيض على اراضيكم ؟ فلتشتتوهم • شنوا عليهم الحرب • فانا لا احبهم ، وهم لا يحبوننى • هم اعدائى واعدا اخوتكم • اعيدوهم الى الارض التى اعدتها لهم • دعوهم يبقوا هناك ، (٦) • هذه الكلمات التى قلها نيولين ، قد اُلهيه بها رب الحياة • وكانت تنتقل شفاعة طوال عام ١٧٦٢ ، وعلى رق منقوش من جلد الغزال من قرية هندية صغيرة الى اخرى •

ووفقا لما اشار اليه افترنى والاس ، لم تكن صيغة نيولين لاجراء الحضارة عودة كاملة الى العناصر التقليدية القديمة للحضارة الهندية ، بل كانت تمثل توليفة من العناصر الوطنية والاوروبية معا • فبعض المبادئ القديمة ، مثل طقوس الحرب ، وتعدد الزوجات ، لم تكن لتنتعش من جديد ، ووجب الابقاء على بعض المفاهيم المسيحية مثل الصلوات المكتوبة • « الكتاب المقدس » او « الكتاب الاعظم » • الا ان المعنى الكبير للدعوة نيولين بالتخلص من مزج الخصائص الاوروبية بالحضارة الهندية هو اظهارها كيف استطاعت القبائل الغربية ان تستجيب بتلقائية وابداع ، الى الوضع الجديد الذى واجههم بعد هزيمة الفرنسيين • وحمل مريدوه رسالته الى كل مكان بالمناطق الغربية ، وتنفيذا لتصاصحه بمقاطعة البضائع الاوروبية ، بدأت أعداد كبيرة من الاوروبيين بالصيد فى حدود احتياجاتها فقط • والشىء الاكثر اثاره هو ان زعيما من اوتاوا يدعى بونتياك Pontiac تحول الى مبدأ نيولين ، متخطيا روحه الثائرة اساسا لثورته التى بدأها ضد الانجليز فى مايو ١٧٦٣ (٧) •

وطبقا لرواية فرنسية ، الهب بونتياك حماس محاربة بخطبة تعكس السياسة الوطنية لنيولين حيث حثهم بقوله : « من المهم لنا يا اخوانى ، ان نبني من اراضينا هؤلاء القوم الذين سعوا الى تدميرنا » (٨) • وتحت رايته • قاد بونتياك هجوما على فورت ديترويت ، اقوى الحصانات البريطانية المسلحة فى منطقة البحيرات العظمى • وبينما حاصر الاوتواوا القلعة ، قامت قبائل اخرى بسحب المراكز البريطانية الامامية فى المنطقة الغربية من البحيرات العظمى حتى بتسبرج شرقا • وفى تتابع سريع ، سقطت قلاع ميشيلينا شيناك - Michilima chinac ، وسانت جوزيف ، وسانداصكى Sandusky ، وبريسكايل Presqu'Isle ، ولوبيف Le Boeuf وفينانجو Venango ، عندما انضم الى النزاع الشاونى ، والديلاوير ، والشيبوا ، والهورون • والميامى ، والبوتواتومى ، والسينيكا • ولكن الهنود كانوا عاجزين عن قهر القلاع البريطانية الكبرى الثلاث فى ديترويت ، ونياجارا ، وبتسبرج • وقد نشبت الحرب فى الصيف ، وحينما وصلت انباؤها لندن ، اسرعت الحكومة باصدار مرسوم بالتعبئة ، وارسلت تعزيزات عسكرية من الشرق ، حتى حدثت فترة توقف بنهاية الصيف •

واستمر بونتياك يحارب بصورة متقطعة مدة سنتين أخريين ، وامتلات المستعمرات الانجليزية باشاعات تقول بأنه يتآمر مع زعماء الكريك والشوكتاو لتنظيم حلف كبير من ثمانى عشرة قبيلة هندية ، لكن هذه القبائل كان ينقصها السلاح والطلقات النارية والباورد ، واضطرت فى النهاية الى التماس السلام . ونظرا لعدم وجود قوة أوروبية أخرى فى أمريكا الشمالية ، لذا ، لم يستطيعوا التغلب على مشاكل الامداد والتموين .

وعلى الرغم من انهيار حركة بونتياك للمقاومة ، استمرت القبائل بالداخل فى الاحتفاظ باستقلالها السياسى فى العقد السابق لنشوب الثورة الأمريكية . وكتب وليم جونسون سنة ١٧٦٤ الى لندن : « ان العشائر الست ، والقبائل القريبة ٠٠٠ الخ يعتبرون أنفسهم شعبا حرا (٩) نظرا لعدم هزيمتهم مطلقا ، سواء على يد الانجليز أو الفرنسيين ، ولا هم خاضعون للقوانين [الداخلية] » . الا أن المحافظة على الاستقلال السياسى ، لم تؤد كثيرا الى صد تيار المزارعين وسماسرة الاراضى المتطلعين الى الغرب . وكان ضغط الأحوال السكانية هذا ، كافيا وحده للتغلب على كل جهود الحكومة الانجليزية ، لرسم سياسة لحكم الأجزاء الداخلية من القارة بطريقة تمارس فيها التجارة الهندية بصورة شرعية ، وتؤيد ملكية القبائل لأراضيها .

هناك عاملان أثرا ، بشكل حاسم فى مصير مناطق ما وراء الأبلاش ، بعد سنة ١٧٦٣ . أولهما ، أن الحكومة الانجليزية ، وهى تترنح تحت الدين الضخم المتراكم أثناء حرب السنتين السبع ، لم تكن راغبة فى تحويل مواردها للابقاء على الحاميات المرابطة بالداخل لتنفيذ مواد اعلان سنة ١٧٦٣ بالقوة . فقد كان الاقتصاد له الأولوية على حماية الأرض الهندية لدى الحكومة الاستعمارية ، وبالتالي ، تم التخلص من حاميات الداخل ، بعد ثورة بونتياك ، كما تم التخلي عن خطة تنسيق التجارة والشسئون الهندية والسيطرة عليها فى مختلف المستعمرات ، تلك الخطة التى لم يحدث أن نفذت بنجاح أبدا . وحل محلها الاعتماد على رسم الحدود على الخرائط - حدود تفصل نظريا بين الهنود والانجليز . وعلى اصدار الأوامر المشددة الى الحكام الملكيين وموظفى المستعمرات بتأييد ما هو مطبوع على الخرائط وتدعيمه .

كان العامل الثانى الحاكم فيما وراء الأبلاش غربا ، هو عجز الموظفين الانجليز تماما عن تنفيذ أى نوع من قانون أو نظام فى الداخل ، خاصة بعد سنة ١٧٤٦ ، عندما أدت مجموعة كاملة من الأوامر التى تهم السلطة الاستعمارية الى جعل المستعمرين فى حالة شبه ثورية . فقد بقى خط

اغلاق سنة ١٧٦٣ على الورق فقط ، ولم يأخذ المستعمرون ولا الهنود مائة الجدة . وقد اظهر حكام المستعمرات ، الذين ارتبطوا دائما من قرب بستمارة الاراضى ، رجال الادارة فى لندن بمبررات الاعتراض على اعلان المرسوم . وقد اشتمل ذلك على انتقادات عنيفة للتأكيدات الكاذبة بأن قبائل القبائل قد تخلت عن دعاواها بملكية أجزاء مختلفة من الاراضى غرب الأبلش . فلما رفضت هذه الانتقادات ، لوى الحكام رؤوسهم ، وسمحوا بصكوك الامتياز ، ومسح الاراضى ، وعقد صفقات خاصة لشراء الأرض من القبائل الهندية كالكريك والشيروكى الذين لم يعترفوا بحق الحكومة الانجليزية فى تعيين الحدود ورسمها . ولما انتقل المستوطنون الى بعض الاراضى التى لا يزال الهنود يعلنون ملكيتها ، كانوا يتركون فى العادة ، ليحسموا الأمر فيما بينهم بالقتال .

لم تنصرف معظم جهود الحكام الاستعماريين وموظفيهم الى تنفيذ اعلان المرسوم ، وإنما الى مساعدة المستوطنين والسماحة ذوى الأفكار التوسعية ، عن طريق سياسة تشجيع ومداومة العداوة بين القبائل الهندية . وهكذا ، تأكلت النقاط الاساسية فى السياسة الهندية الانجليزية - وهى منع التعدي على حرمة الاراضى الهندية ونظام التجارة الهندية والعدالة فيها - وذلك فى العقد السابق للثورة . اذ اتنا لا نجد فى المستعمرات واحدا يمكنه ايجاد سبب واحد يمنع من استغلال المجموعة النشيطة من السكان الذين يزدادون بسرعة ، وقطع الاراضى الواسعة فى منطقة غربية لا يشغلها سوى الهنود المحرومين من مساندة أى حليف أوروبى ، أو امداد بديل من السلع التجارية . كما لا يستطيع أى شخص فى انجلترا أن يجد وسيلة يضطر بها الأمريكيين فى الغرب الى اطاعة أوامر التاج ، فى الوقت الذى تتعرض فيه سلطة الملك للاتهام فى كل مناسبة على امتداد الأطلنطى .

كانت البدائل محدودة بعد ثورة بونتياك ، بالنسبة لقبائل الداخل ، المستفيدة من السياسة الانجليزية غير القابلة للتنفيذ ، والمرسومة ، كيما تضمن لها الأرض فيما بين الأبلش والميسيسبى . وامكنهم ان ينشدوا حلفاء لهم من الهنود ، فى محاولة أخرى لتدير ثورة من كل الهنود ، كما فعلت مجموعة من الكريك ، بقيادة ذا مورتر The Mortar الذى كان العدو القوى للانجليز الصامد عشرات السنين . واستطاعوا ان ينقموا لاشخاصهم من عمليات السلب والنهب ، واغتصاب الاراضى التى قام بها البيض ، مثلما فعل لوجان ، المشرد ، القاطن على حدود فرجينيا ، والذي طردت عائلته طردا ، بواسطة ساكنى الحدود الخارجين على القانون ، والذي قاد قريبا من المحاربين فى غارات ثارية عادلته الحرب الدموية

القصورة للورد دانيور Dunmore ، سنة ١٧٧٤ . وأمكن للبعض مثل الشوكتلو الاستمرار في طلب المساندة الفرنسية في نيواورليانز ، آملين في نهضة فرنسية جديدة في القارة . وأمكن للبعض أن ينجحوا لمواجهة المد الأبيض ، ويصفوا أراضيهم قطعة ، قطعة ، يبيعها بأفضل ثمن ممكن لأفراد مخصصين وشركات الأراضي ، والذين كانوا واثقين بأمان من قدرتهم على تجاهل اعلان سنة ١٧٦٣ ، والقوانين الاستعمارية التي تمنع مثل هذه الصفقات .

الغاء الرق :

كان العقد الأخير من الفترة الاستعمارية ، بالنسبة للأمريكيين الأفارقة ، عقد أمل ويأس معا . فقد ارتفع عاليا في المستعمرات الشمالية ، شعار الغاء الرق ، بما جعل موضوع الرقيق قضية عامة ، للمرة الأولى منذ مجيء الأفارقة الى جيمستاون سنة ١٦١٩ . وعلت الصيحة بأن نظام الرق معارض لمبدأ الحرية ، الذي ميز التجربة الأمريكية عن تجربة أوروبا ما بعد الاقطاع . وكانت تلك الصيحة بقيادة الكويكرز المحبين للخير والاصلاح الاجتماعي، أمثال جون وولمان John Woolman وأنتوني بينيزيت Benezet ، وواصلتها مجموعة من القسس البروتستانت من نيوانجلند وبعض الزعماء الثوريين الناشئين .

لايجاد أساس منطقي للثورة في العقد التالي لحرب السنوات السبع ، ولهجمات الدعاية المتزايدة ضد انجلترا الأم ، وجد القادة الاستعماريون أنفسهم يشيرون أسئلة ، ليس فقط عن طبيعة السلطة الانجليزية ، ومدى شرعيتها في المستعمرات ، بل أيضا عن طبيعة مجتمع المستعمرات الذي بنوه . وقد تناولت المجادلات الثورية ، حقوق الانسان الطبيعية ، ورضاء المحكومين ، وطبيعة الاستبداد ، والدرجة الطبيعية للمساواة ، وكلها تشتمل على دينامييت فكرى . هذه العبارات المثيرة ، قادت الى محاولات لم يقصد أن يذهب اليها حتى أشد الزعماء الوطنيين تطرفا . فقد اهتموا أساسا بالتصرفات التي تهددهم من ناحية البرلمان ووزراء الملك . ولكنهم حينما تكلموا عن الحقوق غير القابلة للتنازل عنها أو تحويلها للغير ، أو عن كرامة الانسان ، أو اساءة استعمال السلطة ، كانوا يشيرون الى أنفسهم ، عن غير قصد . فكلما استعملوا الكلمات المتكررة ، الدالة على وجهة نظرهم مثل « الرق » و « الاستبداد » ، في وصف الاصلاحات الاستعمارية ، أصبح من الصعب تجاهل الرق المحلي الذي اشتمل حتى الستينيات من القرن الثامن عشر ، على نحو ٤٠ ٪ من سكان المستعمرات . ولم يستطع من كتبوا عن الحقوق

غير القابلة للتحويل ، وكرامة البشر ، والمساواة الطبيعة للانسان ان يتفاضوا طويلا عن الحالة السيئة للأمريكيين الأفارقة ، حتى بالرغم من أنهم لم يفعلوا شيئا ذا بال ، ازاء المسائل التي توقع الشقاق بين المستعمرات وانجلترا . ويشير الناس على كلا جانبي الأطلسي ، وكلا طرفي الجدل الأنجلو/أمريكي الى التناقض والتعارض . فيتساءل مستول انجليزى (١٠) كيف يسوغ للأمريكيين أن يعاملوا الزوج « بوصفهم نوعا من الماشية أفضل بينما ينادون بصوت عال بحقوق الانسان الطبيعية ؟ » ويوبخ وطنى أمريكى آخر ، مواطنى بلده بقوله : « لتخجلوا أيها الأنصار المتحمسون للحرية فى الظاهر ! أنتم الوطنيون العابثون ! يا من تقومون باستعراضات فارغة بأنكم المدافعون عن حريات البشر ، يا من ، بذلك ، جعلتم مجاهرتم برأيكم موضعا للهزء والسخرية ، ولما وطئتم بقسوة مزايا الحقوق الطبيعية المقدسة للأفارقة ، لأنكم بينما تصومون ، وتصلون ، ولا تستوردون ولا تصدرون ، وتعارضون وتحتجون ، وتصومون على استرداد حقوقكم الدستورية ، فانكم فى نفس الوقت مستمرين فى هذه الممارسة غير القانونية ، القاسية ، اللا انسانية ، والبغيضة باستعباد زملائكم من البشر » (١١) .

وهكذا نجد أن نفس القيم والأيدولوجيات المستخدمة فى حماية حرية المستعمر ، قد استعملت لاتهام نظام العمل الذى يطوق الاقتصاد الاستعماري فى الجنوب ، ويدعم الى حد ما الشركات المربحة فى الشمال . لقد كان نظام الرق اهانة لمبادئ الثوريين ، الذى يستعدون للدفاع عنها . ويصرخ صمويل هوبكنز Samwel Hopkins أحد القساوسة الأبرشيين المستقلين فى رود أيلاند ، عشية الحرب قائلا : « أواه من هذا التضارب المقيت ، غير المحتمل ! . . . هذا التضارب ، الفاضح ، الوقح ، الذى يمارس بالفعل ! » (١٢) .

لم تكن المهانة فقط ، والخط من قدر السود تحت نظام الرق هو ما أهم وأقلق الكثيرين الذين أعلنوا كذلك معارضتهم لهذا النظام فى العقد السابق للثورة ، بل ما صاحبه كذلك من اهانة للبيض والخط من قيمتهم . ان جون وولمان ، من الكويكرز ، والذى تجوهرت ، على نطاق واسع ، جهوده لابطال الرق فى الخمسينات من القرن الثامن عشر ، كان مقتنعا بأن امتلاك العبيد ، ولو بواسطة أكثر أسيادهم رحمة « يفسد ، مع ذلك ، العقل ، ويجعله بطريقة مؤكدة » . كما أن الهيمنة المطلقة من السيد على العبد تنشى « صورا للأشياء وأساليب للسلوك » تشكل بدرجة لا يمكن التخفيف منها ، الاتجاهات الخاصة بأبنائه ، وجيران ، وأصدقاء ملاك العبيد (١٣) ، ومن أسفار وولمان من مستعمرة لأخرى ، كان مقتنعا

بان الرق يطبع فى ذهن الأبيض ، فكرة التفوق ، بصورة يصعب محوها .
وتتعارض هذه الفكرة مع كل من المفهوم المسيحى عن الأخوة بين كل
البشر وفكر العقلانيين فى القرن الثامن عشر الذى يؤكد على المساواة
الطبيعية . ونظرا لتشغيل العبيد دائما فى أعمال ذليلة ، ومعيشتهم فى
أحوال دنيئة ، شب معظم الناس منذ الصغر وهم ينظرون اليهم « على أنهم
صنف جاهل من البشر ، جدير بالازدراء » (١٤) . وهكذا ، كان تكريس
الظروف الخارجية للعبد ، نتيجة استغلال البيض له ، والرغبة فى المكسب
المادى ، لتنسجم مع الحالة العقلية الداخلية للأفريقى المرحل من وطنه .
ولكن ، عند وولمان ، كان الانحطاط الظاهرى للعبد ، من عمل « الفساد
الأخلاقى الداخلى » للرجل الأبيض . ويقول ان البيض قد استعبدوا
أنفسهم باستعبادهم للأفريقى ، وكبلوا أنفسهم فى أغلال هذا النظام
الاجتماعى ، كما وقع لعبيدهم . لقد كان سجن السود ظاهريا وماديا ،
بينما كان بالنسبة للبيض داخليا وروحيا . وفى كلا الحالتين ، كان التفكير
فى ازدهار المجتمع الأمريكى يثير الفزع .

لم تنشأ هذه الأفكار فى الشمال فقط . ففيما كتبه ، عشية الثورة
فى فرجينيا ، حذر جيفرسون Jefferson مواطنيه من السجن النفسى
والروحى الذى بنوه لأنفسهم ببناء بلدهم على ظهور العبيد السود ، فكتب :
« يجب ألا نشك فى الأثر المحزن لأحوال شعبنا ، والناجم عن وجود نظام
الرق بيننا » .

ان جميع العلاقات الاجتماعية بين السيد والعبد تتميز بممارسة
دائمة لأشد الانفعالات صغبا وعنفا ، وبأكثر درجات الاستبداد
اطرادا من جانب واحد ، وحالات الخضوع المهين من الجانب
الآخر . ويرى ابنساؤنا ذلك ، ويتعلمون كيف يقلدونه ،
لأن الانسان حيوان مقلد . . . فهو يتعلم من المهد الى اللحد
كيف يفعل ما يرى الآخرين يفعلونه . . . يثور أحد الوالدين ،
والابن ينظر اليه ، ويفهم قسما من الغضب ، ويتصنع الكبرياء
مع العبيد الأصغر منه ، يرخى العنان لأسوأ حالات الانفعال ،
هكذا يتربى ويثقف ويمارس الاستبداد والظلم يوميا ،
ولا يمكنه الا ان يتطبع به بشكل متميز وغريب وكريه . ولا بد
ان يحتاج الانسان الى معجزة كي يستطيع ان يحفظ تصرفاته
واخلاقياته من ان تفسدها هذه الظروف والأحوال (١٥) .

بهذا الوعى المتزايد للتعصب الجنسى الأبيض وآثاره ، جاءت حركة
لانهاء الرق ، فى أول الأمر ، اكتسبت فكرة علم قابلية الامتزاج بالأفارقة
المستعبدين اعترافا واسعا بتفرد المجتمع الاستغمارى الأبيض بالاهتمام

بعدم المساواة • ولذلك ألغت بعض المستعمرات الشمالية تجارة الرقيق ،
أو فرضت عليها ضرائب لا تساعد على بقائها ، وذلك قبل توقيع اعلان
الاستقلال • وعلى أية حال ، لم يلغ الرق ، ولذلك ، بينما اضطر عدد قليل
من التجار اليانكي Yankee (*) الى ارجاع سفنهم من الطريق ، لم يخسر
المستعمرون البيض الآخرون كثيرا ، أو لم يخسروا شيئا بالثرة •

لم تجد الحرب الأيديولوجية ضد الرق طريقا لها في الجنوب •
فقد شهدت الستينات من القرن الثامن عشر ، في الواقع ، عمليات استيراد
للعبيد أكبر من أى عقد آخر في الفترة الاستعمارية • ومثال ذلك ، تفوق
العبيد المستوردين الى كارولينا الجنوبية بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ في
العدد على من جئ بهم خلال الربع السابق من القرن ، كما ازداد التدفق ،
مرة ثانية في باكورة السبعينات • وتركز ٨٥٪ من جميع العبيد الأمريكيين
بعد حرب السنوات السبع ، في مزارع مستعمرات ميريلاند ، وفرجينيا ،
وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية ، مع انفراد فرجينيا بعدد يساوي
تقريبا أعداد الموجودين في باقي الولايات الجنوبية الأخرى • ولم يحدث
أبد أن زاد عبيد فرجينيا عن نصف العدد الكبير من عبيد جزيرة جامايكا
فيما بين سنتي ١٦٧٠ ، ١٧٣٠ ، ولكنها تخطت مزارع الهند الغربية ،
سنة ١٧٦٠ وما بعدها بعشر سنوات بنحو ٢٠٠ ألف عبد تقريبا •

وقد جعل هذا الاستثمار المكثف لرأس المال في العمالة السوداء ،
موضوع ابطال الرق غير عملي تقريبا في أجزاء القطر التي يعتبر العبيد
فيها أكثرية • فمثلا ، في فرجينيا التي كان بها من السكان البيض
ما يوازي سكان ساكرامينتو Sacramento ، وكاليفورنيا ، أو
جرسي سيتي ، ونيوجرسي اليوم ، كان رأس المال المستثمر في العبيد حوالي
٥٥ مليون جنيه أو ١٤٥ مليون دولار أمريكي بلغة اليوم (سنة ١٩٧٤) •
فمن يعوض ملاك العبيد عن هذه الملكية ؟ وهكذا ، بينما سمع الأمريكيون
الأفارقة بكتيبات تدعو الى إلغاء الرق ، أو سمعوا بمجرد وجود تقارير بأن
المجالس التشريعية في فرجينيا ومستعمرات أخرى كانت تناقش القضية ،
قام ملاك العبيد ، ذوو الاستثمارات الكبيرة في هذا النظام الأساسي في
المجتمع ، يرتبون لقلب الحملة التي تنادي بإبطال ما أصبح المصدر الأول
للثروة ، والقوة ، والاحترام في الجنوب الاستعماري • أن نقد المجتمع
الأمريكي على يد أصحاب مبدأ إلغاء الرق ، لم يعل صوته الا حيث يسكن
واحد من كل عشرة عبيد أمريكيين ، أما التسعة الآخرون ، فكانوا يسمعون
بالكاد ، أو يسمعون في محل كدهم وكدهم •

(*) اليانكي : اجد أبناء الولايات الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية •

وباتجاه الفترة الاستعمارية نحو الأبول ، كانت الحضارة الأمريكية ذات الأصل الأفريقي ، فى مزارع الجنوب فى حالة من التغير المتواصل . فقد أدى استيراد الأفارقة بأعداد كبيرة فى الجنوب فى بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ، الى نشاط التقاليد الحضارية الأفريقية ، واثقاد شعلة النضال فيها . مثال ذلك فى كارولينا الجنوبية ، تلك الموجة من النشاط المتمرد التى أخذت مجراها فى الولاية ، حيث زاد عدد السكان العبيد المستوردين عن العبيد الأمريكيين بالمولد . وفى مرة قبل ذلك ، بعد فترة من الاستيراد المكثف للعبيد فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، فزع الكاورلينيون من سلسلة الانتفاضات الثورية التى بدأت فى ستونو ، حيث هرب عدة مئات من العبيد ، سنة ١٧٣٩ ، وقتلوا عددا من البيض فى طريقهم الى فلوريدا ، حتى ان اعدام ٤٤ أسود لم يمنع قيام مؤامرة أخرى فى تشارلستون ، واستمرار مؤامرة ثالثة فى الداخل فى السنة التالية . الى هذا الحد ، كان فزع البيض لدرجة أن منعوا استيراد العبيد لمدة ثلاث سنوات . ثم تكررت العملية فى ستينات القرن الثامن عشر ، وسرت فى سنة ١٧٦١ موجة من القتل بالسهم فى طول المستعمرة وعرضها . وبعد ذلك بأربع سنوات حاول أكثر من مائة عبد الاتفاق على انشاء مستعمرة فى الداخل . وفى سنة ١٧٦٦ ، اتخذ السود نص اللغة الطنانة للبيض الخاصة بالحرية ، والمساواة ، وذلك بتنظيم مسيرات فى شوارع تشارلستون وهم يتغنون ببناء « الحرية ، الحرية ! » ، وقد أفرغت هذه الكلمات المدينة كلها ، مما جعلها تمسك السلاح مدة أسبوع ، عندما انتشرت فى المستعمرة اشاعات عن عصيان مسلح ، انتشار النار فى الهشيم (١٦) . فاصدر أحد المجالس التشريعية ، الخائف ، القلق ، تعريفة مانعة ، على العبيد لمدة ثلاث سنوات ، وذلك للتقليل من استيرادهم الى درجة لا تكاد تحس . فقد تم استيراد أكثر من سبعة آلاف عبد ، سنة ١٧٦٥ ، الا أنه لم يدخل المستعمرة فى السنة التالية سوى ١٠١ عبد فقط .

وحتى فى فرجينيا ، حيث السكان العبيد المتزايدون بسرعة ، والذين كانوا يعكسون ، بشكل أساسى ، زيادة طبيعية أكثر من الأعداد المستوردة حديثا ، كان السود أبعد ما يكونون عن أن تستميلهم مزارع العبيد ، فنجدهم يتحركون بسرعة وعزم ، عندما لاحت الفرص أمامهم لكسر قيود العبودية الدائمة . وفى سنة ١٧٧٥ ، عندما كانت الأعمال العدائية قد بدأت فعلا ، دون اعلان رسمى للحرب ، أصدر دانمور ، حاكم فرجينيا اعلانا بمنح الحرية لآى هارب فرجينى من سيده ، عبدا كان أو أمة يصل الى الحاميات البريطانية . وكانت نتيجة الاعلان على المجتمع الأبيض هى إثارة الجنوب ضد انجلترا لأن دانمور لمس وقرا حساسا باستحضار صورة

ذهنية لمجموعة كبيرة من الزنوج ملتحهم البريطانيون في الممتلكات الإقليمية بالقارة . وقد كتب أحد الجنوبيين البارزين أن الاعلان « قصد بفعالية تامة أن يحدث انفصالا أبدا بين بريطانيا العظمى والمستعمرات - أكثر من أية وسيلة أخرى كان يمكن التفكير فيها » . وعبر عنها آخر : بصورة أكثر حيوية فقال : « ان جهنم نفسها لم تستطع أن تتقيا شيئا أكثر سوادا من هذا المخطط لتحرير عبيدنا » (١٧) .

وكان للآلاف من الفرجينيين السود ، ربما أكثر من ثلث الذكور البالغين محاولة للوصول الى الحاميات البريطانية . وباعلانهم المتكرر عن استقلالهم الشخصى حصلوا على الحرية بانضمامهم الى أولئك الذين كان يعتبرهم الأمريكيون البيض أعداء للحرية . ويبدو ، بصفة عامة ، أن تقييم جوزيف جالوواى ، أحد الموالين (للحكومة) من فيلادلفيا ، يصور خصائص السكان الأمريكيين ذوى الأصل الأفريقى ، عشية الثورة ، حيث كتب : « من الممكن اعتبار كل الزنوج أعداء داخليين ، كثيرين جدا ، لأبد ، اذا ما واتتهم الفرصة ، أن يحملوا السلاح ضد أسيادهم » (١٨) . ولقد كانت التبعية وسهولة الانقياد هي الخصائص المميزة على الإطلاق لشخصية الأمريكى من أصل أفريقى ، فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر . لقد استمر سادة العبيد يخافون من عبيدهم السود ، كما داوم العبيد على تحسين أحوالهم ، بينما يبتكرون ويورثون الصور والأساليب الحضارية التى تجعل حياة العبد أمرا محتملا .

التفاعل الحضارى بين الأحمر والبيض والسود :

كان المجتمع الأمريكى ، المؤلف من نحو ٢٥ مليون فى نهاية فترة الاستعمار ، أبعد ما يكون عن التمتع بحضارة متجانسة . ذلك أن مائتى سنة تقريبا من الاستعمار الأوروبى ، والتفاعل المستمر بين ثلاث مجموعات حضارية مختلفة ذاتيا قد ترك مزيجا مختلطا من الوجود الحضارى ، لكل منها أهدافها ، وإلى حد كبير قيمتها الخاصة . وقد احتفظت مجموعتان منها ، وهما الأوروبية والهندية بدرجة من الاستقلال جديرة بالاعتبار ، رغم أن وجود كل منهما كان يقيد الأخرى ، الى حد ما ، فيما يمكنها أن تفعله . وكذلك الروابط السياسية والاقتصادية التى عقدوها أثناء الدور الاستعمارى . أما المجموعة الثالثة ، وهى الأمريكيون الأفارقة فكانت مقيدة ، بالضرورة ، بواقع أن معظم أعضائها كانوا مستعبدين . ولكنهم احتفظوا أيضا بقدر معتدل من الاستقلال الذاتى ، وإن كان يظهر بصور أكثر خدة ومكرا .

كان التفاعل المعقد بين المجموعات الحضارية الثلاث مليئا بالمفارقات والتناقض الظاهري . فقد أعلن الأوروبيون في أمريكا أنهم يرغبون في استيعاب الهنود والأفارقة وامتصاصهم ، ولكنهم وجدوا أن أكثر الطرق فعالية لاستغلال أرض الهنود وجهد الأفارقة هو اتباع سياسة مبدأ عدم الاستيعاب . وكان المجرى بالمسيحية إلى غير المسيحيين مغامرة مكلفة ومضيفة للوقت فقط إلا حيث تساعد الأوروبيين على الاستفادة من موارد أولئك الذين سعوا للسيطرة عليهم . وما دامت لا تقدم إلا وعودا قليلة لانجاز ذلك - وكانت ، في الواقع ، تهدد دائما بزيادة المصاعب أمام الاستفادة من أرض الهندي وجهد الأفريقي - لذلك تراخت في الاهتمام بأولويتها وتدنت ، ولم تبذل سوى أقل الجهد لارشاد القبائل الهندية إلى تعاليم المسيحية ، وكان الدافع في معظم المجهودات المبذولة هو الأمل في أن يسير التحول الديني يدا بيد مع التهدة والسيطرة السياسية . وقد تعرض العبيد الجنوبيون لخطر تعاليم المسيحية على نطاق واسع ، في الجنوب الأقصى ، حيث لم يكن الاحساس قويا بتهديد ثورة العبيد . ولكنهم كانوا محجوبين بعناية وحذر ، في كارولينا الجنوبية وجورجيا ، عن الرسالة الأساسية الكامنة في المسيحية . أما العبيد في الشمال ، فقد طبعت البروتستانتية في أذهانهم ، على نطاق واسع ، الاعتقاد بأنه ، حيث يتفوق البيض كثيرا على العبيد في العدد ، فإن تدريس التعاليم الأخلاقية للبروتستانتية مع التأكيد على العمل النابع من الاحساس بالواجب ، في الوضع الحالي للفرد سيكون هو الصمام المتحكم في حالة المتمردين . وكانت الصورة هي نفسها في التعليم : فالعبيد يتربون على تلك الأشياء التي تمكنهم من أداء عملهم بشكل فعال ، ولكنهم أبعادوا عن التعليم لأنه يبشر بتشجيع الطموحات التي لا تلائم أولئك الذين كانت عبوديتهم مستمرة مدى الحياة .

حافظت حفنة من المصلحين وأعضاء الكنيسة على بقاء حركة الخير والاصلاح الاجتماعي حية ، على أساس أن الأفارقة والهنود لابد وأن يمتصهم المجتمع الأنجلو - أمريكي ويستوعبهم . ولكن مع صعوبة قبول هذا الأمر في المناقشات العامة ، ينظر معظم سكان المستعمرات إلى الأقليتين الحضاريتين في أوساطهم على أنهما أكثر فائدة لهم بدون امتصاصها أو استيعابها ولو نصف استيعاب . وفي الحقيقة ، نظرت الأغلبية الكبيرة من المستعمرين إلى العبيد على أنهم غير قابلين للامتصاص ، كما اتضح ذلك عندما أدى تحرير العبيد في عهد الثورة إلى ظهور صيحات تنادى بإعادتهم إلى وطنهم أفريقيا . وعلى قدر ما كان استيعاب الهنود أمرا مقلقا ، كان أكبر ما يرغب فيه المستوطنون الأوروبيون المتشوقون إلى الأرض ، هو الحصول على أرض الهندي ، ولكن بدون هنود عليها . كما أن الهنود لم

ينشأ الدخول في المجتمع الأبيض ، حيث لم يكونوا يريدون من الأوروبيين أكثر مما استطاعوا أن يحصلوا عليه من مقايضتهم بالفراء والجلود . وهكذا ، كانت المشكلة لدى المستعمرين الأوروبيين هي كيفية الحصول على أرض الهندي مع استغلال وجود هذه « العقبات » أمام التوسع الاستعماري . ولما كانوا منقسمين فيما بينهم تقريبا كأنقسام الشعوب الهندية ذاتها ، ونادرا ما كانت لديهم في الفترة الاستعمارية قوة كافية لجبار القبائل الداخلية على التخلي من أرضها أو استقلالها الذاتي ، بنى المستعمرون سياستهم الهندية على مبدأ إبقاء القبائل الهندية منقسمة كل منها على الأخرى . حيث كتب حاكم كارولينا الجنوبية ، سنة ١٧١٧ « إذا لم نستطع تدمير قبيلة هندية بواسطة قبيلة أخرى ، فإن دولتنا لابد أن تضيق » . وبقي هذا البيان من السمات الدقيقة المميزة للسياسة الاستعمارية بقية القرن (١٩) .

لقد عاكس الامتصاص أيضا ، ذلك الاحتياج الداخلي للمستعمرين البيض إلى تبرير استغلالهم للأفارقة والهنود ، بالاصرار على إيجاد الفجوة الواسعة التي تفصل « المتوحشين البرابرة » عن الأوروبيين « المتمدنين » . والامتصاص يضيق هذه الفجوة ، بالتحديد ، بجعل الأفارقة والأوروبيين ، أو الهنود والأوروبيين على قدم المساواة ، بدرجة كبيرة . ولكن عندما يسمح للسيد القوي والعبد الذليل ، أو الأوروبي العاقل ، الحضيف والهمجي الوثني بالتشابه ، سواء في العادات والأحوال الخارجية أو في القدرة العقلية ، إذن ، ينهار تماما الأساس المنطقي للسيطرة والاستغلال . هذه الحاجة الأكيدة إلى إنكار التشابه ومعارضة أية إجراءات تزيد تشابه الشعوب في المجتمع الاستعماري كانت سببا مهما لمقاومة تنصير العبيد ، كما عملت على اقناع سكان المستعمرات البيض بأن الهنود غير قابلين للاستيعاب أيضا . وكان من الأفكار الخاطئة ، الباقية في إنجلترا ، عن الأمريكيين في المستعمرات ، أن على المستوطنين أن يستقبلوا مبشرى المجتمع الأنجليكاني في سعادة لنشر الانجيل - أولئك المبشرون الذين كانوا يأملون في هداية كل من العبيد والهنود إلى كلمة المسيح . وقد لخص ، أسقف لندن وينشروب جوردان هذا المفهوم الخاطئ للرغبة الاستعمارية في الاستيعاب عندما « أشار إلى الزوج بصفته جزءا من أمتنا ، في الواقع - بينما كان المستعمرون متأكدين تماما من أن الزوج لم يكونوا كذلك ، (٢٠) » . ويصدق ذلك أيضا على الهنود .

والتناقض الثاني أن الحضارة الأمريكية البيضاء نمت الاتجاهات السلبية عامة نحو الأقلية الحضارية الموجودة بينها ، والتي كانت نافعة لها ، لا مفر - وهم الأمريكيون من أصل أفريقي - وتمسكوا باتجاهات

أكثر ايجابية نحو الأقلية الحضارية التي وقفت في النهاية عائقا أمام المجتمع الأبيض عندما أصبح بلا حاجة الى معونتها العسكرية - وهم الهنود الحمر . وكبر المجتمع الاستعماري حجما وقوة مع ارتباط مباشر بتزايد في العبيد ، وتناقص في الهنود « الذين أبوا التحلي عن أرضهم » . ومع ذلك ، كان الرجل الأسود هو الذي ثبت عليه سكان المستعمرات أشد الصور السلبية التي يتعذر محوها . وكان مفتاح هذه السخرية أن المستعمر داوم على مواجهة الانسان الأسود بوصفه عبدا ، وبذلك ، اعتقد أنه أدنى وأدنا من المخلوق البشرى ، ولكن المستوطن الانجليزى قابل الهندي كخصم أو حليف لا يوثق به كثيرا . وقد حافظ الهندي على حرته وقدرته على أن يأتى ويذهب ، يهاجم ويقتل ، يؤيد ويسحب تأييده ، وأن يحتفظ باستقلاله السياسى . وبالرغم من أنه كان مكروها بسبب الكثير من هذه الأمور ، الا أنها أكسبته احتراما يحسد عليه . فكانت العلاقة الأنجلو - هندية في القرن الثامن عشر علاقة نادرة ، بين السيد والعبد ، تتركز فيها كل الحقوق والسلطة في جانب واحد فقط . وتعويضا لذلك ، كان الهندي والانجليزى عندما يتقابلان ، ينهمك كل من الطرفين في إبراز قوته ، فيحاول أن يظهر للآخر أنه هو الأهم والأفضل . لقد كان الهندي هو الخاسر النهائي في معظم هذه المواجهات المتبادلة ، لكن ذلك لا يمكن أن يخفى حقيقة أن الأنجلو - أمريكان قد واجهوا الهندي لعدة مئات من السنين على أنه خصم مرعب أكثر منه عبدا مملوكا . ولكن ، بالرغم من استغلالهم ، وصددهم ، وهلاك الكثيرين منهم أحيانا ، كان الهنود يناورون دائما من مركز القوة .

وأما الأفارقة في أمريكا ، على عكس ذلك ، ناذرا ما كانوا جزءا من أية مساواة سياسية أو اقتصادية ، لم يكن لديهم ما يقدمونه سوى جهدهم البشرى ، بل ان ذلك الجهد لم يكن خاضعا لعقد اتفاق . ان العبيد الأفارقة ، لم يكونوا بلا حول ولا قوة فقط في تعاملاتهم مع المجتمع الأبيض ، بل كانوا أيضا ضعافا نسبيا اذا ما قورنوا بالهنود . هذا التوزيع السيئ للقوة في محيط السود والبيض لم يكن ليفيد ، بل يؤثر على المواقف والاتجاهات بينهما . وعلى خلاف الهندي ، نادرا ما يقدر الأفريقى على أن يكسب احترام الرجل الأبيض لأن مركزه لم يكن يسمح حيث يكون الاحترام مطلوباً أو حتى ممكناً . وباحكام مصيدة التسلط الفاشستى في علاقة كانت فيها القوة كلها في الجانب الآخر ، نجد الأفارقة بعد أن ازدادت أهميتهم باطراد في اقتصاد الرجل الأبيض ، لم يسعهم سوى أن يزدادوا انحطاطا في نظره . وذلك في الوقت الذي كان يعتبر فيه الهندي ، رغم كراهيته ، مصدر رعب لقدرته القتالية ، وكرامته ، بل ومهارته الخطابية أيضا . ولا بد أن يسخر المستعمرون الأمريكيون من محاولات فلاسفة عصر

التنوير (*) لتصوير الأمريكي من أهل البلاد الأصليين بوصفه « بدائي شريف » ، وأنه النموذج الأصلي للجمال والفضيلة ، الذي لم تفسده المدنية الغربية المادية ، ولو أن تصورهم للهندي كان له جانب ايجابي . فقد اختلف علم الاجتماع الخاص بعلاقات الحمر بالبيض ، والسود بالبيض كثيرا ، خلال ستة أجيال . ومن هذه الاختلافات تطورت اتجاهات للبيض واضحة ومحددة ومعادية لكلتا الناحيتين ، ولكنها مختلفة في أساليبها بدرجة خطيرة .

والتناقض الثالث في تقارب الحضارات ، هو أن المجموعة العنصرية التي كانت مستعبدة ، ومهينة ، محتقرة ، بقيت خصائصها السكانية في أمريكا وازدهرت ، بينما خضعت لعملية التفرغ السكاني والانطفاء التدريجي ، تلك المجموعة التي حافظت على حرمتها ، وعلى كثير من قوتها ، وعلى درجة عامة من الاحترام الأوروبي ، ولا يقلل أبدا من ألم الرق ، وخزيه ، ووحشيته ، أن تشير الى أن الأفريقيين في أمريكا كانوا ناجحين بدرجة ملحوظة بالمعنى السكاني ، خاصة بالمقارنة بأغلب المناطق الأخرى في العالم الجديد . فمن المحتمل أنه تم استيراد ما لا يزيد عن ٢٥٠ ألف عبد الى مستعمرات أرض القارة في الفترة الاستعمارية ، ثم توقف عدد السكان السود ، عشية الثورة قريبا من نصف المليون . هذا ، وبالرغم من عدم وجود دراسات دقيقة لنسبة المواليد ونسبة الوفيات للعبيد حتى الآن ، إلا أن البيانات المحدودة معنا توحى بأنه بينما كانت نسبة وفيات السود أكبر بكثير منها لدى البيض ، كانت نسبة مواليد السود تقترب الى حد كبير من المعدل الاحصائي للبيض . ويمكن أن تقرر مؤكدين أن نسبة الوفيات عند العبيد في أمريكا القرن الثامن عشر كانت أقل بكثير من أي مكان آخر في العالم الجديد ، تقريبا . ولا يمكن تفسير ذلك بالضرورة بزيادة المعاملة الانسانية في المزارع الأمريكية ، بل الأهم من ذلك ، هو جو أمريكا الشمالية السائد ، والملائم بوجه عام . فقد عرفت جزر الكاريبي بأنها جبانة البيض والسود على السواء ، كما عصفت أمراض المناطق الحارة (المدارية) في أمريكا اللاتينية بالعبيد الأفارقة ، عصفت الريح لأوراق الشجر .

ويمكن تصوير هذه النقطة بمقارنة استيراد العبيد والسكان العبيد في كل من فرجينيا وجامايكا . فقد تساوى السكان العبيد في المستعمرتين

(*) عصر التنوير : عصر الحركة الفلسفية والادبية في غرب أوروبا ، بين سنتي ١٦٩٠ ، ١٧٧٠ تقريبا ، وتتميز بالتشكيك في القيم التقليدية ، ومعتقداتها ، والميل نحو الحرية المطلقة ، وإبراز فكرة التقدم البشري العام ، وبالنهج التجريبية ، وتحكم العقل في كل شيء - (المترجم) .

في العدد تقريبا ، سنة ١٧٧٥ ، بامتلاك فرجينيا لنحو ٢٠٠٠٠٠ عبد .
وجاماïكا نحو ١٩٣٠٠٠ . ولكن ، فيما بين سنتي ١٧٠٠ ، ١٧٧٥ كانت
فرجينيا قد استوردت ما لا يزيد عن ١٠٠٠٠٠ عبد ، في أكثر التقديرات
تساهلا ، بينما كان صافي أعداد المستوردين في جاماïكا أكثر من ذلك
بثلاث مرات ونصف . ومن المحتمل أن تكون الحياة بالنسبة للعبيد
الأفارقة في المزارع الجنوبية في القرن الثامن عشر كانت صحية عنها في
الأجزاء الأخرى من العالم الجديد ، وأنه بسبب المعدل الإحصائي بين
الذكور والإناث ، الأكثر ملاءمة عنه في مناطق المزارع الأخرى ، كانت
فرص الحياة العائلية أكبر بكثير .

وبالمقارنة ، نجد أن القبائل الهندية ، شرق جبال الأبلاش قد عانت
من الانخفاض السكاني الكبير في القرنين الأولين من الاحتكاك بالأوروبيين .
ورغم أنهم لم يصابوا بنفس النسب الفاجعة ، كما حدث مع سكان المكسيك
الأصليين ومعظم أجزاء أمريكا اللاتينية ، فإن نسبة الوفيات والانحدار
الطبيعي ظلت مغايرة تماما للزيادة الطبيعية للأفارقة المستعبدين . ولم
يبق من السكان الهنود عشية الثورة سوى بقايا قليلة ، خاصة في مناطق
استيطان البيض ، على امتداد السهل الساحلي من ماين حتى جورجيا ،
فقد أحصت كونيكتيكت مثلا ، ٩٣٠ هنديا في تعداد رسمي سنة ١٧٦٢ ،
ووجدت ماساشوسيتس ١٦٨١ هنديا سنة ١٧٦٤ ، وسجلت فرجينيا ١٣٠
هنديا فقط سنة ١٧٧٤ ، وكان الإجمالي في رود أيلاند ١٨٤٢ هنديا في
نفس السنة . وفي نفس الوقت ، كان السكان السود يزدادون بسرعة
بصرف النظر عن الزيادة عن طريق الاستيراد . وكان ذلك راجعا إلى عدة
عوامل . أولاها أن الأفارقة كانوا أكثر مقاومة للأمراض الوبائية الأوروبية ،
كما تم تحصينهم في منتصف القرن الثامن عشر ، مثل البيض ضد السفاح
الأكبر - مرض الجدري ، ذلك القاتل الرهيب الذي لا تكاد توجد قبيلة
أو عشيرة هندية في الجزء الشرقي من القارة قد أفلتت منه . وقد هلك
القسم الأكبر من قبائل الماساشوسيتس الشرقية ، حتى قبل مجيء
البيوريتان ، ثم انهار الرقم ثانية بأعداد جوهريّة في السنوات الأولى من
الاستيطان الأبيض . وابتلى الأيروكوا عدة مرات في القرنين السابع عشر
والثامن عشر . ونقص سكان الكتاوبا في كارولينا الشمالية إلى النصف
في وباء مستقل سنة ١٧٥٩ ، وأصاب الشيروكي وباء الجدري المريع ،
بشكل خطير سنة ١٧٣٨ حتى أنهم فقدوا نصف عددهم ، طبقا لتقديرات
كثيرة . ثم اكتسح المرض الكريك في السنوات الأخيرة من القرن السابع
عشر ، واستمر في انقاص أعدادهم في العقود التالية . ويقل عن ذلك
أهمية بكثير ، في عملية القتل ، تلك الحروب التي جرت بين القبائل
والمستوطنين الأوروبيين ، وبين بعضهم البعض بتحريض من شركائهم في

التجارة . ولكن هؤلاء كانوا يأخذون ضريبة على الرأس ، الأمر الذى لم يكن له نظير فى تجربة الرق . ومن الأسباب الأخرى لحرمان البلاد من سكانها ، شرب الكحول الذى أخذ حقه من حصد الرؤوس ، بالرغم من أنه كان يقتل ببطء اذا قون بالجدرى أو الأوبئة الأخرى .

هذه العوامل المهلكة ، التى قضت على الجزء الأعظم من القرى الهندية فى كل مكان بشرق أمريكا الشمالية ، بينما هى عوامل عارضة بالنسبة للعبيد كانت ترتبط بحسابات البيض لفائدة السود فى مواجهة الهنود . وبطبيعة الحال ، لم يكن للمستعمرين سيطرة مباشرة على العوامل البكتريولوجية والعوامل السكانية . ولكنهم كانوا ينشئون بلهفة زيادة السكان العبيد السود بينما يقللون السكان الهنود ولهذا الغرض بدعوا سياسة تؤثر فى المنحنيات السكانية ، ان لم تنحكم فيها . فالسود مثلا ، كانوا يطعمون ضد الجدرى ، ويلقون العلاج اذا مرضوا . وكان مالك المزرعة ، يصون بذلك ملكيته مثلما يحافظ على صحة خيوله وحيوانات مزرعته . أما الهنود ، فكانوا ، على كل حال ، اذا ما التقطوا مرضا وبائيا ، فكل ما يفعله المستعمر أن يشكر الله على ما رآه مناسبا لانقاص عددهم ، لكى يفسحوا المكان للرجال « المتمدنين » . ولقد شن المستعمرون الأوروبيون حرب الجراثيم ، من وقت لآخر ، عن وعى منهم . فتكرر نشرهم للجدرى فى السلع التجارية ، ولم يهتموا بصد المرض البائى وسط الهنود دون عبيدهم . وكذلك الحال مع المشروبات الروحية ، فكانت توزع على العبيد أيام العطلات ، وأحيانا فى نهاية الأسبوع كمكافأة على الرضوخ والاذعان ، أو ليزيدوا من رغبتهم فى قبول نظام العمل . ولكن الكحول لم يكن يوزع بين القبائل الهندية لكى يفرسوا فيهم الاتكال والاعتماد عليهم فقط ، بل ولكى يضمنوه أيضا . فكان شراب الروم نموذجا سهلا لسيطرة المستعمرين فى تعاملاتهم مع كل من الأفارقة والهنود . ولكن القصد منه أن يحفظ الحياة بين السود ، بينما يدمرها بين الهنود .

وكان البيض يسيطرون الى حد ما ، على القبائل الثالث ، وهو الحرب . فكانت ثورة السود تقمع ، بطبيعة الحال ، بأقصى سرعة ممكنة ، لأنها تهدد مباشرة لنظام العمل وللسيطرة الاجتماعية للبيض . ولكن الحرب مع الهنود ، وما بين الهنود أنفسهم كانت دائما موضوعا محسوبا بعناية فى أذهان البيض . فبمجرد أن انتهى المستعمرون ، فى القرن السابع الى أنه يمكنهم التغلب على القبائل المحلية حتى تعللوا بكل ذريعة ، مهما كانت تافهة ، لشن الحرب على القبائل الساحلية . وهكذا ، كتب عمانوئيل داوننج Emanuel Downing ، نسيب جون وينشروب ، الى زعيم مستعمرة ماساشوستس ، سنة ١٦٤٥ أنه يعتقد أن الحرب مع الهنود

الناراجانست لابد وأن تكون ميزة « جديرة جدا بالاعتبار » للمستعمرة . وكانت حجة داوننج ، المحامي ، بأن من الخطيئة ، في نظر الله أن « يملك البيوريتان القوة بأيديهم ويسمحوا لهم بأن يبقوا على عبادة الشيطان التي يمارسونها بأيديهم دائما » . ثم تنبأ بتاريخ القرن التالي مشيرا الى أنه « اذا ما قضى الرب ، في حرب عادلة ، بتسليمهم [أى الناراجانست] لأيدينا ، بذلك يسهل علينا أن يكون لدينا من الرجال والنساء والأطفال ما يكفي لنستبدلهم بالمغاربة (البربر) الذين سيكونون نهبا أكثر فائدة لنا مما نتخيل ، لأننى لا أتصور كيف يمكننا أن نزدهر دون أن نستولى على رصيد كاف من العبيد يؤدون لنا كل شئوننا ، لأن أبناء أبنائنا سيشق عليهم أن يروا تلك القارة العظيمة مليئة بالناس ، وخدمنا سيظلون ينشدون الحرية من أجل أن يفرسوها لأنفسهم ، ولا يبقون الا نظير أجور مرتفعة جدا ، وأظنك تعلم جيدا جدا أن انفاقنا على ٢٠ من البربر أرخص من أن نعول خادما انجليزيا واحدا » (٢١) .

ان رغبة داوننج فى أن يرضى الرب ، بينما يخدم المطالب المادية للمستعمرين كانت نموذجا لأسلوب القرن السابع عشر فى تبرير الحرب ضد القبائل المحلية . . ولكن هذه الحجج ، فى القرن الثامن عشر قد صيغت بلغة دنيوية (غير دينية) خالصة ثم طبقت على القبائل الداخلية القوية أكثر منه على المجتمعات الساحلية الصغيرة ، وفى هذا السياق المتغير ، عملت السياسة على خلق العداوات بين المجموعات الهندية . ولم يكن ذلك أكبر مانع لقيام ثورات شاملة لكل الهنود ضد الأوروبيين فقط بل وساهم أيضا فى الانحسار السكانى العام للهنود .

وهكذا ، بينما أقلت أهالى أمريكا الأصليون من الرق ، فى غالب الأحوال ، ووجدوا أنفسهم يواجهون السكان الأوروبيين الذين جاؤوا فجأة ، وازدادوا بسرعة ، والذين ينشدون الأرض التى احتلوها ، ولا يمكنهم تصور أى أسلوب يمكن أن يفيد الهنود به مجتمع البيض سوى المساعدة فى عملية اهلاك غالبيتهم هلاكا شاملا وطردهم من الأرض . ولم يكن ذلك صحيحا فى معظم الفترة الاستعمارية ، لأنه حينما كان السكان الأوروبيون قلة منقسمة الى أسبان وفرنسيين وانجليز ، يتنافسون على التفوق فى القارة ، بينما كانت تجارة الجلود والقراء عاملا رئيسيا ومهما فى الاقتصاد الاستعماري ، كان الهنود يمثلون جانبا فعالا ، على كل حال ، أصبح للتجارة الهندية الجانب الأصغر فى الاقتصاد الاستعماري حيث أصبح صيد السمك وبناء السفن فى نيوانجلند ، ونتاج الحبوب والمواشى فى المستعمرات الوسطى ، والتبغ ، والأرز ، والثيلة فى المزارع الجنوبية هى الصور الأساسية للنشاط الاقتصادى . وبالقضاء على

فرنسا ، سنة ١٧٦٣ كمنافس استعماري زالت الحاجة الى التأييد العسكري الهندي . وفي النهاية ، أدى النمو الهائل للسكان في الجيلين السابقين للشورة ، الى امتلاك وديان الأنهار الداخلية بالقارة ، وانهماك المتعهدين الشرقيين الكامل على السواء ، الذين خلق لهم النمو السكاني مصدرا جديدا للثروة أعظم بكثير من تجارة الفراء ، والمستوطنين المندفعين بحشود كبيرة الذين تدفقوا عبر الشعوب الجبلية في منطقة ما وراء الأبلاتش .

والتناقض الأخير ، الملحوظ ، هو أن كثيرا من المجتمعات الهندية جسدت ما جاء الانجليز وغيرهم من الأوروبيين ليكتشفوه في العالم الجديد ، ولكنهم كانوا يتعرضون للتخريب والطرده الى الغرب اذا ما جرؤوا على بلوغ ما لم يبلغه الأوروبيون .

حقا ، ان كثيرا من المستعمرين جاءوا مغامرين عبر الأطلنطي ، لا لشيء أكثر من المكسب المادي ، الا أن كثيرين غيرهم رأوا « قفار » أمريكا الشمالية مكانا يمكن للأوروبيين المتذلين والفاستدين أخلاقيا ، والماديين ، والأنايين أن يبدعوا فيه حياة جديدة ، تتركز حول مفاهيم مفقودة من مدة طويلة ولكنها نافعة دائما ، وهي تبادل المنافع التجارية ، والتعلق بالقيم الروحية ، والعيش في جماعة مشتركة ، في نظام خاص . فاعتبارا من جون وينشروب ، الى وليام بن ، الى جون أدامز نجد فكره ازدراع الأوروبيين ونقلهم الى حياة جديدة ، يبنون فيها مجتمعا فاضلا ، في مدن مرتفعة قد أخذت طريقها خلال حياة الوافدين المليئة بالأحلام . ومع ذلك ، مع مرور الوقت ، وبعد أن أصبح الأوروبيون أكثر عددا ، اتضح بجلاء أن الناس في أمريكا الشمالية ، الذين كانوا متمسكين بهذه القيم ، بشكل جيد ، ويؤسسون مجتمعهم من حولهم ، هم الذين تعرضوا للطرده من الأرض .

ولم يكن الجانب الرومانسي في فكر التنوير ، في القرن الثامن عشر ، هو الذي بالغ دون غيره في تصوير الهنود على أنهم يمتلكون شكلا أفضل للحياة ، فقد كتب الشاعر الانجليزي ، توماس تراهيرن Thomas Traherne ، في بداية الستينات من القرن السابع عشر أن :

التراب احسن من التبر ، و ... الماء ، كل نقطة منه أغلى من الجواهر . وإن هذه كلها هي الكنوز العظيمة الخالدة : وكل ثروة عداها ، ايا كانت هي خبث بالمقارنة ... الشمس رائعة . والانسان مخلوق جميل ... النجوم تخلصنا من فوقنا ، والعالم مخلوق لأجلك .. لكن أن تزعم أن هذا المنزل لك ، وهذي الأراضي لفرك ، وهذه الحلية التافهة شيء جميل ..

فتلك همجية مفرطة ، وحماقة غريبة . . . لأن الطبيعة تكذب
كلامك . . . بهذا يمكنك أن تدرك من هم الهنود البرابرة ،
الأجلاف . اذ أنه لا توجد ، يقينا أمة للخلاص تحت قبة السماء
أكثر وحشية وسخافة من العالم المسيحي (٢٢) .

ترددت أصداء هذه الأفكار فى أروقة تاريخ القرنين السابع عشر
والثامن عشر . وكان المستعمرون ، رغم قسوتهم وجفاء عاطفتهم يدركون
أن المجتمع الهندى ، ولو أنه بدون مشاكلهم وشخصياتهم المزرية على
الاطلاق ، قد سبب العار والخزى للمجتمع الأبيض . ان المبعوثين
الانجليز ، للتحقيق فى ثورة بيكون ، سنة ١٦٧٦ ، كتبوا خطابا لاذعا
بالسخرية الى حاكم جورجيا ومجلسها التشريعى ، يطلبون منهم أن يوقفوا
اغتصاب الأراضى من المستوطنين الذين لهم حق شرعى فعلا فى كل الأراضى
التي تمكنوا من استغلالها ، ولكنهم « مازالوا يتوقون ، ويسعون الى حرمانهم
[الهنود الحمر] من المزيد ، لمجرد شهوة الترف دون أية حاجة فعلية
اليها ، مما يخجلنا ، ويجعلنا عارا ومصدر سخرية لأولئك الوثنيين
الأكثر منا أخلاقا » (٢٣) . وبعد ذلك بثلاثة أرباع القرن ، شجب حاكم
ماساشوسيتس توماس باونول Thomas Pownall المستعمرين : بشدة ،
لخرقهم لمبادئهم وقال انه « لم تكن هناك حدود للاحتيال ، وسوء
الاستغلال ، والكذب ، الذى عومل به هؤلاء الناس المساكين وناءوا
به » (٢٤) ، كما أن ادموند أتكين ، التاجر الهندى من كارولينا الجنوبية ،
والرجل الذى لا يعرف الهنود من حكايات قاعات الاستقبال وصالونات
الحفلات الرسمية ، بل من الاحتكاك الشخصى لسنوات عديدة ، قد كتب
سنة ١٧٥٥ :

لا يفهم شعب فى العالم مصلحته القومية ، ويناضل من أجلها
أحسن من الهنود الحمر ومع ذلك لا يوجد شعب على
وجه الأرض أكثر منهم انفتاحا ، ووضوحا ، واستقامة فى
معاملاتهم العامة . كما لا يفوقهم أحد فى التقيد بها
كان من السهل أن يبرزوا فى كسر كل المعاهدات الموقعة ، بين
الهنود والببيض ، والمناجى البشرية التي نتجت عن ذلك ، التي
خلقت الرعب للأولين (الهنود) بقدر ما كان الآخرون هم
المعتدين أولا ، أصبح الهنود يطردون تحت القهر والاستغلال ،
ودفاعهم عن حقوقهم الطبيعية (٢٥) .

لقد وقف المراقبون الأوروبيون طول الفترة الاستعمارية ، فى رهبة
أمام الخصائص الهندية الرئيسة من حسن وفادة ، وسفاخرة نفس ،

وشجاعة ، وروح الاهتمام المتبادل • وجسد الهنود الفضائل المسيحية بدون جهد ، تقريبا ، في ركن من الأرض كان الأوروبيون ، وهم يحاولون أن يقيموا فيه مجتمعا بنفس الخصائص المميزة قد انجذبوا الى الاتجاه المعاكس بفضل وفرة الطبيعة حولهم - نحو النزعة الفردية ، والولوع بالجدل والخصام ، وتوسيع الثروة ، واستغلال الآخرين من البشر ، ان مبشر بنسلفانيا المورافي (*) جون هيكويلدر J. Heckewelder كان واحدا من سلسلة طويلة من المستعمرين ، بدأت بروجر وليامز سنة ١٦٤٣ ، الذي دعا مواطنيه البيض أن يقارنوا سلوكهم الشخصي بسلوك الهنود الذين يعرفهم فكتب لهم :

ان كل ما يحيا على الأرض ، وكل ما ينبت من التربة ، وكل ما في الأنهار والمياه التي تفيض في مياثاتها ، قد أعطى لنا جميعا ، وكل واحد مؤهل لنصيبه • من هذا للبدا (المصدر) يفيض كرم الوفادة كما لو كان من نهره • ولا يعتبرون ذلك فضيلة ، وانما واجبا لازما ، ومن ثم ، فانهم لا يبحثون عن اعذار أبدا ليتجنبوا العطاء ، بل يوفرون احتياجات جوارهم بسخاء تلقائي من المواد التي يعدونها لاستعمالهم الخاص • فهم كرماء لكل ، بلا استثناء ، وسيتقاسمون مع الآخرين ، ومع الغرباء عادة حتى آخر كسرة خبز • يؤثرون على انفسهم ، فيفضلون أن يبيتوا على الطوى ، بدلا من أن يثقل كاهلهم انهم اهملوا واجبه فلم يشبعوا مطالب الغريب ، مريضا كان او محتاجا (٢٦) •

لم يكن هيكويلدر بحاجة الى أن يسخر من هذه النقطة - وهي أن هذه الفضائل الهندية تقترب جدا من مفاهيم المسيحية ، للدرجة أن معظم سكان المستعمرات وجدوها ملائمة وكافية للاعتراف بها •

هذا النوع من البراءة هو ما أغرى بالتدمير والابادة • فبتجسيد الهنود لبعض الفضائل التي كان الأوروبيون يأملون إعادة ترتيب نظامهم الحضارى عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا ، كان الهنود بمثابة رسالة مزعجة تذكرهم بانحطاط الرجل الأوروبي بدلا من تقدمه في محيط عالمه الجديد • ولعل الانجليز ، والألمان ، والاييرلنديين من أصل اسكتلندي ، والسويديين ، والفنلنديين ، والهولنديين ، والهوجونوت الفرنسيين قد هناوا أنفسهم

(*) المورافي : أحد أبناء الطائفة المورافية ، وهي طائفة بروتستانتية استلهمت تعاليمها من المصلح الدينى البوهيمى جون هس المتوفى سنة ١٤١٥ - (المترجم) •

عشسية الثورة الأمريكية « لتذليلهم القفار » ، وبناء الموانئ البحرية المزدهرة ، حيث لم يبقها أحد من قبل ، ولإقامة المدن والكنائس ، والمدارس والحكومات على امتداد آلاف الأميال من السهل الساحلي من ماين حتى جورجيا . لقد اختاروا مبدأ الانتاج وشدة الحرص على الاكتساب ، وباشروا كليهما بشكل مطرد ، الى حد بعيد . الا أن الناظر في أى اتجاه حوله ، يتضح له أن ذلك كله قد تم انجازه بضمن رهيب من الاستغلال ، ومعاناة البشر ، والاستعباد ، وتحويل الملكية واغتصابها .

المراجع

1. Quoted in Francis Paul Prucha, « American Indian Policy in Formative Years : The Indian Trade and Intercourse Acts, 1790-1834 » (Lincoln : University of Nebraska Press, 1970 rpr), p. 5.
2. John R. Alden, « John Stuart and the Southern Colonial Frontier : A Study of Indian Relations, War, Trade and Land Problems in the Southern Wilderness, 1754-1775 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1944), p. 177.
3. Quoted in Howard H. Peckham, « Pontiac and the Indian Uprising » (Chicago : University of Chicago Press, 1961), p. 86.
4. Ibid., pp. 97-98.
5. Anthony F. C. Wallace, « The Death and Rebirth of the Seneca » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1970), p. 120.
6. Ibid., p. 118.
7. Ibid., pp. 120-21.
8. Quoted in Peckham, « Pontiac and the Indian Uprising », p. 119.
9. Quoted in Prucha, « American Indian Policy », p. 19.
10. Quoted in Jordan, « White Over Black : American Attitudes Toward the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1968), p. 291.
11. (John Allen), « The Watchman's Alarm to Lord Nh » (1774), in Bernard Bailyn, « The Ideological Origins of the American Revolution » (Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 240.
12. Quoted in Ibid., p. 244.
13. Quoted in Gary B. Nash, « Slaves and Slaveholders in Colonial Philadelphia », William and Mary Quarterly, 3rd ser., 29 (1973) : 243.
14. Quoted in Jordan, « White Over Black, » p. 273.

15. Thomas Jefferson, « Notes on the State of Virginia, ed. » Thomas P. Abernethy (New York : Harper & Row Publishers, 1964), p. 155.
16. Pauline Maier, « The Charleston Mob and the Evolution of Popular Politics in Revolutionary South Carolina, 1765-1784 », *Perspectives in American History*, 4 (1970) : 176-77.
17. Quoted in Benjamin Quales, « The Negro in the American Revolution » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1961), p. 20 n.
18. Benjamin F. Stevens, ed., « Facsimiles of Manuscripts in European Archives Relating to America, 1773-1783 » (London, 1889-1895), 24, No. 2079.
19. Quoted in David D. Wallace, « South Carolina : A Short Story, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), pp. 91-92.
20. Jordan, « White Over Black », p. 208.
21. Quoted in Almon W. Lauber, « Indian Slavery in Colonial Times Within the Present Limits of the United States » (New York : Columbia University Press, 1913), p. 311.
22. Thomas Traherne, « Centuries, Poems and Thanksgivings, ed. » H. M. Margoliouth (London : Oxford at the Clarendon Press, 1958), I : 115, 117.
23. *Virginia Magazine of History and Biography*, 14 (1906-7) : 274.
24. Quoted in Georgiana C. Nammack, « Fraud, Politics, and the Dispossession of the Indians ; The Iroquois Land Frontiers in the Colonial Period » (Norman : University of Oklahoma Press, 1969), p. 31.
25. Jacobs, ed. « Atkin Report and Plan », p. 38.
26. Heckewelder, « Account of the History, Manners, and Customs of the Indian Nations, Who Once Inhabited Pennsylvania ... » (Philadelphia : American Philosophical Society, 1918), p. 85.

اقراء فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس مكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الغامضة
والتر الن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د . قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليم ماكروال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وانبييت	القوة النفسية للآهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتسلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمير الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف . ع . ا . اديكوف
ادب الاطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
الفصل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة 'لامريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السفينة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	د . رمسيس عوض
وبعدها	د . محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	فرانكلين ل . باومر
الفكر الاوربى الحديث (٤ ج)	شوكت الربيعى
الفن التشكيل المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥	د . محيى الدين احمد حسين
التنشئة الاسرية والابناء الصغار	

تأليف : ج . دادلى أندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د . جومان دروشندر	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد؟
طائفة من العلماء الأمريكیین	حسب الفضاء
د . السيد علىوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلین ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاریخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرمبىنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوین	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م بورا	التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د . سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د . اندرسون	
د . انور هبى الملك	الشارع المصرى والفكر
ولت وتمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد . س . هيس	تبسيط الكيمياء
جون بوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
الان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرأ يكراماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)
روى روبرتسون	الهيرويين والإيدز
دوركاس ماكلينتوك	مسور افريقية
هاشم النحاس	نجيب محفوظ على الشاشة

د . محمود سرى طه
 بيتر لورى
 بريس فيدوروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 أحمد محمد الشنوانى
 جمعها : جون ر . بورر
 وملتون جولدينجر
 ارنولد توينبى
 د . صالح رضا
 م . ه . كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د . السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 اريك موريس وآلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيسلر
 جون بورر
 ب . كوملان
 ر . ج . فوريس
 توماس ١ . هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمز
 ناجاي متشيرو
 بول هاريسون
 ميخائيل البى ، جيمس لفلواه
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 أبو القاسم الفردوسى
 بيرتون بورتر
 محمد قراد ، كوبرلى

الكمبيوتر فى مجالات الحياة
 المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية اسماك الزينة
 كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملاح فى الفن التشكيل المعاصر
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اخناتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 الفلسفة وقضايا العصر (ج)
 الاساطير الاغريقية والرومانية
 تاريخ العلم والتكنولوجيا
 التوافق النفسى
 الدليل الجيوجرافى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث غدا
 الانقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الأوركستراالى
 الشاهنامه (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 قيام الدولة العثمانية

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
قرايم زراشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براج وآخرون
ليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبتر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الاولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون فى اوريا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزآن) الفريد ج. بعلر	
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائي الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الازهر فى الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شسيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل

كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)	احمد محمد الشنواني
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم القطار	د . ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج	هـ ج . ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيياوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفل ٢ ج	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادي اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلو مالمينوفسكى
الكون . ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	جى كارفيل
تحول السلطة	ألفين توفلر

لا يبدأ تاريخ أمريكا بعام ١٤٩٢م على حد ما
تقول معظم كتب التاريخ، فقد وفدت إلى الأمريكتين
مجموعات من الشعوب المهاجرة من آسيا قبل
اكتشاف كولومبوس بالوف السنين، لكن معظم أبناء
تلك الشعوب التي عرفت باسم الهنود الحمر والتي
أسس بعضها حضارات راقية خاصة في أمريكا
الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية قد تعرضوا للإبادة
في كثير من المناطق وأجلوا عن ديارهم لإفساح المجال
أمام المهاجرين البيض لاستغلال تلك الأرض، كما
جلبت جشوداً من المواطنين الأفارقة إلى أمريكا للعمل
كعقيق في المناطق المدارية التي لم يكن السكان
البيض قادرين على العمل فيها بأيديهم..

ويميط هذا الكتاب اللثام عن تلك الصفحة
المجهولة من تاريخ تأسيس المجتمع الأمريكي حتى
عشية الثورة الأمريكية وعرض بأمانة ودقة علمية
لقصة اللقاء بين الحضارات المختلفة ثم الصراع والتفاعل
بينها ...